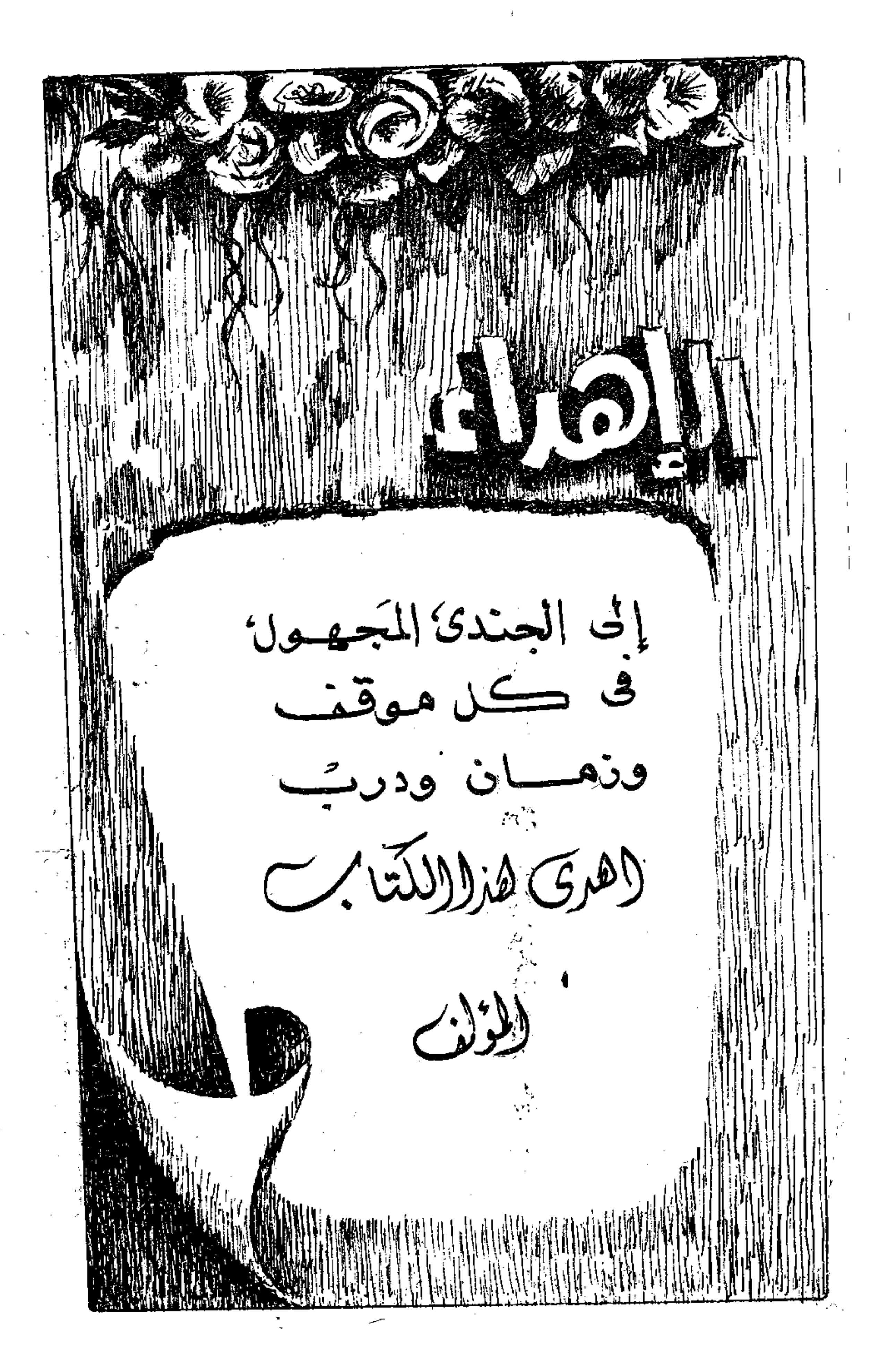

عقيد . م
مَحجوبُ بريرُ محَمد نور
مواقف على درب الزمان
الجزء الاول


إهداء
إلى الجندى المجهول
فى كل موقف
وزمان ودرب
اهدى هذا الكتاب
المؤلف


عمارة الشيخ هجو
الأهل والتراث


مواقف على
درب الزمان

تقـــديم

وأنا اقدم لهذا المؤلف الكبير ، أجدني أمام حقيقة تلح ان اتعجلها قبل الولوج الى شعابه واغواره العميقة، وتسفر هذه الحقيقة عن ذاتها فى اهتمامنا ومطامحنا تجاه المكتبة السودانية وما تشتمـــل عليه من قطوف فكرية أدبية سياسية اجتماعية او علمية صرفة . ومع ان هذا التنوع مظهر للثراء النسبى وأمر مطلوب لتنمية حصيلتنا القومية، الإ ان الأعمال ذات الخصائص المتنوعة الكبيرة تبقى دائماً قليلة محدودة ! فالحرج الإجتماعى المتوهم يمنع كثيراً من ارباب القلم عن الانطـــلاق برسالة التأليف الى منابع الحكمة والاصالة والعبر الإجتماعية الملهمة . وقد استطاع هذا المؤلف بجدارة وشجاعة أدبية فائقة ان يســقط حاجز «الحرج» ويبنى على ركامه صرحاً مـــن الذكريات والمواقف بما يمثل نبض الحيـــاة فى مختلف جوانبها خـــلال خمسين عاماً حافلة بكل جديد ومثير . ولئن كانـــت واعية المخضرمين تحس حـــرارة ذلك النبض بحكم المعاصرة والاسهام فى تكوينه بصورة أو أخرى، فان الكثرة الغالبة من شباب اليوم تجهل منابته والظـــروف التى يتدفق فيها كتيـــار عاصـــف ينـــزع الى التغيـــير والتحـــديث ، ولا بد لهم من المعـــرفة بالبدايات الأولى لمظاهر التطـــور وهم على اعتاب المسئولية الجماعية ليقودوا ويقرروا، بل ان منهم من يقود الآن ويقرر ! !

حاولت جاهداً أن اقف عند محور الفعل الذى ارتكز عليه سجل الاحداث التى حمل ثقل طرحها قلم كاتبنا الاستاذ محجوب برير. حاولت ان أستجوب خصوصية التجربة لا ستبطان الاسباب الأولى التى اكتنفت حياته وهو « الصبى» الذى بدأ يتفتح وعيه ويتذوق طعم الحياة المترعة بالرفاه والحب والاستقرار، ثم تقتلع الاعاصير فجأة دعائم ذلك الوجود لتقذف بالصبى فى فلوات واسعه وعرة المسالك والدروب ، ومن ثم تبدأ رحلته مع العواصف يتقلب فيها ويصنعها أو يشارك فيها، « فاذا هو » آخر الأمر محصلة لذلك الصراع ، تجربة ثرة بالفكر والعطاء ، تزاوج بين علمية التاريخ واسرار السياسة وحركة التحول الاجتماعى المتصاعدة.

ثم سرعان ما يناكفنى الخاطر . إن خصوصية التجربة تلك ، لم تقف عند علامة محددة من علامات الزمن ، حتى تجىء المرحلة التالية كرد فعل لاسباب مغايرة مـــن منبت وطبيعة وعلاقات تتجدد المشاهد ، لكن التيار الذى يسرى هو ذلك الشىء وليد

الحب والكره والرعب، مـــزيج تفاعل عناصره فى نفسه أو وليد السجية السهلة داخل التعقيدات المبكية ، ثم وليد الأمن والأمل مع استلاب القدرة على مكافحة الشرور من حولـــه .

ولما كانت مراحل النمو المشهود فى هذه المرحلة من العمر هى دائماً رومانتيكية الوجـــود رغم الألم، فقد عبر الصبى فوق برزخ رهيب، لم يمهله الموقف ليتدرج بالقوة الطبيعية التى تتناسب بتتالى سنين العمر المغالبة قهر الظروف والأحداث ، ولان التجربة الانسانية تختار دائماً موقعاً لها ، فهى هذه المرة حلت على فطرة تتداخلها اطلالة عبقرية المسرح ، ذلك ان الاحساس الذى كان يتبلور آنذاك هو احساس فنان تنمو بداخله بذرة الوعى المسرحى بالاحداث ، يرصدها ويشارك فى نسج خيوطها احياناً، وهو بهذا بطل المسرحيه قســـراً ، انموذج للكثيرين من ابناء وطنه، ثم يجىء ويكتب لنا هذه السيرة ، فيكون حقل التجربة القاسية قدرية لتصادم الاضداد . لنكشف نحن بفعل الموازنة الدقيقة مضامين العبر الاجتماعية فى هذا الكون الجميل مرة والقبيح مرات، ثم ونحن نتابع ،فاذا بنا إزاء علاقة ابوة مهيمنه مفرحة كرمز للأمل العريض وهو يشرق فى لحظات خاطفة فى اعماق الانسان ، فيبقى شعاع ذلك الاشراق شعاباً راكزة تطمئن العقل بان الاحساس بعدل الضمير أولى ان يكون دائماً المعول عليه حين تتضافر الاشياء على طمس معالم الدرب .

وتحتقب الأبوة دفقة رحيمة رحبة، رباطاً وجودياً مقدساً يقهر الاحساس بالخواء والعدم ، ولا يسمح لعوادى الزمان ان تنال من قداسته ، ثم تصير قمة تتألف عند اثنين ارتباط عدلا بكفاية الصدق من خصائص القيم الخيرة فينا وكثيرا ما تجسد الامل كائنا حياً ـــ كما هو الحال ها هنـــاله نظاير واشباه فى كل مستوى إنسانى ، فهو ما كان بين ابراهيم واسماعيل عليهما السلام . وبين «دانتى» واستاذه الشاعر المعلم «فيرجل»، وفى كل المواقف تتجه صحبة الطرفين الى مقام الحق والعدل ومشارف الوجود الرائع النبيل .

في ثنايا ذلك العرض التاريخي الحصيف ، يبسط كاتبنا الاستاذ محجوب برير محمد نور واقعاً ممتعاً للاحداث ، ألا وهو ربط النصوص الأدبية من شعر وماثورات فولكلورية وفنون ومواقف وغيرها بعنصر البيئة الإجتماعية،وهو بهذا الربط المحكم يجعل هذا الميراث في موقعه الحقيقي ، جزءاً مكملا لخارطة الحياة التي تجري فيها احداث التاريخ ، إدراكاً من الكاتب ان الابداع هو المرآة التي تعكس واقع الجماعة أو الامة ،لانه يعـين المجتمع انثروبولوجياً، ليعرف نفسه ويفيد من الخيرات الموروثة في امتلاك الاسباب التي تهزم التخلف وتجعل الفكر الجماعي قائدا بقناعة الجميع ، فتنتفـي دواعي الامتنان والاستعلاء على التراث ، ويجيء عطاء الفرد اعترافاً بفضيلة الدفع الحضاري في بلورة مضمونه وتشكيله .

ثم اتابع فأجد أن الكاتب يأخذ طريقه عند محيط الدائرة ، دائرة المعرفة ، فهو ينطلق من الواقعة الصغيرة ، إلى الأحداث الكبرى ، ثم يرسل بصره بعيداً داخل وخارج الدائـرة ليضيف للوحة مزيداً من الخطوط والظلال ، وبهذا الاسـلوب يوجد الرابطة الفكريـة بقناعة المؤمـن ، فيورد الآيات والأفكار والفلسفات بالمحتوى المقصود ثم يعقب عليها ، والكاتب بهذا الطرح يتعمق إلى الموازنات الدقيقة التي تسهم في طي المسـافات الزمـانية والمكانية ، وعند هذا الحد مـن شمول الفكر يظهر الانسان جلياً بمحوره وحـواره ، مؤهلا لمعرفة حكمة خلقه في هذا الوجود ، وهو بهذا التوازن بين الخلق والالهام والعلم يستطيع ان يجعل من نفســه ملبياً لخصوصية حكمة الخلق ، بتحمله الرسالة التي أوكل إليه ايفاؤها بين الناس أجمعين .

أيها القارىء العزيز :

إنها محاولة ، حاولت أن أعبر بها عن المتعة التي صادفتني في قراءة ما سجله لنـا الأستاذ برير ،فهي مشاهد انسانية مشت مشـوارها على تراب هذا الوطن وتقف اليـوم فكراً جريئاً شجاعاً حكمة وعبرة للآخرين ،بل إن مثل هذا المنحى من التحرير سـوف يؤطر لمنهج جديد للرؤية في تحليل وتعميق فهم المواقف التي شوهت وطمست دلالاتهـا الموحية ، فصدرت باطلا معللا بهامش القول ، دون سبر النوايا لحركة تاريخنا المعاصر .

ب : أحمد محمد شبرين .
الأمين العام للمجلس القومي للآداب والفنون
صفر ١٤٠٥هـ

مقـــدمة

من تجارب الإنســان ومدركاته، «كانت الحضارة»، ومن خلاصة الفكر والسـلوك جاءت الاعراف والاخلاق والقوانين . حق أن معظم النار من مسـتصغر الشرر .

فما هذا الوجـود – بكل مافيه من تناغـم أو تضـاد – إلا أثر عريض لتلك الابداعات الصغيرة، والاضافات الموجبة، التي فرضت بقاءها على الزمن، وكانت من الإنسان و إليه .

إن حياة كل منّا في حقيقتها حدث قائم بذاته، ورغم اننا جميعاً نصاغ في قالب البشرية الواحد ، إلا ان كل فرد فينا نسـيج وحده ، فذ لايماثله آخر ، كتبت حظـوظه كلها أو بعضها قبل ان يولد ! ! ضعفاً أو قـوة ! ! قبحاً أو جمالا ! ! سعادة أو شقاء ! !

نحن نخرج إلى الدنيا بكفاءات ومياسم موروثة من أبوين لم نشارك في اختيارهما، ثم ننخرط بغير وعى ولا إرادة في حياة أسرية وبيئة اجتماعية ، تملى علينـا عقائد الـدين وشرائع الجماعة ، وضوابط السلوك ، وانماط القيم .

وفي عباب الحياة تتعاورنا الأحداث ، وتشكلنا الظروف لتحدد اتجاهاتنا ، وتقدر مشاربنا ، وتقود خطانا في الطـريق التي تريد ! ! ثم تجيء إرادة الانسان مكملة لمشـيئة القدر ، فمن الناس من ترفق به الحياة ، فيمضي في زحامها راضيـاً قانعاً بما يكـون ! ! ومنهم من تضطرب به الحال، وتصطرع في «ذاته» حقائق الاشياء في عنف يولد فيه وجدانا جديداً ووعياً مغايراً بالمسلمات التي تشربهـا من قبل ، فاذا هو يرفض الانقـياد والتسليم بما هــو كائن من الفكر وكافـة المواريث ، فتكون ثورته استشرافاً لآفاق جديدة وعوالم أرحب، ولايكتفي بالوقوف منها موقف المتأثر بما يجرى بين يديه ، بل يحـاول ان يضـع بصماته على الأحداث والأشياء والمعقولات .

وقد يحس البعض منا أن دوره في الحيـاة قد تجاوز حـدود ذاته ، وترك أثـراً لايمحى من وجه الوجود ، فيدفعه ذلك الاحساس لتسجيل تجربته ، اثراء لحـركة الانسانية في نزوعها الدائم صوب معاقد الخير والفضيلة .

ويقيني أن الاسهام الايجابي في اعلاء شأن الحياة — أياً كان حجمه ونوعه واثره — لهو اضافة ينبغي ان تعرف وتستخلص قيمتها ، سيان في ذلك القمم التي ارتادها الانبياء والقديسون والعباقرة ، أو الاعماق التي تردى فيها الأراذل والمجرمون والجبابرة !! فالمعرفة بهؤلاء وأولئك ضرورة لادراك نوازع البشر علواً وسفولا .

بهذا الفهم — عزيزي القارىء — أجرؤ على كتابة سيرتي الذاتية وتجربتي مع الحياة ، واعرض من خلالها حركة المجتمع وأحداث التاريخ ، بتركيز وتحليل لمجريات حقبة أحسب ان فهم حقائقها واستخلاص عظاتها ومعطياتها ضرورة لتجنب المزالق ونحن نعيد صياغة الحياة . وقد حاولت جهدي ان افلت من دائرة الانفعال الذاتي بالاحداث ، تكريساً للحقيقة الموضوعية رعاية لحرمة التاريخ وإيثاراً للحق والخير والفضيلة . — وبالله التوفيق والسداد


سنجة / الحواتة / السوكي
ومهد الذكريات
١٦

* ١ *

بزغ فجر حياتي فى الخامس عشر من شهر اكتوبر عام ١٩٣٤ بمدينة سنجه من أعمال مديرية النيل الأزرق، وفيها كانت بداية رحلتي مع الأقدار مداً وجزراً، كانت دارنا — وهي تتهيأ لإستقبالي من رحم الغيب — تغرق في هدوء مشوب بالقلق والترقب، وما كان يعكر صفو ذلك الهدوء الا خفق القلوب الواجفـة ووقع أقدام نسوة يذهبن ويجئن في حركة لا تنقطع، هذه تحمل طستاً فارغاً، وتلك تحمل اناء تتصـاعد منه روائح البخور المعطر سـحائب تملأ أرجاء المكان، وأخرى تنوء بثقل ماعون ممتلىء بالماء الساخن. بينما تدمدم عجائز النسوة بتعاويذ وضراعات حارة أن يكون الله في عون أمي وهي تعاني آلام المخاض، وكلما ارتفع صوت أمي بصرخات الألم تعالت الضراعات وازداد القلق ووجفت القلوب.

لم تكن تلك هي المرة الأولى التى تضع فيها أمي جنيناً، فقد ولدت من قبل طفلة أطلقوا عليها اسم «آسيا» تيمناً بامرأة فرعون الصالحة، التى أورد ذكرها القرآن الكريم، ولكن «آسيا» فارقت الحياة ولم تكمل عامها الثاني بعد، كنت لحظتئذ أنطلق من رحم الغيب أشارك أمي صرخات الميلاد !! فمزقت صرخاتي ذلك الهدوء القلق، وتحولت التعاويذ والضراعات إلى زغاريد جلجلت في سماء حي الجامع الكبير، و .. جئت أنا إلى الدنيا !!

غذتني أمي — وأنا طفل رضيع — من ذلك النبع الدافق بالحب والايثار والجلد في مغالبة الظروف، وغمرني أبي — له الرحمة — بفيض من حنانه وقوة شخصيته وبصره النافذ بالأمور، أما النيل الأزرق الذى احتضن طفولتي وباكورة صباي فقد صبغ وجودي كله بذلك الهدير والعنف والصخب، ومن أقصى بلاد الدنيا كانت أصوات القذائف وأزيز الرصاص وصرخات الجرحى والمكلومين تملأ وجداني وحسي وشعوري لست سنوات هي عمر الحرب العالمية الثانية.

حتى ذلك الحين، لم اكن أعرف من الحقائق سوى ظلالها، فكان أول حادث تسربت أصداؤه إلى نفسي، ما يعرف في تاريخ مدينة سـنجه عبد الله باسم (نار بت الحزين) وهو حريق كبير شهير قضى على الأخضر واليابس، والتهمت نيرانه كل شيء حتى المنازل !! ومن بينها منزلنا، فانتقلنا إلى «فريق السوق» وشيد لنا أبي داراً فخمة استولى

عليها البعض دون وجه حق عندما قلب الدهر لأبي ظهر المجن !! فقد اغتنم هؤلاء سفر أبي إلى غرب السودان فدفعهم الطمع في متاع الدنيا القليل ، وشيدوا لأنفسهم على أرض دارنا جسراً إلى دار الحساب والعدل ، تغافلوا عامدين عن أمر الله تعالى (يا أيها الذين أمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل)

كانت أول كلمة ترسبت في أعماقي عن الدنيا وما يجرى فيها من صراع وعنف ودمار هي كلمة « الحرب » لكثرة ترددها على أفواه الناس يومذاك ، وكانت سماء مدينة سنجة موطني مجالا لحركة الطائرات الحربية لقربها من ساحة الحرب ، حيث يواجه أخواننا الأحباش عسف الطليان وبطشهم بغير رحمة . مما أضطر كثيراً منهم للهجرة واللجوء إلى مدن السودان الشرقية فأصبح لهم في « سنجة » حي يعرف باسمهم وهو « فريق الحبش » واتخذوا من جلب الماء من نهر النيل وبيعه للناس مهنة يرتزقون منها . حتى اذا تهيأ للامبراطور (هيلاسلاسى) فرصة لجمع أنصاره ومواطنيه مرة أخرى ، ساعدته بريطانيا للوثوب على الغزاة الطليان مخترقاً أرض المدينة — التي ترعرعت في جنباتها يافعا — ليعبر حدود بلاده عن طريق « الكرمك » وهناك قاد المقاومة الوطنية فيما يشبه حرب العصابات التي أخذ بها (تيتو وسلازار وفرانكو) في أوربا ضد دول المحور ، وقد نجح (هيلاسلاسى) كما نجح أولئك في شل حركة العدو وارهاقه ، فكان النصر لهم وللحلفاء آخر الأمر .

ارتبطت صورة الأحباش في ذاكرتي خلال تلك الفترة بواحد منهم لم تمح الأيام صورته المميزة ، وهو رجل عبوس صارم القسمات ، متوحش النظرات بدين عظيم القوة ، اعتاد أن يجلس على الدوام امام دكان أبي ، يرتدى اسمالا بالية متسخة شأن غيره من «العتالة» حاد الطبع لا يخرجه عن صمته الا الجليل من الأمور ، ولا يبرح مكانه الا للعمل أو لقضاء حاجة ملحة . عرفت فيما بعد أن اسمه « قرماى » .

كان « قرماى » ظاهرة فريدة شغلت عقول الكثيرين وأغرتهم بسبر أغوارها البعيدة فراحوا يتنطسون أخباره في أهله وبني جلدته ، وعادوا يزعمون أن وراء الصمت العبوس والتوحش سراً دفيناً ! وأكد البعض أن السر يتعلق بحياته الزوجية ، فقد كان سوي

الخلق فيما مضى ، يحب زوجته حباً لا مزيد عليه ، متيم بها مفتون ، فأدركت زوجته مدى سحرها في نفسه وتأثيرها عليه ، فتملكها شيء من غرور الأنثى ، وافتنت في تعذيبه واذلاله كيف شاءت ، وهى بذلك سعيدة قريرة العين ، وكان « قرماى » أطوع لها من بنانها لا يعصى لها أمراً ، كان سعيداً بذلك العذاب في سبيلى مرضاتها ، وكان أسداً هصوراً بين أضرابه يخشى بأسه الجميع وحملا ووديعاً بل فأراً في بيته !! فأحست الزوجة الجميلة يوماً أن « قرماى » لا يحمل مواهب الرجل الذى تريده ، فلفظته من حياتها واحتقرت حبه الذليل ثم خرجت تبحث عن رجل آخر !!

قادها الطموح فربطت مصيرها بضابط من الطليان ، فصـــدم « قرماى » بالأمر صدمة لم يفق منها بعد !! ومنذ ذلك الحين أقام بينه وبين الناس برزخاً من جفاء ، ونذر نفسه للغربة والصمت ، ونفسه تغلى كالمرجل حقداً وكراهية للبشر .

عاش « قرماى » بين الناس غريباً عنهم !! قد وقر في وجدانه أن الأصل هو عداوة الآخرين ، والحب استثناء نادر الوجود ، علمته الحياة أن رحابها غابة لا خير فيها ، يسحق الانسان في دروبها أنبل المشاعر وأعظم القيم ، هكذا أدرك الحقيقة المقيتة بعد أن هجرته تلك الزوجة لافراطه في حبها ذات يوم ، فابتــعد عن الناس ، لا صديق ولا أهل ولا رفيق سوى حرفته ومصدر رزقه «العتاله» فهو لايبغى من الحياة شيئاً ولا تطمع نفسه فى أمر وإن عظم ، من غريب أطواره أنه يظل يعمل في حمل البضاعة وتفريغها في المخازن بجد ونشاط وإهتمام حتى يجمع قوت يومه ذاك ، فاذا ضمنه وأودعه جيبه وأطمأن أصبح من المستحيل أغراؤه بالعمل ساعة أخرى ، فهو شديد الإيمان بأن لكل يوم رزقه لا يتقدمه ولا يتأخر عنه ولو حاول الانس والجن وكان بعضهم لبعض ظهيرا .

كان لأبي زوجتان اثنتان غير أمي ، وقد آثر الا يجمع بين زوجاته في دار واحدة حرصاً منه على علائق الود بينهن ، فكان لكل زوجة بيت ودار للضيافة يؤمها القاصى والداني ليل نهار ، عاش ميسور الحال عظيم الطموح باسطا يده كل البسط ، حريصاً على أن يبذر في أبنائه خلة الكرم والمروءة ونجدة الملهوف ، ما فتىء يضرب لهم الأمثال تباعا حتى في أكثر الظروف عسراً وشدة ، فتمثل به بعضهم وحذوا حذوه في الحياة ، وتقاعس آخرون عجزا أو أثرة .

ولم يك بدعا أن يجمع أبي بين حبه للحياة وفتنتها من مال وجاه وبنين وبنات وذلك النزوع الصوفي الجارف الذى يدفعه لعمل الخـير واكتساب الفضائل ورعاية حرمات الدين !! فقد كان يمتثل قوله تعالى (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك) كان أبي صوفيا في مسلكه وتعامله مع الناس، شأنه في ذلك شأن معظم أهل السـودان يومئذ، اولئك الذين تشربوا عقائد الاسـلام في أوعية التصوف ارثا موروثا عبر القرون والأجيال والحـقب.

كان التصـوف سمة الفئة الغالبة بين طبقات المجتمع السـودانى حيث شهد عصر الفونج ١٥٠٤ — ١٨٢١ م ذروة الإنتماء والارتماء في أحضان الدين، فاصطبغت مظاهر الحياة كافة بروح الاسلام ونزعة التصوف، ولعل فيما أورده المؤرخ الصوفى «محمد ود ضيف الله» في كتابه «الطبقات» اشارات إلى ذلك الرداء الجاسيل الذى تلفحـت به الحياة وتسربل به الناس اعلاهم وأدناهم في ذلك العصر المجيد.

ومهما تشعبت المسالك بالطرق الصوفية في السودان، فهى جميعاً تأتلف وتتوحد في رسالتها وطقوسها وممارسات أفرادها، فالإيقاعات الصاخبة والأمداح المنغمة والحركات الرتيبة سمة مشتركة بينها لإقامة الأذكار فى المناسبات والمواسم، وقلما يخلو ليل القرية أو المدينة من هدير الطبول وهينمة الذاكرين وصيحات المجاذيب، وينتظم ذلك البلاد كلها في الأعياد والحوليات وذكرى ميلاد الرسول الكريم، وقبل أن يعرف الطب الحديث طريقه للناس، كانت الطرق الصوفية ملاذ المرضى وذوى الحاجات والهاربين من قيظ الحياة إلى ظلال الدين، فهى تمدهم بالتمائم والمحاية والبخرات وغير ذلك من ضروب الطب القائم على معطيات التجربة والحكمة الالهية وأسرار الولاية.

ظلت هذه التوجهات الدينية قائمة في النفوس جيلا بعد جيل، ولم يخب أوارها رغم تعاقب السنين وتكالب الناس على ملذات الحياة! وكان أبي نفساً تتخذ من التصوف جسراً لنعيم مقيم، فان لم تكن متزيئة بأزياء السالكين أو تغرق في تصرفاتهم، فهى في جوهرها صفاء مطلق هو أعلى مراتب النزوع وأحلى ثماره، ولئن كانت لا تنسى نصيبها من الدنيا، فهى أشد تعلقا بما وعد الله به المتقين من عباده في الدار الآخرة. سلك أبي (طريقة الختمية)

ي مطلع شبابه، وقد ورث ذلك الإنتماء فيما ورث عن أسلاف والدته الاقربين، واذكى جذوته في وجدانه صهره الخليفة بابكر الشمباتي أحد أقطاب طائفة الختمية بتلك الجهات، وكان قد نشب صراع مهول بين هذا الإنتماء وما تشربه من أبيه يوما من ولاء لطائفة الأنصار وفكر المهدية، ولكن وفاة أبيه — وهو بعد في سن الخامسة — ونشأته في كنف أخواله سحقت ذلك الولاء الفطير وكفلت الغلبه لإنتمائه للختمية، فأصبح من أعلام خلفائها وأشدهم غيرة وتحمساً لها. فطفق يتصيد المناسبات لاقامة ليالى الذكر ومديح المصطفى صلوات الله وسلامه عليه. ودرج على قراءة مولد النبى صلى الله عليه وسلم في جماعة من أقطاب الختمية بالمدينة ليلتى الإثنين والجمعة من كل أسبوع ، وما أكثر ما يكون ذلك بداره بعد أن يهيء للأمر عدته ، فعند الليل يقبل أضرابه زرافات ووحدانا ، وما أن ينتظم عقدهم حتى تتعالى أصواتهم بالقراءة والصلوات ، ثم ينخرطوا جميعاً في حلقة الذكر للحى القيوم .

حتى اذا كلت الأبدان وارهقها السعى الحثيث على مدارج الكمال والبشريات ، جيء بالثريد أطباقا ملأى بالخبز والأرز واللحم ، وأشرعت الأيدى حراباً في الأطباق، عندئذ تزيغ الأبصار ، وتبلغ البطون الحناجر !! ثم تحمل الأطباق الخاوية صرعى ويستنيم القوم إلى خدر الشبع والامتلاء ، فتدور عليهم أكواب الشاى تنبعث منها رائحة النعناع والهبهان والقرفة وتمتزج الضحكات بمشاعر الرضا والود .

حمل أبي لقب « الخليفة » فكان أهلا له قائما بحقه ، لا يزوى يده ولا وجهه عن الخير يأتيه طواعية ورغبة، ولا يرضى عن الاحسان بديلا، فاذا تفرقت جموع الذاكرين وهجع الناس إلى مراقدهم ، انصرف لأداء ما افترض على نفسه من أوراد وصلاة وتلاوة فيقوم الليل إلا قليلا .

روى أبي لبعض أهله يوما ، أن سنة من النوم أخذته ، فرأى فيما يرى النائم رجلين عرفهما بوصف الأحباب والمريدين من قبل ، ثم أكد له كلاهما ذلك الوصف بالخبر اليقين ، قال الأول وكان يحمل بيده سيفاً صقيلا : أنا الشيخ يوسف أب شرى جئتك بهـــذا السيف هدية !! ومن عجب رأى أبي زوجته « دار السلام » تقف خلف الشيخ ترمقه

بفرح وسعادة ، ثم خاطبه الرجل الآخر ، وكان يحمل بيده مصباحاً وهاج الضوء فقال (أنا السيد عبد الله المحجوب) جئتك بهذا المصباح هدية ومكرمة !! وكانت أمي تقف من ورائه مشرقة الوجه يغمرها الرضا ، فتقدم أبي نحو الشيخ يوسف ، وتناول منه السيف وأخذ يطوح به في الهواء في زهو واعجاب ، فانكسر السيف في يده وطار أكثره بعيداً وغاص في التراب !! وخطا الشيخ يوسف بضع خطوات وئيدة فأخرج جزء السيف الدفين ثم نظر مليا إلى السيد المحجوب وإبتسم وهو يتوارى في حجب الغيب !!

اتجه أبي صوب السيد عبد الله المحجوب ، وحمل عنه ذلك المصباح الهدية ، فاذا بنوره ينتشر تارة وينقبض أخرى ، ثم لا يلبث أن يملأ الأكوان ضياء وبهاء ، وفي غمر ما أصابه من الدهش والاعجاب حدثه السيد المحجوب قائلا « هذا المصباح سيضيء لك حياتك !! ولسوف يمتد أثره لك بالخير فيما بعد الحياة الدنيا !! فأحرص عليه الحرص كله !! » فشكره أبي على هديته وقبل يده في إجلال عظيم ، وما هي الا لحظات ، حتى توارى الرجل عن الأنظار .

لم يمض عام واحد على تلك الرؤيا العجيبة المثيرة ، حتى رزق أبي من زوجته دار السلام مولوداً ذكرا يؤكد الناس أنه كبير الشبه بالشيخ يوسف أب شرى ويؤكدون أنه جاء إلى الدنيا مختوناً !! وذلك ما دعا أبي ليطلق عليه اسم « يوسف » تيمناً بذلك الرجل الصالح . ثم ولدت أنا من بعد ، ويجزم الذين عرفوا وصف السيد عبد الله المحجوب أنني أحمل بعض ملامحه وقسمات وجهه ، فلم يتردد أبي أن يطلق على اسم « محجوب » فألا حسناً بالصلاح والكرامة ، هنا دار نزاع وجدال بين أبي وأمي ، فقد كانت تصر على أن أحمل اسم جدى (برير رحمه الله) وهو أحد فرسان الثورة المهدية المبرزين وكان اول أمره رفيق علم للامام المهدى عليه السلام تربطه به أواصر قوية من خلق ودين ، وهذا ما جعل جدتي تصر على تسميتي باسمه تيمناً وتخليداً لذكره وفخاراً بسيرته رغم تمسكها بالولاء للختمية ورغم ما يكنه أبي من حب عظيم لأمه ، فقد ألفى نفسه أكثر ولاء ووفاء لرؤياه تلك فلم يأخذ مما قالت !! ولكنه بقي في دخيلته مؤرقاً كاسف البال على ما فرط منه في حق أمه والتمرد على رغبتها !!

وكما جاء في الرؤيا تماماً ، فان أخي « يوسف » لم يبلغ العامين من عمره حتى انتقل إلى جوار ربه راضيا مرضياً ، وكان أبي قد حدث برؤياه بعض أهله ومعارفه وخاصة أصدقائه فلما توفي « يوسف » أدركوا ما كان عليه الرجل من الصدق والصفاء ، أما أنا فقد ترسخ في وجدان أبي — تحت تأثير تلك الرؤيا — اعتقاد جازم بأن لى في الحياة شأناً بلغه لا محالة ، فأسبغ على ثوب رعايته وحبه بغير حدود ! وفي مراحل العمر المختلفة كان يعزى عثراتي وظواهر الاخفاق في حياتي إلى ما شجر بينه وبين أمه من نزاع حول اسمى ! وذهب به الظن أنه لو أرضاها وأخذ برغبتها لمضت بي الحياة هوناً رخاء صوب غاياتها العظام التى أفصحت عنها الرؤيا من قبل .

ظلت تلك قناعة تثير في نفس أبي كثيراً من وخز الضمير والشعور بالذنب عبر السنين ، فآلمنى ذلك — وأنا ضابط بالمدرعات أحتقب الطموح والآمال العراض — فدار بيني وبينه هـذا الحـوار :—

قلت : أستطيع حل هـذا الإشكال يا أبي ! !

قال : كيف يكون ذلك ؟

قلت : اضيف اسم جدى « بربر » إلى اسم « محجوب » ليصبح اسمى بين الناس

(محجوب بربر محمد نور) فما رأيك ؟

قال لهفا : هل ذلك ممكن الحـدوث؟

قلت : انه أمر جد يسير ، أتحصل على إعلان شرعى بالإسم الجديد وغدا أفعل إن شاء الله وقد فعلت ، وصدر الإعلان الشرعى بالإضافة ، فحملت صورة منه إلى فرع شئون الضباط حيث تم اعلانه في الأوامر العمومية وأصبح اسمى الرسمى بين الناس. ثم أطلعت أبي على ما كان فأشرق وجهه بالرضا والسعادة وأغمض عينيه كمن يغفو بعد سهر طويل وسمعته يغمغم وهو على تلك الحال :

الحمد لله .. الحمد لله . أبي .. هذا الرجل المثال ! !

فان ظن بعضكم — وهو محق فيما يذهب اليه — أن قلمي يجرى كثيراً بمدحه وتقريظ شمائله تحت تأثير عاطفة البنوه الجارفة ، فذاك جانب من الحقيقة لا أنكره ، ولكن لباب الحقيقة وجوهرها الغالب أن الرجل كان مثالا بين الناس ، في خلقه ، ونجاحه وفشله ، وزهده ، وتدينه ، وعلاقاته بالآخرين ، وما راء كمن سمع !!
ومرت الأيـــام ..

والحلم لا يزول عن مخيلة أبي ، ولا يبرح تفكيره أبداً ، وكان له فيما تحقق منه دافع لمزيد من الايمان بصدق الرؤيا فقد انجب ولدين ، سيفا ومصباحا ، فمات الأول كما انكسر السيف ، وبقي الآخر ينمو مع الأيام ، فلم يبارح أبي ايمانه بأنني ذلك المصباح الذى سيضىء له ولمن حوله دروب الحياة ، ويمتد أثره بالخير فيما وراء الوراء !!!

كان لأبي أولاد كثيرون غيرى ، أبناء وبنات ، يكبرني بعضهم ويصغرني آخرون ، يحبهم حباً جماً ويُفنى ذاته من أجلهم ، ولكنه رغم ذلك ميزني عنهم وشدني اليه برباط وثيق ، فكان يصر على ملازمتي له في الحل والترحال ، يبقيني إلى جانبه ويغذيني قيم الخير سلوكاً في الحياة ، وينفث في روحي ذوب نفسه العالقة بأسباب السماء .
كان مؤمناً برؤياه جملة وتفصيلا !!

فأصبح في حرص يعقوب على ابنه (يوسف) عليهما السلام ، وظل القرآن الكريم ابان غربته بين الناس ، لا يفتأ يحفظه ويعلمه ويهدى بنوره ويطهر بآياته قلبه من الشرور والخطايا ويتقرب بتلاوته إلى الله رب العالمين .

كنت لصيقاً متأثراً به في كل شيء ، فتسرب ايمانه بتلك الرؤيا إلى نفسي قطرة بعد قطرة !! ودونما وعى مني اسلمته قيادى وبذلت له الطاعة جزافاً بغير حدود ، موقنا في قرارة نفسي بأني أسير لغاية معلومة ، وان قدرى ومصيرى في الحياة قد حددته الرؤيا قبلا ، وما أنا الا أداة في يد الغيب المجهول ، يحركها كيف يشاء .

كان يحلو لرفاق صباى وزملاء دراستي أن يطلقوا علىّ لقب (ابن العز) وأحسبهم في ذلك صادقين ! فقد سبقت الاشارة عرضا إلى أن أبي كان رجلا ميسور الحال باسطا

يده كل البسط ، وهو وصف تحكمه موجبات التواضع كثيراً ، والاحجام عن ذكر الحقيقة حين ترفع من قدر المتحدث ، خشية التباسها بنزعات الغرور والكبر ، نعم فالحق أن أبي كان في عداد قلة من أثرياء المدينة وأساطين تجارها وهو فيهم أنف لا ذنب !!

وبالطبع نالنى من ذلك الخير الدافق نصيب ، فكنت وقلة من أبناء ذوى اليسار وكبار الموظفين نلج ساحات العلم في المرحلة الابتدائية عند مطلع العام الدراسى في أبهى حلة وأكمل زى !! جلابية وعراقى وعمامة بيضاء كلها جديدة وحذاء فاخر جديد ، وهو أمر قلما يتيسر لعامة التلاميذ يومئذ ، فكانوا يرموننا بشيء من حسد وغيرة وجفاء !! ومن قبيل ذلك اطلاقهم على الواحد منا لقب (قندول عيش الريف)!ورغم ذلك وغيره من مظاهر العداء الصبيانية ، كان لى منهم رفاق أصدقاء ، كسبت ودهم بكل سبيل .

كان يحلو لىَ دائماً أن أدعو اترابي لزيارة معاصر جدى لامى ، فجدى إلى جانب إنشغاله بالتجارة كان يملك عدداً من معاصر الزيوت ومصنعاً للصابون ، وهى معاصر من ذلك النوع البدائي المعروف ، يتألف من جذع شجرة كبير ، ملحقة به بعض الأدوات الخشبية فيما يشبه « الساقية » ، تدور المعصره منها بواسطة جمل قوى معصوب العينين يجر في دوراته ساقا خشبية تعرف باسم « الولد » فيتولد الزيت منها ويتجمع « الأمباز » على الأخشاب،وقد صور هذا النوع من المعاصر البدائية الفنان (ابراهيم شداد) بشيء من ذكاء ودقة في فيلمه الرائع (جمل) .

كنت واسطة العقد بين رفاق يتراوحون بين الفقر والغنى ، فكنا نقضى وقتا محبباً أثيراً في تلك المعاصر حيث يجود علينا العم « بريقع » بالمزه ويملأ جيوبنا بحبات السمسم ، وفي بعض الأحيان تتألق أريحيته فينفح الرفاق شيئاً من « زيت الولد» أو قطع الصابون فيشكرونه على سخائه وهم يعلمون انه بمال الآخرين يجود !! وهو اذ يفعل ذلك لا يحس حرجاً ولا مساسا بمقتضيات الامانة والذمة ، فقد أفنى عمره كله في هذا المكان حتى أصبح المسئول الأول عما يجرى فيه ، فحطم الزمن في نفسه حاجز الملكية القائم بينه وبين مخدمه،وجعله ذرة من المكان والكيان لدرجة الحلول !! فغدا بذلك مالكا مملوكاً!!وإن امتدت يده بالعطاء للآخرين فهو انما يهب من نفسه ووجوده .

أذكر — في إحدى زياراتي للمعاصر — أني وقفت مأخوذا بروعة هذا الاختراع ، وظللت أتابع المعصرة وهي لا تكف عن الدوران ،وكانت فاطمة بنت العم بريقع تقف إلى جانبي غير آبهة ، فسألت العم بريقع عن سر عصب عيني الجمل بالقفاف وهو يدور بحمله الثقيل ، فاجابني بداهة من معين خبرته الطويلة :— لكي ينسى نفسه وما حوله من الأشياء والكائنات . ثم أجال عينيه في المكان واردف قائلا ، كذلك نحن يا بني ، لا نختلف عن الجمل في هذا الأمر ، ولعل الفارق الوحيد ، أننا ندور في عباب الحياة وأعيننا مشرعة في الزمان والمكان أما العصابه فقد جعلت في حرز مكين ، تلك حكمة الله في خلقه ، وسكت برهة ريثما يلتقط أنفاسه وقال « لو رفع الله الغطاء عن بصائر الخلق لأصبح الناس غير ما هم عليه ، وعلى كل حال ذلك غطاء موقوت يرفعه الله عن بصائر العباد فيما بعد الحياة الدنيا ، هنالك يرى الناس حقيقـــة ما كانوا عليه فيندمون أو يفرحون ، كل بما كسب رهين . » .

كان صوت العم بريقع ينحت في وجداني شعوراً بالمهابة والاجلال والتقديس لمعان لم أعرف حقيقتها الا في وقت لاحق حين درست الفقه والفلسفة ، فترحمت كثيراً عليه وأنا أتلو قوله تعالى :— (لقد كنت في غفلة عن هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) .

بدأ وعيي بالحياة يتفتح رويداً رويداً. غدوت أتعرف على ملامح الأشياء وظواهر الوجود في عالمي الصغير ، وسط حشد من الأخوان والأخوات من زوجات أبي الثلاث ، وسيل من الضيوف لا ينقطع أبداً ، وأبي روح تحوم في الأرجاء تغمر الحياة بكل معاني الخير ، سلوكاً وبذلا وطيب معشر .

كنت يومئذ أدرج في أولى عتبات التعليم ، تلميذاً بمدرسة سنجة الأولية ، وهي مدرسة فخيمة البناء رائعة المظهر ، ترقد في حضن النيل الأزرق ، ويتولى أمر نظارتها المربي الكبير الأستاذ (شوقي الأسد) وهو رجل عملاق القامة أسمر اللون ، تفصح ملامحه وقسمات وجهه عن معنى اللقب الذى يحمله بين الناس ،ورغم ذلك فهو طيب لين العريكة ذو ظـــرف وملاحة ، توسم — رحمه الله — في شخصي شيئاً من جراءة وذكـــاء

فاختارني من بين زملائي في الفصل لالقاء نشيد (قم للمعلم) عند زيارة المستر « هنكوك » مفتش المركز للمدرسة ، وكان المفتش رجلا صارما لماحا مرهوب الجانب يخشاه الجميع ، فهو بما أوتي من صلاحيات واسعة وسلطات أضحى له مطلق التصرف في الأرض ومن عليها ، فهو مفتش التعليم والمسئول عن الصحة والأمن والادارة والقضاء ، وبوسعه القضاء على من يشاء بغير قضاء !!

ومن ثم كانت زيارة المستر «هنكوك» للمدرسة حدثاً كبيراً يستعد له الجميع ويعملون له ألف حساب وحساب ، وبدأت الزيارة ووجفت القلوب فرقا ورهبة ، العمال والمدرسون كل في موقعه يؤدى دوره بهمة ونشاط ، والتلاميذ في أتم زى وأكمل مظهر ، وكل شيء كما ينبغي أن يكون !! فجأة أحس مدرسنا باقتراب ركب الزائر الكبير ، فأطلق عقيرته — وقد بدأت طلائع الموكب تدخل الفصل — قيام ، فارتج المكان بحركة التلاميذ وهم ينهضون دفعة واحدة ، واصطف خلف الزائر الكبير حشد من الناس جاءوا في معيته ، بينما وقف ناظر المدرسة إلى جانبه وهم جميعاً في واجهة الفصل !! وكان من بين الحضور «الملك حسن عدلان» وغيره من ذوى المكانه والنفوذ .

أشار الى الخوجة (مدرس الفصل) لكى أبدأ إلقاء النشيد فتملكتني حالة مز ... بة والاضطـــراب ، وبعد جهد جهيد خرجـــت الكلمات من فمـــي راعشه مهتـــزه الحروف مطموسة المعاني ! وتعالت ضربات قلبي وتفصد جسمي بالعرق وأنا أحاول أداء المهمة الصعبة :—

قم للمعلم وفه التبجيلا ..قم للمعلم .. وفه .. التبجيلا ..

وطفقت أردد ذلك مرات وأنا أبحث بغير طائل عن عجز البيت ، فأ ... س الأسد بحرج بالغ وجرح بليغ ،ومضى يبتسم لضيوفه كمن يعتذر اليهم . وبين الحـ ن والحين يرمقني بنظرة ذات معنى ، فازددت خوفاً على خوف .

ثم جاء الفرج على لسان الخوجة « مدرس الفصل » ، فهمس لى مغيظاً محنقاً بكلمة « كاد » فتلقفتها كالغريق الذى يتعلق بالقشة فرحاً ، فرفعت صوتي واثقاً وقلت :—

كاد المفتش أن يكون رسولا !!!

وأنفجر الجميع ضاحكين وضحك الملك حسن عدلان حتى إغرورقت عيناه بالدموع، وإنتقلت عدوى الضحك إلى التلاميذ ،فتزلزلت جنبات الفصل بعاصفة من القهقهات المدوية ، وكانت سياطاً من نار ألهبت نفسي في قسوة وعنف فاختلط فيها الاضطراب بالخوف والذهول ، تركت الأمر وظللت أنقل نظراتي بين الحاضرين حتى استقرت على الخوجه « مدرس الفصل » فألفيته يكاد يفترسني بعين البغض والغضب ! !

هز المستر هنكوك رأسه وهو يضحك ، ثم شق طريقه فتراجع له الناس وغادر الفصل ، ثم قـــام بجولة فى ردهات المدرسة وفصولها ومكاتبها وانصرف . وما أن تنفس أولـــو الامر فى المدرسة الصعداء، حتى بادروا لمكافأتى على ما جرى ، وتلقيت من مدرس الفصل علقة ساخنة مشهودة ! !

انهال على ضرباً موجعاً لم تسكن آلامه إلا بعد غمسها فى ماء النيل الخالد ! ! فقد جرت عادتنا أن نسبح قليلا أو كثيرا ونحن فى طريقنا الى البيوت ، كنا شلة من الصحاب أبناء الفريق فأخذنا حظنا من التمتع بالنيل مياها وضفافا وخضرة ، ثم دلفنا على (جنينة الحكومة) احدى مراتعنا الحبيبة ، وتركز اهتمامنا كالعادة على شجرة (الزونية) الضخمة المثقلــة بالثمار وهى تنتصب كالمـــارد على شفير النيل جوار الدونكي ، فأخذنا نتصيد ثمارهـــا باليد حينا وبالحجارة احياناً ، واذ نحن منهمكون فى ذلك ، هجم علينا العم (بليل) حارس الجنينة ، وظل يطاردنا ويقذفنا بالحجارة تارة وباللعنات أخرى ، كما هى عادته دائما ، ثم تفرقنا ويمم كل شطر منزله .

كان أبى قد عاد لتوه من صلاة الظهر بالجامع الكبير ،وألفيته كعادته عاكفاً على مصحفه يتلو فى خشوع ورد النهار ، فلما ختم تلاوته مسح بيديه على وجهه ثم جذبنى اليه فى حنان بالغ وسألنى ممازحا ان كنت ما أزال احفظ ما تعلمته من القرآن فى خلوة الفكي (ودالحجاز) وهى خلوة نظامية تلقى فيها معظم أبناء مدينة ســنجة مبادىء علوم القرآن الكريم قبل دخول المدرسة الأولية،وكان يطلق عليها مجازا اسم (المسيد) وكلمة المسيد كما حققها بعض علماء اللغة تحـــريف لكلمة (المسجد) حيث كان المسجد وقتئذ مدرسة لعلوم الدين وممارسة الطقوس الصوفية من مدائح واذكار وعبادات وغيرها.

قرأت على أبى سوره العاديات شاهدا على حفظى ماتلقيته فى الخلوة ، واستقرأنى غيرها من قصار السور مثنى وثـلاث حتى أرضيته، فاحتضننى فرحاً وهو يقول :- عفـارم عليك يـا محجوب عفارم عليك ياولدى .

ثم نفحنى قرشاً كاملا جائزة، ونصحنى أن أشترى به تمراً ورغيفاً! ! فكان الرغيف يومئذ معدودا فى مصاف الحلـوى أو الكيك عند أولاد العـز والثراء، اما أبناء الكفاف والحـرمـان فالرغيـف عندهـم فاكهة محـرمة ، وحـلم بعيـد المنـال ! ! . فجأة دلفت شقيقتى فاطمة من الباب مذعورة تبكى وهى تصيح : محجوب محجوب، امى وحبوبتى دايرين يودونا مع أولاد الفـريق لى امباركة الشلاخة ماتخليهم يابا، ماتخليهم ! !

كانت فاطمة فى حالة عصبية عنيفة، ونالنى من جزعها شىء من خوف، فارتميت مع فاطمة فى احضان أبى وشرعت أتوسل اليه أن يحمينا من الشلوخ وقسوة الشلاخة (امباركة) ذات الشهرة الواسعة بين الفتيان والصبايا ، كانت فرائصى ترتعد فرقا من كارثة توشك ان تقع ، فالمرأة الشلاخة (امباركة) غول يمزق الوجوه بلا رحمة، كما حدثنا عنها الكبار انفسهم فى لحظات الوعيد والتخويف ! ومن ثم تمثل لى الامر كارثة، فأرسلت صرخات الغوث والرحمة ، أناشد أبى أن يقول (لا) .

وعلى غير وعد دخل علينا العم (على نجيـلة) كأنه جبريل يحمل الفداء، وهاله ما يجرى من مأساة تتقطع لها الاكباد وتتفطر لهولها القلوب، فهدأ بكلماته روعنا ، ثم سأل أبى عن جلية الامر؟ فأخـبره أن تجهيـزات عملية التشليخ من أزياء وعطور وسواها قد أعدت وفق ما يجرى فى المدينة من عادة وتقليد، وهاهم الاولاد يتمردون ويفتك بهم الرعب . كنت واختى فاطمة قد لذنا بذراعى العم (على نجيلة) نتوسل إليه أن يتدخل فى الامر، ويقنع أبانا بحمايتنا من كيد النساء وجهلهن ، فأخذته الرأفة ، واستحلف أبى أن يفعل مانريد ، فلم يجـد أبى بعد الحاح وجـدان مفـراً من الاذعان والقبـول ، وهكـذا كتب الله لنا النجاة من تلك العادة الذميمة الشائعة، ووقع فريسة لها بقية اخوتنا واخواتنا وهم كثر .

استميح القارىء الكريم معذرة لاقدم فذلكة تاريخية موجزة لعادة الشلوخ، وارتباطها بجذور المجتمع السودانى كواحدة من موروثاته وملامحه، فكلمة الشـلخ

فى لغة العرب قريبة لمعنى الاصل،والشلوخ عادة معروفة فى القدم ترجع الى عصور ملوك بابل واشور القدماء،دعاهم لاتخاذ تلك العادة كثرة الاختلاط بالامم والشعوب التى تخضع لسلطانهم آنذاك وكانت تجارة الرق فاشية تنظمها القوانين ! فخشى ملوك بابل واشور ان يباع نسلهم رقيقاً فى اسواق النخاسة، فاتخذوا لذريتهم وسما مميزا لايزول، فكانت الشلوخ فارقاً يشير الى اصولهم الملكية الكريمة!وحظر اولئك الملوك على غيرهم من الناس والرعايا ان يتخذوا عادة الشلوخ وشددوا فى عقوبتها ! ! فبلغت حد الإعدام ! !

وفى مرحلة لاحقة من التاريخ تنازل الملوك عن ذلك الحق بمحض اختيارهم ونبذوه فتلقفه الذين يلونهم فى المرتبة من رجال الحاشية والوزراء والاعيان ، ولما كان هؤلاء كثرة فى الامصار والحواضر والبلاد النائية فقد خرجت عادة الشلوخ من ارض مابين النهرين الى مروج الشام وصحراء العرب ، ثم عبرت بحر القلزم الى السودان وكانت فى جملة ماحمله المهاجرون العرب من دماء وخصائص عرقية وعلم وتجارة ودين، فلم تنته رحلة الشلوخ عبر الزمان والمكان عند ضفاف النيل أو تندثر ، بل واصلت زحفها الميمون صوب عدد من شعوب أفريقيا فاخذوا بها على اختلاف فى أشكالها واحجامها ومواقعها من الوجه والجسد، وعلى امتداد رحلة الشلوخ قديما وحديثاً ، ظلت حكرا لطبقة الاحرار وشرفا لايناله العبيد !

ثم جاء حين من الدهر فاصبحت الشلوخ قيمة جمالية يحرص بعض الناس على اقتنائها والتحلى بها وتبارت قبائل السودان فيما تتخذ من انماط الشلوخ فغدا لكل قبيلة ميسم خاص يميزها عن سواها ، فالشلوخ عند الشايقية مثلا غيرها عند بنى عمومتهم الجعليين، وهى عند هؤلاء غيرها عند العبدلاب أو الدناقلة وهلم جرا.. ويدور دولاب الزمن ..

وتنتفى كل الاسباب التى فرضت عادة الشلوخ أو اغرت بها وزينتها، فهجرها الناس بعد ان فقدت ماكان لها من قيمة ، فأخذت تنحسر وتتراجع حتى تجمعت فى حيز ضيق آخذ باطراد فى الضمور والتلاشى ، وذلك بعد أن عمرت فى الأرض طويلا وكان لها طريق لألاء ومكانة شامخة وسلطان غلاب .

* ٢ *

كان أبي يخوض معركة الوجود والكرامة ضد شركـة بوكسول احدى ركائز الإستعمار الاقتصادي في البلاد . ! الشركة تحاول أن تفرض سياسة للتعامل التجارى الاستعمارى تبخس الناس حقوقهم لتحقق لها أرباحا أكثر ،وأبي يرفض أن يكون مدخلا ووسيطاً لهذاالاستنزاف .

... وكان للباطل جولة ...

ففى ضحى يوم لا يبرح ذاكرتي أبداً ، وبينما كنت بدكان أبي بالسوق ، جاء المسئول عن مشتريات شركة بوكسول ، ومعه أحد المحاسبين الأقباط ، صورة مجسدة للاستعمار الانجليزى المصرى ، بطرفيه الأقوى والأضعف !! كان وجه الخواجه يطفح بالشر والغضب ، فتلقاه أبي بنظرة لا تقل غضباً وزراية وحقداً ! وكان مرأى الرجلين على تلك الحـال أشبه بالديوك وهى تتحفز للعـراك ، وسـمعت الخواجة يوجه الحديث لأبي قائلا :—

... نحن خلاص جينا للجرد والاستلام !!

فرد عليه أبي في برود مفتعل واستخفاف أكيد :—

.. .. وأنا مستعد .. ..

ويبدو أن أبى كان يترقب تلك الزيارة ، فقد نشطت حـركة دفاتره منذ يومين ووضعت البضائع على الأرفف تحمل بطاقات بالنوع وسعر البيع ، كما وضعت كمية من الدفاتر والأوراق والفواتير على المنضدة الرئيسية في المتجر ، ومن خلفها نهضت الخزانة الكبيرة في شموخ يؤذن بالزوال .

كـان أبي وكيـلا لشركة بوكسـول في بعضـ المناشـط التجـارية ، تتولى الشركة أعمال التصدير والاستيراد ، بينما يقوم أبي بأمر التجارة المحلية وشراء المحاصيل ، وكان قد اكتشف بمحض الصـدفه كمـا قال أن الشركة تشط عليه في الأرباح ، فتختص نفسـها بفوائد الوارد وعائدات الصـادر ، وفي ذلك تجاوز للاتفاق المبرم بين الطرفين أو هكـذا كان يفهم صورة الاتفاق ، بينما كان المدير العام للشـ يمقت في أبي ذلك الشموخ والجرأة في قول الحق .

فأنكـــر على ابى موقفـــه في مواجهـــة الشركة !! فأمـــر بفض الوكـــالة . كنت في حـــيرة مما يجرى من أحداث جسام أمام ناظرى .

لم أكن أعلم أنه من الخير والشر معاً جاء نسيج الوجود وحقيقة الحياة ، وأن الصراع شرعة البقاء الأزلية الأبدية ، وهو قدر الإنسان الذى سواه الله ونفخ فيه من روحه ، وما كنت أعلم أن الشيطان نصب نفسه عدواً للانسان ، يترصده ويتربص به من لحظة الخلق إلى يوم النشور ، فأصبحت الأرض معتركا للكائنات !! وأغوى الشيطان ابن آدم (فطوعت له نفسه قتل اخيه فقتله فأصبح من الخاســـرين) .

وهكذا تحدر الانسان من مهوى إلى مهوى !! والشيطان لا يفتأ يدفعه لمزيد مـــن الانحدار والتردي في درك الخطيئة ، فتتغول أمة على أخـــرى ، وتفتك طبقة بالآخرين.

كان أزيز الطائرات يصم أذني وهى تعبر أجواء مدينتنا (سنجة) ، في طريقها إلى ساحة القتال في أرض الحبشة ، لتقتل الناس والحياة والفضيلة ، ثم ها هو البركان ينفجر في وجوهنا ، حقداً أسود يعصف بما كنا فيه من أمان ويسر واحتفاء بالحياة .

مادت الأرض تحت قدمى أبي للحظات ، ثم استقرت على حال ، فاستعاد ثباته وقوته ، وأضمر الإنتقام وخوض المعركة حتى النهاية ، وليكن ما يكون !! فدخل ميدان التصدير لأول مرة ، منافساً للشركة في نفس مجال المحاصيل ، وكان يملك مؤهلات النجاح من خبرة طويلة بالتجارة وما استفاده من وكالته من قبل ، فألقى بكل ما يملك من المال في أتون ذلك الصراع ، ثم أرسل بضاعته من السمسم إلى بورتسودان ، في طريقها إلى الخارج ، ولكن البضاعة تأخـــرت كثـــيراً في الميـــاء ولم تشحن !! كانت تلك هى المرة الأولى التى يعمل فيها أبي بتجارة الصادر ، فلم يكن يعلم أن بمقدوره التأمين على بضاعته من محطة الشحن الأولى وهى محطة سنجة النهرية ، فقام موظف التأمين باصدار بوليصة تأمين بحرى فقط !! فبقيت البضاعة قعيدة أرض الميناء دهراً طويلا ، ثم أصدر مسئول وقاية النباتات الانجليزى قراره بعدم صلاحية السمسم للتصدير بحجة أنه مصاب بداء « العته » وأمر بحرقه !!

احترقت في واقع الأمر من جراء ذلك نفس أبي وأمواله وسعادة بنيه وبناته وزوجاته وأحسـوا جميعهم بالطامة الكبرى!! واتهم أبي شركة بوكسول بان لها يداً فيما حدث! ولم تفلح جهوده في الخروج من الضائقة المالية التي جثمت على صدره وجردته من قدرته على العمل، فأضطر أن يعلن « تفليسته » على الملأ، لأن قدراً من المال الذى احترق بأمر ذلك المسئول البريطاني في الميناء، كان معاملات تجارية مصرفية، وديونا لازمة السداد في أجل معلوم، وبانتهاء اجراءات « التفليسة » قرر أبي الهجرة من مدينة سنجة إلى أرض الله الواسعة، ليبدأ كفاحه مع الحياة من جديد إذ كان يعلم أن من شروط التفليسة التي أمضاها، جواز الحجز على ما يملك خلال خمس سنوات لمصلحة الدائنين، وعلى رأسهم « بنك باركليز » فكان لزاماً عليه أن يهاجر إلى بلد ما ليس به انجليز ولا بنك لباركليز.

أزمع أبي الهجرة وشرع يعد لها العدة، وبينما هو في ذلك اقترح عليه صديقه على نجيله أن يقوم بالتنازل — شكلا لاحقيقة — عن متجره الخالى إلى شقيق إحدى زوجاته العم «الضيف التجاني» وكان من قبل يعمل حائكا للملابس في «برندة المتجر» على أن يمد الأصدقاء المتجر بما يحتاج اليه من مال على سبيل التعامل التجارى، وفاء لاياذى ابى التى سبقت ومعروفه الذى لم ينقطع. راقت الفكرة بعد جدال واباء لأبي، ووجدت من الجميع الرضا والقبول. وكان هاجس الهجـرة في نفسـه قوياً ملحاحا لا يزول، ولكنه آثر النزول على رغبة الآخرين، ارضاء لهم. ولما كان شقيق زوجته قليل الخبرة بالتجارة، فقد أصبح لزاما عليه أن يقف إلى جانبه، بعد أن تنازل له عن ملكية المتجر واستخرج باسمه الرخصة التجارية، ثم سخر علاقاته القديمة بأصدقائه من التجار وأرباب المال لدفع دولاب العمل وانجاحه، فكان له ما أراد.

أثار النجاح المضطرد مطامع الدائنين، فحاولوا الحجز ومصادرة المال غير مره، ولكن محاولاتهم تكسرت جميعاً وهى تصطدم بحاجز القانون المنيع، حيث لم يكن المتجر وما فيه باسم أبي، ورغم ذلك ضاق صدره بذلك الحصار والترصد، وأحس أن وجوده بالمدينة ما عاد امراً يحتمل، بل قيداً يكبل شقيق زوجته من الانطلاق، فقرر السفر مؤقتاً الى قرية « الحواته » تلبية لدعوة كريمة من أحد اصدقائه المخلصين، وهو « الشريف

الزاكى » وجاء القرار كذلك نتيجة لالحاح أحد أصهار أبي وأصدقائه المقربين وهـــو « الخليفة عثمان الشمباتي » بعد أن زار مدينة سنجه ، ورأى بأم عينه ما آل اليه الحـــال في تلك الظروف .. واصطدم القرار بالواقـــع . !!

فقد كان اخوتي واخواتي كلهم بالمدارس ، فاهتم أبي كثيراً بأمر البنات ، وكن متقدمات في دروسهن ، مبرزات في مقدمة أضرابهن من الفتيات ، ولا توجد في حلة « الخليفة بابكر الشمباتي » في الحواتة مدرسة أولية ، فالرحيل اليها يعنى حرمانهن من مواصلة الدراسة ، وكاد أبي ان يعدل عن قراره ، لولا وقوع حادث اليم لاختى (آمنه) وهى في طريق عودتها من المدرسة إلى البيت ، فقد دهمتها عربة وكسرت احدى ساقيها . فأغتنم «الخليفة عثمان» تلك المناسبة وأوعز إلى ابى أن يصرف النظر عن تعليم البنات ، ليتفرغن تماماً لمهامهن الطبيعية في الحياة ويلزمن البيوت إنتظاراً لأصحاب النصيب !! ومن عجب ! صار الرجل العملاق الذى خبر الحياة وعجم عودها بحاجة لمن يهديه سواء السبيل ، بعد أن أثخنته المكائد ونوائب الدهر بجراح غائرة لا تندمل ، فأضحى غارقاً في بحر من الهموم والاحزان والفجائع ، وزايلته في خضم ذلك ، تلك الهالة من القوة وصفاء البصيرة والقدرة على اتخاذ القرار ، فغدا هينا لينا تقوده نصائح الآخرين ، وإن جانبها الصواب .

وافق أبي على الرحيل إلى الحواته ، فأرسل زوجته وبناتها مع الخليفة عثمان ، واحتشد الأهل والجيران لوداعهن ، ومن خلال الدموع والعبرات كنت اسمع كلمات المودعين الباكين ، يتردد صداها عبر الزمان والمكان :—

— تمشوا وترجعوا بالسلامة !!

— الحى بلاقي .

ولم يدر بخلد أحد في ذلك الموقف أن ما يجرى هو الوداع الأخير فراق لا لقاء بعده ! فقد استقر بهن المقام في الحواته حتى اليوم ، غير أن الاحساس بالغربة ظل يطغى على شعورهن بالإنتماء لذلك المجتمع البسيط ، ويراودهن حنين جارف وشعور غلاب بالإنتماء للمهجر ومراتع الصبا والطفولة ، فلا تفتأ ألسنتهن تلهج بذكريات مدينة سنجه ومعالمها ! ولسنـ

اشك أنه قد مضى وقت طويل قبل أن يتحررن من ذلك الشعور ويندمجن في علاقات ذلك المجتمع الجديد في قرية الخليفة بابكر الشمباتي بحكم روابط الدم التى تؤلف بين القلوب. والشمباته — كما حدثنى أبي في قابل الأيام عن رواية الخليفة بابكر الشمباتي — بطن من بطون الشايقية، يرجع أصلهم إلى جدهم الأعلى «أحمد ود شمبات»، الذى هجر ديار الشايقية إثر الغزو التركى للسودان عام ١٨٢٠—١٨٢١م فقد عبر اسماعيل بن محمد على باشا بجيشه بـلاد المحس والسكوت والدناقله ظافراً بغير حرب ، ولم يجـرؤ على لقائه أحد! !فلما شارف أرض الشايقية علم أنهم قوة لها سطوة وسلطان على الممالك المجاورة، قوم يحترفون القتال ويتلهون به ، أولو بأس شديد . كفلت لهم قوتهم تلك قدراً عظيماً من الاستقلال عن نفوذ الفونج ودولتهم التى يخضع لسلطانها ذلك العدد الهائل من القبائل على ضفتى النيل وأطراف البلاد !

بادر الفاتح التركى فأرسل إلى الشايقية يطالبهم بالخضوع له وتسليم أسلحتهم ، والانصراف إلى العمل بالزراعة !! فأنكر زعماؤهم تلك المطالب، ففى مجتمع الشايقية يومذاك كان العمل اليدوى سبة لمن يزاوله ، وهو شأن الموالى الذين يعيشون في أكنافهم يعملون ويتناسلون ، فانعقد إجماع القوم على حرب الغزاه الاتراك ، ولم يكن ينقصهم من عتاد الحرب شيء، إلا ما يجهلون!! واكتفوا بالسخرية رداً على ذلك الغر المأفون، ثم أرسلوا طلائعهم تختبر قوة العدو وتحجم عوده ، ودارت عدة هجمات خاطفة ومعارك صغيرة بين فرسانهم وأطراف جيش الفتح المدجج بالأسلحة والذخائر والاحمال .

فاندفع اسماعيل بجموع المرتزقة براً ونهراً ليكسر شوكة أول قوة تدافع عن شرف الأرض والناس ، وليواصل زحفه المظفر صوب سنار ، قصبة ملك الفونج ، فتلبدت السماء بالغيوم وواجـه الشايقية ذلك الخيـار الصعـب الذى أملته عليهم الظروف ،

فتـدافع الفرسـان والمقاتلون من أبناء الشايقية أمواجاً متلاطمة ، وارتفـع غبار خيلهم ورجلهم إلى عنان السماء ودارت رحى معركة شرسة ضروس ،تذكى أوارها ايقاعات النحاس وهدير القـذائف وصرخات الألم وأزير الرصاص !! وتناثرت على ساحة القتال في مدينة (كورتي) صباح الخامس من نوفمبر ١٨٢٠م جثث الشهداء المغاوير ، ثم وطئت سنابك خيل الترك صدور الرجال وهى تدخل المدينة ، وتستبيحها لثلاثة أيام

سوداء !!

في ذلك الظرف العصيب الذى مرت به قبائل الشايقية وفروعها نصح الجد الأكبر للشمباته أبناءه الثلاثة — اللذين نجوا من فتك الحرب — بأن يتفرقوا في الجهات حذر الانتقام ، وحتى لا يظفر بهم الاتراك مجتمعين ، يماثل ذلك ما كان لسيدنا يعقوب علية السلام وثلة أبنائة حين أزمعوا السفر فأوصاهم :— (وقال يابنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت عليه فليتوكل المتوكلون) صدق الله العظيم .

عمل أبناء كبير الشمباته بالنصيحة، وتفرقوا في البلاد، فاتخذ ابنه « حمد » منطقة شمال الخرطوم مقراً له ، ثم تزوج بفتاة من العبدلاب ، واستولدها ذلك الفرع من الشمباتة الذى استوطن تلك الأرض ،فعرفت بعد باسمه « شمبات » وما تزال ،واستقر ابنه «الدسوقي» بمكان جوار مدينة سنار معروف باسم « الشمباته » حتى اليوم وكان قد صاهر العنج وأنجب فيهم ، أما ثالث الأبناء واسمه (مضوي) فقد عاش قريباً من « جبال خمسه » وقرية الحواته ، وكان ثمة ملك من ملوك الفونج يحكم البلاد ويدعى الملك ديت يحترف رعاياه الرعى والزراعة ، وله ماشية وأغنام مشهورة بجودة نسلها يحتجزها بحمى جبل كبير عرف باسم « جبل الغنم » أحد مجموعة الجبال التى يسكنها الملك ورعيته ، بعد أن أطلق على كل منها اسم أحد ابنائه أو بناته !! فحمل أكبرها اسمه وهو « جبل المكديت » والذى يليه اسم ابنه الأكبر « بان » والذى يليه باسم ابنه « بلمـــوس » وجبل آخر باسم ابنته « بيه » وعرف الجبل الخامس باسم ابنته « البيضاء » وهى التى تزوج بها الشيخ مضوى الشمباتي فأنجبت له ابنه « مقد » وتوفيت عقب ميلاده مباشرة،وعاش مضوى بين أولئك القوم يزرع الأرض ويباشر الرعى ويدرس الناس علوم الدين، ثم توفي ودفن بجبل « المكديت».

أما ابنه « مقد » فقد ترعرع بين خئولته حتى بلغ مبلغ الرجال ، ثم غدا من بعد رأساً لذلك الفرع من الشمباته، فكانوا يقضون فصل الخريف بأرض المكديت، ثم يرحلون في فصل الصيف إلى ضفاف نهر الرهد طلباً للماء ، وظلوا كذلك حتى كان عهد الخليفة بابكر الشمباتي ، فاختار لهم موقعاً بعينه على ضفاف ذلك النهر ، فأقاموا به وتملكوا أرضه ،

وعرف الموقع بعد حين باسم « حلة الخليفة بابكر الشمباني » ، وهى الجهة التى تقرر لمن يقصدها أبي وأسرته بعد أن عبس له الحظ في سنجه وقلبت له الأيام ظهر المجن ، ففى تلك القرية عاشت زوجة أبي « دار السلام » وبناتها إلى اليوم .

يذكـــر الرواة أن ذلك الجـــد الأكـــبر الذى نصح أبناءه بالتفـــرق والنزوح من أرض الشايقية ، خـــرج منها ذات عام إلى الديار المقدســـة ، وهنـــاك اتصل بالسيد الميرغنـــى وســـلك على يـــديه طـــريقته المعـــروفة باســـم « الختميـــة » ثم عاد إلى الســـودان حيـــث توفي ودفن بمقابر شـــمبات القـــديمة ، وذلك بعد أن قام بزيارة أبنائه الثلاثة ، يروى أنه حمل إلى حفيده « مقد » نوعاً من بذور الذرة لم يعرفه الناس من قبل ودعا له بالبركه ، فلما زرعه وتم حصاده أعجب به الناس أيما اعجاب وفضلوه على غيره مما كانوا يطعمون فأطلقوا عليه اسم المهدى اليه « مقد » !!

سلك الأبناء والحـــفداء ونسلهم طريق الختميـــة اقتداء بجـــدهم الأعلى فأصبح منهم رجال الدين وأرباب الولاية والصالحون ، ويحفظ لهم الناس في تلك الجهات مناقب وكرامات كثيرة .

إن تاريخ الشمباته لم يدون بعد في صحائف التاريخ ، ولم يبق منه إلا روايات يتناقلها الناس شفاهة ، فحري بأبنائهم تحقيق تلك الروايات وحفظها ، وفيهم علماء أجلاء في التاريخ وشتى العلوم الانسانية الأخرى .

عزم أبي على مغادرة سنجة إلى الحـــواتة ، ليعاود مبارزة الحياة في مكان جـــديد . حقا لقد كانت الضربة قاسية جداً ، ولكنها لم تكن قاصمة ، جردت أبي من كل سلاح وقدرة الا ذلك الوميض من الأمل ، وتلك الطاقة الهائلة من الإيمان بأن الله لا يخلف وعده ، فان بعد العسر يسرا ، إن بعد العسر يسرا ، وما محنته تلك الا ابتلاء مؤقت وسحابة صيف عما قليل تنقشع لا محالة .

جاء الرحيل في فصل الخريف ، وكنت قد أكملت السنة الثالثة بمدرسة سنجة الأولية ، أما أخى « أحمد » الذى يكبرني بما يقارب العقـــد من الزمان فقد كان له عالمه وهمومه

ومتاعبه مع الأقدار ، أنخرط — حتف ارادته — في غمار العمل التجارى ، لضمور ملكاته في مجال التعليم ، فتوقف عند مستوى المرحلة الأوليه بقرار نافذ من أبي ،وكان أحمد ينكر هـذا الحكم الجائر على مواهبـه ، ويدافع بأن نفـراً من أبناء دفعته صعدوا إلى المرحلتة المتوسط والثانوية بالمدارس والمعاهد الدينية ، وما كانوا يتفوقون عليه بشيء ، وفي مقدمة هؤلاء، الأصدقاء(الشريف زين العابدين الهندى) امين الحـزب الإتحادى الديمقـراطى ة حاليا،و (حسن صالح الشويه) وله بنا صلة قربي .

لم أدر — وقتئذ — أى الرأيين أقرب إلى الحق والصواب ، وبقيت أشهد ذلك الصراع النبيل من موقع المتفرج ، اختزن في أعماقي دروس الحياة . وبعد محاولات عديدة من جانب أخي أحمد ، كان قرار أبي قولا فصلا في الأمر ، فلم يجد أحمد بدا من الاذعان والرضى اذ لم يكن يخامره الشك أن من حكم عليه ذلك الحكم هو أكثر الناس حرصاً على تأمين مستقبله ورعاية قدراته ، وتوجيهها فيما يحقق له الخير والنجاح ، فذبح طموحاته الدراسية قرباناً لحكمة أبي وتبصره في الأمور ، وكان يردد في ايمان عميق (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) ثم القى بنفسه في لجة السوق

قام ابى قبل الرحيل الى الحواتة بختان أولاده ممن كانوا بغير ختان،حرصا منه على ألا يترك وراءه امرا على تلك الدرجة من الاهمية،وتم ختانى فى زمرة من البنين والبنات ، أولكن على غير العهد والعادة كانت مراسم الاحتفال بتلك المناسبة الجليلة بسيطة متواضعة، سفرت للناظرين عن حقيقة الحال التى آل اليها ذلك الرجل الكريم المتلاف فى وجوه الخير ، فتألم لذلك من بقى على وداده من أرباب المال والتجارة والوفاء .، غيرانه بدا رابـــط الجأش،مترع الوجدان بالرضا والسعد والاشراق، يضاحك اضيافه ويبذل لهم ندى وجهه الصبوح كما بذل لهم ندى كفه يوما .

الفيتنى منذ الصغر نزاعا لكل جديد ، لاتركن نفسى الى شيء حتى تهفو لســواه، رغبة متأججة وغلة لاتنقع ،نهم دائم الى مزيد من التجـربة والعلم والحياة !! ولهذا كـــانت فرحتى بالسفر غامرة لاتحدها حدود،وتحقيقاً لامنية لطالما تاقت لهـا هذه النفس الجموح، فلســوف يكـــون الرحيل بالبواخر النيلية ، تلك التى كنت أنفق الساعات الطـــوال

أرقبها وهى تمخر عباب النيل فى جلال ووقــار ، أو ترســو عند ميناء مدينة ســنجة النهرى ، فأظــل واقفاً كالمسحور أو العاشق ، ولكن ما الى الوصل سبيل ! ! يطربنى وأنا فى ذلك الموقــف غناء الحمالين الجماعى وهم يقومون بشحن البواخر أو تفريغها ، يتحركون كأسراب النمل على ظهر «السقاله» جيئة وذهابا، تنوء ظهورهم بمــا يحملون فتمتزج الحركة بالغناء والصياح والضحكات .

من خلال هذا المشهد وغيره عرفت أن السعادة أمر نسبى لاتحمله القواعد ولايخضــع لقياس، فبينما ينتشى هؤلاء التعساء المحرومون بحب الحياة،يعيش بعض ذوى الثراء نهبا الاحقاد ومرارات الجشع ، فلا يعرف السعد طريقاً الى نفوسهم الموتورة الظامئة ، وهم فى لهــث وصراع مع الحياة لايفتر أبداً .

أتاحت لنا الرحلة الممتعة على ظهر النيل لحظات من السمر ومراجعة الظروف ، فحدثنا بى عن «الحواته» وحلة الخليفة بابكر الشمباتى وجبال المكديت وما يحاك حولها من قصص واساطير ! وكنا نتحلق حوله مأخوذين بما يقول،وهو معين لاينضب أبــدا ، إذا فرغ من حكــاية بدأ أخرى ، ولعله كان يهيؤنا للحياة فى أرض المهجر الجديد .

ذكر مما روى فى تلك الرحلة،أسطورة النعامة وجزيرة ام زبل (بكسر الزاى والباء وسكون اللام)، وتقع على نهر الرهــد فى مواجهة قرية الخليفة بابكر الشمباتى بمنطقة الحواته ، جاء فى الاسطورة أنه فى قديم الزمان وسابق العصر والأوان، اجتمع حشد هائل مــن البشر والطيور وأنواع الحيوان، وهم فى طريقهم الى جزيرة ام زبل ، يرومــون قضاء فصل الصيف فيها ، فلما بلغــوا جبال المكــديت أرهقهم السفر فعزمــوا على المبيت فى ذلك المكان حتى إذا طلع الفجر عليهم واصلوا الرحلة من جديد .

كانوا يعلمــون أن الرحلة تشارف على النهاية ، وأن الجزيرة على مقربة منهم ، فامتلأت نفوسهم فرحاً وقالــوا :

باكر كان الله قبل – بكسر القاف والباء – بنرد ام زبل!!

فلم يرق ذلك للنعامه ، فجزمــت واثقة وقالت :

كان الله قبل ولاما قبل بنرد أم زبل !!

فانكر عليها رفاق الرحلة تلك الثقة المفرطة بالنفس ولكن النعامة لقرب أم زبل- لم تتراجع عن مقالتها قيد أنملة ، فلما كان الصباح تحركت جموع المهاجرين صوب الجزيرة إلا اولئك الذى شاركوا النعامة رأيها وتحديها للاقدار ، فقد سخطهم الله حجارة على رؤوس الجبال وحاولت النعامة أنتطير - كما كانت من قبل - فأعجزها الطيران !! وأصابها مس من خبال، فأخذت تجرى وتحرك جناحيها فلا تبرح الأرض . وحلقت أسراب الطيور فى الفضاء البعيد ، والنعامة تحاول فلا تقدر وبقيت كذلك حتى اليوم !! أما انصارها فما تزال جبال المكذيت تحمل صورا وأشكالا بشرية وحيوانية لهم عبارة عن نتوءات وصخور بارزة تنبىء عن صدق الاسطورة .!!

ضم أبى الى ذلك الكم الهائل من الاساطير والقصص وحكاوى أهل السودان المتداولة مثل (ود النمير) (وتاجوج) والمحلق (وبنت البجاوى) وغيرها صنوفاً من العلم الدينى والمثل السائرة والحكمة المأثورة، وإلماماً غير قليل بمشاهد التاريخ ومواقف الرجال ، ومن جماع ذلك تعاظمت مدركاته من الحياة والبشر والجن والاشباح والسحرة فاستقطب بذلك حشداً من السامعين فى الحل والترحال ، يشوقهم حديثه عن تلك العوالم وما فيها من غرائب وأعاجيب .

وفى سياق هذا حدثنا أن (الجن) حقيقة لاتنكر ، وقد ورد ذكرهم فى الكتب السماوية وأحاديث الانبياء والمرسلين واتباعهم، فهو تراث معرق فى القدم ، متأصل الجذور عميق المنابت متصل الحلقات من بدء الخليقة وهبوط آدم - عليه السلام - وحواء الى الأرض، وعبر عصور التاريخ والمراحل التى طواها بنو البشر كان هذا التراث ينمو ويتضخم بما يرتاده العقل من آفاق وما يصل إليه من حقائق الكون والوجود ومايضيفه من الأساطير والتجارب حتى امتلأت بطون الاسفار والكتب بقصص عن الجن تثير الرعب والفضول والدهشة، لا بين البسطاء وحدهم ولكن فى أرقى الامم وأكثرها حضارة ، فالجن - كما جاء فى الرسالات السماوية - كائنات تشارك الانسان الوجود ، وتؤثر فى مجريات الاحداث على الأرض سلباً لا ايجاباً ، وقد اجمعت كلها على التحذير من الوقوع فى حبائل الشيطان والانقياد له ، ثم بسط الثقات أولو التجربة والعلم الالهى البرهان على هذا الوجود الفاعل المؤثر ، واخبروا بمشاهداتهم وصلاتهم بهذا النوع من الخلق ، بل مايزال فى الناس من يملك الدليل القاطع من خلال الأثر الخارق للمألوف على صدق هذا الوجود للجن وتأثيرهم فى الحياه .

ورغم ذلك ، فنحن لانجد من حقائق الكون وظواهره وكائناته أمرا أكثر للجدل إثارة من أمر الجن ، حوله اختلف الناس ، واصطرعت دونه الآراء في كل عصر ومصر وملة ، فالماديون الذين لايعترفون بعوالم الغيب ، أنكروا وجود الجن ووصفوا المؤمنين بهم بالتخلف والدجل فثارت بين الطرفين معارك باقية ، وغابت الحقيقة فى خضم ذلك الجدال العقيم ، فورث أبناء العصر ركاما هائلا من البحوث والنظريات العلمية ، حجبت عنهم وجه الحق ، بعد أن أصبح العلم التجريبى هو الفيصل فى كل أمر ! !

وأشهد أن هذا الموضوع قد استهوانى واستحوذ على مشاعرى المشبعة برؤى وحكايا أبى منذ نعومة أظافرى ، فلما بلغت سن الوعى جهدت فى البحث عن اليقين فى بطون الكتب ومنابع الرأى وقناعات ذوى التجربة ، سعيا حثيثا للخروج من متاهات الفكر وسراديب الجهالة ، ومن أطرف ما وقعت عليه فى معرض البحث والتنقيب هذا الرأى الطارف الطريف يرويه المرحوم الاستاذ (خطاب محمد بك) وفيه أن الارض بعد انفصالها عن الشمس كانت جذوة من نار ملتهبة لاتصلح لسكن البشر ، فأسكنها الله تعالى الجن التى خلقت من الغازات النارية ! ! ثم لما بردت قشرة الارض وتكونت الطبقات الطينية وتهيأ حالها لاستقبال الانسان ، هبط إليها آدم عليه السلام وزوجه حواء ، بعد أن سخر الله لهما ما فى الارض جميعاً ! ! فكان حتما على عمارها الشياطين أن يجلوا عنها وينقرضوا تدريجيا شأن الحيوانات التى كانت تعيش فى أقدم عصور التاريخ على الأرض ثم بادت فلم يبق منها إلا عظام نخره تدل على ضخامة فى الجسم غير عادية. كان وجود الانسان على ظهر الارض طاردا للجن منها ، فكلما حل العمران وتكاثر بنو البشر ببقعة من الارض جلا عنها الشياطين ، فان طرق منهم طارق الى المدن الآهلة ، فأنه لايستمر بها بحال ، بل تكون زيارته خطفا لماما كالذئب والثعلب حين يسطوان خلسه .

ويمضى الكاتب فى بحثه الطريف الى القول : هذه المخلوقات الغازية لاتستحق أن تكون مصدر خوف وهلع للناس ! ! فقد أصبحت بعد خلق آدم تخاف بنى البشر بل تخاف هم أى مكان يعمرونه وتنفر منهم كما ينفر الحيوان البرى من الانسان سواء بسواء ، ولايليق بالانسان أن يتخيل منها بعبعا يخوف به الغصر شبوا علق بأذهانهم

الخوف من بأسها ، وماهى الا مخلوقات غازية طريدة ! ! فما الخوف إلا ما تخوفه الفتى وما الأمن إلا ما رآه آمنا .

أخيراً شارفت الرحلة على نهايتها ، ثم ولجنا مدينة الحواته ضحى ، فألفيناها على شاكلة مدن السودان الصغيرة النامية ، أو قل كانت فى حال الانتقال من طور القرية الكبيرة الى مرحلة المدينة فى بدايات تكوينها ، تجتمع على صعيدها مظاهر وسمات الطورين معاً ، غير أن اطلاق اسم المدينة قد يوحى للبعض بتلك الصورة المزركشة بألوان الحضارة من طرق مخططة معبدة وكهرباء ومتاجر حديثة وأماكن لهو وازدحام فى الاسواق والمركبات ، والحواتة — يومئذ — أبعد ما تكون عما دون ذلك بكثير ، فالليل كله لباس ! ! والنهار جله معاش وقلة من المتاجر هى التى تباشر العمل طوال أيام الأسبوع . فقد جرت العادة وتعارف الناس على أن للسوق يومين ، الأحد والأربعاء ، وفيهما يتقاطر الناس على الحواتة من كل فج عميق فى البادية والقرى القريبة والبعيدة يبيعون ويبتاعون تحت وهج الشمس وسف الرياح ! !

وكما تختلف بصمات الناس ، فان لكل مدينة أو قرية فى السودان صغيرة أو كبيرة مايميزها عن سواها من حيث المظهر والتكوين العرقى والنشاط والظواهر الإجتماعية ، فالحواتة فى تلك المرحلة من التطور والعمران شيدت منازلها من الاخشاب البلدية ولفائف الحشيش اليابس (القش) وقلة قليلة منها مشيدة بألواح الزنك فى السوق أو دور الحكومة وبعض المرافق الحيوية الاخرى ولاتوجد على الاطلاق مبانى من الطوب الاحمر أو الطين ! ! لان الأرض فى تلك الجهات (فوارة) لايثبت لحركتها الدائمة وتصدعاتها التلقائية بناء من الطوب أو الآجر فسرعان ما يتهدم ، وذلك ما توصل إليه الناس من خلال التجربة العملية لاعن طريق البحوث والاختبارات المعملية العلمية .

ترقد الحواتة على صدر نهر الرهد ، فى بقعة من أوسع أجزائه وأغزرها بالمياه ، فدعت الحاجة لاقامة جسر حديدى لتعبر منه القطارات والعربات والناس والدواب ، ولم يجىء اختيار الموقع محض صدفة أو خبط عشواء ، بل جاء وليد خبره وذكاء ودراية ، فالنهر فى هذا المكان لاتنضب مياهه طوال فصول السنة ، فاذا جاء الصيف وجفت كثير من اجزائه الاخرى تحول هنا إلى بركة واسعة ممتلئة يستقى منها الانسان والحيوان .

ولايبعد أن تكون كلمة الحواتة مشتقة من لفظ «الحوت» أو «التحويت» أى صيد السمك ، فقد قيل إن مؤسسيها الأوائل وفدوا على السودان من نيجيريا ، تقاطروا على البلاد ضمن حركة الهجرة الواسعة الممتدة الى اليوم ، وقد وجدوا فى هذا المكان مجالا لمزاولة نشاطهم الاقتصادى التقليدى وهو صيد السمك حتى اطلق عليهم أهل القرى المجاورة اسم الحواتة ، ثم شاركتهم الحياة فى المنطقة طوائف من أهل البلاد بعد ذلك وانصهروا جميعا فى كيان متجانس عبر القرون ، وفى ظلهم ترعرعت القرية وشبت عن الطوق لتصبح مدينة «الحواته» .

استقر بنا المقام فى الحواته ، وشاد أبى متجره فيها على هيئة (كرنك) وهو بناء مستطيل مما يبنى به الناس فى ذلك السوق الصغير ، وتلتصق بالكرنك من الخلف (قطية) ذات بابين ، يفضى احدهما الى المتجر ، وينفذ الآخر الى باحة «حوش» واسعة تبعثرت حولها مرافق الدار من مطبخ ومنافع أخرى ، وذلك يعنى أن المبنى متجر ومسكن فى وقت واحد ! ! وكلاهما متواضع بسيط لايرضى طموح الرجل الذى تقلب بين عز الجاه ونعيم الثراء العريض ، ومن ثم كان حديثه عنهما فى كل حين يتسم بالتذمر والسخط . فكنت وأحمد — على صغر سننا — لانفتأ نواسيه ونجد له العذر فيما يعتريه من ضيق بالمكان والحياة . فقد تحالف الناس والزمان ضده ! ! فأصبح بين عشية وضحاها كريشة فى مهب الريح لاتستقر على حال ، كان لى وجود فى فكر أبى وأهتماماته وآماله المرتجاة ، بل كان دائم التفكير والاهتمام بالمصباح الذى ينير له دروب الحياة ، فلما أضحت «الحواتة» مسرحاً لنشاطه التجارى ومستقرا لاسرته شرع سعى ليهىء لى مكانا بين تلاميذ مدرستها الأولية ، فغدوت تلميذا بالسنة الرابعه بعد أن قا أبى بإجراءات القبول اللازمة ثم أوصى ناظر المدرسة بالايألو جهدا فى تربيتى وتعليمى بكل الوسائل والسبل ، مختتما وصيته بالعبارة المألوفة آنذاك (ليكم اللحم ولينا العظم). ثم تركنى وخرج ليواجه قدراً خانقا لايرحم ! عشت انا كغيرى من التلاميذ فى مجتمع المدرسة الذى يسيطر عليه النظام ويتسم بالحزم والصرامة ويحكمه الخوف ! ! فلاوجود للإلفة ورفع الكلفة بين المعلم والتلميذ كما هو حادث اليوم ، بل هناك حواجز وسدود موروثة مقدسة ، وكأن (ذا القرنين) قد أقام بينهما ردما من زبر الحديد لاينى أبداً .

يخطىء من تصور – من أبناء ذلك الجيل – أنه كان هانئا سعيدا بالحياة المدرسية وأعبائها السلوكية القائمة ! ! فهي لاتختلف كثيرا عن معسكرات الجند ، فعلى التلميذ أن يحافظ على النظام والمواعيد محافظة صارمة ويخضع تماماً لمبدأ الطاعة العمياء والاذعان المطلق ، فالعقاب الناجز الأليم هو الرد على كل مخالفة أو هفوة وان صغرت أو حدثت سهواً ، واكثر العقوبات شيوعا ضرب مبرح على رؤوس الاشهاد ، وكثيرا ما يعمد المعلمون الى أسلوب من العقاب يولد الحقد والكراهية بين تلاميذهم ، فحين يخطىء احدهم فى الاجابة على سؤال ما ، ويفلح آخر فى اقتناصها من عقله أو أفواه جيرانه فى الفصل يصدر المعلم أمره بأن ينفذ المجيب عقوبة الخطأ فى زميله ! ! وهى صفعة قوية على وجهه يتردد صداها فى آذان الآخرين . ذلك ماكان يحدث فعلا ذات يوم ! ! .

شطط فى العقاب ، وسوء فى التنفيذ ، لجرم غير موجود ! ! فإذا تلطف التلميذ فى تنفيذ العقوبة فأداها بصورة شكلية أو متراخية ، انتهره المعلم امراً بإعادة الصفع بكل مايملك من قدرة وجدية ، فلا يجد مهرباً من الاذعان ! ! فاذا انتهى اليوم الدراسى ترصد المضروب لضاربه فأخذ بثأره منه مضاعفاً ، وتقطعت حبال الود والزمالة بينهما وحل العداء مكان المودة ، وقد يصل بهما الحال الى مكتب المعلم مرة أخرى ، فتكرر العقوبة بصورة أعنف واقسى ، ولهذا يهجر طريق العلم كثير من الراغبين ، لائذين بالعمل اليدوى الشاق ، زاهدين فى حلم المستقبل بالتخرج من مراحل التعليم العليا .

فى تلك الظروف ، كان للعلم والمتعلمين هيبة وجلال ومكانة لا يدانيها شىء وان عظم ، ولا جرم أن يحدث ذلك من كافة قطاعات المجتمع ، فالامر – هاهنا – خاضع لقانون العرض والطلب ونقاء الفطرة من أدران الحضارة المادية ! ! فاذا كان المتعلمون اليوم كثرة لايحفل بها ولا يحتفى بعلمها أحد ، فقد كان لهم فى الناس دولة وجاه وسلطان ، يغدون ويروحون وعلى هاماتهم أكاليل الغار وشارات الرفعة ، ويتحدثون فينصت لهم الجميع ، ولربما وقع فى روع البعض من علو شأنهم أنهم خلقوا من مادة نفيسة نادرة لاعلاقة لها بالطين كما هو شأن البشر ، ثم تأهلوا بالفطرة والكسب لهذا المجد الذى لاينال ، كيف لاوهم موظفو الدولة وأرباب المناصب وذوو الياقات البيضاء والعلم الغزير طبقة تميزت بالرفاه

في العيش والمظهر والعمل، لايضارعهم مكانة الا الحكام وزعماء القبائل ورجال الطوائف والطرق الصوفية مع اختلاف كبير في الدعائم التي تقوم عليها مكانة كل فئة في المجتمع.

على كل حال! كانت المدرسة لاتخلو من مغريات محببة مثل المناشط والعلاقات الحميمة والسياحة الذهنية التي نجدها في روايات التاريخ وصورة العالم وحياة الامم والشعوب وتلك الصداقات الصبيانية التي ماتزال تعلق بخاطري كأجمل وأروع الذكريات.

ضمت المدرسة الى أبناء الحواتة طائفة كبيرة من أبناء القرى المجاورة، وكانوا يغدون الى المدرسة على ظهور الحمير، وهم يتسابقون ويتصايحون في براءة وفرحة غامرة، وما أكثر ما اختلقنا الاسباب لقضاء عطلة نهاية الأسبوع بين أهليهم ومراتعهم الحلوية الآسرة، نلعب ونمرح بغير رقيب حتى ساعة متأخرة من الليل، وقد يحلو لنا أحيانا أن نمارس المغامرات المثيرة فنسرق الفواكه والخضر الموسمية أو نتحرش بالآخرين في دعابة ساخرة تثير غضبهم وتدفعهم لمطاردتنا عبر المزارع وخرائب القرية المهجورة.

لعل من أهم أحداث تلك المرحلة من عمري وأكثرها رسوخاً بواعيتي الرواية التمثيلية التي قمت فيها بدور البطولة المطلقة عند ختام العام الدراسي، وقد تقاطر لمشاهدتها خلق كثير من أهل الحواتة والقرى المجاورة، بينهم الناظر «يعقوب» ومفتش التعليم ومفتش مركز القضارف وغيرهم من الشخصيات البارزة، تكبدوا مشاق السفر من مواقعهم البعيدة ليشاركوا في احتفال المدرسة بتخريج دفعة جديدة من تلاميذها النابهين، وكان حفلا حافلا بحق بدأ بمهرجان رياضي كبير حوى كل المناشط المعروفة والمبتكرة، مباريات في كرة القدم وجر الحبل وألعاب التسلية المختلفة، أعقبه حفل شاى فخم - بمقاييس ذلك العصر - خصص بالطبع لكبار الزوار وأعيان المدينة.

ثم كان الحدث الذي لاينسى!! فلعلها المرة الاولى التي يشهد فيها الناس في تلك الاصقاع النائية عملا مسرحيا كبيرا ينبض بخلجات نفوسهم ومعاناة حياتهم اليومية. في رواية نثرية شائقة باسم (عطية) حظيت بأعجاب الحاضرين من كبار الزوار وعامة الناس، وقد مثلت دور البطولة فيها باسم (حسان) فاجتمعت للرواية عناصر النجاح كافة، حيث كان الموضوع الذي تعالجه في قالب مأساوي ضاحك هو الفقر أو (عطية) كما تعارف أهل ذلك الزمان على تسميته لسبب غير معلوم، أما لغة الحوار في المسرحية فهي الدارجة

المسجوعة المحببة لاسماع أهل الريف، حرص المعلم على إخـراجها فى أسلوب خلاب تدعمه الازياء والديكورات والاكسـوارات من البيئة المحلية، ثم جاء الاداء — بعد بروفات عديده شاقه — قمة فى الروعة والاتقان والحضور ، وليس أدل على ذلك من بقاء الحوار ومشاهد المسرحية فى ذاكرتى برغم مضى عشرات السنين على ذلك الحدث ، وتبدأ المسرحية بشكوى (حسان) من مرارة الفقر الذى يلازمه فيقول :—

ياعطـية يا رفيقـــى * شايل عصاتك لى تفليقى
مابـدور مهـلتـى * تـدور ضيقـــى
تضحـك وتنبسـط * باليوم اللقوم بى ريقى
تـب يـا زمـن * بى آمالى جرت ظلمت
أسـقيتـنى العـذاب * لى عنـادى اتعلمـت
أمـرضـنى الفقـر * انا منـو قط ما سلمت
بى الكـون ده ضاق * ياريتـنى لو ما خلقت

هكذا تمضى أحداث المســرحية فى تصاعد مستمر حتى تبلغ الذروة ، ويتبادل الممثلون المواقع فى حـوار غنائى شائق ويتابعهم جمهور النظارة فى إعجاب عظـيم ، عبروا عنه طوال لحظات العرض بالضحك والاطراء والتصفيق ، ولا اجاوز الحـقيقة إن قلت إن الجميع قد شهدوا بموهبتى فى تقمص دور حسان البطل الذى يصارع الأقدار ممثلة فى الفقر ، والواقع أننى قد أجهدت نفسى كثيرا طوال الأيام التى سبقت العرض فى حفظ الرواية وتجويد دورى فيها إستعداداً لذلك العرض المشهود ، ولم يكن أبـى بأقـل اهتماماً منى ورهبة، فما أن اسدلت الستارة على نهاية الرواية ، حتى دوت جنبات المكان بالتصفيق والهدير ، وتعالت الأصوات مطالبة بإستمرار عرض الرواية لمدة أسبوع كامل، فاستجاب لهم ناظر المدرسة وهو مذهول بالنجاح الكبير الذى شهد به كبار المسئولين فى المنطقة ، كما أمر مفتش التعليم بمواصلة العرض وقدم لكوكبة الممثلين جوائز وهدايا قيمة !!

عاشت مدينة الحواتة ترفل فى المهرجانات الرياضية وكرنفالات الابداع الـفنى بهيجة أيام عديدة، أما أبطال الرواية المسرحية فقد أصبحوا مثار الاعجاب والتقريظ أينما

ولوا وجوههم فى المدينة، فكانوا أشبه بالابطال المظفرين فى الحرب تلهج الألسن بمواهبهم وروعة أدائهم فى كل محفل ، حتى ظننت وانا منهم أننى قد غدوت فى عداد المشاهير والعباقرة المبدعين.

وكان ابى فخوراً بهذا المجد الذى حققه ابنه الاثير ولكنه فخر يصدر عن نفس لاتعرف المغالاة والافراط فى شيء، ويحميهـا طبع متواضع رصين، وعلى نقيض ذلك تماماً كان الناس فى تعبيرهم عن مشاعرهم نحوى يرسلون الثناء والاطراء جزافاً حتى أن بعضهم لم يعد يناديني او يعرفنى الا باسم (حسان) بطل الرواية! وكانوا يرددون الحوار فيما بينهم بسخرية لاذعة ، ويتمثل آخرون بعبارات بعينها فى مواقف الحياة اليومية !! ومن تلك التجربة اكتشفت(بذرة الفن) تنمو فى اعماق وجدانى!! وظلت تزدهر باضطراد عبر الايام والسنين، حتى آتت أكلها أعمالا فنية اترك الحكـم لها أو عليها للجمهـور.

فى أعقاب ذلك الفرح الطاغى والسعادة الغامرة بأيام الابداع الفنى المترع بالنشوة وفيض الشعور، زلزلت مدينه الحواتة بحدث اليم مروع ، قلب أفراحها اتراحاً وأحال سعادتها خوفا يسرى فى الاوصال !! فقد مات سبعة من اهل المدينه فى يوم واحد، بسبب (الحمى الراجعة) التى تنتقل جرثومتها الخبيثه من المريض الى السليم بواسطة حشرة (القمل) . ساد المدينة — اثر ذلك — فزع وهلع لا يوصفان، وطارت أخبار الفاجعة الى مركز القضارف فاقلقت مضاجع المسئولين الانجليز وكان منهم مفتش الصحة ، وابرقوا بالخبر العاصمة بالخرطوم ، فخفـت جموع المسئولين تحـمل العقاقير والامصال الواقية من العدوى، وتم فرض الحصار عـلى الاحياء والمنازل الموبوءة بالداء الفتاك، واخذ عمال الصحة ينقلون الطعام والدواء الى المصابين فى بيوتـهم كيلا يضطروا الى الخروج منها فيعرضوا أرواح الناس للخطر.

فى ذلك الظرف العصيب جاء إلى الحواته الناظر يعقوب من قصبة نظارته «قلع النحل» وفى معيته نفر عظيم من المشائخ و العمد وكبار المسئولين ، وصدر الامر الى جميع سكان المدينه بتنظيف احيائهم وطرقاتهم ومنازلهم ، فأستجاب النـاس للأمر فهبوا — حذر الموت — يعملون فى همة ونشاط ، فكنت ترى الخلق يذرعون المسافات بين المزارع والاحياء تنوء ظهورهم باحمال الحطب والعشب اليابس وقودا للنيران التى

أشتعلت فى الطرقات ووضعت عليها البراميل المليئه بالماء المغلى ليتمكن الناس مـــن تطهير ملابسهم والتخلص من حشرة القمل المقيته،وكان يضاف الى ذلك الماء المغلى محلول لدواء معين لابادة جرثومة الداء اللعين .

أضحى منظر البراميل والنار من تحتها أمراً مألوفاً كما أصبح مشهد الناس ــ وهم يحملون ملابسهم ويلقون بها فى أتون الماء الفوار ثم يجلسون حول البراميل عراة الا من خرق صغـــيرة بالية تستر عوراتهم ــ أمراً لايسترعى الانتباه ! ! كذلك صدر الامر لكافة الناس بحلق شعورهم فى مطاردة حشرة القمل فى مظانها ومراتعها المعلومة،فقد ألف الناس وجودها فى كل جسم ومنزل تقريبا فى ذلك الوقـــت، وخضعت للأمـــر بحلاقة الشعر النساء المصابات بمرض الحمى الراجعة ومن يشاطرهن السكن فى منزل واحد رجلا كان أو امرأة ! ! كما دأب الجميع على تناول أقراص الوقاية التى وفرها القـــائمون على أمر الصحة، وقام هؤلاء أيضا بنشاط كبير من أجل التوعية الصحية ومكافحة الوباء، ومع ذلك كله فقد تزايدت الوفيات فى تلك الأيام السوداء مما عمق مشاعر الخوف والهلع فى القلوب .

وفى اطار حملة المسئولين على الحمى الراجعة وحصارها ، ضبطت حركة السوق فصدر قرار مؤقت بالغاء السوق الاسبوعى الذى يؤمه الناس من القـــرى المتاخمة منعـــاً للاختلاط وانتقال الداء من مكان الى مكان ! وبرغم هذه التحوطات وغيرها انتقلت العدوى وفتك المرض بالارواح فى كثير من البقاع .

وفد على مدينة الحـــواتة ــ أيام فجيعتها تلك ــ طائفة مـــن القساوسة البيض ، وشاركوا باخلاص وتفان فى درء أخطار الداء ومكافحة أسبابه ، ينتقلون خفافاً بأزيائهم الملائكية البيضاء بين الناس، فيدخلون البيوت ويعاشرون المرضى فى غير اكـــتراث ! وتمتد أيديهم بألوان الطعام والملابس الجديدة وأنواع العلاج،وتمتلىء قلوبهم بالرحمة والخير وحب الإنسان .

أذكر أن أحد معلمى مدرستنا ــ وهو رجل أجش الصوت، تخرج الكلمات من بين شدقيه ضخمة مضخمة تصم الآذان ــ تعود أن يجلس أمام دكان أبى بالسوق،وكان يلتف حوله جماعة غفير من الناس يستمعون إليه فى تجلة وأكبار . فقد زعم أنه ينتمى الى تلك

العصبة من الخريجين التى تناهض الاستعمار وتناصبه العداء ، فتحدث يوماً عن ذلك الوباء الذى انتشر ونشر الرعب فى أرجاء المدينة ، فانحــى باللائمة فى ذلك عــلى الإستعمار البريطانى ! ! مؤكدا أن وسيلته لقهر الشعوب واستعبادها هى الفقر والجهل والمــرض ، ومضى يحذر الناس ويحرضهم ويثير شكوكهم تجاه الانجليز حكاما وقساوسة ! ! وكان أن صدع الناس بما قال وأخذوا يقابلون تضحيات الأخيرين بشيء من الشك والفتور والحذر.

كنت فى حيرة من أمرى، فذاك المعلم كان يدرسنا علم الجغرافيا، وهو عادة لايتقيد بمنهاج ، فلا يلبث أن يخرج من موضوع الدرس الى الحديث عن مظاهر التطور فى المدن السودانية وخطوط السكك الحديدية ومشروع الجــزيرة العملاق وميناء بورتسودان والإضاءة الكهربائية وغير ذلك من الانجازات الحضارية العظيمة التى تحققت فى السودان فى النصف الاول من القرن العشرين. ولاأنكر أن أحاديثه فى كل ذلك كانت تشــدنا وتسبى عقولنا الصغيرة ! ! ولكن فات عليه أنها اشادة بعظمة الحكام الانجليز ودولتهم الحادبة على رقى الشعوب التى تخضع لحكمها ! ثم ها أنا ذا أشهد بعينى ذلك الاهتمام البالغ بأرواح الناس من أخطار الوباء والموت ، وهاهم القساوسة يدخلون بيوت المصابين ويعاملونهم بروح الاخاء والود ، يطعمونهم ويواسونهم ويؤنسون وحدتهم بينما يتخوف الأهل والجيران من مجرد الزيارة فى تلك الظروف ! ! كنت فى حيرة مما أسمع وأرى كيف يتسق هذا مع مايدعيه الرجل ويدعو إليه ؟! ولم يدرك عقــلى الصغير يومئــذ أن كــل ما أنجزه الاستعمار فــى بلادى كان دون طموحات أهلها وهم يرون الامم من حولهم ترتقــى مدارج التطور فى كل جوانب الحياة . وذلك ما دعا الخريجين لمحاربة الوجود الإستعمارى فــى البلاد باعتباره قيدا يكبل خطاها وعقبة تحــول دون تطورها . وثمة أمر آخــر آثار حــيرتى وصدم عقلى ، ذلك أن أبى كان لايفتأ يؤكد أن أعظم ما يفعله الانسان فى هذا الوجود هو حب الله تعالى واخلاص عبادته والرضاء بقدره وحكمته ، وكثيرا ماسمعته يتلو فى خشوع وايمان قوله تعالى : (الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز) فتفكرت مليا فى معنى الآية الكريمة، وتلمست — بعقلى القاصر يومئذ — الأثر اللطيف فيما جرى لابى مؤخرا فلم أصبه ! ! كنت أعرف أبى عابداً لله ، ملتزما بأوامره ونواهيه ، يفعل الخير سجية لا امتثالا ، ويتباعد عن الآثام والشرور فطرة لارهبة ! فلماذا يتخلى عنه ربه وهو يقاوم مكر البشر وكيد الطامعين ؟! ولمــاذا يبتلى أهل الحواتة بوباء يحصد الأرواح

البريئة ؟! وكيف تتبدل أفراحهم أتراحاً لغير جـرم أو خطيئة ؟ ! وما الحكمة فيما أشهد من تناقض فى الوجود ؟! ظلت تلك الاسئلة الغازا يحار لها عقلى حتى عرفت بعدئذ فى قابل الأيام وانا أدرس الفلسفة حكمة التعادلية، ومؤداها أن مشيئة الله سبحانه وتعالى اقتضت أن يكون أساس خلقه للكائنات قائما على المعادلة بين اللذة والألم ! ! فتصـدر موجات كهرومغناطيسية عالية التنظيم والفاعلية تتـأتى من الآم المخلوقات ولذاتها وهى على درجة من التوافق والتنظيم والانساق والاطراد ، بهذا يتم التوازن الـلازم لحفظ كـيان الوجود ، فلا يتصور حدوث اختلال فى نسبة هـذه المـوجات بحكم القضاء المرتكز على اختلاف جواهر الأشياء والكائنات وغرائزها وتفاوت قـدراتها واحتياجاتها الحيوية وأظهر ما يكون ذلك فى طبائع البشر والحيوان ! ! قال الله تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين) صدق الله العظيم . ولتقريب ذلك من الافهام أقول : يقوم الناس فى بقاع الدنيا بذبح ملايين الخراف والماعز والانعام والطيور وأنواع الحيوان،فنحن — بوعى أو بدونه — نصل بهذه الذبائح الى أقصى درجات الألم والعذاب ، فتصدر عنها موجات كهرو مغناطيسية تعادل لـذة البشر فى تناول لحومها .

يجرى ذلك نفسه في عوالم الكائنات المختلفة ، حيث يقتات بعضها بعضا ، فالانسان يصبح قوتاً للديدان بعد الموت ، وحياته منذ الميلاد إلى الممات مزيج من اللذات والآلام النفسية والعضوية ، وبتفريغ هذا المزيج في وعاء المشاعر الإنسانية المتضاربة يحدث التوازن اللازم لحفظ كيان الحياة، فالالآم الحادة التى يعانيها البعض بسبب الحرمان أو المرض أو التعذيب تقابلها جرعات ضخمة من اللذة والسعادة والمتعة الجنسية أو الروحية ! !

وأينما تبدو مؤشرات الاختلال في هذا التوازن تتدخل عناية الله في الأمر لتحفظ لناموس الحياة إطراده بغير إنقطاع ، فاذا زادت نسبة اللذات عن الالآم في دنيا البشر ، تتفجر الحروب والزلازل والكوارث والمجاعات والأوبئة ليـتم التعادل اللازم، وكذلك الحال في الدار الآخرة : (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية تسقى من عين آنية ليس لهم طعام الا من ضريع لايسمن ولايغنى من جوع) فهذه صنوف من الآلام تقابلها ألوان من النعيم (وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية، في جنة عالية لا تسمع فيها لاغيه، فيها

عين جارية ، فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة) صدق الله العظيم. وبمثل هذه المعادلة بين اللذة والألم تكون الحياة وما بعد الحياة . ومعلوم أن لكل فعل من الأفعال رداً موازيا في كافة نواحي الوجود من خير وشر ، كالصحة والمرض والفرح والحزن والغنى والفقر والتوحيد والشرك وهلم جرا ، وكان الله لطيفاً بأهل مدينة الحواتة إذ تم القضاء على البلاء ، وخرج الناس من دائرة الخوف التى عاشوا فيها يتربص بهم الموت من كل مكان ، وعادت الحياة سيرتها الأولى ، ثم سمح للناس بمغادرة المدينة والدخول فيها ، وكان أبي وأخي أحمد طوال أيام الخطر يلازمان المتجر مكرهين ، فلم يتمكنا من رعاية مشروعهما الزراعى في « المفازة » واعتمد أبي في ادارته على وكيله هناك « موسى الفلاتي » . ذلك أن أبي قد بدأ يمارس نشاطاً زراعياً في مناطق الزراعة المطرية حيث يتم حرق المساحات بالنار ، فتأتي على الأخضر واليابس من نبات الأرض وبقايا الجذور ، وتضاف بذلك مواد عضويه بفعل ارجاع تلك المواد إلى أصولها وتغدو سماداً طبيعياً عرفه الناس بطول التجربة ، فهو نتاج للعلاقة الخاصة الحميمة بين الأرض وزارعها ، بعد تلك العملية تصبح الأرض جرداء سوداء عظيمة الخصوبة ، ومن هذه البقاع انتقلت خبرة المزارعين وانتشرت في كل أرجاء البلاد .

قام مشروع أبي الزراعى في المفازة على ثلاثة محاور أو أطراف ، فهو قد حصل على الترخيص بحيازة الأرض وأعد لوازم الزراعة من بذور وأدوات وعمالة وقام أخي أحمد بالإشراف والتوجيه والمتابعة ، وأقام « موسى الفلاتي » بأرض المشروع وكيلاً ومديراً لحركة العمل بنسبة معينة من الأرباح ، كانت علاقة أبي وأخي أحمد بذلك الوكيل علاقة غريبة من نوعها ! ! فقد ظل موسى يكن لهما بغضاً لا يقدر على إخفائه ، ولكنه لم يجد بداً من مواصلة العمل والمصانعة ، وكان أبي يبادله كرهاً بكره غير أنه لم يجد مفراً من وكالته وتملقه ! ! فأحمد بمفرده عاجز عن إدارة المشروع لقلة خبرته بشئون الزراعة .

يعزو موسى مشاعره تجاه أبي بأنه ليس كغيره من أصحاب المشاريع الأثرياء الذين يغدقون على من يعمل معهم بغير حساب ، فهو الوحيد الذى يحسب ويحاسب ويقتر تقتيراً شديداً ! ! والواقع أن ضيق امكاناته المادية قد فرض على وكيله موسى أن يلجأ إلى وسائل غير مكلفة لمتابعة العمل بالمشروع ، وموسى يعلم أن جهده وقطرات عرقه تتحول عند نهاية الموسم محصولا وفيراً لا ينال منه الا النذر اليسير ! ! أما أحمد فهو يجزم بأن موسى

غشاش كذاب نهم ، وداهية ماكر حقود ، يعمد إلى إخفاء أسرار خبرته الطويلة عنه كيلا يصبح ذات يوم مؤهلا للإدارة والإشراف ، فيضمن بذلك إستمرار الحاجة اليه في المواسم التالية ، وفوق ذلك فهو ملحاح لا يكتفى ولا يكف عن الطلب !!

وأغرب ما في الأمر ، أن كلا من ثلاثتهم محق في دعواه !! وكل منهم مكره على صاحبه بحكم الظروف ، فموسى بحاجة إلى العمل ليوفر له أسباب الحياة ، وأحمد لا يجاوز الحق في وصفه لموسى بتلك الصفات ، وأبي محتاج لمن يدير له دفة العمل بتلك القدرات الشحيحة ، ويسخر له وقته وجهده وتجاربه . !! لذلك كان موسى يطلق لسانه من عقـــاله في غياب أحمد ، ولم يكن وجودى يرده عن اطلاق تشنيعاته ، فاذا أسف وشعر بالحرج مما يقول صدقاً وكذبا ، أكمل حديثه بلغة أهله الهوسا فيمايشبه السباب « واكاشيقى » فيغـــرق العمال من أبناء جلدته في الضحك حتى تدمع عيونهم !! وكثيراً ما كنت أغضب وأهـــدد بافشاء أمره لوالدى وأحمد أخى ، فيحاول أن يسترضينى بشيء من مدح زائف أو «قرش» ينصحنـــى ان ابتاع به طعام «القدو قدو» الذى تعرضه فتياتهم ويزعم انه سر قوة أهله الفلاتة وفتوتهم !! وهو — في واقع الأمر — لا يريد أن يذهب شيء من ماله لغيرهم.

كان أبي — بعد ما حل به من ضائقة مالية — جم النشاط متوقد الذهن كبير العناية بما يعوضه ما خسر ، فلم يدع منفذاً للرزق إلا ولجه ، فالى جانب التجارة والزراعة حاول الصناعات الصغيرة ، فعقد شراكة مع نفر من العاملين بالحدادة وصناعات الحديد ، ابدهم بمتطلبات العمل ، ويعمل على بيع منتوجاتهم بنفسه على أن يكون له نسبة من الأرباح بعد خصم قيمة التكلفة . كذلك الحال مع عم « صابر » النساج ، وهو رجل من قبيلة (الجبلاب) جاء إلى الحواته في صحبة أحد معارف أبي فخصص له منزلا مجاوراً يسكنه ويزاول فيه حرفته ، كان لصابر منسج من ذلك النوع البدائي المعروف ، وكان مجيئه فتحاً لنسوة المدينة وما جاورها ، حيث ضمن لهن مصدراً للرزق ، فهو يشترى كل إنتاجهن من القطن الذى يتم حلجه في محالج صغيرة يعرف الواحد منها باسم (الغوغاية) ثم يغزل على أيديهن خيوطاً رفيعة فيما يعرف باسم (المترار) الذى يحلو لهن تسميته (أب دقينه) وذلك لوجود شبه عظيم بينه وبين ذقن الإنسان ، وكم من أسرة فقدت عائلها أو أعجزه الكبر أو المرض عن الكسب ، فكان أب دقينه هذا مخرجاً من الفاقة والعوز وذل الحاجة

والسؤال ! ! ومن ثم حفظت له النساء الجميل وأرسلن في ذلك الأغنيات مثل :

* أب دقينه الشايل الحمل الله لينا القطن كان كمل *

كان العم صابر رجلا نحيف الجسم دقيق الملامح قصير القامة حتى لاتكاد تميزه عن الصبية من بعيد ، بل أن صوته لا يختلف عـن أصواتهم كثيراً ، ولكنه ذو شارب ولحية ممعوطة متفاوتة الكثافة ، وبرغم ذلك ، فهو يزعم لنفسه قوة (هرقل) وشجاعـة (عنترة) وبلاغة (المتنبي) وعلم الأولين والآخرين ! ! كان يحفظ كثيراً من القصـص الخرافية وقدراً هائلا من الشعر والامثال والحكم.

اجتذبتني شخصيته فكنت لصيقاً به ،ومنه عرفت لأول مرة قصص «أبوزيد الهلالى» و «سيف ابن ذى يزن» ، و «عنترة بن شداد» وغيرهم من أبطال السير والحكايات الشعبية ، وكان يمتلك نسخة من كتاب « رأس الغول » يحرص عليها حرصه على حياته فهي مصدر لكثير مما يروى عن حروب الاسلام وفرسانه المغاوير ، فاذا خانته الذاكرة أو جادله أحـد ، أخرجها من حرزها المكين ومضى يقرأ فيها واثقاً وهو يحس نشوة الظفر وقدرة المبدعين ! وما أن يفرغ من ذلك حتى ينصب نفسه عالماً ويعلق بما أوتى من فهم وبيان غير مبين ،لم يكن الكبار وحـدهم رواد سـامر العم صابر ، بلى كنا نحن الصبية أكـثر إنبهاراً بما يروى من قصص ونوادر واساطير ،نلتف حوله ونصغى لاحاديثه وعقولنا الصغيرة تحلق بعيـداً مع أبطال قصصه فلا نعود الا حين يفرغ من الرواية ، فنستزيده ونلح عـليه فى اصرار جماعى لا يقوى على رده ، فيتوقف عن عمله ،وتتوقف مركبة منسجه على (السداية)ثم يقبل علينا في نشوة بالغة مدفوعاً بما يجد فينا من لهفة على السماع ، فيقودنا — مرة أخرى — عبر سراديب الماضى البعيد يحكى ويصور ويقارن ، ثم يتجه بالحديث فجأة الى نفسه وما لاقى من عنت الايام والناس والظـروف ، فاذا بالماضـى يعود بضع سنوات خات والمكان يضحى أى بقعة عاش فيها ذات يوم ، ويتغير تبعاً لتغير الزمان والمكان فى روايته التاريخية شخص البطل أيضاً ، فبعد أن كان خالد بن الوليد أو عنترة العبسـى يصبح فجأة (صابر الجبلابي) وهكذا يضاعف الرجل مغانمه من تلك السانحة ، فيضفى على نفسه كل صفات الكمال وكريم السجايا ، ويدفع عنها كل نقيصة وخلق ذميم ! !

ومن كثرة ترداد العم صابر لتلك والروايات المختلقة ، صدقها هو نفسه فاستحالت عنده قناعات لايأتيها الشك أبدا ، أما نحن فلم نكترث لصدقها أو كذبها كثيراً ، ينصرف همنا كله الى الاستمتاع والتلذذ بالوقائع والمواقف المثيرة ، وكان يسعده أن نصدق ما يقول ، ، فكنا نغذى سعادته تلك بما نبديه من علامات الدهشة وعبارات الاعجاب والملق ! ! حتى اذا بلغت به نشوة الرضا ذروتها نفحنا شيئاً من مال قليل أو أسند الينا شراء الغزل من نساء القرية ، فلا نجد حرجاً في سرقته حيث ندعى لما نشتريه ثمناً اكبر من حقيقته ! ! ورغم ادراكه لذلك الغش والتدليس أحياناً ، كان يتظاهر بانه يصدقنا لقاء تصديقنا لما يروى عن نفسه من بطولات زائفة .

مكث العم صابر يزاول مهنة النسيج ورواية القصص طوال فصل الخريف ، ثم فجأة ضاق بالحواتة وأهلها والحياة فيها ! ! وقرر أن يهجرها إلى بلد جديد ، تكون له فيه صولات وجولات بعد أن مل الناس سماع ما في جعبته وكتابه الأثير ، فهو جد حريص على ذلك الوجود الفاعل في عقول الآخرين وحياتهم من خلال منسجه وأقاصيصه ! !

وكانت محطة سكاك الحواته الحديدية تعج بقطارات الركاب والبضاعة ، وهى تمثل مرحلة هامة في الطريق إلى الجبهة الشرقية للحرب ، وتزدحم بجنود الحلفاء من الانجليز والأفارقة والهنود وغيرهم ، فتهيأت لنا — نحن الصغار — فرصة للتعامل التجارى معهم في أوقات فراغنا ، فكنا نبيعهم الدجاج والبيض وكل المصنوعات المحلية الأخرى بثمن نحدده نحن ويدفعونه هم بغير مساومة ! ! وكان سبيلنا إلى ذلك الربح المضاعف بضع كلمات وجمل باللغه الانجليزية تعلمناها شفاهة وأجدنا استخدامها فيما بيننا مثل (يو وانت ذس) أى : أترغب في هذا ؟ نقولها ونحن نشير إلى ما نحمل من بضاعة أو نقول (ذس فور تو بياسترز)

أى هذه ثمنها قرشان وهكذا كما اقتضى الأمر ان نحفظ الارقام بالانجليزية من الواحد إلى العشرة ، أما أكثر الكلمات جريانا على ألستنا فهى (يس ، نو ، أوكى ، اورايت) .

كنا نجوب المنازل والأسواق نشترى بما نملك من مال قليل الدجاج والبيض والمنتوجات المحلية لنبيعها بأسعار كنا نحسبها جد باهظة ، فلم يكن يخالجنا شك في غفلة وسذاجة جنود الحلفاء وهم يشترون بضاعتنا بغير مساومة أو جدال ! !

وقد استفدنا كثيراً من تجربة التعامل مع أولئك الجنود السذج حسب ما كنا نعتقد ، من ذلك أنه ليس من الضرورى أن تكون لك بضاعة تعرضها للبيع لتكسب مالا وفيرا بل يكفى ان تمد يدك لأحدهم وتقول : جوني جوني .. بقشيش !! اذ كنا ننادى على الجميع باسم جوني ، ولم يخطر لنا على بال أبدا ان لهم اسماء مثل بقية البشر ، فكانوا يضحكون ويمنحوننا علب السردين والبسكويت والبلوفيف الفارغة ، فنحملها فرحين الى سوق النساء بالمدينة ، ونبيعها لهن بعد لجاج ومساومات طويلة .

كنا مجموعات صغيرة من الصبية ، ننتمى إلى أحياء المدينة المختلفة ، فهناك أولاد « فريق فلاته » و « فريق العرب » و « فريق السوق » وغيرهم من بقية الأحياء ، وتضم المجموعة الواحدة ما بين الخمسة إلى العشرة عادة ، فكان على رأس مجموعتنا (العبد تاتو) ويرجع ذلك اللقب إلى سواد بشرته رغم أنه لم تكن فى حياتنا عبودية ولا عبيد ، ولكن ذكريات الرق لم تنطمس بعد ، حيث شمل قانون تحرير العبيد كل المستعمرات البريطانية بما فيها السودان ، فبقيت العلاقة بين أولئك المحررين ومواليهم قائمة حتى ذلك الحين ، ومن هؤلاء جماعة من الرجال والنساء الفوا أن ينادوا أبي قائلين « أبوى ».

جرت العادة منذ عهد الرق إلى عصر الحرية بأن تخلع المرأة من هؤلاء نعليها وتكشف قناعها عند لقائها بكبار السن من الرجال كمظهر من مظاهر الاجلال والاحترام !! ثم تلاشى ذلك وغيره مع الأيام وعاش الجميع أحرار أمتساويين في الحقوق والواجبات ، بل تفوق أبناء المحررين اقتصاديا وإجتماعيا وعلميا على بعض أبناء من كانوا سادة في يوم من الأيام !!

وهكذا أصبح (العبد تاتو) رأساً وزعيماً على جماعتنا ، يخضع الجميع لسلطانه ولا يعصون له أمراً !! كان تاتو أكبرنا سنا وأوفرنا تجربة وأشدنا قوة ، وتلك مؤهلات زعامته ، لم يلتحق بالمدارس مثلنا ، ولكنه استطاع أن يجمع طائفة من الكلمات الانجليزية المتداولة ، كما اعتمد في تأسيس تلك الزعامة وتوطيد أركانها على صديق له من أبناء «الكواهلة» اسمه جابر ، وهو في مثل عمره تقريباً ، ويماثله في التفرغ للعمل التجارى بالقطارات والسوق ولهو الحياة ، كان كلاهما يدعى الاحاطة والاتقان للغة الانجليزية !! ولتأكيد ذلك واثبات التفوق على الآخرين فيه كانا يتحادثان بها بصورة يعجز عن فهمها أبناء تلك

اللغة أنفسهم ، فيرددان كلمات شائعة مثل — يس، ونو ، اورايت ، أوكــى ، يو وانت ذس ، دام فول، ويمزجان ذلك بألفاظ مبهمة في طلاقة وجدية ينخــدع لها الرفاق . على تلك الصورة الشائهه لاستخدام اللغة الانجليزية ، كان معظم أهل السودان من غير المتعلمين ، فهم في ســعيهم للتعامل مع طبقة الحكام واكتساب ودهم ، استحدثوا لغة هجينه من الانجليزية والعربية أو لغة انجليزية من ابتداعهم وصنع أنفسهم ، من قبيل ذلك قصة صاحب الحمار الذى ساوم رجلا انجليزيا طلب منه أن يحمله على حماره إلى سراى الحاكم العام ، اذ قال صاحب الحمار :— (دونكى مى رايد يو خرتوم بلاس بياستر تو) فضحك الانجليزى طويلا ووافق على ما طلب صاحب الحمار .

طلب منى ابى أن أنضــم الى أخــى أحمد وموسى الفلاتى فى إدارة المشروع الزراعى حتى بداية العام الدراسى الجديد بعد موسم الحصاد، وقد أراد بذلك أن يبعدنى عن رفقة اللهو والمغامرات التى يتزعمها تاتو ، فكــان له ما أراد .

خرجت الى أرض المشروع بصحبة أخى أحمد ، وإذ كنت اقــف بين الزروع والخضرة السابغة الممتدة على مرمى البصر والنسمات تحمل قطرات الندى تنعش روحى وتغسل عنها الاحزان راودنى احساس رائع بجمال الحياة وبهجــة الوجود ، فلا أبالغ فى شيء إن قلت إن كل لغات الدنيا تعجز عن وصف ســعادتى والشعور الذى تملكنى فى تلك اللحظات، فمضيت كالطيف انتقل بين العمال واتحدث مع هذا وأضاحك ذاك وكأنى أتلمس لبركان السعادة الــذى يعصف بى مخرجــا ، أو إننى أوزع ذلك الشعور على الآخرين ، فأفلحت فى مبتغاى الى حــد بعيد ، ثم أخــذت فى مشاركة العمال فى الحفــر والنظافة واجتثــاث الحشائش الطفيلية، فضحكوا كثيرا لجهــلى بهذه الشئون، وقطع بعضهم على نفسه وعدا بالعمــل على اكسابى مايلزمنى من خبرة بأمور الزراعة ومواقيتها واستخدام أدواتها المختلفة ، وبدأوا ذلك على الفور .

مرت على ذلك عدة أيام ، ورغم المشقة التى كنت أعانيها من ممارسة العمل ، فقد ظللــت مثابرا نشطا تدفعنى حماسة غامرة، حتى أخذت أتحدى بعض العــاملين فى انجاز بعض المهام فى وقت معلوم !! والحق أننى أفدت من ذلك خبرات لم يكن لى ســابق علم بها أبدا ، وعندما أقارن اليوم ماتلقيته من المعارف فى مراحل التعليم كافة بما اكتسبته

عفو الخاطر فى تلك المرحلة من عمرى أجد أن الزراعة قد أضافت الى نفسى من المعرفة الروحية والحيوية ما كان له أثره وخطره فى قابل الايام .

كـذلك تعلمت حب الأرض والطبيعة والناس الطـيبين البسطاء، حتى الحيوان كان له نصيب وافر من ذلك الحب ! وأحسب ان هذه العاطفة المشبوبة — فى تلك السن المبكرة — هى التى تطور وتبلور من خلالها وجدانى واستطلاعى الدائم لعوالم الانسان والحيـوان والنبـات، وهى مبعث اهتمامى الحـثيث بشئون العمـل والعمال، وبحثى الدؤوب عن أكثر الأنظمة والنظريات السياسية تحقيقـاً للعدل وكرامـة الإنسـان .

تفاعلت كل هذه المؤثرات الإيجابية مع تربيتى المتأرجحة بين يسر الحياة وقسـوة الظروف ، ويقينى أن الصراع القائم بين هاتين الحالتين وافرازاتهما المتعارضة، هو الذى يصنع الشخصية الناضجة السوية !! ذلك ان انفراد احداهما بالتأثير دون الأخرى يؤدى حتماً الى نوع من الاختلال والفساد فى بناء الشخصية ، حيث يفضى التدليل ويسر الحياة الى الرخاوه والرعونه والعجز ، كما ينشأ عن الحرمان وقسوة الظروف نزوع مفـرط الى العنف وحب الانتقام !!

وقد يقع الاضطهاد من الاسرة والمجتمع ، بسبب التكوين الجسمانى أو العنصرى أو الطبقى ، ولكنه كيفما كان فهو عمل له مردود مواز فى القوة والتأثير . أما الذين تتعاورهم ظروف الرفاه والشدة ، ويتقلبون بين هذين النقيضين ، فهم شخصيات سوية ونمـاذج خيرة للعطاء والانتماء الاجتماعى ، ومن بين هؤلاء يخرج الى الوجود من نعرفهم بالعصاميين الذين يؤثرون فى حياة مجتمعاتهم ، بل العالم أجمع .

استلبت المزرعة منى كل فكر وجهد ، فكنت أقضى سحابة النهار فى ارجائهـا أبذل لها الحب وأبثها ما الاقى من عنت الحياة وصروف الدهر وعسف القدر ، أتقلـب على أرضها ابحث عن دفء العاطفة التى افتقدتها وأنا بعيد عن أمى وأخوتى الصغار .

صرت اتابع — فى لهفة الام الرؤوم — نمـو أعواد الذرة وهى تمر باطوارها المتعارف عليها بين أهل الحواتة وغيرهم من القرويين والزراع ، فهى تبدأ بما يسمونه (الشـوكة) و(أضان الفار) ثم (الصقور) و(الجداد) و(اللتيبة) و(الحملة) و (اللبنة) و(الشراية)

و(الفريك) واخيرا (القندول) وكلها مسميات لمراحل تطور أعواد الذرة فى تدرجها وارتفاع سيقانها عن وجه الأرض حتى نضجها وامتلاء رؤوسها بالمحصول ، عـــندئذ تنحنى تلك الرؤوس فى تواضع العلماء والعارفين ، أما تلك التى تصاب بالعقم والخواء فتبقى شامخة فارغة شأن الجهلاء والادعياء من البشر.

هكذا علمتنى الأرض !!! .

وعلمتنى أيضا أنها تملك رقاب الناس ولا يملكونها !! فقد أصبحت لها عبداً عابداً ذلولا وغرست فى روحى ذلك الحب الذى يعطى بغير حدود. وحدثتنى بكل الخيلاء والزهو انها ترث البشر أحياءاً وأمواتا !! فهم على ظهرها ارث لها لاينقطع حتى اذا عبروا برزخ الوجود احتوتهم احشاؤها فعل المالك البخيل ، وصدقتنى القول ان كل الخلق منها وإليها يعود ! فهل بعد الأرض من عالم الا علام الغيوب ؟!.

أذكر اننى كنت أطوف بإنحاء مشروعنا الزراعى ذات صباح وكانت الأرض مترعة بالمـــاء موحلــة ، فقد هطلت بالليل امطار غزيرة مدرارة ، فارتوت الارض حـــتى بشمت وامتلأت عروقها بالحياة ، وكانت أوراق الذرة تراقص نسمات الخريف العليلة ورائحة الدعاش تعبق فى الارجاء تمـــلأ نفوس المزارعين نشوة وحيوية ، فيقبلون على العمل بهمة ونشاط ، فسرى الى نفسى شعور بالفرح والسعادة الغامرة ، بلغ من الشدة والقوة مبلغا لم تتحمله روحى المتفتحة الصغيرة فأخذت أجرى وأقفز هنا وهناك كما تفعـــل صغار الخراف أحياناً ، حالة شعورية غريبة سيطرت على بغير وعى ولا ارادة !! فلم أعد املك زمام نفس عربدت فيها رغبة جارفة فبقيت على تلك الحالة حتى نالنى رهق واعياء ، فانطرحت على تلك الأرض الموحلة ، وشرعت أتمرغ فى الطين وأحتضن أعواد الذرة وأنا لا أدرى ما أفعل !! ثم أخذت أمدح وأغنى وأبكى وأضحك وأحدث الأرض والناس والوجود ، وفجأة غلب على البكاء !! فلما عدت الى نفسى أنكرت عليها ماكان ، وفى لحظة الوعى طفقت أبحث فى تلافيف عقلى عساى أجد سبباً لمـــا جرى ، فأعوزتنى القدرة وتملكتنى حيرة وذهول ، وانفجرت ضاحكاً أضرب بيدى فى الأرض حتى تلطخ وجهى واتسخت ملابسى بالطين ، وأنا أزداد حيرة وضحكاً وبكاء فى آن واحـــد !!

ثم سكنت تلك العاصفة الشعورية الهوجاء ، فلم يبق لها من أثر سوى تلك الدموع التى تنهال من عينى فى صمت ، فهززت رأسى متعجباً دهشا مأخوذا ، وإذ كانت عيناى

مسمرتين على الأرض السوداء الموحلة ، ويداى تعتصران ذراتها اللزجة ، أدركت انها هى الام الحقة ، وأنا أحس شعوراً طاغيا بعاطفة الانتماء فهل كنت بفطرتى مؤمنا بعلم الحقيقة؟! (أم هل تبدت لى آيـــات الله فى الخلق وكنت من الغافلين) ؟!

الفطرة والايمان هما مصدر تلك العاطفة الجياشة فى نفوس أبناء الأرض من الزراع ، فهم يكدون ويشقون تعبيرا عن ذلك الحب المقدس ، يبذر الواحد منهم حبة الذرة فــى رحم الأرض ويظل يسقيها ويرعاها بعرقه ودموعه حتى تغدو سنابل ممتلئة بالثمار ، لتستقر فى بطــون الجوعى والمحرومين بل حتى المتخمين المترفين !! فكلهم بحاجة الى عطاء أمهم الارض وهى تحملهم على ظهرها فى حنو وحب واشفاق .

وتتناسب أفراح السودانيين وخاصة أهل الزرع والضرع طردياً مع وفرة المحصول في موسم الحصاد ويسميه القرويون « الدرت » ويسمون غلة الأرض « المسور » وعليه يتوقف شأن الحياة عندهم من يسر وعسر ، وزواج وختان . وقد جرت العادة أن يكون الدرت موسماً للفرح في حياة القرويين فترتفع نسبة الزيجات فيه عن غيره من المواسم . وفي موســم الدرت تمتلىء بطون الأغنام والمواشى ، وتدر ضروعها لبناً سائغاً للشاربين ، وفيه يتحقق الأمن الغذائي للزراع حيث يخزنون بعضاً من محصولهم في باطن الأرض تحسباً للظروف أو انتظاراً لارتفاع الأسعار ، بينما يبيعون البعض الآخر وفاءاً لدين أو لقضاء حوائجهم من ماكل ومشرب وملبس . ومع ذلك فقد يكون الدرت أسوأ مواسم العام كلها للذين لم يحالفهم الحظ في الزراعة أو داهم زرعهم مرض أو طير أو جراد ، فيتملكهم الحزن وتتراكم عليهم الديون ، وترهقهم أعباء الحياة . وبخاصة أولئك الذين (شالوا) في الرشاش أول الخريف ، والشيل عرف اجتماعى لدى المزارعين يقترض بموجبه المحتاج والفقير قرضاً عينيا من ذرة وغيرها . على أن يرده في موسم الحصاد بزيادة معلومة !! فاذا عجز أو تأخر في سداد ما عليه من دين ، أقبل رب المال في غير شفقة ولا رحمة ليصادر محصوله ويتركه صفر اليدين ، ثم يعمل على جدولة ما تبقى في ذمته من قرض كما تفعل الحكومات في عالم اليوم ، وقد يبلغ اللؤم والشراهة برب المال مبلغاً يدفعه لتجريد المدين من كل ما ينتفع به من ماشية أو متاع ، ليبيعه بثمن بخس وفاء لبعض دينه عليه !! وهكذا يصبح « الدرت » نعمة ونقمة في وقت واحد ، وهذه حكمة الوجود وطبيعة الحياة ، سعادة وشقاء ، لذة وألم ، أفراح واتراح ، فمن عصارة النقيضين ، كان نسيج

الكون ولباب الحقيقة الأزلية الأبدية .

ويبدو ذلك جلياً في كل مظاهر الوجود ، ففى أفراح أهل القرى مثلا ، وفي ذروة الانغماس في اللهو والرقص والغناء ، ينبرى أحدهم وسط الحلبة معلناً رغبته في تحدى الآخرين بحثا عن ألم يتجرعه ويجرعهم إياه ! ! وهى عادة فاشية في الأجيال السابقة وما تزال باقية في مجتمعات القرى والأرياف ، حيث ينفلت الواحد منهم إلى ساحة الرقص والغناء ، فيخلع قميصه يتمنطق به مرتكزاً على عصا غليظة واضعاً رأسه على أحد كتفيه ، فتنطلق الزغاريد مجلجلة من أفواه النساء والصبايا تستنفر الواقفين ! ! فيخرج من بينهم من يقبل التحدى ويرغب في « البطان » وهو تراشق وجلد عنيف بالسياط ، عادة سودانية قديمة لا يعرف لها تاريخ أو جذور . فينهال المتحديان بعضهما على بعض جلداً بكل ما أوتيا من القوة والمهارة حتى تتفصد الأجساد بالدم وتتشقق بفعل السياط ! !

هكذا يمتزج الفرح عندهم بالألم والعذاب ! وتنطلق حناجر النساء بالغناء والزغاريد تمجد هذا النزوع الغريب ، وتصدح بغناء وضع خصيصاً لهذه العادة الذميمة ، ولكنه يؤجج حماسة الرجال لتقبل الألم ،

فلما جاءت المدنية وحل الوعى ، وقامت مجتمعات المدن المترفة ، استنكرت المجتمعات السودانية عادة « البطـــان » وعدها الناس مظهراً للتخلف والوحشية ، ثم صاغوا أغنيات تستهجن وتحارب تلك العادة ، من ذلك :—

ياجنيات الضـــراء	لساني فيكم جـــرى
السوط مارجـــاله	الكلام في دوسة الخلا

وربما كان هذا العدول عن عادة البطان رد فعل للآثار التى يتمخض عنها أحياناً ، فكثيراً ما كان مدعاة للأحقاد والضغائن بين المتبارين وأهليهم ، حين يعمد بعضهم للافراط في الأذى ، وأقل آثاره خطراً التشوهات التى تلازم الانسان حتى الممات ! ! ومع ذلك لم تندثر عادة البطان تماماً إلى اليوم ، وقد كفل لها البقاء قروناً عديدة إعتبارها نموذجاً للشجاعة وقوة التحمل وإحتمال الألم ، وحدوثها أمام أعين الناس والحسان خاصة ، إلى ما يصاحبها من زغاريد وغناء وهدير وخوف .

* ٣ *

طيباً كان خريف ذلك الموسم ، وفيراً محصوله ، متعددة مناسبات الفرح في اعقابه ، واذ كنت أنعم بجملة من ألوان السعادة طوال فصل الخريف في مشروعنا الزراعى ، منتشياً برائحة الدعاش وعبق الطين وشذى الاحلام وما تهيأ لى من صبوات ومراح ، فقد قدر لى أن أشهد جمع محصولنا الذى بلغ ما يربو على خمسمائة جوال من الذرة ومائة جوال منَ السمسم ، فضلا عن مقادير وفيرة من الويكة واللوبيا ! !

ويعلق بذاكرتي من أحداث ذلك الموسم سفر أبي وآخى أحمد لبيع المحاصيل بسوق القضارف ، فما كانت الا أيام قلائل ، حتى عادا إلى الحواته يملأ نفسيهما زهو ورضا بذلك الجهد المظفر ويملأ جيب أبي مال كثير ، فما تصرم من الزمان وقت طويل ، فاذ بمتجره يمتلىء على سعته بكل أنواع البضائع ، صورة لما كان عليه الحال من قبل ، عاد أبي يفتح صفحات جديدة في دفاتره، بعد أن جرى ماء الحياة في شرايين تجارته بعنف وشدة ، حيث كانت الحرب والظروف التى تخلقها وتواكبها خير عون لذلك الجهد العظيم ليثمر ويؤتي أكله أرباحاً طائلة مدراره،فاقام لنا والدى داراً منفصلة عن المتجر داخل أحياء المدينة .

وما كادت تعود لأبي ثقته بنفسه والناس والحياة ، وتشرق شمس نجاحه مرة أخرى في الآفاق ، حتى كان صباح مقيـــت كئيب حيث فوجىء بعامل القضاء يصحبه أحا وجال الشرطة واقفين امام المتجر الذى أغلقت أبوابه بالشمع الأحمر ،ورجل الشرطة يمنع الناس من التجار والسابلة والمتطفلين من الاقتراب ، فوقفوا غير بعيد يرصدون الحدث فدنا أبي ونفسه تضطرم بالثورة والغضب، وكما حدث للآخرين منعه عامل القضاء من فتح المتجر فعلم أن الرجلين يتأبطان شراً ، ثم أطلعاه على الأمر بالحجـــز على ممتلكاته وتجريده منها لمصلحة الدائنين ! !

كنت قد جئت في صحبة أبي ذلك الصباح ، فلما أدركت ما يجرى امتلأت نفسى بالحقد وعيناى بالدموع ، وسمعت عامل القضاء يحدث أبي أن مفتش مركز القضارف قد أصدر أمراً بواسطة الناظر يعقوب بالحجز على أمواله سداداً لبعض كمبيالات الدائنين على رأسهم بنك باركليز ،ثم طلب منه مرافقته إلى « قلع النحل » مقر الناظر يعقوب وحاض

نظارته فأمرني أبي بالعودة إلى منزلنا بعد أن طمأنني وحاول تسكين روعى ، ثم مضى في صحبة الرجلين يرافقه أخى أحمد .

عشنا أياماً نهباً للمخاوف وآلام الفراق ، وما فتئت أفواهنا تلهج بالدعاء لله أن يعود أبي ظافراً يحتقب الأمان والنصر ، ولكنه عاد صفر اليدين كئيباً يعتصره الحزن ، فقد صدر قرار بتجريده من كل ما يملك وبيعه لمصلحة أرباب الديون ، ولم يمض وقت طويل حتى جاء بعض المسئولين يتبعهم رجل يحمل جرساً كبيراً ، وتم فتح المتجر بحضور أبي ثم شرع ذلك الرجل يقرع الجرس وينادى في الناس ان يسارعوا إلى فرصة العمر والمغانم العظيمة فتجمهر لندائه خلق كثير ، وطرحت للبيع أنواع البضائع والسلع المختلفة جزافاً ، والرجل يواصل النداء ، وجرسه يلهب مشاعر الطامعين ! !

أخرست المفأجاة المرتقبة فم أبي فلم يعترض على شيء ، ولكن أصدقاءه من التجار تقدموا محتجين على الأمر في بعض جوانبه ، حيث بيعت بعض السلع بثمن بخس وتعرض بعضها للتلف أثناء العرض ، فذهبت احتجاجاتهم ومحاولاتهم لإنصاف أبي أدراج الرياح ، فبيع كل شيء موجود بالمتجر وصودر المال .

صعق أبي وهو يعلم أن من بين الكمبيالات التى صدر أمـــر الحجز والبيع لصالحها كمبيالة قـــديمة تخص جـــدى لأمى ، وقد رفض التنازل عنها بحجة أن المال المحجوز اذا لم يكن لصالحه فهو قطعاً سيذهب لمصلحة الآخرين ، خاصة وقد صدر قرار غير معلن بالمقاطعة والحرب ما بقيت لأبي قدرة على النزال ! !

وعبست الدنيا في وجه أبي من جديد ، فقد جرده الدائنون من زينة الدنيا وزخرفها فما بقى له منها غير عبء ثقيل تنؤ بحمله الرواسى الشامخات ، جيش جرار من البنات والبنين باعدت بينهم الأيام ، وحطمت سعادتهم أيدى البشر ، ثم هم لا يبرح وأمل لايبين .

مرت أيام كالحة السواد طافحة بالحزن ، قرر أبي بعدها أن نعود إلى سنجة مرة أخرى ! ! وطلب منى وأخي أحمد أن نكتم أمر الحجز والمصادرة عن كافة الأهل بحلة الخليفة بابكر الشمباتي ففعلنا ، وودعنا معه الناس وهم يجهلون أو يتجاهلون ! ! وحملنا عصا الترحال — كرة أخرى — لنضرب في الأرض ، فبقينا بمحطة الحواتة وقتاً طويلا في إنتظار قطار المشترك حتى اذا جاء يلهث وتوقف بها أخذنا موقعنا في عربة الدرجة الرابعة وسط ركام المتاع والمسافرين ، في طريقنا إلى السوكى ومنها إلى موطننا سنجه .

ألا ما أشد عبث الأقدار !!

وما أمر عبوس الأيام !!

لقد توالت الضربات الموجعات على كاهل أبي تباعاً . !. !

فهوى من ذروة الغنى إلى قاع الفقر !!

كانت يده هي العليا تعطى جزافاً بغير من ولا حساب !!

وها هو اليوم شريد في الآفاق لا يلقى عصا الترحال !!

فهل من حكمة وراء ما يجرى ؟!

كيف يسوغ أن يتحطم كل شيء بين يوم وليلة ؟!

أسئلة وأخرى تحتشد على مرآة عقل صغير لا يملك لها رداً ، فتظل حائرة عالقة تصم الحياة بغموض الكينونة والهدف !! لغز هو الوجود !!

وما القيم والحقائق الا طلاسم ، أو ظلال لكليات مبهمة لا تسفر عن وجهها للعقل المجرد ولا تستبين الا من خلال حكمة الوجود في الأزل والأبد.

كنت أغوص في غمار هذا وغيره من ضروب التفكير تحت وطأة المأساة والقطار الكثيب ينهب بنا الأرض في لهث واعياء وكلل ، وما ان بلغ مدينة السوكى حتى نزعنا أنفسنا ومتاعنا القليل من جوفه الممتلىء ، ويممنا وجوهنا شطر «حى ابن عوف» حيث يعيش أعمامى عبد الرحمن وبشير محمد على برير ، كان الأول وكيلا لشركة « شل » مسئولا عن كل امدادات البترول بمدينة السوكى ، وكان الآخر أحد أساطين سوق المدينة وعلما في رأسه نار !! يمتلك مطعماً ومقهى فخيمين يرتادهما الناس من كل الطبقات ، إلى جانب إشتغاله بالخضر والفاكهة .

احتفى الجميع بقدومنا المفاجىء ، فانصرفت أنا إلى اللهو مع أبناء عمومتى وأصدقائهم

من أبناء الحى ، بينما التف حول أبي اخوته وهم يمطرونه وابلا من الأسئلة التقليدية ، ثم تركز الحديث بينهم حول ظروفه الأخيرة ، وهو يفصل القول ويبدى لهم ما كانوا يجهلون ، وبين الفينة والأخرى يرسل أخى أحمد ليطمئن على وجودى بين الصغار .

فى غمرة ذلك الود الخالص ، سعدت كثيراً بصحبة ابن عمى (محمد على بشير) وكان يصغرني سنا ولكنه شيطان رجيم، استطاع أن يفلك حصار أبى حولى بجملة من الوسائل والأساليب التى تنم عن ذكاء وحيلة ، ثم خرج بي إلى طرقات المدينة ومعالمها نتجول ونعبث بلا رقيب أو حسيب ، وقد شاءت له الأقدار — فيما بعد — أن يتزوج بشقيقتى « فاطمة » وينجب عدداً من البنين والبنات، وانتظم في سلك رجال التربيـة والتعلم فكان مبرزا بما حباه الله من نعمة الذكاء والمثابرة ، فبلغ مرتبة المدير لاحدى المدارس الثانوية ، ثم انتدب للعمل باليمن الشقيق ، وأجزم أنه حرى بمزيد من التألق والترقى في آفاق العلم والتربية . وقد قضيت معه في تلك الزيارة لمدينة السوكى لحظات أزالت ما علق بنفسى من الأحزان قبلها . واستأثر منى بحب باق عظيم .

كنت أرقب أبى عن كثب ، فألفيته حزينا مجهداً مهموماً، ولكنه يتصنع الجلـد والثبات والبشاشة فى وجوه الناس من حوله ، فكم آلمنى ذلك وأشقانى ، كيف يحتمـل مايلقى من ضربات القدر الموجعه ؟ ثم يتحتم عليه أن يكتم فى أعماقه صرخات الألـم ليبدو فى أعين الناس سعيداً بالحياة ؟!

وأصلنا رحلة العذاب فى طريق العـودة الى موطننا سنجة ، حيث استقبلنا الأهل بحفاوة وترحاب ، ثم فاجأوا أبى قبل أن يأخـذ مجلسه بينهم بأنه قـد رزق بنتا مـنذ يومين فقط !! وكانوا على وشك ان يبرقوه بالخبر فى الحواتة ليقوم بتحديد الاسـم وارسـال المـال اللازم للسماية !! تصنع أبى الفرح بالنبأ وهش لسماعه تجاوباً مـع سيل التهانى ووابل الامنيات السعيدة، ويقينى أن الأمر نزل عليه كالطامة الكبرى وتمنى ان لو أنشقت الأرض فابتلعته !!

لقد تعود أن ينفق على مثل هذه المناسبات وغيرها بلا حدود ،تكريما للمحتفى بميلاده

أو ختانه أونجاحه، واكراما لجموع المهنئين من أهـــله وجيرانه وأتباع طائفته الختمية .

فمن آين له بعد ذلك الان ؟!
وكيف يواجه الامر فى تلك الظروف الضنكة الخانقة ؟!
فوقر فى أعماقه من ذلك هم كالجبال ثقيلا ،فلما خلا بنفسة بدا وجهه مسودا وهو كظيم!

من هذه التجربة المريرة القاسية ، أدركت فيما بعد مغزى تصرف الاعراب فـــى الجاهلية وهم يئدون بناتهم حذر الاملاق ، فقد كانوا يفعلون ذلك وقلوبهم تتقطـــر من الاسى والحزن والالم ، حيث كانت المرأة عندهم كما مهملا لاغناء فيه ، فهى منذ ميلادها حتى خروجها الى بيت الزوجيه عبء يثقل كاهل أبويها ويرهقهما عسرا ، فكان وأدها خلاصا من ذلك العبء فى مهده وليدا ولكنه خلاص جد أليم (واذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت) لصاحت بملء فيها : الفقر قاتله الله ، فهو مهلك الافراد والشعـــوب قديما وحديثا ، وما الصراع على متاع الدنيا القليل الا مظهر للخـــوف من ذلك الشبح المتربص بالناس .

أضطر أبى ان يبيع ساعته الثمينة سرا بثمن بخس لمواجهة نفقات تلك المناسبة !! فما كان الامر عليه هينا ولايسيرا وقد ناله ألم ممعن دفين من بيع تلك الساعة ، وازددت اقتناعاً بأن القدر يترصده ويتبع خطاه اينما حل، وهو لايفتأ يردد بصوت مسموع «لاحول ولاقوه الا بالله» ثم يزفر من أعماقه قائلا «أنا لله وانا اليه راجعون» فاذا جنه الليل وتقلب على حجر المصائب وهموم الحياة هرع الى الله يسأله الرحمة والوعد الحق فى قوله «فان مع العسر يسرا إن مع العسر يســـرا» ثم ينهض من فراشه ليصلى ويلح فى الضراعه والدعاء

بت ليلتى صريعا للهواجس تقتتل فى نفسى لذة الوجود ، فلما أقبل الفجر وتحرك الكون يحتفى بمقدمة الناس ، كنت الوحيد الذى تخلف عن عجز وزهد ، ولم تفلـــح محاولات أبى وغيره من الاهل الذين جاءوا لتهنئتنا بسلامة الوصول فى ازالة ركـــام الحزن والشعور بالضياع فى ذلك الوجود الكئيب ، وقضيت النهار كاسفا حزينا شاحب الوجه كمن به عله أو داء عضال .

فلما جاء المساء توافدت نسوة الحى من الاهل والجيران على منزلنا بغية السمـــر

وتزجية الوقت ، بعد أن خرج أزواجهن كعادتهم فى الامسيات — الى مجلس آخر للمؤانسة درجــوا على عقــده دوريا بدار أحد الندماء من عشاق الحياة ، حيث ترتفع الأصوات بالغناء والضحك والدوبيت ،ودخان الشواء يعبق فى أرجاء المكان ، فتزدرد الافــواه قطرات عصير التمر المخمر المنقوع ، ليبسط سلطانه على العقول طغيانا أو ضعفا حسب نوعه ودرجة قهرة التى يعرفها ويخضع لسطوتها الاتباع والحواريون ! !وتبدو مظاهــر ذلك الخضوع بنسبة طردية على تجاعيد الوجه واغماض العينين وفحيح الحلق عند الرشفة الاولى عادة ! !

هاهنا تختلط الضحكات وعبارات المجون والغناء باللعنات وصيحات الغــضب وبلجاجة المتنازعين على أمر من الأمور ، كالزراعة والقبيلة وفتاوى العلم والدين ! ! إذ يكون سلطان الخمر قد خلع حصانة الاشياء والمقدسات وكثيرا ما يحتدم الجدال بــين القوم على منافع الخمر ومضارها وموقعها بين التحليل والتحريم ، وينتهى الامر عــادة باقتناع الجميع بحرمتها واضرار تعاطيها ثم يرفع أحدهم يديه ورأسه ضارعــا الى السماء — يارب توب علينا من الخنضل ده — تف ! !

ثم ينعقد ســامر القوم مرة أخــرى ببيت نديم آخر يكــون قد أعــد للامر عدته من مأكل ومشرب ومجلس وغير ذلك وهم فى أمر الاعداد يتنافسون ، وهو يكشف ما بهم من يسر الحال وعسرها راغمين ، فيدور بينهم نفس الحديث مع اختلاف فــى التفاصيــل والتعليقات والمواقف واضافة مايستجد فى حياتهم من شئون .

وتــدور عجلة الايام . .

ويقلع معظم القوم عن شرب الخمر بعد سن الاربعين أو بعدها كما جرت عادة الناس إلا قليلا منهم ، عندئذ يتدرج التائبون فى سلك الصوفية ، يكثرون من الذكر والعــبادة محواً لآثــام الصبا ومجون الشباب ، وادراكا لما فاتهم من الطاعات وألوان الثواب .

أما مجالس النســاء فقــد كانــت تنعقــد على شــرب القهــوة أو الشــاى باللبن المقنن وكما هو الحــال فى مجالس الرجــال ، تخوض النسوة فى كل امر يعــن لهــن مثل الزار والزواج والاحداث اليومية وكرامات الأولياء والنميمة ، أما فى تلك

الليلة فقد تركز حديثهن على (النيل الجارى الما حفروه بالطوارى، وتسكنه الحور، الحوارى) جنبا الى جنب مع التماسيح والاسماك ، ومنها تلك السمكة التى تحمل فى جوفها خـــاتم سيدنا سليمان عليه السلام، روت احداهن أن سيدنا سليمان ملك العالمين بذلك الخاتم الذى حباه به الله تعالى فشاد له ملك لم يكن لاحد مـــن قبله ولامن بعده أبداً .

وأضافت تحـــدث لداتها من نســوة الحى فى ذلك المجلس ، أن لخاتم ســـليمان عبيدا وخداماً مـــن الجن خاشـــعين ينفذون كل مايطلبه من يملك الخاتم وهـــم صاغرون فقد كانوا يرهبون ذلك الخاتم وسيده سليمان ، فلما مات عليه السلام لم يعلم الجـــن بموته الا بعد أن أكلت الارضة منسأتة ! ! فهرعوا اليه طامعين كل يحاول انتزاع الخاتم والاستئثار به ، فسبق أحدهم وانتـــزع الخاتم من بنصـــره وولى هارباً ، وطارده أقرانه وحاصروه ، ودارت فى أجواء السماء معركة حامية بين أولئك النفر من الجن ، كل يريد الخاتم لنفسه دون الاخرين ، وفى غمرة ذلك الصراع الرهيب سقط الخـــاتم منـــهم فى لجـــة أحـــد البحـــار أو الأنهار وابتلعته سمكة كانت تبحث عن رزقـــها فى قاع ذلك البحر أو النهر ! ! ومنذ ذلك الحين أخذت الاســـماك تتبادله واحدة بعد اخرى عبر العصور ، ولايزال الناس يحلمون بصيد السمكة التى تحمل فى جوفها خاتم سيدنـــا سليمان عليه السلام ، والسعيد من يحظى بذلك الصيد الثمين .

وما كادت المراه تسكت برهة حتى أردفت احدى جليساتها وهى تقسم بالله وكـــل أمر مقدس عزيز أنها يوم كانت تقف على شاطىء النهر (أو البحر كما تعارف عامة أهل السودان على تسميته) رأت بعينها هاتين اللتين سيأكلهما الدود يوماً رات شاباً من الحور يطارد احدى بنات الحور وهى تطارد سمكه تجرى على ظاهر الماء فى حرص وفزع ! ! فما راودها الشك لحظة أن تلك السمكة الطريدة هى التى تحمل خاتم السعد والمنى ! !

فأثار قولها جدالا طويلا بين النسوه حول ذلك الامر ومكان حدوثه وزمانه وصورة الحور والحوريات ، ختمته المرأة بتأكيد روايتها وحددت لحدوثها مكانا يعرفه الجميع .

فى تلك الليلة لم أذق للنوم طعما ، وتقلبت على جمر الاحلام والامانى أرتقب بزوغ الفجر فى ليل تطاول كأنه الدهر ، فقد عزمت أن اصطاد تلك السمكة

ومنيت نفسى بامتلاك الخاتم المسحور ورتبت مايكون بعد ذلك من شأن مع الحياة والاحياء، فأصدر الامـر أولا للخـدام من الجـن أن يملأوا خزائن أبى مالا وذهبا وكـل حجر كريم ، ثم أمرهم ببناء قصر شاهق منيف يجمع فيه شتات أسـرته من جديد ، يلى ذلك أمر صارم بهدم مؤسسات شركة بوكسول واحراق ممتلكاتها بما فيها ومن فيها من الانجليز الاوغاد المتسلطين !! الى غير ذلك من الامنيات والرغبات الحبيسة .

وجاء الصباح بعد مخاض عسر طويل ، فخرجت الى السوق واشتريت بما امـلك من المـال (صـناره) وخيطاً طويلا قـوياً ، ثم جمعت من أنواع الطعوم أكثرها اغراء وجاذبية للاسماك ، ومضيت والامل ملء اعطافى صوب تلك البقعة مـن النهر التى حددتها المرأة ليلة الأمس حتى بلغتها ، وقضيت نهارى كله فى محاولات لايدركها اليأس ، علنى أظفر بصيد السمكة التى تحمل خاتم سليمان .

هناك أفتقدنى أبى وأهلى ،وذهبت بهم الظنون كل مذهب خاصة وهم يعرفون ولعى وشغفى بالعوم والسباحة، فيمموا وجوههم شطر النهر بعد أن كلت أقدامهم من البحث فى كل مكان آخر ، فعثر على أخى أحمد وانا على حال من الإعيـاء والاحبـاط لايوصف.أذهله أن يرانى فى ذلك المكان وحيدا وقد تفجرت مآقى بدموع الفشل ومرارة الهـزيمة !! يراودنى شوق عارم فى مبارحة دنيا الناس والعيش فى قاع ذلك النهر، بين عرائسه ومخلوقاته الغريبة،والحياة الاسطورية المذهلة التى تروى عن الابطال المغامرين الذين عبروا برزخ الخوف الى ذلك العالم الرائع وتزوجوا بالحور الجنيات ، فظللت مكـانى على الشاطىء موزع النفس بين الرغبة والرهبة .

يمدنى خيالى بأعذب الرؤى والاحلام ، ويذروها الخوف من المجهول بددا، حتى جاء أخـى أحمـد، وانتشلـنى مـن وهـاد ذلك الصـراع الرهيب !!.

اسـتدرجنى أحمد ليعلم سر بكائى ووحشتى وخروجى الى النهر ومكوثى فى محرابه طويلا فلما أخبرته بما كان ، ضحك لسذاجتى وحاول اقـناعى بكذب المرأة واختلاقها لقصة من نسج الخيال فلم أقتنع لاول وهلة ، وظننت ــ أنه يريد ابعادى عـن المكان وصرفى عن الامر لينفرد بصيد السمكة ويستأثر بالخاتم دون العالمين !! ثم كشفت

له مايراودني من الظن نحوه ونحن نقطع الطريق الى المدينة ، فضحك ساخرا ليبعد عن نفسه كل تهمه بالانانية وحب الذات ، ثم عاد يؤكد أن الامر محض خيال وافك واختلاق

عهدي بأخي أحمد — رغم انكاره لفرية تلك المرأة انه متدين متصوف مؤمن الى أقصى حدود الايمان بمسائل السحر وكرامات الأولياء وقوى الغيب وقدراتها الخارقة اللا محدودة !!

من ذلك مثلا انه قد وفد على البلدة شيخ صوفي ذائع الصيت يعرفه القاصي والداني جاء في نفر من أتباعه المقربين على ظهور الخيل والحمير والجمال والاقدام، فخرج الناس خفاقاً لاستقبالهم والترحيب بهم وأكرام مثواهم بينهم، كما فعل أهل القرى التي مروا بها من قبل، وكان اخي أحمد حفياً بمقدم ذاك الشيخ فلما حط رحاله واستقر به المقام في نزل أعده أحد مريديه المؤمنين بولايته من ذوي الدين والثراء، أخذني أحمد لزيارته والتبرك بمجلسه ودعواته الصالحات فألفينا الشيخ جالسا تجلله المهابة والوقار ، وبين يديه رب الدار وثله من المريدين ،

كانت الدار تعج بالخلق من كل فج عميق ، رجالا ونساء شيباً وشبابا يحمل الاعمى الكسيح فاذا اذن لهم الشيخ بالزيارة اقبل البعض في لهف ليقبل يده ويسأله نجاح المقصد أو يفضي اليه بما يريد ، فيرفع الشيخ كفه ضارعاً وهو يتمتم بألفاظ غريبة غامضة يذهب الناس في تأويل معانيها كل مذهب ، ثم يأمر جماعة من أتباعه يقبعون في صمت قريباً من مجلسه وبين أيديهم ألواح يكتبونها ثم يغسلون ما كتبوا من آيات ورسوم معلومة ، وأخرون يعكفون على كتابة البخرات وطيها على هيئة مخصوصة ، فيأمرهم أن يزودوا زائره بشيء مما يكتبون من محاية أوبخرات أو كليهما أحياناً !! وذلك لقاء جعل من المال أو العروض يسميه الناس (البياض) .

درج الشيخ وأحباره أولئك على الطواف بين حين وآخر على القرى والبلدان والامصار ، وتعتبر زيارته موسما يترقبه الفقراء والمريدون وذوو الحاجات ، حيث تذبح الشياه والخراف والعجول، وتصف الموائد العامرة الباذخة للناس كافة، فيأكلون في شراهه ونهم بدعوى الاكثار من البركة !!

وهم فى حقيقة الامر لايرومون سوى ملء بطونهم الخاوية أمداً طويلا ، ثم تدور عليهم أكواب الشاى ذى النعناع والقرفة فيشربون بغير حساب !! وقد يأتى بعد ذلك أن تقام حلقات الذكر وترتفع أصوات المنشدين بمدح الرسول الكريم ومناقب أشياخهم ذوى الصلاح والولاية فيلتحم الجمع يذكرون الله قياما وقعودا كما البحر مدا وجزرا ، فتحلق ارواحهم فى مدارج الحب الالهى ومقامات السالكين فاذا أرهقهم السعى عادوا الى ألارض يأكلون من طيبات مارزقهم الله حتى اذا بشموا واتخموا تفرقت جموعهم فى كل اتجاه ، وخلا الشيخ بنفسه يتعبد والناس نيام .

جهد أخى أحمد أن يقدمنى لذلك الشيخ فأفلح وابتدرنا بالسؤال عن أبانا ومضى يستفسر عن أحواله وأخباره ثم أوصانا به خيرا وقبيل أنصرافنا أمر لنا بشىء من المحاية والبخرات وحفنه من التمر وأمرنى — وهو يبتسم مداعبا أن أكل التمر وحدى رغم أن الفقراء — كما قال — اقتسموا النبقة فلم أدر سر تلك الخصوصية ومغزاها ولما خرجنا من عنده ظل أحمد طوال الطريق يمتدح مناقب الشيخ ويصفنى بأننى جد سعيد ومحظوظ لتودد الشيخ الى ومنحه اياى تلك التمرات التى تحمل سر الشيخ وبركته ، وطفق يحدثنى عن كراماته وجريان الخير على يديه حديثاً أشعل فى نفسى جذوة الأمل الذى ضاء وميضه بعد ان فشلت فى العثور على السمكة التى تحمل فى جوفها خاتم سيدنا سليمان .

عزم أبى من جديد على السفر الى تشاد ليمارس التجارة فى أرض لاتطالها قوانين الحكومة الانجليزية التى قضت بتجريده من كل ما يملك لمصلحة دائنيه الاجانب لخمس سنوات عجاف ففى تلك الأرض يستطيع الوقوف على رجليه وتحقيق طموحاته فى الحياة ، حتى اذ عاد يوما استجمع شمل أسرته وقوام مجده ومكانته بين الناس ، فتكالب على اثنائه ورده عما اعتزم طائفة من اصهاره وبنى عمومته واصدقائه . وأشاروا عليه بالبقاء ومزاولة التجارة تحت أسمائهم حذر ملاحقة القانون والدائنين وتعهدوا جميعاً بتمويل تجارته مهما يكن حجمها ونوعها ومارسوا معه كل صنوف الاغراء والحث على القبول ، فلم يجد أبى مناصا من النزول على رغبتهم رغم تخوفه من تكرار ماحدث من قبل .

خرجت الفكرة بعدئذ من دائرة التخطيط إلى حيز الوجود ، ووفي كل طرف بما تعهد به والتزم ، فقام أبي في همة واقبال ليعالج أمور الحياة والعمل التجارى ببصر نافذ

وصـبر دؤوب ، وارتـأى أن تكـون البدايـة متواضعـة لاتلفـت الأنظـار المترصدة ، فأستأجر دكانا صغيراً في موقع مناسب وكتب عقد الايجار باسم أخي أحمد تحوطا لبنات الدهر ومفاجآت الدائنين ، كانت فرحة أفراد الأسرة عظيمة بما حدث ووقع في روعنا أن وجه الحياة قد زايله الكلوح والعبوس .

كذلك اقترح العم (الضيف التجاني) صهر أبي أن يلحق معه أخي أحمد ليعلمه صنعة تقيه الفقر وغائلـة الأيام وهي الحيـاكة ، وكان الضيـف مشهوداً له بالمهارة في حياكة الملابس على النمطين الأفرنجي والبلدي حين كان يمارسها أمام دكان أبي وقبل أن يتحول إلى تاجر فاتورة ومالكا لنفس الدكان !! ولعله أراد أن يرد الجميل للرجل الذي دفع به في دروب الجاه والثراء في تجرد ونكران ذات . فوافق أبي على ذلك الإقتراح وجرد أخي أحمد للمهمة الصعبة ، ناصحا له بالمثابرة والجد والطاعة لمعلميه والتأدب معهم . وراقت الفكرة لأحمد وصادفت هوى في نفسه ، فقد كان متجر أبي ببضاعته المحدودة لا يسع طرفاً آخر للعمل ، فضلا عن أن مهنة الحياكة خاصة الأفرنجية كانت تعد وقتئذ في طليعة المهن الراقية الرائجة مع تحولات ذلك المجتمع وتطلعاته الحضارية ،

ذلك أن آثار الحرب وردود فعلها لم تقف عند حد ، فكما ألهبت المشاعر السياسية وأنعشت الحياة الاقتصادية ، أيضاً كان لها تأثير قوى على الحياة الاجتماعية والفنون والذوق العام والأخلاق والسلوك ، فظهرت موجة عاتية من مرجات التحرر ورفض القديم ، من العادات والتقاليد ، وقد أسهمت في الترويج لتلك النزعة مؤثرات وافده خلخلت دعائم الموروث من كل شيء ، اذ حمل المتعلمون رسالة التبشير بالإفكار والاتجاهات التحررية التي تشربوها من الصحف والكتب والمجلات العربية والأوربية فأخذت الحياة في المدن الكبـيرة على وجه الخصوص ـ تأخذ طابعاً حديثاً مغايرا لما كان عليه الحال من قبل ، فارتدت الفتيات (الكلوش) بديلا للفساتين الطويلة السابقة ، وغنين للحب والغرام وكان ذلك قبل حين ـ عاراً لا يمحوه الا الدم ـ وسفرت وجوههن بعد طول حجاب !! إلى غير ذلك من محدثات الأمور وعلامات الساعة كما وصفها المتزمتون من أنصار الأصالة والتقليد.

تطورت تبعاً لذلك مهنة الحياكة وعظمت مكانة اربابها بين الناس ،فأضحت لهم مكانة إجتماعية ومورد سخي للكسب لا تحققه الحرف الصغيرة الأخرى ، وذلك ما دفع أخي

احمد لامتهانها وتعلم دقائقها . ليبرز من خلالها ملكات مطمورة أنكرها عليه الآخرون

جاء دورى فى دوامة المتغيرات المتلاحقة، فتطوع أحد أقربائنا بنصح أبى ألا يقبل والحال كذلك بتصعيدى فى سـلم التعليم !! لتكاليفه الباهظة من المصـروفات المدرسية ناهيك عن مصروفات شخصية لابد منها كالزى المدرسى وقيمة الكتب والنثريات اليومية وغيرها !! ولهـذا فالظروف تقتضى الاكتفاء بما نلته من تعليم بأكمال المرحلة الأولية .

وضرب القريب الاريب مثلا بنفسه ليثبت أن لاحاجة البته لمزيد من التعاليم لخوض غمـار الحياة واحراز مغانمها ، فحدث بشىء من الفخر والاعتداد — أنه لم يكمـل المرحلة الأولية ومع ذلك فهو اليوم تاجر كبير يكسب من المال مالا يحلم كبار الأفنـدية والموظـفين بمعشاره !! أضف الى ذلك مكانته الاجتماعية الرفعية التى لايرقى إلـيها ذوو الياقات البيضاء وأن أدلجوا فى المسير ، واردف الرجل ساخراً : — ان الراتـب الشهرى للعاملين فى خدمة الحكومة يسمونه الماهية ، احتقارا وتصغيرا لشـأنه بـين الدخول ، وحقيقة اللفظ — عند العارفين — سؤال عن جمله مايتقاضاه المرء فى الشـهر كله، فاذا قال : هى كذا، قيل له : وماهى : على سبيل التحقير والسخرية اللاذعة !! وأضاف ضاحكاً ان الافندى من يوم خمسه تلقاه عدمان أب خمسة قروش وأكد الرجل الحصيف الخبير : أن العمل بالتجارة لايعدلة شىء آخر وهو لايمانع أن يلحقنى بمتجـره الكبير كصبى . نظير راتب شهرى معلوم ، يدفعنى للمثابرة فى العمل وتجويدة .

وافق أبى على الفكرة جملة وتفصيلا، ونقلها الى فى شكل قـرار أبوى لامعقب عليه لم أجـرؤ على مجادلة أبى فيما قر عـزمه عليه ، ولكـن ملامح وجهى لدى سـماع القرار نطقت بما لاتعبر عنه الكلمات أحسست أنى أهوى الى قاع سحيق لايدرك آخره ، شىء بين الموت والنوم استلبنى من الحياة واليقظة، فعشت نهبا للهواجس والاحباط ، كنت أحس طعم الفجيعة مراً كالعلقم ، وأضحى عقلى الصغير معتركا للخيالات والافكـار ، يتبدى لى القدر وحشـا مهـولا ثم لا ألبث أن أتعلق بأهـداب أمـل بعيد بان يعود للايام صفوها بعد كدر ، فأعود لمواصلة تعليمى بين اقرانى كما كنت دائما ابنا للعز وقندولا لعيش الريف !!

فى انتظار ذلك الامل السـراب ، كنت اسـتيقظ من أحـلامى على ذلك الواقع لاواجه مصيرى فى الحياة ، ومسيرى فى ركاب ذلك القريب الاريب ، وكان مـن أثرياء المدينة وأحد كبار تجارها كان شعار قريبنا فى الحياة (اذا كسبت سداسى وانفقت خماسى فذاك عين الافلاس) وهو معروف بالحرص والتقتير فى حياته العامة لا الخاصة ،

كان يترجم فلسفته فى الحياة سلوكاً يحاول أن يلزم به الاخرين فما أكثر ماسمعته يقول :ــ ان مصائر الناس فى الدار الاخرة من صنع الله عزوجـل وتدبير حكمته ، قدرها لهم وقضت بها مشيئته قبل ميلادهم ووجودهم فى الحياة الدنيا سعادة أوشـقاء أما حظوظهم واقدارهم على وجه الارض فهى من صنع عقولهم وكسب ايديهم ! !

والواقع ان الرجل كان عقلانى الفكر والسلوك لايعترف للعاطفة بسلطان ، وهـو بمقياس العصر ومنطق الظروف الحالية حكيم نافذ البصر حديد البصيرة ، يردد فى كل حين «أكلو أخوان واتحاسبوا تجار» ولكن المحاسبة لا تتم الا لمصلحته دائما ، يرتدى مسوح الاتقياء وهو من المطففين لاتفارق يمـناه مسبحـة الكهرمـان البنفسجى ، ولاتفارق السيجارة فمه أو يسراه ابدا فهو مدخن شره يشعل السيجارة من سابقتها فتخرج تسبيحاته وابتهالاته عبر سحائب الدخـان .

أغـدق الله عليه المـال والعقار وكل ماتشتهى الانفس من متاع ، وأمسك عنه نعمة الذرية فلم ينجب بين مجموعة من البنات سوى ولدا واحدا بلغ الثامنة عشر وعقله دون ذلك بكثير ، فهو فى ريعان الصبا وباكوره الشباب جسما مفتولا قوياً ، ولكن نموه العقلى توقف مبكرا عند الطفولة ، قد حباه الله مظهراً جميلا يغرى الناظرين ، وحرمه نعمة العقل الا قليلا ! ! فاذا تحدث أو تحرك أو سكن ، كشف عن جوهر غير صقيل .

وماكان للأب المفجوع أن يرضى بحظه ، فبذل ماله وكل ما أوتى من جاه عريض ليدفـع عـن فلذة كبده ووريث أمجـاده المـادية الواسعة ذلك البلاء والحرمان فما قدر ، ومافتىء يبحث عن ضالته فى كل مكان ، حتى سلم آخر الأمر بالمشيئة ، واستسلم مكرها للواقع ، فادعى لابنه الصلاح والولاية ! ! وروى فى صلاحه روايات من نسج الخيال زاعما أنه صلاح فطرى لامكتسب ، وليس ذلك على الله بعزيز ! !

ومابرح ابنه يتقلب فى معاطن الخبال وقلة العقل ، لايثنيه وعد ولايردعه وعيد ، يفعل مايشاء وقتما يشاء وكيفمـا يريد!! فـاذا أحس أبوه الحرج من تصرفاته البلهاء ضحك فى افتعال وترجم احاديثه وأفعاله شـواهد تقطع بصدق صـلاحه فى العالمين. ولكن الابن سرعان مايبادر إلى تكذيب ذلك الزعم بقـوله أو مسلكه غير السليم ،ممـا يجعله موضعاً للتندر والسخرية مـن الناس على مرأى مـن أبيه ومسمع !! فيعانى هذا حرج الموقف وزراية الحاضرين ولايجد مخرجاً لمغالية الظرف إلا باطلاق دعاباته الساخرة وروحه المرحة الضحوك .

وفى ذلك الجو العابق بالحرج والضحك والسمر والطلاقة ، كنت أقضى مع قريبى نهارى فى دكانه ، وشطراً من الليل مع أسرته بالمنزل ، فاذا كلت النفوس مـن المـرح والصخب والضحك ،انصرفت لسماع الغناء من (فنقراف) من ذلك النوع الذى يدار باليد فيرقص الجميع طرباً وانتشاء على شدو اغنيات المطربين المصريين والسودانيين ، ولكثرة سماعهم لتلك الاغنيات على مر الأيام والليالى ،حفظوها عن ظهر قلب ، وجودوا الحانها كل التجويد فكانوا يرددون مع المطرب مقاطعها فيما يشبه الغناء الكورالى المعروف ، كذلك كانوا ذووا عناية بالغة بانواع الطعام والشراب ، يتفنون فى صناعتها وتشكيل اصنافها ونصب موائدها ، ثم يقبلون عليها فى نهم وتلذذ ، فيختلط فى ارجاء المكـان الضحك بالكلام وزمجرة الافواه وهى تقطع وتمضغ وتزدرد فى سباق محموم ، فاذا فرغوا عادوا إلى المرح متخمين ناعمين .

لم تكن تلك الحال وقفاً على أسرة قريبنا وحده بل كانت مدينة سنجة زاخرة بالمغريات ، ويأتى فى مقدمة هذه المباهج فن الغناء ، وهو هاهنا لايصدر عن الة صماء تفتقد الحس والشعور ،وانما ينبعث دافقاً من ذوب الروح الشفيفة ، وينفذ إلى القلب مباشرة بغير وسيلة ويكـون له أثره وسحره وسلطانه على النفوس .

وقد انتشرت — يومئذ — فى البلاد ومحافل الفن فيها اغنيات «التمتم» ذلك الإيقاع الصاخب السريع الراقص ، ينافسه فى الزيوع والانتشار أغانى ورقص «الجرارى» القائمة على ايقاع مـن تصفيق الايدى وحمحمة الصدور .

قوبل التمتم والجرارى بجفاوة بلغت حد الهوس من جيل نزاع إلى التغيير فى كل شىء وكانت اغنيـات ما تعارف الناس على تسـميتها بالحقيبة فيما بعد، تعانى الشيخوخة وبوادر الانصراف والتحول ، ولم يشفع لهـا ارتداؤها لبوس الحداثة ودثـار الموسيقى، فهجرها الشباب واقبل على اغنيات التمتم يحتفى بها فى الافاق ، مأخوذاً بجدتها وحرارة ايقاعها إذا ماقيست برتابة الحقيبة واحتشام رقصاتها وجلال معانيها ! !

وبسبب المعارضة القوية المتزمتة كانت اغنيات التمتم تؤدى فى الحفلات والمناسبات العامة بكثير من الاحتشام والتحفظ ، وتمضى على سجيتها داخل البيوت المغلقة والمجالس الخاصة ، فاذا اجتمع لفيف من النســوة والفتيات فى غفلة من الارصاد والرقباء المتزمتين تحول المجلس إلى مايعرف اليوم باســم (القعدة الدكاكنية) وما أكثرها فى ذلك الزمان ، فتقدم المأكل وأنواع الشراب مثل العسلية والشربوت والقهوة على حسب ظروف الاسرة المضيفة ومكانتها الإجتماعية والدينية ، ثم يخلــعن ازار الحشمة وقيود المجتمع ، قرباناً لاله الطلاقة ، والحرية .

كان قريبنا متعهداً لغذاءات مستشفى سنجة ، إلى جانب تجارته الواسعة ، فأسنــد إلى مهمة مساعد كاتب ، مع رجل متمرس منوط به هذا العمل منذ أمد طويل ، فلمـــا شاطرته المهمة حينا من الدهر أشاد بكفاءتى وقدراتى المذهلة على أداء مهام العمل .

لم يجاوز الرجل الحقيقة فى اطرائه واشادته ، فان المقارنة بين مستوى تلاميذ المرحلة الأولية فى ذلك الزمان والوقت الحاضر مؤلمة ، تصيبنى بالاسى والفجيعة فقد كنت احرر الخطابات وأقرأ قصص الصبيان وأنا بعد تلميذ بالسنة الثانية ،وكنت أدمن قراءة القصص المبسطة كالسندباد البحرى ورحلات ابن بطوطة ومؤلفات كامل كيلانى وغيرها بالسنة الثالثة ثم عاونت أبى فى ضبط حسابات متجره وحررت له الفواتير والمكاتبات التجارية وبدأ وعيى يتفتح على الدنيا وتيارات الفكر والثقافة عند اكمالى المرحلة الأولية! ! وها أنا أؤدى وظيفتى كمساعد كاتب بكفاءة واقتدار ومهارة شهــد بهـا الآخرون ، واجزم انى لم اكن فى ذلك استثناء ولاحالة شاذة بين أبناء ذلك الجيل، ولامر لا اعلمه على وجه الدقة والتحديد كانوا كلهم أو جلهم على شاكلتى أو أفضل ! ! ويخالجنى شك عظيم فى مقدرة تلاميذ المرحلة المتوسطة عــلى أداء بعض ذلك اليوم . فهل تعود بنا عجلة التعليم المدرسى القهقرى ! ! ! عجبى ؟؟؟

اضحى لى وجود فاعل فى محيط ذلك المستشفى . فواجهت بذلك عالم المهـــن الطبية استبطن ماوراء القشور ، فصرت كياناً صغيرا فى عالـــم كبير خطير ، مبهورا بهالة من القداســـة أضفاها مجتمع ذلك الزمان على مهنة الطب والعاملين فيها بغير تحفظ فقد ظهـــرت خلال سنى الحرب الاخيرة بعض المخترعات وجملة من المكتشفات الطبية الحديثة المذهلة وهى ثمـــرات للعلم التطبيقى ، وادى ظهورها الى انقلاب سريع فى حياة الامـــم والشعوب .

حارت عقولهم واذهلها ذلك الاختراع الذى توصل اليه العالم البريطانى الجليل الاسكندر فلمنج . فقد استطاع فلمنج ان ينقل البشرية بإكتشافه العظيم (المضادالحيوى) من مستنقع الامراض والاوبئةالفتاكة وانقذت مركبات السلفة والبنسلين ملايين البشر من موت محقق بفعل الامراض الصديدية والصدرية كالزهرى والدرن والأمـــراض التناسلية ... الخ من ثم نسجت هذه الاختراعات الحيوية خيرط الهالة المقدسة على مهنة الطب والعاملين فيها ، فاحتلت المهنة واربابها مركز الصدارة بلا منازع ، وانعكس ذلك فى الاغنيات الشعبية ، فلاول مرة يخرج الغنـــاء من دائرة الغزل والوصف والهجـــران والوصـــال ، ليوظف قدراته السحرية فى تمجيد نشاط انسانى بعيداً عن العواطف الفردية فغنى النـــاس للسلفة والبنسلين وحقن (ال سكس ناين ثرى) وحفلت اغانى التمتم بأسماء المضـــادات الحيوية ومن يقوم بأمرها من الاطباء والممرضين وأدوات الجراحة والعمليات مثل : —

البنســـلين يالتمرجى * عـــلاج متين يالتمرجى
نادوا الحكيـــم ياتمرجى * دكتور أمين يالتمرجى
ارخى الستار يالتمرجى * جيب الإبار يالتمرجى
ســيب الهظار التمرجى * انا دمى فار يالتمـــرجى
شبيك ليك يالتمـــرجى * أنا بين يديك يالتمرجى

ولا غـــرو أن ترتدى تلك المضامين النبيلة التى ســـاقتها تطلعات فتيـــات الامس القريب رداء المجرن والخلاعة ، فذلك هو رد الفعل لكبت القرون وسطوه التقالـــيد وقهر المجتمع . فى هذا الجانب كان للفتيات صوت داوى اقضى مضاجع الاباء وحطم

صروح العـــادات الراسخة المكينة ، حيث جاءت الدعوة الى التحرر والانعتاق مواكبة لما كانت تموج به بلاد العالم العربى الاسلامى من صرخات الرفض لمجتمع الحريم والحجاب والعزلة ، بعد ان عمر فى الارض طويلا .

ظهـــرت الدعوه الى تحـــرر الفتـــاة من كل قيد صنعته شرائع البشر ، وطالبت بالمساواة المطلقة مع الرجل ، لتمارس حقها فى العمل والإختلاط واختيار شريك حياتها واختبار معدنه قبل الزواج ، فتخرج معه وتبادله الحب علانية بلا حرج ولاخـــوف !! تجـــرأت الفتاة ونزعت البليمه فبدأ وجهها سافراً . وجاء رد الفعل قويا عاصفا ولكن رياح التغيـــير كانت اقوى واعنف ، وتحررت كل الفتيات من ذلك القناع والقينه فى مذبلة التاريخ وانتشت الفتاة بخمر الانتصار على الخمار .

ثم فاجئت الناس ذات ليلة حافلة ، بمواجهة الرجل وجهاً لوجه وكانت من قبـــل توليهم ظهرها فى حفلات العرس والختـــان والمناسبات الســـعيدة ، وهى تجلس عـــلى الحصيرة ، فأثار تصرفها ثائرة المتزمتين ، ولكنها أيضاً كانت سحابة صيف لم تلبث ان انقشعت ، وعاد لسماء الفتاة صفوها ، وشرعت تســـتعد للضربة الثانية !! ، فدافعت عن حقها فى ان تحب وان تكون محبوبة عبر الايقاع الصاخب والنغم الشجى الخلاب .

قالت فى نداء حار :—

يايمـــــة يايابـــــة * ماتقـــولـــــوا كضـــــــابة
الحـــب أنا مابديتـــو * ده مـــن زمـــن الصحابة ؟ !!

وقالت فى اغنية أكثر جراءة وامعاناً فى التمرد :—

سرحت مقصوصـــنى * وشبكت دبـــوســــــنى !!
يا والـــدة مالك بـــى * أنا مارقة فى خصـــوصى !!

ثم أردفـــت :—

بالله يا الامـــــــــات * ابقـــن كبـــــار عاقـــــلات
انتن زمنـــك فـــات * ده زمـــن شـــباب ناهضـــات

خرجت الفتاة من قمقمها كالمارد تطالب بحقها فى الحياة ، وتفصح عـــن رغبتها الحبيسة وخاصة ماتعلق منها بعاطفة الحب ، أذكر ان فتاة كانت تحب جندياً فى قـــوة دفاع السودان وكان يبادلها حباً بحب ، فتقدم لخطبتها ليتوج ذلك الحب الجارف ولكـــن أهلها رفضوه بحجة التزامهم بزواجها من ابن عمها منذ الصغر !! جرياً على عادة توارثهـــا الناس كابراً عن كابر ، فلما علمت الفتاة بما كان من أهلها مع الجندى الحبيب ، أعلنت تمردها على ســـلطان تلك العادة وصرحت للمـــلاء بما ينطـــوى عليه قلبها العاشق مـــن الحب !! واصرت على الزواج بمن يهفو له قلبها المتيم ، فصبت هذا كله فى قالب غنائى مؤثر على ايقاع الجرارى الحار حرارة تلك العاطفة المتقدة فى حنايا قلبها البكر قالت : —

جنى الصـــيد الجافل ونارك يا الوليد!! ماكـــلانى للمضافر

يا أهلى الكبـــار ليه مابتجبروا الخاطـــر؟؟ !!

فصعق أهل الفتاة وغيرهم من غلاة المتعصبين من هول ما قالت ،فتصدوا لردعها وكبح جماح ثورتها ووجدوا فى كلمات اغانيها أسلحة تشرع فى وجهها الجميل الفاتن ،فرموها بالانحلال وهدم القيم والخروج عن التقاليد ؟!فالحب عندهم جريمة نكراء لا تغتفر

يقينى ان مثل تلك الاغانى وذلك الافصاح بالحب والتمرد على التقاليد ، ماكان ليحدث فى غير ظروف الحرب والتيارات الفكرية الجارفة ، التى تعرض لها كيان المجتمع لان شعب السودان متطرف فى عروبته وتدينـــه ، يقدس التقاليد الموروثة والخلق الكريم والتعاليم الدينية ،فكان يرفض زواج من يجروء على التصريح بعاطفة الحب زجراً للاخرين وهو فى ذلك آخذ باخلاق اصوله العربية وسجاياهم التى تنكر الحـــب وتعاقب المحبين بالحرمان والتحريم ، كما جرى فى أمر قيس وليلى ، وعنتر وعبلة ، وجميل وبثينة وغيرهم .

كان الانجليز قد جلبوا معدات الارسال الاذاعى فى السنوات الاولى للحـــرب ١٩٤٠م لتكون وسيلة للتأثير فى مشاعر المواطنين تجاه قضية الحلفاء ، إذ غدا لزاماً عـــلى ادارات المستعمرات فى العالم ان تؤمن الاوضاع الداخلية، وتؤلب الشعوب ضد المانيا وايطاليا وبقية دول المحور وتسخر الامكانيات البشرية والمادية كافة لمصلحة المجهـــود الحربى وتلهى المتطرفين الوطنيين فى المستعمرات عن مناوئه الحكام .

وقد تم جل ذلك من خلال اذاعة (هنا امدرمان) وكان نجاحها حافزاً لاولى الامر لتمديد ساعات الارسال وتنويع المادة المذاعة ، فتهيأت بذلك فرصة ، ذهبية لرواد فن الغناء الحديث وسانحة مواتية لعشاق هذا الفن ، فأنقسم الناس فريقين ، تعصب أحدهما للقديم وتحزب الاخـــر للحديث ، ثم دارت معركة لاهبة شعـــواء بينهما ، والادارة الاستعمارية ترقب الصراع شامته ، وتلقى بمزيد من الوقود على نار الخلاف المستعر ، بما تبثه لهذا الفريق أو ذاك أو تهمله .

وفى محاولات مضادة لامتصاص حماسة الشباب للجديد ابتدع زعماء الطوائف والطرق الصوفية تنظيمات شبابية فى اطار الممارسات الروحية ، فجعلوا لهم زيا مزركشا موحدا واخذوهم بما يشبه التدريب العسكرى ، فكانوا يسيرون فى الطرقات طوابير منتظمـــة يحملون البيارق الزاهية الملونة ،ويصدحون بالاناشيد الدينية والمدائح على ايقاعات الطبول . كذلك شرع شعراء المدائح ينظمونها على نسق الحان الاغانى وبحورها الشعرية ، فجـــاء بعضها على سياق التمتم نظما ولحنا ، مع اختلاف المضامين والمقاصد . وكان الشـــيخ محمد الصابونابى من رواد هذا الطريق ، فقد نظم عديدمن المدائح على الحان التمتم وبحور شعره الخفيفة .

من جانب أخر كانت الحرب ومجرياتها والدول التى تخوض غمارها ، مثار اهتمام وتعصب بين الناس فالبعض يناصر الحلفاء ، وبعض آخر يتعصب للمحور !! ورغـــم ما تبثه اذاعة امدرمان من أخبار الحرب من وجة نظر الحكومة القائمة فـــى الســـودان فان انصار دول المحور جهدوا فى أثارة ذوابع الشكوك حول موقف الحلفاء فى ميادين الحرب البعيدة .

أفضى ذلك الى حرب دعائية ونفسية طاحنة بين الفريقين ، وظلت الدول المتناحرة فى ساحات القتال تذكى أوارها وتغذوها بما ترسل عبر الاثير من الاخبار والتعليقات السياسية والتقارير الحربية الملفقة ، بعد ان اقامت لها اذاعات موجهه بكل اللغات الى امم وشعوب العالم !! ففى اطار الحملة الاعلامية المكثفة التى قامت بها حكومة الســـودان ، نظم الشعراء القصائد المطولة وتغنى المطربون بالاغنيات الشعبية الخفيفة التى تمجد قـــوة الحلفاء ودوافعهـــم وانتصاراتهم الحـــربية وابطالهم المغاوير !! ومن أجل ذلك بذلت

لهم الحكومة مابذلت من المال والحظوة ، كما جاء ت بعض هذه الاغنيات وليدا شرعياً للتعصب الاعمى ليس غير ، وايابا ماكان الواقع فقد راجت على السنة الناس اغـــنيات فى هذا الصياغ كثيرة ، منها — على سبيل المثال — أغنية خطرية وكانت تؤدى فى بيوت الأفراح على ايقاع التمتم ، تقول كلماتها : —

خطرية بريطانية دولة قوية بحرى وســما * ياهتلـــر الالمـــانى وموسلينى ياطليانى
لوتضرب السودانى تصبـــح قرش بـــرانى * مابســـــــــــــير هنـــــــا ! !
ياطلعت سيب الكورة شوف واجب الدبورة * بريطانية لي اسطولها تهجم تعود منصور
بحـــرى وســـما ! !

وكان الملازم طلعت فريد يومئذ من الضباط السودانيين فى الجبهة الشرقية ونجم من نجـــوم كـــرة القدم وهى لعبة حديثة العهد فى السودان وكان شطراً من الناس يظنها بريطانية المنبت والجنسية ! ! ودســـيسة من صنع الاستعمار جاء بها لتاهى ابناء الشعب عن قضية المصير وعشق الحرية ! !

ويمكن القول على وجه الاطلاق بثقة تامة ،ان شيئا فى حياة ذلك المجتمع لم يكن بمعزل عن حركة التغيير الشامل آنـــذاك ، فاذا كنا قد تلمسنا مظـــاهر البعث الجديد فى الحياة الاجتماعية والاخلاق والفنون ، فقد كان للمسالة الوطنية القدح المعلى فى استقطاب الاهتمام والعمل من اجل التغيير حيث ظهرت لاول مره المدارس الفكرية والاتجاهات السياسيه المتعارضة وهى محاور للجهاد الوطنى تنازعت ولاء السودانيين وارتبطت بالطائفية والقبلية والمؤثرات الاجنبية ومطامع دولتى الحكم الثنائى فى السودان .

من قبيـــل ذلك عمل الانجليز واعـــوانهم على مناوئه الدعاية والنفـــوذ المصرى فى البلاد فانعكس ذلك على الفن والادب والفلكلور وعلاقات الناس بعضهم ببعض واصبحت اغنيات التمتم وعاء لمجريات الصراع بين الاتجاهين يبشر كل منهما من خلالها بفكره وشعاراته ، اتباع مصر يرددون على ايقاعات التمتم الصاخب اغنية : ـ سلامة الملك فاروق فياتى غناؤهم متوافقاً مع ايقاعات الدلوكة ! ! بينما يغنى اتباع بريطانيا على نفس الايقاع ! !
— دام فكن فاروق

ويختلط الحابل بالنابل وتمتزج كلمات الفريقين لدى عامة الناس بغير تمييز فهى من هنا هناك تلائم جو الصخب وحرارة الايقاع ولكنها اضحت مزيجاً من الرأى ونقيضه فى ان واحد ومرد هذا الخلط جهل المغنيين بلغة الانجليز ومعانى كلماتها فلم يأبهوا الا لاتساق الاوزان الشعرية وسلامة الايقاع ، فاهتزت الارداف وطرقعت الاصابع وتمايلت الاجساد طربا ونشوه على ايقاع صاخب لاهـــف مجنـــون وغناء يناقض بعضه بعضاً ! !

ســلامة الملك فاروق * دام دام فكــن فاروق

يعيش الملك فاروق * فك فك فكن فاروق

ويغرق الناس فى الغناء واللهو والرقص ولا يهمهم من الامر سوى انسجام اللحن وحلاوة الايقاع فحيروا بذلك الانجليز والمصرين معا . ! !

كان متجر قريبنا أشبه بمنتدى للسياسه والفكر والادب يؤمـــة نفر من علية القوم وارباب الرأى فى المدينه، فيهم التجار والموظفـــون والاعيان والمعلمون والمتعلمون فيحتدم بينهم الجدال حول الحرب والحركه الوطنيه وتيارات الفكر والادب والحياة العامه ويمتزج فى احاديثهم الجد بالهزل .

اذكر فى احدى المرات ان اجتمع الشمل كالعادة بغير تدبير ، وكان أبى فى الحاضرين ، فاتخذوا من تصرفات احدهم وارائه مادة للحديث والترويح ، فسخروا وضحكوا حتـــى اغرورقت عيونهم بالدموع فلما ارهقهم الضحك والتندر ، اداروا دفة الحديث الى الحرب واحداثها ودور السودان وابنائه فيها ، فسردوا عديد القصص والبطولات عن جنود قوة دفاع السودان وامجادهم فى جبهة الحرب الشرقية فى ارتريا وكسلا والقلابات وغيرها من ساحات القتال فى ليبيا واطراف مصر الغربية .

كان قريبنا صاحب المتجر فارس الحلبة بغير منازع ، فصال و جال فى مسارب الحديث والناس من حوله ينظرون ، ولعل ذخيرته الواسعة والمامه الكبير بأحداث الحرب ومحاورها وادواتها حصيلة لاهتمامه البالغ بتتبع الاخبار المسموعة والمقروءة ، اما اهم مصادره واوثقها على الاطلاق فهو صديق له ضابط فى قوه دفاع الســـودان . فكان لا يفتأ يشيد بدور بريطانيا العظمى فى الحرب وتحقيق النصر ، فينبرى لمعارضته احد مؤيدى دول المحور، مفاخرا بما حققه الالمان والطليان من نجاحات وبطولات ، ثم يفصل

الحديث عن معركة (بيرل هاربر) كأنه شاهد عيان او جندى عاش الملحمة ، ويؤكد فى ختام حديثه انه لولا القنبلة الذرية التى القتها امريكا على هيروشيما ونجازاكى فى اليابان لتجرع الحلفاء المستعمرون كأس الهزيمة دهاقا.

وقبل ان يلقى الرجل بزمام الحـــديث ، يعود انصار بريطانيا للمناكفه والجدال فيحاول قريبنا صرفهم عن اللجاج قائلا فى حسم،خلاص كل شى انتهى ، واحتل الحلفاء المانيا واليابان وقد انتهت الحرب بهذه النتيجة، فلنكف عن الحرب فيما بيننا!!

فلا يملك معارضوه الا السخرية من قناعته تلك قائلين :— ان احتلال الحلفاء لالمانيا واليابان لا يعنــى الهزيمة المطلقه ابداً، حقا ان الحلفاء قد سيطروا على الأرض، ولكن ارادة الشعبين الالمانى واليابانى حره لا تقهر ، فاحتلال البلاد لا يساوى شيئا مادامت هنالك عزيمة تكافح وتناضل وتتحدى!!

سلم قريبنا برأى معارضيه ضاحكا ، ولكنه اكد موالاته للحلفاء كيفما كانوا وفجأة يستلب دفة الحديث رجل كان يلزم الصمت،فيبتدر مقالته بقسم مغلظ أن الاخبار قد حدثت بظهور نجم مذنب عملاق!! وان هذا النجم سوف يقع على الأرض فيزلزلها زلزالا يخرج اثقالها فتكون نهاية العالم ، وتقوم الساعة!! فتصدى له احدهم بالانكـــار والســـخرية ، مؤكداً ان الامر محض افتراء واختلاق وان كارثة من هذا القبيل لـــن تقع فى يوم من الايام .

هنا تدخل أبى بين الفرقاء انصار الحلفاء واتباع المحور ، فأدلى برأيه فيما يرون ثم عقب على المتجادلين فى امر الكـــوكب المزعوم فقال : ليس ثم مايمنع سقوط ذلك الكوكب أوغيره على الأرض، ولكنه لايدمر الحياة ضربة لازب لان ذلك مخالف لاشراط الساعة،وما كان للارض أن تبيد وتفنى قبل ظهور الدابة والمسيخ الدجال وهبوط السيد المسيح عليه السلام الى الارض،ليملأها عدلا وخيرا بعد أن مائت ظلما وجورا،هكذا قالت كتب السماء ، فلم يجرؤ احد ان يعقب على مقالته وظهـــرت على الوجوه علائم التسليم والرضا .

* ٣ *

بقى الريف السوداني حتى ذلك الحين – بمنأى عن المؤثرات السلبية التى إجتاحت مجتمعات المدن الكبرى ، فأثرت في شتى نواحى الحياة كما سبق ذكره، واحتفظ مجتمع القرية بسمات الأصالة وإرث الأسلاف وصورة الحياة الفطرية الوادعة ، وظل محكوماً بتلك القيم الأصلية عن رضا واختيار ، فكانت علاقات افراده ترتبط بوشائج متينة من التكافل وأواصر الدم والوجدان المشترك ، ويبدو ذلك جلياً في المناسبات العامة كالأفـراح والأتراح ، فلا يتخلف قادر وان كان ذا ضغينة وخصومة وعداء !! ففى مثل هـذه الظروف يتوارى كل شيء ، ويعود للقيم الكريمة الموروثة سلطانها على النفوس .

هكذا كان حالنا نحن الجعليين في سنجة مع أهلنا وذوى قربانا في القرى والدساكر، وفي هذا الإطار جاءت مناسبة زواج ابن عمى (التوم زين العابدين) من إبنة عمتى (فاطمة بت الجبل) في قرية عمارة الشيخ هجو ، فتحرك ركب الأهل رجالا ونساء وأطفالا يقوده أبي وأنا في الجمع فرح سعيد .

ان لعمارة الشيخ هجو في تاريخ عائلتنا قصة على قدر من الطرافة والاثارة ، فقد تحدرنا من أصلاب الجعليين التويماب « نسبة إلى جدنا الأكبر محمد تويم » وكان ذلك في ماضى غير بعيد ثم أضطر أحد فروعه – وهو جدى برير – إلى الهجرة من ديار الجعليين في « الجوير » عقب مقتل أو محرقة اسماعيل بن محمد باشا واتباعه بتدبير الملك نمر عاهل الجعليين في ليلة الثأر للكرامة وشرف الأرض !!

كان ذلك أواخر عام ١٨٢٢ م حين اعتزم إسماعيل العودة إلى مصر ، بعد نجاح الحملة التى قادها وأخضع بها بلاد السودان الشمالى والأوسط لتصبح جزء من امبراطورية أبيه في الشرق العربي، ومعروف ان تلك الحملة لم تصادف مقاومة الا في ديار الشايقية!! حيث خرج فرسانهم المقاوير لحرب الأتراك والذود عن عزة البلاد وعرض الأمـة ، في معركة كورتي ٥ نوفمبر ١٨٢٠ م فأنكسرت شوكتهم وتساقط شهداؤهم تحت وابل الرصاص وقصف المدافع وهم يحملون السيوف والحراب والنبال !! ثم مضت حملة الفتح في طريقها تخضع الناس لها صلحاً حتى سنار ولكن حادثاً عابراً أشعل نار تلك المحرقة الكـبرى .

ومعظم النار من مستصغر الشرر كما يقولون !!

فقد كان لعاهل الجعليين « الملك نمر » مكانة وجاه وسلطان في تلك القبيلة الآخذ أهلها بأسباب الشجاعة والعزة والكرامة ، فلما جاء نمر مصالحاً خاضعاً لسطو القهر المسلح القادم من مصر ، تعمد إسماعيل في صلف الأتراك وغرور الفاتحين ان يذله ويحط من قدره على مرآى ومسمع من أعيان قومه ، فازدرد العاهل العظيم صآب المذلة مكرها ، وكبح أعوانه جماح نفس تجيش بالمهابة والعزة والشموخ أما اسماعيل فقد ازداد بزلته الرعناء صلفاً وغروراً وكبرياء ! !

وعاد العاهل إلى عرينه يلعق جراح الهزيمة والكرامة المهدرة ومراجل الغضب تغلى في صدره كالبركان ، فما تعود أن يغضى على الأذى حين يغضب كذلك لم يكن اسماعيل ليثق في خضوع تشوبه مظاهر الأنفة والاباء ، فلما نزل بأرض الجعليين في طريق عودته إلى مصر ، استدعى إلى مجلسه عاهل الجعليين « نمر » وأخذ يؤنبه ويتهمه بالهجوم على القوافل المصرية التى تمر بأرضهم ، ثم فرض عليه ضريبة فادحة قصد بها تعجيزه وتحقير شأنه بين رعاياه .

أوضح الملك « نمر » أن مطالب « الباشا » فوق طاقة القبيلة ، وكان صادقاً ، فانتفض إسماعيل غاضبا ولطم عاهل الجعليين « بغليونة » على صفحة وجهه على مرأى من الحاضرين في اساءة بالغة متعمدة ! ! وإنفجر بركان الغضب الكظيم بقته ، وكاد نمر يجرد سيفه من غمده ليرد الاهانة .

ولكن قريبه الملك مساعد تعلق بذراعه ومنعه عما اعتزم ، ودارت بينهما محاورة قصيرة بلهجة محلية ، سكن بعدها غضب العاهل ، ووافق على اجابة المطالب المستحيلة في اذعان مصطنع وهو يضمر الثأر والانتقام .

ولكى يبدى نمر مظاهر الخضوع والحفاوة بضيفه العظيم وكوكبة الفرسان التى تصحبه في رحلته دعاهم إلى وليمة فخمة كبيرة ، ونحر الذبائح وهيأ لهم موائد الشراب ، وأمعن في تكريمهم والاهتمام بهم حتى أسدل الليل ستاره على [illegible] الأرض فتلفح الحقد الأسود بسواد الليل وشاحاً ودثارا ! !

والتأم شمل القوم على مراتع اللذة والفجور ! !

وشق بكارة الليلة صوت الدفوق وغناء الجوارى وضحكات السكارى ، وطفق أبناء الجعليين خفية يطوقون المكان بأكوام القش وفروع الأشجار وأعواد القصب اليابسة وكل ما يؤجج نار الثأر والكرامة الجريحه ، فدارت الخمر برؤوس الأضياف ، واستقرت في امعائهم زاداً حراماً لرحلة الخروج من دار الفناء إلى دار البقاء ! !

ثم أشعل الملك نمر وأبناء الجعليين نار الثأر المقدس للارض والانسان والتاريخ ، فمات اسماعيل ومن معه إختناقاً في ذلك الجحيم المستعر ، وصعدت أرواحهم المخمورة إلى بارئها تتخذ من نار الدنيا برزخاً إلى نار جهنم وبئس المصير ! ! بينما إنتصب الجعليون في جوف الليل حول المكان كالعمالقة شاهرين سيوف الكرامة المثلومة والشرف الجريح ، يتربصون بمن يحاول النجاة من نار الثأر المنبعثة من صدررهم الحرى الموتوره وخمدت نار الضيم والغضب في النفوس ! !

وامتدت ألسنة اللهب والثورة إلى الناس في كل فج عميق ! !

وواجهت الحاميات التركية في البلاد عواصف الغضب فلم يقها السلاح ! ! واكرهت على الإنسحاب فى عديد من المدن والقرى وتجمعت يحتمى بعضها ببعض . حتى جاء « محمد بك الدفتردار » بجيش لا قبل للاهلون به فأعمل الحرائق والمجازر في كل أرض وأخذ الأبرياء بذنوب الثائرين، وقبل أن يصل إلى ديار الجعليين كان (محمد بك) قد استطاع ان يفك حصارهم على مدينة بربر ، ثم تغلب عليهم بما لديه من سلاح نارى واستاب أموالهم فتقهقر الملك نمر ومن بقى معه إلى سهول البطانة ليعيدوا تنظم صفوفهم من جـــديد .

فلما ظهرت جحافل الترك بقيادة الدفتردار أواخر عام ١٨٢٣ على مشارف المتمة حاضرة الجعليين ، خرج هؤلاء يتوجسون ، وحاول أحدهم أن يصرعه برمحه قصاصا لما اقترفت يداه من إثم وعـــدوان ، فعاجله الجنـــد برصاص بنادقهم وخـــر صريعاً مضجراً بدمائه بين الناس ، فأمر الدفتردار بحصد أرواحهم جميعاً حتى العجزة والأطفال فقتل منهم قرابة الثلاثين ألفاً .

أما الملك نمر فانه ظل يشن الغارة تلو الأخرى على جيش الترك الوالغ في دماء الأبرياء

حتى اذا ذهبت قوته الحربية اعتصم بتخوم بلاد الحبشة وخطط له فيها مدينة صغيرة سماها (المتمه) وعاش بها إلى أن أدركته الوفاة .

وكما هاجر الملك نمر من أرض آبائه مكرهاً ، خرجت جموع الجعليين على أثره ، وتفرقوا في البلاد أيدى سبأ ، فاتجه جدى « بريـــر » وأبناؤه وحفدته إلى أرض الصعيد ثم تبعثرت أطرافهم في قرى « ود العيس » و « سنجه » و « بنسو » و « سنار » وغيرها كل حسب حرفته من رعى أو زراعة أو تجارة .

من أصلاب هؤلاء المهاجرين خرج جدى «برير» وفي طفولته الباكرة حفظ القرآنالكريم ثم قصد الشيخ محمد شريف نور الدائم ليتلقى على يديه علوم الدين من فقه وحديث وتفسير ولينتظم في سلك الطريقة السمانية ! ! وهناك التقى بطائفة من تلاميذ الشيخ المبرزين ، ممن كان لهم نفس النزوع اللهيف إلى حياض الدين. منهم الشيخ هجو ود عبد القادر ود بانقا ومنهم « محمد أحمد عبد الله » الذى اكرمه الله بالمهدية فيما بعد ، فانعقدت بين ثلاثتهم أوأصر الاخاء في الله وحب العلم والزهد والعبادة .

في رحاب ذلك النفح الدينى العابق بالطهر والشفافية والتجرد انخرط الاحبار في طريق القوم وأبدوا همة عالية في تحصيل العلوم والعمل به، فكانوا مثار اعجاب شيخهم، ومن صفوة طلابه وخاصة مريديه ، فاغترفوا من ينابيع الخير والكرامة ما شاء الله لهم كما تباروا في الزهد والعبادة وخدمة الشيخ والطريقة ، حتى فرقت بينهم الأيام ، فأصبح « محمد أحمد » بطلا قومياً واماما هادياً مهدياً طبقت شهرته الآفاق ، وأضحى « الشيخ هجو ود عبد القادر » زعيما صوفياً تضرب لزيارته أكباد الابل وطبول المريدين ، أما ثالثهم جدى برير فقد صار تاجراً كبيراً أخذ حظه من الدين والدنيا معاً ! !

ثم مرت الأيام ! !

فسطع نور المهدية في آفاق البلاد ، واجتذب القلوب المؤمنة ، واضطرمت في أرجائها نار الثورة على ظلم الأتراك ومفاسد حكمهم البغيض ، وزلزلت تهاليل الأنصار الأرض تحت أقدامهم وجزت سيوف الحق رقابهم فى المعارك،فاستصرخوا جذورهم في مصر طلباً للغوث ، فأمدتهم بريطانيا العظمى بقادة وخبراء الحروب المجربين وارسلت مصر

رجالها وعتادها إلى الاتون المستعمر ، تريد أن تطفىء نور الله في الأرض ، والله متم نوره ولو كره المشركون .

في غمار هذا الصراع الملتهب ، كاتب الامام المهدى عليه السلام صديقيه الشيخ هجو وبرير فى من كاتب من ركائز الدين وزعماء البلاد ، يستنفرهم لتحرير الأرض من ذل العبودية وتحرير النفوس من أغلال الجهالة ، وتحرير الدين من البدع والضلالات فاستجاب له من هدى الله منهم ، ووضع آخرون منهم أصابعهم في آذانهم واستكبروا استكبارا فبادر الصديقان إلى تلبية نداء الحق ، ووجد فيهما المهدى نعم العون والنصير فقام الشيخ هجو بأمر المهدية في سنار وما جاورها ، ونهض برير بواجب الدعوة وشئون الأنصار في سنجة والروصيرص حتى جهات الكرملك وطفقا يمدانه بالمال والرجال والغلال وأنواع المؤن ، رغم بقاء الشيخ هجو على الطريقة السمانية ، وانخرط برير في سلك المهدية قلباً وقالباً .

فتمثل فكر المهدية في اتباع الكتاب والسنة والتوكل على الله ، فلا مكان لتفرق المسلمين فرقاً ومذاهب متناحرة ، فذلك مدخل الضعف وإنكسار شوكة المسلمين ، وزوال هيبة الإسلام في نفوس أعدائه المتربصين ، فجاء امام الهدى ليمحق البدع ويجلو معدن الدين من شوائب القرون ، ويوحد المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ويختصر طريق السالكين إلى الله .

اذ كان الاعتقاد راسخافي النفوس بأن الطرق الصوفية والمذاهب والفرق المختلفة هى المسالك إلى مرضاة الله ورضوانه ، فلا يصل المسلم إلى تلك الغاية الا عبر شيخ يأخذ بيده في المدارج ، ويبصره بمزالق الطريق ، ويسلحه بالاسرار والغيبيات ! ! فأعلن الامام المهدى على الملأ بطلان هذا الاعتقاد الذى كان هو نفسه آخذ به قبل حين ، وان الطريق مفتوح بين العبد وخالقه ، وأنكر ان تكون المذاهب والطرق من الدين في شيء ، ودعا الناس كافة إلى الأصول الدينية من قرآن وسنة ، ليكون الدين كله لله ، فلا يدعى مع الله أحدا ، شيخاً كان أو اماماً ! !

ازاء هذه الدعوة الجريئة ، إنقسم العلماء ورجال الدين والطرق الصوفية وعامة

الناس إلى فريقين شايع بعضهم دعوة المهدية مؤمناً شاهراً سيف الحق في وجوه المارقين وكابر فريق دفاعاً عن جاه أو سلطان فنظم قصائد القدح والتكذيب لدعوى المهدية وسخر علمه ومكانته في المجتمع لصرف الناس عنها ، وثبيت دعائم الحكم التركى في البلاد ! !

وصدع السواد الأعظم من المؤمنين بالحق واستكانت أفئدتهم للهدى لا يبتغون به بديلا وخرجوا زرافات ووحدانا في هجرة إلى الله الواحد الصمد ، بعد أن هجروا زينة الحياة الدنيا من مال وبنين ومتاع قليل ، ابتغاء النصر أو الشهادة .

فصدق الله وعده (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم) وتلاحقت الإنتصارات تباعاً فى ملاحم الجهاد والجلاد .

ومادت الأرض تحت أقدام المرجفين ..

وارتفعت رايات الحق سامقة شامخة ..

زالت دولة الظلم والفجور وقهر الانسان ..

وشهد العالم بما كان من انجاز وإعجــاز ..

وفتقاطرت من أرجاء الدنيا وفود المؤمنين بنور المهدية ! !

عندئــذ

لم يجد المكابرون من العلماء والمتصوفة وأرباب الجاه والسلطان من سدنة الحكم التركى مناصاً من الاذعان والتسليم ! !

فقال لهم الامام المهدى مقالة النبى الكريم (صلعم) يوم الفتح الأكبر «اذهبوا فأنتم الطلقاء» ثم لحق الامام المهدى بربه راضيا مرضيا ، وقام خليفته بأمر الدعوة والدولة، فنشبت فتن وأطماع وعصبيات أنشبت أظافرها في جسد الدولة والامة ، وعاد الخطر المحدق من الشمال يكشر عن أنيابه متحفزا للوثوب واسترجاع سيادته على الابقين ! ! فأرسلت مصر وبريطانيا جحافل الغزو مدججة بالســلاح فتساقطت رايات الحق والهدى بقذائف المشركين ، وطوى جيش الفتح الأرض تحت لوائه ، ومضى من نصر إلى نصر : الحفير ، النخيلة ، ثم كررى ! !

وكانت كررى ملحمة الفداء ومجتلى الايمان ، فما كان أحد من الذين طحنتهم يرجى الظفر أو حتى الحياة ! ! فقد خرجوا من ديارهم يطلبون الجنة وما وعد الله الصابرين حيث نما إلى علمهم أمر تلك القوة الغاشمة التى دحرت كتائب المجاهدين بقيادة الأميرين محمود ود أحمد وعثمان دقنة فى معركة النخيلة . وكان الأنصار يعولون عليهما فى صد الغزاة المعتدين ، ثم ها هم يخرجون للقاء العدو وقد مزقت الأحقاد والعصبيات قواهم وما تزال الصدور مطوية على أمر عظيم ، وكان سلاحهم الأعظم بقايا تلك الجذوة من الايمان بالله والوطن ، وذلك ما دعاهم لمواجهة الحريق الكبير والموت الزؤام فى كررى بصبر وثبات ، فتدافقت جموعهم تضرب هام المدافع بالسيف وتبقر بطونها بالحراب لتكف عن أرسال الحمم إلى صدور المؤمنين ، وخضبوا وجه النهر بدماء العزة والكرامة والفداء ، وسطروا في صحائف المجد والتاريخ مشاهد البطولة الفذه التى اعترف لهم بها العدو قبل الصديق ! ! ثم عبروا برزخ اللهب إلى جنات الخلد والنعيم ! !

وتأكل الحسرة قلب الصديقين الشيخ هجو وبرير لفوات فرصة الجهاد والإستشهاد في كررى ، عرس الشهداء ومعترك المغاوير ! ! ليس إلا لبعد الشقة بينها وبين الصعيد ، ولكن روحيهما كانتا تحلقان بين المجاهدين الابرار . وتتفاعل هذه العواطف الروحية لتزيد عرى الاخاء والصداقة بينهما قوة ومتانة . وتشاء حكمة الله تعالى لهذه العلاقة أن تبلغ ذروتها من بعد ، فقد تقدم الشيخ هجو ود عبد القادر الخضر ود بانقا ، وهو في نفس الوقت ابن أخ الشيخ هجو ود عبد القادر ود بانقا وخليفته على إمارة اليعقوباب الدينية ، تقدم لخطبة ابنة أخت صديق عمه برير وتدعى آمنة ، وما كان لمثله أن يرد له طلب ، فوافق أهلها مرحبين ، وتزوج الشيخ هجو — بعد حين من — آمنه ، وانتقلت معه في صحبة أبويها ونفر من كرام قبيلتها إلى « العمارة » مبتعدين عن ضفاف النيل بما يقارب الثلاثين كيلو متراً مهاجرين من موطنهم قرية « ود العيس » ، مفضلين الشرب من بحر الصوفية ومياه الآبار والأمطار على مياه النيل على صفائها وعذوبتها ! ! مدركين أن هذه متعة فانية وعرض زائل ، أما تلك فهى قطرات من نبع الكوثر الباقى في الدار الآخرة ، وشتان بين ما يبقى وما يبيد ! !

ثم توفيت « آمنة » وهى بعد في ريعان الشباب ، فحرص الشيخ هجو على بقاء ذلك

الرباط امتداداً ونماء لصلته بأصهاره ، فطلب الزواج من شقيقتها « عائشة » وكان له ما اراد ، واشتهرت عائشة بين أهلها وأتباع زوجها ومريديه من بعد باسم « أم الفقرا » كناية عن حدبها ورعايتها ورحمتها بهم .

ويعتبر الشيخ هجو — صاحب العمارة المعروفة — أحد أعمدة الطريقة السمانية في السودان ، وهو امتداد لذلك الوهج الرباني الذى أودعه الله تعالى صدر عبد من عباده الصالحين وهو الشيخ « بانقا الضرير » فتحدر الوهج في ذريته مختلطا بذلك الدم الطاهر حتى انبثق وهاجاً في حفيده الشيخ هجو رحمه الله ..

وعمارة الشيخ هجو قرية لا تختلف عن سواها من قرى السودان البعيدة عن مجرى نهـــر النيل مما تعارف الناس على تسميته باسم (الضهرة) وجمعها ضهارى ، وهى كلمة تشير إلى معنى التباعد عن النيل، والحيـــاة فى «الضهارى » عادة تتسم بالجفاف والعنت والقسوة، فالله سبحانه قد جعل من الماء كل شيء حى ،وفى الضهارى تندر المياه وتنعدم احياناً ، فيكون موت الزرع والضرع والحياة الناعمة .

وقد يحلـــو للبعض ان يتساءل :— لماذا يكابد الناس جحيم الحياة فى الضهارى وفى شاطىء النيل متسع للجميع ؟! والاجابة هنا قطعاً غير قاطعة ولامحددة ، هى حكمة الله فى الخلق وما سطر لهم من رزق وحياة وموت !! فلا تدرى نفس ماذا تكسب غداً ولاتدرى نفس بأى أرض تمـــوت ، وهى ذات الحكمة التى جعلت بعض الامم والشعوب والحيوان والنبات تتخذ الصحارى وقمم الجبال والبلاد المفرطة فى الحـــرارة أو البرودة والجفاف والقحط مواطن لاترضى بها بديلا فى الحياة والممات !! .

فأهل الضهارى لاتغريهم دعة العيش فى غيرها من البقاع ولايتذوقون طعم الوجود إلا فى ذلك النصب والعناء والكفاف !! حتى أولئك الذين تضطرهم ظروف العيشـــ للاغتراب والهجرة يظل ذلك الحبل السرى والآصرة العضوية والروحية تربطهم وتشدهم إلى مرتع الطفولة ومهبط الميلاد ، فينحيزون له ولما فيه ومن فيه ، سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وتعد قرية العمارة المقر الرسمى لخلافة « اليعقوباب » وطريقتهم السمانية، فهـى موطن الشيخ « يعقوب » خليفة والده الشيـخ هجو ود الماصع مؤسس قرية العمارة ، وخليفة الشيخ التوم ود بانقا من مشاهير زعماء الطرق الصوفية فى السودان لهذا يؤم العمارة سيل لاينقطع من اتباع الطريقة السمانية وبخاصة فى المواسـم والاعياد ، حيث يستقبلهم آل الشيخ هجو بمزيد من الحفاوة والاكرام فى خلاوى الضيافة الواسعة المنتشرة حول المسجد الجامع ، الذى يقصد خلوته الشهيرة الدارسون مـن مختلف البلاد فيحفظون القرآن ويتلقون العلوم الدينية . ويقوم الشيخ بايوائهم واطعامهم بما يتيسر له من مقـدرة وفى غالب الايام يكـون طعامهم وجبتين ، إحداهما فى الصباح والأخرى فى المسـاء ، وتتألف الوجبة من عصيدة الذرة وملاح «ادام» اللوبيا أو اللبن الرايب أو المرق !! وقد تنحسر قدرة الشيخ احياناً فيكون الادام ماء بالملح والشطة ، فاذا جاء بعد العسر يسـراً حظى « الحيران » بطعام عماده اللحم ودثارة الشاى المنعنع أو اللبن .

و كما هو الحال فى كثير من خلاوى القرآن فى السودان ، يبدأ الطلاب يومهم عقب صـلاة الفجر بحفظ سور القرآن الكريم وتجويدها ، ثم عرضهـا على الشيخ فيتخذ هذا موقعه من الحلقـة ويتابع القارئين كلهـم فى وقت واحـد!! يصحح اخطاءهم ويقوم ألسنتهم ، يزجر هذا ويؤنب ذلك ويمدح آخر ويقدح سواه !!

ثم يمضى الحيران سحابة يومهم فى خدمة الوافدين والمريدين ، وقضاء حوائـج المسجد والشيخ واسرته ، والتنقل بين موقع وآخر حول المكان ، ولاتخلو حياتهم من لهو ومراح ونزاع وشقاق ويغلب على علاقاتهم الخاصة ان تقوم على مبدأ الانتماء لجهة بعينها أو قبيلة أو جنس بذاته ولايحول ذلك دون نشـؤ صداقات وروابط تنبنى عـلى الميول المشتركة وتقارب الاعمار وغير ذلك من عوامل الجذب والطرد .

ومن أهم الواجبات اليومية خروج طائفة من الطلاب إلى ظاهر القرية لاستجلاب حطب الحريق فيخصص جزء منه لغذاء (التقابة) وهى نار عظيمة توقد على مرتفع من الأرض يلتف حولها الطـلاب ليلا يتلون القرآن الكريم باصوات عالية متداخلة كطنين النحل ، بينما يجلس الشيخ أو من ينوب عنه فى ركن من المكان يؤدى وظيفة الترشيد ومعالجـة

الاخطاء ، وينصرف جزء كبير مـــن عناية الشيخ والحيران إلى أداء الصلوات جماعة فى المسجد ، ولايقلل فى ذلك عذر سوى المرض .

إلى جانب ذلك يضم حـــرم المسجد عدد مـــن الغرف الفسيحة الرحبة التى اعدت خصيصاً لاستقبال الزوار والمرضى وذوى الحاجات ، وتؤلف الامراض العقلية والنفسية نسبة عالية بين طلاب الشفاء ، فيجتهد الشيخ فى عـــلاج هؤلاء بالرقى وانواع البخور وجرعات المحاية والحجبات والتمائم وغير ذلك مـــن الوان الطب الصوفى القائم عـــلى الاسرار المودعة طى الايات والاثار .

وفى مثل ذلك المجتمع ، يغدو الشيخ هو الملاذ الاخير لطلاب الحاجات الدنيوية من زواج وطلاق وغنى وجاه وسلطان ، وهو مـــن جانبه حفيظ على اجابة كل طلب ورغبة لاتضر بالآخرين ، ويكثر قاصدوه وتقل أفواجهم بحسب مايروج على ألسنة الناس من تقريظ لقدراته وكراماته الماثلة ! ! فتزداد تبعاً لذلك موارده مـــن الهبات والعطايـــا والنذور أو تقل ، وأكثر طلاب الحاجات عادة من النساء ، يحتملن مشاق السفر من اقاصى البلاد مدفوعات بما حققه الشيخ من كرامات ونجاح فى تلبية حوائج الراغبين ، وليس من الضرورى ان يكون الشيخ المقصود على قيد الحـــياة ، فالقبور والقباب وما شاكلـــها مزارات يتوجه الناس إليها بالمطالب والرغائب والشكايات ! ! وينثرون ذرات ترابها على اجسادهم ومشاربهم تبركا وتزلفاً واستشفاء .

وفى عمارة الشيخ هجـــو تنتشر حـــول منزل الشيخ يعقوب منازل اخواته واقربائه من ذرية الشيخ هجو ، ويؤلفون فيما بينهم حياً خاصاً بهم يعرف باســـم « فريق أولاد الشيخ » وهم جميعاً يقومون بمساعدة الشيخ يعقوب فى أعماله وواجباته تجاه الطريقة والمريدين ، ولما كانوا فروعاً لذلك الاصل الطيب ، فقد أضحى لكل منهم طائفة من الاتباع خاصة به ، بيد انهم يعملون كغيرهم من عامة الناس – بالزراعة والتجارة وتربية الحيـــوان ، وهم فى ذلك أوفر حظاً وأعلى مرتبة من سواهم .

وعلى مقربة من القرية ترتفع قبة الشيخ التوم ود بانقا ، وترقـــد إلى جوارها مقابر أهل العمارة والقرى المجاورة ، والقبة مزار عظيم للاحباب والمريدين ، يؤمونها للتبرك والزيارة والوفاء بالنذور ، وتكاد باحتها لاتخـــلو من هؤلاء على مـــدار الأيام والشهور

إن الدعـــوة لهدم القباب والاضرحة صرفا للناس عنها ، ترجع إلى عهد الإمام محمد أحمد المهدى عليه السلام ، ثم جاء من بعده جماعة انصار السنة والوهابيون وغيرهم يحاربون تعلق الناس بالأولياء والتوسل بهم فى قضاء الحاجات ودفع المحظورات ، وشن هؤلاء حملات ماتزال مستعرة على ذلك التوجه القاصد لمزارات الصـــالحين من عبـــاده المكرمين بالولاية والكرامة والصلاح ، بحجة ان الإسلام برىء من هذه البدع المنكـــرة والضلالات المسفهة ، وان الله تعالى قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه والطريق إليـــه كأبواب رحمته مفتوحة على مصراعيها للسالكين ، فلاحاجة للعبد فى وسيلة تبلغه اعتاب الذات الكريمة ، ولاميزة لعبد على آخر فى هذا الشأن فالكل مربوب عاجز ضعيف ، والله سبحانه تعالى هو القادر على جلب الخير ودفع المكاره والشرور فما يأتيه الناس من توسل بالأولياء بدعة ، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار .

مضى على هذه الدعوة قرن أو يزيد ، وبحت اصـــوات دعاتها فى المنابر والمحافل من كثرة الحماس والترداد ، ولكن الناس — إلا قليلا منهم — ظلوا على مزاراتهم عاكفين بل ألحفوا فى الطلب ، وأمعنوا فى الاستمساك بتقاليدهم الصوفية فاقاموا الحـــوليات ، وحملوا بيارق الطرق وهدرت طبولهم وبحت حناجرهم بمدح الأولياء والصالحين .

وهكذا كانت قرية العمارة، نموذجاً للقرى الصوفية بالســـودان ، يحتل « فريـــق الجعليين» فيها ثلث مساحتها تقريباً ، وفيه كانت اقامتنا بعد رحلة طويلة ماتعه ، فتجاذبنا أهل أبى استجابة لدواعى المروءة والاخاء والحب ، لم نجرؤ على اختيار بيت دون آخـــر ففى مثل تلك المناسبات الجامعة لايختص صاحب المناسبة — فـــرحاً أو ترحاً — بواجـــب الضيافة ، بل تصبح منازل الحى كلها مأوى للقاصدين ، وكان أحد الصبية الخبثاء رفيقاً لى فى تلك الرحلة فلما رأى تفـــرقنا بين الأهل ومايستتبع ذلك من أعباء الاقامة عندهم ، علق قائلا وهو يضحك ان اقامتنا اضحت مثل اقامة « الجهادى » فى المهدية ! !

وذلك الذى قال الصبى الخبيث أمر معروف متداول بين أهل الجزيرة خاصة ، وهو انه فى عام الجدب والقحط المعـــروف ، بســـنة ستة « ١٣٠٦هـ » ابان حكم الخليفة عبد الله التعايشى ، داهمت جموع المهاجرين الانصار قرى الجزيرة وأخذوا تحت وطاة الحاجـــة يسلبون الناس طعامهم ومتاعهم ومايملكون ، بحجة تفرغهم للجهاد ونصرة الدين ، فكان

الواحد منهم يدخل القرية على صهوة حصانه أو دابته ، فيتركها وديعة في بيت من بيوت القرية ويجعـــل سرجها في آخـــر ، وحربته أو سيفه في آخر ، ومتاعه في آخر ، ثم يدور على تلك البيوت باعتباره ضيفاً على كل واحد منها ، وعلى رب الدار اكرامـــه واطعامه !!! وبهذه الطريقة المبتكرة يتناول الوجبة الواحدة عدة مرات ! أو هكذا يزعم الرواة .

ولم يمضي على اقامتنا في العمارة وقت قصير حتى دفعني حب الاستطلاع للتحرر من ملازمة أبي وحصاره الدائم ، فخرجت أجوب الطرقات والاحياء ، واتنقل كالطائر بين كل البيوت فلا فضل لأحدها على الاخر إلا باشتماله على اضرابي من الصبية الـــذين يشاركونني اللعب والطلاقة والهوايات ، فلا احفل عندئذ أين انام أو اتناول الطعـــام ، وقد شعرت حقاً ان كل البيوت والناس فيها أهلي وموضع حبي واعزازي ، ولكن تعلقي بمنزل احدى بنات عمومة أبي كان قويا مميزاً عما سواه ، إذ غمرتني بفيض من المشاعـــر الدفيقة الدفيئة حار في أمره عقلي ولم أجد له مبرراً إلا في تلك القصة التي عرفتها فيما بعد .

حدثني الراوي ان تلك المرأة وهي ماتزال في المهد صبية كان أبوها قد سماها زوجة لأبي وهو بعد صبي يافع غرير !! جرياً على تلك العادة العربية الموغلة في القـــدم والتي جاء إنتقالها إلى بلاد السودان في ركاب الهجرات العربية الأولى ، فانتشرت بين أهله وتأصلت بمر السنين ، كان جدي لأبي قد توفي بحمى الملاريا ، ويسميها أهل ذلك الزمان «الحمى أم برد» وبعد عامين من وفاته تقدم شقيقه للزواج بارملته جدتي لأبي مدعيا الحرص على تربية ابن اخيه !! والقيام بواجب الأرملة الحزينة ، وهذه أيضا عادة عربية أخرى متأصلة في مجتمع ذلك العصر ، ولكن مادفع الرجل حقيقة لم يكن شيئاً مما أدعى !! بل هو الحب وفرط الاعجاب ، فارملة جدي حباها الله جمالا طاغيا وحسنا يأسر القلوب وكانت ماتزال شابة نضرة متوهجة الرواء حين توفي عنها زوجها ، فلما عرض عليها نفسه ردته بجفاء قائلة :ـــ

ـــ كان داير تربي ود أخوك الربابة مادايرة ليها كجرة . والكجرة بضـــم الكاف وسكون الجيم حاجز من السعف المضفور ينصب داخل منزل العروســـين !! فلم يزده ردها ذاك إلا حبا على حب ، فمضى يتوسل لمرضاتها بكل سبيل ، أرسل اخواته لاقناعها

واستمالة قلبها إليه فارادت ان توصد فى وجهه ذلك الباب إلى الابد ، وتعمدت ان تغلظ لهن فى القول بما يطعن كرامة خاطبها اللحـــوح فينصرف مغاضبـــا ، فقالت لهـــن فى سخرية وزراية :—

— أنا مابغطى السلطان بى برش !!

والبرش حصير من سعف النخيل يفترشه الفقراء للنوم !! عندئذ تصدت للرد عليها أخته «فاطمة» وقالت غضبى :—

— امانة ماختيتى الشينة .

فردت عليها الارملة الحسناء :—

— كرامة ولدى وذكرى أبوه فوق السمحة والشينة !!

فلما عرف اخوهن ماكان ، امتلأت نفسه بالألم والغضـــب ، وأحس لكلمات الأرملة الحسناء مايماثل طعنات الخنجر ، وتركت فى قلبه جرحاً لايندمل ، وتحولـــت مشاعر الحب فى نفسه رغبة فى الثأر والانتقام ، وانصرف عن ذلك الحب الذى أورده موارد الذلة والمهانة ،

ومرت الأيام ..

فبلغ ابن أخيـــه مبـــلغ الرجال ، واصبحـــت بنته فتـــاة فى ميعـــة الصبـــا بيضاء البشرة فاتنة ذات ملامح عربية أصيلة ، وكان ابن أخيه «أبى» يملؤه الأمل فى الزواج منها وفاء للوعد الذى كان من ابيها عند ميلادها كما مر ذكره ، فجاء من سنجة مع والدته ونفر من الأهل والأصدقاء يحملون جهـــاز العرس والمال ، ونزلوا بالعمارة حيث يقيم الأب وابنته ، ثم تقدم أبى طالباً الزواج من ابنة عمه المسماه له منـــذ الصغر ، ولم يكن يدرى ان عمه قد اتفق مع شقيقته تلك التى حملت له الخبر من قبل — على تزويج ابنته لابنها على ان يبقى الامر سراً بينهما حتى يثأر لكـــرامته الجريحة ممن رفضت الزواج به يوماً !!

اجتمع شمل الأهل والقبيلة للمشاركة فى مراسم الزواج الموعود ، فلما تقدم أبى لطلب الزواج من ابنة عمه ، جمع أبوها بينه وبين غريمه ومنافسه غير المعلن ، وأمرهما بسقى ابقاره من البئر ، وخص كلا منهما بحوض كبير وزوده بدلو وحبل قوى خشن !!

وشرط ان ينفذوا الأمـر على مشـهد مـن الناس ، فكان مطلبـه مـن أبى تعجيزة وانتقاماً لثأر قـديم !! فهو يعلم ان ابن أخيه لم يخلـق لذلك النوع من العمل ولم يتعوده من قبل ، إذ كان بعد اكماله المرحلة الوسطى « التجهيزى » قد عمل موظفاً حيناً مـن الدهر ، ثم هجر الوظيفة وتفرغ للعمل بالتجارة ونجح فيها ، أمـا ابن اخته فان الزرع والضرع وجلب الماء والعمل اليدوى هو حرفته فى الحياة وقتئذ .

رغـم فداحة التجربة عـزم أبى على خوضها ذوداً عن كـرامته بـين الناس فشرع فى سحب الماء من البئر بذلك الدلو الكبير والحبل القوى الخشن وأخذ يملأ الحوض فلم يمض وقت طويل على ذلك حتى ادركه الكلال وتفسخت راحتاه وسالت منهما الدماء! وإذ هو يعانى مراره الالم ويواصل صب الماء فى الحوض كان غريمه قد فرغ من مهمته بغير عناء ، ثم انضم لجموع الساخرين من أبى وهو يعانى ويتصبب عرقاً ، فى تجربة أليمة لم يكن يتوقعها ولايدرى لها سبباً !!وظل صامداً مـاضى العزم قوى الإرادة حتى امتلأ الحـوض بالماء وبعدها وقـف أبى بين الناس على حال من الرهق وقسوة الآلام وفـرط الاعياء ، فجاء عمه وأمسك بيديه الداميتين ورفعهما إلى أعلى حتى يتمكن الناس مـن رؤية الدماء النازفة والتمزق الاليم وقال وهو يضحك فى سخرية وزراية :

— شوفوا ياناس تربابة النسـوان !!

فجذب أبى يده فى عنف وغضب ، وكاد يهوى بها فى وجه عمـه لولا تدخل الناس !! ثم اعلن العم على الملأ ان ابنته ستكون من نصيب « ابن أخته » خادم الـزرع والضرع ولن تكون لابن اخيه خادم الترك « الحكومة » !!

فهاج القوم وماجوا لذلك النبأ ، وأعلن أبى أنه أحق بابنة عمه وانه سينالها بسيفه إن دعا الحال !! عندئذ دوت فى المكان زغرودة مجلجلة ارسلتها فرحاً شقيقة الفتاة الكبرى ثم صاحت تخاطب أبى :—

— عفارم عليك ياود العم ، عفارم عليك !!

فما ملك أبوها زمام نفسه وانتهرها زاجراً بعنف شديد فاستل أبى سيفه متوعـداً كل من يعترض طريقه من الناس ، واقتاد ابنة عمه محاولا الخروج بها من القرية عنـوة

فادركه أهل الفريق ومــن بينهم أمه وبعض ابناء الشيخ هجو ودخلوا معه فى حــوار عقلانى بعيد عن الانفعال وثورة الغضب ، حدثوه ان عمه سيعمل عــلى استرداد ابنته بالسيف لامحالة ، فهو أما قاتل أو مقتول ، وفى كلا الحالتين لن يتم الزواج !! فبكت الفتاة بين يديه خوفاً من ذلك المصير وحسمت أمه الأمر قائلة :—

— كان ماخليتها أنا ما عافية منك !!

فاسقط فى يد أبى ، وخلى سبيل الفتاة .

اتجه أبى من مكانه ذاك إلى قرية (الشمباتة)، وهناك قص الخبر على (الخليفة بابكر الشمباتى) فغضب لمسلك عمه معه وقال :—

— دعك من عمك وابنته، ولسوف ازوجك (دار الســلام) ابنة أختى ، ولك منى مهرها وجهازها هدية !! فقبل أبى بالزواج ، ولكنه اعتذر عن قبول الهدية فكان ذلك زواجه الأول واعقب ذلك زيجات وزيجات كان يبحث فى كل امرأة يقترن بها عن ابنة عمه التى حرم منها لأمر لايد له فيه .

ادركت حين عرفت الخبر من بعد — لماذا كانــت ابنة عم أبى تفيض علينا سابق الحب والرعاية على وجه من المبالغة والافراط ، وكان أبى يومئذ قد تناسى ذكريــات الماضى وبقى حفيظاً على صلات الرحم وأواصر القربى ، فقضينا أيام الزواج السبعة ننهل من معين الافراح وود الأهل الباقى مع الزمن ، ثم شاء أبى ان يمتد بقاؤنا بالعمارة أياماً أخر فى عطلة غير معلنة للراحة والاستجمام والاستمتاع بليالى السمر حيث يجتمع فيهــا رجال القرية ينثرون شهى الاحاديث والذكريات والاحداث احتفاء بالضيوف وترويحاً عن انفسهم من عناء النهار ، وكنت أقبع إلى جــــوار أبى فــى صمت أتابع مايقولون واختزن الكثير !!

وكنت أعب من تلك الينابيع الفطرية الثرة بحقائق الحياة وارجيفها معاً ، وقـــــد ساعدنى ذلك وافدت منه كثيراً فى فهم واستيعاب الدراسات الفلسفية وأنا طالب بالجامعة فيما بعد . فامضينا فى رحاب الأهل أياماً حافــلات بالمرح والطلاقة والعلم والخرافة ، وقبل ان نشد الرحال من العمارة إلى سنجة كان لزاماً علينا ان نتجه لوداع الشيخ يعقوب نطلب بركته ودعواته الصالحات .

جئنا إلى داره العامرة المعمورة في حشد عظيم ، فأكرم مسعانا ، وساق فى معرض حديثه جملة من النصائح والمواعظ ، فأوصى الجمع بالأرامل والأيتام والضعفاء ، وحذر من قطع الأشجار التى تسوق السحاب وتجلب المطر ! ! فالأشجار مخلوقات حية كالإنسان والحيوان سواء بسواء وهى تسبح لله وتحمده عـــلى نعماء الحياة وجلال الوجود ، والله سبحانه وتعالى لطيف بعباده وخلقه جميعاً ، متكفل بارزاقهم وأسباب الحياة ، يســوق السحاب الثقال حيث يكثر خلقه من الشجر ونبات الأرض ، مصداقاً لقوله جل وعــلا « وجعلنا من الماء كل شئ حى» غذاء لما هو كائن، احياء لما لم يكن بعد ، فالله يقــدر الرزق لخلقه من الانسان والحيوان والنبات وحشائش الأرض والهوام ، وكلما تكاثــر خلقه بمكان تنزلت عليهم فيوض رحمته بغير حساب ،سنة الله فى خلقه،ولن تجد لسنه الله تبديلا .

على ذلك النسق العفوى ، يورد الشيخ يعقوب دليلا من أقوى أدلة المتكلمين وارباب العقل والعلم على وجود الله الخالق البارىء الصمد، وهو مايعرف بدليل العناية الالهية كمــا يعرض لنظرية علمية هامة،وهى نظرية التبخر ونزول الأمطار فيما تذهب إليه من اطراد نسبة الامطار مع كثرة الاشجار وندرتها وانعدامها ! !

فطرة سوية تلك التى تمزج الدين بحقائق الحياة ومقولات العلم والعقل ، وما هذه وتلك من الدين إلا اقباس وومضات خاطفة ، لان الدين جماع الحق كله كيفما كان ! ! فالعلم أداة العقل لاستنباط حقائق الحياة والوجود فما يصل إليه من ذلك نذر وفطرة من ذلك المحيط الالهى ، ومـــن هنا أقبل أهل التصوف على مورد آخر يغترفــون منه المعارف والالطاف فركبوا ارواحهم مطايا إلى مجتلى الحق ومنبع الحقيقة وجاءوا بذلك الذى يؤكده القياس ويؤيده العلم ! !

بمثل ذلك الضوع الروحى والكرامات الماثلة المشهودة ، احتـــل الشيخ يعقوب ورصفاؤه من أهل الطرق الصوفية فى السودان عامـــة مكانه رفيعة فى وجــدان الناس ووجودهم،فهم منارات فى دياجير الحياة تضىء دروب السالكين وتقوم بتنظيم الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية والامنية إذ هـــم دعاة ، الدين ، خـــبراء الاقتصـــاد

والمرشدون الاجتماعيون والقضاه العادلون الذين يعالجون قضايا الحياة بالحكمة والموعظة الحسنة وفصل الخطاب !! يلقون باكـــدار الحياة واوشابها فى بحر الصوفية فيرتفع شأن الروح فى الانسان فكاكا من قيود الذات وسجن الجسد !! ويدرأون الاخطار والاسقام عنها بخبرتهم وحنكتهم وعلمهم وما أوتوا من الفيوض الالهية .

وفي ذلك مايكفى للدلالة على جحود المجتمعات الحديثة وهى تعرض فى صلف جاهل عن الدين ورجاله ، تأسياً أعمى بخروج الاوربيين على سلطان الكنيسة ابان عصر النهضة وشتان مابين الكنيسة والمسجد!! بين دين تعاورته أيدى التحريف والهوى،ودين تكفل الله بحفظه إلى يوم يبعثون، إن الدين عند الله الاسلام ، وهو مصدر العلوم والحقائق كافة،ضرورة لاغنى عنها، حاجة حيوية لامزاج شخصى من شاء آمن ومن شاء كفر!!

فليس الدين مجرد عقيـــدة مثالية تهذب الروح وتدعو للفضيلة ، فهو — إلى جانب ذلك نظام اقتصادى عادل،وحياة اجتماعية متوازنة وأطر قويمة للفكر والسلوك والعلاقات وتنمية المهارات والقدرات الايجابية، ذلك على أساس من العقيدة الحقة والشرع المبـــين.

كان الظن قد تبادر إلى بعض الأوربيين فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ان الدين قد استنفذ اغراضه فأخلى مكانه للعلم وغدا جزء من تراث الماضى السحيق !!

أو هو مرحلة تجاوزتها الانسانية لماهو ارفع شأنا وأعظم أثراً كما عبرت مـــن قبل عصور الجير والحجر والحديد!! ونهض دهاقنة الفكر فيهم يؤكدون، فهذا فرويد يقسم حياة البشر إلى ثلاث مراحل متعاقبة : —

— مرحلة الخرافة والاســـطور .
— مرحلة الاديان والتـــدين .
— ثم مرحلة العقل والعلـــم !!

ويتدافع الملاحده تباعا يحملون معاول الهدم للدين !! باعتباره صخرة كأداء تعوق تطور الأشياء والحياة ، فيأتي « ماركس وانجلز ولينين » وغيرهم من أصحاب النظريات والدعـــاوى العلمية الزائفة مثل النظرية المادية الجدلية التى تقسم الحياة البشرية إلى مراحل إقتصادية لا معدى عنها ولا محيص !! وهى على التوالى :—

- الشيوعية الأولى .
- الـــرق .
- الاقطـــاع .
- الرأسمالية .
- ثم الشيوعية الأخيرة . وهى آخر ما يبلغه العالم من مراحل التطور !!

يزعم أولئك ان كل ما عرفته البشرية من عقائد ونظم وأفكـــار إنما هو إنعكاس حتمى للحالة الإقتصادية ، ونتيجة حتمية للتطور الإقتصادى عبر مراحل التاريخ ، فهى صالحة له متلائمة مع ظروفه وأوضاعه ، ولكنها قطعا لا تصلح لمرحلة أخرى تالية ، تقوم على أساس إقتصادى جديد. وقياسا على ذلك ، فانه لا يوجد نظام يمكن ان يصلح لكل المراحل والأجيال كما يزعم المتدينون !! فمن قبيل الوهم والخطأ ما يذهب اليه دعاة الإســلام مثل قولهم أنه يملك من مقـــومات الخلود والقـــدرة على معالجة كافة المستجدات في حياة الأمم والشعوب ،ما لا يملكه أى نظام آخر عرفته البشرية من قبل .

ويدافع الشيوعيون عن كفرهم بالأديان بأن الاسلام قد جاء والعالم في نهاية عصر الرق وبدايات عهد الاقطـــاع ، ومن ثم جاءت نظمه وتشريعاته وعقائده ملائمة لذلك القدر من التطور فلم يجد مناصا من الاعتراف بخطيئة الرق وإباحة الاقطاع ، اذ لم يكن في مقدوره أن يسبق تطوره التاريخى ومرحلته الاقتصادية وهذا ضرب من المستحيل كما يدعى «كارل ماركس» .

لا جرم أن يمضى ماركس وغيره من عبدة المادة ورهبان العلم التجريبى إلى مثل تلك المهاوى من الزلل ، لأن الدين عموما والاسلام على وجه الخصوص لم يغادر في الحياة صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ، قال تعالى :

« وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم ، ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون » . صدق الله العظيم

وأعظم الخطأ والخطيئة أن يجرؤ البشر على تحكيم عقولهم القاصرة وما أتوا من علم قليل في شرع الله الذى أحاط بكل شيء علما ، وقدره فأحسن تقـــديره .

عاد أبي يخوض معركة البقاء الكريم بكل ما حباه الله من قدرات وتجارب ، ومضى بعزم الرجال يؤسس لنفسه موقعاً ملائماً بين أضرابه من التجار والأصدقاء ، لا يدع سانحة إلا ســخرها في سبيل ذلك الهدف ، يفكر ليل نهار في انجاح ذلك المخطط باعتباره مخرجاً من ضائقة خانقة !!

ولكن القدر العابث عاد من جديد لينشب أظافره في ذلك الأمل الوليد ، فقد تلقى شركاؤه تهديدات بمصادرة الأموال التى يتاجر فيها باسمائهم ، وصارحه بعض منهم بمخاوفه التى ساقها في قالب إعتذار لطيف عن استحالة التعاون معه في تلك الظروف ، ونصحه البعض الآخر بالسفر إلى الخرطوم وتقديم استئناف للسلطات القضائية العليا بمراجعة التفليسة بهدف الوصول إلى تسوية وصيغة مرضية مع الدائنين وخاصة بنك باركليز والشركات الأجنبية وعلى رأسها « شركة بوكسول » .

رفض أبي كل هذه العروض اقتناعاً منه بأن كل بريطاني في البلاد خصم له ولا يصلح أن يكون في ذات الوقت حكماً يرجى منه عدل أو أنصاف ، ومن هنا تراكمت في دواخله مشاعر العداوة تجاه الحكام الانجليز ، وأصبحوا عنده رموزاً متحركة للظلم والطغيان.

في غمرة الشعور بالاحباط والخذلان عاد أبي يفكر في الهجرة إلى تشاد ، ثم أتبع الفكر بالعمل ، فقام بتصفية شراكاته مع نظرائه من التجار واخلاء طرفه منها ، واعد للسفر عدته مزمعا ان يخوض ظلمات الحياة وحيداً يغالب القدر الارعن ، ولكن أخى أحمد أصر على مصاحبته ليكون رفيق درب يؤنس وحشته ويشد من أزره في مجاهدة الظروف وصراع المجهول فانصاع أبي لرغبته بعد جدال وطول تردد .

ثم دارت رحى معركة حامية الوطيس حول مصيرى بعد قرار الهجرة !! واستطال الحديث حول ذلك وتشعب حتى حسمه أبي بوعد قاطع منه أن يرسل أخى أحمد في طلبى حين يستقر به المقام ليأخذني اليه في مهجره البعيد في صحبة أسرته ، فلم أجد بدا من القبول وأنا أعلم استحالة سفرى معه في تلك الظروف .

ثم جاءت — من بعد — لحظات الوداع !!

فامتلأت النفوس بركام الألم والحزن الأسود ..
وتفجرت العيون شلالات من دمـــع سخين ..
وهـــكذا تفرقت بنا السبل !!

مؤلم ممض ذلك الشعور لمن تمرغ في وسائد العز وجاه الثراء وكنف الاسرة ومراتع الحـــب واللهـــو والامـــان .

ولكن الأيام دول كما يقولون !!

مضت على هذه الحال بضعة شهور كأنها الدهر أو تزيد حتى فوجئت بخبر عودة أخي أحمد فهرعت اليه من ساعتي في لهفة وفرحة لا تطـــاق، فقام أحمد يحدثنا عن نتائج الرحلة إلى تشاد فأصغى اليه الحاضرون في لهفة وصمت، قال على سبيل الاجمال في بادىء حديثه ان أبي قد حقق نجاحاً طيباً !! فانطلقت الألسن من عقالها بالحمد لله والمباركة على نعمة التوفيق والسداد ، ثم استفاض أحمد في اطراء شمائل السودانيين بأرض المهجر وفي مقدمتهم العم عمر كروم والعم الأمين عثمان من أبناء مدينة الكاملين ، فأطنب أحمد في مدحه والثناء على مروءته وكرم أخلاقه وعظيم وطنيته، فهو يبذل ماله وجهده ومكانته لمساعدة اخوته المهاجرين السودانيين في القطر التشادى الشقيق ، كما يعمل في اخلاص على تنظيم ومساعدة الرأسمالية الوطنية التشادية لتقف ندا قوياً للشركات الأجنبية في البلاد .

جاء أحمد يحمل بعض المال والهدايا العينية الفخمة لزوجات أبي وأولاده وأهله الاقربين وأخبرهم أنه مكلف بطمأنتهم جميعاً على حال أبي وتحديد مكان اقامته وتنظيم أمر الحوالات المالية لهم . كما أخطرهم بتكليفه باصطحابى معه إلى تشاد .

ثم دارت بين الأهل جدالات طويلة حول سفرى في صحبة أخى إلى تشاد ، انتهت أخيراً بموافقة ذوى الشأن منهم وغدا الأمر قيد التنفيذ .

تجمع الأهل والأصدقاء ليكونوا في وداعنا، حيث نأخذ القطار إلى الأبيض ومنها بالعربات إلى تشاد، كان بعض الأهل من الرجال والنساء يدس في يدى أو جيبى مبلغاً من المال، وكنت — بحكم ما عودني أبي من قبل — أرفض العطية وأحاول ســـحب يدى فارغة منها ، فلا يتردد الواهب من الأهل في تقريعى ومؤاخذتي جهراً ، ثم يرغمنى على القبول مكرها!!

تأخـــر القطار عن موعده المضروب ساعة من زمان ، ثم أقبل يترنح من الجهد والأعياء ، وكان مثل ذاك التأخير أمراً مألوفاً في تلك الأيام ، فضحكت كثـــيراً لمشهد القطار وهو يدخل المحطة ، اذ تمثل لى من هول ما يحمل على ظهـــره وأحشائه من الكتل البشرية كثعبان داهمته حشود النمل تنهش جسده من كل جانب ! ! فالقطار — تلك الأيام — هو وسيلة السفر الرئيسية المفضلة ، فما عرفت البلاد بعد الطائرات والطرق المعبدة الطويلة ، وكان البديل — لمن يضطر للسفر — أن يمتطى ظهور الحمير والابل أياما تطول وتقصر ، فلما جاء القطار في ركاب الفاتحين ، تهيب الناس ركوبه أول الأمر ونسجوا حوله القصص والأساطير وبمرور الأيام ، زايلهم الخوف ، وأقنعتهم التجـــربة.

في بداية الرحلة كان القطار قد أعلن عن استعداده للرحيل بصفارة طويلة مبحوحة ، ثم أردفها بأخرى وثالثة ثم أندفع بقوة جعلت عرباته تصطك ويضرب بعضها بعضا وكأنه حصان غير مروض يقفز ليلقى براكبه ويطرحه أرضاً ! ! ورغم ذلك يبقى الركاب على ظهره صامدين في تحد وإصرار شأن فرسان الكاوبوى في الأيام الخوالى ، فلا يجد القطار بدا من الرضوخ للامر الواقع والحمل الثقيل ، ويتحرك مزمجرا ساخطا ، تعبر زفراته وصرير عجلاته فوق القضبان الحديدية عن مشاعر الظلم والعنت الذى يلاقيه ، ثم يطغى أزيزه وإهتزاز عرباته على كل الأصوات فيصبح هو وما فيه من البشر والمتاع كتلة لها هدف واحد محدد ، هو بلوغ المحطة التالية ، والتى تمثل للبعض نهاية الرحلة وللبعض الآخر بدايتها ، أما هو فالبداية والنهاية عنده أبداً متجددة ،

ترامت إلى آذاننا أصوات الناس من الخارج وقد داهمهم موظف السكة حديد وفي معينته رجل شرطة يأمر الناس باخلاء الممرات المزدحمة والولوج إلى داخل القمرات فاقتحم شخصان باب « قمرتنا » يحاولان الدخول فتصدى لهما أحد الجالسين بحجة أن « القمره » كاملة العدد ولكن الحجة — رغم وجاهتها — لم تكن مقنعة للرجلين ، وبدأ عراك وشجار وسباب تدخل موظف السكة حديد ورجل الشرطة لفضه وفرضا دخول الرجلين إلى القمرة فرضاً ! ! فاستقبلهما الركاب بالاستياء والسخط ، كما استقبلوا قرار الدخول نفسه بالاحتجاج والتذمر ، وشرع الموظف فى فحص تذاكر المسافرين فتبين ان أكثر ركاب القمرة بحاجة واحتجاجاً لايملك تذكرة سفر كالآخرين ! ! فلم يجد بداً من

التظاهر بان تذكرته قد سرقت أو سقطت منه فى الزحام ، فرمقه الكمسارى نظرة ساخرة وفمه يفتر عن ابتسامة الهزؤ والتكذيب ، ثم قال له لسوف تدفع قيمة التذكرة مع الغرامة وبالعدم فاننا سنقوم بانزالك فى المحطة التالية بموجب (أورنيك –٢٠٠– مائتين ! !) عندئذ تبسم الرجل فى وجه الكمسارى وقال بلطف مصطنع يا ابن العم مافى مشكلة، حنتفاهم ! ثم غادر مكانه وخرج وهو يمسك بكتف الكمسارى ملاطفاً وعاد بعد لحظات قلائـل ، ليعلن بشيء من الزهو والفخر انه قد اتفق مع الكمسارى على دفع ربع قيمة التذكرة وتمت تسوية الأمر ، فانفجر القوم ضاحكين ، وعلق بعضهم ساخراً من الواقعة ودلالاتهـا ، ذلك ان الناس كانوا يرون فى مثل ذلك الصنيع عملا وطنياً وحرباً على الاستعمار إذ يحرمه قدراً من المال الذى يوفره له مورد السكك الحديدية ،وغاب عنهم أثر ذلك على الاقتصاد والاخلاق والإدارة ولم يدركوا انهم يبذرون فى مرافق الدولة وضمائر العاملين فيهـا جرثومة الفسـاد والانحراف التى تنخر فى كيان الأمة فى قابل الايام .

ذابت فى اطار ذلك الحديث مشاعر الغضب والسخط التى فجرها اقتحام الرجلين وفرض وجودهما واقبل بعضهم على بعض يتسامرون ويضحكون ، وذهب بهم الحديث كل مذهب ، فاكتشف أحدهم — بمحض الصدفة — آصرة قرابة ودم تربطه بأحد الرجلين الوافدين اخيراً، فهب يعانقه فى حرارة وشـوق مفرطين ، ثم انطلقا يخوضان في الحديث عن الأهـل والبلد والظروف ، وكان ذلك مصداقاً لمقـولة العم عمر كروم المشهـورة لو اسـتوقف أى سودانى آخر على قارعة الطريق ، وكشف كلاهمـا عـن اصـوله ومنابته واعراقه ، لأدركا انهما أهل وأقارب ! !.

وكما هو الحال فى كثير من البلاد والشعوب فان محطات القطار أسـواق موقوتة رائجة، ما ان يبلغها القطار حتى تعلو أصوات الباعة بما عندهم من مختلف المعروضات من مآكل ومشارب ومصنوعات شعبية وغيرها ، وكنت — منذ البداية — قد اسـتأثرت بالجلوس إلى جوار نافـذة « القمرة » لأتمتـع بالمشاهد المتعاقبـة والمناظـر الخـلابة وقد تهيأ لى أيضاً ان أرقب حركة تلك الاسواق وتنوع معروضاتها واختلاف الناس فيها من مكان إلى آخر ، ولما كنت اتمتع بقوة شرائية كبيرة من حصيلة ما غمرنى به الأهل من العطايا والهبات السنية عند الوداع ،فقد كان يحلو لى ان أباشر لذة الشراء بغير ضرورة ولم

أكن أدرى أن أخى أحمد حانق مغيظ من ذلك! ! حتى إذا ابتعت — فى احدى المرات — قدراً من البيض والطعمية والفول المدمس ، ومضيت أوزعها على الحاضرين مغتبطاً سعيداً ألفيت أخى يعتصره الالم والغضب والاستنكار ، فأشاح بوجهه برهة ، ثم رمقنى بنظرة ذات معنى ، فتغافلت عنه بتلقى عبارات الشكر من الآكلين ، فأحسست يده تمتد إلى فخذى وتقرصنى ثم دعانى لمغادرة المكان بحجة واهية وخرجت فى أثره ينتابنى شىء من الخوف ، فما ابتعدنا كثيراً حتى استلب معظم مامعى من نقود ولم يترك لى سوى النذر اليسير ، وبرر تصرفه ذاك بانى مبذر متلاف وفى حاجة إلى وصى يرشدنى .

وحين عدنا إلى مقاعدنا فى « القمرة » ادركت ان الرفاق قد أحاطوا بجلية الأمـر أو هكذا بدا لى ساعتها ، فأنشأ كل منهم يطرى شمائلى وجميل صنعى بكثير من الاسهاب ، وبادر الجميع بشراء صنوف الطعام والشراب رداً للجميل فى المحطات التالية .

بلغنا مدينة كوستى فى الفجر ، فاذا المحطة مزدحمة بالناس وكأنهم باتوا ليلتهم على ارصفتها ساهرين ، وللوهلة الأولى بهرتنى مبانيها وتنظيم ساحاتها وطرقاتها المتفرعة مـن المحطة ولما كنت أعلم ان القطار يمكث وقتاً طويلا قبل مواصلة الرحلة إلى الغرب ، فقـد استأذنت أخى أحمد فى التجول داخل المحطة وشراء ما ارغب فيه من البوفيه ، فلم يمانع فانطلقت كالطائر تنسم عبق الحرية بعد طول حبس ، ودلفت على البوفيه ، ومنه بدأت جولة خاصة فى ارجاء المكان ، ثم انخرطت فى الجموع المتجهة إلى الميناء النهرى ، وهناك سحرنى مشهد البواخر المتراصة ، وتلك التى تقف على أهبة الاستعداد تبتلع فى جوفـها الناس وامتعتهم وتقول هـل من مزيد؟ ويقوم على اشـباع حاجتها لفيف من الحمالين يتأرجحون على «سقالة» ، خشبية وهم يحملون الجوالات والبضائع من الرصيف ، ويرددون الأغانى فى مجموعات كـورالية متناغمة وأخذت أعقد مقارنة بينها وبين ميناء سنجـة النهرى ، من حيث الحركة والضجيج والناس والبواخر ، وكنت أسأل الماره ، فعلمت ان معظم ركاب تلك الباخـرة قد حضروا إلى المدينة بالقطـار الذى سـبق ، وهو قطار مخصوص تبدأ رحلته من الخرطوم وتنتهى بمدينة كوستى ، حيث يتوافق وصوله مـع موعد قيام الباخرة ، ومن هنا جاءت تسميته «قطار الباخرة» أما المدينة نفسها فقد عرفت باسم « كوستى » وهو أحد المغامرين الاغريق الذين نزحوا إلى البلاد فى ظل الهيمنـــة

الاستعمارية الانجليزية ، ولايعرف الناس للرجل الاغريقى من فضل على المدينة وأهلها اسمه سوى أنه انشأ بها أول متجر عام !! .

سرقنى الوقت وأنا اتجول وأسأل وأغرق فى خضم ذلك الكم الهائل من الاعاجيب والمغريات فنسيت أخى أحمد والقطار ، وفجأة تنبهت على صوت صفيره يأتى من بعيد ، فأخذت أعدو فى اتجاه المحطة ، وعند مدخلها الكبير وجدت أخى أحمد يبحث عنى فى هلع وجزع ، فلما وقعت عيناه على أحسست ان حملا ثقيلا قد انزاح عن كاهله وهجم على يحاول ضربى وتقريعى ولكنه عدل عن ذلك وهو يرى القطار يهم بالتحرك ، فأخذ بيدى وشرعنا نجرى ونلهث لنلحق بالقطار الذى تحرك فى بطء وتثاقل ، وظل أحمد يدفع بى حثيثاً صوب العربة التى كنا بها من قبل ، فتصدى لنا رجل الشرطة وصاح بنا ممنوع ركوب القطار بعد تحركه ، فرد عليه أحمد رافعاً صوته فوق ازيز عجلات القطار عفشنا داخل القمرة وتذاكرنا على القطر ده !! فاعترض الشرطى قائلا ، « نعمل ليكم تخلف وتركبوا القطر الجايى ، أما العفش فسوف نحجزه بواسطة ناظر المحطة التالية » .

دار كل هذاالحوار فى ثوان معدودة ،ولم يقنع كلام الشرطى أخى أحمد ، وكان القطار مازال يجرجر عجلاته كعاشق مكره على فراق حبيبته ، فاصم أحمد اذنيه ودفعنى امامه غير مكترث بما قال الرجل فتعلقت أنا بسلم العربة وكذلك فعل أخى فكاد يسقط بين الرصيف والقطار عندئذ امتلأ سماء المكان بالصراخ والصفير وصيحات الذعر والالم فادركنى من ذلك خوف شديد ، رغم ان أخى أحمد كان يقف خلفى سالماً معافى يحاول أن يشق لنا طريقا الى الداخل وسط ركام المتاع والكتل البشرية التى تسد المنافذ والممرات جهد عقلى فى البحث عن سبب للصراخ والصياح والصفير الذى يصم الآذان ، فظننت أن الامر ناتج عن أهمالى وتأخرى واصرارنا على ركوب القطار وتحدى أوامر الشرطى الصريحة ، ولم يبارحنى هذا الشعور إلا عندما رأيت الناس يندفعون صوب منطقة بعينها من الرصيف ، ترقف القطار تماماً وجاء الناس يحملون الخبر ، فقد سقط أحد المسافرين بين سلم إحدى العربات ورصيف المحطة !! وهو يحاول اللحاق بالقطار ، فانحشرت رجلاه وتهشمتا ونال جسده من ذلك أذى جسيم !! فتوفى لساعته بتأثير الحادث والصدمة

وبلا وعى وجدتنى احاول الانفلات من بين يدى احمد لمشاهدة الحادث على الطبيعة ، فجذبنى احمد بشده الى داخل العربة ، حتى إذا احتوتنا القمرة من جديد امرنى بالاستلقاء على السرير الخشبى العلوى ، فى محاولة منه لاخفائى عن عين رجل الشرطة الذى استوقفنا بالرصيف ، بينما تهيأ هو لمواجهة الموقف ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث وتوافد الركاب على مقاعدهم وتحرك القطار ، ولم يمض سوى وقت قصير حتى أصبح حادث الرجل المسكين حديثاً مكرراً ملت الانفس سماعه فأهملته وانصرفت الى غيره من الأحداث والأحاديث وهكذا حال البشر فى كل زمان ومكان ، فقد اشتق اسم الانسان من احدى خصاله وطبائعه وهى النسيان !!

ابتلعت سهوب كردفان القطار الذى يقلنا إلى الغرب ومضى يزحف فوق رمالها لاهثا يزفر ويزمجر ويملأ الآفاق بالدخان ، وسفت الرياح ذرات الرمل على وجوه المسافرين وملابسهم ومتاعهم بغير رحمة ، وبين الفينة والأخرى تسفر كردفان عن فتنة آسرة وجمال خلاّب ، كردفان الرجولة والخير والتاريخ أو كما يحلو لأبناءها ان يسموها « كردفان الغرا ، أم خيراً بره » أى ظاهر ميسور للراغبين ، ولعمرى لم يجاوزوا في وصفها الحقيقة .

بلغ القطار ذروة الارهاق والاعياء وهو يقترب من نهاية الرحلة عند الفجر ، فكنت تسمع شهيقه وزفيره وصفيره متقطعا ، وقد رانت عليه وعلى ركابه وعثاء السفر وذرات الغبار وكما يحدث عادة ، جاءت تباشير الخلاص ونهاية الرحلة متمثلة في مرور الكمسارى ، وعسكرى الحركة يطرقان الأبواب الموصدة ويوقظان من أخذته سنة من اليوم وسط ضجيج العربات واهتزازاتها الرتيبة وزحفها على القضبان فكان الكمسارى يطرقع بأصابعه ويضرب الجدران الخشبية بقلمه وهو يصيح « تذاكر ، تذاكر » وهو اذ يفعل ذلك يؤدى مهمة مزدوجة ، فحص التذاكر أولا وجمعها من أيدى الركاب ثانيا .

تلاحق صفير القطار وهو يخطو بتؤدة ووقار صوب سيمافور محطة الأبيض ، وقبل أن يلجها ألفينا جموعاً غفيرة من الناس يتسابقون نحوه ويقتحمون عرباته في عنف وإصرار

بغية الحصول على مقعد في رحلة العودة المرتجاه ، وقد بدأ التزاحم وعمليات الاقتحام والقطار ما يزال يتحرك داخل المحطة ، فلما توقف وألقى عصا الترحال على الرصيف إنفجر بركان بشري وقذف بالناس والمتاع عبر نوافذ وأبواب القطار ، كالحمم حتى تعذر علينا النزول الا بشق الأنفس وقيل لنا ونحن نتساءل عن سبب الزحام ودوافع المتزاحمين ، ان الموسم موسم جنى القطن بالجزيرة ، والحج إلى بيت الله الحرام ، إضافة لحشود المسافرين العاديين .

بعد جهاد مرير ، وعناء شديد لامست أرجلنا أرض مدينة الأبيض ، وكان أخي أحمد قد اضطر لالقاء متاعنا القليل عبر النافذة ، فأتخذنا طريقنا إلى خارج المحطة التى لم أتبين معالمها تحت وطأة الزحام وغلائل الظلام ، وفي الطريق عرفت من أخي اننا سننزل ضيوفاً على أحد أقربائنا من سكان المدينة وهو الحاج أحمد المامون فضل ، ويعمل بالتجارة والترحيل « قومسيونجى » اما داره العامرة فهى قبلة القاطنين والوافدين من الأهل والمعارف.

واسترسل أخي أحمد في وصف سجايا الرجل واخلاقه ومرؤته ، فلما عرفته فيما بعد تأكد لى ان الالفاظ مهما أوتيت من قـوة البيان والبلاغة قاصرة عن ايفاء الحاج أحمد المامون حقه المستحق ، ثم أصـبح ذلك قناعة راسـخة بعد ترددى على زيارته خـلال رحـلاتي العديدة إلى الغرب ، يكفى ان داره لا تخلو قط من طائفة من الضيوف قليلة كانت أو كثيرة ، وهو يقوم على خدمتهم ومؤانستهم والتبسط معهم ، ويجرى في ذلك على الفطرة مدفوعاً بخلاله في الكرم والتواضع وحب الناس فهو أبدا بشوش ضاحك طلق المحيا عذب الحديث رقيق القلب ، ناضج الفكر عميق الفهم للحياة ، تنم أحاديثه عن ثقافة واسعة في شتى ضروب الفكـر والمعرفة ، لا تتأتي لمن يحملون الألقاب العلمية الطنانه رغم ان تدرجه في السلم التعليمي لم يتعد المرحله الاوليه .

ولم تكن تلك أول مرة يزور فيها أخي أحمد مدينة الأبيض ، ولهذا فقد كان خبيراً بشعابها وأحيائها وأسواقها وكل شيء فيها ، فخرج بي في طـواف ممتـع على أهم معالمها كالسوق الكبير وسوق أبو جهل والأحياء المختلفة ، فلما اعيانا التجوال دلفنا على « حلواني أبو نجمة » بجوار سينما الأبيض وهناك زاغت عيناى وهما تبصران صنوف الحلوى أشكالا وأنواعاً متباينة ، وجدتنى مشوقاً لنوع منها اسمه « البغاشة » فلما طعمته أدركنى العطش ، فشربت الماء المثلج الذى لا يقدم إلا لمن يبتاع أحد صنوف حلوانى (ابو نجمه) فنـزلت

قطراته برداً وسلاما على جوفي المحترق !! ثم عدت أطلب المزيد من « الباســطه » ولكن أخي أحمد اقترح التنويع في الملذات والطعوم وطلب لنا كاسين من الايسكريم والهب هذا في نفسي المزيد من الرغبة ، فاعترض أخي محذراً باعلان إفلاسي وهو الوصي على مالى القليل.

أثار انتباهي تجمع الناس في صف طويل ، فأخبرني أخي أحمد أن تلك دار السينما ، وتطوع أحد زبائن حلواني أبو نجمة « فقال ان الفيلم الذى يعــرض هذه الايام هو فيلم « عنتر وعبلة » ولهذا يحتشد الناس لرؤيته من وقت مبكر ، واستجاب أخي أحمد لرغبتي في مشاهدة الفيلم ، وبعد حين كنا حبتين في ذلك العقد الطويل ، وكان قد سبق لى مشاهدة عروض السينما المتجولة ، ولكنها المرة الأولى التى أشهد فيها فيلما روائيا طويلا .

لعل أخي أحمد لم يكن أقل مني حرصاً على مشاهدة الرواية ، وتحملنا في سبيل ذلك صبر الساعات الطوال ورائحة عرق الرواد وتزاحمهم ، فلما اقترب موعد فتح شباك التذاكر جاء أحد أفراد بوليس « السوارى » يمتطى صهوة حصانه ويحمل بيده سوطا يلوح به ويهدد ، وأصدر أمره لجمهرة الرواد المتزاحمين بالتزام النظام والانخراط في الصف ، ثم لا يتردد أن يهوى بسوطه على ظهور الخارجين على أوامره وسلطانه ، ولم يكد الصف الطويل يتحرك بضع خطوات حتى ترامت إلى اسماعنا أصــوات تنادى : خمسة قروش خمسة قروش وكان الزحام على أشده وبلغ بنا العناء مبلغا عظيما ، فعلمنا ان الأصوات لقوم يبيعون تذاكر الدخول بأكثر من سعرها المحدد ، فيذهب عائد الزيادة قسمة معلومة بينهم وبين الموظف المنوط به بيع التذاكر في الشباك ، وفي رأيى ان ذلك أول ما عرف السودانيون من صور السوق السوداء الحديثه . فحاولت اقناع أخي أحمد بشراء تذكرتين من أولئك الباعة ولكنه أصر على بلوغ الشباك والشراء بالسعر المحدد ، وظل الصف يزحف في بطء والناس يتدافعون وأحمد يشرئب بعنقه في محاولات متكررة للتعرف على حقيقة المسافة التى تفصلنا عن الشباك ، واذ هو مثابر صابر على مكاره الزحام تلقى دفعة قوية من خلفه خرج على أثرها مقتنعاً برحمة السوق السوداء .

كان إنبهارى بالسينما جد عظيم ، وشاقنى كثيراً عرض الجريدة المصورة ، ثم لقطات مثيرة لعروض الأيام التالية ، وجاء الفيلم المرتقب « عنتر وعبلة » فتركز إهتمامى مع القصــة وأبطالها ومواقعها ، حتى حفظت عن ظهر قلب كثيراً من الحــوار والمشاهد

والأغنيات وخرجنا بعد نهاية العرض وأنا مفعم بكل الأحداث والمناظر التى احتوتها، وفي طريق العودة لم أكف أبدا عن اســتعراض مشاهد الفيلم وأحداثه في إنفعال ظاهر، وظللت أقفز وأصفق فرحاً وأنا أردد عنتر يا حاميها يازين واديها :-
حتى بلغنا دار مضيفنا وبتنا ليلتنا تلك ، استعدادا للسفر في اليوم التالى .

* ٤ *

تجمعنا لفيفاً من المعارف المسافرين، أمام دكان العم الحاج أحمد المأمون ، على أهبة الاستعداد للرحيل غربا في تلك الاصقاع النائية ، بينما كان هو مشغولا بشحن « اللورى » ببضائع تجار الجنينة ، ويأتي الخرز في مقدمتها ، لرواج تجارته بين نساء الغرب وتشاد واستخدامه للزينة ، ويعرف عندهم باسم « الخدور » فلا تكاد تخلو أيديهن ورقابهن وأرجلهن من شيء منه قليل أو كثير .

وتم شحن عربة الفورد بالبضائع والركاب ، وسلم العم الحاج أحمد سائقها كشفاً بما تحمل من الأنفس وعروض التجارة ، وهو ما يعرف « بالمنفستو » ولكن السائق كما جرت عادة أضرابه من السائقين لم يكتف بما تضمنه « المنفستو » فأخذ موقعه في الموقف الكبير لمزيد من الركاب خارج المنفستو !! لزوم مصاريف الطريق ، وعملا بحكمة « القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود » ولم يكن صنيعه ذاك بدعة أو سرقة ، بل هو عرف وحق مكتسب ومورد رزق ثابت وفير ، بيد أنه على وفرته كان سائقو تلك الأيام يجمعونه قروشاً بيضاء ، وهي من الكثرة بحيث كان من الممكن ان تتحول ذهباً يخطف الأبصار ويملأ النفوس امانا وقناعة ، الا أنها كانت لا تكاد تدخل جيوبهم وحدانا متفرقة حتى تخرج زرافات متجمعة في غمرة الزهو ولذة العطاء !! وكانوا لا يفتأون يرددون القول « مال الريح تأكله الزوابع » .

كان للعربات وسائقيها على خط الفاشر في ذلك الزمان مكانه وشهرة بين الناس لا تقل عن تلك التي للأبطال والفرسان خلال القرون الوسطى ، وحققت عربات الفورد الانجليزية الصنع رواجاً هائلا وكفاءة عالية في الأداء والتحمل ، فأقبل ارباب المال على شرائها فأصبحت الأكثر إنتشاراً في ربوع البلاد .

أما فرسان تلك الخيول ، أو بالأحرى سائقو تلك العربات فقد تميزوا بالمعرفة والدراية التامة بميكانيكية تلك العربات وقدراتها ، لا يعجز أحدهم عن اصلاح العطب كيفما كان نوعه وموضعه !! حتى اذا اقتضى الأمر توضيب الماكينة وإعادة تركيبها من جديد ، وهي خبرة ودراية مكتسبة بالتجربة والممارسة ، ويرافق السائق عادة مساعد لورى وهو أيضاً ذو خبرة تامة بكل ما يلزم العربة من تجهيزات وصيانة ونظافة ، وفي

معظم الأحوال يجمع إلى خبرته الماما بأبجديات فن القيادة ، وكثيراً ما يحل محل السائق في الطرق السهلة خارج المدن ، وبذلك تنمو لديه المعرفة بهذا الفن يوما بعد آخر حتى يصبح سائقاً معترفاً به من الجميع . وقد يواتيه الحظ ، فتكون له شهرة وأمجاد في هذا العالم الاسطورى. ويضم طاقم العربة — عادة — شخصية ثالثة ، تعارف الناس على تسميتها « بالخابور » وهو مساعد. يقوم باعداد الطعام والشراب وحراسة العربة وتقديم ما يمكن تقديمة من خدمة للمسافرين ومن هنا جاءت تسميته ايضاً بمساعد الحلة وفى ذلك إشارة إلى طبيعة عمل (الخابور) .

في بعض الأحيان ينضم صاحب العربة نفسه للطاقم وقد ينوب عنه شخص آخر يعرف باسم « الوكيل » وكلاهما شخصية بغيضة تفرض نفسها وتكون عبئاً ثقيلا على السائق ومساعديه لانه يحرمهم من القرش الأبيض خارج « المنفستو » كما يدس أنفه في كل صغيرة وكبيرة ويحد من حرياتهم في الحل والترحال ولهذا يرفض بعض السائقين من عشاق الحرية العمل في العربات التى يكون صاحب العربة أو وكيله فيها عينا ترقب وقيداً يكبل الحريات .

درج السائقون على السفر متزاملين ، سرب من العربات قد يكثر أو يقل حسب الظروف ولكن يندر ان يغامر سائق واحد بركوب تلك الطرق الوعرة مهما كانت ثقته بنفسه والراحلة التى يقودها ، لهذا ينعقد الرأى بينهم على ساعة للتحرك في رتل يتبع بعضه بعضا ، حتى اذا تعثرت عربه في الطريق أقالت الاخريات — عثرتها ومددن لها يد المساعد وغالباً ما تبدأ الرحلة عصراً ، فيغتنم قادة الأسطول برودة الليل كله سيراً حثيثاً بفعل الطاقة المتولدة عن ايام التبطل والراحه وتظل الشاحنات تطوى السهول والقرى والوديان طوال الليل ، ثم تتوقف القافلة ، حيثما اتفق ، لأخذ قسط من النوم والراحه ثم تعود تجرى عند الفجر حتى ترتفع الشمس في رابعة النهار — عندئذ يهجع السائقون والركاب إلى ظل يقيهم الهاجرة ،ويتزود البعض بالنوم تعويضاً لما فات وتمهيداً لما هو آت ! ! ففى مثل تلك الظروف ينقلب الليل معاشا والنهار لباسا والضرورات تبيح المحظورات ! !

ومحطات التوقف عبر مراحل الطريق المختلفة ، قرى صغيرة معروفة باسمائها ، ذات أسواق بدائية لا تعرف النظام ، تنتشر في جنباتها المطاعم والمقاهى والحــوانيت ،

تعود أهلها خدمة المسافرين وتقديم ما تيسر لهم من طعام وشراب ، وتتفاضـل خدمات أهل القـرية وتختلف نوعيتها باختلاف من يقوم بأدائها منهم ، فالرجال والنساء المسنات - عادة - يقومون بتزويد العابرين بالمواد الغذائية من بيض ودجاج ولبن وسمن وعسل.. الخ أما الفتيات في ريعان الشباب ونضرة الصبا فتتعدى خدماتهن حدود البطن إلى متطلبات الجسد الأخرى !! وذلك ما يدعو المتزمتين من كبار السن وأهل التقى لأن يكيلوا اللعنات على خط الفاشر وسائقيه وركابه ليل نهار !! ويرى بعضهم ان الطريق دسيسة استعمارية، أراد بهـا الحكام الانجليز تقويض الأخلاق بعد ان قوضوا من قبل أركان دولة الاسلام في المهدية، وتظل ألسنتهم تلهج بالدعاء واللعنات على مر الأيام والدهور، وتذهب جميعها أدراج الرياح ، فلا تقوى على مواجهة أعاصير الفتنة والغواية التي يرسلها أبليس اللعين ، وتكتمل عناصر المفارقة والتناقض : حين ترى امرأة مسنة تجوب أنحاء السوق ، تحمل يمناها زجاجة « عرقى » بكرية !! ويسراها زجاجة سمنه أو عسل وهى إلى فك أسر يمناها أشد رغبة وتوقاً!! لأنها تدر عليها أكثر فاذا تمت الصفقة، جرع المشترى جرعة للتأكد من نوع البضـاعة، ثم أغمض عينيه وقطب وجهه بتأثير ما جرع وقد يغنى فى مجون :-
عرقى أم ضى دودو بي يا بوليس مالك بي !!!

فتتجاوب المرأة مع المشترى بضحكة يشوبها الحرج ، وتظل أسيرة لخلاعة الفتى الطائش تتقبلها على مضض حتى تقبض الثمن فتهرول سعيدة صوب أحد البيوت ، فلا تمر دقائق معدودات حتى تخرج حاملة بضاعتها الرائجة وتعود يمناها إلى الأسر من جديد !

وما كان بدعة ان تباع الخمر فى أسواق الغرب ، رغم تزمت البعض وتمسكه بالدين والأخلاق والتقاليد ، فالأمر لا يخرج عن كونه صورة أخرى لذلك الصراع الرهيب بين الأصيل والدخيل ، وقد مر بنا الحديث عن ذلك الطوفان العاتي الذى إجتاح عالم مابعد الحرب العالمية الثانية ، فهدت معاوله صروح القديم ، وبذرت الجديد في رحم الأرض والانسان ، وسريعاً ما جاء المخاض ، فجاء الجنين نزوعاً الى التغيير في كل شيء الأفكار والمعتقدات والملابس والسلوك الخ . وكانت فئة العاملين في النقل والمواصلات الأكثر تطرفا فى الاستجابة لهذا النزوع ، ومنهم جاءت الدعوة إلى حرية الجنس وتعاطى الخمر وترديد الأغنيات الماجنة ، ومن مظاهر هذا التطرف شيوع سب الدين !!

والحق ان احداً ممن أخذو بهذه العادة ، لم يكن يعني حقيقة مايتفوه به من سباب ، إذ كانوا يسبون اديان مالا دين له من الاشياء والهياكل والظروف ، فيسب السائق دين عربته التي تعذراه لاح عطبها ،ويسب غيره دين عيشه وحاله بين الناس ويسب آخرون دين العمل والزمان والمكان ولامر ما ،شاع سب الدين بين فئة المساعدين حتى اصبح سمة لهم.

وهو وصف ينطبق تماماً على مساعد اللوري الذي انطلق بنا صوب الغرب ، كان فتى خليعاً لا يأبه لشيء ، ولايتوقف لحظة عن الدعابة والضحك والغناء ، قد حباه الله صوتاً رخيماً مطواعاً وهو يردد الاغنيات المختلفة ساعة القيلولة ، حيث ينتظم عقد المساعدين في حلقة كبيرة ، يداعب بعضهم بعضا ، ويتبادلون الشتائم والنكات والضحك ثم يأخذون في غناء جماعي يشنف الآذان .

يقيني ان تلك الصورة الماجنة الخليعة في حياة هذه الفئة من الناس ، تندرج في اطار حكمة التعادلية التي تحفظ للكون والكائنات بقاءها ، وقد سبق ان فصلنا أمر التعادليـة بين موجات الالم واللذة التي تصدر عن الخلق كافة ، أما علاقتها بما نحن فيه من سـياق الحديث والذكريات ، فهو قسوة الظروف وطبيعة العمل الذي يمارسه العاملون في خـط الفاشر يومذاك ، فالرحلة ذهاباً أو أياباً قطعة من جهنم كما يقولون ، يحتمل طاقم الشاحنة خلالها أقصى درجات العناء والشقاء والألم ، بسبب طول الرحله ووعورة الطريق وبدائيه العربات إذا ماقورنت بما دخل عليها من تحسينات في الوقت الحاضر .

كانت الشاحنات تشق طريقها في تلك المجاهل بكـل العسر والمكابدة فتخـترق الصحارى والغابات والسهول الرملية والاوحال ، فكنت تسمع أنين العربات وبكاءهـا وهي تغالب الرمال كما تئن المرأة وتبكي ساعه المخاض .

بينما تنتقل يد السائق الخبير بالتعشيقة بين التروس المختلفة في محاوله لتخفيف آلامها والخروج بها إلى بر السـلامة ، وخـلال ذلك يتلون صوت العربة بين الزفير والعويل والنشيج وهي تغوص في الرمال والأوحـال ، حتى إذا اشتد بها الكرب وعجزت عن المسير قفز مساعدو السائق إلى الأرض يحملون «الصاجات» ويضعونها تحت عجلاتها الغارقة في بحار الرمل فتخطو عليها ببطء وحذر ويتبادل المساعدون مواقعهم وهم يعيدون وضع الصاجات في مقدمة العربة من جديد ،فينالهم من ذلك رهق شديد وعناء لايوصف وكثيراً مايهوى

الواحد منهم بسبب الاعياء أو زلة القدم تحت العجلات فجأة ، فتنكسر يده أو رجله أو تزهق روحه فى تلك العملية ، وأثناء ذلك كله يظــل الركاب على ظهر العربة يتصايحون خوفاً ورعباً نظراتهم زائغة ، وقلوبهم واجفة ، وشفاههم تتمتم بالدعاء والاستعاذة بالاولياء والصــالحين شأن عجائز النســوة فى لحظــات المخاض والولادة المتعثرة ، وكما تنطلق الاسارير بالفرح وتملأ الزغاريد أرجاء المكان عند خروج الجنين وتجاوز الأم مرحلة الخطر ، فان ذلك شــأن القائمين على قيادة العــربة وركابهــا أيضاً ، ولكن الفارق الوحيد بين الحالين ، ان المرأة وجاراتها يواجهون لحظات المخاض والعسر مرة كل عامين أو أكثر بينما تعانى العربة ومن على ظهرها من الناس قسوة الطريق والشــعور بالخطر بضع مرات فى اليوم الواحد .

تستغرق الرحلة من الأبيض الى الجنينة سبعة أيام فى المتوسط عبر طرق شقها سائقوا العربات بمحض اجتهادهم فى السهول الرملية والوديان الموحلــة ، فوطنوا انفسهم على مكابدة الظروف ومغالبة الطريق واحتمال الشدائد ، وكما يتوسط الصراط يوم القيامة بين موقف الحشر والمستقر من جنة أو نار ، كذلك تتوسط « سبعطاشر قوز » « والجنانــة » طريق الفاشر الأبيض ، أما سبعطاشر قوز فهى تلال من الرمال الكثيفة عددها سبعة عشر ، تلاقى فيها العربات صنوفاً من العذاب وويلات الطريق ، وقد رويت رمالها بدماء المساعدين الصامدين وهم يجاهدون ليدفعوا بعجلات النقل إلى الأمام !! فما أعظم تضحياتهم وما أروع الفداء ورغم ذلك يندثر خبرهم وتطوى صحائف امجادهم ، حين يكرم الشهداء أو يحتفى بذكراهم فهم مغمورون فى الحياة ، مطمورون بعد الممات !! وكل ماينالــه الفرد منهم حسره وترحم على روحه ساعة الدفن ، وكثيراً مايتم فى صمت وبلا مراسم ، ثم يترك وحيداً فى عراء موحش تذروه الرمال ، وتمضى العربة صوب وجهتها كأن شيئاً لم يكن ، حتى إذا تعثرت مرة أخرى صاح السائق فى جماعة الركاب آمراً بالنزول والقيام بما كان يقوم به المرحوم وحده من جهد وعناء ، فيترجلون خائفين مشفقين مــن ذلك المصير وتعلو صيحات الفرج فجأة حــين تملك العربة أمرها وتســتقيم على جاده الطريق تنهب الأرض .

كان غرب السودان يومئذ مصطرعاً للمناخات وانواع التربة ، وقد لايصدق البعض

ان السهول الرملية الممتدة ، تنتهى إلى أرض طينية موحلة كثيفة الغابات زاخرة بالوحوش الضارية فلم يكن يخطر ببال أحد، مانشهده اليوم من صور الجفاف ومظاهر التصحر ،وكان الإنسان شيئاً قليلا ، تجمعات صغيرة متباعدة والأرض تضج بما تحمل من ثروات لاتقع تحت حصر وأقل الناس شأناً يذبح لاضيافه وينحر ! ! وعلى مدى الرحلة والبصر ، ترتع الحيوانات البرية والوحوش الكواسر ،يراها الناس على جانبى الطريق زرافات ووحدانا، وقد تتوسطه غير هيابة ولا وجلة، وهى تنظر فى تعجب وحيرة مما ترى ،فيضطر السائق لابعادها مستخدماً (البورى) فيهرب بعضها مذعوراً ، ويتجاهل البعض النداء ثقة بنفسه او بلادة ،فيسب الرجل دين ذلك الحيوان، ويندفع فى سخط وغضب بالعربة كمن يريد ان يدهمه ورجله على الفرامل، ، لاتبرح ، وتنجح الحيلة الماكرة ، ويتباعد الحيوان بنفسه وهو ينظر فى استغراب إلى هذا الشيء العملاق الذى يزحف بما يحمل من البشر والمتاع ، ويظل واقفاً ينظر ليزداد معرفة بالحياة والأحياء ، وقد لا يسلم من مغبة هذا الفضول فكثيراً ماتستهوى السائق أو من معه من رجال الجيش والبوليس فرصة الصيد المواتية ، فيقع الحيوان فريسة للاعيرة النارية ، إذا قلما تخلو عربة من الجنود النظاميين أو حملة السلاح ، وكانت العربات الحكومية وقفاً على كبار الإداريين والضباط ، أما ضباط الصف عامة والجنود فان لهم شاحنات خط الفاشر مطية لاداء المهام والمأموريات أو العطلات السنوية ، فيمتطون ظهورها بأزيائهم الرسمية وبنادقهم فى أيديهم مشرعة ليل نهار ، أما الذخيرة اللازمة للصيد فميسورة للراغبين ! فهى تباع « برشوت » فى المعسكرات ، وذلك صنيع يأتيه البائع والمشترى عن قناعة راسخة بانهما انما يحاربان الاستعمار ! ! وهكذا يتلمس الناس الاعذار والمبررات للانحراف والسرقة واكل السحت الحرام.

كان يصحبنا فى تلك العربة أحد جنود شرطة السجون يحرس سجيناً بتهمة السرقة، فلم يتردد فى أستخدام جزء من ذخيرته الرسمية للصيد ! ! مخالفاً بذلك القوانين وضوابط العمل فلما تم له ما اراد من غنم وفير ،طلب من سائق العربة ان يحرر له شهادة بأن أسداً قد اعترض طريق العربة ! ! وهدد ارواح المسافرين! فاضطر « هو » لاطلاق عدد من الاعيرة النارية فأصابه بعضها ، وهرب مثخناً بالجراح فاستجاب السائق لطلبه . يقينى ان سائقنا وغيره قد تمرسوا على تحرير مثل تلك الشهادات الوهمية ! !

ثم بلغنا مدينة الفاشر !!

جاء وصولنا بعد مخاض عسر تمدد أربعة أيام كأيام الحشر طولا وعرضاً ، بيد انها لاتخلو من ألوان المتع واللذات العارضة ، وما أشبه حالنا فيها بمدمن الخمر حين يجد بغيته بعد طول حرمان ، فتراه يكرع كأسه الأولى مرتجفاً مغمض العينين مقطب الجبين ثم لايلبث ان يتمالك نفسه وينسى عذاب الحرمان وغصة الألم عند الرشفة الأولى ، وشيئاً فشيئاً تدغدغه النشوة وخدر السكر اللذيذ ، وهكذا شأن الحياة أبداً ، مزيج متناغم من الالام ، واللذات .

كانت خيوط الفجر تمزق غلائل الليل عندما انحدرت العربة فى ذلك الوادى الممرع الخصيب ، الذى على ارضه تقوم المدينة التى سطرت صفحات خالدات فى سفر التاريخ. وما ان ترجل السائق ووطئت قدماه الأرض حتى استوقف الركاب معلنا ان العربة بحاجة إلى شىء من الصيانة التى تستغرق يوماً وبعض يوم ، وعلى المسافرين جميعاً التواجد بالاستراحة المعدة للركاب العابرين عصر اليوم التالى لمواصلة الرحلة إلى الجنينة.

تفرق الركاب أيدى سبأ فى انحاء مدينة الفاشر ،وأخذنى أخى احمد الى دار احد أقربائنا وهو العم عبد الرازق التويم ، وهو أحد أعلام الصاغة فى مدينة الفاشر ويقع منزله قريباً من السوق الكبير ، فألفيناه وأفراد اسرته يتناولون شاى الصباح ، وما ان علم بقدومنا حتى هش للقائنا مرحباً ترحيباً حاراً ، ودعا أبناءه للتعرف بنا وخدمتنا بما يلزم من توفير سبل الراحة فتباروا فى ذلك عن طبع وسجية .

وبين غمضة عين وإنتباهتها توثقت عرى الصداقة بينى وبين « الحاج » أحد أبناء العم عبد الرازق الاشقياء !! وكان يكبرنى قليلا تبدو فى عينيه وحركاته السريعة المتلاحقة سمات ذكاء وشيطنه مفرطة ، وقد أسر إلى فرحاً أن احتفالا عظيماً يقام عصر اليوم بالمدينة ، احتفاء بوداع وإستقبال بعض الاداريين الانجليز ووعدنى بمشاهدة الحفل ومعالم المدينة البارزة .

كنت أخشى أن يحول أخى أحمد بينى وبين ما أريد من مصاحبة « الحاج »والانطلاق معه بحرية فى أرجاء المدينة اللغز !! فكل مدينة وقرية بالنسبة إلى لغز غامض لايجلوه

إلا المعرفة الحميمة التى تتولد عن جولات استكشافية لاسواقها واحيائها وطرقاتهـــا ومعالم الحياة والمراح فيها !! وكم كانت سعادتى حين ازمع أخى ان ينام سحابة ذلك النهار تعويضاً لمافاته من نوم خلال الأيام الماضية ، ومن عجب فقد أوصى بى «الحاج» خيراً !! فكتمت ضحكة ساخرة بجهد كبير ، وطلب وهو يتثاءب الا يوقظه أحد حتى لتناول الطعام ثم تمطى فى فراشه وإسلم نفسه لسلطان الكرى يفعل به مايشاء .

فات على أخى أحمد انه استجار فى فعله ذلك من الرمضاء بالنار ، فلم أكن ــ اذا قورنت بالحاج ــ الاصفراً على الشمال كما هو تعبير أخى فى الاحوال المشابهة ، أو تلميذاً مبتدئاً فى مدرسة الشيطنة واقتحام المصائب !! فما أن انفرد بى «الحاج» بعيداً عن العيون حتى أخرج حقة «التمباك» وضرب عليها باسلوب العارف المتمرس الخبير ثم فتحها وطفق ينشق رائحته القوية فى مزاج وتلذذ ، وامتدت أصابعه تهيء « سفة عظيمة » فلما تهيأت له أرخى بيسراه شفته السفلى وحشرت يمناه السفة بينها وبين اسنانه ، ثم سوى أطرافها ومقعدها بمقدمة لسانه وانتفض معتذراً وهو يقدم لى الحقة المفتوحة وقال : ــ أنا آسف حقه كان أديك أنت فى الأول ، ولكن ماتتصور كنت خرمان كيف ، العجوز «يعنى أباه» مكتفنى جنبه من الصباح وما قادر اتحرك ، وانت طبعاً عارف خرمة الصباح !!

ضحكت وانا أدفع الحقه بكفى شاكراً لفضله متعجباً معتذراً بانى لا اتعاطى التمباك ، ونزل عليه حديثى كالصاعقه فجحظت عيناه دهشة وقال : قلت شنو ؟ ده تمبـــاك «طويله» أنت قايله ذى تراب البحر بتاعكم داك ؟! فاكدت له أنى لم أتناول من قبل اى نوع من أنواع التمباك أو التبغ ، ولا أحس رغبة فى تعاطيه ، فاعتدل واخذ يلح فى الطلب مؤكدا ان نصف عمرى ضاع هدراً وذهب بدداً ، وان التجربة خير برهان فلم تلن قناتى ازاء هذا السيل من الحجج والبراهين ، ووقفت صامداً لا اتزحزح عندئذ عمد الى الاغراء وسيلة لإختراق دفاعاتى وهدم حصونى ، ومضى يمنينى بمتعة لاتعدلها متعة ، ونشوة لم يخلق مثلها فى البلاد !!

انهارت قلاعى التى اتحصن بها وبقيت نهباً لطعنات الغواية من كل جانب ، فألقيت سلاح الرفض ، ورضخت للامر الواقع ، ولكنى اصررت على أن تكون « سفة صغيرة » فمد الى يده بحقة التمبـــاك ضاحكاً وهو يقول « معليش » العافية درجات هاك الصغيرة

وبكرة تسرق الحقة ان شاء الله . فأخذت روؤس أصابعى ذرات مقدار نواة الزيتون واقشعر جسمى كله وأنا أدنيها من فمى لأول مرة، فلما استقرت للحظات خيل الى انها ضرب من البهار الحراق محدود الأثر ! !لا يغرى ولا يرهب أحداً، ومضت دقيقة من زمان ، لفظت بعدها السفة وأنا جلد متماسك فما هى إلاثوان قليلة حتى اصابنى الدوار واغرورقت عيناى بالدموع ومالت نفسى الى الغيثان فتقيأت حتى مادت بى الأرض وأدركنى ، « الحاج » ضاحكاً وأنا أكاد أفقد الوعى ، فكانت تلك تجربتى الأولى والاخيرة مع التمباك ، على مخترعه اللعنة لى يوم الدين ! !

انقضت أربع ساعات ونحن نطوف بمواقع المدينة المختلفة بعد ان أخذنا نصيباً من معاينة السوق ومداعبة المارة وابدى صديقى ، « الحاج » مهارات جد عالية فى أساليب الشيطنة والتهور ، فاوقعنا فى مآزق حرجه للغاية ، واخرجنا منها بحنكه واقتدار. وفى تفقدنا لمعالم المدينة وآثارها استوقفنى ملياً قصر السلطان على دينار لما يروى عنه من قصص ونوادر يرددها الناس بين مصدق ومكذب وحائر ! ! وترمى فى معظمها لوصفه بالقسوة وغلظة القلب والافراط فى ذلك .

بقى الامر موضع اهتمامى حتى انى توفرت فى قابل الايام على كتابة بحثاً بعنوان السلطان على دينار وحكاية التاريخ اودعته حافظة كتابى(قبس من الفكر والتاريخ) ولعل فى الرجوع اليه تكملة لصورة هذا الموقف من مواقفى على درب الزمان.

عصر ذلك اليوم ، أقيم الاحتفال المرتقب العظيم ، وسط جموع حاشدة تقاطرت من أنحاء وأحياء مدينة « الفاشر » وما جاورها من القرى الصغيرة ، فاتخذ كبار موظفى الحكومة من المدنيين والعسكريين ورجال الادارة الأهلية مقاعدهم في صدر المكان ، وتناثر الجنود ومنظموا الحفل على جنبات الساحة يحفظون النظام ويرحبون بكبار المدعويين ، بينما قام لفيف من تلاميذ المدارس بتقديم الحلوى والمشروبات للضيوف .

اشتمل برنامج الاحتفال على فقرات منوعة وألعاب ضاحكة حظيت بإعجاب المشاهدين، من ذلك لعبة الكراسى وجر الحبل وسباق للخيل وآخر للجمال وثالث للحمير ! ! و.سابقات عديدة حامية الوطيس ، ثم اختتم بعرض رائع « للتاتو » قام به جنود القيادة الغربية فكان مسك الختام ليوم من أيام المدينة الخالدة . وكان إنبهارى بالعروض عظيما لا يوصف ، طاغيا لا يقاوم ، باقيا لا يمحوه مر السنين .

عدنا في المساء ، ووجدنا العم عبد الرازق وأخي أحمد وبعض الضيوف يتبادلون أحاديث تأخذ من كل لون بطرف ، يقتلون الوقت في إنتظار صلاة العشاء بكسر العين والعشاء بفتحها فأقبلوا علينا يسألون عن الإحتفال أسئلة لا تنتهى حتى تملكنا الضجر والسأم فكنا نجيب في إقتضاب وزهد ، وكان رجل منهم قد شهد جانبا من عروض الحفل ، فتصدى للحديث مطنباً في الوصف والمبالغة والتهويل ،وحدث عن الرقصات القبلية وجمال الفتيات اللاتي أدينها في براعة وسحر واتقان حديثاً يقطر شبقاً وفتنه ! ! ومضى يخلع على بنات الفاشر كل آيات الحسن والانوثة والجمال وكأن الله سبحانه لم يخلق لهن شبيهاً من البشر.

كنت استمع إلى الرجل في تعجب واستغراب كما لو كنت غير شاهد لما يقول ! ! فلما هجعنا إلى مضاجعنا وتهيأنا للنوم ، سألت أخي أحمد عن حقيقة ما رواه الرجل عن تفرد بنات الفاشر بالجمال دون سواهن من نساء العالمين ! ! فسألني ضجراً : ألم تشاهدهن معه ؟ قلت : بلى ، ولكن ليطمئن قلبي ، فرد أخي ضاحكا : الرجل مراهق كبير ، انفجر احد الضيوف بالضحك وكان يرقد قريباً منا ويتابع الحديث ثم كف عن الضحك وقال معلقاً عليك الله يا ولدى ناس آفيا تيبين ديل ممكن يكون فيهم زولا سمح !؟ وتواصل الحوار بينه وبين اخي احمد حول اهل غرب السودان عامة فكانت مباراة ساخنه ساخرة سلخا فيها القوم بالسنه حداد حتى اذا تدرجت انا في مراحل العمر أدركت بالتجربة انهما ظلما اهل الغرب وغمطا نساءهم حقوقاً ومزايا لاتنكر .

عادت العربة تنهب بنا السهول والوديان والغابات صوب مدينة « الجنينة » على مشارف حدود السودان الغربية مع « تشاد » وقد جرت العادة أن تستغرق الرحلة بين الفاشر « الجنينة » يومين ، ولكنها استطالت وتمددت ، وأردفت اعجازا وناءت بكلكل واغتصبت من أعمارنا ثلاثة أيام عجاف ، ذلك ان سائق العربة تعجل في المسير ولعله أراد أن يدخل « الجنينة » قبل رصفائه ليحظى بشحن عربته لرحلة العودة ! !

ولكنه كان كالمنبــت لا أرضاً قطع ولا ظهرا أبقى ، فما كدنا نتوســط سلسلة جبال (كاورا) حتى انقلبت العربة وهى تحاول عبور مرتفع هائل من الأرض،فانكسر عمودها الفقـــرى الذى يسميه أهل الصنعة باسم « العمود الطوالى » أما جماعة الركاب ، فقد جاء الحادث مفاجئا لهم ، فعلا صياحهم وصراخهم وتواثبوا بعيـداً عن مهوى العربة يبتغون النجاة ،

ومرت الساعات ثقيلة مملة طاحنة للأعصاب ، وبدأ الليل يرخى سدوله على ذلك المكان الموحش في سفوح الجبال،عندئذ أصدر السائق أمره للناس بإيقاد النيران حتى مطلع الفجر ! ! فالتبس الأمر على البعض وظنوا الرجل مجوسيا يعبد النار ويدعو إلى تعظيمها بين الناس ، وأدرك البعض الحقيقة وهبوا يجمعون الحطب وأشـعلوا نيراناعظيمة لأنها تقيهم خطر الوحوش والزواحف كما علمتهم التجربة ، فضلا عن منافعها الأخرى .

سكن الليل في أنحاء الجبل ، وأدركت معظم الناس سنة من النوم فشق بكارة الصمت زئير أسد مجلجل فانتفض الرقود من سباتهم ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، ودوى الزئير في الأرجاء مرة أخرى فانخلعت له القلوب ، وعظم وجيبها وطارت شعاعاً من الخوف ، واحتبست الأنفاس في الصدور ، وكأنما أصاب الهلع الحيوانات الصغيرة الأخرى فهبت من رقادها مذعورة تتصايح في فزع فامتلأ الفضاء بالهدير والأصوات المتداخلة المتباينة وكان السائق وقلة من الرجال الذين تعودوا على الأسفار والمخاطر رابطى الجأش لا يعيرون الأمر التفاتا واشعل بعضهم سيجاره واستلقى على ظهره يحدق في النجوم ويتأمل رقعة السماء .

على حين فجأة ، انطلقت صرخة داوية، ثم تعالت أصوات مذعورة تردد « الدبيب» الزول عضاه الدبيب ، وسريعاً ما تجمهر الخلق حول المكان ، يحمل بعضهم شعلة من حطب الحريق أو بطارية تورش ، وفي غمرة ذلك أعلنت الحية عن مكمنها بفحيح كريه ترتعد له الأوصال ، وإنعكس الضوء على مرقدها فبدت متكوره متحفزة للنزال ! ! وارتفع رأسها في تحد واستعداد للسعة مشروعة في إطار مبدأ « الدفاع عن النفس » فانهالت عليها الضربات من كل جانب بالعصى والحطب والنار الموقدة في أطراف العيدان المشتعلة ، أما خبراء حرب الثعابين فقد ركزوا ضرباتهم على الرأس دون سائر الجسم ، فصبرت الحية على رسل الموت حيناً ثم تكومت جثة هامدة بعد ان كانت شراً مستطيرا .

شارك الرجل الملدوغ بصرخات الآلم التى كان يرسلها تباعا في ذلك الهدير المنبعث من زئير الأسد وصيحات الحيوانات المذعورة وصدى ذلك كله في شعاب الجبال ، ونسى الناس ما اعتراهم من خوف واقبلوا على الرجل الملدوغ ، فاستل أحدهم سكينته من جفيرها المعلق بذراعه الأيسر ، وأمر رجلين بتثبيت ساق الرجل ، فشدها بعصابة في أعلاها ، ثم أحدث جرحاً عند مكان اللسعة ، وأتكفأ عليها يمتص الدم المسموم ويبصقه على الأرض فترة من الوقت ، وهو نوع من الطب البلدى المجرب ، عمل الرجل المداوى على تعميق الجرح وفتحه بما يكفى لغسله جيداً بماء الملح ، ثم لفه باتقان بجزء من عمامة ، وطلب من الناس ان يمنعوا النوم عن اللديغ جهد طاقتهم لأن في النوم خطراً على حياته ، اما هو فقد خفت آلامه أو تحملها في جلد وصبر ، وحوله طائفة من الناس تحادثه وتسرى عنه ، فلما جن الليل وعربد سواده في الآفاق بدأت الرؤوس تتساقط من أثر النوم ، فجاء الايقاظ منهم ببعض الأواني المعدنية ، وصاروا يضربون عليها بايقاعات تميل إلى العنف أو قوة التأثير والصخب ، وقد تصاحبها الامداح والأغنيات الشعبية بعض الأحيان ، وقام آخرون على رأس اللديغ ليتأكدوا من صحوه وعدم اخلاده للنوم خاسة ، فاذا بدا لهم شيء من ذلك صاحوا فيه منبهين أو رجوه رجاء اذا لزم الأمر .

ثم توقفت الطرقعات والايقاعات فجأة ..

وبدا للناس ان سلطان النوم الابدى قد غشى روح اللديغ رغم ما بذلوا من جهد ، وفارق الرجل الحياة وسط الصجيج والغناء والناس فأسدلوا عليه ثوبا ، وشرعوا يتقاسمون مراسم التجهيز والدفن ، فانصرفت جماعة لحفر القبر ، وتولت فرقة اعداد الكفن مما تيسر من ثياب وعكف آخرون على غسل الميت !! والتقى الجميع في الصلاة عليه ، ثم واروه الثرى وعاد كل إلى موقعه .

انكب سائق العربه ومساعدوه على العربة المعطوبة يعالجونها في صبر وأناة وحرص وما هى الا ساعات قلائل حتى استقامت على أرجلها تنفث الدخان ويملأ أزيز محركها القلوب سعادة ، وارتسمت على الوجوه علائم الرضا والحبور وبدأ تحركنا غربا وعاد المساعد يتكىء على مرتفع من البضائع وهو يرفع عقيرته بالغناء ، حتى بلغنا قرية كبكابية.

كانت القرية فيما مضى من الزمان جزء من مملكة دار مساليت التى امتدت منها غربا حتى منطقة « بسكت » داخل الأراضى التشادية ، وقد حاولت فرنسا غزوها وضمها

إلى ممتلكاتها القريبة في أرض « كانم » وبلاد « برقو » ففى أواخر القرن التاسع عشر وصلت طلائع الفرنسيين إلى كبكابية فتصدى لهم السلطان « تاج الدين » سلطان دار مساليت ودحرهم غرباً وحرر كل الأراضى بين كبكابية ووادى « أسنقا » وهو أيضاً نهــر موسمى اتخذه الفرنسيون مانعا طبيعيا ليقيهم هجمات السلطان وخلال تلك المعارك الطاحنة قتل قائد القوات الفرنسية الكولونيل «مول» ووقع السلطان تاج الدين نفسه شهيداً في المعركة.

تولى الأمير « أندوكة بحر الدين » أعباء الملك في دار مساليت كوصى على ابن السلطان الشهيد الأمير حسن الذى لم يبلغ الحلم بعد . و!! كانت المملكة محاطة بالأخطار حيث يهددها الفرنسيون من الغرب والانجليز من الشرق ، فضلا عن الحروب القبلية والفتن الداخلية فقد رأى أهلها تتويج الوصى « أندوكه بحر الدين » سلطانا على المملكة ، وتم ذلك في إحتفال عظيم .

في عام ١٩١٦م سيطرت القوات الإنجليزية المصرية في السودان على مديرية دارفور بعد مقتل السلطان على دينار ، فتوغلت القوات المنتصرة غربا صوب مملكة دار مساليت، وتبين للسلطان اندوكة أن توازن القوى ليس في صالحه ، فالغزاة يملكون أحدث أسلحة الفتك والدمار فرأى والحال كذلك ان يسلم بصلح مشروط جاء فى بعض بنوده :—
أن يقره الغزاة المستعمرون على ملكه وسلطانه في البلاد، ويعترفوا من بعد بأيلوله العرش أورثته وآل بيته .

آن يجعلوا قاعدتهم بعيداً عن العاصمة « الجنينة » وحدد لهم مكانا بعينه هو قرية « أردمتا ».
أن تعمل الحكومتان الانجليزية والمصرية على تطوير الحياة في بلاده .
أن يعمل جيش الغزاة على ضم أراضى المساليت ما بين وادى « اسنقا » ووادى «بسكت».

تمت الموافقة من قبل ادارة الحكم الثنائي في السودان على شروط الصلح ، بيد ان محاولتها للوفاء بالشرط الأخير اصطدمت باحتجاج فرنسى صارخ ، واعترضت فرنسا على ضم أى جزء من الأراضى الخاضعة لنفوذها حتى لو كانت تابعة لمملكة المساليت من قبل . ولم تكتف فرنسا بهذا ، بل طالبت بضم المملكة كلها إلى عقد مستعمراتها في وسط أفريقيا بذريعة ان قواتها قد وصلت من قبل إلى مدينة كبكابية ورفعت فوقها العلم الفرنسى ، ووقفت بريطانيا حجر عثرة في وجه الاطماع الفرنسية وبذلت ما وسعها من جهد لتأمين

أرض المساليت ، وكللت جهودها بالنجاح حيث أصبحت حدود المملكة في الغرب هى وادى « اسنقا » جوار قرية « أدرى » وبذلك أصبحت دار مساليت امتداداً لبلاد السودان الخاضعة لحكم الاستعمار الانجليزى المصرى .

كان اعتراف بريطانيا بمملكة دار مساليت وحدودها ضرورة لمقتضيات الظروف ، وبمضى الزمن عملت دولة الحكم الثنائي في السودان على الانتقاص من سيادتها في خرق واضح للاتفاق المبرم بينها وبين السلطان «بحر الدين» وتمثل ذلك فى مطالبة المعتمد البريطاني في « أردمتا » بسحب السلطات القضائية من السلطان بحجة عدم تقيده بالقانون والإجراءات القضائية في أحكامه ، رأشفع مطلبه إلى السكرتير القضائي بالخرطوم بتوجيه من قاضى ومدير مديرية دارفور البريطانين ، ودافع السلطان عن ملكه وسلطانه قائلا :—

أن القانون في رأيه وسيلة لتحقيق العدل وترقية الحياة والسلوك وهو الاطار الذى يرتضيه الناس لتحكيم العقل في نزاعاتهم وحفظ حقوقهم ، وهو بهذه الصفة لا يمثل كل العدل أيا كان مصدره ، بل هو وسيلة لا غير ، يضاف اليها وسائل أخرى مثل العرف والعادات والدين ومعطيات البيئة سلبا وايجابا وطبيعة الشعب الذى فرض القانون اصلا من أجله ، وهذه في جملتها أهم مصادر التشريع للسلطة التى يناط بها وضع القوانين في الدولة .

يشير السلطان فيما أورده من دفع ودوافع ، إلى أن العدل بوسائله المختلفة ينقسم قسمين أساسيين هما الجوهر وهو الأساس ، والمظهر وهو الاطار أو الشكل الخارجى وقد يقتضى تحقيق العدل أحيانا تغول الجوهر على المظهر ، وهو ما يعرفه البعض بتحكيم روح القانون ولكن في كل الأحوال لا ينبغى تغول المظهر على الجوهر أيا ما تكن المبررات والظروف ، وبعبارة أخرى فان الغاية قد تلغى الوسيلة اذا ما أمكن الوصول إلى الحق والعدل بدونها ولا عكس ! !

ولما كانت غاية السلطان (بحر الدين) هو العدل الناجز ، فان ذلك قد لا يتأتي له من خلال النظر المصلوب على ركام الاجراءات القانونية العقيمة ، لذلك اتهم السلطان المعتمد البريطاني بالشطط واصدار الأحكام القاسية التى تناقض جوهر العدالة وتمتهن كرامة الانسان ،

وكتب في هذا الشأن شكوى مدعمة بالوقائع والسوابق القانونية التى صدرت عن المعتمد من قبل .

وكيفما كان المصير الذى انتهت اليه مملكة المساليت آخر الأمر ، فقد كان ذلك مصاولة بين العلم والفطرة ، والحضارة والاصالة !! فالسلطان بحر الدين هو نبت هذه الأرض . بكل مافيها من ثراء الحكمة ومعرفة الحياة ، ونوازع البشر .
وشتان ما بين الحكمة والعلم ..
فما أوتي الانسان من العلم إلا قليلا ..
ويؤتي « الله » الحكمة من يشاء ..
ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ..

عند مدخـــل الجنينة عبرنا أولا قنطرة « وادى كجا » العظيم وهو شبيه بنهر القاش في الشرق ، يمتلىء حتى يفيض بالماء حينا ، ثم ينحسر ويغيض أحيانا !! ثم مررنا بقرية « أردمتا » المقر الرسمى للحكومة ، لنصل أخيراً إلى مدينة « الجنينة » معقل عرين السلطان « بحر الدين » وعاصمة الحركة التجارية الكبرى .

تملكنى عجب واعجاب لاحد لهما وأنا أعلم من أخى أحمد اننا مرة أخرى سننزل ضيوفاً على أحد أقربائنا وهو العم « عبد القادر حامد » وتساءلت لماذا تفرق أهلي في الأنحاء أيدى سبأ ؟ تلك نعمة أم نقمه ؟! وهل خـــرج العم عبد القادر حامد إلى تلك المجاهل والاصقاع اختياراً أم أن يد القدر تدفعه دفعا ليبذر غرس آبائه في أرض جديدة ؟!

وكما حدث من قبل ، لم أعدم في مقامى ببيت العم « عبد القادر » رفيقا يشاركنى نزعات الصبا وحب اللهو واتيان الشقاوات ، فقد كان « محمد الطيب » رغم صغر سنه عنى قليلا ملاذا من مجالس الكبار وأحاديثهم الجادة ، توثقت صلتى به في لحظات وكأننى أعرفه منذ نعومة أظفارى .

لم يستهوني في كل مفاتن « الجنينة » شىء كما استهوتنى المدرسة النموذجية الأولية ذات المباني الفاخرة والموقع الجميل ، على مرتفع من الأرض والخضرة السابغة لوادى (كجـــا) في تعرجه والتفافه ، وكم تاقت نفسى ان أكـــون أحد تلاميذها ، وأفضيت

برغبتى تلك إلى العم « عبد القادر » فأشرق وجهه بالحب والسعادة لما سمع ، وأكبر في نفسى ذلك العزم وأطنب في امتداح حبى للعلم والمعرفة فاقترح على أخي أحمد ان يعود بى من مدينة « أبشى » بعد لقاء أبي لمواصلة دراستى بتلك المدرسة التى أثارت احلامى ، خاصة وان له علاقات وطيدة حميمة بناظرها ومدرسيها .

كان من اجراءات الاستعداد للرحلة إلى « أبشى » أن نستبدل عملتنا السودانية ، أو على الأصح عملتنا المصرية الانجليزية التى بقيت متداولة بين الناس في السودان حتى مطلع الخمسينات من هذا القرن ، بعملة المستعمرات الفرنسية المتمثلة في الفرنك الأفريقى وكان ذلك الجزء من سوق مدينة « الجنينة » والذى يعرف باسم « سوق الكتكت » أشبه بالأسواق الحرة لبيع أنواع العملات ، فهى تباع في وضح النهار تحت مظلة القانون ورعاية الدولة كغيرها من البضائع والسلع الأخرى وعلمت من القوم ان كلمة « كتكت » تعنى العملة الورقية .

كما تحتم علينا الذهاب إلى « أردمتا » مقر الحكومة للحصول على تأشيرات الدخول إلى القطر التشادى الشقيق ، وكان يعرف وقتها باسم السودان الفرنسى ، فلم يكن ذلك وغيره من اجراءات الجمارك وسواها بالأمر الصعب المنال ، بل كان يتم ذلك في دقائق معدودة ! ! اذ هى اجراءات شكلية تقع في دائرة علاقات السفر والانتقال وتجارة الحدود.

بدأت باسم الله رحلتنا من أردمتا صوب مدينة « أبشى » على ظهور شاحنة عملاقة يقودها الشفير « على ككويه » وكلمة شفير في لغة الفرنسيين تعنى « السائق » يعاونه الابرنتى موسى ود رابح وكلمة « ابرنتى » فرنسية أيضا تعنى مساعد العربة ، وهو شاب قوى البنية جميل التقاطيع ذو ملامح زنجية ، تجرى في عروقه دماء الفونجَ .

أما رابح فهو الجد الأعلى للابرنتى موسى ، وهو رابح فضل الله أو «رابح الزبير» الذى أسس اولى الممالك أو الامبراطوريات السودانيه في القطر التشادى ، ولعظيم مكانته وشهرته في تلك الجهات عرف نسله وأحفاده الذين يربو عددهم على ألف نسمة باسم أولاد رابح ، وقد تسنى لى فى قابل الايام كتابة بحث بعنوان (الزبير باشا ودولة البازنجر) اودعته حافظة كتابى (قبس من الفكر والتاريخ) ولعل فى الرجوع اليه تكملة لصورة هذه الافادة التاريخيه.


مدينة أبشي
الذكرى والتاريخ

جاء في الأمثال ان السفر قطعة من العذاب ، بيد ان السفر عبر الأرض الخاضعة لحكم الفرنسيين هو العذاب كله وفي أبشع صوره ، فلم يكن للانسان الأسود اعتبار أو قيمة فكل أمر يخطر بعقول المسئولين هو قانون واجب النفاذ في حينه أما القوانين المكتوبة فهي للبيض وحدهم. وعلى دروب ذلك العسف والقهر والاذلال بدأ تحركنا صوب مدينة « ادرى » حيث صحب عربتنا جندى من شرطة الجمارك لحراستها، وقد يتبادر إلى الذهن ان الطريق غير مأمون أو ان اللصوص وقطاع الطرق ينصبون الفخاخ للنهب وأعمال السرقه ولكن ذلك غير صحيح !إذ ان الجندى مكلف بحراسة العربة من أصحابها والعاملين عليها وشياطين المهـــربين ولكن هؤلاء الحراس كثيراً ما تضعف نفوســـهم امام اغراء المهربين ، فتتبلد حواسهم وترق امانتهم حين تتحسس ايديهم عملات الفرنك الأفريقى .

بلغنا مركز « أدرى » وتوقفت بنا العربة عند اطراف المدينة داخل حظيرة الجمارك فالتقط الركاب أنفاسهم وتنفسوا الصعداء .

وتقع مدينة « أدرى » على شاطىء بحيرة طبيعية واسعة بعض الشيء ، تغذوها الأمطار الموسمية في موسم الخريف ، وأول ما تعانق العين من المدينة ، تلك المباني الحكومية من الاجر والزنك والأخشاب ، على الطراز الفرنسى ، وهى مقر لحامية من جنود الجندرمه وهم قوات بوليسية خاصة ذات مهام قتالية . وتقوم المنشآت الحكومية ومكاتب الدولة على بعد كيلومترين عن مناطق سكن الأهالى ، وذلك شبيه بموقع « أردمتا » من الجنينة في السودان .

عجبنا لمرأى الناس في « أدرى » فقد كانت المدينة رجالا ونساء واطفالا قد خرجوا إلى الطرقات والساحات ، يحمل بعضهم مكانس ينظفون بها الأوساخ والقاذورات والبقايا وحمل آخرون ذلك في سلال كبيرة أو صغيرة حسب قدرة حاملها المسكين، كما كانوا يجتثون الحشائش البرية ويرمون بها في محارق صغيرة متباعدة ، وانتشرت قوات الجندرمه بين الناس تلهب ظهورهم بالسياط لتجبرهم على سرعة الاداء في نظافة المدينة وكان البؤس والفقر والشقاء باديا على الوجوه اما اولو النضرة وأرباب المال والقادرون من أبناء الطبقة المتوسطة ، فهؤلاء معفون من أعمال السخرة تلك لقاء فدية معلومة يدفعونها صاغرين لجنود الجندرمه القساة ، ويتسلم هؤلاء الاتاوات والرشاوى على مشهد من الجميع وفي

وضح النهار ، حفزا للراغبين في الخلاص من لهيب السياط ومشقة العمل ، ولم يكن ذلك الفساد خافيا على عيون الحكام الفرنسيين ، بل هو سياسة مقـــرره ومبادىء راسخة في عرف المستعمرين الأوربيين في أفريقيا حيث يحكمون شعوبها وفقا لشرعة الثالوث الاثم السوط والسخره والفساد ! ! وقد بدأ ذلك حين بدأت قصة الإستعمار الفرنسي في أفريقيا الغربية منتصف القرن الثامن عشر الميلادى ، ففى ذلك الوقت تم أول اتصال بين دول غرب أفريقيا والغزاة البيض ، اذ وفدت بعثة برتغالية تضم في معيتها بعض المغامرين الفرنسيين والانجليز ، وجاء تكوينها ممثلا للثالوث الإستعمارى الخبيث ، قوة عسكرية كرمز للسيطرة والحكم وقلة من رجال البعثات التبشيرية المسيحية رمزاً للكنيسة أو السلطان الروحي ، وبعض التجار وممثلوا شركات الاحتكار رموزاً للهيمنة الاقتصادية ! !

وكما يحدث عادة كتمهيد للسيطرة الاستعمارية ، فقد تمكنت البعثة من التأثير على الملوك وزعماء القبائل الأفريقية وعقدت معهم معاهدات صداقة ظاهرها الحب المسيحي وحرص الأوربيين على انتشال الشعوب الأفريقية من وهدة التخلف والفقر والمرض ونقل الحضارة الأوربية وتعاليم الدين المسيحى إلى تلك الاصقاع النائية ! ! اما باطنها فهو شهوة التملك وحب السيطرة واستغلال ثروات الشعوب البشرية والمادية ، وكانت تجارة الرق هدفا اساسيا في المراحل الأولى من ذلك السعى الشرير ووجد الأوربيون في زعماء القبائل والمغامرين من أبناء الشعوب الأفريقية عونا لهم في تحقيق ذلك العمل الآثم الخبيث .

وقد تحدث المؤرخون طويلا عن النزيف البشرى الذى سببته تجارة الرق لهذه المنطقة من العالم طوال ثـــلاثة قرون عجاف ، فيقدر بعضهم عدد الافارقة الذين ذهبوا ضحيـــة لهـــذه التجارة الآثمة بما يزيد على العشرين مليوناً من الانفس خلال تلك الحقبة من الزمان ! !

على هذا الأساس ، تشكلت علاقة دول غرب افريقيا بالدول الاستعمارية الأوربية ، واستمر ذلك حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى حين بدأ نشاط الرحالة وطلائع الكشف الاستعمارى لاعماق القارة السوداء تمهيداً للطريق أمام دولهم المسعورة بحـــب السيطرة وامتصاص دماء الشعوب بعد ان عقدوا لهذا الغرض مؤتمـــراً كبيراً فى مدينة «بروكسل» عاصمة بلجيكا تحت اشراف الجمعية الدولية للجغرافيا ، فشارك اباطـــرة

أوربا وملوكها وزعماؤها فى تقسيم مناطق النفوذ فى أفريقيا تجنباً للاحتكاك وتضـارب المصالح والحروب على المغانم والاسلاب ، وعرف هذا المؤتمر فيما بعد مجازاً باسـم «مؤتمر المائدة الافريقية» ، وكان الامبراطور ليوبولد الثانى ملك بلجيكـا قد افتتحه فى الثانى عشر من سبتمبر ١٨٧٨م بكلمة نادى فيها بضرورة فتح هذه البقعة من العالم للافادة من خيراتها وثرواتها ثم لنشر المسيحية بين ابنائها الوثنيين فوافق المؤتمـرون على تلك المقترحات وجاء ذلك بمثابة الضوء الاخضر للانطلاق فى مجاهل القارة المنكوده وشهدت تلك الفترة من التاريخ الافريقى ابشع صور الاضطهاد والاستغلال من جانب الغـزاه الأوربيين ، وجرع القطر التشادى كغيره من الشعوب — نصيبه من المذلة والقهر والفساد بعد مصرع الامبراطور « رابح فضل الله» وهيمنة فرنسا على البلاد .

لم تسلم شاحنتنا وركابها من نـير الإدارة الفرنسـية الباطشة ، فقد اصدر ضابط الجمارك الفرنسى أمره بان يقـوم ركاب الشاحنة بتنظيف حظيرة الجمرك وماجاورهـا قبل البدء فى تفتيش العربة ومباشرة الاجراءات الجمركية الأخرى ! ! نقل إلينا ذلك أحد الأفارقة العاملين بالجمرك وكان من مواطنى الكونقو الفرنسى برازافيل إذ عملت سياسة الاستعمار الفرنسى على مبدأ محو الحدود الفاصلة بين مستعمراتها فى أفريقيا ، بغية الإفادة من تناقضات الاختلاط بين الشعوب الخاضعة لها وتذليل معوقات الاسـتغلال الأمثل للموارد المادية والبشرية فيها ومن ثم تجد كل مستعمرة فرنسية خليطاً من ابناء المستعمرات الأخـرى يتبارون فى التقرب واسـترضاء الحكـام وكبـار المسؤلين ، فكنت ترى فى تشاد مثلا جنوداً وموظفين من بلاد الكونقو والسنغال والجزائر حتى امريكـا اللاتينية فهم جميعاً مجرد تروس فى الالة الاستعمارية الضخمة التى تمطر ذهباً فى خزائن الدول الأوربية .

حانت ساعة الخلاص بعد ان بلغت الروح الحلقـوم ، واذن للعربة بالتحرك غرباً صوب مدينة «ابشى» فانطلقت كالسهم وكأنها تسابق الريح هرباً من سياط الجنـدرمه وجشع الفرنسيين وانعقدت فى مخيلتى مقارنة لظروف الحياة فى السـودان تحت حكم الانجليز ، وتشاد فى ظل الاستعمار الفرنسى فايقنت ان الانجليز على علاتهم ومساوىء حكمهم ملائكة للرحمة قياساً بأبناء عمومتهم الفرنسيين الزبانية الاوغاد .

ها نحن اخيراً فى مواجهة المدينة التى كابدنا من أجل بلوغها الكثير واقبل الحمالون فارسل اخى احمد رجلا منهم يخبر ابى بوصولنا وحمل اثنان ما كان معنا مـــن متـــاع قليل ومضينا — راجلين صوب مدينة «أبشى» وهى تمتد امامنا فاتحة الذراعين مشوقـــه لذلك اللقاء المرتقب ! ! عند مشارف المدينه رأيت ابى مقبلا عـــلى عجل يخطو نحـــونا في شوق باد وحب عظيم وفى صحبته العم « عمر كروم » الذى تصادف وجوده ساعة جاءهم الحمال بالخبر . كانت تجمع بين ابى والعم عمر «كروم» صداقه وطيده ترجع الى سنوات الربع الاول للقرن العشرين حيث عملا معاً بتجارة الحدود مع الكرملك وقيسان وبلاد الحبشه وينتمى كلاهما الى قبيلة الجعليين هذا الى تقارب فى السن والخلق والميول وروح المغامرة والدعابة . كان ابى يحاول ان يهدئنى عاصفة الانفعال التى اجتاحتنـــا بقوه وضراوه فاذا به يقع فريسه لها فلا يملك زمام نفسه ولم تهدأ عواطفه الجياشه الا حين تدخل العم « عمر كروم » ملاطفا : حمدالله على الســـلامة ومضى يحاصره بتعليقاته الساخرة حتى أحس أبى بالحرج فأذاب شحنة انفعاله فى اسئلة متلاحقة عن احوالنـــا ومشاق الرحلة والظروف التى عشناها .

اتجه جميعنا إلى دار أبى فى حى «أم سدورية» وتلقانا أهل الدار والجيران ممن بلغهم خبر وصولنا وجاء فى مقدمة هؤلاء الحاج مسمار وعائلته ، ودخلنا الدار فى موكب عظيم فعم الهرج والمـــرج والتحيات والضحكات والتقطت اذناى لاول مرة كلمات جديدة فى معرض المجاملة والتـ... تمازجت فيها اللهجات المحلية باللغة الفرنسية مثل «جيداً جيتو» و« بون ارفى » و... ذلك. كان انبهارى بمنزلنا كبيراً ورغم انه قد بـــنى من الآجر إلا انه فى تلك اللحـ...ات تمثل لى قصراً منيفاً شامخ البنيان ! ! وتعاظمت دهشتى وانا اعلم ان لابى فى تلـ... الدار زوجـــه لم يمض على اقترانه بها عند وصولنا سوى ايام معدودات.

فوجىء اخى أحمد بالواقع واستنكره بشدة ! ! وتحدث فى أمر الزواج والحياة الباذخة التى يتقلب فيها أبى حديثاً كاد يجاوز حدود الادب واللياقة وارسل فى جـــرأة اتهامه لابيه بالتقاعس عن الهدف الذى دفعه للهجرة خارج البلاد ، وهـــو جمع المـــال والعودة إلى ارض الوطن ورد كيد الاعداء والحاسدين ولكن أبى استكبر ان يحدثه أحد فيما يأتى ومايدع ! ! ولايشفـــع لذلك الاحد ان يكـــون ابنه واحتـــد حـــتى تقطب

وجهه وجلجل صوته المهيب فى المكان فتدخل العم عمر كروم بطريقته المازحة الساخرة وصب على الموقف المشتعل زخات من الدعابة والمرح فذابت سحائب الغضب فى النفوس ، وضرب المثل بنفسه فى الحرص على متاع الدنيا الحلال ! ! فهو على شاكلة أبى فى ولعه بتعدد الزوجات ! ! ! وقال مخاطباً أخى أحمد :—

« ياولدى العرس حلله ربنا ، وحث عليه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ماسمعت بى حديث « تناكحوا تناسلوا فانى مباه بكم الامم يوم القيامة » ؟! والله سبحانه وتعالى امرنا وقال « ولاتنس نصيبك من الدنيا » ونحن بصراحة كدى ، بطونا مامتحمله اكل البلد دى ، اها نسوى شنو يخى ؟! .

قطع دخول العم مسمار الملقب بالارباب ذلك الحوار الطريف ومن خلفه خادمه (مطر) يحمل صينية من نحاس بها طعام الافطار ، ثم اعقبتها صينية أخرى من دارنا ، وتحلق القوم يأكلون عصيدة الدخن « الدامرقى » بادام « أمدقوقة » واللحم والفطائر القمح الغارقة فى بحار السمن والعسل وساد الموقف المثل القائل إذا حضرت الأكول ذهبت العقول ونسى الناس ماكانوا فيه من حدة ولجاج .

انفض سامر القوم ضحى ويمموا وجوههم شطر الاسواق ، ليتخذوا من نهارهم معاشاً وقد جرت عادة التجار ان يتناولوا طعام الافطار بمنازلهم لان نشاط السوق مرتبط بالوافدين من خارج مدينة «أبشى» وهى كما فى السودان وغيره من البلاد الافريقية ذات اسواق ثلاث سوق اساسية للتجارة يضم المتاجر الكبيرة والشركات الوطنية والاجنبية وتعرف بالسوق الكبير وسوق شعبية اشبه بسوق «أبى جهل» فى الأبيض ويسمونها (الدخولية) وسوق ثالثة لتجارة الانعام وتعرف باسم (سوق المواشى) ويتوزع نشاط الجلابة بين السوق الكبير وسوق المواشى .

بلغ انبهارى ذروته داخل دكان أبى ، فلم يكن يخطر ببالى ان اجده على تلك الصورة المذهلة حتى خيل إلى ان الدنيا كلها تخلو من ند له أو مثيل ، وبقيت فريسة لحالة الدهشة تلك أياماً وسبحان الله مغير الاحوال ، فقد اتيحت لى زيارة المدينة نفسها فى منتصف السبعينات من هذا القرن ، فى طريق عودتى من باريس إلى الخرطوم فحرصت كثيراً ان

ازور منزلنا ودكان أبى فى السوق وكم كانت دهشتى لما رأيت !! وادركت عندها ان الاشيـــاء يتغير تأثـــيرها ومكانتهـــا فى نفس الانسان بتغيـــير الظـــرف والزمان وان بقيت الاشياء على ماكانت عليه من المادة والصورة .

* ٦ *

شهدت قارتنا الأم افريقيا ومازالت تشهد مآسي فظيعة من نسـج القدر أو صـنع الانسان . وكان لمدينة «أبشى» بالقطر التشادى الشقيق نصيب وافر من الاحداث المأساوية، وهى توأم لمدينة أمدرمان من حيث الملامح والقسمات، ولكنها أقل منها اتساعاً، وكانت ــ أول أمرها ــ مجموعة من القرى الصغيرة المتفرقة، لكل منها اسـمها ونوع سـكانها ونشاطهم فى الحياة، ثم جاء يوم تلاحمت فيه اطراف القرى ثم تداخلت وامتزج بعضها ببعض فظهرت على خريطة البلاد منطقة سكنية واسعة تعج بالحياة تحولت فيها القرى إلى أحياء متجاورة من أشهرها حى (أمسدورية) وحى (أم سويقو) وحى (موميه) وحى «شق الفقراء» وحى (جرماوية) وحى (جاتينية) مقر السلطان، والى آخر بقية الأحياء والانحاء بالمدينة.

وكان للملوك (وداى) شرائع وطقوس ممعنة فى الغرابة والوثنية، مـن قبيل ذلك عبادتهم للحيات والثعابين!! ومنه انهم كانوا يذبحون الصبية والفتيات قرابين للالهة عند تتويج الملوك ارضاء للارواح الشريرة كى تهدأ ثائرتها وتمنح الاذن باقامة الافراح الملوكية ومن ثم أضحى لكهنة الأرواح نفوذ وسلطان على الملوك والرعايا على السواء، فبلغ مـن سطوتهم يومئذ انهم كانوا يأمـرون بالتضحية ببعض افـراد الاسرة المالكة نفسها أو بتر أعضائهم واصابتهم بالعمى بكى عيونهم بأسياخ الحديد الملتهبة!!

وبالطبع لم تكن تلك الطقوس المعرقة فى القدم إلا نماذج لكثير غيرها يماثلها من ضروب السـحر والشـعوذة والتقاليد الوثنية، فلما جاء الاسـلام ــ يسعى إلى القلوب اندثرت تلك الهيمنة رويداً رويداً تحت تأثير سماحة الاسلام وملاءمته للفطرة، ورغم ذلك ظل لتلك الطقوس وجود وتأثير ملموس فى الحياة اليومية والمواسم والمناسبات وبقى كثير منها يفرض سلطانه على أهل تلك البلاد حتى فى ظل الإسلام، ولعل شيئاً منها باق إلى اليوم،

والثابت ان تلك العادات والطقوس مهدت الطريق للغزاة الفرنسيين ويسرت لهم صـورة مذهلة احتلال تشاد وبـلاد البرقو، ويروى التاريخ ان احـد كهنة الارواح [illegible]ريرة نصح السلطان (دود مره) بالتخلص من ابن عمه وولى عهده (أسيل) زاعماً ان تلك الأرواح اخبرت بان ولى العهد سيقتل السلطان ان لم يأخذ هذا بزمام المبادأة ويقتله،

فأزمع السلطان تنفيذ مشيئة الأرواح ، ولكن ابن عمه (أسيل) علم بما يدبر له فى الخفاء من احدى هباباته، والهبابه لقب لزوجة السلطان والأمير ،ولايبعد ان يكون اللقب مأخوذاً برمته من (الهبابه) المعروفة (مروحة اليد) التى تصنع من أعواد الخص وخيوط الحرير ،وأياً ماكان مصدر الخبر المروع ،فقد هرب (أسيل) متخفياً إلى مدينة (فورت لامى) لائذاً بالفرنسيين اعداء السلطان دود مره .

وضع أسيل نفسه فى خدمة القوات الفرنسية وقائدها الكولونيل (مول)، وكانت خطة غزو البلاد قد اصبحت قيد التنفيذ ، فسار أسيل فى مقدمة جيش الغزاة مرشداً خبير بمسارب بلاده «وداى»،وبايعاز من الفرنسيين أوبدافع الحقد والانتقام من ابن عمه السلطان عمل اسيل على اقناع بعض الامراء وزعماء القبائـــل بالتسليم للغزاة صلحاً بحجة عـــدم توازن القوى بين الفريقين ! ! ! فأخذت القوات الفرنسيه تتقدم وتحتل البلاد، أما السلطان (دود مره) فقد مضى يعد العدة لدحر الجيش المعتدى غير هياب ولاوجل، وقال قولته المأثورة الخالدة «انا ملك ابن ملك عشت ملكاً واموت ملكاً» فكان له ما اراد ومات شهيداً فى معركة «أبشى» أثر هزيمة قواته الباسلة،وبسط الفرنسيون سيطرتهم على ارجاء القطر التشادى، فنقلوا عاصمة مملكة وداى من (وادى مره) إلى مدينة «أبشى» في محاولة لطمس ذكريات أهل البلاد عن ذلك المجد الآفل لمملكة وداى وسلاطينها العظام.

ثم انقلب الغزاه الفرنسيون على (أسيل) بعد كل تلك التضحيات،ولقى منهم ما لاقى سنمار من جزاء، فالقوا به فى غياهب السجن يرسف فى الاصفاد! !وبقى هناك يتجرع مرارة الندم وصنوف العذاب حتى مـــات . ويرجح كثير من المؤرخين ان المعاملة القاسية التى لقيها الامير أسيل من حلفائه الغزاه الفرنسيين ترجع إلى شكوك راودت إدارة البـــلاد الاستعمارية فى اخلاصه ونواياه . وزعمت تلك الإدارة ان الأمير نقـــل اسرار الجيش الفرنسى إلى السلطان (تاج الدين) سلطان دار مساليت قبل نشوب الحرب بين الطرفين، وكان من جراء ذلك ان تكبدت القوات الفرنسية خسائر فادحة فى تلك الحرب .

من احياء مدينة ابشى ذلك الحى الذى يعرف عندهم باسم (شق الفقراء) وكلمة شق تعنى الناحية والجهة اما الفقراء فهم طائفة المتدينين المتزمتين. ولهذا الحى ونشأته قصة يحفظها التاريخ وعامة الناس ، يروى انه كان يعيش في هذا الجزء من المدينة رجل صالح يعلم

الناس قراءة القرآن الكريم وعلوم الدين من فقه وتفسير ، وكان الرجل يدعى « يحى ولد جرما » حفظ القرآن في حداثته ثم هاجر طلبا للعلم في مكه المكرمه في صحبة ابويه ، فلما قضيا مناسك الحج تخلف عنهما رغبة في العلم وجوار الأماكن المقدسة ، فتهيأ له ما اراد من ذلك وأدى فريضة الحج مرات عديدة ، كما تشبعت روحه بعاطفة دينية غامرة ، ثم عاد إلى موطنه وأصبح قطباً اجتذب افئدة الناس بعلمه وتقواه ، ولم يمض وقت طويل حتى طبقت شهرته الآفاق والتف حوله الاتباع من كل فج عميق في البلاد ، جاؤا ينهلون غزير علمه ومشهود صلاحه وكرامته .

كانت البلاد يومئذ تحت قبضة الحكام الفرنسيين ، وشاءت الاقدار ان يتخذ هؤلاء سياسات ترمي لمحاربة الدين والأخلاق وتغرس بذور الانحلال والخطيئة في نفوس ضعاف الايمان والشباب كدأبهم في كل المستعمرات الأخرى التى تخضع لسلطانهم ، فأصدر الحاكم الفرنسى قرارا باباحة النساء المطلقات من بنات البلاد للضباط وجنود حامية أبشى وغيرهم من الأجانب العاملين في إدارة المدينة ! ! فأصبحت كل « عزبه » أى ثيب بحكم ذلك القرار مومسا حلالا للراغبين ؟! وجرى تنفيذ الأمر بالقوة والقهر وكسرت شوكة المعارضين بلا رحمة .

ثار الزعيم المعلم (يحى ولد جرما) على تلك القرارات الرامية إلى تفشى الرذيلة في أبناء وبنات جلدته ، فحرض الناس على مقاومتها ورفضها والدفاع عن شرف الامة المثلوم ، وكان ذلك منه تحدياً للشر في عنفوان سطوته وجبروته ، واستجاب له الناس لمكانته فيهم ، فأعدوا للأمر عدته ، واستشعر الحكام الخطر على وجودهم وسلطانهم في البلاد ، فأصدر الحاكم الفرنسى أمراً بالقبض على زعيم الثورة وأودعه السجن وعذبه كثيراً ، وامعانا في التشفى والتنكيل بأمثاله من المتمردين ، تم القبض على ابنة عمه المطلقة وابيح عرضها لجنود الحامية الأوغاد المتوحشين ، ولكن الفتاة لم تكن صيدا سهلا فقاومت محاولات الجنود للنيل منها بكل ما اوتيت من شراسة وقوة ، فدفع الغضب والرغبة البهيمية احد اولئك ليصفعها صفعة جعلت الأرض تدور بها في عنف كريشة في مهب الرياح ، ولكنها قبل ان تسقط بين فكي ذلك الذئب اللعين ، امتدت يدها إلى ساطور حديدى حاد كان قريباً منها ، وهوت به على رأس الوحش الفرنسى الآثم ، فوقع صريعاً مضرجا بدمائه

يخور ويرفس حتى لفظ أنفاسه الأخيرة !! فوقفت الفتاة كالمارد تتحدى الدنيا وهى تحمل ذلك الساطور أو (الكبكب) كما يسميه أهل البلاد .

استنكر الفرنسيون مقتل رجل أبيض بيد سوداء !! ولم يشفع للقاتل عندهم انه كان يدافع عن انسانيته وشرفه ، لذلك أصدر الحاكم الفرنسى حكما بالاعدام على الفتاة وابن عمها الزعيم يحى ولد جرما ، وقطع الجلاد رأسيهما معا بنفس (الكبكب) الذى اجتثت به الفتاة رأس المغتصب الآثم من قبل،وسرى الخبر بين الناس سريان النار في الهشيم واندلعت في المدينة ثورة عارمة وقودها طلاب الزعيم الشهيد ومريدوه ودارت مصادمات عنيفة بينهم وبين الفرنسيين ،فاخترقوا السنة اللهب ، وحصد الرصاص ارواح الكثيرين وهم يندفعون نحو اعدائهم يحملون (الكباكب) — الحديدية سلاحا وشعاراً ، وبها مزقوا أجساد العديد من ضباط وجنود الحامية ، وهشموا رؤوسهم انتقاما للشهداء والأرض والدين والشــرف !!

في مواجهة ذلك الطوفان الدامى والمجزرة الرهيبة ، أمر الحاكم الفرنسى جنده بضرب الحصار على مدينة أبشى مسرح الأحداث ، وبصفة خاصة ذلك الحى الذى يعرف باسم (شق الفقرا) ثم القى القبض على كل مشبوه بالتدين من غير تمييز بين اتباع الزعيم الشهيد وغيرهم من عامة المسلمين !! ثم جىء بالمقبوض المغضوب عليهم مصفدين في الاغلال وأمر الحاكم الفرنسى بحصد رؤوسهم كالسنابل بذلك السلاح الشعار وهو (الكبكب) فصعدت ارواحهم إلى بارئها راضية مرضية .

كانت مجزرة بشعة يندى لها جبين الانسانية ويشيب لهولها الولدان ، لقى فيها حوالى السبعين شهيداً حتفهم دفاعا عن شرف الأمة وحياض الدين ، ثم أمر الحاكم بحرقهم جميعاً في محرقة واحدة وجمع رفاتهم لتذروها الرياح ، فلا يبقى منها شىء يذكر الناس بما كان منهم وجرى لهم !! ولكن احد القساوسه البيض الذين شهدوا المجزرة ، عارض بانكار شديد أمر الحرق ، وهدد بافشاء الأمر برمته لجهات الأختصاص في فرنسا ، فتراجع الحاكم عن قراره ذاك ، واصدر الامر بدفن القتلى جميعاً في حفرة واحدة ببطن الوادى لتجرف السيول بقاياهم وتنشرها في الأرض بددا. وكما سبق القول، فان اولئك الشهداء لم يكونوا كلهم من اتباع الزعيم (يحى ولد جرما) فقد أعمى الغضب بصائر

الجنود الموتورين،فأخذوا الناس بالشبهات،وسيق البرىء بذنب الثائر لدينه وعرضه،فاجتمع في بطن تلك الحفرة بالوادى اشتات من الخلق اتقياء واشقياء ، كل بما كسب في الدنيا رهـين .

أعجب ما في الأمر كما يحدث الرواة ، ان مياه الوادى الموسمية حين سالت تغمر الأرض والشعاب تباعدت كثيراً عن مقبرة الشهداء واحاطت بها من كل جانب ،واضحى ذلك شأنها في كل موسم !! وعلى مر السنين ، ارتفع المكان عن ظاهر أرض الوادى ، ونمت فوقه اشجار ظليلة ملتفه، وصار ربوة عالية مخضره أو جزيرة صغيرة كثيفة الأشجار في بحر من الرمال ، لايدركها العطش واليباس حتى في هواجر الصيف وانعدام الماء !! شاهدا على صلاح ذلك الزعيم المعلم الشهيد (يحى ولد جرما) ومن معه من رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فقضوا نحبهم وفاء لذلك العهد، ولكنهم احياء عند ربهم يرزقون .

ومرت الأيام .. فأصبح حادث (الكبكب) جزء من تاريخ القطر التشادى الشقيق وعاما يؤرخ به الناس كل شأن جليل . وهو عار الاستعمار الفرنسى الذى يدعى الحضارة والأخذ بيد الشعوب إلى الرقي والتقدم . أراد الاستعمار الفرنسى بمجزرة «الكبكب» ان يسبر غور الاسلام في نفوس التشاديين ويخمد جذوة الدين فيها بقمعه الوحشى فاذا هم على الحنيفية عاكفون .

ومما يدعو للألم والأسف معا ، ان يبقى عار تلك المجزرة البشعة سراً مطموراً في بطن ذلك الوادى وصدور الرواة، فلم يجد في وسائل الاعلام وأبناء الوطن من يكشفه للعالمين . أيا ما كان الأمر فقد مضى المستعمرون الفرنسيون في غيهم وطغيانهم امدا بعيداً فأصبح لقب « العزبه » المطلقة مرادفاً لمعنى المومس أو البغى !! وشاعت الخطيئة في أرجاء البلاد اغراء وقهراً، وكان الشباب هدفاً لضروب من المباذل والموبقات،ولكن الفرنسيين عجزوا عن نشر الشذوذ الجنسى بينهم رغم ما عرفوا به في العالمين من اباحية وانحلال .

في ذلك الوقت ، ظل الناس يتحدثون ويعجبون لظهور احد المخنثين كظاهرة ماحقة وأمر غريب. كان المخنث يدعى« شمروخ » جاء إلى تلك البلاد في معية الكولونيل مول مهندسا للطرق والكبارى ، ويبدو انه موبوء بداء الشذوذ الجنسي منذ وقت بعيد، فلم

يستطع كتمان امره عن الناس طويلا تحت وطأة الحاجة ، وتأثير الخمر خاصة !! فتناقل اخبار تخنثه القاصي والداني من أهل البلاد ، أما الفرنسيون فلم يكن الأمر عندهم بدعة أو مدعاة للفت النظر ، ومضى التشاديون في ذهولهم واعتراهم مزيج من الخوف والغضب ، فقد فسروا ما يشهدون بأنه احـــدى علامات الساعة لا محالة ، ووجدوا في أنفسهم غيرة وحمية للدين والأخلاق والطبيعة !! فواجهوا الأمر بانكار شديد .

أضحى ذلك المخنث مثالا للتندر والخروج على قوانين الطبيعية وجبلة البشر ، فأطلق الناس اسمه على فعل الشذوذ الجنسى وعرف بينهم باسم « شمروخ » ، كما سموا فاعله باسم « شمروخة » وأكاد اجزم بانه لا يوجد في القطر التشادى شمروخ ولا شمروخه الا في الأذهان والمعاني المجرده ، أما في واقع الحياة لأهل البلاد فقد كان الأمر سبة الدهر وعار الابد ولا يعلم الغيب الا الله .

وعملاً بالمبدأ الاستعمارى المعروف (فرق تسد) احتضن الفرنسيون في تشاد ابناء الجنوب المسيحيين نكاية فى مسلمى الشمال !! فاصبحوا اوفر حظاً وارفع مكانة بما نالوا من التعليم الحديث ، بينما احجم أولئك عن مدارس الاستعمار ومؤسساته العسكرية والمدنية بدعوى محاربة الوجود الفرنسى ومواجهته وعزله والتصدى لمخططاته التبشيرية فىالبلاد ! فاتاحوا بذلك الفرصة لابناء الجنوب ليحتكروا الوظائف الحكـــومية ، فصارت بايديهم الامور لانخـــراطهم فى الجيش والشرطة والجنـــدرمة والإدارة المدنية ، واغراهـــم تفوقهم الاجتماعى بتقليد الفرنسيين فى كل شيء !! العادات واللغة والازياء والدين والتحرر من القيم الموروثة .

عرف هؤلاء المتحررون باسم « عيال جنيس» وكلمة جنيس فرنسية الأصل معناها الشباب .

ومن ضروب الايغال فى محاكاة الفرنسيين أن نظم عيال جنيس مسابقات دورية للجمال ، ولكنها لاتمـــاثل المـــسابقات الأوربـــية من حيـــث التنظيـــم وفخـــامة العـــروض والامكانات البشرية والمادية. فكان يتم اختيار ملكة جمال العام من خلال الحفلات الراقصة على الالحان الحديثة والشعبية فى المواسم والاعياد وفى اطار تلك المناسبات تجرى العديـــد

من المسابقات الشائقة ، لتجعل من الأمر مهرجاناً عظيماً يؤمه خلق كثير . واقترنت باسم الجنيس مقاطع كثير من الاغنيات التى راجت على نسق (— عيال جنيس قال كى ، بنات بلدنا سفلزى)، والتشاديون كغيرهم من الشعوب الافريقية — مولعون بالغناء والرقص على ايقاعات الطبول ، ولهم آلاتهم الشعبية المميزة ، وقد ساعد الاستعمار الفرنسى فى اذكاء ذلك الولع واغراء الشباب بالانغماس فيه ليصرفهم عن الممارسات السياسية والجهاد الوطنى !! فكانت حلقات الرقص واللهو الآثم والبرىء تستقطب الشباب فى الاعياد والمناسبات والعطلات الاسبوعية ، ثم جن جنونهم فاصبحت الحفلات الراقصة يومية تبدأ بعد الظهيرة لتمتد فى الليالى المقمرة حتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالى !! .

من أشهر الرقصات الشعبية عندهم فى ذلك الزمان رقصة «الكفيت» ورقصة «الادمدم» و«الكيتا» «والقنقن» و«السنجكا» وتختلف الرقصات من حيث مصدر الحركة واتجاهها وسرعتها من قبيلة إلى أخرى ،وكذلك الشأن فى الاغنيات المصاحبة. ولكنها على اختلاف اصولها ولهجاتها ومعانيها فانها تحض عموماً على الانغماس فى اللهو والرقص ومصاحبة الفتيات وحب الحياة!!! يقول المغنى فى احدى اغنيات رقصة السنجكا :—

مع المرينا ..
مع المرينا وضينا ما صلينا
مع المرينا حرتنا مازكينا
مع المرينا تاجرنا ماشرينا
مع المرينا
نلعبوا السنجكا والجنة مافيتينا !!

تكاد كلمات الأغنية تفصح عن المضمون ، لولا شىء من عجمة أهل البلاد فالمرينا التى يتردد اسمها في كل جملة من الأغنية هى الفتاة البضه المغناج اللعوب !! معها نسى الناس كل شىء فتوضأوا ولم يصلوا ،وحرثوا الزرع ولم يهتموا بالزكاة ،واشتغلوا بالتجارة فباعوا ولم يشتروا ،وانفقوا أموالهم في اللهو مع المرينا حلم الشباب ومطمح الراغبين !! ثم عكفوا على حب تلك الفاتنة اللعوب والرقص واللهو معها ثقة منهم ان الله سبحانه سيجزيهم على ما فعلوا جنة الخلد والنعيم المقيم !!

وفي ذلك تنافس المتنافسون ، وخطب كل الناس ود المرينا ، رجل الدين والزارع والصانع والتاجر والفاجر ! ! فالرقص واللهو مع الفتيات شيمة الجميع وديدنهم .

— والمرينا مجرد رمز لهن — ! ! اما رقصة السنجكا على أنغام تلك الأغنية وايقاعاتها اللاهبة فهى تعبير بالحركة عن ذلك المضمون، ولذلك هى أشد الرقصات حرارة وصخبا ومجونا ، فاذا بلغت منتهاها تزلزل المكان بعاصفة من التصفيق وصرخات الاعجاب الداوية وبلغ الراقصون ذروة التلاشي والغياب ،وترنح جميعهم في حركات هستيرية كالجنون ! !

ولكن برغم كل ذلك وغيره من معاول التخريب التى أعملها الفرنسيون في الدين والأخلاق والمواريث العريقة ،وبرغم أعمال القمع والمجازر الوحشية ، وبرغم محاولات قهر الانسان من خـلال معتقداته وسـلوكه وأخلاقه فقد صمد الشعب التشادى وقاوم تيار الخلاعة والمجـون وأنجبت ارضه آلاف الثـوار الذين تصـدوا لجحافل الجيش الفرنسى بقيادة الكولونيل مول ،ثم تلاحمت قواتهم الثائرة مع بنى عمومتهم في دارمساليت فكانت معارك « أبشى » و « ومره » و « فرشنا » و « بسكت » و « أسنقا » «وكجا» وفيها الحق ابناء القارة السوداء هزائم متلاحقة بجيوش الكفره اعداء الشعوب ،وهلك الكولونيل، قضى عليه السـلطان تاج الدين سـلطان دار مسـاليت قبـل ان يصرعه رصاص الخيانة والغـدر ، ويمضى شهيداً إلى رحاب ربه بين الصديقين والشهداء الابرار وحسن أولئك رفيقا .

كان هلاك مول وغيره في تلك المعارك ، بداية النهاية لمظاهر الانحلال والتفسخ التى افرزها الاستعمار في وجود الشعب التشادى الشقيق ، وعاد إلى الدين رواؤه ومكانته في النفوس، والحياةواستقامت الأخلاق على جادة الخير وصراط الفضيلة، فاشتهر أهـل البلاد بما كانوا عليه في سابق عهدهم من صلاح وتقوى وورع .

* ٧ *

وجه إلى أبي الحديث وهو يخلص من قراءة خطاب العم عبد القادر حامد قائلا (عملك عبد القادر اقترح نرجعك ليه عشان تمتحن للمرحلة الوسطى من مدرسة الجنينة ! ! فأجبت في حماس : أحسن يابوى ، نحن دلوقت في نهاية العام الدراسى ، وانا ممكن اعيد سنه رابعة وامتحن للوسطى ، وأنا متأكد من النجاح . وعلى مدى ايام كان الحديث عن تعليمى ووجهته وغايته لا ينقطع ، فقد كان أبي حريصاً على سلكى في مسيرة المتعلمين من أبناء البلاد ، فأرسلنى إلى مدرسة الجنينة الابتدائية لأعيد بها السنة الرابعة ، مجازا ومعبراً إلى المرحلة الوسطى ، وكنت اشد حرصا على ذلك ، فبذلت جهدا جهيدا في تحصيل العلم حتى جاء ترتيبى الأول على أبناء دار ساليت ، وحققت حلم ابي ومطامحى الذاتية وتم قبولى بمدرسة زيالا الوسطى ، ولكن أبي برغم ذلك رأى ان يلحقنى بركب السالكين في طريق العلم الدينى لا الدنيوى ، فاختار لى (معهد أبشى) طريقاً لهذه الغاية النبيلة ، وعارض باصرار شديد ابتعادى عنه ، فلم تلن قناتي ازاء اصراره بحال ، ودارت بيننا مصاولات وجدال عقيم.

عجز رفاق ابي من الجلابه عن اقناعه واثنائه عما اعتزم ، وانتصر الحق الإلهى المقدس لآباء ذلك الزمان ، وخرجت في صحبة ابي مطاطىء الرأس سليب الاراده نحو معهد الشيخ محمد عليش عووضه الكائن بالجامع الكبير في حى ام سويقو بمدينة (أبشى) وهومعهد لم يجاوز المرحلة الوسطى يومذاك ، اما صاحبه القائم على ادارته الشيخ محمد عليش عووضه فترجع جذوره إلى مدينة (ام كداده) بمديرية دارفور بالسودان. هاجر اسلافه اواخر القرن التاسع عشر الميلادى إلى تشاد في إحدى موجات الهجرة النشطة بين أقاليم السودان الغربية وبلاد وداى ، وهناك امتزجت دماؤهم وانصهرت اصولهم في أهل البلاد عبر آصرة الزواج .

ورغم انه قد جرت العادة انيكون الأبناء اشد التصاقا واقرب رحماً بالأمهات الاان آل الشيخ عووضه عاشوا بين التشاديين عامة والبرقو منهم على وجه الخصوص اغرابا وافدين! وكانوا كغيرهم من النازحين إلى تلك الديار (جلابه أغراب) يلقون من صنوف الأذى والتجريح ما يلقى ويعاني سواهم ، غير أنهم بعد صراع مرير من أجل اثبات الهوية والانتماء حظوا بلقب آخر يحمل قدراً من الاعتراف بصلات الرحم بينهم وبين أهل البلاد ، فقد عرفوا بينهم باسم « جلابة نمروا » ولعل في ذلك ما يشير إلى امتزاج عروقهم وتداخل

اصولهم في اصهارهم التشاديين ، كما هو الحال في تداخل الخطوط والألوان في جلد النمر !

وبمرور الأيام تزايد حرص (الجلابه نمروا) على تأكيد انتمائهم لتلك الأرض، فاغرقوا في التزاوج والانصهار في القبائل التشادية، وأخذوا بكثير من تقاليد البلاد وعاداتها، فأصبح لهم حقوق وواجبات المواطنين . لكن ذلك كله كان مجرد رداء شفيف بجوهر مغاير ، وظل ذلك الفرع اوثق في صلاته واخلاقه وعاداته بأهل السودان منه بأرض الهجرة ومن فيها، وتميزوا بشيء من الوعى جعل حكام البلاد الفرنسيين يتوجسون منهم خيفة على سلطاتهم في تلك الجهات، فما أكثر الأحداث التى تنبيء بخطورة هذا العنصر الهجين على سلطة الاستعمار الفرنسى آنذاك، فقد كان منهم قادة الحركة الوطنية ومشاعل الوعى بين الناس كالشيخ محمد عليش عووضه وغـــيره .

اختتم الشيخ عووضه جهاده من أجل العلم في كلية الشريعة بجامعة الأزهر الشريف في مصر، ثم بدأ جهاده الأكـــبر ضد الاستعمار الفرنسى بعد عودته إلى مدينة (أبشى بتشاد)، حيث اقام ذلك المعهد الذى يحمل اسمه ، منارة للاسلام والعلم في مستنقع السحر والجهل والمجون ، وشاده على غرار معهد القاهرة الدينى بتشجيع وعون من إدارة الأزهر في نطاق رسالته لنشر الإسلام واللغة العربية في القارة السوداء .

لم يرق زرع هذا الصرح الاسلامى في احشاء القاره البكر للمستعمرين الفرنسيين ، فعملوا على إجهاضه فما قدروا !! وحرصوا على وأده في المهد من خلال الاجراءات المعقدة للتصديق بانشائه في البلاد ، ثم بالإشراف على مناهجه وتحديد غاياته وساعات الدراسة فيه ، ومن ثم اعتراضهم على تدريس مادة التاريخ والتربية الوطنية وكل العلوم الحديثة الأخرى !! وقصروا منهج الدراسة على اللغة العربية وعلوم الدين ، وحرموا المعهد وصاحبه من كل معونة او اعفاءات ، إلى غير ذلك من ضروب التعويق والتعجيز .

رغم ذلك كله ، نهض المعهد صرحاً شامخاً ومنارة شامقه تنشر الدين والعلم والوعى بين الناس، وتجاوز صاحبه الشيخ عووضه اوامر الحكام ونواهيهم وشرع يغذى ابناء البلاد ببعض العلوم الحديثة وكانت تلك التجاوزات فرصة مواتيه للحكام الفرنسيين ، فلم يترددوا في اغلاق أبواب المعهد وتشريد طلابه في الآفاق ، فاستنكر اهل مدينة (أبشى)

وما جاورها ذلك الاعتداء الاثيم على حرمة المؤسسة الدينية ، وخرجوا في ثورة غاضبة عارمه اجبرت المستعمرين على فتح المعهد وتمكينه من اداء رسالته المقدسة من جديد .

أصبح للشيخ محمد عليش عووضه مكانة الرائد الزعيم الذى يخشى الاستعمار بأسه وخطره . وجرياً على مبدأ (فرق تسد) المعروف أوعز الفرنسيون إلى السلطان (على سليك) بفتح معهد آخر في مسجده ، وأمدوه بالمال والمعدات اللازمة ، واختاروا له بعض المتطرفين من رجال الدين ذوى الميول العنصرية الحاقدين على الجلابه وغيرهم ممن يجرى في عروقهم الدم العربي ، فلما قام السلطان بما طلب منه ، عمد الفرنسيون إلى اضرام نار الشقاق والفتنة بين طلاب واساتذة المعهدين ، ولم يكتفوا بذلك ، فعملوا على الوقيعة بين الشيخ عليش والسلطان على سـليك !! فاتهم السلطان غريمه الشيخ عليش بالعمل على هدم مواريث آبائه وسلافه من ملوك وداى ، وذلك من خلال دعوته لنبذ العادات والمفاهيم الخاطئه للدين والتقاليد والأخلاق ، ومثال لذلك ان الناس قد درجوا على حصب الامام بالحجارة عقب صلاة العيد ، اعتقادا منهم ان ذلك يجلب المال والثروة لمن يصيب الهدف !! فأنكر الشيخ عووضه هذا التقليد ودعا الناس إلى ابطاله .

ومن قبيل ذلك ايضا ، ان بعض رجال الدين من أبناء البلاد قد استباحوا شرب الخمور المحلية مثل الحال والمشكوكه والكندرنق والكوشيب الخ .. ايمانا منهم بان الله سبحانه وتعالى قد حرم الافراط في السكر لا ما دون ذلك ! !ويسوقون البراهين على صحة ذلك من آيات القرآن الكريم .. قال تعالى : (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقا حسنا ان في ذلك لآية لقوم يعقلـون) . صدق الله العظيم

فمن رأى هؤلاء ان الخمر حلال سائغ للشاربين مالم تبلغ بالمسلم مرحلة السكر البين فلا يعى ما يفعل أو يقول ، فان بلغت به تلك المرحلة من غياب العقل حرمت لامتناع اداء الفرائض وهى وظيفة الانسان الأولى والغاية من خلقه ، فما خلق الله الجن والانس الا ليعبدوه وتناسى اولئك ان ما اسكر كثيره فقليله حرام .

وكانت أوربا قد وعت درس التاريخ ابان عصر النهضة فيما وعت من حقائق العلم والكون ، فأدركت ان قوة المسلمين في دينهم تتمثل في تلك القيم التى تجعل الحياة بكل

ما فيها معبراً إلى دار الخلود ، فلا يحتفى بملذاتها وزينتها السالكون ، فكان الزهد شعاراً تحققت بفضله الفتوحات والامجاد الباقية ، وما كان ضعف المسلمين الا نتاجا للاقبال على الدنيا والتكالب على متاعها القليل . وذلك حين تحولت الدولة الرمز إلى ملك عضوض. وغرق الحكام في مباذل الترف والوان النعيم وسار الناس على دين ملوكهم وانتشرت صور الفساد والانحلال في كل مكان — فكان العباسيون اذا فرغوا من شئون الحكم واعباء الدولة نصبوا مجالس الخمر والرقص والغناء والخلاعة واسرفوا في ذلك اسرافاً لا حد له، كذلك كان الحال في بلاد الأندلس وولايات الدولة البعيدة ، فقد شاع الخمر واتيـــان الموبقات كافة ، فضعف المسلمون ، وانحلت قوتهم واضحوا هدفا للطامعين .

كانت الادارة الفرنسية في تشاد مدركة لهذه الحقيقة، فسخرت كل قواها لإضعاف وكسر شوكة الاسلام في البلاد، فاقنع المبشرون علماء السوء المسلمين بمعاقرة الخمر والافتاء بتحليلها استناداً على ظواهر آيات الذكر الحكيم والآيات المنسوخة وماثبت في غيره من الكتب السماوية كالانجيـــل من ان المعصوم عيسى بن مريم عليه السلام وهو من اولى العزم من الرسل قد تناول النبيذ في عشائه الاخير !! فلو كان حراما لما عصى المعصوم ربه بتناوله .

تجرد الشيخ محمد عليش عووضه — رحمه الله — للرد على ذلك الضلال البعيد ، والقى عصا علمه فالتقمت ما يأفكون، حيث اورد في معرض رده على علماء السوء قوله تعالى :— (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والازلم رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون) . صدق الله العظيم

أثبت الشيخ عووضه ان تلك الآية الكريمة جاءت ناسخة لكل ما سبقها من آيات في أمر الخمر فالقرآن ينسخ بعضه بعضا ، قال تعالى :—

(ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها الم تعلم ان الله على كل شيء قدير)

صدق الله العظيم .

وفي سياق رده على من يزعم ان المسيح عليه السلام قد شرب النبيذ في ذلك العشاء الأخير ، اوضح الشيخ عووضه ان مائدة ذلك العشاء تنزلت من السماء أو من الجنة وخمر الجنة حـــلال لا يصدع عنها الناس ولا ينزفون ، فهى خمر من جوهر مغاير وماهية

غير معلومة للبشر ، وهى — بعد — معجزة خص الله بها رسوله عيسى عليه السلام ، والمعجزات خوارق للعادة المألوفة لا تجرى على أيدى الناس ولا تخضع لقوانين البشر .

بمثل هذا وغيره جاهد الشيخ محمد عليش عووضه لابطال البدع والمنكرات ، كما عمل على نشر تعاليم الدين وفاضل الخلق وكريم السجايا بين طلاب معهده وكافة الناس من حوله ، كان يجوب المدائن والقرى والأسواق معلما مرشداً ليخرج الناس من ظلمات الجهالة إلى نور الحق واضحى بذلك زعيما دينياً ومصلحاً إجتماعيا أقض مضاجع الحكام الفرنسيين في تشاد،فلما عجزوا عن اسكات صوته واعماهم الغضب وادركهم الخوف من جهاده العظيم اصدروا امراً بنفيه إلى «فورت لامى» عاصمة البلاد آنذاك بعد ان قلصوا حجم معهده الدينى وحدوا من اثره بالقوة والقهر .

وفي «فورت لامـــى» حالياً انجمينا التف الناس حول الشيخ عووضه من جديد فقد كانت شهرته في جهاد الكفر والبدع والضلالات تسبقه إلى كل مكان ، وأصبحت داره كخلية النحل تعج بالطلاب والاتبـــاع والمريدين،وغدا خطرا ماحقا على مخططات الادارةالفرنسية الرامية إلى نشر الرذائل والموبقات بين سكان البلاد.فصدر قرار بابعاده عن البلاد التشادية كلها ! ! وتم تسليمه إلى سلطات الحكم الانجليزى المصرى في السودان بحجة انه من اصل سوداني وانه فوق ذلك شخصية غير مرغوب فيها ! !

اقام الشيخ محمد عليش بامدرمان ، وعمل استاذا بمعهدها العلمى واستاذا زائراً بجامعة الازهر الشريف ، وقد افاض غزير علمه في منابر الفكر ومجالس العلم وقاعات الدراسة والتحصيل ، وكان مثـــال العالم المجاهد الورع ، منارة تهدى إلى الحق ، ونموذجا للفضائل ومكارم الأخلاق،ثم توفي إلى رحمة مولاه ودفن باحد اطراف مدينة امدرمان ، تركا بعض مؤلفاته العلمية القيمة واثرا باقيا في الصدور وذكرى خالدة على الأيام ، كما خلف ثلة خيرة من البنين والبنات وثوى بأرض اسلافه راضيا مرضيا ، الا رحم الله الشيخ محمد عليش عووضه واثابه بقـــدر ما جاهد وعلم وضحـــى من أجل الاسلام والمسلمين .

امتثلت لارادة أبي في اتخاذ طريق العلم الدينى ، وهنالك في المعهد استقبلنا الشيخ عووضه ببشاشته واريحيته التى عرف بها بين الناس فلما افضى اليه ابي برغبته في الحاقى

بالمعهد أكبر الرجل فيه ذلك التوجه الصالح والقصد النبيل ، ثم اعتذر عن قبولى في التو والحين بمقتضيات النظام وقواعد العمل التى لا تسمح بقبول الطلاب أثناء العام الدراسى ناهيك عن آخره ، ولكنه اكراما لهذا المسعى ضمن له التحاقى بالمعهد عند بداية العام الدراسى القادم .

جاء اعتذار الشيخ عووضه ووعده حرثا في البحر ، فقد خرج ابي من عنده غير راض بماكان ، ولكنه لم يتراجع عن قناعته بان خير طريق اسلكه في الحياة هو طريق العلم الديني ، ومن ثم اقتادني إلى معهد السلطان على سابات حيث الفينا عقد النظام منفرطاً فتم قبولى على الفور والحين واستدعى شيخ المعهد احد اعوانه من العلماء ليدرجنى في زمرة طلاب فصله ، وكان كهلا متوسط القامة مترهل الجسم عبوس المحيا زائغ النظرات !! اذا قرأ من كتاب امسكه بكلتا يديه ووضعه على صفحة خده الأيسر ، ثم راح يطارد الكلمات والحروف بعينه اليمنى، بينما يغمض الأخرى ويرفع حاجبها إلى أعلى ثم يبلى في قراءته بعد ذلك بلاء غير حسن !! وحين علم ما كان من الشيخ عووضة في أمر قبولى بمعهده وجدها فرصة ليكيل له التهم جزافا ويدفعه بكل نقيصة وشر وبيل، ثم ختم مقالته عنه بانه جلابي كأسلافه يسعى لتخريب الحياة والعقول وأردف ذلك بسؤال ملؤه الفخر والتحدى :—

في منهج اللغة العربيه أتعلم ماذا يدرس طلاب السنة الأولى بمعهد الشيخ عووضة يامولانا ؟!

ولم ينتظر أبى ليجيب على السؤال وقال :—

— انهم يدرسون متن الاجرومية ، أما نحن فى معهد السلطان فندرس الطلاب الفيه ابن مالك !! وشتان مابين الكتابين والمعهدين ، نحن هنا فى عليين ، وهم هناك فى اسفل سافلين .

اطرق شيخ المعهد اطراقة تنم عن الرضا ، وتظاهر أبى بالتصديق ورسم على فمه ابتسامة مفتعلة وهز رأسه مؤمناً على ماقال الرجل، ثم دعا لى شيخ المعهد بالتوفيق والنجاح ، وجهد أبى فى إخفاء عطيـة من المال دسها في يد الشيخ خفية ، فتناولها هذا واودعها قعر جيبه بسرعة ولهفة بالغة ، وقال بصوت خفيض ، هدية مقبولة مقبولة ان شاء الله .

وقبل ان يغادر أبى المكان اوصانى بالاجتهاد فى طلب العلم ، والمسلك الحسن مع الشيوخ والطلاب ، وبذل الطاعة للاولين وتوقيرهم ، ولم يدع نصحاً إلا اوفاه ثم

صافح الرجلين وخـــرج فاقتادنى ذلك الشيخ إلى زمرة طلابه واجلسنى قريباً منه ، وكمـــا يحدث عادة ، وجدتنى اتفحص المكان والوجوه من حولى ، فانتهرنى شيخنا ذاك ، ثم مـــال نحوى برأسه وهو يغمض عينه اليسرى ويكشر عن انيابه فى تحد ، ولوح لى بعصا فى يده وقال فى نبرة ملؤها حقد دفين :—

انت هوى ، أم بربات ، خلق بلا جنيات ، كافر أب دلزات ! ! فزلزلت ضحكات طلابه جنبات المكان وهم يشيرون إلى فى سخرية ويتغامزون ، بينما مضى الشيخ يحدجنى بنظرة الظافر السعيد ، فوقع فى روعى من كلامه ونظرته وضحكات طلابه ، أنه من تلك الفئة التى تبغض (الجلابة) وتتحرش بهم وتكن لهم مشاعر العداء.

والحق ان المغتربين السودانيين فى الشقيقة تشاد كانوا مثلا اعلى فى اخلاقهـــم ومستوى عيشهم ورعاية بعضهم البعض ، فاثار ذلك فى بعض ابناء البلاد قدراً من الحسد والغيرة والجفاء ! ! فروجوا بين الناس انهم جلابة دفعتهم عوامـــل الفقر والاملاق والجوع الكافر إلى مغادرة بلادهم (دار صباح) والهجرة إلى أرض الغرب لينعموا بما فيها من رغد العيش ونعيم الحياة ويحظـــوا بين أهلها الطيبين بمكانة علية ومال وفير .

ولم يكن ذلك من الحقيقة فى شىء ، لان اعـــداد المهاجرين السودانيين فى تشـــاد لاتربو على بضع عشرات بشىء من التجاوز ، بينما يزيد عدد الوافـــدين إلى السودان مـــن ديار الغرب وتشاد على وجه الخصوص على الملايين ! !

من قبيل مايجرى على السنة الموتورين ويروجونه بين الناس فى تلك البلاد وصفهم للجلابة السودانيين بالخبث والجبن والمكر والخيانة ! ! وان سلاحهم فى معارك الحياه هو الحديث الناعم المنمق ، ونظموا فى ذلك اغنيات رائجة تقول احداها :—

حلابى حبل القيطان ..
كان لقيته فى غابـــة يقـــول ليك يابا ! !
وكان لقيته وحيده ، يديك وليده
وكان لقيته فى الدكان ، يقول ليك إذا كان
وكان لقيته مع الأمير ، يـــدق فيك مسامير
جلبة أم بربات ، كافر أب دلزات ! !

وحبل القيطان فى صدر الأغنية اشارة إلى نشاطهم الاقتصادى ونعومة ملمسهم ووهن قوتهم ، وأم بربات هى كسره الخبز التى يطعمها الجلابة ، أما الدلزات فهى وفرة العجيزة أو الكفل عند المرأة ، كناية عن ضخامة الجسم واكتمال العافية .

حقيقة ان الجلابة السودانيين حققوا لانفسهم مركزاً اجتماعياً مرموقاً فى تلك البلاد ، وأبوا ان يتنزلوا لمصاولة الحاقدين فى مجالات الاسفاف والكيد الخبيث . وكانوا يدركون ان تلك التحرشات ماهى إلا تعبير عن الحسد والعجز والغيرة ، لانهم يتسمون بالوعى والخبرة فى إدارة المال والأعمال ، وهم قلة متفرقة بين المجموعات القبلية التشادية التى تسودها روح القطيع وتفتك بها نوازع الأثرة وحب التملك ، وتدفعها للتحرش بالآخرين وقتالهم ، لهذا آثر الجلابة غض الطرف عما ينالهم من الأذى والتجريح ، وتحاشوا فى صبر أولى العزم ان يكونوا طرفاً فى المشكلات والمعارك اليومية الطاحنة بين الأفراد والجماعات ! فقد كانت حياة الفرد فى ذلك المجتمع رخيصة تزهق لاتفه الاسباب ! وتسجل جرائم القتل العمد ارقاماً قياسية تربو على المئات كل عام فضلا عن ضحايا الحروب القبلية والصراعات الجماعية بين حين وآخر .

طلب منى الشيخ ان اقرأ من صفحة بعينها من كتاب الفيه ابن مالك ، فامعنت النظر فى سطور الكتاب المهترىء وقرأت متلعثماً :—

كلامنا لفظ مفيد كاستقم — اسم وفعل ثم حرف الكلم ، واحدة كلمة والقول عم — وكلمة بها كلام قد يؤم — وامرنى الشيخ بتكرار القراءة مرات ففعلت ، وقبل ان يشير على بالجلوس فاجأنى بالسؤال — أبوك عنده فى دكانه سكر رأس وشاى هندى ؟

قلت : نعم . فعاد يسألنى عن ثمن كل منهما فى الدكان ، فتفكرت قليلا ولم احر جواباً فاعتذرت له بجهلى وحداثة عهدى بالمكان والأسعار ، وتطوع احد الطلبة بذكر السعر الجارى فى الاسواق وهو (سافرنك) لرأس السكر أى مائة فرنك فباغتنى الشيخ بضربة موجعة على كتفى وهو يقول :—

— جلابة هوانين ، سكر ده انتو جلبتوه من دار صباح ؟

فجأة اعمانى الغضب ، وذهلت عن وصايا أبى ، فثرت ثورة جعلية ، (على نسق غضبة مضربة) وزهدت فى كل شيء فهددت شيخنا بابلاغ الأمر لناظر المعهد

وترك الدراسة فيه! فضحك ساخراً ثم هوى بعصاته على ظهرى مرة أخرى وجرنى جراً إلى مكتب شيـــخ المعهـــد وهو يتصنـــع الغضب ويزعم انني عصيت امره فى الدرس وانني جرؤت على معيار أهل البلد ، أى الاساءه اليهم !! وزعم ان ذلك كله قد جرى أمام طلابه وهم على ذلك شهود !! فألجمت المفاجأة لساني وجمدت بياني فلم افه ببنت شفه .

ابتدرني شيخ المعهد ويده تقرصني في اذني قائلا :—

— ان اباك كان محقـــاً حين أوصاني بتهذيب اخلاقك وتقويم اعوجاجك ،قال لى قبل ان ينصرف : لكم الجلد واللحم ولنا العظم فقط .

يعني ان أبي اعطاهم الحق فى سلخ جلدى وتمزيق لحـــم جســـدى من اجل التربية والعلم ، ثم هددني بابلاغه الامر ان تكرر ماحدث مرة أخرى ! ! كنت موقنـــا انه فى ذلك الموقف سيصدق كل مايختلق الشيخ من تهم ملفقة ويكذبني لامحالة ، فتحملت الأمـــر فى صبر وجلد وانا اسأل الله فرجاً قريباً .

عدت إلى حلقة الدرس مهيناً مترع النفس بالغبن ، ولم يخرجـــني مـــن ذلك الشعور الكئيب إلا هدير الطلاب وهم يرددون ابيات الالفية بلحن جماعي موقع رتيب فما خطر ببالى قط ان ذلك يمـــت إلى لغة العرب وقواعدهـــا بسبب ، وظننتها — بادىء الأمر — نوعاً من الاعجاز أو الالغاز اللغوية التى تختبر بها السنة الاحداث وهم يتعلمون الكلام لتكون عاصمة لهم من الخطأ ومعيناً لهم فى نطق الحـــروف ، ومضيت فى لجـــة الهدير — اقارن بينها وبين محفوظاتى المأثورة من الغلوطيات ، فأخذت اردد مع الطلاب :

كلامنا لفـــظ مفيـــد كاستقم　　اسم وفعـــل ثم حرف الكـــلم
واحده كلمـــة والقـــول عـــم　　وكلمة بهـــا كـــلام قـــد يـــؤم

ثم انفرد بنفسى واردد بصوت خفيض ساخراً :—

سخلتنا وسخلتكم دخلـــوا السلخانة ، سخلتنا سلخت سخلتكم تقدر سخلتكم تسلخ سخلتنا ، زيما سخلتنا سلخت سخلتكم ؟

إلى غير ذلك من الغلوطيات المعروفة المتداولة ، وبينما انا منهمك في مقارنتها بذلك الهدير الداوى ومحاولة استجلاء الحقيقة والعلاقة بين الامرين ، وقف احد الطلاب بتوجيه من

شيخه واخذ يصفق بيديه طويلا ايذانا بانتهاء اليوم الدراسى ، فنزل الخبر برداً وسلاماً على نفسى بعد ذلك العناء والمواقف العصبية .

ولكن .. ..

ولكن فرحتى بالخلاص من اتون التجربة وقبضة الشيخ لم تدم الا لحظات خاطفة ، فبينما كنت أنهض واقفاً متأهباً للانطلاق كغيرى من الزملاء اذا بالشيخ ينتهرني ويأمرني بالجلوس !! فامتثلت للأمر وانا اتوجس خيفة مما يريد ، ثم اقترب منى في ود مصطنع وكلفنى بكتابة قدر من البخرات عقابا لى على اساءة الأدب والسلوك معه ، فاعتذرت له مليا وتعللت بجهلى بما يطلب ، فاستدعى طائفة من الطلاب كانوا حول المكان ، ثم وزع علينا اوراقاً صغيرة خشنة الملمس ،وأمرني ان اكتب كما يكتبون، ثم عاد يسألنى في ضيق وتبرم :- هل تعرف كيف ترسم خاتم سيدنا سليمان ؟ فهززت رأسى كمن يقول لا ، وأنا في الحقيقة أعرف !! فتمتم الرجل مغضبا وجرني من يدى ووضعها على راحته ثم رسم عليها الخاتم وأخذ ورقة وكتب عليها :- شجنات قطنات ملحه بحر قفطا !! وحين طلب منى قراءتها عليه تلعثمت عامداً ، فزجر لاعنا الجلابه ونسلهم في العالمين ، ثم شرع يقرأ ويعيد وانا اردد معه حتى تظاهرت بحفظها عن ظهر قلب ، فاطمأن وأمرني بكتابة اربعين بخره بما أعرف من طرائق الكتابة،وعلمنى كيف اطبقها على نسق معلوم .

جلست بـين اقراني من المغضوب عليهم اكتب واطبق زهاء الساعه تقريباً ، وقد ابديت مهارة كبيرة في استخدام قلم الحوص والكتابة بمداد (العمار) فلم يصدق شيخنا إننى أنجزت المهمة قبل الآخرين المتمرسين ، واستوثق لنفسه بفتح عدد من البخرات وقراءة ما فيها ، ثم هز رأسه عجبا وهمهم بكلمات غـير مفهومة ، فلما رآني اتعجـل الإنصراف واتململ من الجلوس اذن لى بالإنصراف بعد أن أوصاني ان احمل اليه رأساً من السكر ورطلا من الشاى الهندى هدية في صباح الغد ، وقبل ان ادير له ظهرى مودعا دس في يدى بعضاً من البخرات التى كتبتها هدية منه لأبي !! وزعم انها تجلب الخير وتمنع الشر لا محالة !! ثم اطلق بعد ذلك سراحى .

عصر ذلك اليوم ، قصصت على أبي الاحداث والوقائع التى شهدتها بمعهد السلطان ، وسلمته هدية الشيخ من البخرات فعصف به الضحك ورجه رجا عنيفاً حين قرأ مافيها

وتعرف على خطى الذى لا يجهله ابدا ، ثم قال وهو ما يزال مغرقاً في الضحك :—

— برضو ما بطال ياولدى ، تراكك اتعلمت ليك صنعة ، والصنعة امان من الفقر زيما بيقول المثل .

وجاء صباح الغد ، فحملت إلى شيخنا ذاك هدية ابي من السكر والشاى وفق ما امر ، وكانت سعادته بها عظيمة لا توصف، حتى تحول الدرس نهار ذلك اليوم إلى حديث مسهب عن الشاي وشربه والاشعار والنوادر والطقوس التى يمارسها شاربوه في المجالس الجماعية ، اذكر ان الشيخ قال انهم عرفوا الشاى وشربوه لأول مرة في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، فقامت على شربه قيامة الناس !! وانقسموا في ذلك فريقين متعارضين :—

• فريق مؤيد لشربه وهم أكثر الناس وسوادهم الأعظم ، وبلغ الأمر ببعض هؤلاء المؤيدين ان نظموا انفسهم واتخذوا الرتب والألقاب ، ورسموا الطقوس لمجلسهم حول الشاى، وقد عرف هؤلاء أو سموا أنفسهم باسم (البرامكه) .

• وفريق عارض شرب الشاى وانكره وعد طلابه من الآثمين !! واعتبر شرب الشاى بدعة وضلالة صاحبها في النار وبئس المصير وعرف هؤلاء باسم (الكماكله) .

دارت بين الفريقين ملاحم كلامية ضارية، ومن بعد جاءت ظروف الحياة عونا للبرامكه فتزايد انصارهم في البلاد بازدياد كميات الوارد من السكر وأنواع الشاى الجيد ، وانتشرت في القرى والامصار والوديان مجالسهم العامرة ، وتطورت (البرمكه) باضطراد لتصبح أسلوب حياة شامل فلا يحمل لقب البرمكى الا من اتصف بالكرم والمروءة، والتأنق فى الملبس والسلوك ، وترفع عن كل مذمة أو نقيصة وتشبه هؤلاء ببرامكة العصر العباسى في عهد الرشيد ، وهم — كما روى التاريخ — قوم بذوا سواهم من المعاصرين في السخاء وكل المكارم والشمائل الحميدة . أطنب شيخنا في الحديث عن مجالس البرامكه من أبناء بلاده ، وروى كثيراً من أحاديثهم ونوادرهم وأشعارهم وكان الطلاب يتابعون ذلك بعناية وشغف واعجاب، وبين الحين والحين يدوى المكان بالضحك وعبارات الإستحسان والشيخ ماض في سرده لا يعدم ما يقول ولا يبحث عنه، اما انا فكنت بحاجة إلى قاموس أو مترجم لتلك المفردات الموغله في الدارجية والابهام، ولعل ادناها إلى الفهم والوضوح قوله

في احدى القصائد :ــ

أحمر حرير ألفى الكبابي اندر
ما هو عويشاً لم ، ولاهو قشيشا خم !!

أورد الشيخ طائفة جليلة من النوادر والاشعار حول شرب الشاى ، وسخر كثيراً من جماعة الكماكله شعراً ونثراً ، وكان يحفظ قدراً هائلا من المواقف والحكايات التى تعيب هؤلاء وتسفه أحلامهم، وزعم ان لقب «الكمكلى» اصبح سبة ومساءة جارحة لمن يحمله، وهو منبوذ بين الناس كما البعـــير الاجـــرب !! حتى الفتيـــات لا يرتضينه زوجا ولا يصطفينه بحب وان كان وسيماً قسيما يملك المال والجاه .

روى شيخنا قصة فتاة اراد أبوها ان يزوجها باجد هؤلاء الكماكله المنبوذين، فتمردت وتحملت صنوفاً من الألم والعذاب، فلما مضى أبوها في الاعداد لاتمام الزواج، استغاثت باكية بامها لتدفع عنها ذلك المصير ، وقد تعــود الابناء والبنات في تشاد أن يلقبوا الام بلقب «آيه» ولعل في ذلك ايحاء بجلالها وقداسة شأنها كما هو الحال في اى الذكر الحكيم ، فلما ادلهم الخطب بالفتاة وطاش صوابها وفقدت كل حيلة لمنع ذلك الزواج ان يتم ، صرخت في وجه امها باكية :ــ

آيه آيه .. شيلى ليكى راية
الكمكلى ماله ، مرق ماشى في المدا
انا مالقيت فزع !!

وتمضى كلمات الأغنية الحزينة صارخة متمردة تعلن الرفض والحرب على زواج الكمكلى المنبوذ ، فتدفع الفتاة امها لحمل راية الكفاح لتذود عن فلذة كبدها ذلك المصير المشئوم، واستمر شيخنا يصول ويجول في الحديث عن الشاى ومعاركه بين البرامكه والكماكله حتى انتهى اليوم الدراسى كله في ذلك .

في المساء ، عاد أبي يسألنى عن حصاد يومى من العلم والمعرفة ، فنثرت بين يديه ما كسبته من درايه بسيرة البرامكه والكماكله والنوادر والأشعار التى وعتها ذاكرتي عنهم ولاشىء غير ذلك !!

على انه والحق يقال — لم تجر كل دروس شيخنا ذاك على هذا النمط وتلك الوتيرة بل كان الرجل عالماً فقيهاً ضليعاً فى علــوم الدين، فهو شــارح ماهر للاحاديث النبوية الشريفة ، مفسر مجيد لآيات القرآن الكريم، وان انس لا انسى تفسيره لنا سورة (عبس) فقد ظل ذلك محفوراً فى ذاكرتى إلى اليوم .

بدأ شيخنا بتعريف من هو الاعمى فقال :—
الأعمى فى اللغة هو الكفيف فاقد البصر ، ولكن الاعمى حقيقة هو فاقد البصيرة ! !
ثم استفاض فى شرح المسألة ، ومما جاء على لسانه فى ذلك :—
— نحن مثلا نرى الله تعــالى ببصائرنا لاباىبصارنا ، ولانفتأ نسأله جل شأنه ان يمتعنا بأسماعنا وابصارنا ويفيض علينا مايشحذ البصائر والمدارك فى كل حين.

تذكرت عندها حديث العم بريقع السالف ذكره عن البصر والبصيره فازداد الأمر فى نفسى رسوخاً وازددت به ايماناً ، ثم اردف شيخنا :
— أما الأعمى الذى ورد ذكره فى ســورة عبس فهو الصحابى الجلــيل عبدالله ابن شريح بن مالك الذى اشتهر بابن كلثوم ، ثم ســكت هنيهة وسألنا جرياً على عادته حين يريد منا ترديد كلمة أو عبارة ما :—
— من هو الرجل ؟
— فارتفعت أصواتنا تجيب :—
— هو الصحابى الجليل عبد الله .. الخ .

وكرر السؤال مرات وكررنا الاجــابة عينها إثر كل سؤال ، ثم واصل الحديث عن قصة ذلك الصحابى فقال :—

— عاتب سادة قريش الرسول الكريم على صحبته للفقراء وذوى الضعة والمسكنة فيهم، وزعموا ان اتباعه المؤمنين برسالته هم سفلة الناس من العبيد والعجزة والمستضعفين ! ! وكان لحديث سراة قريش — والله أعلــم — اثر فى نفس النبى «صلعم» . فبينمــا كان يجلس ذات يوم بين جماعة من كبرائهم وصفوتهم ، إذ أقبل فجــأة ابن كلثوم الأعمى الذى شرح الله صدره للاسلام فنادى رسول الله الهــدى على رؤوس الاشهاد ونفســه مفعمة بالحب والاجلال لذات النبى الكريم وبها شوق جارف للعلم والمعرفة ، قال :—

— يارسول الله ، أقرئنى وعلمنى مما علمك الله تعالى . ولكن المعصوم اعرض عنه وشغل بالحديث إلى أولئك السادة الكبراء لعل الله ان يهدى قلوبهم للاسلام والحــق . أو لحكمة يعلمها الله علام الغيوب. ويكرر ابن كلثوم نداءه للرسول يسأل العلم والهدى، غير مدرك بان الرسول (ص) مشغول بمن حوله من ذوى الجاه والمكانة فى قريش، فالرجل أعمى لايبصر مايجرى بين يديه، وتقضى حكمة الله تعالى ان يضيق صدر النبى الحليم بذلك النداء الملحاح ويكره من ابن كلثوم مافعل من صرفه عن الحديث إلى سادة قريش واعيانهــا، فعبس بوجهه وتولى عنه !! فعاتبه ربه على ذلك العبوس والإعراض ، إذ كيف يعرض عمن جاءه مؤمناً يطلب المزيد من العلم الالهى ، وينصرف للحديث مع الذين استغنوا عنه وعن رسالته ؟؟! فقال عز من قائل :—

« عبس وتولى ان جاءه الأعمى ، ومايدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى ، فأنت له تصدى وماعليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى ، فانت عنه تلهى » . صدق الله العظيم

نطقنا بها بعده فى خشوع وايمان ، ثم واصل شيخنا التفسير للآيات الكريمة ، من خلال تلك القصة الشائقة فقال :—

— عندئذ تهلل وجه النبى « صلعم » فقرأ الآيات على أصحابه فى غياب ابن كلثوم الذى مضى لشأنه ساعة الوحى والعتاب ، حتى إذا رآه الرسول الكريم مقبلا عليه من بعد هش للقائه وبادره :—

— (أهلا بمن عاتبنى فيه ربى) . !!

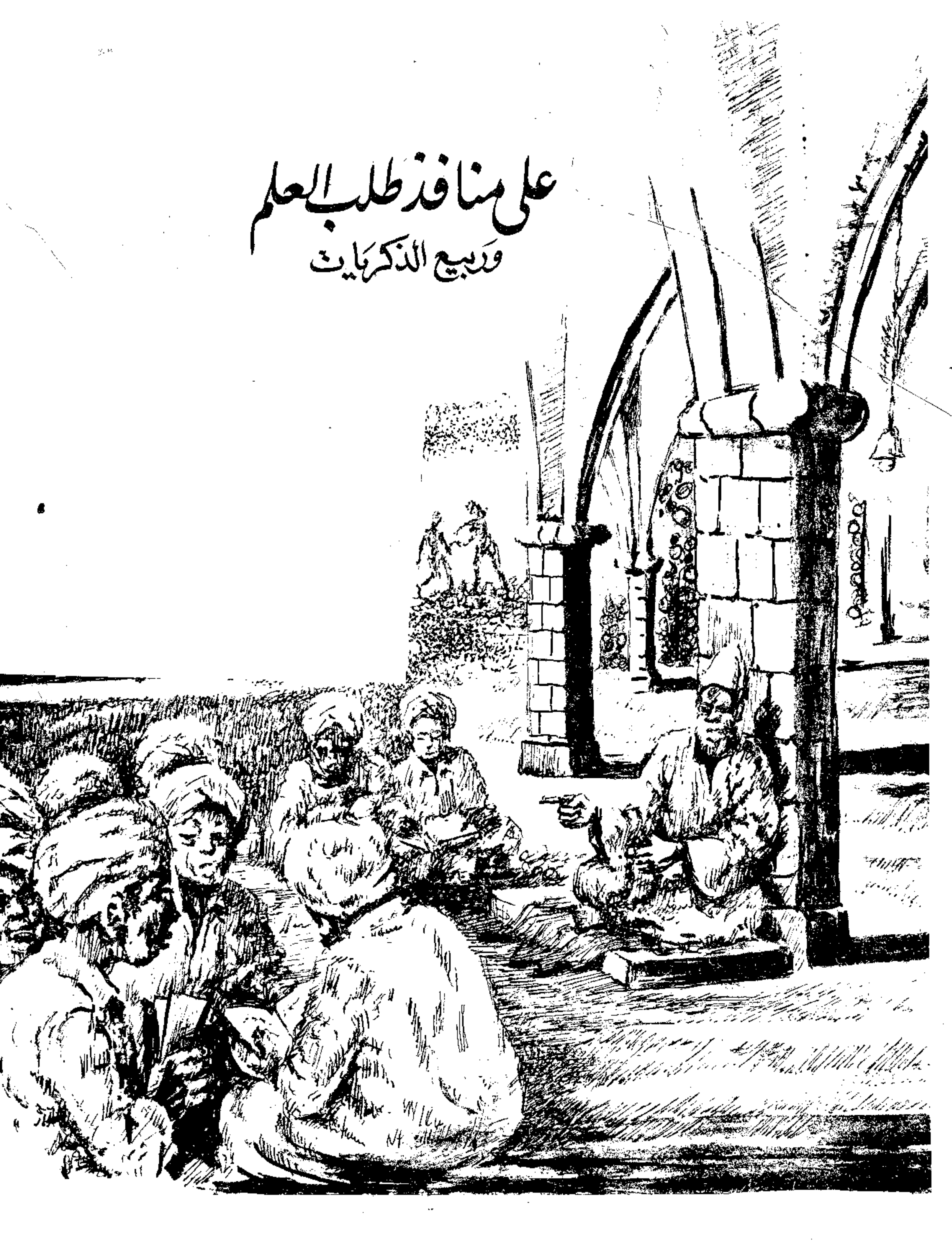
وظل يقربه ويتلطف معه حيثما التقاه أو جلس إليه ، بل ذهب أبعد من ذلك فى تكريمه وإعلاء شأنه بين الناس ، فاستخلفه على المــدينة المنورة مرتين وهو يخرج للغزو والجهاد .

كان ابن كلثوم ذا صوت جهورى رخيم ينافس صوت سيدنا بلال فى الاذان، لم يخطىء قط فى معرفة وقت آذان الفجر رغم عماه ، ولهذا قال الرسول الكريم لاصحابه يوماً :

— (كلوا واشربوا حتى تسمعوا آذان ابن كلثوم) .

ولم يحل عمى ابن كلثوم بينه وبين الجهاد فى سبيل الله ، فقد كان له فى جــلاء بصيرته مايعينه على نصرة الإســلام والمسلمين ، فاستشهد فى معركة القادسية وهو يحمل راية الجهاد السوداء وعليه درع سابغة .

على منافذ طلب العلم
وربيع الذكريات



* ٨ *

شهدت تلك الحقبة من الزمان تفتحي على حقائق الكون والحياة ، وتفتحت في أعماقي طاقات وغرائز لم املك لها دفعا أو مقاومة ، وكانت بنات الجنيس السفلزى كما وصفهن المغني ــ نعم الرفيق في ذلك الطريق !! حيث تعلمت الرقص الأوربي على اسطوانات الفونوغراف المانيول القديم ، وبرعت ايضا في الرقص الشعبى والعاب التسلية الأخرى ، وكدت ابلغ مرتبة الزعامة بين اترابي لولا حاجز اللغة ، الذى افسد ابتهاجى بتلك الحياة الصافية ، فقد كان جل اقراني يتحدثون الفرنسية في يسر وطلاقة ، وكان حديثهم بالعربية لا يخلو من كلمات وتعبيرات فرنسية ، فحاولت جاهدا ان اكسر ذلك الحاجز فالتقطت كثيراً من الكلمات والجمل القصيرة المتداولة ، ولكن شعوراً بالنقص والمهانة ظل يلاحقني ليل نهار. فاذا اتخذ السمار تلك اللغة للمؤانسة والحديث في أمر ما ، رسمت على شفتى ابتسامة صفراء أو هززت رأسي في ايماءات توحى بالفهم والتجاوب ، واضحك احيانا وانا اجهل الأمر وفي دخيلتى مرجل يغلى من الألم .

وتألمت أكثر حين تسلمت بعض الخطابات من زملائي الذين التحقوا بمدرسة نيالا الوسطى ، فأطنبوا في وصف المدينة وما فيها من جمال ومراتع للهو ، والمتع البريئة ، وتحدثوا عن المدرسة ومناهج التعليم فيها وخاصة اللغة الانجليزية ، وتطوع احدهم فارسل الى ابياتا من الشعر الانجليــزى تعلمها من كتاب الـ :ــ (Green Primer) المقــرر عليهم في الصف الأول بالمدسة وكانت بعنوان :ــ (Penkil is a good for Nothing man.)

وعصف ذلك بما كنت قد ركنت اليه من رضا بالأمر الواقع . واحتدم صدرى بالثورة والغضب على ما كان فواجهت ابي مكرها ودار بيننا جدال ولجاج فتدخل الأهل واصدقاء ابي في الأمر ، واقترح العم الامين عثمان الحاقي بالمدرسة الفرنسية مادام التعليم المدني الحديث هــو رغبتى ، فلانت قناه ابى وجنـــح الى السلم فصحبنى إلى المدرســة الإبتدائية الفرنسية مؤزراً بخطاب صغير مـــن العم الأمين عثمان فاستقبلنا مديــر المدرسة فى مكتبه الفخيم المتسع ، وقريباً منه جلس أحد المسئولين الفرنسيين ومعه زوجته وكانت الزوجة امرأة جميلة لم تجاوز عقدها الثالث بعد. ممشوقة القوام ، أما زوجها فقد كان فى حوالى الخامسةوالثلاثين من العمر ، متوسط القامة ، يحمل انفاً بالغ الطول والكبر ، تنبىء نظراته عن جد وصرامة

مفرطة ولايفتأ يخور بخياشيمه بين لحظة وأخرى أثنـــاء الحديث ، وكأنه مصاب بزكام ثم أو جيوب أنفية ، وتمدد الى جواره كلب ضخـــم .

كان ثلاثتهم حين ولجنـا باب المكتب، يفحصون خريطة مبسوطة على منضـــدة وأمام كل مثهم كوب من القهوة يرشفونهـــا وهم يتبادلون الحديث ، نظر المدير فى انكار إلى أبى الذى اعتذر ومد يده بخطاب العم الأمين عثمان، ،وما ان وقعت عيناه على اسمه فى ذيل الرسالة حتى انفرجت اساريره ودعانا للجلوس بلغة عربية ركيكة ، فارتسمت علائم الدهشـــة على وجه أبي واتسعت حدقتاه، فادرك المدير ذلك الشعور وضحك ضحكة قصيرة قطعها فجأة ليقـــول :— انه كان معلماً فى مدراس الجزائر وهناك نسج خيوط علاقته بلغة العرب، ولكنه لم يحذقها بعد. وكان المسئول الفرنسى وزوجه قـــد إنصرفا لذلك الحديث ولكن بصوت خفيض .

اعتذر مدير المدرسة لأبى بالظروف الموضوعية القائمة ، بعد أن اجرى لى اختباراً شفهياً فى بعض العلـــوم. وشرح تلك الظروف باننى أكملت مرحلة الدراسة الإبتدائية بالسودان وحصيلتى من العلم تفوق مستوى تلاميذ المدرسة الإبتدائية عندهم، وكـــان من الممكن قبولى بالمرحلة الوسطى « الكوليش » لولا حاجز اللغة ، فالتلاميذ منذ بداية المرحلة الإبتدائية يتلقون دروسهم للمواد المختلفة باللغة الفرنسية فضلا عن دراســـة اللغة كمـــادة قائمة بذاتها، ومن ثم يدخلون المرحلة الوسطى وهم على بصر ودرايـــــة بامر اللغة الفرنسية وذلك مايدعو للاعتذار والأسف .

ودون ان اشعر ندت عنى صرخة باكية « لا لا» لايمكن !! وبهت الجمـــيع وهم يروننى ابكى واندب حظى العاثر !وسألت زوجة المسئول الفرنسى عن جلية الأمر فأخبرها المدير ودار حوار قصير ، التفت بعده ليقول لأبى ، لقد تأثرت الســـيدة لبكاء ابنك ورغبته فى التعليم،وتطوعت بتدريسه اللغة الفرنسية بصورة مكثفة تمكنه من دخول المرحلة المتوسطة. وكان الزوجان يتابعان الحديث ويومئان برأسيهما تأمـــيناً على مايقول، فظن أبى فى بادى الأمر ان لابد لهذه الدروس الخصوصية من ثمن باهظ، وافضى بذلك إلى مدير المدرسة فشرع يضحك وهو يحدث الزوجين بما راود أبى من

خوف فاشتركا معه فى الضحك على ما كان ! ثم أقبل المدير على أبى وطمأنه بمجانية تلك الدروس ودوافعها الانسانية الخالصة فى اطار نشر اللغة الفرنسـية بين ابناء الشـعوب فما كان من ابى إلا ان شكرهم ووافق على الاقتراح .

حملنى طائر الفرح فاندفعت بغير وعى لامد يدى إلى ذلك المسئول الفرنسى وزوجته ى انفعال ظاهر لأشكر لهما تلك المنة والاريحـية والفضل . وسرت عدوى سعادتى إلى معلمتى الحسناء فاشرق وجهها وشع بريق السعد فى عينيها الخضراوين،وكانت لحظـة مورقة بعاطفة الخير والإنسانية .

حدثنى المدير بلكنته العربية انه قد تحدد لى ثلاثة أيام فى الاسبوع لدراسة اللغـة الفرنسية ، على ان تبدأ الدراسة بعد الساعة الخامسة مساء ابتداء من اليوم ، ثم وصف موقع منزل المسئول الفرنسى وزوجته فعرفته على التو ، وتشاور معها لحظات حـول منهـج الدراسة وخـتم حديثه بالتبرع بالكتب والأدوات المدرسية اللازمة ، فشـكره أبى وكرر الشكر للمعلمة وزوجها وودعنا الجميع وانصرفنا .

فى طريق عودتنا،وبينما أنا غارق فى بحار السعادة والفرح ابتدرنى أبى يقـول :— برضو الله بريدك، تراها مواعيد الدروس مابتتعارض مع دراستك فى معهد السلطان!

لم يكـن بمقدور كل كوارث الحياة واحزانها ومنغصاتها ان تحطم صرح السعادة التى كانت تغمرنى فى تلك الساعة فلم اعبأ بذلك القرار الذى ساقه أبى عفو الخاطـر ، فوعدته ان ابذل جهد طاقتى فى التوفيق بين تلك المناشط المرهقة المتنافرة ، واغتنمـت الفرصة لاطلب مقابلا مجزياً لهذه الطاعة ، وكنت اعرف متى تكون سوانح أبى ولحظات قبضه فتصنعت الجدية وطالبته بشراء دراجة وساعة يد لضبط مواعيد الدراسة!متعللا بان هؤلاء الأوربيين يشتطون فى احترام المواعيد كثيراً،فضحك ابى وقد ادرك انى انما احاول ابتزازه بتلك المعازير ولكنه تظاهر بالاقتناع والاتفاق فى الرأى، وعرج بى على أحـد المتاجر فاشترى لى دراجة رالى وساعة ،« رومـر » جميلة طوقت بها رسغى فى اعتزاز وزهو وافتخار ، وكم كان يسعدنى ان يسـألنى أحـد عن الوقت فالقى نظرة فاحصة متمهلة ، ثم أرد على سؤاله وكان أبى يضحك مـن تصرفاتى تلك ويقول :—

— فعلا لكل جديد لذة ! !

وحين بدأت أثق شيئاً فشيئاً فى قدرتى على التحدث بالفرنسية عبر الاختلاط الدائم مع (اترابى) شرعت انافسهم فى كثير من عادات الفرنسيين والتشبه بهم . حتى غدوت اعلى كعباً وارسخ قدماً فى كل ذلك ، وكان لى فى دراجتى وساعتى ومكانة أبى مايميزنى عنهم ويرفع من شأنى بينهم ، ومن ثم كانت غيرة البعض منى وحسدهم .

عند الخامسة تماماً كنت اختال فى ابهى حلة صوب منزل معلمتى الفرنسية وأنا أخطو أولى خطواتى فى طريق الحضارة الفرنسية التى تهيأت لدخولها من أوسع الأبواب وهو اللغة .

عند دخولى المنزل شد انتباهى كثيراً جهاز الفونوغراف الضخم الذى يربض على منضدة تشغل جانباً من الصالون ، وإلى جواره جهاز راديو كبير يعمل بحجر البطارية السائلة ويقوم بتغذيتها وشحنها دينمو هوائى قائم على سقف المنزل، وفى جانب من الصالون مكتبة رائعة الشكل بديعة النظام صفت على ارففها الوان الكتب أشكالا وأحجاماً متقاربة . بينما تناثرت على الجدران والأركان المختلفة صور ومناظر وتحف تخلب الباب الناظرين ، والأرض مغطاه بابسطة محلية الصنع فيما عدا ارض الصالون التى تزينت ببساط واحد مستورد كبير الحجم .

تلك ابرز معالم البيت الذى جئته غرا اطلب العلم !!

استقبلتنى معلمتى وكانت ترتدى بنطلوناً قصيراً اصفر اللون « كيلوت » أشبه بالمايوه ، فوقه قميص شفاف أبيض فكت بعض ازراره العليا، وكانت تنتعل صندلا خفيفاً من الجلد. حيتنى فى بشاشة ومرح وأخذت تمشى أمامى وبيدها كتاب مفتوح كانما كانت تقرأ منه قبل مجيئى ، ولم ادهش لرؤيتها فى ذلك الزى الغريب ، فقد اعتدت واعتاد الناس رؤية الفرنسيين رجالا ونساء فى الأسواق والطرقات وهم فى تلك الأزياء التى تكشف معظم الجسد . الفيت زوجها ممدداً على كرسى من قماش وبين يديه كتاب يطالع فيه ، وفى فمه غليونه العتيق ، وقد ارتدى مايوه على هيئة بنطلون أبيض قصير ، فلم يأبه لوجودى واكتفى بايماءه من رأسه تحية ،وما ان جلست إلى جوار معلمتى فى الصالون حتى امرت الخادمة السمراء باحضار منضدة صغيرة بها طائفة من زجاجات العصير والسمر !! إلى كأسه مشروب من نوع لا أعرفه ! فاشارت إلى بيدها تدعونى

لتناول مايروق لى من شراب ، فأخذت زجاجة من عصير البرتقال ، فتناولتهـا منى وصبت ما فيها فى كوب كبير به قطع من قوالب الثلج، ثم صبت لنفسهـا وزوجها من زجاجة أخرى قدراً قليلا مزجته بالصودا ، وأمرت خادمتها بحمل أحد الكوبين إلى زوجها الممدد هناك . فلما وضع الكوب أمامه لم يزد على ان اومأ لزوجته قائلا «مرسى» كنـت أحس شيئاً من غربة وانكماش فظلت المعلمة تحررنى مـن هذا الشـعور ، ثم طلـبت منى ان أجلس إلى المائدة ذات الكراسى المتعددة لانها انسب للدرس، وفيها متسع للادوات والكتب. كانت تتحدث الفرنسية ممزوجة ببعض الكلمات العربية ، وفى كثير من الأحيان كانت تكتفى بكلمة واحدة تدعمها وتجـلو معناها باشارة موحيه فافهم ماتقـول ، وفى ذلك مايؤكد ان أدوات التخاطب بين الناس هى المشاعر والأحاسيس قبل ان تكون الحروف والاصوات ، وبدأنا الدرس فى كتاب كانت تعده من قبل لهذا الغرض .

سدى ضاعت جهودى للتركيز فيما تقـول معلمتى وهى تواصل الشرح لمعانـى الكلمات — ومخارج الحروف ، حيث توزعت نفسى بينها وبين زوجها ذلك الذى يصدر عنه بين الحين والاخر ، صوت كريه يخرج من انفه فى قوة كأنه يحاول فتح خياشيمـه بعد انسداد! ! ثم جاء الكلب يدور حولنا وينظر إلى فى غير ود ولاترحيب ، فجعلت اتابعه بطرف خفى ولم اطمأن لوجوده حتى بدأ يشم رجلى ويطبطب بذيله ثم رقد واضعاً رأسه على ساعديه ، كنت قد أفدت من أقرانى معلومة مفادها ان أقرب وسيلة لكـسب ود هؤلاء البيض هى مداعبة كلابهم واطراء حسنها ، فمددت يدى خلسه ووضعتها عـلى رأس الكلب، وطفقت أمسح على شعره برفق ثم أردفت ذلك بالقول انه كلب جميـل ، فضحكت معلمتى سعيدة وشكرتنى على تلك المشاعر الطيبة تجاه حارسها الأمين — ووضع زوجها الكتاب وأخذ يبادلها حديثاً ما ساورنى الشك انه يدور حول تعليقى واطرائى لذلك الكلب السـعيد .

عقب نهاية الدرس مضينا لتناول القهوة باللبن على المسطبة الخارجية واضحـى ذلك عادة روتينية تتجدد ويتجدد معها الحديث والدروس والأزياء . ومع مرور الأيـام تقشعت سحائب الكلفة وازددت ألفة وقرباً من معلمتى ، وكانت سباقة إلى كسر تلـك الحواجز بمزاحها ومداعبتها وافانين قولها وفعلها ، فما أكثر ماكانت تلاطفنى بلمسـات

يديها وتعليقاتها الساخرة واظهار اعجابهـا بذكائي واستجابتي للعلم وتقدمي السريع فى دراسة اللغة الفرنسية ، وما فتئت تطرى مواهبي فى الاستيعاب على مرأى ومشهد مـن الضيوف الذين يتوافدون عادة أول المساء فيبقى بعضهم إلى منتصف الليل يتجـاذبون الاسمار على قرع الكئوس واصداء الموسيقى .

لم تجاوز معلمتي الحقيقة ، فقد كنت فى دراستي للغة الفرنسـية مدفوعاً بالغـيرة وشعور النقص الذى كان يلازمني دائمـاً فى علاقتي باترابى ، وصارت كل كلمة أو جملة اضيفها لحصيلتي تحل عقدة مـن لساني وأخرى من جناني ، وهـكذا تزايدت ثروتي اللغوية يوماً بعد يوم ، وعملت بنصيحة معلمتي فى استخدام اللغة فى الحياة اليومية فكنت اطوع مقتنياتي منها للحديث والتعامل مع الاخرين ما وجدت إلى ذلك سبيلا ، بل كنت احشر الكلمات والتعابير الجديدة حشراً فى ثنايا الكلام واختلق لها المناسبات اختلاقاً فى بعض الاحيان .

ووثقت الايام علاقتي بالمسئول الفرنسي وزوجته الحسناء ، ولم يقف الأمر عند الدرس وحده ، بل أصبح شيئاً مألوفاً ان يزورنا الزوجان فى المنزل أو الدكان وكان يلذ لى كثيراً ان احادثهما أمام أبى وغيره من الناس بتلك اللغة الفرنسية التى كانت وشـيجة الاتصال بيننا منذ البداية ، متعمداً اظهار مقدرتي ومعرفتي بتلك الظاهرة الحضارية ! فلا يخفى أبى سعادته وفخاره بى أمام الجميع وهو يردد على مسامعهم الحـديث النبوى الشريف : (من عرف لغة قوم أمن مكرهم) ولم يكن يدرى ان معرفتي بلغة القوم حتى ذلك الحـين لاتغطى حرف الميم من كلمة «مكرهم» .

جئت ذات أصيل فى الموعد المضروب للدرس ، وفوجئت بالحال غير الحال !! وجدت معلمتي الرقيقة الضاحكة أبداً متغـيرة المزاج ثائرة مهتاجة ، وعلمت ان مشاجرة حامية دارت بينها وبين زوجها فأخذت عصا غليظة وشجت بهـا رأسه حتى سالت منه الدماء مدرارا ، وتمادت فى ثورتها وعنفها وكادت تقضى عليه لولا تدخل الخفـير والخادمه ! ! وخرج الزوج أثر ذلك غاضباً جريحـاً وولى الأدبار . وقبل ان يستقر بـى المقام جاء الزوج معصوب الرأس فى نفر من اصدقائه يحاول اصلاح ذات البين ، فلمـا وقع بصره على ابتدرني فى غلظة وعنف بانه لن يكون هناك درس ! وانتهرني فى جفاء

قائلا «اذهــب» فتأهبت للخروج وانا احس بما يشبه الذلة والمهانة ، وادركت معلمتى ذلك فلاطفتنى كمن يعتذر عن ماكان من زوجها وطلبت منى ان أعود للدراسة بعد غد ، عند خروجى عرجت على حجرة الخفير وزوجته استطلع الخبر ، ومضى الخفير إلى الحديث عن اسباب ذلك الشجار ، فاورد جملة من التهم المتعلقة بسوء الخلق وحدة الطبع وفظاظة المعاملة والصقها بذلك المسئول الفرنسى ، ثم أضاف إلى ذلك ثالثة الاثافى التى فجرت ثورة الزوجة وخروجهـا على مألـوف حالها من الرقة ورهافة الحس وسـماحة الـروح ، قـال الخفير ان الزوجة قد علمت بمحض الصدفة اليوم ان زوجها يرتبط بعلاقة آثمة بفتـاة افريقية اثمرت خطيئته معها طفلا حديث الولادة يرقد هو وامه بالمستشفى الان . وجـاء الشبه بين الطفل وأبيه قاطعاً لكل شك ومثبتاً لكل يقين ، وكان الاب يتردد بانتظام على الأم وطفلها بعنبر الولادة . وازاء هذه الجرأة تبرعت احدى الممرضـات بنقل الخبر إلى معلمتى المكلومة ! !

ضحكت ساخرا من الخبر ، وانصرفت فى غير اكتراث كبير فماذا تعنى اضافة طفل جديد لاطفال المتيس ؟! والمتيس كلمة فرنسية يطلقونها على المولدين مـن أب فرنسى وام سوداء ، وهى ظاهرة لايختص بها القطر التشادى وحده ، بل تعم كل ارض وشعب يخضع لحكم الاستعمار ، أو حيثما وجد رجل أبيض وامرأة سوداء! ! وقد انقلـب الحـال مؤخـرا فأصبح الاب اسود والام بيضاء .

وفى تشاد وغيرها اضحى هؤلاء الاطفال المولدون مشكلة اجتماعية ضاغطة بسبب انتمائهم ، فهم يتقاصرون عن بلوغ طبقة الاباء ومجتماعتهم الآخذة بالفوارق العرقية واللونية ، ويترفعون عن الانتساب لطبقة الامهات — لما يجرى فى عروقهم من الـدم الابيض الذى يميز لـون بشرتهم بعض تمييز ، وتحت وطأة الشعور بالإغتراب والتمايز تقوقعوا فيما بينهم وشكلوا طبقة خاصة يجرى التزاوج داخلها بتشجيع من آبائهم البيض الذين يكرهون لهم الانصهار فى بؤرة السواد والتخلف الحضارى فى مجتمع الامهات، ويولونهم كثيرا من العناية والاهتمام خاصة فى المستعمرات الفرنسية ، حيث يتم الاعتراف بهم ولو بصـورة ضمنية غير مباشرة! ! وهذا ما كان من زوج معلمتى الجـريح . فى اليوم التالى فوجئت بذلك الزوج يقبل على دكان ابى ويلحف فى الاعتذار عما بدر

منه بالامس تجاهى، ثم شرع يرجو ابى أن يسمح لى بقضاء الليل مع زوجته معلمتى لثلاثة أسابيع متواليات، زاعما انه مضطر للقيام بمأمورية عاجلة، وقد اعتذرت زوجته عن اصطحابه وهى تخشى على نفسها من الوحدة ليلا بعد ما سمعته من قصص خرافية تتعلق بالارواح الشريرة فلم يمانع ابى واستشارنى فوافقت بغير تردد بدافع رد الجميل والشهامة التى اتصف بها اولاد جعل. انتقلت فى مساء الغد الى منزل معلمتى تغمرنى سعادة طاغية بانى أقوم بعمل عظيم رشحتنى له دون سائر العالمين، وحملت معى بعض أدواتى وملابسى الضرورية، وكان الزوج يتأهب للسفر حين قدمت مفعما بروح الخير والمروءة وخصصت لى معلمتى الغرفة المجاورة لغرفة نومها بحضور الزوج قبل رحيله ثم ودعته فى برود ينم عما بنفسها من غضب مكتوم، فلما هبطنا درجات المسطبة صارحنى الزوج بمخاوفه من أن تلحق زوجته الاذى بنفسها أثناء غيبته لفرط غضبها وحقدها عليه من جراء ماحدث، وقد ينعكس ذلك الغضب ويرتد الى شخصها فتعمد الى العنف الضار، وهذا ما جعله يختارنى لاكون فى صحبتها اذ أن الخادمة والخفير لايصلحان لهذه المهمة بسبب الجهل والتخلف، ولكنهما سيكونان عونا لى على كل حال. فودعته ووعدته بملازمتها والترفيه عنها حتى لاتجد فرصة لمجرد التفكير فيما يساوره من مخاوف.

راودنى الشك أن المسئول الفرنسى كما يبدو من تصرفاته وحديثه وظواهر الحال قد اختلق تلك المأمورية اختلاقا!! وان الامر فى حقيقته هروب من معايشة تلك الازمة العارضة العاصفة. ولم تهتم معلمتى لغيابه أو هروبه اذ أن الالم الاعظم عادة يطغى على ما سواه من آلام، فلا يحس المرء بنوعين من الالم فى وقت واحد. ولعلها كانت تحس بالفاجعة والخطيئة مجسدة فى الزوج، وليس من السهل ادراك الدوافع التى حركت فى نفس معلمتى تلك العاصفة اللاهبة من الثوره والغضب التى زلزلت كيان زوجها فلاذ بالفرار، ففى مثل هذه الظروف تختلط العوامل الذاتية من حب وحرص وطموح بالقيم الاجتماعية والمثل العليا والفضائل. ولعل معلمتى كانت تحس بالفاجعة والخطيئة مجسدة فى ذلك الزوج فينفجر احساسها بالمهانة والزراية اذ تذكر ان اداة الخطيئة امرأة ملونة وثمرتها طفل من ذات المعدن!! وقد يعجب البعض لتلك الثورة العارمة من فتاة عرف مجتمعها الفرنسى على مدار تاريخه الطويل مثل تلك العلاقات غير المشروعة

ويعترف بها ، حتى أضحى العشق والحرية الجنسية لديهم أمرين لاينكرهما عرف ولاقانون ، بل أصبح للعاشق — رجلا كان أو امرأة — وزن ومكانه اجتماعية داخل الاسرة الفرنسية ! !

ولكن رغم تلك المرونة في احترام المشاعر الانسانية والاسراف فى بذل الحريات ، فان ماحدث بين معلمتي وزوجها يختلف فى صورته وجوهره عما يجرى به العرف فى المجتمع الفرنسى ، فهذه علاقة بين رجل أبيض وفتاة ملونة ، وهنا الاثم والخطيئة وبيت القصيد ! ! وقد يتساءل البعض ما الفرق بين هذا وذاك ! ! والحق ان الفرق كبير والبون شاسع .

فمثل هذه العلاقة — بين البيض والملونين — علاقة تنكرها وتقاومها طبيعة الخلق والابداع ، فالله سبحانه وتعالى خلق الكائنات فى تفرد وتمايز واختلاف لحكمه تجرى بها الاقدار ونواميس الكون ، كما خلق النبات أنواعا وألوانا وطعوما شتى ، فمقتضى حكمته أن تبقى هذه وتلك كما صورها ! حتى النبات والحيوان والجماد يخضعان لذلك القانون السرمدى ، فاشجار النخيل مثلا اقتضت مشيئة الخلق فيها ان تتكاثر وتنمو وتتطور ولكن تظل على طبيعتها وجوهر خلقها لا تختلف ابدا . كذلك السباع فى الغاب والأحراش لاتملك أن تخرج عن طبائعها وحقائق تكوينها وان تعددت اسماؤها وأنواعها ومواطن وجودها .

كذلك خلق الله الانسان أبيض وأسود وأصفروحامى الخ واراد له أن يبقى على حال خلقه وصورته دون مسخ أو تعديل . كيف لا وقد جاء خلقه فى أحسن تقويم ، ومن أجل ذلك القى الله فى روعه وفطرته نزوعا قويا للدفاع عن الأصل واللون وبديع الخلق والتكوين . وتقوم الشواهد على تلك الجبله فى سلوك الافراد والجماعات عبر عصور التاريخ ، فما نشهده هنا وهناك من سياسات الفصل العرقى صوره مكررة لهذا النزوع الفطرى ! ! ولايخفى أن الفصل العرقى يختلف عما عرف بحواجز اللون والتفرقة العنصرية المقيته . فالاول رفض للتزاوج والتداخل بين الاجناس ع اختلافها وتباين ألوانها واعراقها وعناصرها ، وهو محاولة لحفظ النوع بما له من خواص تكر بنية متفردة قد لاتكون أرقى من سواها ولكنها تأبى الانصهار فى غيرها عن

طريق الاختلاط والتناسـل وامتزاج الدمـاء ، ولعل بقاء الامم والشعوب محتفظـة بأهم سماتها وطبائعها وعناصر تكوينها حتى اليوم برهان مشهود على مـاذهبنا الـيه . وهو أمـر لايختص به جنس دون جنس ، وليس الرجـل الابيض وحده من يحـس بتلك النزعة الفطرية ، بـل هو قاسم مشترك بين كافة الأجناس قديما وحـديثا ، حيث يسعى الكـل الى نوعـه ولونه ومميزاته فالسـود ينكرون عـلاقات البيض ببنـات جلدتهم ، وينبذون ثمار هذه العلاقات ولايعترفون لها بحق الانتماء الكامل !! .

الفصل العرقى اذن صـوره لواقع الحيـاة له دوافعه وغاياته ، وما زالت كثير من الشـعوب والقبائل والأسـر تعتز بنقائها وتأبى أن تذوب وتنصهـر فى غيرهـا ويتلاشى وجـودها وتندثر ، جريا على سنة الابداع والخلق ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولكن التفرقة العنصرية فى الحقوق والواجبات والمعاملات الاجتماعية امر تنبذه كـل الديانات والشرائع والاعراف الانسـانية الخيرة ، وتتصدى لحربه فى عالم اليوم كافة الشعوب المتحضرة والمنظمات الدولية والاقليمية والمـذاهب التى تحتكم لشرعة العـدل وتكريم الانسان ، فالتفرقة العنصرية نزعة للتسامى واسـتغلال بنى البشر ، أما الفصل العرقى فهـو دفاع عن الاصالة وحفظ النوع من وجه عوامل التلاشى والانقـراض وشتان مابين الامرين .

كانت معلمتى الفرنسـية الحسناء ضحية لهذا وغـيره من الدوافع الذاتية ، هو ما ألقى بها فى مهاوى الثورة والغضب ، فقد تعـدى أثر الحدث فى نفسها حدود غيرة المرأة واحساسها المدمر بخيانة الشريك الى اغوار نزعة فطرية لاتملك لها دفعا .
فكان من جراء ذلك ما كان !! .

خيم الظـلام ينـشر ارديته السـود فيلف بها جسـد المدينة بينما ضرب سـكون مهيب باطنابه فى الأرجـاء ، لا يعكر صفوه الا نباح الكـلاب ونقيق الضفادع يأتى من بعـيد ، وحركة أقدام الخادمه من أعماق الدار تؤدى واجباتها المسائية الـرتيبة. مـضى وقـت ليس بالقصير وأنا أجلس صـامتا قبالة معلمتى الثائرة وكانت لاتنى عـن اطلاق زفرات حرى من الغضب والحقد الدفين ، وقد انعقدت فى سماء الغـرفة سحائب الدخـان يرسلها فمها تباعاً وكأنها تنفث ما بنفسها من شعور ممض اليم ، فهى

لم تتوقف عن التدخين لحظة منذ بارح زوجها الدار ، وبين فينة واخرى ، تهمهم بالفاظ كالســباب !!

هيأت الخادمه ـ كعادتها ـ مائدة حافلة بألوان الشراب ، فاقبلت معلمتى تبحث عن السلوى فى غيبة الوعى بعــد ان ارهقها الفكر فيما حدث ، فأخذت كوبا وضعــت به قطعــا مــن الثلج ثم صبت لى قدرا من عصير البرتقال المنعش ، بينما صبت لنفسها كأســا مــن الويسكى وشرعت تتجرعه فى نهم ولذة وانفعال ، فلما وضعت الكأس من يدها كانت قد استجمعت زمــام نفسها واعتراها شــعور ببهج وانشراح ، وجاءت كــل كأس أخرى بؤرة دافقة بمزيد من هذا الشعور ، حتى تحررت تماما من عــوامل الغضب والكآبة ، وعادت سيرتها الاولى ، وجه مشرق ونفس تفيض رقة وعــذوبة ، فتقشعت غلائل الصمــت والملالة فى المكان ، وعــاد الحادث الكئيب يفرض نفسه من جــديد حــين دلف بهــا الحديث الى سيرة حياتها مع ذلك الزوج الذى عــول على الرحيل من وجه العاصفة ، بعــد أن دمر فى قلبها ماتبقى من مشاعر الوفاء والطــهر والنبالة . وكانت لاتفتأ فى ســياق روايتها تصفه بأنه وغد وتافه ولئيم ، وتروح تسترجع مــن الاحداث والمواقف فى حياتها معه ما يؤكد تلك الصفات ، فيبلغ بها الانفعال أحــيانــا درجة تغالب فيها البكــاء وتحاول جاهدة أن تكتمه وتتغلب عليه فتنفرط من عينيهــا دموع تنثال على خديها المتوردين بحمرة الغضب .

ولكم بذلت من جهد لاخفف عنها وطأة الحــزن ومرارة الالم الذى يعصف بكيانها عصفا ، حاولت أن اجعلها تقبل بذلك الواقع رغم بؤسه وتعاســته ، وضربت لهــا المثل بغير زوجها من الرجــال ومن بينهم أبى نفسه ، فلم تصدق ان له زوجات أربعاً فى عصمته آنذاك ، وأخذت تحتد فى حديثها عن الرجــال وتصفهم بالغــدر والنذالة ! ونصحتنى فى اخلاص الا أكون على شاكلتهم فى قابل الأيام ، مؤكدة ذلك باسئلة ايحائيه كنت اجيب عليها فى مجاملة ودون تفكير محاولا جهد طاقتى ان اخرج بها من دائــرة الحزن والكآبة التى تأخذ بخناقهــا لحظة بعــد أخــرى . كانت طــوال ذلك الحديث تجــرع كئوس الخمر تباعا ولاتكف عن التدخين حتى بدا لى انها توشــك أن تخامــر عقلها المتوهج الحصيف ، فجرؤت مرة ، وأخذت الكأس من يدها رفقا بها واعدته

الى مكانه على المائدة ، فلم تمانع وارخت يدها فى استسلام وشكرتنى على ذلك الصنيع. جاءت الخادمة باطباق الطعام وصفتها على المائدة دون أن تنبس ببنت شفه، فاشعلت معلمتى سيجارة أخرى وطلبت منى أن أكل وحدى لان نفسها عازفة عن الطعام ، فأشحت بوجهى عن المائدة فى صمت ، واقتربت هى منى وجعلت تحثنى على الأكل ، وتغرينى بتناول قطعة من هذا الطبق أوذاك ، ثم التقمت هى شيئا من الخبز والزيتون لترينى انها تأكل، فأقبلت ازدرد مايروق لى من اصناف الطعام ، وبين لحظة وأخرى امد لها يدى بشيء منه فى ضراعة ورجاء فلا تردها خائبة .

حملت الخادمة بقايا الطعام ثم انسلت من الغرفة فى رشاقة وأدب ظاهرين، وجرعت معلمتى كأسا اخرى ونهضت واقفة تترنح وبذلت جهدا كبيرا لتصل الى ذلك الفونوغراف وادارت قرص اسطوانة انتقتها بعناية وحرص ، فامتلأ المكان باصداء الموسيقى وألوان النغم الصاخب الممراح ، وجاءت تتهادى وترقص فى نشوة حتى وقفت قبالتى وجرتنى من يدى مداعبة وهى تدعونى بايمائه من رأسها لاشاركها الرقص ، كان الايقاع حارا لاهبا ، فاندفعت غير هياب ولا وجل لارقص فى مهارة واتقان جعلا معلمتى تضحك وتتساءل عن مصدر تلك الخبرة البعيدة فاجبتها ضاحكا وأنا أرقص فى انفعال بحرارة الايقاع : انهن ياسيدتى بنات جنيس !! فانفجرت ضاحكة حتى كادت تسقط على الارض وقالت اذن فانت تعرف الكثير !! أومأت بالايجاب مدركا لما وراء كلماتها من معنى خبيث .

ثم جاءت أحداث بددت ذلك الشمل ، ولم يكن ذلك فى الحسبان ، اذ دفع حب الاستطلاع معلمتى لزيارة غريمتها السوداء وطفلها بالمستشفى ذات يوم ، وطوى الغيب ماجرى من أحداث خلال تلك الزيارة ولكن حدث أن أصيب الطفل بالتهاب رئوى حاد أودى بحياته في اعقاب تلك الزيارة!! ثم عاد الزوج من رحلة الهروب بعد ذلك ، وجن جنونه لما علم بالخبر ، فربط بين تلك الزيارة وما حاق بذلك الطفل المنكود ، وثارت ثائرته وعصف به الحقد والغضب وهو يظن أن زوجته تسببت فى وفاة الطفل فعقد أمره بليل ، وقرر على الفور ترحيل الزوجة فى اليوم التالى الى العاصمة فورتلامى، ومنها الى الوطن الام، وفيما بعد صدر الامر بنقل الزوج.

ضعت انا بين شقى الرحى ،وعبست الدنيا فى وجهى من جديد ، اذ طوحت رياح الحقد الأعمى بما بنيته من آمال عراض ، فلم يكن ماتعلمته من اللغة الفرنسية بكاف للالتحاق بالكوليش أو المرحلة الوسطى فى النظام الفرنسى ، كما وأد الحادث تلك العاطفة الـتى جاشت بها نفسى يومئذ فتضاعفت مأساتى وتجهم وجه الحياة كريها لايطاق .

* ٩ *

عـــدت استجدى ابى ليلحقنى بركب رفاقى فى مدرسة نيالا الوسطى ، ولكنه رفــض ذلك باصرار ، ولم تفلح محاولاتى كلها فى اثنائه واقناعه برغبتى التى لاتقاوم ، فقــد كان ابى مـــن ذلك الطـــراز الذى لايتراجع الا بتأثير جد عظيم .

وكان فى الحاضرين الشيخ الطيب أبو قنايه!! وهو أحد علماء السودان الاعلام تربطنا به أصرة القربى والرحم ، يقيم بمدينة (ودمدنى) ويقوم بالتدريس فى معهدها العلمى العتيق ، وله بين اضرابه وتلاميذه ومعارفه مكانة ســامقة ، كان وقتها فى زيارة لمدينة ابشــى أثناء طوافه وجولاته المختلفة . وليس بدعا أن تشرف دار ابى باستضافته والحفاوة بمقدمة فقد احتفلت المدينة باسرها بوصوله وتقاطر على مجلسه العلماء والتجـــار والأعيان ، واصبحت حلقات درسه محافل تعج بالمريدين والأتباع وطلاب العلم والمعرفة الدينية الحقه ، فالشيخ الطيب أبو قناية بحر من العلـــوم والفيـــوض .

كان ابى يجل قريبه الشـــيخ الطيب ويكـــبره اكبارا لامزيد عليه ، يأتمر بأمره وينتهى ، وهو فى ذلك لايختلـــف عـــن الآخرين.

أشار الشيخ الطيب بالحاقـــى بمعهد امدرمـــان العلمى الحديث بعد أن أوضح بان مناهجه خليط متناغم من علوم الدين واللغة العربية والعلـــوم الحـــديثة من رياضيات وجغرافيا وتاريخ ولغة انجليزية وغيرها فلم يتردد ابى لحظة فى الموافقة والقبول وارتأى الشيخ الطيب أن اصحبه فى رحلة عـــودته الى مدينة ود مـــدنى ، لاقضى شـــهرين بمعهدها الدينى ريثما تبدأ الدراسة لعام جديد بمعهد امدرمان ، ووعـــد بمرافقتى ومباشرة اجراءات إلتحاقى بنفسه فى الوقت المعلوم ، وتساءل ابى إن كان بالمعهد داخلية أم لا ، فتبســـم الشيخ الطيب وطمأنه أن اقامتى ستكون مع شقيقه محمد الحسن أبو قناية ولـــه ابناء فى مثل سنى طلاب بنفس المعهد .

وافق ابى على ما ساقه قريبة الشيخ الطيب أبوقناية واهتز عطفاه بالشكر والعرفان ، ثـــم زودنى بفيض من الحب والنصائح الغالية والمـــال اللازم ، وعاد ليزاول تجارته وحياته آمنا مطمئناً بعد أن ودعنا على مشارف أبشى .

وبدأت الرحلة ، وكان الشيخ الطيب قد رتب مراحلها وفق برنامج جولته بين مدن وأقاليم السودان الغربية ، ورأى ان نتجه أولا الى مدينة الجنينة لنبقى بها بضعة أيام ثم نغادرها الى مدينة الفاشر ثم النهود وبعدها نرتحل الى « الابيض » ، قبل تحركنا الى مقر اقامته فى ود مدنى .

كان المال الذى زودنى به ابى يبلغ مائتى جنيه !! وهو مبلغ كبير فى ذلك الزمان من حيث القوة الشرائية للعملة ، بل كان نصف الالف من الجنهيات مثلا يضرب لمن يدعى الغنى والثراء .

حاول عمى الشيخ الطيب الاعتراض على حجم المبلغ بحجه انه قد يكون مفسدة لمن هو فى مثل عمرى ، ولكن ابى لم يتراجع وطلب منى ان أنميه عن طريق التجارة ما استطعت الى ذلك سبيلا ، فهو يعتقد اعتقادا جازما بان التجارة الحرة النزيهة هى أقصر الطرق الى الدين الحق والخلق الكريم ، كيف لا وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم تاجرا عفيفا ومثلا يحتذى فى العالمين ، ورغم اقتناعى التام بصحة آراء أبى وتطرفه لمهنته والدعوة إليها سبيلا للنجاح فى الدنيا والفلاح فى الاخرة ، فقد كنت فى قراره نفسى موقنا انى لم أخلق للتجارة ، ومع ذلك فقد مارستها مرغما . غادرنا مدينة الجنينة بعد اقامة عشرة أيام حافلة الى مدينة الفاشر حيث نزلنا من جديد فى ضيافة العم عبد الرازق التويم ، فأصبحت داره قبلة المريدين والطلاب والأعيان من رجال المدينة ، فاهتبلت فرصة وجودى بالفاشر وانصراف الشيخ الطيب لمهامه التقليدية ، وخرجت احمل مبلغ المائتى جنيه وقد اختمرت فى عقلى فكرة لم أقو على مدافعتها ، فاشتريت كمية عظيمة من «التمباك» وارد شنقل طوباى ذى الشهرة الضاربة ، واتفقت مع سائق العربة التى ستقلنا على ترحيله ، وابقيت امره طى الكتمان فلم أفصح لاحد من الناس بانى صاحب هذه البضاعة الكريهة وخاصة الشيخ الطيب والذى اعتزم العدول عن السفر وهو يفاجأ بصحبة هذا المكروه ولم يرجع عن ذلك الا بعد جهد بلغ مداه منى ومن سائق العربة المغوار ، بيد انه ظل طوال الطريق ، وكلما حملت الرياح رائحة التمباك وازكمت بها الانوف ، يتحوقل ويسخط ناصحا من حوله بعدم حمله وتعاطيه والاتجار فيه وصب جام علمه عليه ووصفه بانه رجس من عمل الشيطان وضار بصحة الابدان والاديان !! .

واستطرد فى الحديث قائلا « إن كل شىء يبتاع بالمـــال يجب أن تكون له منفعة مباشرة أو غير مباشرة ، وكل شىء تأكد ضرره المباشر أو غير المباشر من طعـــام وشـــراب ومتاع يكره الاتجار فيه وشراؤه وتثبت حكمة الكراهة فى حال الظن والتغليب والتمباك من قبيل ذلك .

وصف الشيخ الطيب التبغ بانه طعام الشياطين ! ! إذ أن الشيطان مخلوق من نار يطعم مايتولد عنها من لهب ودخان ، ولعله كالبشر ينزع إلى التنويع فيما يأكل ويحفظ عليه حياته ولكل طعام مادته ومذاقه ونفعه ، ومـــن ثم تدفع الشياطين بنى البشر لزراعة التبغ وغيره من المحروقات المختلفة رغم ضررها الذى لاينكـــر بالمال والصحة والدين .

ولما كان الشيطان للانســـان عدواً مبيناً ، فانه لاينى يغـــوى الناس ويعمل عـــلى اضعافهم ، وقـــد حض النبي «صلعم» على صحة النفس والبدن حين قال (المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف) وبقدر مايكـــون ضرر الإنسان وضعفه باتخاذ البدع مـــن تبغ وسواه تكون متعة الشيطان وسعادته ، وكلما أمعن البشر فى التأثير عـــلى قوى العقل بانواع المسكرات والمغيبات من خمر وحشيش وافيون ، زاد حظ الشيطان من الغواية والتضليل ومن ثم كرم الله العقل ، وحصنه الدين بسياج متين من المحظورات ، لتبقى للعقل حرمته وقداسته وسيلة لادراك الحق واتباعه ومعرفة الباطل واجتنابه .

كان صوت الشيخ الطيب وحديثه عن التمباك لاينقطع والعربة تطوى السهـــول والقرى والوديان وكأنه يريد ان يقتل الوقت بما يفيد ، وظل يبغض الناس فى تلك البدع والضلالات مستشهداً عليهم بانفسهم وبما جاء به الدين وماكان عليه الاسلاف من الصالحين . واسترسل فى الأمر مبيناً ان أهل التقوى والورع هم أكثر الناس تباعداً عن حبائل الشيطان ولهذا ينفرون من التدخين وتعاطى التمباك نفورهم من الخطايا والآثام وكافة المعاصى .

حدث الشيخ الطيب عما كان عليه الإمام المهدى وخليفته ، من تشديد وكراهية لهذه العادات الضارة ، فلما دعـــا المهدى للاسلام الحق ، جاءت دعوته إلى نبذ المنكرات والضلالات والبدع مما كان قائماً فى الحياة خلال العهود الماضية وحتى ذلك الحين ثوره على الحياة الإجتماعية الحافلة بامثال تلك الشوائب ، ومن جراء تلك الحرب التى شنها اولو الأمر فى دولة المهدية على الممارسات الفردية والجماعية عانى بعض الناس عناء مراً وبلغ

الأمر بهم حد العصيان والردة إلى سابق ماكانوا عليه من تحلل وعادات ، وحفظ التاريخ طائفة من المواقف والأشعار والأحاديث التي تشير إلى معاناه ذوى الرقة فى الدين التواقين إلى حياة الانطلاق من اسار تعاليم المهدية الصارمة :—

كان حديث الشيخ الطيب عن التبغ والتمباك يصيبني بالجزع والرهبة وهو لايعلم أني صاحب تلك الشحنة الموبقة ! ! فما يكون موقفه إذا علم ان طالب العلم الذى فى معيته هو الآثم الزنيم ؟ !

حططنا رحالنا بمدينة « النهود » حسب برنامج الشيخ الطيب لزيارة تلك الاصقاع ، وانطلقت العربة بما عليها من بضاعتى الآثمة إلى مدينة (الأبيض) وكنت سلمت السائق خطاباً للعم الحاج أحمد المامون اخبرته فيه بسعر التمباك والنولون ورجوته ان يعمل على تصريفه بالسعر الجارى عندهم على ان يحتفظ لنفسه بنسبة من الأرباح وتمثلت فى ذلك صورة أبى وما يفعل فى مثل هذه الرسالة والظروف ، وذلك بعض ماكسبته من خبرة .

استعادت نفسى رباطة جأشها وطمأنينتها عندما اخذت العربة تغيب عن الانظار شيئاً فشيئاً ، بعد ان جاز امر الشحنة على الشيخ الطيب واصبح طى الكتمان ، وكما جرت العادة ، قضينا فى مدينة النهود أياماً حافلة بالاكرام والحفاوة البالغة ، ونثر الشيخ بعض مافي كنانته من علم غزيرعلى الواردين حياضه المترعة ، فانتابنى شعور غامض بان العلم أمر مطلق لاحد له ولانهاية وان الناس لو انفقوا حياتهم كلها فى تحصيله ما احاطوا بأيسره ، ومن الخطل تشبيهه بالبحر فالبحار مهما عظمت لها سواحل تنتهى إليها . أما العلم فشيء آخر تكتشف القرون والاجيال بعضه ، ويبقى أكثره في حجب الغيب ارثا للبشر.

لقد هز الشيخ الطيب قناعتى بطلب العلم غير عامد ، إذ كيف يروم الإنسان شيئاً لايدركه؟ ثم ذكرت الحكمة القائلة بان ما لايدرك كله لايترك كله . فامتلأت نفسى عزماً واقبالا على منثور علم الشيخ بين الراغبين ، ومرة أخرى عدت أفكر فى الأمر على وجه مختلف ، وخلصت إلى قناعة سابغة وجهت خطاى وهى انى لم اخلق قط لطلب هذا اللون من العلم الدينى وكل ميسر لما خلق له .

الفيتنى منساقاً مع دروس الشيخ الطيب واشراقات روحه وفكره اسمع مضطراً وأحاول فك

رموز العبارات وطلاسم المقولات فلا افلح. وليس الأمر على وجه الاطلاق، فقد كان يترسب فى حافظتى شىء وتفوتنى أشياء ، وعزائى فى ذلك انى أمضى لغاية غير التى بين يدى ، إذ تعلقت روحى بعلوم المحدثين من حساب وتاريخ وجغرافيا ولغة انجليزية وهذا ما أنا مقبل عليه فى معهد أمدرمان العلمى الحديث، وقد مهرت هذا التوق بكثير من التضحيات.

ثم القينا عصا الترحال من بعد فى مدينة الأبيـض، وعلى مجرى العادة كان نزولنا بدار العم الحاج أحمد المامون ولم يكن ساعة وصولنا موجوداً ،قيل لنا أنه مازال بدكانه انئذ ، فحمدت الله تعالى على ذلك إذ كنت أخشى ان يفاجئنى فى حضرة الشيخ الطيب ويكشف المستور بصورة عفوية، فخرجت للقائه بعيداً عن الشيخ وبصره ، فلما بلغت دكانه خبرنى احدهم انه سمع بمجيء ضيفه الكريم من سائق العربة فذهب للقائه والحفاوة بمقدمه السعيد ، فاسقط فى يدى ، وعدت مهرولا يساورنى الخوف والقلق حتى بلغت الدار ، ثم اندفعت إلى الصالون لاهثاً زائغ النظرات و« ياللهـول » ادركت حشداً من الناس يتوسطهم الشيخ الطيب وإلى جانبه مضيفه الحاج أحمد المامون ، ونظر إلى جمعهم فى وجوم وصمت زلزل ماتبقى بنفسى من عزم وقدرة وأمل فى انقاذ مايمكن انقاذه ثم انتهرنى الشيخ الطيب موبخاً وزاجراً ومستنكراً ما اتيته من تجارة محرمة وفعل منكر ربلغ به الغضب منتهاه فلم يحفل باعتذارى وانكسارى واصر على اعادتى إلى أبى باعتبارى أمانة وبضاعة تالفة لاتصلح للعلم ولن يصلحها العلماء ! ! وحاول بعض الحاضرين وعلى رأسهم الحاج أحمد المامون مراجعة الشيخ فيما اعتزم ، ولكنه لم تلن له قناه وبقى على رأيه لايتزحزح قيد أنملة . عندها تعهد رب الدار بالعمل على تنفيذ رغبة الشيخ وارجاعى إلى أبى فى مهجره خارج البلاد .

ولم يفل قرار الشيخ عزمى على استرضائه ، وبقيت اخدمه وأقوم على أمره كما كان الحال من قبل ، اتصيد سوانح الظروف ولحظات بشاشته لاكرر الرجاء واعد بالتوبة النصوح من كل أمر قبيح ، ثم تنصلت عما بدر منى من فعال زاعماً ان المشئية تقود خطاى وتوجه مصيرى ومسيرى فى الحياة. وقطعت الوعد بترك التجارة حلالها وحرامها والانقطاع للعلم دون سواه ولتأكيد ذلك عرضت عليه ان يحتفظ بالمال فى حوزته ويرقب تصرفى فيه عن كثب ، واقترحت ان يكون هنالك دفتر خاص (للاستجرار) اسجل به ما آخذ من مالى عنده بالقدر الذى يكفى حاجتى ولايعرضنى للاغواء والشبهات، كان

منطقى فى ايراد ذلك وغيره مدعاه للسخرية والضحك وأنا فى تلك السن المبكر اخاطب رجلا فى مكانة الشيخ الطيب ، ولعل ذلك ماجعله يوافق ويتسلم المال ، وكان قد بلغ مائتين وخمسين جنيهاً بعد اضافة ارباح التمباك، وأذكر أنه ربطه فى منديل أحمر وأودعه جيبه، وبذلك انفرجت الأزمة الخانقة التى كادت تذرو آمالى ادراج الرياح .

ثم اقلنا القطار إلى مدينة (ود مدنى) وكانت فرصة مواتية لاعرف المزيد عن عمى الشيخ الطيب وصلة القرابة التى تربطنا به ، ولما كنت مقبلا على الحياة فى كنفه حيناً من الدهر فقد شرع يحدثنى عن فروع اسرته بالمدينة ، فعلمت ان له ثلاث زوجات ويطمع ان يزيد !! وله من زوجاته ابناء وبنات كثر ، وكان شديد الاعتزاز بابنه الاكبر (الأمين) الذى ارتوى من علم ابيه فاصبح اليوم قاضياً شرعياً له مكانة بين ذوى العلم والحجا والناس جميعاً . وكان أبوه يتمثله صورة مصغرة له ، لامن حيث الشكل وحده ، ولكن فى الخلق والسلوك والطباع أيضاً،ولعل ذلك مكمن تلك الرعاية الفائقة التى اسبغها عليه حتى غدا خليفته على اسرته واتباعه ومريديه فى قابل الأيام.

كانت وسيلة الشيخ للتنقل بين فجاج المدينة هى الحمار ، فلم تكن العربات على مثل كثرتها اليوم، فاحتلت الحمير مكانة عظيمة بين وسائل النقل يومئذ . ولكن حادثات الليالى أودت بتلك المكانة مع ازدياد وتنوع وسائل المواصلات ، وفقدت الحمير ذلك المجد الموروث.

فى اليوم التالى لوصولنا المدينة صحبت الشيخ الطيب راجلا وهو على ظهر حماره يتوقف حيناً لتلقى التحية من السابلة والمعارف العديدين، ثم يستحث حماره لاستكمال جولته بين الاحياء،وتولى خلال ذلك مهمة تعريفى بأرجاء المدينة ومعالمها التى تصادفنا عرضاً فى الطريق.

قصدنا زيارة مكتبته الشهيرة بمنطقة السوق ، وكانت مكتبة تجارية تؤمن له دخلا طيباً ينفق منه على هذه الفروع الممتدة من ظهره فى الانحاء ، فهى وسيلته الأساسية لكسب العيش والقيام باعباء حياته وما أكثرها ، ثم مضينا إلى الجامع الكبير مقر المعهد العلمى بمدينة (ود مدنى) فاقبل عليه الشيوخ والطلاب يتدافعون لتحيته والاحتفاء بعودته إليهم .

وتنفيذاً لرغبة الشيخ الطيب فى الحاقى بالمعهد ريثما يفتتح رصيفه فى أمدرمان

عقد لى امتحان شفوى وتقرر قبولى بالسنة الثانية الوسطى ، لاقضى بهـــا فترة شـــهرين تبقيا مـــن نهاية العام الدراسى ، فانتظمت من ساعتى فى حلقة الفصل باحد اركان المسجد ، وتخيرت موقعاً بين الطلاب قريباً من نافذة تطل على الشارع ، وبدأ الشيخ آدم ، وهو رجل كفيف البصر — درس الفقه من كتاب الشيخ الصفتى ، ودوى صوته الرخيم فى الاذان :
— بسم الله الرحمن الرحيم — الحمـــد لله رب العالمين ، والصـــلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، قال المؤلف رحمه الله ونفعنا بعلمه آمين .. قال ....

وتفحصت وجوه الطلاب مـــن حولى ، كان بعضهم يستمع ويسأل فى حمـــاس وتجاوب وايجـــاب ، والبعض فى فتـــور وســـلبية وانصراف ، ينتظرون بفارغ الصبر ان ينطق الشيخ بتلك العبارة المحببة إليهم والتى تعنى نهاية الدرس وهى «والله اعلم» ! ! أما أنا فقد اعتمدت بظهرى على عامود المسجد وسرحت بفكرى وخواطرى بعيداً ، وأخذت استرجع صوراً لذلك الجهاد مـــن أجل العلم الذى كلفنى كثيراً من العناء ، ثم امعنت النظر فى الواقـــع ، وذكرت أمى وشقيقتى فاطمة وأبى شريداً خارج القطر ، وأنا فى فى هذا المكان بعيداً عن الجميـــع .

توثقت العلاقة فيما بعـــد بينى وبين زملائى فى الفصل الثانى ، وكانت على اشدها وأقواها مع اثنين منهم خاصة ، وهم أحمد خليل وود القمر تميز أحمد خليل بالذكـــاء والاجتهاد فى تحصيل العلم ، وتعرض بحكم نشأته ومجيئه من غرب السودان لمداعبـــات رفاقه وسخريتهم منه ، فكان يقابل ذلك بروح ســـمح وسخرية أعظم لاتقف عند حد الطلاب بل تشمل اساتذتهم وكافة أهل البحر ودار صباح ، كنا نتحلق حوله عند نهاية الدرس وهو يعيـــد ما كان من أسئلة الطلاب واجاباتهم ويحكـــم لها أو عليها باســـلوب مازح وذكاء وفير ، واقتعد منا مقعد الاســـتاذ بما كان له من جد وبصيره نافذة ، فهو يستخرج من ثنايا المتن والشروح اسراراً غامضة واحكاماً خفية ، فكنا نراه والحـــــال كذلك فى منزلة بين المنزلتين ، منزلة الطـــالب ومنزلة الشيخ ! ! فنتفق معه حيناً ونخالفه احياناً ، وفى جو من الدعابة والسخرية والتندر بالآخرين كنا نراجع معه الدروس ونزداد كيل علم واستمتاع بالحياة . أما الصديق الثانى (ود القمر) فهو اسرع الناس خاطـــراً

واكثرهم ظرفاً واطولهم لساناً ! ! لايتحرج ولايتحفظ من شـيء ، وكنا نحب فيه ذلك ونألفه منه، فهو واحة فى هجيرجد العلم وشظف الحياة في أروقة المعهد، يفتح لنا من ابواب اللهو مانعجز عنهـا ويمـلأ نفوسنا المجدبة بفرح غامر ومراح عظيم ، وهو إلى ذلك شديد الايمان ذو نزعات صوفية غريبة ، تخرج به احياناً عن اطواره وترده زاهداً متقشفاً يأخذ نفسه بالشدة ، ويفرض عليها الحرمان والنصب .

تملكنى حنين جارف إلى دفء عاطفة الامومة ، فارسلت رسالة إلى أمى وشقيقتى فاطمة اخبرهما فيها بوجودى فى مدنى . فكانت زيارتهما لى حدثا سـعيداً هز مشاعرى بعنف وقوة، إذ شهدوا معى ظهور نتائج الامتحان، وقد جاء ترتيبي فى المركز الثانى مفاجأة للجميع بينما احتل صدارة الفصل أحمد خليل واقتعد ود القمر مكانه فى المركز الثالث بعدى.

سعد الشيخ بما احرزته مـن سبق ونجـاح ، فاصطحبنى وهو يحمل النتيجـة إلى أم درمان حيث جعل مقامى لدى اخيه محمد الحسن بمنزله فى حى المسالمة ، ورحب بمقدمى أبناؤه عمر وعلى وعثمان ، ونشأت بيننا أواصر صداقة متينة بغير جهد ولاتكلف. وتم قبولى بالصف الثالث فى المرحلة الوسطى بمعهد أمدرمان الحـديث، وتمكن الشيخ الطيب مـن تذليل حاجز اللغة الانجليزية فاقنع الشيخ محمـد الهادى وكان على رأس الإدارة — باننى ساتلقى دروساً خاصة فى اللغة الانجليزية بمعهد (سوميت) بالموردة ، ووافق مدرس اللغة الانجليزية بالمعهد الاسـتاذ على بابكر على ذلك الاقتراح ، وبالفعل استطعت بشيء مـن المثابرة والاهتمام بامر اللغة الانجليزية ان الحق بركب اقرانى ومحصولهم فيها ، وبدا ذلك جلياً خلال امتحان النقل إلى الصف الرابع .

فاجأنى الشيخ الطيب قبيل عودته إلى ود مدنى لحظة الوداع بان اخرج ذلك المنديل الأحمر الذى أودعه مبلغ المائتين والخمسين جنيهاً التى تخصنى ،وقبل ان يفتحه ليعيـد إلى الامانة عاجلته بالقول ان جملة المبالغ التى استرجعتها منه وهى مرصـودة بالتفصيل فى دفتر خاص تبلغ عشرين جنيهاً ! ! وكانت يؤمئذ مبلغاً يؤبه له ويعتنى بآمره ! ! فرمقنى الشيخ بنظرة عاتبة ، وفتح الصرة وكان بها نفس المال الذى سلمته أياه فى الأبيض بالتمام والكمال ، فلما وضعه بين يدى، اعدت له عشرين جنيهاً وفاء لما أخذت منه خلال الفترة الماضية ، ولكنه تراجع عن قبولها غاضباً وقال :—

باقى ليك ياولدى — أنا ماشى ادخل على مال التمباك ده ؟! أنا برضــو أبوك والقروش الشلتها منى اعتبرها مصاريف من والد لى جناه ، والحقيقة أنا ماكنت بخصـم منك حاجة ، بس كنت دايرك تطلب احتياجاتك منى بدون حرج .

كان موقفاً مؤثراً بقى محفوراً فى ذاكرتى إلى اليوم ، تجلى فيه كرم الشيخ الطيـب أبو قناية وانسانيته المفرطة ، كمـا تجلت من قبل آيات صـلاحه وكرامته فى كثـير من المواقف ، وقد شهدت طرفاً منها ولكنه امرنى بكتمانها عن الناس ، ومازلت امتثل لرغبته رحمه الله وطيب ثراه ونفع طلابه ومريديه بعلمه وعظيم ارشاداته الباقية .

اشـعل المعهد العلمى بامدرمان جـذوة وعيى بحقائق الحياة من حولى بصـورة لم يسبق لها مثيل ، وجاء ذلك مواكباً لمرحلة من عمرى جاوزت فيها الصبا إلى بواكير الشبـاب ، وتنازعتنى خلالها رغائب الحياة والجسـد ونزعة قوية لاحتذاء الاشياخ فى سعة علمهم وسلوك طريقهم القويم ، فقد كان المعهد منارة للامة فى ليل القهر الاستعمارى البغيض ، حيث انيط به مهمه حفظ العقيدة من جهالات المدنسين ، وحفظ اللغة العربية كلسان ووعاء للفكر وآصرة للانتماء من خطر السياسات الاستعمارية الرامية إلى إلى فصم العرى بين أبناء البلاد وجذورهم ومنابت فكرهم الأولى .

لم تكن هناك غير قلة مـن طوائف المجتمع السـودانى تدرك عظمة الـدور الذى يضطلع به المعهد فى تغذية وجـدان الأمة الروحى وحفظ لسانها من العـوج ، بينما سخر الاكثر . من انخراط المعهديين فى نوع من التعليم لايؤهـل صاحبه لتقلد الوظائف الهامـة فى دواوين الحكـومة ، ولا يؤمن لهم طريق الحياة الكريمة كغيرهم من الخريجين أ فندية فى عصرهم الذهبى الغابر ! ! وقد جاءت ثالثة الاثافى لذلك المركب المأساوى من بعض طلاب المعهد أنفسـهم ، فالى جانب أبناء الأسر المؤمنة بضرورة العلم الدينى لبناء الانسـان والمجتمع والحـياة الفاضلة ، تبنى المعهد زرافـات من عاثرى الحظ الذين أوصدت دونهم أبواب التعليم العام فى المراحل الوسيطة ، فجاءوا يواصلون مشوار العلم حيثما اتفق ! ! وكـانوا بالحق مظهرا للتمزق والاحـباط وإنعكس ذلك على سـلوكهم وملكات الاستيعاب فيهم ، فخرجوا للحياة من غير هوية ولاانتماء .

وفى أروقة ذلك الحرم العتيق ، تشعبت بنا المســالك وفرقت بيننا الميول، فتحلق كل جماعة منا حول آصره من القيم أو الخلق أو السلوك . فكنت ترى ذوى الجد والهمة العالية فى تحصيل العلم يتباعــدون عن أولئك الزاهدين ، وينكرون عليهم كثــيرا من الممارسات !! بينما يســخر هــؤلاء من الاولين وعنايتهم بالعلم وجهلهم بالحياة !! .

كنا فريقاً يأخــذ من كــل جماعة بطرف ، فلم نزهــد فى العلم ، ولم ننس نصيبنا مــن الدنيا ، يتزعمنا الاعلامى الكبير « حمدى بولاد » أو حمدى عــوض الله كما كنا نســميه وقتئذ ، وذلك قبل أن يشتد عــودة ويصبح بولادا !! وقد تمــتع — وهو بعــد فى المرحلــة المتوسطة — بموهبة القارىء المتمكن من ناحية اللغة ، ذى الصوت القــوى المعبر الأخــاذ ، حيث كان يستقروه أشياخنا الدروس المقررة فى بطــون الكتب الصفراء، ويستوقفونه بين الحين والحين للشرح والتعليق وتفصيل ما هو مجمــل . وكان حمدى جرئياً مقداماً على قــدر من الذكاء والشيطنة ، وذلك ما أهله للزعامة فينا رغم أنه يصغرنا حجماً ولايكبرنا سناً !!

انتقلت إبان دراســتى بالمعهد العلمى من الإقامة بمنــزل العم محمد الحسن أبو قناية لاقــيم بمنزل العم المرحوم موسى شرونى جوار السوق، حيث يقيم نفر كبير من طلاب المعهد العلمى بامدرمان، كان الرجل أحد كبار المحسنين فى المدينة،وداره أشبه بخلاوى رجال الطــرق الصوفية يأوى إليها طلاب العلم وعابرو السبيل من كل فج عميق، وهو موسر أفاء الله عليه من تجارة الذرة قدرة على مواجهة دواعى الاحسان والرغبة فى إتيان الخير والمكرمات. فبسط جناحى رحمته على كل محتاج ومعدم ومكروب،يقدم لضيوفه والمقيمين بداره من الطلاب المأوى والمأكل والمشرب والنصح فكنا نطعم عنده عصيدة الــذرة بما تيسر من الادام ، وغلب على وجــبة العشاء خاصة أن تكون (بليلة) من الــذرة أو اللوبيا العدسى أو غيره ، ولم يكن إحســانه الى ابنائه الطــلاب قاصراً على ذلك فحســب ، بل درج على تقديم المســاعدة كيفما كانت لمــن يحتاجها منهم .

وكان العم موسى ممن يجهرون بالتقــوى والورع والتزام حــدود الله ، ويحرص كثيراً أن يرى الناس منه ذلك، جــرت عــادته أن يبــدأ يومه فى بهمة الليل والثلث الاخير منه ، فيصحو ويردد الذكــر والدعــاء جهرة وهــو يتنقل فى جنبات داره

العامرة ، ثم يخرج على أضيافه وابنائه الطـلاب فيوقظهم صائحا بذكر الله وحمـده ، داعياً أياهم للعبادة والتسـبيح وقراءة القـرآن ، فـاذا طلع الفجـر أقام الصـلاة بصوت مجلجل يبلغ جيرانه من أهل الحى ، حتى إذا قضيت الصلاة رفع عقيرته بالنداء حاثاً على قراءة القرآن جهراً ليتردد صداه فى الآفاق ، وقد جعـل العم موسى شرونى قيام ثلث الليل الاخير وقرآن الفجر والصلاة شرطاً محتوماً لايأتيه العذر من بين يـديه ولا من خلفه للاقامة والعيش فى كنفه ، وكل من يفرط فى شىء مـن ذلك يضع بيده حـداً لوجوده فى الدار ، فلا يتردد أو يتحرج العم موسى من طـرده غير مأسوف عليه فى العالمين ، واصفاً إياه بأنه من أولياء الشيطان الرجيم والعـياذ بالله .

ومن عجب فقـد كـان الرجل أمياً يجهل القراءة والكتابة ! ! ورغم ذلك له ذخيرة وافـرة مـن علم ، وتوق جـارف الى المزيد ، فقد درج على اداء فريضـة العصر بالجامع الكبير ، لينتظم بعدها فى حلقة العالم الجليل (الشـيخ على أدهم) وهى حلقة ذات شـهرة ضاربة واثر عظيم ، وفيها اسـتوعب العم موسى كثيراً من أحكام الشـرع والعلم الربانى ، وشحذ بذلك خلة الاحسـان التى تزينه فى الناس ، وادرك به همة عالية فى الذكر والسلوك ، فانطلق فى الحـياة موسوماً بكل كمال .

كان يلذ للعم موسى شرونى أن يجادله أحـد فى أمـور الدين ، بل يتصيد لذلك السـوانح والفرص ، فان لم يجد الى ذلك سبيلا ، حور دفـة الحديث بذكاء ليلقـى بما عنده من علـم لايشير لمصـدره أبداً ! ! فاذا خاض من يجادله فى لجج العلم البعيدة وأظهر مقدرة لاترام فى بسط الامور والتدليل على صحتها ، وصمه العم موسى فى دعابة مفتعلة بالجهـل والقصور واللجاج ، فهـو — برغم ما يبدو عليه من حزم وصرامـة أسرع الناس خاطراً ، وأقواهم عارضة ، واظرفهم نكتة ، وأطولهم لسانا ، وأعظمهم دعوى .

وشأن أضرابه فى ذلك الزمـان ، كان العم موسى يختزن مـن العلم والحكمة وقصص الاولين قـدراً عظيماً يتصدر به المجالس ويمتلك ناصية الحـديث ، ويجـد فـى ذلك متعـة كـبيرة وسـعادة بالغة وزهواً لايحـد ، وبقدر ما كان يجاهـر الناس بصـلاته وعلمه وقراءة القرآن ، ظل يتكتم احسـانه فيهم حتى على نفسـه فـلا تدرى يسـراه مامنحت يمناه من صـدقة أو نوال ، اللهم الا ما لاسبيل لاخفائه

كايـوائه لاولئك الطـلاب وإعالته لهم بغـير مـن ولا أذى ، أعـرف للرجـل كثيراً من أعمال البر التى كان يجهد فى إخفائها، ويحلو له أن يسميها بالتجارة التى لاتبور.

ألا رحم الله العـم موسى شـرونى ، ذلك الذى عاش زاهـدا يكره السـرف والتبذير الا فى وجـوه الخير ، فكثيراً ما كان يردد القول بأن الترف منبع الشـر ، يملأ القلـوب أحقادا وضغائن ، ويورث الخوف والبوار ، ويدفع اصحابه الى جحود الحق وانكار الشرائع ، فما وقف فى طريق الرسالات السماوية وما عارضها الا المترفون.

أبان دراستى بالمرحلة الوسطى بمعهد امدرمان العلمى الحديث، أصبحت كغيرى من الطلاب يومئذ من رواد المكتبة المركزية بامدرمان . وكانت صرحاً ثقافياً شاهقاً فى المدينة، يتدافع المتعلمون حوله بالمناكب! ويتسابقون على جنى قطوفه فى صراع جد نبيل، فقد وفر القائمون بأمر المكتبة نفائس الكتب والمراجع والدوريات التى تحوى ضروب العلم والفن والأدب، وكنا نجد متسعاً من الوقت للاطلاع والقراءة الدؤوب، فنزداد كيل علم ومعرفة.

كان ذلك النشاط هو بداية وجدانى الأدبى ، اكتسبت — من خلاله — توجهاً جديداً، ففى رحاب المكتبة المركزية العامرة بكل صنوف الفكر والمعـرفة نشأت علاقتى الروحية بجورجى زيدان مؤسس (الهلال) وهو رجل عصامى الثقـافة واسع الخيال ، توفر على دراسة التاريخ الاسلامى، والف فيه طائفة من الكتب القيمة والروايات العظيمة ، مؤلفاته في تاريخ التمدن الاسلامى فى طليعة المؤلفات العصرية فى هذا الجانب، وله فضل لاينكر فى اثراء فكر ذلك الجيل والاجيال اللاحقة . . فاعتقادى ان خير مانحكم به على كاتب من الكتاب هو معرفة ماتركه فينا من المركبات الذهنية .

وحين أعود بذاكرتى إلى الوراء، اتلمس البذور التى شكلت ثقافتى وحصيلتى من العلم اليوم ، الفيها كلها تعود إلى تلك الفترة الخصيبة الممرعة من مراحل العمر ، حيث تغذت افئدتنا بحصاد الفكر والابداع لكوكبة من اعلام المفكرين والكتاب قديماً وحديثاً ، مثل كتاب (كليلة ودمنة) لابن المقفع ومؤلفات جبران خليل جبران وروايات على أحمد باكثير واطروحات العقاد واشعار المتنبى وملاحـم العباسى الروائـع إلى غير ذلك من المترجمات والمجلات الدورية والصحف السيارة .

وكان لنا ولع عظيم بالادب والشعر خاصة، وحظى منا الشاعر السودانى الفذ (التجانى يوسف بشير) بالاعجاب والاكبار والولاء . فهو الى جانب عبقريته وطلاوة شعره ومأساة حياته ابن المعهد الذى ننتمي اليه وبلبله الصداح الحزين، من ثم كان خليقاً بتعصبنا له واحتفائنا بذكره وشعره وفخرنا على الناس بنشأته فى هذا الصرح العظيم معهـــد امدرمان العلمى .

وقد نشرت في قابل الايام بحثــاً عن معهد أمدرمان العلمى وآخـــر عـــن الشاعـــر التجاني يوسف بشير احد طلابه النابغين أودعتهما حافظة كتابى « قبس من الفكر والتاريخ » ولعل في الرجوع اليهما تكملة لصورة هذا الموقف على درب الزمان ،


على درب الكنانة
وزخم الذكريات

* ١٠ *

رسمت عـلاقة بريطانيا ومصر بالسودان من خلال اتفاقية الحكم الثنائي في يوم ١٩/يناير ١٨٩٩ م بعد كبوة السودان في معركتي (كررى) و (أم دبيكرات) فوقـع المعاهدة بطرس غالى عن مصر واللورد كرومر عن بريطانيا العظمى ! !

ثم أنتقص حق مصر في السيادة على السودان بعد اغتيال (السير لى استاك) سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام بأيدى غلاة الوطنيين في القاهرة نوفمبر ١٩٢٤ م حيث اتخذت بريطانيا من هذا الحادث ذريعة للتغول على حقوق المصريين في اتفاقية الحكم الثنائي ، بإخراجهم من السودان والانفراد بحكمه والهيمنة عـلى شـئونه ولكن الوطنيين بزعامة (سعد باشا زغلول) رفضوا هذا الاجـراء رغم خضوع وموافقة الملك فؤاد عليه . وسافر (سعد زغلول) الى لندن لمفاوضة (رامزى ماكدونالد) رئيس حكومة العمال آنذاك،وجاءت مسألة السودان فى مقدمة نقاط التفاوض بين الطرفين، وأعلن سعد زغلول تشبث مصر بالبقاء فى السودان ، بل ذهب الى المطالبة بان يكـون السودان تحت التاج المصرى وان يحمل صاحبه الملك فؤاد لقب (ملك مصر والسودان) وكان ذلك حلما تحطم على صخرة الطموح البريطانى فى امتلاك المستعمرات والاستزاده منها، فرفض الانجليز مطالب المصريين رفضا مشوبا بقدر من السخـرية والانكـار. ورجـع الوفد المصرى بعد ثلاث جلسات بخفى حنين ، وكما تحطم الحلم تحطم الواقع وقدمت حكومة سعد زغلول استقالتها لاسباب اقواها المسألة السودانية وموقف القصر والحكومة البريطانية منها !!.

ثم جاءت ظروف ماقبل الحرب العالمية الثانية وحاجة بريطانيا لتهدئة الاحـوال فى مستعمراتها ومناطق نفوذها لتتفرغ لامر الحرب والصراع فى أوربا،فاهتبل المصريون تلك السانحة وطالبوا باعادة النظر فى مسألة السودان (١٩٣٦م) فتم عقد معاهدة اصـر رئيس حكومة الوفد (مصطفى باشا النحاس) ان تنص على عـودة القوات والادارة المصرية الى السودان مع الاحتفاظ بمسـألة السيادة عليه ، والتى لم تسلم بها مصر لبريطانيا فى يوم من الايام .

وقبل ان تضع الحرب اوزارها تماما، عاود الطـرفان النظـر في جملة المسـائل المتعلقة بينهما، ودارت مفاوضات ١٩٤٦م بين (بيفن) واسماعيل صدقي باشا، واظهر الاول في بدايتها موافقته المبدئية على الاعتراف بمسألة وحدة وادى النيل تحت الـتاج المصرى، ولكن الصحافة البريطانية هاجمت بضراوة بالغة مسألة الوحدة هذه واظهرت الحكومة المصرية وشعبها بمظهر المستعمر المتسلط على مصير الشعب السوداني القاصر !! الذى لايملك مصير نفسه، وطالبت الصحافة الحكومة البريطانية باصدار بروتوكل ينص على منح السودانيين الحق فى المطالبة بالاستقلال التام، وواجه المصريون ذلك بالرفض، وسقطت معاهدة (صدقي — بيفن) قبل ان توقع .

وتقدمت حكومة (النقراشى) بعريضة لمجلس الأمن فى ٨ يوليو ١٩٤٧م تطالب فيها بجـلاء بريطانيا عن السـودان واعلان وحدة مصر والسودان تحت التاج المصرى!! وجاء رد الحكومة البريطانية على تلك المذكرة على شكل خطوة عملية مناهضة للاحلام المصرية فى السودان، أعلن حاكم السودان العام فى١٩٤٨م عن تكوين المجلس التشريعى من صفوة زعماء ابناء السودان، وذلك كخطوة جادة فى طريق التطور الدستورى وتأهيل السودانيين لحكم انفسهم قبيل مرحلة الاستقلال التام عن دولتى الحكم الثنائى، فقام المجلس التشريعى رغم ما اثير حوله من شبهات — برئاسة السيد محمد صالح الشنقيطى رمنذ الوهلة الاولى واجه المجلس عاصفة من النقد والمعارضة من دعاة الاتجاه الوحدوى مع مصر، ورفض قادتهم والاحزاب التى تمثلهم الاشتراك فى المجلس، واعـتبروه مكيدة بريطانية تحاول اطاله عمر السيطرة الاستعمارية على البلاد وتخدير مشاعر الناس وفصم عرى علاقتهم بمصر. فظلت عضوية المجلس قاصرة على ذوى الميول الاستقلالية من انصار الامام المهدى وزعماء القبائل ورجال الادارة الاهلية .

لم يكتف انصار (وحده وادى النيل) بمقاطعة المجلس التشريعى والتشكيك فيه، بل سيروا المواكب والمظاهرات، وسـودوا صفحات جرائدهم فى السودان ومـصر بحملات من النقد اللاذع — والهجوم العنيف والسخرية الجارحة بغية اسقاط الجمعية، وكما اقيمت الليالى السياسية والندوات فى مراكز الفكر والاشعاع الثقافى وتجمعات المتعلمين ونهض (نادى الخريجين بامدرمان) بدور رائد فى هذا المعترك، وشهدت جنباته ملاحم

الصراع ضد الجمعية التشريعية وأعوان التطور الدستورى الذى اعلنته الحكومة طريقا الى الحرية والاستقلال، وكانت الكلمة هى السـلاح ، نثرا وشعرا جادة وساخره ، وخالدت على الايام قصائدكان لها فعل السحر فى النفوس بمزيجها الرائع من القوة والهزل والسخرية والجد كالقصيدة الشهيرة التى نظمها الشاعر محمود الفكى فى نقد الجـمعية التشريعية وفيها يقول :—

أهــل اللباس البوجا وأهــل الجبة المقلوبـة
مابعوموا عكس الموجة وجون بول بقالهم خوجة
شيخنا الكبير (مادبو) وود الامير الجنبـو
الحكم الثنائى بجبو وه'بدور له شيتن يغلـبو
« ترك » ترك الحولية ودخل الحضره السـفلية
من « تاكا » لى هدليه قـدم قبيلته هـديـة
قالوا الرئيس شنقيطى ونايب الرئيس حمريطى
فيها العريان الميطى قلبـو الحكـم برنيطى
تمساح مشارف «بارا» الفك الجنيه بـى بارا
يقمـزبـلا زمبارا والسـيرة نـاله غبارا
نسباً رواه الـراوى قـالوا الزعيـم دراوى
فى حزبه عامل حاوى وفى الانجليز متحاوى

وانجلى غبار الصراع اخيراً عن نصر مؤزر لدعاة وحدة وادى النيل،وصدر قرار بالغاء الجمعية التشريعية ، وتسريح اعضائها فى الافاق ،ثم دارت مفاوضات أخـرى بين الحكومتين المصرية والبريطانية فى مارس ١٩٥١م قاد وفد المفاوضين المصريين الدكتور « محمد صلاح الدين » وزير خارجية اخر حكومة وفدية، بينما ترأس المستر (بيفـن) جانب المفاوضيين الانجليز ، فطالب المصريون مرة أخرى —بضم السـودان الى التاج المصرى!! وفى أكتوبر١٩٥١م توقفت المحادثات بين الطرفين أثر اعلان «النحاس باشا» الغاء معاهدة ١٩٣٦م وملحقاتها والغاء اتفاقية تأسيس الحكم الثنائى فى السودان المبرمة فى ١٩ يناير ١٨٩٩م !! واصدر قانونا خاصا بالحكم فى السودان ودعا فيه الى انتخاب جمعية تشريعية أخرى تقوم بوضع دستور انتقالى للبلاد على أن تبقى الشئون الخارجية

وشـــئون الدفـــاع والجيش والعملة ليتولاهـــا ملك مصر والسودان !! وكان ذلك تحدياً سافرا للحكومة البريطانية ومن اسماهم بالاقلية الضئيلة المضللة التى تنادى بالحـــرية والاستقلال وترفع شعار (السودان للســـودانيين) !!

وقال انه ليس مـــن المستغرب وجود مثل هـــذه الاقلية وتلك الدعاوى فى الســـودان فى وجود ادارة ثنائية اسما ، انجليزية فعلا وحقيقة ، ومضى الى القول بان الانتخابات هى الفيصل فى اظهار رغبة السواد الاعظم من الســـودانيين !! وكان النحاس ينطلق فى ذلك من واقـــع التقارير والمعلومـــات التى ترد إليه وتؤكد ان غالبية أهل البـــلاد لايرتضون عن الوحدة مع مصر بديلا للمصير .

وجه الانجليز ضربتهم القاضية لشركائهم فى حكم السودان فى مارس ١٩٥٢م حين أعلن الحاكم العام البريطانى - بتوجيه من حكومته فى لندن - وردا على ماكان مـــن رئيس الحكـــومة المصرية ووزير خارجيته أعلن عن مشروع دســـتور للحكم الذاتى للســـودان وامهل المصريين حتى نوفمـــبر ١٩٥٢م ليبدوا ملاحظاتهم على المشروع ، فلم يجـــد وزير الخارجية المصرية (الدكتور محمد صلاح الدين) مناصا من الموافقـــة على استفتاء شعب السودان حول مصيره .

هنا عملت الحكومة المصرية بكل مالها من قدرة وامكانات وتأثير ونفوذ على استمالة الشعب السودانى الى جـــانب الوحدة والانصهار فى رعايا مليكها المفدى !! وفى خضم ذلك البذل الهائل فتحت مصر ابواب الازهر الشريف وغيره من مراحل التعليم الاكاديمى بالمدارس والمعاهد والجامعات لكل ابناء السودان ، واعلنت عن منح الطلاب معونات مالية جارية تبلغ فى مجموعها ثمانى جنيهات كل شهر ،وهو مبلغ كبير فى ذلك الوقت ، فهاجر الى مصر عدد عظيم من طـــلاب المعاهد الدينية فى الســـودان بعد ان كان طلب العلم فى مصر من قبل قاصرا عـــلى طلبة الدراسات العليا .

كما كان من دواعى الاغراء للطلاب يومئذ ان نفرا من قـــادة الحركة الوطنية واساطين الفكر كانوا من خريجى المؤسسات التعليمية المصرية ، على شاكلة الدكتور أحمد السيد حمد والمحامى عقيل احمد عقيل وغيرهما كثير ، ونشطت الدعاية المصرية فى جنـــوب الســـودان نشاطا مكثفا ملحوظا فخرجت أفواج أبناء الجنوب صوب مصر فى رحلات

جماعية على نفقة الحكومة المصرية ، وكان ذلك مدعاة لانشاء رواق خاص بهـم فـى أروقة الازهر التى تشرف على طلاب كل اقليم أو جهة من جهات السـودان، فاصبح بالازهر أربعة اروقة سودانية شهيرة هى رواق شمال السـودان ورواق جنوب السودان ورواق غرب السودان ورواق السنارية الذى يضم ابناء وسط السـودان واضطلعت الحكومة المصرية بهذا العبء الكبير فى ظروف داخلية حرجة ، واضطرابات سـياسية متفاقمة . فالاحكام العرفية قد فـرضت على البلاد بعد حريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢م والمصريون كلهـم غارقون فى خضم صراعات حزبية وطائفية طاحنة ، والملك ومن خلفه قـوات الاحتلال البريطانى يواجهون عاصفة من الاعمال الفدائية التى تنذر بزلزلة الأوضاع تحت اقدامهم ، فانكفأت الحكـومة تعالج ذلك الكم الهائل من المشكـلات المتفجرة، ثم كانت الثورة المصرية الرائدة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢م وبدأت مرحلة جديدة فى علاقة السـودان بمصر .

عنى قادة الثورة بمسألة السودان فى مقدمة اهتماماتهم بما ورثوا من تركة مثقلة ،ودعا اللـواء محمد نجيب والبكباشى جمال عبد الناصر زعمـاء السودان بمختلف ميولهم ومشاربهم الى زيادة القاهرة ، وذلك للتشاور معهم فيما ينبغى أن تكون عليه العلاقة بين البلدين الشقيقين ، ومايراه هؤلاء الزعماء حول مستقبل ومصير السـودان،وقوبل ذلك بترحاب عظيم من الاوساط السياسية والزعماء السودانيين بما فى ذلك الاحزاب الـتى تنادى بالاستقلال ، وسافر السيد عبد الرحمن المهدى الى مصر تلبية للدعوة، واعـتذر السيد على الميرغنى لاسباب صحية .

ودارت بين الطرفين مفاوضات غير رسمية فى جو من الاخاء والنوايا الطيبة والوضوح. وقاد وفد المفاوضين السودانيين السيد عبد الرحمن المهدى فى مواجهة المصريين بقيادة اللواء محمد نجيب. وأسفر الامر عن الاتفاق حول اعداد مذكرة مصرية سودانية بشأن السـودان ولكن نشب خلاف حول المحتويات اذ كان الجانب المصرى يرى أن تتضمن المذكرة نصا صريحا بحق مصر فى السيادة على السودان على أساس أن هذه السيادة كانت قائمة فى كل عهود الحكم فى السودان ولم تحتجب الا خـلال حكم المهـدية مؤقتاً فلما تم استرجاع السودان ١٨٩٩م ناصفت بريطانيا مصر فى هذا الحق المكتسب وعارض

وفد المفاوضات السوداني ذلك ، واستفحل الخلاف وكاد يعصف بالمبادرة حتى قال البكباشي جمال عبد الناصر مقولته الشهيرة التي حسمت الخلاف وهي (انني لا أخشى السودان الحر وانما اخشى السودان المحتل) وتم الاتفاق على ان يتم الفصل في المذكرة بين جلاء القوات الانجليزية عن قناة السويس وبين استقلال السودان في المفاوضات التي تجري مع الحكومة البريطانية، وان تتاح لابناء السودان فرصة تقرير المصير، شريطة الا يكون هناك ارتباط ببريطانيا عند تقرير المصير «ولعل المراد هنا الا يدرج السودان في عداد الدول المنضوية تحت لواء الكومونولث» .

وافق السيد عبد الرحمن المهدي على ذلك كما وافق على تشكيل لجنة ثلاثية تتكون من السادة الدرديري احمد اسماعيل وخضر حمد وميرغني حمزه لاعلان قيام حزب يمثل التيارات السودانية التي تنادي بالوحدة مع مصر في مواجهة « حزب الامة » الداعي الى الاستقلال ، وبالفعل تم اعلان ذلك الحزب الوحدوي باسم «الحزب الوطني الاتحادي » بزعامة السيد علي الميرغني ورئاسة السيد اسماعيل الازهري والسيد محمد نور الدين نائبا له ، كما تألف مكتبه السياسي من السادة الدرديري أحمد اسماعيل والدرديري محمد عثمان ، وحماد توفيق وخضر حمد والطيب محمد خير ومبارك زروق وخضر حمد وعلى الشيخ البشير ويحيى الفضلي وميرغني حمزة . ثم وقع على ميثاق الحزب الجديد في الثالث من أكتوبر ١٩٥٢م كل من اللواء نجيب وصلاح سالم وحسين ذوالفقار صبري باعتباره حزبا سودانيا مصريا. ونص في دستوره على جلاء الانجليز وقيام اتحاد مع مصر بعد تقرير المصير .

وفي صبيحة يوم ١٢ فبراير ١٩٥٣م جرى توقيع اتفاقية الحكم الثنائي وتقرير المصير لشعب السودان بين الحكومتين البريطانية والمصرية ، ومثل الجانب المصري كل من اللواء محمد نجيب والصاغ صلاح سالم وحسين صبري والدكتور محمود فوزي والدكتور حامد سلطان وعلى زين العابدين ووقع عن الجانب البريطاني سير رالف ستيفنسون ومستر كروزويل الوزير المفوض بالسفارة البريطانية بالقاهرة والمستر باوزر السكرتير الاول بالسفارة .

قضت اتفاقية الحكم الذاتي ان تكون للحاكم العام السلطة الدستورية العليا

فى البـلاد خلال فترة الانتقال التى حددت بثلاث سنوات ، تعاونه فى ذلك لجنة خماسية تعرف باسـم لجنة الحاكم العـام) على أن يتم خـلال تلك الفترة الانتقالية سودنة الوظائف الحكومية وتهيئة البلاد للحكم الوطنى ، ويتقرر مصير السـودان من داخـل الجمعية التأسيسية عند انعقادها وقد تعهدت دولتا الحكم الثنائى باحترام قرار الجمعـية التأسيسية والعمل بموجبه ايا كان اتجاهه .

ثم شـكلت لجنة الحاكم العام الخماسية من السادة : الدريرى محمـد عثمـان وابراهيم أحمد عثمـان ممثلين للسـودان ، وحسين ذو الفقار صبرى عن مصر ، ومستر جرافت سميث عن بريطانيا والسيد سيان ضياء الدين من دولة باكستان ، كما تم تعيين السيد عبد الفتاح حسن عضوا فى لجنة الانتخابات من الجانب المصرى ، ثم انشأت مصر وزارة لشئون السـودان قلدت مسئولياتها للصاغ صلاح سـالم وامدته بالمال الـلازم والسلطات المطلقة فيما يتعلق باختصاصات وزارته من الانتخابات والممارسات السياسية واسـتمالة شعب السودان نحو الوحدة مع مصر !!

وعبر الشعب السـودانى عن رغبته فى انتخابات حرة نزيهـة ، واحرز الحزب الوطنى الاتحـادى أغلبية ساحقة فى أول برلمـان سودانى ، فقـام السيد اسماعـيل الأزهرى بتأليف أول وزارة وطنية فى اليوم الثانى من يناير ١٩٥٤ م فعمت الافـراح والاحتفالات ارجـاء مصر والسـودان ، وزار الصاغ صلاح سالم اقاليم السـودان الجنوبية ورقـص فى الاحتفالات القبلية هناك ، وتدفقت الامـوال المصرية جـزافاً فى كل انحـاء السودان ، كما زيدت فرص التحاق الطلاب السودانيين بالتعليم فى مصر ، وفتحت للسـودانيين كافة أبواب الهجرة على مصاريعها فتدفقت جموع الطـلاب على أرض الكنانة .

شـهدت البلاد — خلال فترة الانتقال — نشاطا وحركة فى كل جـوانب الحياة ، وبخاصة السياسية منها ، ومضى كل حزب يبشر بما لديه من فكر ومبادىء وبرامـج للعمل والحياة فى ظل الحرية . واندفع دعاة الاتجاه الوحدوى مـع مصر يستقطبـون أبناء المـدن وغيرهم اضافة لرصيدهم من اتباع الطريقة (الختمية) وروجوا بين الناس أن قائد الثورة المصرية اللـواء محمد نجيب من أصل سـودانى ، وكذا عضوا مجلس

قيادة الثورة محمد أنور السادات والصاغ صلاح سالم ! ! وفي الجانب الاخر نشـط دعاة الاستقلال بزعامة حزب الامة ورصيده من انصار الامام المهدى وقبائل الغرب خاصة فتفجرت المعارك بين الطرفين تباعا ، ووصم كل فريق خصمه بالولاء والتبعية لاحـدى دولتى الحكم الثنائى وجاء فوز الاتحـاديين فى الانتخـابـات السابقـة مزيدا من وقود الاحداث فى اتون الصراع المحتدم بين الطرفين .

فلمـا كانت زيارة اللواء محمد نجيب للسـودان فى أول مارس ١٩٥٤م لشهود جلسـة الافتتاح لاول برلمـان سـودانى استقبله انصار الاستقلال واعداء الوحده مـع مصـر بمظاهـرات عدائية لاهبة، بدأت من مطـار الخـرطوم وهى تهتف (لامصرى ولابريطانى ، السـودان للسـودانى) ثم انتهت باحداث مأساوية راح ضحيتهـا حـوالى واحـد وسبعين قتيلا ومايربو على المـائة من الجـرحى ، فألغيت بسـبب ذلك جلسة الافتتاح ! ! وعاد اللواء نجيب الى مصر وقد حزت فى نفسـه تلك الاحـداث وتشكلت محكمة جنائية فيما بعد ، برئاسـة احد القضاه الانجليز ، قضت باعدام السيد عـوض صالح رئيس تحرير جريدة الامـة ، وحكمت بالسجن المؤبـد على الصحفى (على فرج) وبأربع سـنوات سجنا على الامير (عبدالله عبد الرحمن نقدالله) سكرتير عام تنظيم شباب الانصار ، ثم خفضت محكمة الاستئناف تلك الاحكـام ، واسـتبدلت حكم الاعـدام بالسجن المـؤبد بعشـر سنـوات ولم يمض وقت طويل حتى اطلـق صراح جميع المحكومين فى تلك الاحداث ، بعد صدور عفـو سياسى شامـل ومن جراء تلك الاحداث الدموية ، أصيب دعاة الوحـدة مع مصر بحرج شديد فى علاقتهم بقـادة ثورتها يومئذ ، وتضاعف هذا الحرج باقالة اللـواء محمد نجيب من قيادة الثورة والحكم فى مصر ، ورغم ذلك جرت محاولات مخلصـة لرأب الصدع والسير بسـفينة الوحدة عبر عباب الاحداث المتلاحقة ، وحرص المصريون على دعم حلفائهم فى السودان . وتركوا أبواب الهجرة للطلاب السودانيين مفـتوحة مشرعة للراغبين ، فاتصل ذلك السيل المتدفق مع تيار النيل صوب أرض الكنانة رغـم الجنادل والاعاصير .

كان منزل العم «موسى شرونى» فى تلك الايـام أشبه بمنازل الحجيج الجماعية او محطات العبور ، إذ ظل يودع أفواجا ويستقبل آخرين ، ولم يكن حكرا لابناء البلاد

وحدهم بل أصبح موئـــلا للوافدين من خارج البلاد ، فأم رحـــابه ابناء ارتريا وكانو يعرفون باسم (الجبرته) وهم فى طريقهم الى مصر ، فاختمرت فكرة الهجرة الى مصر فى رأسى ،وقررت طلب العلم فيها بعد نيل انشهادة من معهد امدرمان العلمى . ففاتحت العم موسى شرونى برغبتى تلك فوافقنى على الفور وشجعنى .

وفى مرحلة الاعداد للسفر الى مصر ، قمت بزيارة امى وشقيقتى بكسلا وقضيت فى ربوع الارض الخضراء شهرا كاملا تزودت فيه بقدر كبير مـــن دفء عاطفـــة الامومة وحنان الاهـــل والشعور الاسرى الحميم . وقد حاولت أمى تحت تأثير تلك العاطفة الجياشة أثنائى عمـــا قر عليه عزمى من السفر الى مصر والعدول عـــن فكرة الهجرة فى طلب العـــلم وحذو مسلك اقرانى فى الالتحاق بالمدارس الثانوية بالسودان , ولكـــن محاولاتهـــا لم تفلح فى اقناعى بالتراجع عن ذلك القرار الذى تهيأت له نفسى ودغدغت صورته مشاعرى وترسب فى اعماقى قناعة لاتزول ، ثم كتبت الى ابى فى (أبشى) بأمر السفر الى مصر، فجاءنى رده بالموافقة والرضا والامنيات بالتوفيق والفلاح.

وشرعت اعـــد للسفر عدتـــه، وكان العم موسى شرونى قـــد نصحنى بـــشراء (ريالات القشلى) وحملها الى مصر، وهى عملة فضية ايطالية يتداولها أهل الحبشـــة وقد تسرب الكثير منها إلى السودان من عهد بعيد ، وقيمة الريال الواحد عشرون قرشـــاً . فلم اتمكن من شراء أكثر من الف ريال بمبلغ مائتى جنيه، والحق ان تلك النصيحة غالية بالفعل وكدت أذهل وأنا ابيع الريال الواحد بمصر بثلاثين قرشاً ! ! فاجتمع لى من تلك الصفقة وحدها ثلاثمائة جنيه مصرى ، وتلك لعمـــرى ثروة طائلة وملك عريض.وكنت قبل السفر قد حصنت نفسى بالكساء اللازم الفخيم احذية انجليزية وملابس صيفية فاخرة ، وتحسبت لزمهرير الشتاء فى مصر فابتعت لنفسى ثوباً كاملا من الصوف الانجليزى ذى السمعة الضاربة ودفعت به إلى احد مهرة الخياطين فى مصر فاعد لى منه ثلاث سترات (بدل) كاملة وبنطلوناً إضافياً لكل سترة منها، كما اعد لى زياً ازهرياً يعرف باسم (الكاكولة) . كان انبهارى بالرحلة عظيماً، وبقاهرة المعز أعظم، ونزلت أول الأمـــر بفندق الوادى جوار الأزهر الشريف حتى اكملت اجراءات التحاقى به ، ومـــن طريف ماواجهنى خلال تلك الاجراءات ،سؤال الموظف القائم على مباشرة تسجيل الطلاب عـــن مذهبى ،

فلم اتردد فى القول انى (سنارى) فضحك طويلا وداخله شىء من الشك والارتياب فهو يقصد بسؤاله المذهب الفقهى بين المذاهب الاربعة المعروفة، وافصح الرجل عن ارتيابه قائلا :—

قول وما تخافشى يابنى ، أنت بتشغل فى أنهـى عمارة ! ! فادركت عندها مقصده وكررت له القول انى سودانى مالكى المذهب. فهز الرجل رأسه ضاحكاً كمن لايصدق، ويمضى الوقت ومعرفة الظروف القائمة ،علمت مأتى مقالته تلك ، ففى زحام الطلبـة السودانيين الوافدين إلى مصر ، واغراء الاعانة المالية الجزيلة اندس عدد كبير من ابنـاء النوبيين العاملين فى حراسة ابواب العمارات بمصر ، بين جموع السودانيين ليلتحقوا بالازهر تاركين ماكانوا فيه من الأعمال الدنيا من أجل المال أولا والعلم وسيلة ، فتلك الجنيهات الثمانية المرصودة للطلاب الوافدين من السودان تزيد كثيراً عن مرتب العاملين فى اكثر الوظائف المدنية. واغرى هؤلاء النوبيين بالالتحاق بالأزهر أن كانت اجراءات الالتحاق — فى ذلك الظرف خاصة — لاتشترط مؤهلا دراسياً معيناً ، فكان ابناء جنوب السودان مثلا يجهلون مبادىء القراءة والكتابة ،فاقامت لهم إدارة الأزهر فصولا خاصة لمحو أميتهم وضمت هذه الفصول اعداداً من الطلاب النوبيين وانتحلوا جميعهم الشخصـية والجنسية السودانية ! ! واصبحوا بعـد تصنيفهم مـن طلبة رواق شمال السودان ، وكان شيخ الرواق آنئذ الأخ (عثمان نصر) الاعلامى المعروف بوزارة الثقافة والاعلام اليوم . وهو صديق حميم لتاج السر أبوبكـر شيخ رواق السـنارية الذى انتسبت إليه، وكان كلاهما طالبا بالدراسات العليا .

أما شيوخ رواق جنوب السودان الشيخ سرور ورواق دارفور ورواق صليح —ويضم ابناء تشاد — فقد كانوا متفرغين لواجبات المشيخة تماماً، وكلهم متزوج بواحدة أو أكثر من بنات مصر ولهم منهن البنون والبنات . إذ فى تلك الحقبة من الزمان تفشت ظاهرة زواج الطلبة السودانيين فى الأزهر بالمصريات ، وكأنى بهم يحاولون اثراء العلاقات السياسية بين شطرى الوادى بوشائج الرحم وصلات الدم امعاناً فى التلاحم والانصهار .

انتظمت فى الدراسة بمعهد القاهـرة الدينى بعد اكتمال اجراءات القبول بالأزهر الشريف ، فلم المس فرقاً كبيراً بين مناهج الدراسة فيه وتلك التى يأخذ بها المعهد العلمى

بامدرمان ، فهذه من تلك ، فقط كان الاختلاف فى المكان والوجوه والأزياء ومعادن الناس وطباعهم .

كان على ان اتزيا بزى الطلاب وانخرط فى عباب الحياة من حولى ، فارتديت جبة الصوف (الكاكولة) واحكمت لف عمامتى حول الطربوش ذى الزر الحريرى ووضعتها على رأسى وغدوت شيخاً يتبختر فى الطرقات ، ثم عن لى ان اتقمص شخصية الطالب المصرى ، حتى فى لهجته ونبرة حديثه ، وسيلة للتعامل مع هؤلاء القوم الذين يتجاهلون فهم كل لسان غير معيب. فاصبحت كالغراب الذى حاول محاكاة الطاوؤس فلم يفلح فى الاختيال ، ولم يعد لسابق عهده فى الحركة والمشى ،ولكنى كنت أوفر حظاً من الغراب حيث عدت إلى لسان أهلى وطباعهم بغير عناء .

ثم هجرت السكن بفندق الوادى لاقيم بعمارة الأوقاف بحى الأزهر مع طائفة كبيرة من طلبة رواق صليح ، واسعدنى كثيراً ان الفى جماعة منهم من مدينة (أبشى) بتشاد وحظيت بينهم بمكانة مرموقة واكبار عظيم ، ويرجع الفضل فى ذلك لسخائى معهم واقالتى عثراتهم المالية بما كان معى من مال وفير ، فالاعانة الشهرية — رغم ضخامتها قياساً بالظروف القائمة يومئذ — لاتفى بكل مايرغبون ، وكانت مناهج الحياة ومغرياتها تستلب حصاد شهرهم من المال فى أيام معدودات ، ولكنهم مع ذلك لم يضيقوا بالفقر ولابقصور ايديهم عما يريدون ، وهم فى ذلك اسعد حالا من زملائهم المصريين الذين يعانون مرارة الفقر والحرمان ، وتقصر ايديهم عن اخص ضرورات العيش ناهيك عن متاعه وملذاته، فاطمأنت نفوس اقرانى الوافدين إلى حظها من الكفاف ، واستيقنوا ان المال والعلم لايجتمعان، وان الفقر شرط للجد والكد والاجتهاد وغنى النفوس بالعلم والرضا خير من امتلاء الجيوب بالمال إلى غير ذلك من قناعات روحوا بها عن قتامة الحياة وشظف العيش . وكنت ارقب ذلك العناء الذى يكابدون واتعوذ بالله من الفقر والذل وقهر الظروف فذلك أمر جد مخيف لا اقدر عليه .

دفعنى خوفى الى التفكير — مرة أخرى — فى تنمية مالى عملا بنصيحة أبى من قبل ، وحار عقلى فى ذلك الوقت، ثم التمعت فى رأسى خاطرة ركنت إليها واطمأنت لها

نفسي ، فذهبت إلى الأخ رضـــا الذى بعته الريالات القشلية ، وهـــو تاجر للعاديات ، شاب في حوالى الثلاثين من العمر شيعى على ملة اهله في ايران ، على قدر عظيم من الامانة والكرم وحب الحياة ، وكنت اتردد على متجره بين حين وحين فانعقـــد بيننا شيء من ود ، فلما اختمرت في نفسي فكرة استثمار مالى حذر الفاقة والفقر ، عرضت عليه الامر فوافق وجرى بيننا اتفاق اقوم بمقتضاه بشراء العاديات من مواقع انتاجها بالاحياء الشعبية بعد ان زودنى بالخبرة اللازمة لمعرفة انواعها ودرجة جودتها وقيمة كل نوع ، ويقـــوم هو بعرضها في متجره وبيعها ، نظير مناصفة الأرباح .

وانتقلت عدوى صداقتى للرجل الايرانى الذى هاجر آباؤه الى مصر في وقت متأخر الى شقيقـــه الاصغـــر (حســـين) في حـــوالى الخامســـة والعشرين من العمـــر قوى وافر الحيـــوية مفتون بحب بنات حواء ! ! وكان له في طبيعه العمل الذى يزاوله مندوحة للاغراق في هذا الفتون ، حيث فرغه ابوه لجلب (العاديات) والسواح المشترين من الاحياء والمواقع الاثرية والطـــرقات ، فهو كالنحلة يتنقـــل من مكان الى آخر ، يطارد العاديات والســـواح والفتيات ، ولكنه – كأبيه – ملتزم بفكر الشيعة آخذ به ، وله حظ عظيم من المعارف الدينية والدنيـــوية ، ويعرف غـــير قليل من احكام الحلال والحرام والمعاملات والعبادات ، كمـــا يعرف أصول تجارته واسباب رواجها ومنابع انتاجها ومصبات توزيعها وخلقا كثيرا من تجار المدينة وتاجرات اللهو فيها ! ! فانعقدت بيننا – بحكم التقارب في العمر والميول – عـــلاقة سرعان ما ضربت جذورها المتينه في اعماق وجدانى واحتفرت لنفسها مكانا باقيا في ذاكرتى الى اليوم .

بارك الاخ رضا تلك الصداقة التى بينى وبين أخيه الاصغر ، واغرانى بمزاولة العمل الذى يقوم به ، وهو جلب السواح الى متجره لقاء نسبه معينة من جملة ما يشترون ، وخصنى بمواقع قريبة من مكان دراستى وسكنى ، كالازهر ومســـجد الامام الحسين على ان يتم ذلك في اوقات فراغى .

ألفيت جلب السواح عملا ماتعاً بحق ، فان تصطاد جماعة منهم وتأخذ بقيادهم أمر بالغ المشقة كبير العناء ، ولكنه ساعة الظفر شبيه بمتعة صائد الاسماك والحيوانات البرية ، تفوق متعة النجاح عنده مايحرز مـــن مكاسب مادية وان عظمت ، فلما استهوانى العمل

واوليته نصيباً كبيراً من وقتي وتفكيري وجهدي ، انكرت على نفسي ذلك ، وفرضت عليها نوعاً من المعادلة القاسية بين العناية بالعمل والاعتنـاء بالعلم وتحصيله ــ وقد جرى هذا التحول بعد فترة من الاندفاع والانصراف لجلب السواح الأوربيين وغيرهم ، فاكثر ماجذبني وشدني إليه مقدرتي على التفاهم معهم واقناعهم باحدى اللغتـين الفرنسيـة والإنجليزية ، ووجدت في ذلك ميزة على الآخرين من رسل العاديات ومن بينهم «حسين» نفسه ، فجاء النجاح والتفوق عاملا وحافزاً لمزيد من النشاط في العمل ، وقد انبثق ذلك التحول والوعي بضرورة المعادلة بين العلم والعمل من معاناة نفسية حادة مؤرقة ، حيث كنت أغتنم فرصة انصراف الآخـرين لاداء صلاة الجمعة ومنع دخول السواح لتلك المساجد الاثرية وقت الصـلاة فالتقي بهن وأقـودهم زرافات إلى متجر الاخ رضا وتـتم صفقات وفيرة الأرباح في غيبة التجار المنافسين ! !

كرهت نفسي ذلك الصنيع واستيقظ فيها واعز من الدين ارهقها وامطرها وابلا من التقريع واللوم والانكار حيث صور لي الامر على انه مخالفة صريحة لقول الله جل شأنه : (يا أيها الذين آمنـوا إذا نودي للصـلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون .) صدق الله العظيم .

كان الاخ رضا على شاكلتي في حـب العمل وثماره ، وله من اختلاف مذهبه الديني مسـوغ للتجـاوز كلما سـولت له غـريزة حب المـال ، فاذا جئته بطائفـة من السواح ساعة الصلاة يتصنع الضيق والزهد ويتعوذ من الشيطان الرجيم ، ثم يقبـل على صيده الثمين يعصره عصراً وأنا إلى جانبه أشد من ازره واحل عقدة من لسـانه بما اعرف من لغة القوم المشترين . حتى إذا امتلأت نفسي بذلك الشعور القا[illegible]ن الممـض ، حادثت العم أبو حسين بشأنه ونقلت إليه ما أجد من عزوف وكراهية للمـ[illegible]صية ، ورغبـة قوية فيما عند الله ، فأمن على ماقلت وآمن به ولزمنا سوياً جادة الحق .

ومن جهة أخرى قطعت مع أخيه (حسين) أشواطاً بعيدة في دروب الحياة ومزالقها ومتاعها بغير تمييـز ! ! كان مولعاً بالطيبات من الطعوم ، فكنا ننفـق قدراً من ارباحنا في المطاعم الشهيرة في شارع فـؤاد وعماد الدين ، ولكن الغالب على عاداتنا ان نرتاد المطاعم الشعبيه ايثاراً للعقل على المظهرية الفارغة ! ! وكان يحلو لحسين ان يسمي ما ينفقه من مال على

ملذاته وصبواته بمال النصارى ،فيجد فى ذلك عزاء للاسراف والتبذير . وادرك فى سلوكى معه نزوعاً للصرف التفاخرى ، فكان يترك النقـــود بحوزتى لاقوم بسداد الفواتير والهبات للعاملين فى تلك المطاعم ، فاجد فى ذلك متعة بالغـــة تدفعنى لمزيد من العمل والصرف .

كنت وحسين نموذجاً لابن الغاب والصحراء فلم يكن يسلك طريقاً إلا جاوزته فيه ، ونحن كفراشتين طليقتين نتجول فى شـــوارع القاهرة نغترف من كل رحيق ، وتعانق اعيننا كل زهرة ، ونرسل انفسنا على سجيتها تعب من مباهج الحياة وتغرق فى زحـــام المدينة العتيقة .

كان يلذ لحسين ان يثير معى جدلا فى الدين ، يتصيد له الاســـباب ، ربما ليثبت لى انه اعلم منى ، أو لاقناعى وأنا السنى المذهب بالميلاد بفكر قومه الشيعة العلويين ، وكان يمزج الجد بالهزل ، فيفصل احاديثه بالفكاهات والنوادر والملح والسخرية حتى من نفسه ويضحك كثيراً لمايقـــول ،فأضحك معه مجاملة فى بعض الاحيان . وأكثر مايطلق لنفسه عنانها حين يأخذ مجلسه فى بيوت اللهو ، وهـــو مفرط فى الاغراق فى اللذة متهالك عليها لاتنقع له غله فاذا فرغ منها وتباعد به المكان مضى يفصل الحديث عنها ويـــروى وقائعها وظروف اتيانها وتجاوب الاطراف فيها ، إلى غير ذلك من دقائق الحدث ومايتصل به من قريب أو بعيد وفى خضم ذلك يجهد ان يجد لآثامه مبررات من المنطق ، والـــدين حياناً .

من ذلك مثلا ممارسته لما يعرف بزواج المتعة ! !ويزعم انه عمل مشروع وان افتى الناس بغير ذلك ، لان عماد الحياة الزوجية فى الدين يقوم على التراضى والاهلية والمهر والخلو من الموانع . وحيثما وجدت فى علاقة الرجل بالمرأة هذه الشروط فهى علاقة شرعية لاغبار عليها ولا اعتراض ، فللرجل ان يتزوج باربع ســـوى ماملكت يمينه إذا آنس من نفسه العدل ، وللمرأة ان تتزوج بمن تشاء متى توفرت لها صفات الولاية ان كانت قاصراً والخلو من الموانع . الشرعية مـــن عصمة أو حمل أو عدة أو غير ذلك ، ومنحت مهر مثيلاتها ورضيت بالرجل زوجاً ! !

إذا توفر فى الرجل والمرأة ذلك ، أصبح الزواج أمراً مشروعاً ، بصرف النظر عن الزمان والمكان والظروف القائمة ، ويضرب حسين المثل بنفسه فهو يعمد إلى بيوت اللهو

ويتخير من بنات الليل من تروق له وتستهوى لبه،وفى غمرة الانس والمداعبات والهزر بين الموجودين ، يستوقف الناس برهة ، ويسأل من وقع عليها اختياره ان كانت تقبل به زوجاً ؟! فاذا ابدت موافقة ورضا مهـــرها على مشهد من اطراف المجلس من الجنسين ، ولانه ســـخي اليد كريم ، فالغالب ان يكون المهر أعظم مما يبذله طالب اللذة عادة ، ثم ينهض ليجلس بجوار عروسته وسط ضحك وسخرية الحاضرين ، أما هو فينصرف لشأنه غير آبه بشيء .

فاذا قضى (حسين) وطره من خدينته وهم بالانصراف اعلن على الملأ طلاقهـــا وخرج ! ! معتقداً أنه لم يأت اثماً ولافاحشه ، تلك هى صورة زواج المتعة الذى يبشر الفتى الشيعى به فى العالمين ، يقـــول : إن للرجل ان يمارس زواج المتعة مع أية امرأة لثلاث مرات ، ثم لاتحل له إلا بزواج غيره من بعد ،فاذا لم يطلقها بقيت فى عصمته شأن كـــل زيجة أخرى. أما المرأة فلا يتأتى لها ان تتمتع بآخر بعدالطلاق إلا إذا استوفت عدتها ثلاثة اشهر ،وفى ذلك عاصم لها من شبهة البغاء . فما دامت لاتتصل بالرجال إلا مرة كل ثلاثة أشهر ، فذلك الاقلال فى الفعل يمحو صفة البغاء ، إذا أخذنا الأمر بما جرى عليه العرف والمعنى الحقيقى للفظ ،فالبغاء عرفاً هوالممارسة الجنسية المتصلة بعدد من الرجال بحثاً عن المال .

ويدفع « حسين » دعوى الظلم عن المرأة فى مثل هذا الزواج بأنها حقيقة غير مساوية للرجل فى مضمار الجنس ، وقد اشار الدين إلى هذا التفوق حين شرع للرجل ان يتزوج باربع نساء عدا حقه فى التمتع بما ملكـــت يمينه من الاماء ! ! ولم يشرع للمـــرأة الزواج بأكـــثر من رجل واحد لاغـــير ! ! وحكمة الدين فى ذلك ان للمتعة الجنســـية هدفين : هدف اساسى هو حفظ النوع ، وآخر ثانوى — ولكنه حيوى — وهو إدراك اللذة لذاتها ، وتفـــريغ لطاقات حيوية لايملك الانسان اختزانها والسيطرة عليها ، ولكن المرأة — برغم كفاءتها لاداء هذا الدور الغريزى — تظـــل اداة لهذا الغـــرض وظرفاً لحدوثه ، بينما يبقى الرجل قوة ايجـــابية فاعلة تتحكم وتســـيطر ، وهو بمثابة اليد العليا التى تمنح ان شاءت وتمنع ان رغبت .

ولتحقيق هذه الحكمة البالغة ، التى تقصر عن فهمها عقول البشر ، خلق الله تعالى المرأة على حال من الضعف ونعومة الملمس وجمال الخلق وقوة الجاذبية لتكون وســـيلة

لاغراء الرجل واثارة غرائزه امتثالا لمقتضيات تلك الحكمة .

رغم بساطة افكار صديقي (حسين) وعفوية ايرادها ،فقد كنت أقف حيالها بكثير من الاعجاب ،لانها تصدر عن نفس راسخة الايمان بما تقول ، فحاول اقناعي جاهداً برأيه حول زواج المتعة الذي يأخذ به في علاقاته المتجددة ، ولم يكتف بما أورده من البراهين العقلية التي ساقها عفو الخاطر إذ قدم لي أحد الكتب الصفراء العتيقة التي يسميها « امهات الكتب » فوقعت فيه على شروح وافية وادلة قاطعة باباحه الشرع لزواج المتعة ، من ذلك مقالة الصحابي الجليل عبد الله بن العباس رضي الله عنه والتي قال فيها :— (لايزني بعد المتعة الا شقي) ! !

فتسرب إلى نفسي شيء من الاقتناع بالأمر ، أو هكذا توهمت في تلك الظروف ، ولم اشأ ان اطرح المسألة على بساط البحث ، فاسأل احد اساتذتي من شيوخ الأزهر عن القول الفصل شأن المريض يخشى ان يزور الطبيب ليكشف له عن حقيقة دائه ، وقد يصف له دواء مرا لايقوى على احتماله ، وقد يحرمه لذات من متع الحياة لايفرط في اقتنائها وان أوردته المهالك . فاكتفيت بما قاله الصحابي عبد الله بن العباس وغيره عن مشروعية زواج المتعة ، واسامت قيادي لصديقي (حسين) وتبعته في صمت واذعان ، فاقتعد مني مقعد الرائد الخبير .

وقد وقفت في مرحلة لاحقة من العمر على رأي مغاير لما ارتآه صديقي الشيعي المتحرر (حسين) في طرحه ذلك العفوي المتسق مع رغباته ، حيث ذهب جماعة من العلماء الى ان زواج المتعة كان امرا مباحا لاتشوبه شائبه ، وان مقالة الصحابي الجليل عبدالله ابن العباس صحيحة تعبر عن واقع حال المسلمين في صدر الاسلام ، وبقي الامر كذلك حتى رجع النبي صلى الله عليه وسلم من غزوة (تبوك) فحرم زواج المتعة كما حرم اكل لحم الحمير (الحمر الاهلية) وفي ذلك قال أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب :
— والذي نفسي بيده ، لايعرض علي شخص تمتع بزواج الا اقمت عليه حد الزنا ! !
كان صديقي حسين كثير التردد على مسجد الامام الحسين ، وجاء حين من الدهر خيل الى فيه ان اسرته جاءت خصيصا الى مصر من موطنها في ايران، لتجاور مزارات السيدة زينب والامام الحسين، فقد كان حبهم وولاؤهم يبلغ حد التصوف والتقديس،

ولا يخامرهم الشك لحظة ان الامام الحسين حى يرزق، اخذين بظاهر الاية الكريمة :ــ
« ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقــون »
ولعــل مــرد ذلك التطرف فى الولاء والاعتقاد ، تشرب هذه الاســرة لتراث الشيعة وفكرهم ، فاكثراهل ايران شيعة علويون تحدروا من اصلاب تلك الامة العظيمة التى عرفت فى التاريخ باسم (فارس) وكانوا ــ قبل الاسلام ــ يعتقدون ان ملوكهــم مزيج من الالوهية والبشرية ! ومن مظاهر هذا الاعتقاد انهم كانوا يزنونهم فى الاعياد والمناسبات الدينية بانواع المعادن النفسية والاحجار الكريمة .

فلما كانت واقعة القادسية فى خلافة ســيدنا عمر بن الخطاب ، التقى جيش المسلمين بقــيادة الصحابى الجليل سعد بن ابى وقاص بجيش الفرس وقائده رستم ، وكتب النصر للمســلمين فاقتحم هؤلاء عاصمة الفرس (المدائن) وقتلوا آخر ملوكهم (يزدجرد) وحملوا فى الغنائم والسبايا بناته الثلاث (سلافة وفيروز وفرخند) فازمع امير المؤمنين عمر رضى الله عنه ان يعرضهم على بيت مال المسلمين كغيرهم من السبايا ، فراجعــه الامام على بن ابى طالب كــرم الله وجهه فى ذلك وذكره بالحديث النبوى الشريف (اكرموا عزيز قوم ذل) فأمسك الخليفة عما أراد،وأردف الامام على كرم الله وجهه مقترحا على الخليفة الراشد عمر ان يتزوج ابنه الحسين بكبرى بنات الملك (ســلافة) ويتزوج عبدالله بن عمر بن الخطاب بالثانيه (فيروز) ويتزوج محمد بن ابى بكر الصديق بالثالثة (فرخند) فاخذ امــير المؤمنين برأيه،وتمت الزيجات الثلاث. فأنجبت سلافة على زين العابدين، وكان من أحسن شباب زمانه وجها وأوفرهم علما واشدهم تقى وورعا، وانجبت فيروز سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب ، وهو من اكابر علماء زمانه وعليه تتلمذ الامام مالك ابن انس ، وانجبت فرخند القاسم بن محمد بن ابى بكر الصديق،وكان احد فقهاء المدينة السبعة الذين اعتبر الامام مالك اجماعهم على امر من الدين ، كاجماع أهــل الارض قاطبة .

وجــاء من بعد عصر الفتن والحروب بين طوائف المسلمين وزعمائهم ، فدارت معارك طاحنة بين الامويين والعلويين سقط خلالها سقط الرسول الحسين بن على شهيدا بسيوف صنائع الخليفة يزيد بن معاوية بن ابى سفيان ليخلو له وجه الملك والسلطان بلا منازع ،

جـــرى ذلك حين ارســـل جيشه بقيادة ابن زيـــاد والى الكـــوفة وعمر بن سعد بن ابى وقـــاص الذى قوض ابوه من قبل صروح دولة الفرس وهد بنيانها ، فحاصر الجيش الامام الحســين وشيعته فى كـــربلاء فى طريقـــه الى الكوفة ، واضطر ان يحارب بعشرات من رجاله الالوف المؤلفة من الامويين ، فاستشهد أصحابه وآل بيته تباعا امام عينيه ولم يبق سوى طفل له مريض يرقد فى خيمته وهو (على زين العابدين)، واستمر يقاتل بغير قوة فاجهده العطش وقدمنعوا عنه الماء،فتقدم ليشرب من عين جارية فاصابه ســـهم فى فمه، ثم انهالت عليه السهام فى كل مكان من جسده الطاهر الكريم،فاذا به ثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة سيف ورمح،وظل يقوم ويكبو وهو يصارع الموت، حتى جرؤ بعض اعداء الله ورسوله وآل بيته للاجهاز عليه بغير رحمة ، فقطع (زرعة التميمى) ذراعه اليسرى وتقدم (شمر بن ذى الجوشن) فاحتز رأسه الشريفة ،وتقدم اسحق الحضرى فانتزع قميص الحسين رضى الله عنه ، واختطف قطيفته قيس بن الاشعث ونزع سرواله بحر بن كعب واستولى على نعله الاسود الاوربى ، واخذ عمامته اختس الحضرى ،وكان الامام الشهيد يرتدى عمامة جده صلى الله عليه وسلم . ولم يقف التمثيل بجثته عند ذلك ، بل جاءوا بعشرة من الفرســـان راحوا يطأون بحوافر خيلهم صـــدره وظهره وبطنه ، فلما ادركهم الكلال انقلبوا على رؤوس أهله وأصحابه وقتلوهم ومثلوا بهم ، ثم حملوا اوزارهم فرحين الى قصر الخلافة فى دمشق ووضعوها بين يـــدى يزيد بن معاوية !!

لم ينج من أهل الحسين ورهطه الا السيدات وابنه الصغير المريض (على زين العابدين) الذى ارادوا الفتك به عندما داهموا الخيمة التى يرقد فيها اثناء المعركة ، فتصدت لهـــم عمته السيدة زينب بنت الامام على رضى الله عنهما ، وصرخت فى وجوهم: والله لايقتل حتى اقتل دونه !! فشاء الله بنجاته ان يحفظ نسل الامـــام الحسين فى الارض وسيقت السيدة زينب ونساء الحسين سبايا الى قصر يزيد بعد ان طاف بهن جنده وهن حاسرات الرأس حول جثث قتلاهن ، فأبكت السيدة زينب كل من سمعها وهى تصيح فى فزع وبكاء : يامحمداه حلت عليك ملائكة السماء ،هذا الحسين بالعراء مزمل بالدماء ،مقطع الاعضاء ، وبناتك سبايا الى يوم المشتكى .

ثم توالت هزائم شيعة آل البيت من بعد ، ولكنهم لم ييأسوا من روح الله ونصره فابتدع بعضهم فكرة (المهدى) من نسل الامام الحسين ، وعندهم هو الامام المخلص المرتجى .

كانت مجازر الامويين ونكالهم بآل البيت مدعاه لنفور عامة الناس منهم ، وانخراطهم فى التشيع لهم لما لحقهم من أذى وظلم ، وقبل ان تزول دولة بنى أمية بسيوف الشيعة آخر الامر ، بدا للعيان ذلك التعاطف والاجلال فى عديد من المواقف والصور ، من ذلك مثلا موقف الحجيج من هشام بن عبد الملك حين جاء اميرا للحج ذات عام ، وذلك على عهد خلافة اخيه سليمان ، فقد جهد ان يبلغ موقع الحجر الاسود ليقبله ، فلم يفسح له الناس الطريق ، وتعذر عليه نوال بغيته ، فنصب له منبر بعيد وقام أهل الشام على رأسه وبينهم الشاعر الفرزدق ، فبينما هو كذلك اذ اقبل على بن الحسين ، وقورا مهيبا يشرق وجهه بنور الصلاح والورع ، فتوقف الناس عن الطواف ،وتنحوا له عن مكان الحجر اجلالا وتعظيما وهيبة ، فاوغر ذلك صدر هشام بن عبد الملك ، فنظر اليه من منبره شذرا وتساءل وهو يعرف : من هذا ؟! فتجرد لاجابته الفرزدق مستنكرا ذلك السؤال ، وقد تملكه الغضب وانطقته الغيرة وألهمه الحب أن يرد على هشام بقصيدة من عيون الشعر العربى من ابياتها :—

هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقى النقى الطاهر العلم
هذا الذى تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم
اذا رأته قريش قال قائلها الى مكارم هذا ينتهى الكرم
هذا ابن فاطمة ان كنت تجهله بجده انبياء الله قد ختموا
عم البرية بالاحسان فانقشعت عنها الغواية والاملاق والظلم
فليس قولك : من هذا ؟ بضائره العرب تعرف من انكرت والعجم

فلما بلغ الفرزدق الى ذلك ، غضب هشام غضبا شديدا وامر بحبس الفرزدق بعسفان ، وكان بين مكة والمدينة ، ونفذ رجاله الامر ، وعندما علم على بن الحسين ماكان منه بعث اليه باثنى عشر الفا من الدراهم ، فلم يقبلها الفرزدق وقال :—

— انما قلت ماقلت لله عز وجل ، وقياما بحق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى

ذريته ، ولست اعتاض عن ذلك بشيء ؟!
عجيب أمـــر ذلك الصديق الشيعي (حسين) فقد شـــاد لنفسه برزخا من زبر الحديد بين فكره المتقد المتطرف وسلوكه المتحرر العفوى ، فاذا سمعته يتحدث فى أمـــور الدين بذلك الحماس الدافق انكرته وهو يغترف من متاع الدنيا بقليل من الحذر ! ! ومن شواهد هذا الفصل الحاد بين فكره وواقعه ، انه يكره أهل كل ملة على غير الاسلام ، فهـــو يمقت اليهود والمسيحيين ، ويرى فيهم عدوا لدودا ، ولايناله حرج وهو يردد فى كل مناسبة ومجلس انهم كفره مارقين ، وان حربهم جهاد مقدس لايماثله فى الوجود شـــىء ولكنه برغم مشاعر العداء والمقت هذه ، يتنقل كالنحلة بين متاجرهم ودورهم ويتعامل معهم جميعا تجاريا واجتماعيا بغير تردد ولا حرج ! ! فالفكر — عنده شيء ، والحـــياة والمعاملات فيها شيء آخر .

والحق ان صديقى (حسين) لم يكن مبتدعا فى ذلك الفصل بين المعتقدات والمعاملات والفكر والحياة . حيث عرفت ارض مصر قديما مثل هذه النزعة المتطرفة في علاقات أهل الاديـــان السماوية بعضهم ببعض ، بينما تجرى حياتهم داخل الكيان الكبير سهلة لايعكر صفوها شيء ،

بلغ هذا التطرف مبلغا عظيما ابان الحملة الفرنسية على مصر وحكم نابليون وخليفته كلبير لها ، إذ كان مصرع (كلبير) بيد (ســـليمان الحلبى) مظهرا للحمية ونزعـــة التطرف الدينى كما هو صورة للجهاد الوطنى من أجل الحرية ، اما اعدامه (بالخازوق) فـــلا يعدو ان يكون ردا على التطرف بمثله وانكى ، ويرى بعض المؤرخين ان تعصب أهـــل مصر الدينى قد حرم بلادهم وشعبهم من ثمار العهد الفرنسى ونتائجه الايجابية الطيبة ، حيث شهدت البلاد فى ظـــل الوجود الفرنسى فاتحة عهد حضارى تبدت اثاره جلية فى مختلف جوانب الحياة واعطت تلك الثمار أكلها عبر العصور .

ولم يمض وقت طويل على تلك الاحداث ، حتى نمت بذرة التعصب الدينى فى رحم الامة المصرية الولود من جديد لتنفجر بين ابنائها صراعاً مقيتاً وفتنه هوجاء سحقت ارواح المئات اقباطـــا ومسلمين على اثر مقتل (بطرس غالى) بيد (الوردانى) ذلك المسلم الذى دفعه التعصب الدينى عام ١٩١٠م لايقاظ الفتنة النائمة ، فاذا أرض مصر ساحة لحرب شعواء

وأحداث مأساوية دامية بين الفريقين ، مما حدا بأمير الشعراء (احمد بك شوقى) أن يرسل النداء حـارا مخلصا لابناء مصر وبناتها من كـل ملة ودين ، أن يترفعوا عما ولغوا فيه من صراع بغيض ، ويعبدوا ربا واحدا له فى تفرقهم بين الاديان حكمـة باقية فيقول شوقى :—

اعهدتنا والقبط الا امة للارض واحـده تروم مراما
نعلى تعاليم المسيح لاجلهم ويوقرون لاجلنا الاسلاما
الدين للديان جل جلاله لو شاء ربك وحد الاقواما

لقد كان لذلك النداء أثر لاينكر فى تسكين النفوس الثائرة ، ولكنه لم يجتث داء التعصب الدينى من جذوره العميقة الضاربة عبر الحقب والازمان فارتوت تلك الجذور — على مر الأيام — ونبتت سـوقها كيانات متباينه فى الاعتدال والتطرف ، وقامت فى واقع الحياة المصرية دوحتان عظيمتان اظلتا طائفتين متقابلتين تكيد احداهما للاخرى ، هما (حركة الشبان المسيحيين) و(حركة الشبان المسلمين) ثم من بعد (الاخوان المسلمون) وهم أقوى وارسـخ تلك الكيانات قدما ونفوذا وانتشارا ، انطلقت حركتهم فكرا وتنظيما من مصر منذ الثلاثينات الى كـل من سوريا وفلسطين ولبنان والسودان وغيرها من البلاد العربية والاسـلامية ، وكانت بداية تكوينهم فى شكل جمعية فكرية تشتغل بقراءة الادب العربى والفكر الاسلامى قديما وحـديثا ، مؤلفات الشيخ محمد عبده وجمال الـدين الافغانى ، وسلسلة من الاعلام والائمة كالغـزالى وابن رشد تمتد الى عصر المحدثين والرواة من صحابة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لتبلغ المنابع الاولى من الاحـاديث الشريفة والقرآن الكريم ، ثم خرج مؤسس الحركة الاستاذ الاكبر (حسـن البنا) بالدعوة من ذلك الاطـار العتيق المـحدود ، الى آفاق أرحب وذلك حين نظم الاجتماعات العامة والندوات فى المناسبات الدينية والوطنية ، واصدر جريدة عقائدية باسم (الاخوان المسـلمين) ثم اتبع ذلك بفيض مـن الرسائل الدينية سماها (رسالة التعليم) كان لها من الشمول والاحاطة للمسائل الفكرية والتنظيمية ، ماجعـل الباحثين يعتبرونها وثيقة مرجعية لدراسة حركة الاخوان وفكرهم وتاريخهم ، ففى هذه الرسائل تعرف الحركة نفسها فتقول :

(انها حركة اسلامية تجديدية ثورية ، تجمع بين الاصالة المعاصرة ، وبين

السلفيه والاجتهاد والثورية والاصلاح ، فهى اسلامية لانها تنطلق من الكتاب والسنة وتهتم بالشريعة الاسلامية وتجاهـد لتطبيقها ، وهى تجديدية لسعيها للتجديد فى امر الدين وشوريته لانها محكومة فى سعيها النظرى والعملى بالشورى والقيادة الجماعية على مستوى الاجهزة وحركة التنظيم عامة ، لذا فالشورى فى أدب الجماعة ملزمة وحاكمة .)

وقـد اعتمـدت حركة الاخوان المسلمين فى سنوات نشأتها الاولى على عنصر طلاب الأزهر والجامعات والمعاهد العليا ، وقامت بتطهير هذه المرافق التعليمية من الافكار والنظريات والمبادىء الهدامة والمناهضة لاصول الاسلام ومبادئه كالشيوعية والعلمانية التى تحكم الفكر السياسى وتحول دون تطبيق الشريعة الاسلامية .

ثـم تخرج الرواد الاوائل فدخلت الحركة طورا جديداً من أطوار نموها وانتشارها فى الآفاق ، فقد اقتحم جمعهم شعاب الحياة وولجوا كل السبل يبشرون ويجاهدون، وكان بينهم طائفة من أربا بالمهن التعليمية نقلت نشـاطهم ودعوتهم الى المدارس الثانويـة والمجتمع الاسلامى – حتـى اذا بلغ الكيان اشـده طرح نفسه بديلا سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وفكريا للاحـزاب التقليدية القائمة ومصادماً جسورا للتنظيمات والاحزاب العقائدية المناوئة كالحزب الشيوعى المصرى ، فشجر خلاف ودارت معارك طاحنة بين الفريقين وكانت الكلمة الساخرة والنقد العنيف سـلاحا وجهه الأخـوان المسلمون لخصومهم، وكذلك فعل بهم الخصوم بغير رحمـة،من ذلك على – سبيل المثال – مقالة امامهم (حسن البنا) وهو يتحدث فى لقاء جمـاهيرى حاشد: الاسلام بحر ونحن كيزانه أو كما قال !! فارضى تعبيره نفوس الخصوم، واطلق الشيوعيون وانصار حزب الوفـد على افراد تنظيم الاخوان لقب (الكيزان) تجريحا وسخرية، فلم يأبه ارباب اللقب بذلك، ودرجوا يطورون دعوتهم كما ونوعاً ورسوخا وقوه وغدوا كياناً سياسياً مرهوباً وتنظيماً عسكرياً مهاباً .

اخذت حركـة الاخوان المسلمين تسهم باستمرار فى مجال التوعية السياسية بنكر دينى قويم استقطب لكيانهم جموعا زاخرة من مختلف القطاعات الشعبية ذات الميـول الدينية المتطرفة ، وحركت فى افئدتهم توقا لهيفا ووعيا قوياً بقضايا الدستور بين الشرعية

والعلمانية ، وصورة الحياة فى ظل الجمهورية الاسلامية والمجتمع الاسلامى .

وعندما اندلعت حرب فلسطين فى ٢٥ ابريل ١٩٤٨م كان لحركة الاخوان ثقل عسكرى كبير ، اعلن عن وجوده بدخول أول كتيبة جهادية كاملة العدة والعتاد بقيادة البطل «احمد عبد العزيز». وشهدت سنوات ما بعد الحرب دخول حركة الاخوان المسلمين معترك الحياه السياسية كقوة ضاغطة تعمل لاحداث التحول الاسلامى فى هذا المجـال ، ففى يوم ٢٢ مارس ١٩٤٨م وكشاهد على تنامى تلك القوه اغتال شباب الحركة القاضى (احمد الخازندار بيه) بتهمة الخيـانة ، حـين اصـدر القاضى احكاما قاسية ضـد بعض فدائى الاخوان المسلمين الذين وقعوا فى ايـدى قوات الاحتلال الانجليزية اثـر عملية فدائية من تلك العمليات التى دأبوا على تنفيذها بين حين وآخـر ! ثم اعقب ذلك سلسلة من احداث الشغب والانفجارات فى احياء ومناطق تجمعات الاجانب فى مصر واتهم زعيم الاخوان الامام حسن البنا بتدبير تلك الاحداث ،وجرى اعتقاله فى٢٨نوفمبر ، ثم اصدرت حكومه (النقراشى باشا) قراراً بحل تنظيم الاخوان المسلمين ومصادرة ممتلكاته .

وكان النقراشى من قبل حليفا للاخوان وصل بمؤازرتهم ودعمهم الى حكم البلاد ، وكان رد فعل الاخـوان على ذلك القرار ان اهدروا دمه فتم اغتياله بيد احد شباب التنظيم ، وسادت شرعة الاغتيالات والعنف بين الاخوان وخصومهم ، فاعقب ذلك اغتيال زعيم الجماعة الامام الشهيد حسن البنـا .

على اثر ذلك انكمشت حركة الاخوان المسلمين فى مصر ،ولجأت مرغمة للعمل السرى واجرت تغييرا كبيرا فى اطرها التنظيمية والفكرية بما يناسب طبيعة المرحلة ودورهـا فى احداث التحول الفكرى والاجتماعى تمهيدا لكسب نصيب من السلطة يؤمن لها بلوغ الهـدف الذى تجاهد من اجله وهو اقامه الجمهورية والمجتمع الاسلامى . وفى سبيل ذلك جاء اتصالها بحركة (الضباط الاحرار) محاولة لاحتواء ذلك التنظيم ، ولعبت معهم دورا بارزا لخلخلة الوضع السياسى القائم عن طريق العنف والاغتيالات والانفجارات وغيرها ، وجرى اتهامهم وبعض فصائل الضباط الاحرار بحريق القاهرة الشهير ، ولكن التهمـة لم تثبت تماماً ضدهم رغم بقاء الأمر شبهه عالقة بهـم وبتنظيم الضباط الاحرار.

ثم كانت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م ، فلعب فيها تنظيم الاخوان المسلمين دوراً لاينكر ، حيث شارك فى التخطيط والتنفيذ وقلب الأوضاع السياسية فى مصر رأساً على عقب ، والثابت ان ثلث الضباط الاحرار الذين فجروا تلك الثورة كانوا اعضاء منتظمين فى حركة الاخوان المسلمين ، وانهم حاولوا احتواء مجلس قيادة الثورة أو احتواء بعض اعضائه البارزين ومنهم اللواء محمد نجيب نفسه ، فلما شجر الخلاف بين اعضاء المجلس وانقسموا فريقين متصارعين ساندوا بقوة الفريق الذى يناوىء البكباشى جمال عبد الناصر وزمرته .

وبلغ الصراع بين جناحى المجلس اشده فى مارس عام ١٩٥٤م ، حين حاولت مجموعة (جمال عبد الناصر) الاطاحة باللواء محمد نجيب ، ولم توفق وعاد نجيب إلى مركزه فى قيادة المجلس وحكم البلاد بقوة الجماهير التى قادها تنظيم الاخوان المسلمين ، وكانت عودة اللواء نجيب انتصاراً لجهاد الاخوان وسعيهم الرامى إلى حل مجلس قيادة الثورة وعودة الحياة الديمقراطية وشرعية الحكم والتنظيم .

واجه (جمال عبد الناصر) ذلك المخطط بحنكة السياسى المتمرس الخبير فآثر الا يقف فى وجه التيار حتى تخمد ثائرته وتتلاشى قوته فى زحام الاحداث الكبيرة المتلاحقة ، فانصرف وهو رئيس للوزراء — ليعيد فتح ملف القضية المصرية ومراجعة اتفاقية ١٩٣٦م ، وتحييد الوجود البريطانى فى قناة السويس ، وما ان ظهرت ارهاصات الاتفاق حتى تصدى الاخوان المسلمون لمعارضتها وتأليب الناس ضدها ،وحانت الفرصة امام جمال عبد الناصر ليضرب ضربته فى ظروف مواتية فبدأ باعتقال الضباط الموالين لحركة الاخوان وعلى رأسهم (عبد المنعم عبد الرؤوف) وجماعته ، ثم اعقب ذلك باعفاء اللواء محمد نجيب من مناصبه واعتقاله بمنزل (زينب الوكيل) حرم النحاس باشا .

وصل الخلاف بين جمال عبد الناصر وجماعة الاخوان المسلمين ، مرحلة اللاعودة بعد اتفاقية (جمال — هيد) ١٩ اكتوبر ١٩٥٤م وقد ضمنت للانجليز قاعدة عسكرية فى قناة السويس ! ! وحق استخدام الموانىء البحرية والمطارات فى حال تعرض تركيا أو أية دولة عربية لخطر . فانفجر الموقف بين الاخوان والحكومة المصرية بقيادة جمال عبد الناصر ودارت سلسلة من الصراعات والمكائد ورفع الاخوان شعار (الجلاء بالدماء)

وقادوا حملة ضارية ضد عبد الناصر وحكومته. وزعم انصار عبد الناصر ان الاخــوان قد دبروا امرهــم بليل لاغتيــاله ، وجــرت محــاولة التنفيــذ بينما كان عبد الناصر يخطــب في الجماهير بالاســكندرية في السادس والعشرين من اكتــوبر وكان الفشل حليفهم ، وتجزم قيادة الاخوان ان الحدث دبرته مخابرات عبد الناصر فخلقت منه مناخاً دراميا استغله عبد الناصر فى تصفية حركة الاخوان المسلمين واعتقال اعضائها ومصادرة ممتلكاتها ، وفى مقدمة ذلك جهازهم السرى المسلح الذى تمكنت من كشفه مخابرات «زكريا محى الدين» باستمالة بعض ضعاف النفوس فى تنظيم الاخوان المسلمين ، وخاصة الفنيين الذين تعوزهم رابطة العقيدة الدينية والفكر السياسى ، ثم جاء فصل الختام فى ملحمة الصراع الدرامى بين الطرفين ، حيث شكلت محكمة صورية على رأسها جمال سالم ومن اعضائها انور السادات وعبد اللطيف البغدادى قضت باعدام ستة من قادة الاخوان المسلمين هم : محمد عبد اللطيف — وهنداوى ديرو — ويوسف طلعت ، وابراهيم الطيب ، وعبد القادر عودة ، والشيخ محمد فرغلى ، وحكمت بالسجن المؤبــد على آخرين فى طليعتهم زعيم الجماعــة ورأسها المفكر (حسن الهضيبى) وحوكم المئات من اشياعــه بالسجن آمادا متفاوتــة والحق ان المئآت من اعضاء تنظيم الاخوان المسلمين قــد تم القضاء عليهــم بالموت والتعذيب بايــدى رجال الامن والمخابرات !!

دفع الاخوان — فى تلك المحاكمات الصورية — بالقول : ان محاولة اغتيال الرئيس جمال عبد الناصر فى الاسكندرية كانت من تدبير المخابرات واجهزة الامن إذ لايعقل ان يحاول (محمد عبد اللطيف) اغتيال عبد الناصر بمسدس عادى وسط جمع غفير مــن الناس يقدر بالالآف من انصاره المتحمسين ، وداخل طوق حديدى من الحراس حوله ، وكان (محمد عبد اللطيف) على بعد خمس عشرة ياردة من منصة الخطــابة التى يقف ازاءها عبد الناصر يخطب ويلهب حماســة المواطنين . وقــد بدا محمد عبد اللطيف فى تلك المحاكمات ضعيفا منهوك القوى لفرط ما تعرض له من صنوف التعذيب ، مما دفعه الى الاعتراف بذنب لم يرتكبه ليسدل الستار على المجزرة والمأساة .

بهــذا استطاع عبد الناصر ان يضع حــداً لنشاط تنظيم الاخوان المسلمــين ، ولو بصفة مؤقتة ، ولكنه لم يستأصل شأفة التطرف والعصبية الدينية من النفوس ، فسرعان

ما اتخذت لها اشكالا واسماء اخرى وعـادت تستقطب الاتباع وتمتلك ادوات العمـل من سلاح الفكر والمـادة، فظهرت (جماعة الجهاد الاسلامى) و (جماعة التكفير والهجرة) وغيرهما، ولم تلبث ان تبنت اسلوب الاغتيال والتصفية الجسدية كأسلافها، وعلى يدها تم اغتيال الرئيس محمد انور السادات فى يوم احتفاله بنصره فى العاشر من أكتوبر، وهو خليفة عبد النـاصر واحـد اعضاء تلك المحكمة الصورية التى قصمت ظهـر الحركة الاسـلامية التى يقودها الاخوان المسلمون عـام ١٩٥٥ م .

كان صديقى حسين برغم تشيعه قد انتظم فى عقد جماعات الاخوان المسلمين، ربما ليشبع نزعة التطرف الدينى فى نفسه، أو ليجد متنفساً لمشاعر العداء فيها ضد اليهود والمسيحيين على غرار ماكان بعد مقتل بطرس غالى من صراع واحداث دامية، على انه لم يكن عضواً نشطاً فى ذلك التنظيم إذ اقتصرت عضويته على شهود اللقاءات العامة وخاصة حديث الثلاثاء بمركز الجماعة بحـى الحلمية فى القاهرة، كماعنى كثيرا بقراءة رسائلهم ومؤلفاتهم وواصل مع ذلك مسـلكه الشيعى، ولم يحاول حسين اقناعى بفكر أهله الشيعة لاكون منهـم، فهو يرى ان الانتماء لهذه الطائفة يقتضى العنصر قبل سواه من الاشراط اللازمة، ولما كنت سودانياً تجرى الدماء الزنجية في عروقي فانا لااصلح لهذا الغرض. فاستبدل ذلك بالعمل على ضمى لجماعة الاخوان المسلمين، واثمر جهده آخر الأمر فلم امانع فى الانخراط فى صفوفهم، إذ كنت أصحبه عفو الخاطر إلى مركز الجماعة فالتقى بشبابهم المتحمس وأشهد لقاءاتهم لاسبوعية واقرأ طرفاً من مؤلفاتهم ونشراتهم ورسائلهم، فوجد صديقى طريقه ممهداً إلى عقلى مستغلا عاطفتى الدينية الجياشة، وكان له ما اراد .

أصبحت ... مواً فى حركة الاخوان المسلمين بمصر، فغذوا روحى بذلك الزخـم الهائل من اشـ..قات الاسلام وعطر العقيده وسماحة الشرع، ونفثوا فى روعى حب الجهاد والتضحية ..ن اجل الدين عبر القصص التى يروونها عن ملاحم البطولة والفداء فى التاريخ والواقع المعاش، فقد كان يلذ لهم ان يرددوا على مسامعنا مواقف زعمائهم ومغامرات البعض منهم في معسكرات الانجليز ومواجهة السلطة!! وجاءت مرحلة التدريب العسكرى، فتلقيت تدريبى مع كتائب الأزهر الشريف .

حفـل عاما ١٩٥٤م — ١٩٥٥م فى حيـاتى بكثير من التطورات، التحاقـى

بالأزهر ،وغربتي عن الأهل الديار ، وعلاقتي بتنظيم الاخوان المسلمين ، وقد تسى لى ان اشهد قمة مجدالاخوان المسلمين السياسى والفكرى أوائل عام١٩٥٤م ، والفيتنى معجباً إلى حد الوله والانبهار الفكرى بقادة التنظيم يومذاك ،وعلى الأخص المحامى عبدالقادر عوده والاخوين محمد وسيد قطب ،وكم حرصت الا يوفتنى لقاء لهم أو حديث بمركز الاخوان بالحلمية ، لهذا كنت أكثر الناس فجيعة وألماً وتمزقاً بنهاية الاخوان المأسوية ،ولم أخف سخطى وحقدى على قادة الثورة المصرية وعلى رأسهم (جمال عبد الناصر)،وقد درج صديقى (حسين) على تحذيرى من خطر التصريح بهذا الموقف والآراء المناوئة للساطة مع وجود ذلك الجيش الجرار من عيون الدولة ، وشفع تحذيره بصورة مرعبة وحشية لمصير من يقع فى ايديهم من المعارضين ، وفوق ذلك كله فانا سودانى لايحق لى ان اتدخل فى شئون الآخرين ! !

وكان تحذير صديقى (حسين) وافراطه فى نصحى برهان صدق على ذلك الحب العظيم الذى يؤلف بين روحينا ويقود خطانا فى كل اتجاه ، فهو يقول مايقول وينصح ويحذر وهو أكثر شططاً وافراطاً فى معاداة السلطة واقتحام المخاطر ! !

كانت مشاعرنا فى ذلك الظرف العصيب الذى اعقب تصفية التنظيم ومطاردة اعضائه — مزيجاً من الحقد والخوف والتحدى ، ولم يكن احد يضمن لنفسه ان يصبح أو يمسى حرا طليقا ،فلا يمر يوم الا ويتناقل الاخوان اخبار من وقعوا منهم فى ايدى الجلادين ، فكنا إذا افترقنا ودع بعضنا بعضاً وداع من يفارق إلى غير رجعة ، فاذا التقينا من غد سخرنا ضاحكين : حقاً ان للقطط سبع ارواح . فيرد المخاطب منا : عمر الشقى بقى ! ! ..

فى احدى الليالى ايقظنى قرع عنيف متلاحق ، فصحوت مذعوراً والليل يلفظ آخر انفاسه ، وتناهت إلى مسمعى حشرجة اصوات خشنة ، مرت لحظات قبل ان انهض من الفراش ، كنت أفكر فى الامر بغير تركيز ، فأخذت الاصوات تعلو والطرق يزيد ، ولم أجد بداً من فتح باب الغرفة ومواجهة الموقف .

فوجئت بيد قوية تجذبنى فى عنف إلى الخارج ووجه صاحبها سؤالا إلى جمهرة الطلاب من حوله : هو ده محجوب ؟! فاجابه بعضهم جزعاً حزيناً بالايجاب ، عندها

التف حولى ثلاثة من رجال المباحث أو مــن كنا نسميهم (زوار الليل) واخرج أحدهم بطاقته قائلا : أنت مطلوب للتحقيق ! !

فتساءلت فى انكار : أى تحقيق ؟!

فدفعــنى إلى داخل الغرفة وقال: بس البس ملابسك وتعال معانا ، وبعدين تعرف كل حاجة ! ! فامتثلت لأمره صاغراً ، فقد سمعت الكــثير المثير عن غلاظة زوار الليل وشدتهم مع من يعصى لهم أمراً أو يتردد فى تنفيذه ، وله الويل والثبور إذا هو عمد إلى المقاومة والتضليل ، وكان يحلو لبعض ضحاياهم ان يفعل ذلك ولو بصورة شكلية لتأكيد الثبات على المبدأ ، واظهار عزة النفس والكرامة ، فلما تهيأت لهم ، حاول زملائى مــن الطلاب الخروج فى اثرى والذهاب معى مجاملة واداء لواجب الزمالة ، فتصدى لهم زوار الليل فى قســوة بالغه مؤكدين لهم ان كل من تسول له نفسه ان يتابعهم أو يعارض أوامرهم سيلقى نفس ماينتظرنى من جزاء! ! ثم دفعونى أمامهم بعنف وغلظة وجفاء وهم يغلقون باب العمارة من خلفهم ، وانطلقت بنا عربة (بوكس) صوب مركز التحقيق، والشوارع خالية تماماً من السابلة وحركة الحياة ، ورغم ان العربة كانت مغلقة يلفها الظلام ، فقد عصب زوار الليل عيــنى وانا اجلس إلى جانبهم داخل العربة وجاشت نفسى لحظتئذ بمختلف الانفعالات والمشاعر ، الغربة والاسرة المبعثرة فى الآفاق.. مراتع الصبا وذكريات الامس القريب ، وهول الموقف الذى اعيشه! ! كانت رحلة — على قصرها — أشبه برحلة العبور على الصراط ، بيد انى لم أكن انتظر ان القى بعدها مايرجوه المؤمنون من نعيم مقيم.

فى داخل مركز التحقيق ، نزعوا العصابة من عينى ، فبهرنى ضوء المكان لحظــة ، بعد ان دلفنا عبر دهاليز وممرات متعرجة ضيقة ، فما ان ادرت نظرى فى الواقفين مــن حولى حتى صدمت صدمة مريعة ! ! وياهول مارأيت ، شاهدت صديقى «حسين » عــلى حال انكرتها عيناى وانقبضت لها نفسى من الألم ، كان وجهه متورماً دامياً حتى غاصت عيناه فى محاجرهما والدم ينزف من رأسه وجسده غزيراً وهو مطرق الرأس منهوك القوى يتنفس بصعوبة بالغة ! ! وفى غمرة الألم الذى اصابنى لمرآه على تلك الحال ، انتهــرنى صوت غليظ :

— تعرف ده ؟!

فأجبت بغير تردد : ايوه ، ده صاحبي حسين .

فواصل الصوت السـؤال: ايه طبيعة علاقتك بحسين ؟ وما علاقتكما معاً بتنظيم الاخوان المسلمين؟ وهل أنتما من أفراد التنظيم السرى؟وهل شاركتما من قبل فى العمليات الفدائية فى القنال؟ وهل لكما علاقة أو صلة بحزب الوفـد أو غـيره من الأحـزاب؟! وماهو رأيكما فى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م وزعيمها البطل «جمال عبد الناصر» ورأيك أنت شخصياً ـ فى عزل اللواء محمد نجيب عن السلطه ووحدة مصر والسودان وإلى غير ذلك من أسئلة تدور فى هذا الاطار .

كنت اجيب فى عفوية وشيء من حذر احياناً ، واختلس النظر بين فينة وأخرى إلى صديقى (حسين) وهو على حاله تلك، ثم فجأة سقط على الأرض من الاعياء والالم، فركله أحدهم بمقدمة حذائه فى قسـوة ، وهو يطلب منه ان يقف على قدميه كما كان ، ولكن الضابط المحقق أمره بالكف عن ركله ونقله إلى الداخل ، عاد الضابط يسألنى عن صلتى بالمواطن السودانى الشهير (على البربر) المقيم بمصر وعاجـانى مردفاً قبل ان أجيـب :
هو على بيه البربر يبقى عمك ؟ ده راجل عظيم وله مكانة كبيرة فى البلد وأنت اكيد بتحرجه بعمايلك دى .

ادركت سريعاً ان الضابط المحقق قد تشابه عليه البقر كما يقولون ، لان اسمى كمـا يعرفه (محجوب محمد نور بربر) فتطوع مشكوراً باضافة الالف واللام للاسم الاخير من عنده ، وجعل ابى شقيقاً لذلك الرجل العلم فى الحياة السياسية فى قاهرة المعز ، وكنت كالغريق الذى يحاول النجاة فى عباب بحر متلاطم الامواج فيتعلق بقطعة من الخشـب ! ! فزعمت ان الرجل عمى وانا ابن أخيه فابتدرنى ـ عندئذ ـ بسؤال استفسارى للتأكيـد فقال: نحن طبعاً عاملناك بمنتـهى اللطف والكرم ، تنكر دة ؟ وراودنى شعور بحرج موقف الضابط وخشيته عواقب الامور وارضانى ذلك منه ، فقلت مؤكـداً: طبعاً طبعاً . عاملتمونى بمنتهى اللطف والكرم .

ولم يدم فرحي كثيراً، فقد ادار الضابط قرص التلفون الذى يقبع امامه على جانب المنضدة ثم طلب منى ان احادث عمى (على البربر) فى التلفون ليقوم باجراءات كفالتى

واصطحابى معه، وقبل ان اتقدم لتنفيذ ماطلب، شرع يتحدث إلى الطرف الآخر قائلا :

— على بيه ، احنا والله فى منتهى الاسف والحرج ،بس ماباليد حيلة ، زيما سيادتك عارف وصمت قليلا واردف : الحكــاية يابيه ان ابن اخيك معتقل عندنا على ذمة التحقيق ايوه سيادتك، اصله ضالع فى تنظيم الاخوان المسلمين مع الاسف ، هو صحيح احنــا لسه ماكملناش تحقيق .. فاندفعت صوب الضابط وانتزعت سماعة التلفون من قبضتــه ومضيت أقــول :

— ايوه ياعمى ، أنا محجوب . ثم أمسكت فسمعته يقول ..

— انت بتقول ايه ؟! ابن اخويا مين اللى بتتكلم عنو ؟! أنا ماليش أولاد أخوان فى مصر دلوقت !! الو .. الو ..

فاسرعت بالرد عليه بصوت تعمدت ان يكون حــزيناً مؤثراً :

— أنا ياعمى على إسمى محجوب ود أخوك محمد نور برير من ناس سنجة وطالب بالأزهر قبضونى بتهمة العضوية فى تنظيم الاخوان المسلمين ،وكمان معاى صديقى (حسين) ارجوك ياعمــى على تعمل معروف وتجى تعمل لينا ضمانه ارجوك ياعم على .

وجــاءنى صوته بعــد صمت : طيب . . انا فهمــت خلاص، اسمع ، أكد ليهــم انك ود اخــوى وماتخليهم يشكوا فى علاقتك بى ، وادينى الضابط فاعدت ســماعه التليفــون الى الضابط ، وقبل ان يتحدث الى السيد على البرير وضع راحة يــده على منفذ الصوت فيها ليحجب حديثه عن الطرف الاخــر وقال :

— انت ليه بتعرفه بى إسمك وحتتك فى السودان؟هو مش عملك ومفروض يعرف كل حاجة عنك ؟! وبدا لى انه قد شك فى صدق علاقتى بالرجل، فاندفعت الكلمات من فمى مكررة مؤكدة مازعمت طبعا عمى طبعا عمى . فعادت قناعته وانبسطت اساريره وقــال مازحا بعد ان رفع يده عن السماعة : هم كــدة يابيه، عيال متعبين خــالص بس نعمل ايه،قدرنا كدة. .ثم انصت لحظــة وقال: ماتخافش يابيه،مش حيجراله حاجة انا حأبعت لك ضابط الساعة عشرة الصبح علشان سيادتك تفوت علينا، انا بكرر الإعتذار لســيادتك على اللى حصل ، مع السلامة يابيه . . مع السلامة .

وضع الضابط ســماعة التليفون، ونظر الى فى ود ورقه كمن يعتذر عما بدر منه قبلا، ثم اشار الى احــد رجاله قائلا : خــده مع المنتظرين وهاتولى الساعة عشرة بالضبط

وقبل ان أستدير خارجا الى حيث امــر استوقفنى صائحا : اسمع يامحجوب ، انــا حطيتك مع المنتظرين ومنهم صاحبك حسين علشان تعرف ايه اللى كان حيجرالك لولا تدخل البيه عمك ، وكمان حبنا الكبير لاخوانا السودانيين ، بس لازم تعمل حسابك بعد كدة . فوعدته بايماءه خفيفة من رأسى وغادرت المكان .

ذلك بعض ماوعته ذاكرتى عن تلك الليلة الليلاء والظرف العصيب ، فان طمســت الأيام صــور الكلمات وتراكيب العبارات ، فان المضمون والمعــانى لم تمسسها يد التغيير وبقيت حية ماثلة كغيرها من الاحداث الجســام ، وقادنى الرجل الى حيث وضــع المنتظرون ،وياهول مارأيت هناك ،أمسك تماما عن الخوض فى وصف حقيقة مارأيت وبشــاعته ! ! حــذر ان يتهمنى الناس بالمبالغة والتهويل عن قصد ، أو بالجنوح للاساءة الى تاريخ وسيرة الزعيم (جمال عبد الناصر) من خـلال ماكــان يجرى فى مراكــز التحقيق والمعتقلات . ولهذا ابيح لقلمى ان يتجاوز ويطوى صفحات من الذكــريات والتجارب قد يكشف عنها التاريخ ان لم يكن قد فعل .

خرجــت مــن تلك التجربة بزاد لاينفد ،واطاق سراحى بعد اجراءات طويلة معقدة ، ويرجع الفضل فى ذلك لمروءة السيد على البرير ، فهو ان كان عمى حقا لمــا فعل أكثر مما فعل ، وعمت افضاله صديق (حسين) الذى تكفل بضمانته وهو لايعرف عــن حقيقته شيئا ، والواقع ان اجاباتى خلال التحقيق قد مهدت طريق العم على البرير وهــو ينتشلنا من وهدة العذاب وسوء المصير ، وكان من جملة ما افصحت عنه حبنا للحــياة ومتاعها القليل ! ! فجاء ذلك برهاننا قاطعا على ضعف علاقتنا وارتباطنا بتنظيم الاخوان وفكرهم ومسلكهم فى الحياة ، مما يستحيل معه ان نكون فى مواقع الصدارة فى ذلك التنظيم المغضوب عليه .

يعتبر العــم على البرير من صفوة ابناء الســودان الذين اقاموا بالجارة الشقيقة مصر ، عمل فيها بالتجارة فحــقق مكانه مرموقة ، ولعب دورا فى مســار الحركة الوطــنية فى كل من البلدين ، وهو مثال لمواطن وادى النيل الذى لايعرف ولايعترف بالحــدود والانتماء لارض دون أخرى ، فهو حين كان السودان يرزح تحت نير الحكم البريطانى جرؤ على ترشيح نفسه للانتخابات البرلمانية فى مصر ممثلا لدائرة (عابدين) بين عــدد

من المرشحين ابناء البلاد !! وفى ذلك اعتراف صريح بحق السودانيين فى مصر كأبنائها سواء بسواء . وما كان الاستعمار البريطاني ليغض الطرف على ذلك والحكومة المصرية تطالب بوحدة الوادى وتشرع فى تطبيقها بدخول السودانيين فى البرلمان فاحتج حاكم السودان العام لدى الملك فاروق الاول ، فاستجاب لرغبته واحتجاجه على دخول العم على البرير البرلمان المصرى — واندلعت ثورة عارمة فى ارجاء مصر منكرة تدخل الانجليز فى شئون ابناء الوادى الداخلية ، كما انكروا على الملك فاروق مسلكه الموالى لهم ، وتنفيذه لكل اوامرهم ونواهيهم .

ونعود الى ماكان قائماً من صراع بين نظام عبد الناصر وحركة الاخوان فنقول بالطبع ماكان لذلك الصراع السياسى والفكرى الرهيب وتلك المجازر والتصفيات الجسدية والمأساوية ان تنتهى دون ضجة أو جلبة حولها ؛ تنتحل الاعذار والمبررات للفعل ورد الفعل من انصار النظام وخصومه ، فإدعى الاولون ان الاخوان المسلمين من خلال تنظيمهم السياسى وطرحهم الفكرى قد نادوا بتطبيق نظريات وافكار لاتناسب ظروف البلاد وتركيبتها الاجتماعية واوضاعها الاقتصادية ، فتسربلوا برداء الدين وحاولوا نرضها باسمه ، فزعموا انها حقائق وتعاليم مقدسة مستمدة من المصادر الدينية الصحيحة ، و هم — حقيقة — انما يعملون على هدم دعائم المجتمع وبث الفرقة بين طوائفه وخلق نظام حكم دكتاتورى بغيض يخنق حرية الدين والفكر ، وقد نصب الاخوان المسلمون من أنفسهم حكاما لهذا النظام واوصياء على الدين والمجتمع ، فى حين ان الدين ملك للجميع ، وهؤلاء الذين يزعمون لانفسهم تلك الوصاية باسم الدين مستغلين قداسته فى نفوس الدهماء والمشعوذين هم اشبه حالا بطبقه رجال الدين على عهد سطوة الكنيسة المسيحية فى أوربا خلال القرون الوسطى ، اولئك الذين مزجوا ، تعاليم المسيحية بنظريات القداسة التى توافق اهواءهم الشخصيه وزعموا انها حقائق مقدسة وكلمة السماء الى الارض ، فلما اثبت العلم التجريبى فساد افكارهم ونظرياتهم وجردهم من لبوس الزيف ، كان حريا ان يؤمن الناس بالعلم ويكفروا بالدين كما صوره لهم اولئك المحرفون الجهلاء ، بل ثاروا ضدهم ثورة اطاحت بذلك الارث العظيم مالا وجاها وسلطانا .

ذلك ان الكنيسة ورجالها قد فرضوا لانفسهم سلطة الهية مزعومة ، اقاموا على دعائمها انظمة دكتاتورية جثمت على صدر الناس فى أوربا قرونا من الزمان طويلة ، وصاروا

غـولا بشعا يطارد الناس فى يقظتهم ومنامهم ، يفـرض عليهم الاتاوات والخضوع المذل كما يفرض الاوهـام والخرافات . فكان تعذيب العلمـاء وتحريقهـم بالـنار لانهم قالـوا بكروية الارض !! فتنادى القـوم هناك وأهابوا بكل ذى فكر حـر وضمير متحرر ان يسـاعد فى تحطيم ذلك الغول البشع ، وكان الدين — آخر الامر — هو الضحية ، اذ اصبح تجريحه واكتشاف عيوبه وبسـط اخطائه مقارنة بمقولات العلم وحقائقه الدامغة واجبا مقدسا على المفكرين الاحرار ، حتى اشتط بعضهم وغالى فـى معاداة الدين فآمـن بالعلم والطبيعة آلهة يعبـدها من دون الله هـروبا مـن ظلـم الكنيسة وقهر رجالها . وكأنهم يقولون للكنيسة بذلك التوجه الجديد فى فكرهم وحياتهم خذى الهك الذى تستعبدين الناس باسمه ، ولسوف نؤمن باله جديد ، له معظم خصائص الاله الاول ، ولكن ليس له كنيسة تستعبد البشر وتستذل الرقاب .

استطاع احرار اوربا —بمثل ذلك وسواه— ان يكبلوا سلطان رجال الدين ويحرروا الشعوب من بطشهم واذلالهم وعبوديتهم، فخرج الطغيان الدينى من عندهم صوب الشرق يروم فيه مافقده هناك من سطوة ، فارتدى مسوح الاسلام وتزيا بردائه،وحاول — لقرب المكان — ان يتخـذ من (تركيا) قاعدة انطلاق له جديدة ، ولكن زعيمها البطل (كمال اتاتورك) تصدى له وقفل امامه الطريق بالغاء الخلافة الاسـلامية واعلان الدولة العلمانية !! فاتجه الطغيان الدينى طريدا نحو ديار الاسلام والامة العربية ، فتهيأ له المقام فى (مصر) وعول على الانتشار منها فى الامم المجاورة ، ولم يمض وقت طويـل حتى استأسد،ووجد فـى تنظيم الاخوان المسلمين أداة لتنفيذ اغراضه فى القهر والتسلط وبذر بذور الفتنة بين أهل العقائد السماوية.

يمضى انصار النظام الحاكم فى مصر فى عرض دعواهم وتبرير سحقهم لتنظيم الاخوان المسلمين وتصفيته بمثل هذه الادعاءات التى أوردوها من قبل وبعد الحدث المأسـاوى، فـيرد على ذلك قـادة الاخوان المسلمين ، ويدفعون عن أنفسهم قائلين : ان الاسلام يختلف عن كل الديانات السابقة باعتباره دينا شموليا جامعاً لكل تعاليم الرسل والرسالات السماوية السابقة له ، وان من حمل رسالته فى العالمين هو خاتم الانبياء والمرسلين ، ومن ثم جاء الاسلام خلاصة للدين كله ، منهجا قويما للحياة البشرية الفاضلة بكل مقوماتها

يشمل التصور الاعتقادى الكامل الذى يفسر طبيعة الوجود ، ويحدد مكان الإنسان فيه وغاية وجوده الانسانى ، ويشمل النظم والتنظيمات الواقعية التى تنبثق من التصور الاعتقادى ذاك وتستند اليه ، وتجعل له صورة واقعية متمثلة فى حياة البشر ، كالنظام الاخلاقى والاسس التى يقوم عليها والسلطة التى يستمد منها ، والنظام السياسى وشكله وخصائصه ، والنظام الاجتماعى واسسه ومقوماته ، والنظام الاقتصادى وفلسفته وتشكيلاته ، والنظام الدولى وعلاقاته وارتباطاته .

كما يشمل العقيدة الوجدانية والشعائر التعبدية وكل مايلزم الروح من مثل وكمالات ، ولما كان الدين الاسلامى بهذا الشمول والاحاطة ، فقد جاءت الدعوة أليه بذات الشمول فهى واجبة على كل مسلم قادر ، فلا وصاية ولا اوصياء كما يزعم المغرضون ولكنه واجب وتكليف ، كل حسب طاقته وعلمه ومجال تخصصه ، ويتحتم لاداء مثل هذا الواجب ان تنتظم صفوف المسلمين ، وتتوحد كلمتهم ويصبحوا كالبنيان يشد بعضه بعضا .

هذا ولايضير الدعاة المسلمين فى شىء ماكان من أمر الكنيسة فى أوربا ، فالثابت ان المسيحية شأنها شأن كل الاديان السماوية عدا الاسلام — قد تعاورتها أيدى الزيغ والتحريف والغرض ، وان رجالها قد تكالبوا على مغانم الحياة مالا وجاها وسلطانا ، فكانت المفاسد والممارسات الخاطئة والظلم الاجتماعى والطغيان ! !

ان الطغيان ظاهرة من ظواهر الحياة كافة . ينشأ حيثما توفرت له أسباب الوجود والبقاء ، وليس الدين وحده ستارا له فى كل بقاع الارض والعصور ، ان نظرة تأملية للامر تؤكد ان أكثر الجبابرة الطغاة تدثروا باردية أخرى غير الدين ، فهنالك — مثلا — جنكيزخان وهولاكو وهتلر وحتى جمال عبد الناصر ، هل طغى هؤلاء فى الارض باسم الدين ؟! .

نحن نعلم انه باسم الحرية ارتكبت افظع الجرائم ، فهل ننبذ الحرية ؟! وباسم الدستور سجن الابرياء وعذبوا وقتلوا فهل نلغى الدساتير ؟! وباسم الدين قام الطغيان حقا ، فهل ذلك مبرر لالغاء الدين ؟! لعل هذا يكون مطلبا معقولا لو ان الدين فى ذاته — بتعاليمه ونظمه — يؤدى الى الظلم والطغيان . انما علاج الطغيان ان ننشىء

شعبا مؤمنا يقدر الحرية التى ينادى بها الدين ويحرص عليها ، ولسنا نحسب ان نظاما يهدف الى ذلك مثل النظام الذى جعلِ من واجب الشعب تقويم الحاكم الظالم وخلع بيعته وردعه ، لان بيعة المؤمنين — فى واقع الامر — لله ، لالشخص السلطان كما هو الحال في الشرائع الوضعية ، فاذا حاد الحاكم عن منهج الله وعدله ورحمته بالناس ، لم تعد له فى ذمة هؤلاء بيعه .

بمثل هذا وغيره من الفكر المؤسس على دعائم المنطق والبراهين النقلية الواضحة ، والسلوك الانسانى الرشيد ، رد قادة تنظيم الاخوان المسلمين ، فانبرى للرد عليهم انصار النظام الحاكم فى مصر بآراء وحجج جديدة وقام أولئك بالتعقيب على التعقيب ورد الحجة بمثلها واقوى منها ، واتصل سيل من الهجوم الفكرى بين الجانبين ، ثم نادى الاخوان بالثأر والقصاص ، واستفحل الامر ، وتفرقت بالناس السبل ، وتعددت الاسماء والمعارك ! ! فكأنى بامير الشعراء (شوقى) يناشد امته وعامة مواطنيه قائلا :

إلام الخلف بينكموا الاما وهذى الضجة الكبرى علاما
وفيم يكيد بعضكموا لبعض وتبدون العداوة والخصاما
وأين الفوز لامصر استقرت على حال ولاالسودان داما
وكانت مصر اول من اصبتم ولم تحص الجراح ولاالكلاما
ولينا الامر حزبا بعد حزب فلم نك مصلحين ولاكراما
وسسنا الامر حين خلا الينا باهواء النفوس فما استقاما

اثارت حملات التفتيش ومطاردة الاخوان المسلمين واعتقالهم قدرا عظيما عن الخوف والهلع بين جل سكان القاهرة . وبخاصة (المنازل السياحية) أو بتعبير أوضح (بيوت اللهو) اذ اتجهت حملات تمشيط المدينة الى تلك الاماكن واشتطت فى معاملة وادها اعتقادا من سلطات الامن انها ستكون ملاجىء بعيدة عن الاشتباه يلوذ بها الفارون دمن بقايا تنظيم الاخوان ، وجاء ذلك وبالا على نشاط تلك الاماكن السياحية ، وكان صديقى حسين من جملة المحجمين عن التردد عليها فى تلك الظروف ، وله فى تجربة الاعتقال السابقة عظة وعبرة .

كان حسين لايصبر على الحرمان عن ملذات الحياة ، فهى جزء لاينفصم من

مكونات شخصيته واقباله على الدنيا، ودافع للجد والاجتهاد فى الكسب، فالمال — عنده — وسيلة لغايات أهمها متاع الدنيا القليل ، فلما حرم ما كان يحرص عليه ويعمل من اجله عزفت نفسه عن كل شيء ، وفقدت الحياة طعمها لديه، وتقلص طرديا ذلك النشاط الجم فى مباشرة العمل ومعاشرة الناس ، فانكفأ على ذاته واطلق على عام ١٩٥٥م اسم عام الرماض !!

وعلى نقيض ذلك كنت انا ، فذلك العام بالنسبة لى عام الحصاد حقا وصدقا ، فقد انصرفت بعد خروجى من المعتقل بكل طاقتى وعزمى لتحقيق هدف حددته وتوسلت اليه بكل السبل والوسائل ، وهو النجاح فى الشهادة الاعدادية ، وعملا بالمثل القائل (ركاب سرجين وقاع) فقد تقاعست بعض الشيء عن دراستى فى الازهر ، وواصلت الليل بالنهار فى حصص الدراسة المسائية، وتلقى الدروس الخصوصية لدى بعض المعلمين ، وترجت ذلك الجهد الكبير بالانكباب على الاستذكار وحرثت فى أرض العلم حرثا دؤوبا ، فلم يخيب الله تعالى رجائى واعاننى بتوفيقه فاحرزت نجاحا باهرا اذا جاء ترتيبى فى مقدمة الناجحين ، وكانت فرحتى بالانتصار فى معركة الاصرار والعزيمة لاتدانيها فرحة أو كسب مادى حققته فى ايام عمرى الماضية.

توجهت الى العم على البرير بمنزله فاستقبلنى هاشا ودودا كعادته ، ولامنى على قطيعتى له مدة من الزمان طويلة ، فقلت له :

— لعل لى عذرا وانت تلوم ، فلم يكن غيابى الا لأمر ذى بال ، لقد جئت خصيصا لاطلعك على شهادة نجاحى فى الاعدادية فانت — بما نصحت ووجهت — كنت عاملا هاما من عوامل النجاح حين أوصيتنى وانت تجاهد لاطلاق سراحى من أيدى رجال الامن والمخابرات بان اتوفر للعلم وازهد فيما سواه . وان امحو وزرى فى تلك الظروف بنجاح فى الهدف الذى جئت من أجله . وها انذا أقدم الدليل على سمعى وطاعتى وحسن ظنكم بى .

فاهتز العم على البرير لما قلت ، وامتلأت عطفاه فرحا وسعادة وهو يمسك شهادتى بكلتا يديه ويعيد قراءتها ، واطلق لعواطفه العنان فتدافعت من فمه عبارات الثناء والاعجاب حتى أوشكت — لفرط ذلك منه — ان اصدق انه عمى حقيقة .

ثم نقلت لـــه رغبتى فى سلوك طريق التعليم الاميرى فى المدارس، وسألته ان يكمل افضاله على فيتوسط لدخولى بالمدرسة الابراهيمية الثانوية (فى قاردن ستى) ، فدار بيننا حـــوار قصير حول الامر ، ختمه بصورة قاطعة ملؤها الصدق والحب قال لى :

ـ لعلك تحس اننى اضعك فى مقام الابن تماما واحسب انك تضعنى موضع الأب سواء بسواء ، ذلك شعورى تجاهك منذ الوهلة الاولى ، انى انصحك ان تعود الى السودان لتكمل مشوار تعليمك بالمدرسة الثانوية المصرية بالخرطوم ، فهى مدرسة نموذجية من أرفع مدارس المرحلة درجة ومستوى ، وناظرها الاخ عبد العظيم درويش مـــن خيرة المربين واقدرهم ، وقلما يجود زماننا بمثله . ولسوف اكتب لك خطاب توصية له شخصيا ، وآخر للاخ السفير محمود سيف اليزل خليفة، ولاشك فى دخولك المدرسة بعد ذلك . فما رأيك ؟

لم أجد سببا يدعونى لرفض العرض الابوى الكريم فابديت موافقة عفوية صادقة، اضفت مزيدا من الرضا والحبور على نفس العم على البرير، فمضى يقول: ارجو لك مرة اخرى التوفيق واستمرار النجاح ، على ان تظل على اتصال بى لتطلعنى على اخبار تقدمك العلمى أولا بأول وانى لاحسب ان لك فى الحياة شأنا لاشك بالغه ! ! وليت العمر يمتد بى حتى ارى صدق هذه النبؤة يوما .

أجبته خـــيرا ووعدته بما يريد ، فهب من فوره وانحنى جانبا ودبج الخطابين ، ثم دلف الى الداخل برهة وعاد يحمل ماكتب بيد ويده الاخرى تمتد الى بصندوق صغير جميل وقال : هدية نجاحك طقم اقلام باركر ، فكرت وقدرت فلم اجد خيرا مـــن القلم هدية وأسأل الله لك مجده فى قابل أيامك ! ! شكرته وودعته منفعلا ، وغـــادرت منزله ونفسى تجيش بمختلف الافكار والتأملات .

ثم عملت من الغداة على قطع علاقتى بالدراسة الازهرية ، فالتقيت بالشيخ تـــاج السر أبوبكر شيخ رواق السنارية ، وحدثته بما اعتـــزم ، فلم يمانع ونصحنى باستبقـــاء العلاقة قائمة ، كى يتسنى لى ان اصرف استحقاقى من الاعانة عن شهور الاجازة السنوية الثلاثة ، وهى مبلغ يغرى بالتراجع فعلا ، يصرف مقدماً للطلاب المسافرين إلى ذويهـــم بالسودان خلال العطلة ، واشار على بترك امر الدراسة بالازهر للظروف ، فان عـــدت

يوماً وجدت مكاني شاغراً ينتظر ، وان مضيت لحال سبيلي تم فصلي تلقائياً بسبب الغياب. وكان الرجل محقاً في رأيه ، فاستصوبته وعولت على العمل به .

وتسابقت الأيام سراعاً ، فاعددت لرحلة العودة إلى السودان عـدتها ، ووقـف صديقي حسين وبعض أفراد اسرته لوداعي برصيف محطة القاهرة للسكك الحديدية ، أو (باب الحديد) كما تعارف أهل المدينة على تسميتها ، كان موقفاً شعورياً لاهباً مستعراً ، زلزل عواطفنا وحرك في نفوسنا الاشجان وآلام الفراق ،وكنا نجهد في كتمانها واحتمالها بغير طائل،وحاول صديقي (حسين) ان يخترق حاجز الانفعال بالموقف بتعليقاته الساخرة المفتعلـة ، وحانـت ساعـة الفراق بغتة ، فتعانقنا طويلا وذرفت اعيننا الدموع ،ثم تسلقت سلم القطار واخذت مكاني به ، وشرعت الوح لهم بكلتا يدى ونفس تنفطر حزناً

جاشت نفسي بزخم من المشاعر والانفعالات والذكريات وقطار الصعيد ينهـب بنا الأرض، مودعاً قاهرة المعز ، مخترقاً الحقـول والمدن عبر عديد الجسور والمزالـق والخضرة الممتدة ، لايلقي بالا إلى المحطات الصغيرة ولا يعيرها اهتماماً ، يلهث صوب وجهته مثل كلب صيد بارع يأبى الا ان يدرك فريسته مدينة (اسـوان) عاصمة وجـه مصر القبلي ، ومسقط رأس اديبها الفذ عباس محمود العقاد .

ادرك قطارنا المدينة معفراً خائراً يئن مـن الأرهاق والكلال ، فبارحناه متخـذين وجهتنا صوب (مدينة الشلال) ميناء البواخر النيلية .

كان مشروع السد العالي يومئذ حبراً على ورق دهاقته الهندسة المعمارية في مصر ، وحلماً يراود مطامحهم يصل بين أمجاد الفراعنة المعجزة ومنجزات الثورة العملاقة، ومـا فتىء الرئيس جمال عبد الناصر يبشر به في كل حين يرفعه شعاراً ويؤكله هدفاً ويغذوه اصراراً وتصميماً وعزماً .

هناك في منتصف النيل قبالة ميناء الشـلال، وقفت في خشـوع اتأمل ذلك البناء الاثرى الفخيم الذى يغوص بعضه في قاع النيل ويطفو بعضه على وجه الماء ، قيل لنا ان اسمه (قصر انس الوجود)، احدى ملكات النوبة في العصور الخوالي ،وقد شيدت عرين ملكها في احشاء النيل لتحتمي به مـن الغزاة والطامعين ، كما ترك غيرها من الملوك في

فى تلك الجهات آثاراً باقية على مدى الرحله من الشلال حتى حلفا ، اشهرها واعظمها عماره بناء ابو سنبل قريبا من الحدود السودانية ، قامت وبقيت تلك الاثار دليلا على عظمه الحضارة النوبيه كامتداد لجذورها الفرعونية فى الشمال ، وكان قد تهيأ لملوك النوبه ان حكموا ارض مصر وشعبها من السودان ، وبذلك ترجموا وحدة وادى النيل حقيقة وحياة يشهد بذلك تاريخ ممالك النوبة وطيبة ونبتة ، ومسيرة فراعنتهم بعانخى وترهاقا حقيقة شابها غموض وتعتيم مقصود ، من الاستعمار البريطانى الذى يتوسل لغاياته فى السيطرة وامتصاص قدرات الشعوب بذلك المبدأ السياسى اللئيم (فرق تسد) فشطر الوادى نصفين ، لينفرد بحكمهما معا .

ثارت تلك المشاهد الخالدة على ضفتى النيل العظيم كوامن الشجن والذكريات فى نفسى التى هدها طول البحث عن حقائق الاشياء ، وقد كانت نفسى تواقة للمعرفة فى تلك المرحلة من العمر ، وتلاقحت فيها — والباخرة تشق عباب النيل صاعدة ضد التيار — معالم الماضى السحيق والحاضر الماثل والمستقبل المجهول ، وتمازج ذلك كله وتبلور قناعة باقية وعقيدة راسخة بأن الناس فى هذا الوادى كانوا ومابرحوا ولسوف يصبحون وحدة لاتتجزأ وقوة فاعلة مؤثرة فى محيطها العربى والافريقى ، بل فى العالم أجمع ، ولم ينل من رسوخ تلك العقيدة تعليقات بعض ركاب الباخرة وهم يشاركوننى متعة النظر والتأمل فى تلك الاثار والقرى القائمة على الضفاف ، ثم يمصمصون الشفاه أسى وحسرة من المصير المؤلم والزوال الاكيد لتلك القرى والآثار عند قيام السد العالى ، حين تتكدس مياه النيل من خلفه ، وتبتلع مياه البحيرة الغول معالم أرض النوبة وتمحو من الوجود مجدها الاثيل وآثارها الماثلة .

لم يجاوز أولئك المتحسرون على مصير بلاد النوبة ماجرى بعد ذلك عند قيام السد ، رغم المرارة التى أحسها البعض من قبل ومن بعد ، فقد جاء الانجاز عظيما بحق ، ثمر على ارض الواقع أروع الثمار ، عطاء موصول لاينفد على الايام . فكان لابد أن يحدث ماحدث ادراكا لغايات بعيدة وخضوعا لسنة الحياة والتطور ، وليس جديدا على البشرية ان تبنى امجادها على الدمار وازهاق الارواح !! بل اضحى ذلك مبدأ ثابتا تفرضه رياح التغيير وحكمة التعادلية ، فلا تكون الولادة بغير آلام ومخاض ، وقد يشتط بعض

الناس فى تصور وتصوير حقيقة ذلك الالم والمخاض ، فيهول الامر ويبالغ فيه ، فـــاذا اخذنا بلاد النوبة مثلا على ذلك ، فان جملة من المدن والدساكر قامت ونشأت من العدم بديلا حضاريا لها يوفر للانسان ظروفا أفضل للحياة ، مثل مدينة (حلفا الجديدة) بمنطقة خشم القربة التى هيــأت للمهاجرين من ابناء حلفا حياة أوفر خيرا وعطاء، كذلك قامت عديد من القرى والامصار فى صعيد مصر الجوانى ، وما كان لها أن تقوم لولا ماحدث. ولم يذهب الامر بكل شيء حسرات ، حيث عاود بعض المهاجرين سكناهم فى جوار حلفا وغيرها من القرى ،حرصا على البقاء فى المنابت،واضافة لما هو قائم فى مكان جديد.

وفى قمرة بالدرجة الاولى من الباخرة كنت اجتر الذكريات واتأمل الاحداث من حولى ، وقد يتساءل البعض عن وجودى فى ذلك المكان المميز ، واقرانى بصندل الدرجة الثالثة !! واجد فى هذا التساؤل فرصة للتعريف بأمر هام ، فقد كنت — ومازلت — حريصا على الخلوة والتأمل مهما كلفنى ذلك من جهد أو مال،فاعيش الحدث فى أعمق اعماقه مرات ومرات ، ومـــن هنا اختزنت واعيتى ملايين الاحداث والذكـــريات والتفاصيل الدقيقة ، وأكثرها بقاء فى ذاكرتى مايتصل منها بحياتى من قريب أو بعيد ، ومن هنا كانت ملكة الحفظ والاسترجاع عندى مطواعة ثرة .

كان يخامرنى شعور بان رحلة العودة من أرض الكنانة الى السودان قد لايجود بها الدهر يوما ، فاردت أن يكون لها طعم ومذاق يبقى أثره مابقيت على قيد الحياة ، فبذلت مالى راضيا للتمتع بمباهج الرحلة والافــادة منها ، فكان مقامى بالدرجة الاولى بالباخرة والقطار وقد درجت على ذلك فى قابل ايامى وأصبح عادة فرضت سلطانها على نفسى .

حللنا بالخرطوم اخيرا وحملت خطابات التوصية التى زودنى بها العم على البرير ، وتوجهــت لمقابلة الســفير المصرى الســيد محمود سيف اليزل خليفة ، فلم اجــد عنتا فى لقــائه وما أن قرأ الرســالة حتى ادركه شيء من العناية والحبور ، ومــضى يسألنى مستفسرا عن أحوال العم على البرير وصحته وما شاكــل ذلك ، ثم رفع سماعة التليفون امامه ، وحادث ناظر المدرسة الثانوية الاستاذ عبد العظيم درويش فى أمر قبولى ضمن طلاب المدرسة،فلما اعاد السماعة مكانها طلب منى الذهاب بأوراقى لمقابلة الناظر.

فحص الاستاذ درويش أوراقى باهتمام، وعناية كما قرأ خطاب العم على البرير الذى حملته له ، ثم دعـا الى مكتبه المشرف التربوى للمدرسة الاستاذ محمد ضيف ، فلما مـثل امامه طلب منه تسجيلى ضمن طلبة الصف الاول للعام القادم ، وخرجت من مكتب الناظر فى اثر المشرف التربوى بغية اكمال الاجراءات ، فسألنى ان كنت أرغب فى السـكن بداخلية المدرسة أو خارجها ، واجبته بحماس عظيم عن رغبتى فى سكن الداخلية فلـم يعترض وذكرنى بضرورة الوفاء بمتطلبات ذلك وهى احضار مبلغ ثلاثين جنيها عبارة عن رسوم السكن بالداخلية للعام الواحد ، وبعض المعدات الشخصية اللازمة عند افـتتاح المدرسة فى منتصف شهر أغسطس من ذلك العام ، فنقدته المبلغ فورا مما تبقـى لدى من مـال ، وتسلمت ايصالا يثبت انتمائى لاسرة مدرسة الخرطوم الثانوية المـصرية، وخرجت من باب المدرسة وانا أكاد اطير من نشوة الفرح والظفر ، وكان ذلك بحـق انجـازا كبيرا فى تلك الظروف ، اذ ان المدرسة بما لهـا من سمعة طيبة ومكانة مرموقة بين مدارس العاصمة كانت أمنية بعيدة المنال للراغبين ، وهى عينها ذلك الصرح العتيق الذى عرف فيما بعد باسم (جامعة القاهرة فرع/الخرطوم) وجـاء تطورها على مراحل متعاقبة ، فاستخدمت مبانى المدرسة أول الامر لاغراض الجامعة ليلا ، ثم تغولت الجامعة واستأثرت بالمكان. ويشاء القدر فى مصادفاته العجيبة ان يكون تعليمى فى المرحلتين الثانوية والجامعية، بل وما بعد ذلك من دراسات فوق الجامعية بهذا الحرم المعطاء والدوحة الظليلة .

ليس ذلك فحسب ، فعلى نفس الارض والمكان ، قامـت المزرعة المطرية التجريبية لمـدرسة الخرطوم التجهيزية الاولـية فى عهد الحكم التركى، وقد عرفت فى قابل الايام باسم مدرسة الخرطوم شرق الأولية والتى جرى هدمها اخيرا لتقوم على أرضها عمارة استثمارية حديثة . ومن اعلام نظارها والقائمين بامرها وقت نشأتها الاولى رجل العلم والادب (رفاعة رافع الطهطاوى) الذى أرسله الخديوى اسماعيل (١٨٦٣–١٨٧٩) الى السـودان لهـذا الغرض وذهب البعض الى ان مجيئه فى حقيقة الامر كان من قبيل النفى والابعاد ، لمـا بدر منه من مواقف المعارضة والثورة على حكم الخديوى وسياسته فى مصر ، فرمى الخديوى اسماعيل الى التخلص مـنه متسترا بنوايا نشر العلم فى الجزء الجنوبى من الوادى.

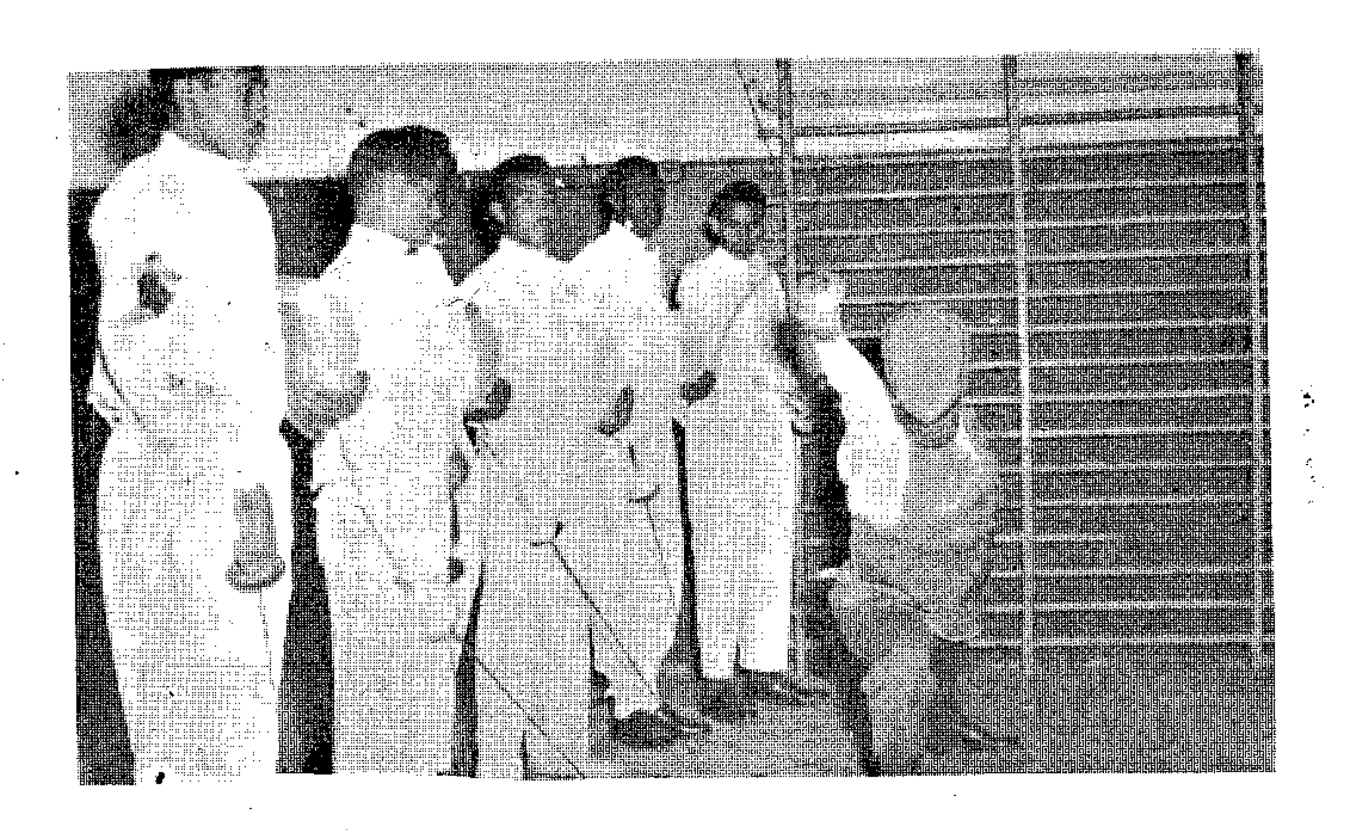
تلقى الطهطاوى دراسته بالازهر الشريف، ثم ارسل فى بعثة دراسية الى فرنسا، عاد منها لينشىء مدرسة الالسن بالقاهرة ، وبقى بها حتى كان ابعاده الى السودان، فلما حل بارضه ضرب صفحا عما كان بينه وبين الخديوى من خلاف ، وتجرد لاداء مهمته فى نبل واخلاص . فتخرج من مدرسة الخرطوم التجهيزية الرعيل الاول من العاملين فى دواوين الحكومة، وتقلدوا وظائف الكتبة والمترجمين وعمال الطباعة وصغار الموظفين، كما تخرج منها نخبة من العلماء والمثقفين، حيث انشأ الطهطاوى الى جانب فصول الدراسة النظامية مكتبة عظيمة جلب لها امهات التصانيف والمؤلفات من مصر وتركيا وأوربا والحجاز فكانت منهلا ثرا للواردين من طلاب العلم وعشاق المعرفة .

ثم اندثرت تلك المدرسة وذهب مجدها عند قيام دولة المهدية فى السودان (١٨٨٥م — ١٨٩٨) وبقيت مبانيها اطلالا ينعق فيها البوم ردحا من الزمان طويلا ، حتى اذا انجلى غبار الحرب العالمية الأولى أمر السير ريجنالد ونجت حاكم عام السودان باصلاح مبانيها ومعاودة نشاطها التعليمى والتربوى، كما اقامت الحكومة المصرية على أرض مزرعتها المطرية ١٩٤٥م مدرسة ثانوية نموذجية ، سميت أولا باسم (مدرسة الملك فاروق الثانوية) ثم تغير اسمها بعد نجاح الثورة المصرية ١٩٥٢ فاطلق عليها (مدرسة الخرطوم الثانوية المصرية) وحين سطع نجم عبد الناصر فى الآفاق وسار بذكره الركبان آثر القائمون على أمر المدرسة ان يحولوا اسمها الى (مدرسة جمال عبد الناصر الثانوية) وهى آخر المراحل قبل تحولها الى جامعة القاهرة بالخرطوم .

قضيت اجازتى الصيفية فى تجوال بعيد ، فزرت أهلى ، وعشت مع أمى واختى أياما حافلة بصادق الحب ودفء الحنان ، ثم اتخذت طريقى الى ابى فى مهجره خارج البلاد وكم كانت فرحته باللقاء وما احرزته من نتائج باهرة ، ومافتىء يستزيدنى من حديث الذكريات عن مقامى بارض الكنانة منذ وطئتها قدماى حتى بارحتها عائدا ، فيلذ له ان يعيد ماقلته له على اسماع أهل منزله واضيافه ومعارفه من الجلابة المغتربين واتسمت روايته بالفخر والزهو بما حقق ابنه من طموح ونجاحات ماكانت لتتأتى لغيره ابدا ، وفى مثل ذلك وغيره تصرمت الايام سراعا كلمح البصر .

الثانوية المصرية
وجزيل الذكريات





المؤلف طالب بالمدرسه الثانويه المصريه

المؤلف أحد اعضاء الرياضة وشعبه التمثيل بالمدرسة الثانوية

١١

مع بداية العام الدراسى ، استقبلتنا مدرسة الخرطوم الثانوية المصرية بمهرجان حافل عظيم وكان ذلك تقليدا جرى به العـرف كل عام ، شمل المهرجان ضروبا من الفن والرياضة والادب واقيم لكل من هذه المناشط يوم خاص ، فكان اليوم الرياضى باشراف مسئول الرياضة فى البعثة التعليمية الاستاذ كمال اميرى يشاطره ضابط الرياضة بالمدرسة ، ويحفظ الرعيل الأول للرياضيين السودانيين للاستاذ كمال أميرى فضله على كثير مـن فنون الرياضة فى البلاد وبخاصة العاب القوى ، وتلا ذلك كرنفالات الابداع فى يـوم لموسـيقى والغناء والمسـرح ، برعاية الموسيقار المعروف مصطفى كامل وكان يومئذ استاذ الموسيقى بالمدرسة ، ولـه اسهاماته المقدرة فى تطور المرسيقى والغناء فى السودان بما أبدع من مقطوعات رائعة على آلة القانون ، وتعليمه للرواد الاوائل من الموسـيقين السـودانيين امثال الفنان التاج مصطفى والفنان العاقب محمد الحسن وغيرهما ، ولسوف تعـرف له الاجيال ذلك الدور الكبير حين تؤرخ لتطور فن الموسيقى فـى البلاد ، أمـا جانب المسـرح من تلك الليلة فقد اضطلع بالاشراف عليه واخراجه الفنان الكوميدى المعروف محمد المصرى الشهير باسم (ابولمعـة) فقدم حصيلة غرسه لعام كامـل ، فابدع وامتع .

ومن ثم استطاع أولئك العمالقة وغيرهم من الموهوبين والهواة ان يمتلكوا اسماع الناس وقلوبهم لايام ثلاثة حاشدات باحسن مايكون البذل والابداع شكلا ومضمونا — ومن بعد الفيت مدرسة الخرطوم الثانوية المصرية مدرسة نموذجية من الطراز الاول، بل تتفوق على كثير من رصيفاتها فى القطر المصرى نفسه، ويعلق بعض الخبثاء من ابناء السودان ، آنذاك بان الحكومة المصرية اتخـذت من ذلك الصرح العظيم ركيزة مجسمة للدعاية الثقافيه المكثفة خاصةوقد وجدت نفسها مجابهةفى السودان بمدارس نموذجية عدة اقامتها الادارة البريطانية مثل مدرسة وادى سيدنا ومدرسة حنتوب ومدرسـة خورطقت ورمـبيك وبورتسـودان وغيرها ، ناهيك عما شادته البعثات التبشرية من مؤسسات تعليمية أخرى ، مثـل مدارس الكمبونى والراهبات وغيرها فلـم تجد الحكـومة المـصرية والحـال كذلك — مناصا من ولوج ساحة السباق ، فنثرت مافى كنانتها من فكر وقدرة ، وخرجت على أهل السودان بتلك المدرسة الشامخة العملاقة .

ومهمــا يكن من أمر فان مجرد التشكيك من جانب اعداء وحــدة وادى النيل بما يراد به من وراء مدرسة الخرطوم الثانوية المصرية من غايات غير منظورة لدليل على علــو شأنها ومكانتها بين اضرابها من المدارس الثانوية فى الســودان .

ومن بعد زال حجاب الكلفة بينى وبين المدرسة اذ غدوت من ابنائها ومحارمها الاقربين ، فتكشفت لى عن آيات من الحســن والبهاء والنظام ، فهى ثلاثة انهر لكل صف أ ، ب ، ج تجــرى من خلال مســاقين اثنين علمى وأدبى ، وقد تقسم طلابها فى مناشطهم الفنية والأدبية والرياضية أسراً اربعه : اسرة رمسيس ، وأسرة تحتمس ، وأسرة عمرو بن العاص ، وأسرة على عبد اللطيف !! تســاءلت : لمــاذا عمرو بن العاص دون سواه من حكام مصر واعلام العرب فكانت الاجابة ان الرجل هو فاتح مصر على مجد الحضارة الاسلامية ، ومنشىء عروبتها بذلك الفتح المبين ، ثم عدت اسأل : فلماذا على عبداللطيف دون غيره من القمم الوطنية السامقة ؟! قيل لى : لأنه مؤسس جمعية اللواء الابيض ، تلك التى ازمعت تحقيق الوحــدة بين شطرى وادى النيل فمهرتها بالدمــاء والأنفس وكل التضحيات حتى كان ماكان !! ولم اشأ ان اسأل عن مغزى التسمية باسماء الفــراعنة الاولين ، فالامر هاهــنا واضح جلى .

درجــت المدرسة على تقديم وجبتى الفطور والغداء لطلابها فى غرفة الطعام المهولــة الشاسعة التى تسع مايفوق الألف طالب دفعة واحدة ، وأن ينســى الطــلاب وجبة أو أخرى فهم لاينســون ابدا غداء يوم الاربعاء ، فهو يتميز عن كل أيام الأســبوع الاخرى بتقديم وجبة شهية دسمة مــن الدجاج وشــوربته . وكانت مسئولية الاشراف على اعداد وجبات الطعام وتقديمها دورية بين طــلاب الاسر الاربعة ، وصادف ان امــتد نشاطى ليشمل توزيع الشوربة على الطلاب فى غرفة الطعام الضخمة ثم الانتظار والوقوف على رؤوسهم مع عامل يحمل اناء مملوءاً منها ، لاعطاء من يطلب المزيد وهم كثر ، فكانوا يرفعون ايديهم ويطرقعون باصابعهم وهم يتصايحون :

ـ محجوب ادينا شــوربة ، شوربة يامحجوب ، يامحجوب شوربة ، محجوب شوربة

فانتقل بين صفوفهم استجيب لتلك الرغبات الملحاحة ، واجد فى ذلك متعة عظيمة فعلق شخصى وارتبط فى اذهان البعض بحساء الشوربة اللذيذ ، فجعــلوا منها لقــبا ملازماً

لاسمى ، فعرفت بينهم باسم (محجوب شوربة) تعريفا وتمييزا لى عمن يحمـــل نفس الاسم من طلاب المدرسة .

ولاافشـــى سراً ان قلت ان ذلك قـــد حفزنى لمزيد من الامجاد فى عالم صناعة الطعام من بعد ، فأنشأت عددا من المطاعم الشهيرة فى أهم مواقع العاصمة القومية (الخرطوم) لعـــل أقربها الى الذاكرة (بيكاديللى) فى قلب ميدان المحطة الوسطى ومطعم (وادى— النيل) فى شرق الخرطوم .

وكان للمدرسة داخلية منظمة للطلاب من خارج العاصمة عبارة عن عدد مـــن المنازل المؤجرة لهذا الغرض فى حى المقرن بالخرطوم، يقوم بامر الاشراف عليهـــا الاســـتاذ عبد السلام محمد فهيم وهو رجل حصيف ومرب فاضل ، لين العريكة ودود رغم مايبدو على قسماته من مظاهر القســـوة والصرامة استطاع إدارة الداخلية بصورة مثالية من النظام والانضباط حتى جعل منها ثكنة للطلاب وكان يشرف بنفسه على حصة المذاكرة وتبـــدأ عادة فى السادسة مساء وتنتهى فى التاسعة . يلاحق الطلاب فى اداء واجباتهم المدرسيـــة اليومية ويبذل علمه لمن شاء منهم فرادى وجماعات . بل ويدفعه حرصه احياناً لاستجلاب عدد مـــن المعلمين بالمدرسة ومدارس الاقباط والمدارس السودانية ومدارس كمبونـــى لتدريس اللغة الانجليزية وغيرها من العلوم مستغلا فى ذلك علاقـــاته الشخصية ومـــاله الخاص !! يبذله باصرار على انه قيمة الترحيل بالتاكسى للاساتذة المتعاونين ، كل ذلك حرصاً على مصلحة ابنائه الطلاب بالداخلية ، وكان لايفتأ يردد القول :

ــ الداخلية دى بتى ، وانتم احفادى ، شوفوا بقى ايه يكون شعور الجد لما حفيده ينجح؟!

من اسمه اخذ الاستاذ عبد السلام ذلك الخير الدافق ، وكانت نفسه تغترف سعادتها الحقه من صنيع يديه لايدع لحظة تمـــر فلا يعطى من ذات نفسه شيئاً وان قليلا ، ومـــن هنا غرق ابناؤه الطلاب فى لجج انعامه وحبه وفيوض روحه الكريمة فليرحمه الله بقـــدر مابذل وأعطى ، فقد كان اماماً للاخيار ، وقليل ماهم فى عالم اليوم .

جاء وجودى بداخلية المدرسة امتداداً للحياة الطلابية التى خبرتها من قبل فى عمارة الاوقاف بالأزهر مع اختلاف الزمان والمكان والوجوه ، بيد ان ذاك الخلاف والاختلاف لم يغير كثيراً من مشاعرى واحساسى بنبض الحياة ، فكلا المكانين داخلية للطلاب تعـــج

بالحركة والتفاعل والصراع احياناً، ولكنى فى هذه الأخيرة فقدت تلك المكانة العليا التى حظيت بها بفضـــل منائحى وهباتى من ريع ذلك النشـــاط التجارى،ووجدتنى والاخرين هاهنا سواسية كاسنان المشط ، وان اختلفت التوجيهات والاهتمامات والمشارب ، وكما يجرى عادة في مثل تلك التجمعات انعقدت وشائج الصداقـــة والحب بين كل مجموعة وأخرى من الطلاب فكان أقربهم منى واحبهم إلى الصديق مصطفى النجاشى ، وهـــو بين زملائه عظيم الالق محبوب مهيب .

حدثنى عن اسمه فقال ان والده ارسل تلغرافاً — حين علم بمولده — من مدينـــة كوستى حيث كان يعمل آنذاك ، وكان قد نذر على نفسه ان يسمى مولوده باسم الزعيم المصرى (مصطفى النحاس) ان جاء الوليد ذكراً،فلما رزق به لم يتردد فى الوفاء بالنذر وبعث برقية بالاسم إلى اصهاره وزوجته للتنفيذ ! ! ولكن عامل التلغراف اخطأ بوضـــع نقطة تحت حرف الحاء المهملة فاصبحت جيماً ، وصار الاسم رغماً عن نذر ابيـــه مصطفى النجاشى ، ونفذ الاصهار مشيئة عامل التلغراف لا الأب ، votes وروجوا فى الناس ما اختاره عامل التلغراف غير عامد نجاشياً على ملة الاســـلام ! ! .

كان النجاشى يحمل فى حنايا نفسه شيئاً مزيجـــاً من ملامح اعرفها فى شخصـــى وأخرى تبينتها فى صديقى الشيعى (حسين) فى مصر ، ورغم ذلك فهو نسيج وحده ، لايماثله آخر فى كثير من مواهبه وقدراته وتطلعاته البعيدة ، تصطرع فى دواخله حقائق الاشياء فى عنف فيثور على ماتأباه نفسه من مسلمات يأخذ بها الاخرون فاذا هو مخلوق يجهد فى كشف الامـــور واستيقانهـــا ويرفض الانقياد والتسليم بما هو قائم من مواريث الفكر والسلوك ، فاذا ثورته إستشراف لافاق جديدة ، وعوالم لايكتفى بالوقوف منهـــا موقف المتلقى العاجز عن العطاء،بل يحاول ان يضع بصماته على كل شىء يجرى بين يديه.

لعل ابرز سمات شخصية النجاشى نزوعه الدائم للتفوق فى كل مجال تطمح نفسه إليه،ويعتريه شعور كاليقين بانه لم يخلق لضرب دون آخر من ضروب النشاط الإنسانى ، بل خلق ليضرب فى كل ساحة بسهم نافذ ، ويأتى من العدم بما لم تســـتطعه الاوائل ، يقفز فوق الزمان والمكان والحادث ،ليصل البدايات بالغايات انجازاً مبدعاً لايتأتى لسواه، فهـــو بطل المدرسة فى السباحة والقفز والاسكواش ، والأول على اقرانه فى جمعيـــة

الموسيقى ، لقبه استاذه الموسيقار الكبير (مصطفى كامل) بلقب (بيتهوفن الصغـير) ، وكنا اذا غنى الفنان ابراهيم عوض من المذياع اغنيته التي مطلعها : ليه ياقاسى ياقاسى ليه نسيت اخلاصى ، نحرف الكلم عن مواضعه مرددين : يانجاشى نجاشى ليه نسيت إخلاصى ! ويشاركنا النجاشى الغناء وهو يرقص فى مراح وابداع لايجـارى ، فقد كان مديناً للالق والسموق حيثما اتجهت عزيمته ، حتى فى الرقص ! ! وكم حاول ان يفرض سطوته وزعامته على طلبة المدرسة فيستجيب له البعض مدفوعين بسحر شخصيته وصفاته المتفردة.

وجد النجاشى عند التحاقه بالمدرسة ثلاثة تيارات فكرية متصارعة ، هم الشيوعيون والاخوان المسلمون ، والقوميون العرب ، فلما لم يكن من شأنه التسليم والانقياد لما هـو كائن ، فقد شرع يعمل عقله فى آراء ومعتقدات كل طائفة منهم عله يأخذ بما يروق له منها أو ينبذها جميعاً ليسلك طريقاً آخر يوافق مزاجه ويحقق له طمأنينة النفس والاعتقاد.

بدأ بفكر بالاخوان المسلمين ، وحين علم بما كان بيني وبين تنظيمهم من علاقة عضوية خلال تواجدى بمصر اعتقد جازماً بانى — وقد لاقيت هناك مالاقيت — لابد ن أكـون مـن غلاة المتطرفين لهذا الفكر دون سواه ! فأذهله ان يجدنى على غير مارأى وتصور ، وتضاعفت دهشته إذ لم يجد لدى من كتبهم ومنشوراتهم ورسائلهم مايروى غليله وهـو الظامىء لمعرفة الحقيقة وكشف بواطن الامـور — فأخذ يبحث عن ضالته لدى الاعضاء فى تنظيم الاخوان بالسـودان ، ثم حاول جذبى معه فى ذلك الاتجاه كيما اصل الفرع بالجذور وبذل فى ذلك جهداً عظيماً ، ولكنى اقنعته ببساطة متناهية بأننى تحللت من كل التزام عقائدى واعتزلت طريق العمل بالسياسة فاصبحت فى عداد من يسمون بالمستقلين .

فلم يعجبه ذلك منى وانكره على عاتباً واندفع بطريقته الخاصة ينهل من معين التنظيم المحلى ، ووجد فى جريدة كانت تصدر آنذاك باسم (الأخوان المسلمين) يحررها صادق عبد الله عبد الماجد ماينقع غلته ويفى بحاجته ولو قليلا ، وكانت تلك الجريدة قد بـدأ صدورها فى ٢٦ يونيو ١٩٥٦م وتم طباعتها فى مطابع جريدة الرأى العام ، وكانت تتخذ لها مقراً مؤقتاً بعمارة الصحف الاستقلالية بالسـوق العربى .

على نسق جريدة (الاخوان المسلمين) حرر النجاشى جريدة حائطية بالمدرسـة اختار لها اسم (الجهاد) يعرض فيها ماتوصل إليه مـن افكار اسلامية ويقدم فيها مايروق

له من مقالات جريدة الاخوان المسلمين في باب سماه (لك أخي القارىء) ولكنه مع كل ذلك لم يشأ ان ينخرط في عضوية الاخوان.

رغم انتظامنا في المساق العلمي انعقدت أواصر الفكر بين صديقي النجاشي واستاذ الفلسفة الذي كان يدرس المادة لطلبة القسم الأدبي واتخذه اماماً مرشداً في متاهات الصراع بين العقائد والمبادىء الرائجة ، كان الاستاذ فطرياً في منهجه الديني متأثراً إلى حد كبير بافكار فيلسوف الاسلام (ابن طفيل) التي بلورها في قصته الخالدة (حي بن يقظان) وفي معرض تجاوبه مع ذلك اللهف والحرص من تلميذه ، دفع إليه بالقصة طالباً منه قراءتها ثلاث مرات فاحصات ، فلما فعل جعل يحاوره فيما ورد فيها من أفكار وآراء . وبحكم مايربطني بالنجاشي من صداقة رأى ان يخصني بقدر من ذلك الفيض العلمي العظيم ، وطلب مني قراءة القصة عينها لنشترك كلانا في مزيد من حوار ونقاش مع الاستاذ ، فانجزت ماطلب وقرأت القصة لاستجلى مرامي كاتبها الفيلسوف الاسلامي الكبير (ابن طفيل) فالفيته يرى ان المعرفة بالله تعالى تأتي عن طريقين اثنين : احداهما غريزي عام ميسور لكل الناس بالفطرة وهو الفكر الفطري الذي يدرك المعقولات والمعاني الكلية المجردة من خلال المحسوسات والانتقال منها إلى المعقولات كما يفعل من لاعلم له بقوانين الحساب والرياضيات حين تدعوه الحاجة إلى التعامل مع الناس بالمال وعروض التجارة وغيرها فهو يستعين بالحجارة واعواد الخشب وماشابهها ليعرف العدد المراد معرفته فالعدد معنى مجرد والحجارة تجسيد له أو تقريب لصورته وثانيهما خاص بصفوة البشر من الانبياء والرسل وارباب الحكمة حيث تقوم المعرفة بالبرهان وتجريد الذات وتنزيهها عن الكم والكيف والانحصار ، ثم يتبلور الدين في نفوس المؤمنين من خلال الفكر والعقيدة ويقر في الروح بالسلوك الملتزم والعمل بموجبه وهذا ماعناه ابن طفيل بقصته الشهيرة « حي بن يقظان » .

وتجري أحداثها في احدى جزر الهند يصفها ابن طفيل بأنها أكثر بقاع العالم اعتدالا في المناخ ، وكان يقابل تلك الجزيرة جزيرة أخرى عظيمة واسعة يملكها رجل له أخت منعها من الزواج ، لأنه لم يجد في الرجال كفؤاً لها ، وكان له قريب يسمى « يقظان » تزوج بأخت الرجل سراً ! ! وكان ذلك أمراً جائزاً لاغبار عليه في عرف الناس آنذاك ، فلما وضعت طفلا خافت ان يكتشف أخوها الأمر ، فوضعت الطفل في تابوت احكمت

اغلاقه بعد ان اشبعته من الرضاع ، وخرجت به تحمله ليلا إلى ساحل البحر ، وودعت وليدها قائلة « اللهم انك قد خلقت هذا الطفل ولم يكن شيئاً مذكوراً ، ورزقته في ظلمات الاحشاء ، وتكفلت به حتى تم واستوى ، وأنا قد سلمته إلى لطفك ، ورجوت له فضلك خوفاً من هذا الملك الغشوم الجبار العنيد، فكن له ولاتسلمه ياارحم الراحمين» . ثم وضعته في اليم ،فصادف ذلك جريان الماء بقوة المد ، فاتخذ التابوت طريقه إلى الجزيرة المقابلة .

فلما اشتد بالطفل الجوع ، أخذ يبكي ويستغيث ، وكانت الجزيرة خالية إلا من الحيوانات والزواحف والطيور ، فبلغ بكاء الطفل ظبية فقدت طلاها « ولدها» وساقها الحنين وغريزة الامومة إلى مصدر الصوت تظن انه فقيدها ، فلما بلغت التابوت والبكاء يخرج منه حاولت الكشف عن حقيقة أمره ، فطار لوح خشبي من أعلى التابوت ، وبصرت الظبية بالطفل يتلوى ويبكي من الجوع ، فادركتها الشفقة وتملكها الحنين فانحنت على الطفل ترضعه لبنها ، ووجدت فيه عزاء وسلوى عن فجيعتها في ابنها المفقود ، فانكفأت عليه تربيه وتدفع عنه الأذى والخطر .

ومرت الأيام تنسج خيوط تلك العلاقة الحميمة بين الظبية الحانية والطفل « حي بن يقظان » ، حتى إذا بلغ أشده وبلغت الظبية من الكبر عتيا أصبح وفياً لتلك التضحيات فنهض بحق الظبية واسبغ عطفه عليها وكان يرتاد بها المراعي الخصبة ويطعمها الثمار. ثم ماتت الظبية ، ووقف « حي » مشدوهاً حائراً ازاء حقيقة الموت ، وفي غمرة حزنه شرع يفكر في سبب لما حدث !! ثم طفق يفحص جسدها عضواً عضواً فلا يجد علة ظاهرة ، وكان يرجو ان يعرف السبب الذي يحجب الحياة عن أمه الظبية ليعمل على ازالته ، قياساً على ماكان ادركه من قبل بالتجربة ، حين يغمض عينيه أو يحجب عنهما الرؤية ، فلا يرى شيئاً حتى يزول العائق ، وحين يضع اصبعيه في اذنيه فلا يعود يسمع حتى يرتفع المانع ، وهكذا كل شيء .

فلما اعيته الحيلة ان يجد سبباً في ظاهر الجسد ، انتقل يبحث في الأعضاء الباطنية فشق صدر الظبية واستوقفه القلب طويلا ، ومضى يبحث عن العلة في بقية الاعضاء دون جدوى . ومن هنا جاءه الاعتقاد بخسة هذا الجسد ، وغموض ذلك الشيء الذي يسكنه ثم يرحل عنه ! ! ذلك الشيء ماهو؟ وكيف هو ؟ وهل زايل الجسد مكرها ؟ أو مختار؟!

ثم انتقل « حى» إلى البحث عن « محرك » هذا الجسد ، فأعمل ذهنه فى ملاحظـة أنواع الحيوان والنبات ، وعرف النار وآثارها وكيف تنتقل من أسفل إلى أعلى كغيرها من الأجسام الخفيفه، ولشدة اعجابه بالنار وخصائصها ظن ان ذلك «الشيء» الذى ارتحل عن قلب أمه الظبية إن هو الا من جوهر نارى، واكـد فى نفسه ذلك الاعتقاد ما لاحظه عن حرارة جسم الحيوان وهو حى وبرودته بعد الممات .

نظر « حى» إلى سائر الأجسام من الجمادات والأحياء فادرك ان حقيقة وجودهـا مركبة من معنى الجسمية وشيء آخر زائد عنها ، وهـو أول مالاح له من العالم الروحانى اذ هى صور لاتدرك بالحس وانما بالنظر العقلى .

هكذا يعبر « حى» مرحلة الحس إلى مرحلة العقل والايمان بوجود خالق لايتعـدد لوحدة الخلق واتساق الكائنات، وقد توصل إلى ذلك بطريقة الفطرة والتأمل ومن جماع هذا كله يعمد ابن طفيل إلى بيان الفرق بين طريق التأويل والتأمل فى المعانى الروحانيـة ، وطريق الاعتماد على ظاهر الآيات، ولتوضيح ذلك ، يتخيل وجـود جزيرة بالقـرب من جزيرة « حى ابن يقظان » تعيش بها جماعة من الناس أخذوا الدين الحق عن الانبياء المتقدمين ، وكانوا يضربون الأمثال لتقريب الحقائق والمعانى إلى عامة الناس، حتى آمنوا جميعاً اوحمـل الملك كافة أهل الجزيرة على التزام الدين شريعة للحياة.

بين هؤلاء نشأ اثنان من أهل الفضل والرغبة فى الخير ، أحدهما يسمى (ابسال) والآخر يدعى « سلامان » وكانا شابين مؤمنين صالحين ، قادهما الايمان إلى التفقة فـى الدين والاستزادة من معرفة الله وملائكته ، وبرغم اتفاقهما على جـوهر ذلك الدين فقد وجد الاختلاف طريقه إليهما فيما يتعلق بتأويل الآيات فقد كان «ابسال» شديد التمسك بالتأويل والبحث عن المعانى الباطنية والروحانية، على نقيض « سـلامان » في ذلك ، و لم يمنـع ذلك كليهما من الجد فى العمل ومحاسبة النفس ومجاهدة الهـوى .

كان هذا الاختلاف فى الاتجاه والرأى مدعاة لفراق الصديقين ، فصمم « ابسال » على الرحيل إلى مكان يوافق نزعته فى العزلة والتأمل فانتقل إلى جزيرة « حى بن يقظان » لما يعرف عنها من صفات ، وهناك تفرغ ليعبد الله ويعظمه ويقدسه دون ان يشغله شـاغل وظل على ذلك حيناً من الدهر مغتبطاً سعيداً عظيم الانس بمناجاة ربه ، ومايجد من الالطاف

والخفايا والهبات .

ودون « ابسال » على نفس الجزيرة كان «حى بن يقظان» شديد الاستغراق فى مقاماته الكريمة ، لايغادر المغارة التى يعيش فيها الا مـــرة كل يوم من أجل الغذاء، ومضى وقت طويل قبل ان يلتقى ابسال وحى بن يقظان وجهاً لوجـــه ! ! عندئذ ظن ابسال ان « حى » رجل منقطع مثله للعبادة ، أما « حى » فقد دهش لهذا المخلوق الغريب ، إذ لم يكن قـــد رأى آدمياً منذ تفتحت عيناه على الكائنات إلا ماكان فى طفولته التى انطمست معالمها فى نفسه تماماً ، وبينما هو مأخوذ حائر . ولى ابســـال هارباً حتى لايشغله عـــن تأمله شىء أما « حى » فقد طفق يقتفى آثاره بدافع حب الاســـتطلاع والبحـــث عن الحقيقة ، فلما اقترب من مكان ابسال سمع صوتاً حسناً وكلمات لم يألفها فى أنواع الحيوان، حيث كان ابسال فى تلك الساعة قائماً يصلى ويقرأ ويدعو ويبكى ولاحظ «حى» تمام الشبه بينه وابسال.

حرص « حى» على معرفة مايجرى أمامه، وبعد محاولات عدة اطمأن كـــل منهما للاخـــر ، ولكن لم يكن ثمـــة ســـبيل للتفاهم لجهل « حى » بلغة البشر أجمعين. فمضى ابسال يعلمه الكلام ويحمله على النطق قارناً ذلك بالاشارة حتى عرف « حى» الأسماء كلها فى مدة وجيزة .

عرف ابسال كل شىء عن صديق عزلته « حى » وكيف ترقى بالمعرفة حتى بلـــغ درجة الوصول،فلم يشك في ان جميع الأشياء التى جاءت بها الشريعة مـــن عقائد وتعاليم إنما هى صورة لما ادركه حى بالملاحظة،وهكذا تطابق عنده المعقول « التفكير النظرى » والمنقول « تعاليم الدين » فانفتحت له مغاليق الحقائق وأقبل على « حى» يعظمه ويقتدى به ويصحح على فطرته السوية مايشكل عليه من امور الشرع وتعاليم الدين ، وبالمثل نهـــل « حى» من معين العلم الالهى الذى يحمله ابسال ، فطابق ذلك ماعنده من حقائق توصـــل إليها عن طريق مشاهداته وتفكيره ، وعلم ان الذى جاء بذلك صادق فى قوله رســـول من عند ربه فآمن به وصدقه وشهد برسالته .

لم يفهم « حى» مغزى مافى الشرع من الأحكام المختلفة ، كان يرى فى ذلك كله تطويلا لاداعى له ، فهو يعتقـــد ان الناس كلهم يتمتعون بالفطرة الخيرة والعقل الثاقب والنفس الحازمة ، فلما انبأه ابسال عن حقيقة الناس والحياة عندهم ، خرج إليهم يريـــد

هدايتهم وتبصيرهم بما هم عليه من نقص الفطرة والاعراض عن أمر الله .

هناك انتقى «ابسال» صفوة معارفه من ارباب الحكمة والايمان ، وجمع بينهم وبين « حى » تحت سماء العلم والمعرفة فشرع « حى » يعظهم ويعلمهم متدرجاً من المحسوس والمنظور شيئاً فشيئاً ، فانفضوا عنه ومقتوه فى دخائلهم رغم ماكانوا يبدونه من حفـاوة به اكراماً لصديقة ابسال . أما « حى » فقد يئس منهم وجعل همه ان يدرس طبائعهم ، فرأى كل حـزب بما لديهم فرحين ، لايزدادون بالجدل إلا عناداً وأما الحكمة فلا حظ لهم منها .

ادرك « حـى » احوال الناس وكيف ان أكثرهم بمنزلـة الحيوان غير الناطق ، ومن هنا كانت الحكمة كلها فيما نطق به الرسل ووردت به الشريعة وكل ميسر لماخلق له ، فودع اصحابه ووصاهم وخرج هو وصديقه ابسال إلى جزيرتهم يعبدان الله حتى اتاهما اليقين .

هكذا اندفع النجاشى فى ايمانه بالدين يسبر اغواره من كل طريق — وهو بعد حدث يافع — كان ذا طبيعة حادة وشعور مرهف بالمواقف والاشياء .

ان أنس لا انسى ماكان منه ساعة اعلان استقلال السودان فى ذلك اليوم المشـهود حيث فجر نائب البرلمان (عبد الرحمن دبكه) المفاجأة الكبرى من داخله واعلن للدنيـا ارادة الامة السودانية ممثلة فى قادتها ونوابها باختيار طريق الاستقلال التام عن دولتى الحكم الثنائى فى البلاد ثم جرى تصويت اكد للعالم كله تلك الإرادة الحرة ! ! وانفعل كل ابناء الشعب السودانى بذلك الحدث والانجاز العظيم ، وخرجت جموعهم هادرة مهللة مكبرة فعمت الأفراح وغنى الناس ورقصوا فى الطرقـات وتشابكت ايديهم وتقارع بعضهم بالكؤوس، كل حسب ظرفه ومكانه جرى كل ذلك وأكثر منه ، ولكنى لم اشاهـد احداً يرقص ويغنى ويضحك ويبكى فرحاً فى وقت واحد سوى صديقى النجاشى ! ! كان الحدث عظيماً بكل المقاييس ، وأكثر الناس احتفاء به هم طلبة المدرسة الثانويـة المصرية، ولكنه كان مفاجأة اذهلت اساتذتها وزلزلت قناعات لديهم رسختها الأيـام والظنون ، حيث املوا فى غير ذلك طويلا ، فتحرج موقفهم بيننا وتظاهر بعضهم بالفرح وهو يكتم آهة حرى تعقبها كلمات مبهمة مثل : وماله ياالله ! !

انتقلت إلى الطلاب عدوى الحرج سريعاً ، وتبدى بصورة جلية عند دخولنا قاعة الطعام!! ثم نوبت الايام ركام الحرج شيئاً فشيئاً حتى تلاشى تماماً فى ظل الأمر الواقع ، فلم نستشعر حرجاً أو نخفى مشاعر الفرح ونحن نشهد مراسم الاحتفال بانزال علمى دولتى الحكم الثنائى ورفع علم السودان الحبيب ، ثم ونحن نودع قوات الاحتلال الأجنبى للبلاد إلى غير رجعة .

حقا ان دوام الحال من المحال وان الناس على دين ملوكهم ، فما كان للظروف من حولنا ان تستمر على ماهى عليه ، اذ ان الصاغ صلاح سالم كان اكثر ابناء النيل خيبة أمل وكراهية لما كان ، واعتبر انحياز دعاة وحدة وادى النيل من قادة واعضاء الحزب الوطنى الاتحادى بقيادة الزعيم اسماعيل الازهرى وغيرهم لقرار الاستقلال التام مكيدة رمى بها الاستعمار البريطانى ابناء الوادى كآخر وامضى سهامه القاتله وأكثرها ايلاما ، فما كان له ان يخرج من أرضهم ويتركهم بغير ذلك الجرح المميت !! وظل الصاغ صلاح سالم يعيد ويردد القول فى كل مناسبة وحفل انه لايحمل ضغنا ولاينكر على انصار الاستقلال من حزب الامة وعلى رأسهم السيد عبد الرحمن المهدى موقفهم وجهادهم المظفر ، فهم فيما سبق اعلنوا مواقفهم والمبادىء التى تحكم نضالهم الوطنى فى جلاء ووضوح ولكن مابال اولئك الذين صعدوا الى قمم الزعامة وذرى المجد السياسى على عاتق دافع الضرائب فى مصر؟! وشادوا امجادهم على انقاض المبادىء التى ادوا لها قسم الولاء المغلظ!! مابالهم يحنثون ويتنكرون للعهود والمواثيق ؟ يسرقون ثقة شعب السودان الذى اختارهم ممثلين لارادته فى الوحدة مع مصر ؟! وماكان للحزب الوطنى الاتحادى وزعمائه ان يحرزوا الاغلبية البرلمانية ويجلسوا على وسائد الحكم لولا شعارات ومبادىء وحدة وادى النيل،ولكن زعيم الحزب وقادته — سامحهم الله — قد جعلوا من اموال مصر وجهود ثوارها وشعارات الوحدة معها وكل الايمان المغلظة وسائل لغايات — ميكافيلية حددوها مسبقا وذبحوا على هيكلها وحدة الوادى ، فصاروا كلهم « بروتس » ولسوف يذكر لهم التاريخ ذلك ، ولن ينسى تاريخ وادى النيل قيصره الذى فجع فى اعز الاصدقاء الصاغ صلاح سالم .

بمثل تلك المفاهيم والافكار ، تلبدت ساحات العلائق السياسية بين السودان ومصر ، واذكى اوار نارها المتقدة قيادة الصاغ صلاح سالم لوزارة شئون السودان آنذاك ، واشرافه على الاذاعة المصرية ، فاتخذ منها ادوات لهدم صروح الود والتعايش السلمى بين الشعبين وتجاوبت معه اذاعة امدرمان وقادة الحزب الوطنى الاتحادى رفى مقدمتهم الرئيس اسماعيل الازهرى ، واستمر الجو السياسى بين البلدين مشحونا بالتوتر والترقب والتأهب. رغم ذلك ، كان السفير المصرى اللواء محمود سيف اليزل خليفة واعضاء البعثة التعليمية عموما ، وناظر واساتذة مدرسة الخرطوم الثانوية المصرية على وجه الخصوص ، على درجة عالية من النضج السياسى والمسئولية الوطنية ، فلم يشاركوا فيما كان يجرى من أحداث وتصريحات لاهبة ، وكانوا بحق رسلا للعلم والسلام ، واستحقوا عن جدارة لقب ابناء النيل البررة .

غير ان هذا التسامى فى الخلق السياسى والسلوك لم ينسحب على الجميع ، فشذت عنه قلة كانت تكتم الغيظ وتتحين الفرص والظروف للتنفيس عما يضطرم فى دواخلها من مشاعر سلبية ، اذكر انه حدث فى يوم ١٨ فبراير ١٩٥٦م ان رفض سبعمائة مزارع في (مشروع جودة) على النيل الابيض تسليم انتاجهم من القطن الى الحكومة لتصديره كما كان يحدث من قبل بحجه تأخير صرف استحقاقاتهم السابقة ، وخرجوا للتعبير عن موقفهم فى موكب هادر عظيم ، فما كان من الحكومة التى يرأسها الزعيم اسماعيل الازهرى وقتذاك — الا ان امرت قوات الشرطة بالتصدى لهم ، وزجت بحوالى ٢٨١ مزارعا منهم فى (عنبر جودة) وهو على حال من ضيق المساحة بحيث لايتسع لذلك الحشد الكبير ، فكانت النتيجة ان مات ١٨٩ منهم بالاختناق ، واعتبر الناس الحكومة ورئيسها الازهرى مسئولين عن تلك الفاجعة المأساوية فخرجت المظاهرات الغاضبة فى كل ارجاء البلاد تندد بمسلك الحكومة ازاء هذه الكارثة الاليمة ، وقادت المعارضة حملة شعواء ، وشارك فى شجب الحدث كل الاحزاب والهيئات والتنظيمات والتجمعات وطالبت بالقصاص وتجريم الحكومة واضحت عاصمة البلاد (الخرطوم) مرجلا يغلى ويطفح بالثورة والغضب ، فاعتلى أحد أساتذة المدرسة منبر الخطابه وطفق ينفث ذلك الغيظ المكتوم والحقد الدفين مهتبلا فرصه الغليان التى اعقبت الحادث وتجاوب معها كل الناس ، فوجه خطابه للطلاب قائلا : انتو ايه ؟ بجم؟ مابتحسوش

هـــم اللى ماتوا فى عنبر جــودة دول مـــش اهاليكم ؟ والا يعنى علشان بتتعاموا فى مدارس مصرية بقيتوا اجانب مالكوش دخل فى اللى بيجرى ؟! .

كان هذا الكلام كافيا لتحريك مشاعر الطلاب واستفزاز وطنيتهم ، فتعـــالـــت الهتافات هـــنا وهناك تنادى بسقوط حكومة القتلة والقصاص منهم وعجز ، الاستاذ المحرض عن مواصلة تحريضه السافر والتنفيس عن كوامـــن نفسه واشجانها الوحدوية فتنحـــى عن منصة الخطابه ليعتليها محبو الزعامة من الطلبة ومن بينهم صديقى النجاشى فناشـــدوا زملاءهم الخروج فى موكب ثائر هـــادر يزلزل الارض تحت أقـــدام الحاكمين ، والاضراب عن الدراسة تعبيرا عن روح الغضب ، والتضامن مع طوائف الشعب الاخرى فى استنكارها لازهاق ارواح الابرياء فى عنبر جودة .

خـــرج موكب الطلاب مزمجرا راعدا ، والتحم فى شوارع الخرطوم بمظاهرات حاشدة من انصار حزب الامة والشيوعيين والاخوان المسلمين ، وشكل ثلاثتهم اكبر تظاهره عدائية لحكومة الرئيس اسماعيل الازهرى فى قلب عاصمة البلاد ، وتوالت المظاهرات والاضطرابات حتى يوليو ١٩٥٦م وكانت من أهم الاسباب التى أدت الى سحب الثقة عن حكومة الازهرى وسقوطها فى الرابع من يوليو ١٩٥٦م .

ولكن ذلك لم يشف غليل المتطرفين من دعاة وحدة وادى النيل ، واوعزوا الى الزعيم جمال عبد الناصر ان حكومة حزب الأمة التى خلفت حكومة الازهرى وعـــلى رأســـها الامير الاى عبدالله بك خليل قد وافقت على اقامـــة قواعد امريكية فى منطقتى (حـــلايب) و (محمد قول) بشـــرق الســـودان وفى ذلك خطر يهدد حدود مـــصر الجنوبية خاصة بعـــد ان اصر عبد الناصر على كسر احتكار الســـلاح رغم المعارضة الامريكية ، واستجلب الاسلحة من دول الشرق الاشتراكية !! تأكيدا لحق بـــلاده فى اختيار اصدقائها واتخاذ القرار والسيادة الوطنية .

وكما حدث من قبل ، حين أخطأ الصاغ صلاح سالم فى تقييم الموقف الســـودانى تجـــاه مصر وقع عبد الناصر فى نفس الخطأ ، واعلن ان منطقة حلايب ارض مصرية !! وصرح بأن حكومة السودان قـــد وافقت على اقامة قواعد امـــريكية على الحدود المصرية

مـــع السودان الشرقى ، وكان يأمل ان تلقى تصريحاته تلك تأييدا فى اوســاط الاتحاديين والشيوعيين وغيرهم من اعداء امريكا ودول الغرب الاستعمارى ، ثم اردف ان مصر ستسترد (حلايب) بقوة السلاح اذا منحتها حكومة السودان لامريكا لتبنى عليها قاعدة عسكرية !!

جــاء التقييم الاخــير لتلك السياسة مغايرا تمــاما لواقع الحــال والاهداف التى كان يرمى اليها عبد الناصر، حيث ذابت الخلافات السياسية بين ابناء السودان ، واعــتبروا تصريحاته خنجرا يوجه الى ســيادة الامة وكرامتها ، وتحديا سافرا لشعب يكن انبل المشاعر لاخوته فى مصر ، ووقفت احزاب المعارضة كلها مع القرار الذى اصــدرته حكومة السيد عبدالله خليل فى مواجهة التهديدات المصرية ، والقاضى بالذود والدفاع عن شرف الامة وارضها .

عــاد الشارع الســوداني يغلى بمشاعر الغضب مرة أخرى ، وعلى نقيض مــاحدث من قــبل ، فقد انتظمت المظاهرات كل الناس على اختلاف احزابهم وعقائدهم السياسية سيولا جارفة من البشر يرفضون الوصاية والتهديد ، ويقفون خلف حكومتهم يطالبون بالتجنيد والتدريب على حمل السلاح فداء للوطن !! وبلغ الموقف ذروة التأزم والخطر على علاقات الشعبين الازلية، فقام السيد عبد الرحمن المهدى والسيد على الميرغنى بالتدخل لفض النزاع بين الحكومتين المصرية والسودانية فتراجع الرئيس عبد الناصر عــن قراره المعلن ، وهدأت ثائرة ابناء السودان ، وأشرقت شمس الاخاء من جديد، بــعد ان حجبتها غيوم الاطماع والخلافات .

تمخض الحــادث عن دلالات ايجابية ، فاظهر ان شعب الســودان ينبذ خــلافــاته الطائفية والحزبية والعنصرية فى مواجهة كل تهديد خارجى مهما كان حجمه ومصدره ، وأكــد للحالمين والطامعين ان ابناء الســودان لايرتضون ضم جزء يسير من بلادهــم الشاسعة الى الشقيقة مصر ، فكيف يوافقون على ضم بلادهم باكملها اليها ؟!.

وجــاء الحــادث اختباراً عمليا لفكرة الوحدة بين الشعبين المصرى والسودانى، واحدث ردة فعل قوية فى نفوس الزعماء الوحدويين ،وتجاهلت الحكومة المصرية فترة من الزمن

مسألة السـودان ، واتخـذ الاعلام المصرى سياسة التعتيم الاعلامى ، فى مواجهـة الحملات من الاذاعة والصحافة السودانية وكان حزب الامة الحاكم قـد وجه هجمات اعلامية شرسة ضد حكومة الرئيس عبد الناصر فى مصر واتخذوا من (حادث حلايب) شـاهدا على ماكانت تضمره مصر من مطامع توسعية فى ارض السودان ، والواقع ان انصار الاستقلال بزعامة حزب الامة قد افادوا كثيرا من تلك المواجهة فى استقطاب التأييد لحكومة الاميرلاى عبدالله خليل ، ولم يغب ذلك عن فطنة قـادة الحزب الوطنى الاتحـادى ، فعادوا الى مهاجمة حزب الامة وحكـومته ، وخاضوا معهم صراعـا اكـثر ضراوة واشد عنفا ، وخرجت مظاهراتهم تهتف من جديد (حريق العملة حريق الشعب). يشير الاتحاديون بذلك الهتاف الداوى الى حـادث حرق العملة الشهير . ومن امره ان حكومة الرئيس اسماعيل الازهرى عند توليها مقاليد الحكم فى البلاد كـانت اصدرت عملة ورقية جديدة من كل الفئات وقام بالتوقيع عليها رئيس الحزب والحكومة السيد اسماعيل الازهرى بدلا عن مدير بنك السودان ، فاعتبر قادة حزب الامـــة والاحزاب الاخرى ذلك التوقيع بمثابة دعاية حزبية تؤثر على موقفهم فى الانتخابات المقبلة فسيروا المظاهرات ضد اصدار العمله وطعنوا فى صحة اجراءات الاصدار ،ذهبت اصوات المعارضين للحكومة واصدار العملة ادراج الرياح وابحرتسفينة الحكم بالاتحادين وسط الانواء والعواصف حتى كان حادث جودة ، الذى تحطمت عليه دسر السفينة ، وتولى حـزب الامة الحكم من بعدهم وشكل حكومته برئاسة السيد عبدالله خليل ، وخرج انصارهم يردون كيد الاتحاديين ، مظـاهرات هادرة تطالب وتهتف بحرق العملة :

– حريق العملة مطلب شعبى

– حريق العملة حريق الفساد

فاستجابت الحكومة لمطلب الجماهير واصدرت قرارها بحرق العملة فتكبدت خزينة البلاد زهاء بضعة مـلايين مـن الجنيهـات هى قيمة طبع واصدار العملة البديلة ، وكـان المـليون الواحـد وقتئذ ثـروة طائـلة اذا قـورن بحـاله وقـدره اليوم فهـبت جماهير الاتحاديين تندد بحرق العملة واهدار مـوارد البلاد وشق هتافها عنان السـماء (حريق العملة حريق الشعب) !! كنا – نحن طلاب المدرسة الثانوية المصرية

بالخرطوم — بين شقى الرحى فى ذلك الصراع فينا ابناء الختمية سدنة الحزب الوطـــنى الاتحـــادى، ومنا ابناء الانصار لحمة حزب الامة وســداه ، فوجم فريق من الطلاب حائرا لايريم ، وعارض جماعة من أرباب الحصافه وبعد النظر تلك المعارك الوهمـــية بين الاحزاب، وهتف آخرون وازروا الفريقين المتناحرين بغير تمييز ! !مكابرة ومجامله، اما اساتذتنا من المصريين فقد وقفوا يشهدون مرج الاحداث بعين المشفق ولا اجــرؤ فاقول الشامت ! !

كانت ســنوات المخاض والميلاد للاستقلال بعثا رائعا لطاقات الابداع فى أمة ولود، فالى جانب الامجــاد السياسية حفلت شعاب الحياة فى السودان بنشاط واسع مكثف، فازدهـــرت الرياضة وخاصة كرة القـــدم والسلة والعاب القوى، وقد افررت المدارس المصرية فى تلك المجالى لاعبين مبدعين صعدوا قمة المجد الرياضى ، كاللاعب ابراهيم كبير الذى درج اعتاب العلم فى مدارس الاقباط ، ولاعب الهلال الفذ « ممى شاه » من ابناء مدرستنا العتيقة الخرطوم الثانوية المصرية ، وانجبت المـــدارس المصرية كوكبة من فرسان العاب القوى وابطالهـــا المغاوير ، وكان للرياضى المقتدر والمربى الفاضل الاستاذ (كمال اميرى) مشرف البعثة التعليمية المصرية بصمات لاتمحى من تلك الانجازات الكبيرة . تقســـم طـــلاب مدرستنا مجموعات مختلفة ، تمارس كل مجموعة ضربا من ضروب الرياضة تتوفر عليه وتحدد الرغبات والامكانات البدنية للطلاب لون النشاط الذى يلائم كلا منهم ، فاستطاع صديقى النجاشى ان يقنعنى بالانخراط فى جماعة العاب القـــوى شش — سباحة ، ملاكمة ، مصارعة واختراق ضاحية وأراد هو امتثالا لنزعة التفـــوق التى تتملكه ان يكون بطلا فى كل ذلك ولم يقعد به عن طموحاته البعيدة ذلك الكســـر بيده منذ الصغر ، والذى لم يفلح الطـــب البلدى (البصير) فى عـــلاجه واعادة اليد سيرتها الاولى ، وكان سوء الالتحام بين عظامها واضحا جليا ولكن النجاشى بمـــا تضطرم به نفسه من الامانى والاحلام ماكان ليرضى عن الفوز والمجد الرياضى بديلا، يجد فيه متنفسا لطاقات الابداع، وشعورا بالارتواء والرضاء والسعادة وفرحا طـــفوليا غامرا عند كـــل فوز يحققه ، يرقص ويغنى ويبكى ويضحك ، ويطير كالفراشـــة بين زمـــلائه ينشر فيهم قبسا من وهج روحه المتألقة ، وهو مفعم بنشوة النصر وقد يبقى كذلك اليوم كله ، يلهبه الفـــرح عن كل متعة حسية ، وتزهد نفسه حتى فى الطعام.

كان النجاشي عظيم العناية بمجريات كرة القدم فى البلاد، يعرف كثيرا من دقائقها واحداثها وصراعاتها ، ويمكن وصفه بانه مشجع واع ومتفرج ضليع ، يحرص حرص البخيل على ماله الاتفوته مباراه هامة، وخاصة التي يكون احد طرفيها ثالوث القمة مريخ ،هلال، موردة، أو فريقا زوور البلاد، والراقع ان ساحة الكرة يومئذ كانت تعج بالاحداث الرياضية الكبرى وخلدت فى الأذهان منها مباريات الفرق الاجنبية ذات الصيت والشهرة مثل زيارة فريق (ردستار) الانجليزى وفريق (المجر) بقيادة اساطين الكرة الاوربية انذاك (بوشكاش) و (بوجيك) وغيرهما ، فتسمى وغنى باسمائهم شباب تلك الايام وقد كنت - بحكم صداقتي وتوافق ميولى مع صديقى النجاشى فى عباب ذلك البحر اشهد عواصفه واتفاعل معها مدا وجزرا ورميت بسهمى فى بعض الملاحم التنافسية فى محيط الطلاب فمهرت فى العاب القوى وخاصة السباحة واختراق الضاحية .

واحتوتنى زعامة النجاشي وشلته ، واحتللت موقعى فيها، ومن رؤوس اعضائها فيما اذكر الاخ عثمان النور وهو اليوم طبيب متخصص يعمل ويقيم بالمانيا الغربية تزوج من حورها وله منها ابناء. والاخ اميل شفيق مهندس كيمائى يقيم بالسودان حقق نجاحاً باهراً فى دنيا المال والأعمال ويزجى أوقات فراغه فى فلاحة مزرعة يمتلكها، والأخ على عزمى مهندس ميكانيكى يعمل ويقيم بيوغسلافيا، صاهر اهلها وانجب منهم. والاخ أمين محمود وكان ذا جسم رياضى متميز ، قوى البنية فارع الطول ممتلىء الجسد فى غير افراط احتكر لنفسه بطولتى حمل الاثقال ورمى الجلة، امـا فوزه فى الملاكمة فـلا يرجع الى مهارة أو تفوق بقدر ما هو نتاج للرعب الذى يتملك الخصوم والمتنافسين من مجرد الوقوف بين يديه كالاقزام، فيفقد هؤلاء عزمهم وثقتهم بانفسهم وهم راجهون شبيه شمشون الجبار ، والحقيقة أن شكل امين لاينم عن طبيعة نفسه وصفاتها مستكنة ، فهو رقيق مرح عطوف ، ذو ذكاء مفرط ولكن فى غير مناهج الدراسة ، اذ كان عادى المستوى لامبرزا ولا خاملا ، تعلقت روحه بالجندية فكان يطمح ان يصير ضابطا بالقوات المسلحة .

لم ينتظر (امين) حتى يلتحق بالكلية الحربية ويتخرج فيها ليبلغ مايريد ، من ضروب

القيادة فنصب من نفسه قائدا عسكريا لشلتنا ، نأتمر باوامره ونلتزم حـــدود نواهيه ، وكان ماهرا بحق فى التخطيط لمغامراتنا وصبواتنا الشبابية !! يلذ له ويسعده ان نركن لمواهبه فى ذلك ، رغم مايلاقى من عنت النجاشى وعناده فى بعض الاحيان .

اذكـــر اننا كنا نستعد لسباق اختراق الضاحية يوما ، فجاءنا الخواجة «جيمى» صاحب ومدير صالة غردون بالخرطوم ، وهو مضطرب شديد الانزعاج بادى الحيرة ، وفـــى صحبته فاتنه فى ريعان الشباب تنثال الدموع منها مدراره ، كانت تبكى حظها العاثـــر وفقدها الاليم !! حدثنا الخواجة جيمى ان رفيقته راقصة اسبانية وفدت الى الســـودان ضمن فرقة موسيقية راقصة ومعها كلبها المدلل الاثير (لاسو) الذى دفعها حبـــــه الى اصطحابه عبر البحار والبلاد فبقى الى جانبها ينعم بالحياة والحب والجمال حـــتى ليلة الامس ، فلما استيقظت من سباتها صباح اليوم فوجئت باختفائه من منزل راقصـــات كبارية غردون جوار شارع الحرية بالخرطوم .

كانت الفتاة على حال مـــن الالم والجـــزع يرثى لها حقاً ، ولايملك أحد ان يراها كذلك فيحجم عن التخفيف عنها ولو بجهد المقل، ناهيك عن مؤثرات أخرى تدفعك لاقتحام الاهوال من أجلها راغماً، اضف لكل ذلك مارصدته من جائزة سخية (خمسين جنيهـــاً) لمن يعيد إليها عزيزها المفقود (لاسو) وزاد جيمى للمغريات استعداده لبذل كل ماتحتاجه مهمة البحث عن الكلب من مال وعتاد ، ثم بسط وصفاً دقيقاً للكلب فقال انه ضخم الجثة من نوع (وولف) بنى اللون مائل للسواد ورجانا ان نقوم بالمهمة .

قبل ان يصل زعماء الشلة إلى قرار ، اخذت الفاتنة البيضاء تدور بيننا فى صمـــت كأنها تبحث عن البطل الذى تعهد إليه بالأمر الجلل ، ووقفت بصورة تلقائية ازاء (أمين) ورشقته بنظرة متوسلة ثم اندفعت تمسك بذراعه وترجـــوه الا يخيب ظنها فيه ، فتبســـم هذا مزهوا بالاختيار ، ودون مقدمات أو شورى بدأ يصدر أوامره لنا وللحسناء ومـــن جاء بها وكأنه « روميل» زمانه !!

انتقلنا إلى مكتب الخواجة (جيمى) بصالة غردون ، وتحلقنا حول خريطة مجســـمة لمدينة الخرطوم ، فقام أمين بتقسيم المدينة الى أربعة قطاعات رئيسية ، ثم قســـم الشلة إلى خمس مجموعات عمل عهـــد لكل مجمـــوعة باحد القطاعات الأربعة ثم جعل مـــــن

مجموعته قيادة تباشر العمل من مقر رئاسة العمليات فى الصالة وتتصل بالمجموعات من خلال الهاتف الموجود بها بعد ان اعطى رقمه لكل المجموعات ، فلما فرغ من ذلك شرح خطة العمل فقال : تتجه كل مجموعة ، إلى القطاع المنوط بها تمشيطه بحثاً عن العزيز (لاسو) وهناك تبحث عن تلفون يمكنها من الاتصال برئاسة العمليات بالصالة وتعطى رقمها للقيادة قبل ان تباشر مهمتها فى القطاع ، فاذا وجدت ضالتها فيه باكرت بالاتصال بمقر القيادة التى تبلغ بقيه المجموعات لتتجه الى القطاع الهدف وتتعاون كلها فى القبض على الكلب الاثير المدلل .

ثم اتيحت فرصة لمناقشة الخطة ، فانبرى الزعيم النجاشى معلقاً وقال : لعله من اللازم لتسهيل الامر وكسب عامل الزمن ان يستأجر الخواجة جيمى خمس عربات تاكسى ، تخصص عربة لكل مجموعة وتبقى الخامسة تحت تصرف القيادة بمقر العمليات فلقى اقتراحه ترحيباً من كل الاعضاء ووافق جيمى بغير تحفظ ، أما أمين فقد تقبله على مضض ، فقد كان يرجو ان يتفتق مثل هذا الاقتراح عن فكره وعبقريته باعتباره القائد العام ورجل المهمة المختار ، تفرقنا — من بعد — واتجهت كل مجموعة صوب قطاعها من المدينة تبحث عن (لاسو) فما هى الا ساعة من زمان حتى ابلغ قطاع الخرطوم شرق عن وجود الهدف بارضه على شارع النيل قريباً من جامعة الخرطوم، ومن ثم اتجهت كل المجموعات الأخرى لتنضم إلى قوات الخرطوم شرق ، على اثر قرار وامر تليفونى من القائد العام (أمين) ومساعده النابغة مصطفى النجاشى كما انتقلت القيادة العليا نفسها إلى ميدان المعركة .

هناك ترجلنا جميعاً وزحفنا بخطى متوجسة حذرة لنحكم الحصار على (لاسو) وهو يرقد تحت ظل شجرة ضخمة ظليلة، وكان أول الأمر غافلا عما يراد به ساهماً يتمتع بالنظر إلى صفحة النيل الأزرق ، ثم انتبه للامر فجأة وقد ضاقت من حوله دائرة الحصار فهب من رقدته وشرع يجيل الطرف فى محاصريه ويتحفز للدفاع عن نفسه ، فتقاصرت خطانا وادرك البعض منا خوف عظيم، فقد كان (لاسو) عملاقاً بادى القوة فلم يجرؤ ، أحد على الانقضاض عليه دفعة واحدة وطفق (أمين) يبعث الحماس فى نفوسنا ويحثنا على التقدم بصوت اقرب إلى الهمس ، فضاقت المسافة بيننا وبين الكلب حتى لم يعد يفصلنا عنه

سوى خطوات معدودة، وحاول بعضنا الولوج إلى الهدف من باب التزلف والملق ، فأخذ يطرقع باصابعه ويصدر صوتاً كالصفير وقد كسا وجهه ابتسامة عريضة تنم عن الود والسلام، بل ذهب البعض إلى ابعد من ذلك فى تدليل الكلب وتملقه وكسب وده، فشرع يقترب من الكلب فى حذر واشفاق وينادي عليه بصوت ملؤه الخوف والرجاء :(لسويه) بدلا عن (لاسو) امعاناً في الملق واظهار النوايا الطيبة .

حار الكلب فى أمره وهو محاط بتلك العيون الواجفة والمشاعر المتقلبة ، ولم يبد عليه تحفز للصراع والمقاومة، ورغم ذلك لزمنا جانب الحذر اعتقاداً منا ان كلاب الأوربيين قد ورثت عنهم الدهاء والمكر والخديعة ، فلما غدونا قيد خطوتين أو ثلاث من (لاسو) اخذ يربت بذيله ويصدر عنه صوت حنون تارة، ويقف متحفزاً مكشراً عن انيابه مزمجراً في صوت كالشخير تارة أخرى ، وفجأة انفلت من بين ايدينا واخترق حلقة الحصار وهو يعدو مبتعداً إلى وسط المدينة .

انحى قائدنا أمين باللائمه على من أفسح للكلب طريق الهروب ، ثم امرنا بمطاردته فى الطرقات فاخذنا نعدو من خلفه والعربات التاكسى تتبعنا ، مشهد مثير لفت انظار المارة فى شوارع الخرطوم ، فاخذوا يتساءلون فى حيرة ودهشة ، فلم نعرهم اهتماماً ومضينا ندلف من شارع إلى آخر فى أثر الكلب ، وكاد بعضنا تدهسه العربات وهو يقطع الطريق فجأة فى ملاحقة الكلب المذعور ، واخيراً وقف لاهثاً حين بلغ مبنى البوستة ، وعفو الخاطر تجمعت مشاعرنا فى تلك اللحظة فيما يشبه العداء لذلك الكلب اللعين المافون فخطونا نحوه فى ثبات واصرار وضيقنا عليه الخناق من جديد ، ثم اندفعت انا بغتة فى هجمة شرسة فأمسكت به وكدت ازهق انفاسه لولا انفلات صاحبته من خلف دائرة الحصار وارتماؤها فى احضانه باكية بدموع الفرح ساعة اللقاء، وانكفأ (لاسو) فى صدرها المكتنز وهو يربت بذيله فى حنان وكأنه طفل اعادوه الى ابويه .

وقفنا مأخوذين بذلك الحب الدفيق والمشاعر اللاهبة ، ولم نبرح فى ذلك حتى نهضت الفتاة تحمل كلبها العزيز وتتعثر فى مشيتها تحت حمله الثقيل ، فاطلقته بين دهشتنا ليمضى فى اثرها صوب عربة التاكسى ويرتمى إلى جانبها على المقعد الخلفى ، فانطلقت بها السيارة فى شوارع الخرطوم ونحن من خلفها على عربات التاكسى والناس من حولنا مازالوا

يتساءلون .

اجتمع رهطنا الظافر فى مسكن الراقصات ، وتقدم أمين ليتسلم الجائزة المالية باعتباره قائد الجماعة ، وتلقته الحسناء بالجائزة شاكرة مبتسمة ، فابصر الخواجة جيمى بعض الخدوش على ساعدى الايمن ، اصبت بها لحظة امساكى بالكلب ، ونصحنى الرجل همساً ان اتجه إلى مركز البيطرى لاحقن نفسى ضد داء السعر احدى وعشرين حقنة ثم افادنا بجملة من المعلومات حول الأمر ، من ذلك ان الكلب المسعور يموت بدائه فى غضون عشرة أيام فان بقى على قيد الحياة بعد ذلك فهذا برهان على خلوه من الداء وعندئذ يتوقف المصاب عن تعاطى الحقن الباقية وهو مطمئن ، وما ان فرغ من ذلك حتى اغتنم أمين الفرصة وطلب السماح لنا بزيارة الكلب وصاحبته من وقت لاخر للتأكد من سلامته وكانت تلك بداية الفتنة .

وفى اليوم الثانى عقدنا العزم على الزيارة ، امين والنجاشى وأنا ، وتحملنا كارهين تبعات ساعات اليوم الدراسى حتى انقضت ، فانطلقنا فى لهفه إلى نزل الراقصات فالفيناهن متحررات من كل محيط أو مخيط تحت وطأة الحر وقيظ النهار ، فاتسعت احداقنا عجباً واعجاباً وتسمر كل فى موقعه لايريم ولايطرف واسراب الفاتنات البيض على تلك الحال ! مستلقيات على وسائد منثورة فى رحاب المكان ، أو رائحات غاديات أو يعابث بعضهن بعضاً فى انشراح ومراح فاسقط فى ايدينا ونحن نشهد المنظر عن قرب ، وجالت اعيننا فى المكان ورأت كل شيء فيه عدا الكلب ، وسرقت النظر إلى رفيقى الحميمين ، فالفيتهما على حال من الغياب والتلاشى فى المشهد المشهود .

ثم جاء الخفير خلسه ، ووقف على رؤوسنا ونحن متلبسين بحالة الذهول غارقين فيها حتى النخاع وكنا فى شغل عنه بما يجرى بين ايدينا من هبات قلما يجود بمثلها الدهر ، فلم نفطن لوجوده حتى صرخ فينا زاجراً موبخاً ، وامرنا بمغادرة المكان فى صوت بلغ اسماع الفاتنات الحسان ، فجاءت صاحبة الكلب تدعونا إلى غرفتها ولكن الخفير احتج على ذلك بانه وحده المسئول عن المنزل ونزلائه ، وهو الذى يمنح ويمنع ، واصر على خروجنا فى عنت بالغ ، فحاول أمين تملقه وكسب وده والافصاح عن الغرض من زيارتنا للمنزل ومن فيه بيد ان الرجل رده فى صلف وعنف وغلظة ، ثم دفعه من كتفه وهو يحاول

حسم الأمر بالقوة زهداً فى اللجاجة والمطاولات ، فما كان من أمين الا ان كال له لكمة قوية مفاجئة سقط على أثرها فى الأرض وقبل ان ينهض ليثأر لنفسه كنا قد غادرنا المكان غير آبهين بما قد تسفر عنه تلك الضربة القاضية .

وكما يحدث عادة فى مجتمعات الطلاب ، لم نبخل على الزملاء برواية ذلك الحدث المثير ، فجاء نفر منهم معنا فى اليوم التالى بحجة زيارة العزيز (لاسو) والاطمئنان على صحته ولكن خفير السوء تصدى لنا فى حزم وجفاء ، واوصد الباب فى وجوهنا ومضى لشأنه ، فعمد الرفاق إلى نوافذ المنزل المطلة على الشارع ورابطوا عندها يتلصصون فاذا المشهد يتكرر ، وماروبناه بالأمس حقيقة مذهلة لامراء فيها ولاجدال ، فادمن البعض بعد ذلك متعة استراق النظر عبر النوافذ والتعلق بها كل يوم ، واضحى الأمر عادة وجزء من برنامج نهاية اليوم الدراسى ، كما أضحى الصدام بيننا وحارس نزل الارتستات شيئاً روتينياً لايثير دهشة . وكنا مازلنا نتابع مايجرى للكلب من تطورات صحية ، وفى اليوم السابع مات الكلب الاثير المدلل ، وتحتم على ان اواصل رحلة العذاب مع حقن البطن ثلاثة أسابيع متوالية ، ونما إلى علمنا من بعد ان صاحبة الكلب اصيبت بداء السعر من خلال علاقتها الحميمة بالكلب لاسو ولحقت به ، بعد شهور قليله . أحبته فى الدنيا ، فلما رحل عنها عز عليها فراقه ، وكان موت الفتاة مدعاة لحزننا وشجننا ، ومدخلا لحديث طويل بيننا حول حقيقة علاقتها بالكلب ! ورأى أمين ان يخلد ذكرى تلك الفاتنة فطلب من الطالب الشاعر محمد طاهر ماقيت ان ينظم لها مرثية وانفعل ماقيت بالحدث ، فألف قصيدة عصماء مطلعها :

— دينك ودينا ودينى أنا ..

ثم استرسل فاوفى الامر حقه واستفاض ، والقصيدة ليست سباباً كما يبدو من ظاهر الفاظها بل عميقة معبرة فى اطار المضمون ، محلاة بالرمز القريب والجناس المحبب وفيها وصف رائع لفتنة الفتاة ومفاتنها والحسرة على رحيلها المأساوى وكانت بحق من أجمل مانظم ماقيت من شعر ، كان ماقيت — إلى جانب شاعريته وثقافته واطلاعه الواسع شغوفاً بعمل الخير معروفاً به بيننا ، يحضرنى من ذلك انه دعانا ذات يوم للانضمام إلى (جمعية الحمير) ! ! نعم الحمير ! ! ويبطل العجب عند معرفة السبب كما يقولون ، فجمعية الحمير

تلك ليست من اختراع صديقنا ماقيت ولامـــن وحى خيـــاله الشاعر الجموح ، بل هى كيان قائم فى شتى ارجاء المعمورة اسسها الرئيس الامريكى (هارى ترومان) قبل الحرب العالمية الثانية ، شعارها البذل والعطاء وخدمـــة الاخـــرين دون انتظار لمقابل أو جزاء ، وتتجه عنايتها إلى المرضى والعجزة والفقراء والايتام وتعليم الاطفال ، وشرط قبـــول عضويتها هو حب معاونـــة المحتاجين دون مقابل والعمل على رفعة البشرية بغض النظـــر عن الموطن أو الجنس أو الدين أو الاتجاه السياسى والايديولوجى ، كما تعمل الجمعية إلى جانب ذلك كله للدفاع عن (الحمار) ورفع الظلم الانسانى عنه ، لما ورد من تكريمه فى كل الكتب السماوية وذكره فيها ، وقد اعتبره فلاسفة اليونان مصدر الحكمة ! !

هذا وتعقد جمعية الحمير مؤتمرات دولية دورية لتطوير خـــدماتها وتبادل الرأى وتقديم المقترحات ، ولها فى مصر فرع نشط ، وتضم عضويته طائفة مـــن كبار الساسة والادباء والفانين ، ويقال ان الكاتب الكبير (توفيق الحكيم) اقتبس اســـم مؤلفه الشهير (حمار الحكيم) من اسم الجمعية ايماناً منه بافكارها والدور الذى تقوم به فى الحيـــاة رغم انه لم يكن عضواً فيها ، وتمنح الجمعية اعضاءها القاباً متدرجة حسب عرف الحمير القائل بان المجهود والعطاء هما اساس قيمة الفرد على نقيض مايجرى به العرف بين الادميين حيث لاترتبط قيمة الفرد فيهم بما يبذل ويقدم من نفع للاخرين ! ! ويؤكد صديقنا ماقيت هذه الحقيقة من واقع الحياة فى السودان مستدلا بابيات من الشعر تقول :

كل أمـــرىء يحتل فى السودان غير مكانه
فالمال عند بخيله ، والسيف عند جبـــانه
والمرء ليس باصغـــريه ، قلبه ولســـانه

قال ماقيت ان القاب اعضـاء الجمعية تتدرج فى توافق مع مجهوداتهم الحميريه المتفاوتة ، فتبـــدأ بلقب (حرحـــور) وهو طفـــل الحمار ، ثم (الجحش) ثم (حامل الحـــدوة) ثم (حامل اللجـــام) واعـــلاها جميعاً لقب (حامل البردعـــة) ولانه لقب رفيع فقد تسمت به بعض العائلات الاستقراطية .

نجح ماقيت فى اقناع جماعة منا بالانضمام للجمعية ، وفى سبيل بلورة فكرهـــا وترجمته إلى واقع ينفع الناس ، دعا رفاقه إلى الانخراط فى فرقة الكشافة السودانية كى

يتأهلوا بالعلم والعمل لخدمة الاخرين ونصب نفسه اماماً للجماعة يمنح الالقاب ويمنع .

وثمـــة نموذج آخر لصبوات الطلاب بيننا ، يمثله حب النجاشي لطالبة محسية تسكن حي المقرن فكان ينهض مبكراً كعادة المحبين من اقرانه ، فيأخذ حظه من التأنق والزينـــة ثم يخرج ليرابط في موقع على طريق الفتاة إلى مدرستها التي تجاور مدرستنا فاذا اهلـــت بطلعتها من بعيد خفق قلبه في عنف ومادت به الأرض وهـــو يتابع خطوها المموسق على قارعة الطريق حتى إذا مرت به صحبها سعيداً بلحظات اللقاء إلى باب المدرسة !! وكان يسمي مشواره ذاك (بالقيد حرن) وقد تأتى لى ان اصحبهما فى مشوار (القيد حرن) فى بعض الأيام ، والقيد حرن تعبير دارج توصف به زفة العروس فى السودان ، إذ تتحرك ببطء شديد وتتوقف مرة تلو أخرى ولاتبلغ غايتها الا بجهد جهيد ، وهى اشبه بمشية الذى يرسف فى الاصفاد والاغلال وينقل رجليه فى خطـــى قصيرة قليلة ثم تتوقف من الالم وثقل الحديد ، ولعل فى التسمية تصريحاً بمثل هذا التشابه بين الحالين ، فالقيد مانع مـــن سرعة الحركة واتصالها ، والحران فى اللغة معروف ، ومنه وصف البغل بانه حرون ، أى كثير التوقف .

كذلك كان حال النجاشي ومحبوبته النوبية الحسناء ، يتحركان فى بطء وتثاقل ويتوقفان من ركن لركن فى الطريق ، وهما يتجاذبان الحديث فى ود وسعادة ثم يتحول همساً ناعماً تعقبه ضحكة تحاول الفتاة كتمانها ويرسلها النجاشي غير آبه لشيء ، وقـــد يسرقهما الوقت فى ذلك والطريق أمامهما ممتد طويل ، فيسرعان الخطى فيما يشبه الهرولة الحثيثة ، وعند نهاية المشوار يفترقان كل إلى مدرسته وملء اعطافه النشوة والحبور .

كان النجاشي مفتونا بفتاته تلك بصورة فاقت ماكان عليه اترابه من عشق وفتون ويبدو ان عاطفة الحب كانت متبادلة بذات القدر بينه وبين حبيبته ، الشيء الذى اضرم نار الشوق والوجد فى قلبيهما اليافعين . مما حدا بالنجاشي للتفكير فـــى الالتحاق بكلية البوليس أو الكلية الحربية بعد المرحلة الثانوية ، لارغبة فى شرف الجندية وحمل السلاح ، بل اختزالا لسنوات التعليم العالى فى ســـنتين ، تتاح له بعدهما فرصة اللقاء بفاتنته فـــى عش الزوجية السعيد ، وقد حاول النجاشي أيضاً ان ينحو منحى الفرسان فى العشق فيخلد حبه ومحبوبته بقصيدة من الشعر ، حرص ان تكون متميزة عن سواها من قصائد الشعراء

والمحبين ، فارسلها بالانجليزية وقال في مطلعها .

Sweet Karima – My Laugh and Cry.
Sweet Karima – I Love You till I die.

جاءت ولادة تلك القصيدة متعسرة فاستغرقت عدة أيام عانى خلالها النجاشي من مخاض الشعر عناء مرا ، وتلمس لمعاناته الاسباب والمعاذير ، واعترف انه لايمتلك نواصى لغة أولاد جون وان شيطان الشعر لم يهبط من قبل في محراب حبه العظيم ! ! وهذا ما اضطره إلى عجن المفردات وتطويع التراكيب ليصنع منها تلك القصيدة ، ثم عرضها على متهيباً وجلا فأثنيت على انجازه وشاعريته بل وملهمته أيضاً ، ونصحته ان يقدمها إليها على ورق وردى اللون مصقول معطر ، مؤكداً له انها ستصنع منها حجاباً وتميمة تقيها وتحفظ حبها من كيد العوازل والحاسدين .

ثم تراءى للنجاشي ان يعرض درته الشعرية على مدرس اللغة الانجليزية ليأخذ برأيه عملا بالحكمة القائلة ماخاب من استشار ! ! فصحبته اشد من ازره وأقف إلى جانبه وهو يعرض وليدة قريحته على الاستاذ السوبارى ، فلما فرغ من قراءة القصيدة نظر إليه شذراً ثم سأله في دهشه وتعجب :

— انت عايز تقول ايه يابنى ؟! فأحس النجاشي قدراً من الاحباط وقال متسائلا :

— تقصد اترجم ليك القصيدة يا استاذ؟! فاومأ إليه برأسه ان نعم . فاعتدل النجاشي في وقفته ومضى يترجم ابيات القصيدة :

— الحلـوة كريمـة ..
— يافرحتي وبكاى ..
— الحلـوة كريمـة ..
— بحبك مـوت ! !

وسأله الاستاذ وقد عقدت الدهشة لسانه :

— وتطلـع مين كريمة دى ؟!

فيرد النجاشي : كريمة دى بنت نوبية .

تساءل الاستاذ في حركة تمثيلية : انت بتعمل قصيدة باللغة الانجليزية لبنت نوبية ؟! يادهوتي ! ! ! حسرة عليك ياشارلس ديكنز ، ياخراب بيتك ياوليام شكسبير ،

انتو فين ؟ تعالوا شوفوا الادب الانجليزى بيتعمل فيه ايه ، بيتبهدل ازاى ؟ ! !

ويغضب حديثه صديقى النجاشى فيقــول :

ــ ده كلام شنو ده يا استاذ ؟ ! ايه ؟ القصيدة ما اعجبتك ؟

ويجيبه الاستاذ بسؤال ساخر : هى دى قصيدة ؟ !

فيزداد النجاشى غضباً ويقــول : ايوه دى قصــيدة ومــن عــيون الشــعر الانجليزى الحديث . فيضع الاستاذ كفاً بكف ويردف متعجباً :

وكمان حــديث ؟ ! تعرف يابنى لو سمعك واحد مــن شعراء الانجليز المحدثين من أمثال (بليك) و (ووردث وورد) لاقام عليك حد الشعر .

عندها طفح الكيل بالنجاشى من الغضب والانفعال ، وانصرف تاركاً الاستــاذ وممزقاً القصيدة التى تعــثر خطــوها فى طــريق الحبيبة الملهــمة ، بعــد ان احبــط شاعرها ووئدت موهبته فى المهد صبية .

هكذا كانت تمضى بنا الأيــام ، حلوة ماتعة حافلة بكل نشاط وحدث مــثير ، ونحن فى عبابها نتقلب بين جد الدراســة ولهــو الحياة واندفاع الشباب ، إلا أن ذلك كله لم يكــن ليقنع صديقى (النجاشى) بروعة الوجــود ولذة العيش فى تلك المرحلة من العمــر ، فما برح يزعم أن حياتنا خاوية راكدة رتيبة لاطعم لهــا ولا معنى ! ! كان جم النشــاط وافــر الحيوية ملتهب الشعور دائم البحث عــن شىء يضيفه الى رصيده مــن التجارب والمعارف ، فـاذا أدركه بعد طول عناء مله وتطلع الى سواه ! ! كان النجاشى يسابق الزمن وهو لايدرى .

جاءنا ذات يوم وملء إهابه الحماس والطموح ، فوقع فى روعنا بغير تفكــير أن الفتى مفتون بأمــر ذى بال ، وأشرعنا نحوه أعناقنا فى لهــف عظيم ، فأعلــن الجمع بأن مهرجاناً كبيراً لســباحة المسافات الطويلة سيقام فى المــدينة بعد أســبوعين يبدأ من جزيرة التمســاح وينتهى عند كوبرى النيل الابيض، وأن لجنة خاصة من أندية الخريجين ودار الثقافة تقــوم بتنظيم ذلك المهرجــان بعــد أن جمعت له التبرعات ، ورصدت لمن يحالفه التوفيق والفوز فى السباق جوائز ثمينة ومكافآت سخية . ثم دعــا النجاشى فى أعقاب إعلانه ذاك كل من له إلمــام وخبرة بالسباحة من الزملاء للإشتراك فى ذلك المهرجــان سعياً للجائزة وإحرازاً للقب البطولة .

ساد جو المدرسة هرج ومرج من جراء ذلك الخبر الرياضي المثير ، فتركزت أحاديث الرفاق على أمر السباق لأيام عدة ، حيث حظيت المهرجانات الرياضية عموماً وسباحة المسافات الطويلة خاصة بكثير من الإهتمام والجدال . أما النجاشي فقد أردف القول بالعمل ، وسعى بكل جهده وعزمه لاختيار فريق يمثل المدرسة في ذلك السباق، ولكنه لم يفلح في كسر حاجز الخوف والاحجام لدى الكثيرين ،إذكان الأمر حقيقة مغامرة يحفها الخطر نسبة لطول المسافة وقلة خبرة الزملاء ، فتألف الفريق آخر الأمر من ثلاثة : النجاشي والأخ محمد على حامد وأنا !!.

كان النجاشي مدفوعاً بركوب المخاطر والبحث عن الجديد ، وكنت وفيا لصداقة تنكر لها الآخرون ، أما ثالثنا الاخ محمد على حامد فقد كان من أبناء بورتسودان ، ولعله كره أن يوصف بالجبن والتقاعس عن بلوغ مجد يملك لتحقيقه الاسباب، ومن ثم مضينا نعد للأمر عدته ، وأخذنا أنفسنا للتدريب على السباحة حيثما إتفق ، فكنا نرد حوض السباحة في الجامعة يوماً،وحوض السباحة في دار الثقافة يوماً آخر ، ونقتحم عباب النيل مرات ومرات. وقد حرص النجاشي على التدريب في النيل بحكم كونه المجال الطبيعي للمنافسة فيما بعد ، فكنا نذرع عرض النيل سباحة من واجهة وزارة الداخلية الى أطراف جزيرة توتي ذهاباً وإياباً عدة مرات في اليوم الواحد !! والنجاشي يطمع ان يزيد !! ومن قبيل ذلك إصراره ذات يوم لاينسى على مواصلة التدريب وبلوغ الجزيرة مرة أخرى ، وكان ذلك بعد ان بلغ بنا الجهد مبلغاً عظيماً ، فلما أحس منا عزوفاً وكلالا بادياً قال يحثنا بصورة عفوية : انها ستكون المرة الاخيرة ولن يطلب منا بعدها المزيد !! فلم نملك ازاء إصراره الا الاذعان على كره منا .

عدنا الى جوف النيل نسبح صوب جزيرة توتي ، يتقدمنا النجاشي مزهواً بقدرته وطاقته التي لا تنفد ، فبلغناها بشق الأنفس أنا والزميل محمد على حامد ، ثم عدنا أدراجنا على حال من الجهد لا توصف ، وقبل أن نجاوز منتصف النيل كثيراً شرع النجاشي يضرب بيديه على الماء في عصبية وعنف ، وكان يتقدمنا بحوالى ثلاثين متراً أو يزيد، وهالنا مرآه على تلك الصورة المباغتة ، فاندفعنا نحوه .

ثم طفق يعلو وجه الماء ويهبط لحظات طويلة ونحن نحـاول اللحاق به ونجدته بغير طائل، وقبل أن نبلغ مكانه رأيناه يغوص للمرة الأخيرة ويغيب عن الأنظار الى الأبد ، ورغم ذلك جهدنا في البحث عنه وخاطرنا بالغوص الى أعماق ما جرؤنا على بلوغهـا من قبل ، ، فقد أذهلنا الأمر عما بنا من رهق وكلال ، فلم نعترف بمشيئة الأقـدار من هـول الصدمة ، واذ نحن نحاول المستحيل في لجة النيل وأمواجه العاتية ، تجمعـت حشود من الناس على ضفة النيل الجنوبية وهى تتابع في إثارة بالغة ذلك المشهد الدرامى الحزين، ثم تملكنا الإعياء وخارت قوانا تماماً وأدركنا الحقيقة المرة الكريهة، فسبحنا مجهدين صوب جموع الواقفين على أرض الشاطىء ينظرون المأساة .

ولا أدرى كيف بلغ الخبر المدرسة، فما هى الا ساعة أو أقل حتى تجمع طلاب مدرستنا ومدرسة الاقباط صفوفاً متراصة على ضفة النيل وأختلطوا بجموع السابلـة ذاهلين ، وأندفع بعضهم معنا في المياه المتلاطمة نحاول العثور على النجاشي بغـير جدوى، وسارع بعض المسئولين بالمدرسة بأخطار السلطات المختصة ، فجاء على الفور قارب بخارى وثلة من الغواصين المحترفين للقيام بالمهمة بعد أن أمرونا بالخروج مـن مياه النيل .

ظل الطلاب مرابطين بالمكان ليومين وهم نهب للألم والفجيعة، وفي اليوم الثالث تمكن الغواصون من العثور على النجاشي جثة هامدة لا حياة فيها !! وكان أهله قـد أخطروا بالنبأ الاليم ، وجاءوا ثاكلين يتلقون العزاء ، فحملنا جثمان الفقيد معهـم في موكـب مهيب حزين ، وواريناه الثرى بين العويل ودفق الحزن والدمـوع .

وصدق النجاشي وعـده فكانت المرة الأخيرة التي يدعونا فيها للسباحة ، ذهب وهو يسابق الزمن، فترك في الحلوق غصة، وفي حياتنا فراغاً عريضاً وبصمات باقية، واحتفر لنفسه في ذاكرتى موئلا لا تمتد اليه يد النسـيان فهو راحـل مقيم ما حييت لـه الرحمة .


معالم من التاريخ
والتراث السوداني

* ١٢ *

كان لأبي عناية بالغة بأحداث التاريخ والإبداع الشعبي في الرواية والأمثال والحكمة ، وقد تعاظم على مر الأيام إهتمامه ورصيده من ذلك الإرث بما كان يجمع ويسجل من أفواه المعمرين الثقات ، حتى أضحى بين أضرابه ومعارفه موسوعة للتراث الشعبي وسير الأبطال وملاحم التاريخ ، وكان يرى فيما يضطلع به حيال هذه المواريث واجباً على كل قادر على الحفظ والتسجيل ، فليس شرطاً أن يتم ذلك الرصيد بأسلوب أدبي وألفاظ فخيمة منتقاة ، بل يلزم الحفاظ على صحة الرواية وتسجيل الأحداث والوقائع وألوان الابداع بأى قدر متيسر من العلم والثقافة ، وما فتىء ينبه الى خطورة الاعتماد على روايات الكتاب الأجانب واستقاء الحقائق منها ، إذ أثبتت التجربة أنها لا تخلو من التحريف والزيف والغرض ، فضلا عن جهل هؤلاء الأجانب بطبيعة المجتمع السوداني وأعرافه وقيمه .

وجه أبي عنايته لجانب من التاريخ لايحفل به الكتاب كثيراً في سردهم لامهات الأحداث وعظائم الأمور ، وهو ما يتصل بالأنساب ومواقف الرجال ومقولاتهم المأثورة ، الى غير ذلك مما يهمله المؤرخون عادة أو لا يجدون له مصدراً موثوقاً ، فجمع من ذلك أشتاتاً متفرقة لا غناء لذوى الاختصاص والحادبين على التاريخ الوطنى عنها بحال . وجاء جهده استكمالا لما كتب عن تاريخ المهدية خاصة ، وبعثاً لما طوى من صحائف مهملات .

ويمكن وصف أبي وتصنيفه تاريخياً كواحد من ثقات التابعين ، أولئك الذين جاءوا وتفتحت بصائرهم وعركوا الحياة بعد غياب شمس المهدية بقليل ، فأدركوا صحابة الامام أحياء يرزقون ، وأخذوا عنهم شفاهة روايات للأحداث تنضح بالصدق وتفصل ما جاء مجملا في كتب التاريخ ، وأهم من ذلك كله أنها تصحيح لاخطاء مقصودة ونشر لحقائق مطوية مع سبق الاصرار والترصد ! !

وهكذا أضاف الرجل الى همومه في الحياة — على كثرتها و شدة وطأتها — هماً آخر أجل خطراً وأعظم أثراً ، فعمل ما وسعه الجهد على تحقيق هذه المهمة الصعبة

وظل يجمع ويسجل ويمحص كل ما وعته ذاكرته من أحاديث الآباء والأجداد وصناع التاريخ ، وقد أفاد كثيراً من رحلاته بين أطراف البلاد وهو يزاول نشاطه التجارى ، حيث تهيأ له اللقاء بنفر من المعمرين ذوى الدراية والإسهام في دولة المهدية بناءاً ودفاعاً وحفظ تراث . هذا إضافة لما كان عنده من مخطوطات وقصاصات تحكى طرفاً عن التاريخ المسجل المكتوب .

على وجه الإجمال يمكن القول أن أبي كان يملك ثروة ضخمة من حقائق التاريخ وصنوفاً من الفولكلور الشعبي في الحكمة والأمثال ، فاستعان من بعد بأخي أحمد في تدوينها وترتيب ألوانها كلٍ على حدة ، وكان أحمد معروفاً لدى الاهل والتجار بجمال خطه ،فلما اختاره أبي لتسجيل محفوظاته من التاريخ والتراث ، أقبل على الأمر متحمساً وأولاه مزيد العناية والاهتمام ، واستغرق التدوين والاضافة والحذف والتنقيح أعواماً طويلة ، ولم يكتمل ذلك الجهد الموصول إلا بعد أن وجد أبي متسعاً من الوقت في دار هجرته بالشقيقة تشاد ، فكان حصيلة هذا الدأب كتاباً ضخماً اطلق أبي عليه إسم (معالم من التاريخ والتراث السوداني).

ما كاد أبي يفرغ من تأليف كتابه ذاك حتى أخذ يفكر جدياً في طباعته ونشره تتويجاً لجهد استمر سنوات طويلة ، في ذلك الوقت اعتزم الشيخ محمد عليش عووضة زيارة مصر لأمر يتصل بنشاطه في مجال التعليم الديني ، فاغتنم أبي تلك السانحة وكلف الشيخ عووضة بطباعة الكتاب في مطابع أرض الكنانة بعد أن زوده بالمال اللازم لانجاز الأمر ، ولكن الشيخ عووضة رأى بعد قراءة الكتاب والاطلاع على محتوياته أن يعرضه على أهل العلم والخبرة والاختصاص لمراجعته وتمحيص ما به من حقائق وإفادات ، ذلك لأن مادة الكتاب خليط من التراث والافادات التاريخية والقصص الاسطورية والروايات الصوفية وكرامات الاولياء والصالحين ، وبخاصة الامام المهدى والسادة المراغنة وغيرهم من أعلام الطرق الصوفية في السودان . والكتاب في ذلك أشبه بكتاب الطبقات لمؤلفه العالم الفقيه محمد ود ضيف الله ، ولكن هذا الأخير اقتصر على سيرة ومناقب الاولياء، بينما كان كتاب أبي موسوعة جامعة أو هو (ألف صنف) كما سماه العم عمر كروم مازحاً .

أوفي الشيخ عووضة بوعده لأبي فعرض مسودة الكتاب على طائفة من شيـــوخ الازهر الشريف وعلماء التاريخ بمصر ، فأنكر بعضهم كثيراً من معلومات الكتاب وخاصة ما تعلق منها برجالات الطرق الصوفية وكراماتهم ، وأنصب ـ ، الأنكار على سيرة ومناقـــب الامام المهدى عليه السلام !! واتخذ فريق مز حماء موقفـــاً وسطاً فقرظوا وامتدحوا بعض أبواب الكتاب وأشادوا بجهد مؤلفه ر.تساع افقـــه وشمولية تناوله ، ولكنهم قالوا بحاجة الكتاب في مجمله لمزيد من التنقيح والمراجعـــة ، فلما عاد الشيخ محمد عليش ونقل اى ابي ما قال به أولئك العلماء مز آراء متباينة حول كتابه أدركه شيء من الإحباط والألم ولكنه لم يركن الى اليأس والقنوط .

ظل الكتاب مثار جدل لا ينقطع بين أبي وأصدقائه من السودانيين المقيمين فى تشاد ، وقد شهدت جانباً من تلك المناقشات الرامية لإصدار الكتاب ونشره خـــلال زيارتي لأبي في إحدى عطلاتي المدرسية ، حيث قر الرأى أخيراً على الاستعانة بالامام عبد الرحمن المهدى في هذا الشأن ، فهو باتفاق الجميع رائد ور عى النشر والاعـــلام السوداني الحديث ، اذ كان أول من أسس صحيفة سودانية بعد الحرب العالمية الأوك باسهام وطنى رائع مع السيد محمد الخليفة شريف والشيخ عبد الرحمن جميل والشيخ حسن أبو والشيخ عثمان صالح ، وكان الثلاثة الأخيرون يعملون بالتجارة ، ورقـــع الأختيار على تسمية تلك الصحيفة باسم (حضارة السودان) واسندت رئاسة تحريرها لرائد الصحافة القومية الاستاذ حسين شريف الذى تولى من قبل رئاسة تحرير جريـــدة (الرائـــد) .

اقتضى العسف الاستعمارى الذى كانت تشهده البلاد أن تصدر (حضار السودان) كصحيفة أدبية إجتماعية تعمل على بث الثقافة والوعى بين جمهرة القرا ، فلمـــا قوى عودها رأى الامام عبد الرحمن المهدى أن تقتحم ميدان السياسة وتشارك في دنع مسار الحركة الوطنية المتصـــاعدة ، وأضطـــر من أجـــل ذلك لتصفية الشراكة ودنع للمساهمين حقوقهم كاملة لينفرد بملكية الصحيفة وتحمل نتائج تلك الخطوة الوطنية الجريئة وحده !! ثم رأى الا ينفرد بحق النشر في ذلك المنبر الاعـــلامى الوحيد في السودان آنذاك ولهذا أشرك معه السيد على الميرغنى والشريف حسين الهندى في ملكية

الصحيفة لتكتسب الصفة القومية وتعبر عن وجهات النظر السياسية والدينية كافة بغير تمييز . وتم تسجيل الشراكة الجديدة فى يوم ١٩٢٠/٦/٢٤م . والى جانب ذلك يحفظ التاريخ للأمام عبد الرحمن المهدى فضل الريادة في تأسيس أول دار للنشر في البلاد .

عدد أبي وأصدقاؤه مآثر الامام عبد الرحمن المهدى في هذا الجانب فما أحصوا لها عدداً ، ومن ثم نبعت فكرة الاستعانة به لاصدار كتاب (معالم من التاريخ والتراث السوداني) اضافة ثره لامجاده الباقيات .

واذ أنا اتأهب لمغادرة أبي والعودة الى الخرطوم عند نهاية العطلة الصيفية ، زودني كعادته دائماً ـ بدعــواته ونصائحه وحملني رسالة منه الى صــديقه و ابن موطنه سنجه ـ العم حسن نجيلة ومعها مســودة الكتاب الأثير ، وطلب منه في تلك الرسالة أن يتفضل بقراءة الكتاب ومراجعته وتقديمه للامام عبد الرحمن المهدى وتزكيته لديه بما يلزم من التقريظ الذى يستحقه ،واكد أبي للعم حسن نجيلة في سياق تلك الرسالة أنه يدرك ماله من حظوة ومكانة طيبة في نفس الامام عبد الرحمن وما يكنه له من تقدير وإجلال كواحد من أعلام الفكــر والتاريخ والأدب في السودان ، ويبدو من ذلك أن أبي أراد محاصرة العم حسن نجيلة وحفزه ، كيلا يترك له منفذاً للتنصل من المهمة بحال من الأحوال.

وما أن تسلم العم حسن نجيلة الكتاب وقرأ الرسالة حتى انفجر ضاحكاً وقــال : هكذا حال محمد نور دائماً وأبداً ، فهو منذ فجر شبابنا كان وما يزال يعتقد جازماً أن رسالته الحقيقية في هذه الحياة ليست في إحراز نجاحات عظيمة في مجال العمل التجارى بل بعث وتحقيق التراث والتاريخ السوداني ! ! ثم سكت برهة كأنه يعود الى الماضى وقال : كم كان يشجينا ويحلــولنا أن نستمع لابيك يومئذ وهو يروى أحداث التاريخ ،أو كما كان يسميها هوحكاوى التاريخ ،فينثر علينا لبابه وينقى شوائبه ويقف مدافعاً عن أبطاله كالامام المهدى والخليفة عبد الله وغيرهما من بناة المجد وصناع التاريخ . وكان ذلك مثاراً لدعاباتنا معه ومدعاة للتندر والمزاح ،فهو كما نعرفه شديد الولاء لطائفة الختمية وأضحى من بعد من أقطاب خلفائها ، فكنا نتخذ من إعجابه ودفاعه عن إمام الأنصار وأبطالهم بابا نلج منه للتشكيك في صدق ختميته وولائه للسادة المراغنة ، فاذا أوغلنــا

في ذلك مازحـــين ثار في وجوهنا وتوعدنا بالويل والثبور ! ! فنضحك لثورته وفرط انفعاله . كذلك كان أبوك شديد الحماس عظيم الغيرة على نفر من رواد المجد والتاريخ والشعر ، يحفظ سيرتهم ويردد فينا أقوالهم وأشعارهم فلا ينضب له معين ، ومـــا أروع حبه للزبير باشا ورابح فضل الله والسلطان عـــلى دينار والشاعر الحاردلو وود الفراش والبنا ! ! أقسم صادقاً أنني لم أعرف طوال حياتي رجلا يحفظ ويروى قصص التراث والاساطير الســـودانية ومناقب الاولياء وأحداث التاريخ مثل أبيك اطال الله عمره فهو في هذا صمد لا ينازع ، وخليق بمثله أن يدون للناس والأجيال كتاباً يبقى عـــلى الايام .

كان العم حسن نجيلة يتحدث في مجمع من الناس في أحد مكاتب جريدة (الـــرأى العام) بالسوق الافرنجى بالخرطوم ، ولم يصرفه عن مواصلة حديثه عن ملكات أبي ومواهبه وذكرياته معه ذلك الضجيج والحركة الدائبة في ذلك المكان ، وكنت أجلس قريباً منه استمع لما يقول في حرج وزهو مكتوم ، فلما فرغ أمسك بالكتاب بكلتا يديه كمن يحاول معرفة حجمه وأردف ضاحكاً يقول : يقيني أن هذا السفر كنز لا يقـــدر بثمن ، وأجزم أنه يحوى كل ما قلته بل يزيد . ثم أقبل عليّ يسألني عن حالي وسير دراستي في ود وأهتمام، وفي ختام اللقاء أخبرني أنه سوف يعكف على قراءة الكتاب قبل تقديمه للامام عبد الرحمن المهدى ، ووعدني بتحديد موعد لزيارته كيفما كانت النتيجة ســـلباً أو ايجاباً ثم قال: انه نسبة لضخامة الكتاب وعظم المسئولية بحاجة لما لا يقل عن ثلاثة شهور ليرتب لى أمر اللقاء بالامام عبد الرحمن والوقوف على رأيـــه حول مصير الكتاب .

وقبل أن أغادر المكان مودعاً وشاكراً حفـــاوته ونبل مشاعره أدخل العم حسن نجيلة يده في جيبه واخرج ورقة من ذات الخمسة جنيهات ثم دفع بها الى وهو يقول معتـــذراً : هذا كل ما معى من مال ، وكان بودى أن امنحك المزيد فأنت ابن أخى وصديق صباى الوفى الكريم ، أمسك .

فتمنعت عن قبول المبلغ وشكرته على صنيعه ولكنه لم يرض ذلك منى وقال حازماً : طيب ياولدى نتقاسم الخمسة جنيه ،وربما قالوا في المثل الفقراء إتقسموا النبقه. واستبقاني

الى جانبه حتى قام أحد العاملين بالدار بفك الورقة الى خمس ورقات من فئة الجنيه، فبادرت بأستلامها ودفعت للعم نجيلة بثلاث ورقات منها وقلت ضاحكاً :

« انت الكبير تأخد ثلاثه وأنا الصغير آخد اتنين ! !

فقبل قسمتي وقال في نبرة يشوبها الحزن والأسى :

تعرف يا ولدى ، أنا بعتبر الثلاثة جنيه ديل هدية منك ، والحقيقة أنا فعلا محتاج لهم وغيرك ما كان بيرجعهم ! !

تركت كلماته في نفسي أثراً لم أستطع مغالبته أو أخفاءه ، ووقفت متردداً فيما أفعل أو أقول ،وطفقت أنقل نظراتي بين وجهه الصبوح تارة والارض أخرى ،فارتاع لما أصابني وسألني عما اعتراني من جراء حديثه ، فقلت :

أنا جد آسف ، لأن أبي لم يحملني مع الكتاب والرسالة هدية مناسبة ، وهو عادة يفعل ذلك مع الناس دون أن يطلب منهم خدمة خاصة ! !

فضحك العم حسن نجيلة لمقالتي تلك وأردف :

في هذا التصرف سر لا تدركه أنت يا بني ، ولكنه قطعاً لا يغيب عن فطنة ابيك فلو أنه أرسل مع الكتاب والرسالة هدية لما تسلمت الكتاب ولا الهدية ! !

فضحك الجميع لما قال وهز البعض رؤوسهم عجباً واعجاباً، وقال أحدهم في تأثر بالغ : ليت أبناءنا والأجيال القادمة وأنت منهم، يفهم بعضهم بعضاً كما نفعل نحن اليوم . ثم غادرت المكان وأنا نهب لمشاعر الوفاء والاسى والسعادة .

مرت الشهور الثلاثة سراعاً كوميض البرق أو لمح البصر ، وقد عجل بانقضائها انشغالى بالدراسة وانقطاعى التام للتحصيل والمذاكرة ، حيث كنت في السنة النهائية للمرحلة الثانوية ، ولم يتبق سوى شهور قلائل للجلوس لامتحان الشهادة ، وكان ذلك أمراً مؤرقاً وهماً لا يريم .

في الموعد المضروب وفي ذات المكان ، التقيت مرة أخرى بالعم حسن نجيلة فتلقاني هاشاً باشاً وبادرني بتحيته المعهودة : أهلا بابن أخي المغترب ، أهلا .

ولم يمهلني حتى أجلس أو التقط أنفاسي ، بل سار من فوره أمامي وغادرنا

المكان ، كانت الساعة دون العاشرة من صبـــاح ذلك اليوم الذى لا أنســـاه، وماهى الا لحظات حتى كنا في حضرة الامام عبد الرحمن المهـــدى ، ألفيناه يجلس في بهو فخيم متسع ، وفي معيته العم زين العابدين إبراهيم بلال والدكتور مكي شبيكة ، وبادر العم حسن نجيلة بالاعتذار عن تأخره بعض الشيء بسبب الم عاوده في رجله وعاقه عن الحركة مبكراً ، فقبل الامام عذره وأمر العم زين العابدين أن يذهب به بعد نهايـــة اللقاء مباشرة الى طبيب خاص حدده بنفسه ، ثم سألني الامام عبد الرحمن عن حـــال أبي ومن معه من السودانيين بالقطـــر التشادى ، فأجبت أنهم بخير حال. فعاد يسألني عن حالى ودراستى ومكان سكنى ، فقلت : انى كنـــت أقيم بداخلية المدرسة في حى المقرن ، وكان السكن بها مريحاً للغاية ، ثم انتقلت الداخلية الى مبنى جوار الجامع المصرى ، فنالنا شيء من الرهق والعناء لضيق المكان وكثرة الطلاب . فضحك في وقار وقال : لماذا إذن لا تسكن مع طلبة الدائرة ؟ إن لدينا سكناً مريحاً ومعاشاً طيباً خصصناه لابناء الانصار من طلبة المدارس الثانوية وجامعة القاهرة فرع الخرطوم ومن الممكـــن أن تنضم إليهم وتعيش معهم ، وقبل أن يســـمع منى رداً على عرضه الكريم التفـــت الى العم زين العابدين إبراهيم بـــلال وقال له: هيأوا له مكاناً بين ابنائنا الطـــلاب ! ! عندئذ تحفرت للإعتذار والشكر ولكن العم حسن نجيلة أمسك بيدى وهمس في أذني هذا أمر مولانا الامام ، وفيه لك كل الخير فلا تتردد في القبول . فأذعنت في رضا ، ثم اقبل الإمام يسألني ممازحاً :

انت ختمى زى أبوك ، واللا أنصارى زى جدك ؟

فنالني من ذلك حرج مباغـــت وحاولت جهدى أن أرد بشيء من الذكاء خوفـــاً من الكـــذب والحق معاً ، فقلت :

أنا يا مولانا مؤمن بشعارك الخالد لا شيع ولا طوائف ولا أحزاب ، ديننا الاسلام ووطنا السودان .

فلم يستطع مغالبة الضحك وشايعه في ذلك الحاضرون ، فلما ملك زمـــام أمـــره من جديد قال وهو يومئ برأســـه : انت ذكى ولا شك ، ولكنى قلت ذلك الشعـــار رداً على سياسة الحكم الاستعمارى الآخذة بمبدأ (فرق تسد) ، فالشعار يعنى أننا أبناء

السـودان كافة ، لاشيع ولا طوائف ولا أحزاب تقف حاجزاً دون قوميتنا السودانيه وعقيدتنا الاسلامية، وعلى صخور هذه وتلك تتحطم مكائد الاستعمار وسياساته الرامية للشتات والفرقة والكفر والالحاد .

وهمهم الحاضرون بعبـارات الاستحسان والاعجاب ، وعلق العـم حسن نجيلة قائلا : هذه يا سيدى الامام مذكـرة تفسيرية لذلك الشعار العظيم . فضحك الآخرون في أدب واحتشام . ثم قال الأمام من بعد : طبعاً جئت لتعـرف رأينا فيما يتعلق بكتاب والدك ؟ فأجبت متلهفاً : نعم سيدى الامام . فقال سيادته : لقد قرأت الكتاب ملياً ، ووجدت به كنوزاً من التراث والمعارف السودانية ومشاهد التاريخ وشاقنى كثيراً ما جاء في باب المهدية خاصة . ولكنى رأيت أن أدفع به لأهل العلم والتخصص ، فطلبت من عملك الدكتور مكى شبيكة أن يطلع عليه ويقطع فيه برأى ، وأرى أن يسمعنا رأيه الآن .

اتجهت بحواسى كلها صوب الرجل الحكم ، وأنا أشبه بمن ينتظر حكماً بالبراءة أو الإعدام ، وساد الصمت برهة ، ثم تحدث الدكتور مكى شبيكة وهو يمسك بالكتاب بين يـديه فقال :

هذا الكتاب تبر من التراث والتاريخ ، ولكن كما يحتاج التبر لنار حامية تخلـص جوهره من الشوائب ، فان هذا الكتاب الثمين بحاجة ماسة لجهـد كبير لتصنيـف معلوماته وإعادة ترتيبها وتنقية شوائبها من أساطير وكرامات لا يسيغها منطق العلم ، فاذا تم ذلك أصبح الكتاب صالحاً للنشر والتداول من بعد، هذا من ناحية المضمـون، أما من حيث الاسلوب فلا بأس من تركه على ماهو عليه من بساطه ويسر ، جريـاً على نهج كتاب الطبقات لود ضيف الله وكتاب الجبرتي في تاريخ مصر . ثم أردف الدكتور مكى شبيكة قائلا : ان اعجابي بالكتاب عظيم لا يحـد، وذلك ما دفعـنى لاشراك الدكتور صالح محمد نور استاذ التاريخ بجامعة الخرطوم في قراءته وتقويمه فجاء رأيه مطابقاً لما ذهبت اليه، كذلك نال الكتاب إعجاب الاستاذ حسن نجيلة وهو حاضر يشهد ، وثلاثتنا على استعداد تام للقيام بمهمة إعداد الكتاب للنشر في هيئة لجنة مختصة .

عندئذ نظر الى الامام عبد الرحمن المهـــدى وقال : هذا هو الرأى الاخير ، وها أنا اكلف عمك حسن نجيلة بكتابة خطاب لوالدك يحدثه فيه بما انتهى اليه الأمر ليوافينا برده . ثم أضاف سيادته : وحتى يكون لك انت فضل السبق والمشاركة في اعـــداد الكتاب فقد رأيت أن تكون عضواً في اللجنة وعندما يصل رد والدك باذن الله ستعمل هذه اللجنة بصورة رسمية وبميزانية مقررة مني .

تعجـــز كـــل لغات الدنيا عن وصـــف ما انتابني من فرح في تلك الساعـــة ، حتى حسبت أن ليلة القدر قد تنزلت نهاراً على مجلسنا ذاك واستجاب الله فيها لرجائي ودعـــواتي !! وفي غمرة الســـعد الغامر جاءني صوت الامام يقول :
حتى يبلغنا رد والدك فيما بعد يمكنك أن تشرع في إعداد باب المهدية من الكتاب ليكون لك قصب السبق على الآخرين ، شريطة الا يشـــغلك ذلك عن تحصيل العلم والمذاكرة خاصة وأنت مقبل على امتحان الشهادة الثانوية ، وأرى أن تعرض ما تعده على أخيك الصادق المهدى فهو مهتم بتاريخ المهدية وملم بدقائق أحداثها ، وهو في نفس الوقت في مثل سنك واقرب اليك من أعضاء اللجنة الآخرين .

كان ذلك خاتمة لحـــديث الامام عبد الرحمن المهدى في ذلك اللقاء ، بعدهـــا ودعنا مجلسه فخرجت في صحبة العم حسن نجيلة والعم زين العابدين الذى قادنـــا الى مكان سكن الطلاب وسجل اسمى ضمن رفاقى من طلاب الدائرة ، وكان منهـــم فيما أذكر : عبد الدائم ولعله طالب بالمراســـلة في إحدى الجامعات الاوربية ، وأحمد سليمان ضو البيت الاعلامى المعروف ، وأحمد محمدين ناظر إحدى المدارس الثانوية اليوم ، وأحمد برشم وهو ناظر مدرسة متوسطة حالياً وأحمد ناصر وقد عمل لفترة من الزمن بالقوات المسلحة وآخرون — وجميعهم قد أكملوا تعليمهم وحققوا نجاحات طيبة في الحياة .

آثرت البقاء مع ثلة من الطلاب ريثما أذهب لداخلية المدرسة لاحضار متاعى ، وطلبـــت من العم زين العابدين أن يؤجـــل اللقاء بيـــنى وبين السيد الصادق المهدى حتى أفرغ من إعداد جزء من الكتاب أعرضه عليه ، فأسر في أذني وهو يودعنى أن

الامام عبد الرحمن المهدى قد أمر لى بعشرة جنيهات اعانة شهرية من الدائرة حتى اكمل دراستى واتخرج فقلت معتـــذراً :

لا أحسبنى بحاجة لهذه الاعانة ، فأنا في وضع مالى مريح ، ولعل سواى بها أحق .
فقال بلهجة تنم عن الحـــزم : هذه تعليمات الامام ، ولا معقب عليها أبـــداً .

فودعته محرجاً شاكراً وهو يذهـــب مع العم حســـن نجيلة الى الطبيب الذى أشـــار به الامام من قبل ، وعدت أدراجى لأتعرف على زملائى الجدد .

وكما يحدث عادة فى مجتمعات الشباب ، سرعان ما امتدت جسور الالفة والصداقة والود الحميم بينى وبينهم حتى خلت اننى عريق البقاء والانتماء لاغريب محدث الوجود ، ومضيت فى جد ومثابرة فى دراستى بالمدرسة ، ولم اغفل وصية الإمام عبد الرحمن المهدى ، فقسمت أوقات فراغى بين المذاكرة واعداد الكتاب والراحة .

شرعت فى تلخيص باب المهديه من كتاب أبى فى صورة مقالات تاريخية كنت أكتبها لجريدة (الرائد) الحائطية التى كان يحررها الطالب محمد طاهر ماقيت ، ولعله اقتبس اسم صحيفته تلك من جريدة (الرائد) الاسبوعية التى صدرت عام ١٩١٤م ، وكان مؤسسها أحد التجار اليونانيين ثم تعاقب على تحريرها عدد من الأدباء ، غير ان اشهر من تولى تحريرها هو الاستاذ (عبد الرحيم مصطفى قليلاتى) وهو اديب وشاعر بدأ حياته الأدبية بكتابة شعر السرادقات فى خيام المولد النبوى الشريف ، وهو أول صحفى تعتقله السلطة الإستعمارية فى السودان بسبب مقالة افتتاحية نشرها فى (الرائد) ابان الحرب العالمية الأولى ، وكانت البلاد تواجه مجاعة طاحنة أودت بحياة الكثيرين وأهلكت الزرع والضرع ، بينما كان المستعمرون ينعمون بحياة مترفة ناعمة ، وكانوا مولعين منذ وطئت أقدامهم ارض السودان بتربية الكلاب وتدليلها ، فابتدأ قليلاتى مقالته الافتتاحية ببيت من الشعر حفظته الأجيال عبر السنين وهو :-

تمـوت الأسد فى الغابات جوعـاً ولحـــم الضأن يطـــرح للكلاب

فاثارت المقالة قطاعات الشعب كلها . وخرجت المظاهرات تندد بالمستعمرين ، وواجهت الحكومة غضبة الشعب ومطالبه بتوفير الغذاء ، فلم تجد بدأ من استيراد الذرة من الهند وبيعها للناس بأسعار زهيدة ، حتى تحتوى ثورتهم وتمتص دواعى غضبتهم العارمة ، وواجه الاستاذ قليلاتى تهمة اثارة الفتنة والكراهية ضد حكومة السودان،فتم اعتقاله وابعاده إلى مصرسنة١٩١٧م،وخسرت البلاد وصحيفة (الرائد) قلماً ثائراً، ولكن الصحيفة ظلت باقية فتولى رئاسة تحريرها بعدئذ الاستاذ حسين شريف . حدثنى الطالب محمد طاهر ماقيت انه شديد الاعجاب بتاريخ (الرائد) ودورها الوطنى واعلام تحريرها قاطبة ، فاراد ان تكون صحيفة الرائد الحائطية امتداداً لتلك وتخليداً لذكراها .

بدأت أولى مقالاتى فى جريدة الرائد الحائطية بمقالة عن الجهاد فى عهد المهدية ، ولعلى اردت بعنوان المقالة وموضوعها إحياء ذكرى صديقى النجاشى وجريدته الحائطية (الجهاد) تلك التى لم اقو أنا ولا غيرى على مواصلة تحريرها لما تثيره فى نفوسنا من ذكرى فاجعته الاليمة .

وكان أبى قد أفرد فصلا كاملا من كتابه فى باب المهدية عن الجهاد ، بدأه بقصيدة شاعر المهدية (البنا) ذات الشهرة الضاربة :

الحرب صبر واللقاء ثبات ... والموت فى شأن الاله حياة
الجبن عار والشجاعة هيبة ... للمرء ما اقترنت بها العزمات
والصبر عند البأس مكرمة ... ومقدام الرجال تهابه الوقعات
والاقتحام إلى العدو مزية ... لايستطاع لنيلها غايات
والعمر فى الدنيا له أجل متى ... يقضى فليس تزيده خشيات
والفخر كل الفخر بيع النفس ... لله العلى واجرها الجنات
ان الجهاد فضيلة مرضية ... شهدت بمحكم أجرها الآيات
قد حاز هذا الافتخار جميعه ... صحب الامام السادة القادات
قوم إذا حمى الوطيس رأيتهم ... شم الجباه وللضعيف حماة
ولباسهم سرد الحديد وبأسهم ... شهدت به يوم اللقا الغارات

في السلم تلقاهم ركوعاً سجداً   أثر السجود عليهم وسمات
وتخالهم يوم الجلاد ضراغماً   اسد واسل رماحهم غابات
ركبوا الجياد وغادروا شلو العدي   رزق النسور ولحمهم اقوات
والخيل ترقص بالكماة كأنها   تختال في ميدانها، فتيات
فاثرن نقع الموت في عرصاتهم   واغرن صبحاً إذ علت أصوات
وذباب اسياف المنية فوقها   رعفت دماً وجلاؤها الهامات

وإلى آخر القصيدة ..

اثارت مقالاتي عن الجهاد في عهد المهدية عاصفة من الأعجاب والحماس في مجتمع الطلاب بما حوت من رؤى وحقائق جديدة اوردها أبي في كتابه الذى لم ير النور ، فاثلج ذلك صدرى وحفزني لان اطلب من العم زين العابدين ابراهيم بلال ان يمهد لى سبيل اللقاء بالسيد الصادق المهدى حسب توجيهات جده الامام عبد الرحمن، وكانت الصلة بيني وبين العم زين العابدين قد توثقت بحكم وجودى قريباً منه في داخلية الدائرة .

نهار اليوم التالى اخبرني العم زين العابدين ان المساء موعدى مع اللقاء المرتقب فتهيأت للامر ! ! ولعلى اردت – بغير اعلان حتى لنفسي – ان التقى بالسيد الصادق المهدى لقاء الرفاق دون قيود أو حواجز نفسية وهو في مثل سنى أو يكبرنى قليلا ، ومن عجب فقد تخيرت عربة التاكسى التى اقلتنا إلى داره . فلما بلغنا وجهتنا وترجلنا عنها رجوت سائقها ان يبقى في انتظارنا لقاء أجر معلوم ليعود بنا بعد الزيارة في رحلة الاياب .

لم تكن تلك هى المرة الأولى التى التقى فيها بالسيد الصادق المهدى ، فقد شاهدته عدة مرات في اروقة الدائرة أو منزل جده أو ابيه في حشد من الأتباع والمريدين ، ولكنها المرة الأولى التى أجلس إليه واتحدث معه في أمر من الامور ، فاستقبلنا بحرارة وترحاب ، وابدى اهتماماً بالغاً بالكتاب محور اللقاء ، وبذل الوعد بالمشاركة في اعداده وخلال ذلك جيء باطباق الشاى والحلوى والماء المثلج ، فدار الحديث بيننا في جو من

الالفة حبيب إلى النفس ، ثم غادرنا مجلسه شاكرين .

وتوالت من بعد زياراتي ولقاءاتي بالحفيد الموعود بمجد الحياة،وكنت شديد الاعتناء بمظهرى وهندامى فى كل لقاء، ولكن فى غير تكلف وافتعال ، بيد أنى لم اقلع عن عادة انتقاء عربة التاكسى ذات الرونق والجمال واستبقائها أمام دار مضيفى حتى نهاية الزيارة والعودة بها. فلا أدع مناسبة تمر حتى اغتنمها لاشعار السيد الصادق ومن يكون معه بامر العربة التى تربض فى انتظارى ! ! وقد افتعل الحديث احياناً عن كفاح الطبقة العاملة ليتسنى لى الاعلان عن سـائق العربة التى تنتظـرنى أمام الباب ! ! والواقع ان ذكريات أيام العـز الغابرة ولقبها الاثير (قندول عيش الريف) والشعور بالتميز على الآخرين كل ذلك أو بعضه قد تقمص روحى فى تلك الظروف ،وشكل الصورة التى ترضـى طموحى فى مواجهة بذخ الحياة الذى يتقلب فيه حفيد الإمام .

كذلك كنت التقى فى معية السيد الصادق المهدى بنفر من ابناء الأمراء واعلام الدولة المهدية . منهم السيد اسماعيل عبد الله الفاضل وكان من اتراب الحفيد ذا ملاحة وروح مرحة ظننى فرعاً لعائلة البرير ذات الثروة والجاه العريض فانطلق على سجيته معى وعاملنى معاملة الند للند ، فارضانى ذلك واسعدنى كثيراً ، وظللت فى هـذا الجو العابق بعطر المجد والزعامة اترقب وصول خطاب أبي لتتاح لى مزيد من فرص اللقاء الحميم بالسيد الصادق المهدى لاظهار مواهبى الفكرية وقدراتى الثقافية من خلال الحوار والمناقشات حول الكتاب المزمع إعداده ، ولكن حدث مالم يكن فى الحسـبان حيث حضر أخى أحمد من (ابشى) يحمل رد ابى المرتقب على رسالة العم حسن نجيلة ، وعلى غير ماكان يتوقع الجميع رفض أبى بصفة قاطعة حاسـمة أى مساس بمضمون الكتاب مهما تكن الدوافـع ومقتضيات الحال ! ! فهو يرى ان ينشر الكتاب كما هو أو يترك ولاخيار آخر ! ! وأحس العم حسن نجيلة غصة لهذا القرار الصارم ، فحاول جهده أن يقنع أخى أحمد بان الحكمة تقتضى الامتثال لرأى اللجنة كيلا يبقى الكتاب حبيس الظـلام ويندثر آخر الأمر ،ولكن أخى أحمد أفهمه انه لايملك صلاحية تعديل القرار أو التراجع عنه .

نقل العم حسن نجيلة قرار أبي إلى اعضاء اللجنة المكلفة باعداد الكتاب فابدوا أسفهم لهذه النتيجة غير المتوقعة التي حرمت الاجيال من كنز للمعرفة بالتراث والتاريخ لايقدر بثمن ، وعاد أخي أحمد ادراجه يحمل الكنز الدفين . أما أنا فقد حزنت على وأد الكتاب في مهده حزناً مريعاً لأيام وشهور ، فلم أجد الصبر والسلوان الا في تلك الاجزاء التي اعددتها وقمت بنشرها في وقت لاحق كمقالات في الصحف السيارة، كما ان بعض محتويات كتاب أبي وردت ضمناً في سياق فصول هذا الكتاب .

ولئن كنت حزيناً على ضياع فرصة النشر لذلك الكتاب فان العم حسن نجيلة كان اشد حزناً ، فهو الوحيد من بين اعضاء لجنة الإعداد الذي اتفق مع أبي في كل مـــا أورده في كتابه من تراث وتاريخ ، حتى كرامات الأولياء والأساطير والروايـــات الشفهية كان من رأيه ان أبي نقلها بصدق وأمانة عن حافظة المجتمع السوداني .

انقضى عامنا الأخير بالمرحلة الثانوية وبدأنا نتطلع لآفاق المستقبل الرحبة بعـــد فراغنا من اداء امتحانات الشهادة الثانوية ، وكان لزاماً علينا اختيار نوع الدراســـة الجامعية في ختام المرحلة الثانوية من خلال المساق الذي يلائم ملكات الطالب وقدراته الذهنية ، فيتفرق الطلاب في مساقين علمي وأدبي ، لتكون الدراسة الجامعية وفقـــاً لهذا الاختيار .

كنت قد اخترت المساق العلمي رغم عنايتي واهتمامي بالدراسات الأدبية وخاصة الفلسفة التي استهوتني لدرجة العشق ، فقد آنست في نفسي شغفاً بها ونهماً لايشبع ، وهذا مادعاني — في قابل الأيام — إلى الالتحاق بكلية الآداب شعبة الفلسفة بجامعة القاهرة فرع الخرطوم ، فهيأ لي ذلك العشق ان احصل على الليسانس بتفوق ويسر ، والحق اني بذرت نطفة ذلك التكوين في اعماقي مبكراً من خلال قراءات حرة ابان المرحلة الثانوية حيث عكفت على استيعاب منهج الفلسفة مع اقراني طلبة المساق الأدبي لا لامتحن فيه ، ولكن لمزيد من المعرفة .

أخيراً جاءت لحظة الاختيار لطريق الحياة العلمية والعملية ! ! ففي غمرة الأفراح بنجاحي في اجتياز المرحلة الثانوية بعد ذلك الجهاد الطويل ، فاجأني أبي باختيار طريق صادف في نفسي هوى ورغبة ، إذ رأى ان التحق بالكلية الحربية لاتخرج ضابطاً في

الجيش !! ولم أكن فى حاجة لاقناع أو تعليل .

كان أبى حفياً بأمر الجندية مولعاً بتاريخها وابطالها ، حتى انه أفرد لها فى كتابه بابا مطولا هو باب (الجهاد) ولم يقف جهده فيه عند مجرد الرصد التاريخى للمعارك والحروب وقادتها وادواتها فحسب ، بل اورد جملة من الآراء والمفاهيم فى مقدمة ذلك الباب ، تأثرت بها فى حياتى العملية وكانت أساساً لدراسات وبحوث حول فلسفة الحرب نشرتها فى مجلات دورية ومن بعد اردعتها حافظة كتابى (قبس من الفكر والتاريخ) .

ومهما يكن من أمر فقد شرعت فى البحث عن الطرق التى تبلغنى الكلية الحربيه فالتقيت باثنين من رفاق ذلك الدرب ، هما « حبيب الله أحمد حبيب الله » وكان والده أحد ضباط البوليس الاشاوس ، فألفيته مثلى وفياً لرغبة أبيه فى سلوك ذلك الطريق ومن شابه أباه فما ظلم !! أما الآخر فهو عثمان حاج حسين « أبو شيبة » ولم يكن يخطر ببالى قط ان يختار أو ينخرط فى سلك الجندية !! إذ كان رقيق الطبع نحيل الجسم فدفعنى العجب لسؤاله عن سر اختياره للجندية طريقاً فى الحياة ، فاجابنى بوضوح وصدق انه برغم حبه للثقافة الا انه يضيق ذرعاً بقيود الدراسة المنهجية وما تفرضه على الطالب من امتحانات يتحدد نجاحه وفشله فيها بمقدار مايحفظ ويردد كالببغاء من مواد دراسية ومعلومات يكون على قناعة تامة بعدم جدواها فى حياته العملية من بعد، بدليل ان المجدين فى حفظها واحراز الدرجات العلى فيها ينسونها كلياً أو جزئياً بعد الامتحان بايام قلائل !! وثمة سبب آخر لاختيار الجندية كما قال أبوشيبة فان له (واسطة) قوية قادرة على تذليل الصعاب فى طريق قبوله بالكلية الحربية !!

ثم أورد أبو شيبة سبباً آخر فقال : يكاد ينعقد اجماع الناس بمختلف ميولهم ومشاربهم واتجاهاتهم على ضرورة احداث تغيير جذرى فى الحياة السياسية الراهنة بعد أن نخر فيها سوس الفساد والصراع الحزبي المقيت ولكنهم يقفون ساخطين مكتوفي الايدى ازاء قهر وجبروت السلطة الحاكمة، أما ابناء الأرض فى القوات المسلحة وبما لديهم من أسباب القوة فهم الأقدر على تلبية رغبة الشعب وفرض التغيير الذى يحلمون به إذا ما وجدوا القيادة الطليعية المخلصة التى تفجر ثورتهم وتدفعهم إلى العمل الإيجابى

من أجل سودان العزة والكرامة والوحدة . ثم قطع أبوشيبة على نفسه العهد ان يكون له هذا الشرف مستقبلا ماوجد إليه الاسباب !!

ضحكنا يومئـــذ كما لم نضحك من قبـــل على احـــلام أبوشيبة ووصفهـــا بعضنا تندراً وسخرية ب :ـ (احلام زلوط) .

وكان سبقنا إلى الكلية الحـــربية من زملاء الدراسة الثانوية بذات المدرسة طالبان ، وكان يحلو لهما زيارة المدرسة بين آونه وأخرى بزى الكلية الحربية ،فيثير مرآهما الاعجاب والطموح فى نفوس الكثيرين ، ويدفعهم ذلك إلى السـؤال عن دقائق الحياة والنشاط فى الكلية الحربية ، وكيف تسـنى لهما الالتحاق بها وهى حلم بعيد المنال ؟ فكانت إجابة كليهما قاطعة فى هذا الصدد ، إذ قالا معاً (بالواســطة ، والما عنده واسطة مايعشم فى دخول الجيش ، حتى لو كان عنده شهادة من السربون !!)

فمضيت ابحث عن جسر العبور أو (الواسطة) ولم يرهقنى التفكير طويلا ، إذ قصـــدت العم زين العابدين ابراهيم بلال واطلعته على رغبتى ثم سألته ان يمهـد لى سبيل مقابلة السيد الصديق المهدى ليضمنى إلى كشف ابناء الانصار الراغبين فى دخول الكلية الحربية ، فما تردد لحظة فى تحقيق مطلبي ، وكنت اعرف السيد الصديق عـن بعد من خلال زياراته التفقدية لطلاب الدائرة ، وبدا لى انه على علم بما كان يربطنى بابنه السيد الصادق من صلة فى تلك الظروف التى كنا نتهيأ فيها لإعداد الكتاب ، فلما ادرك غايتى قال :

الواسطة فى حقيقة أمرها تزكية وضمانة منا لاولئك الذين نرشحهم للعمل العام مدنياً كان أو عسكرياً ، وهذا تقليد يجرى العمل به فى كثير مـــن دول العالم وخاصة المملكة المتحدة ، لذا فنحن لانزكى احداً غير مؤهل أو غير مستوف للشروط ، فلابد ان يكون صالحاً خلقاً ومسلكاً لشرف الجندية ، واعتقادى ان اخاك السيد الصادق اعرف بك منى فى كل ذلك فامض إليه وليوفقك الله .

شكرته واتجهت مباشرة إلى منزل السيد الصادق وكررت لديه طلبي ، فاعاد

على مقالة ابيه، ثم وعدني ان يستوثق من استيفائي للشروط أولا ثم تكون التوصيــة إذا رأى انني مؤهل وصالح للجندية . وعدت لزيارته بعد أيام فاخبرني انه قد أوصى باختياري وسيتم الامر لامحالة ودعا لى بالتوفيق .

نزلت كا اته برداً وسلاماً على نفسي بعد أيام من القلق والانتظار والتوجس ، فقد كان صادق الوعد بما له من نفوذ ومكانة ، ورغم انه لم يكن يؤمئذ قد خاض معترك السياسة بعد إلا إنه إقتعد من ابيه وجده مقعد صدق وحب عظيم ، فكانا يوكلان إليه كثيراً من المهام العامة وربما السياسية أيضاً بغية تدريبه وتأهيله لذلك الشأن العظيم فى حياة الأمة .

كذلك درجت انا على سلم القبول بالكلية الحربية فاجتزت بتفوق امتحان المنافسة الأول ، ثم الكشف الطبي ، ولم يبق على إلا اجتياز امتحان معاينة القائد العام ، وهنا يكون للوساطة دورها وخطرها .

فاعددت لهذه المسألة عدتها ، إذ صحبني العم زين العابدين ابراهيم بلال إلى منزل السيد عبد الله خليل رئيس الوزراء ووزير الدفاع آنذاك ، فاســتقبلنا الرجل بحفاوة بالغة، ووعدنا خيراً وهو يودعنا بعد ان تناولنا معه شاى المساء، على الطريقة الانجليزية.

ــ أذكر أنني التقيت ــ فى مرحلة الكشف الطبى بمنافسين من أبناء الاقليم الجنوبى هما الأخ (جوفانى دوقو باسا) وقد أحيل على التقاعد فيما بعد ، والاخ (جوزيف لاقــو) قائد جيش الأنيانيا فيما بعد، ثم الفريق حاكم الاقليم الجنوبى بعد اتفاقية أديس أبابا، وأخيراً نائب رئيس الجمهورية قبل اندلاع ثورة ابريل١٩٨٥ م المجيدة .

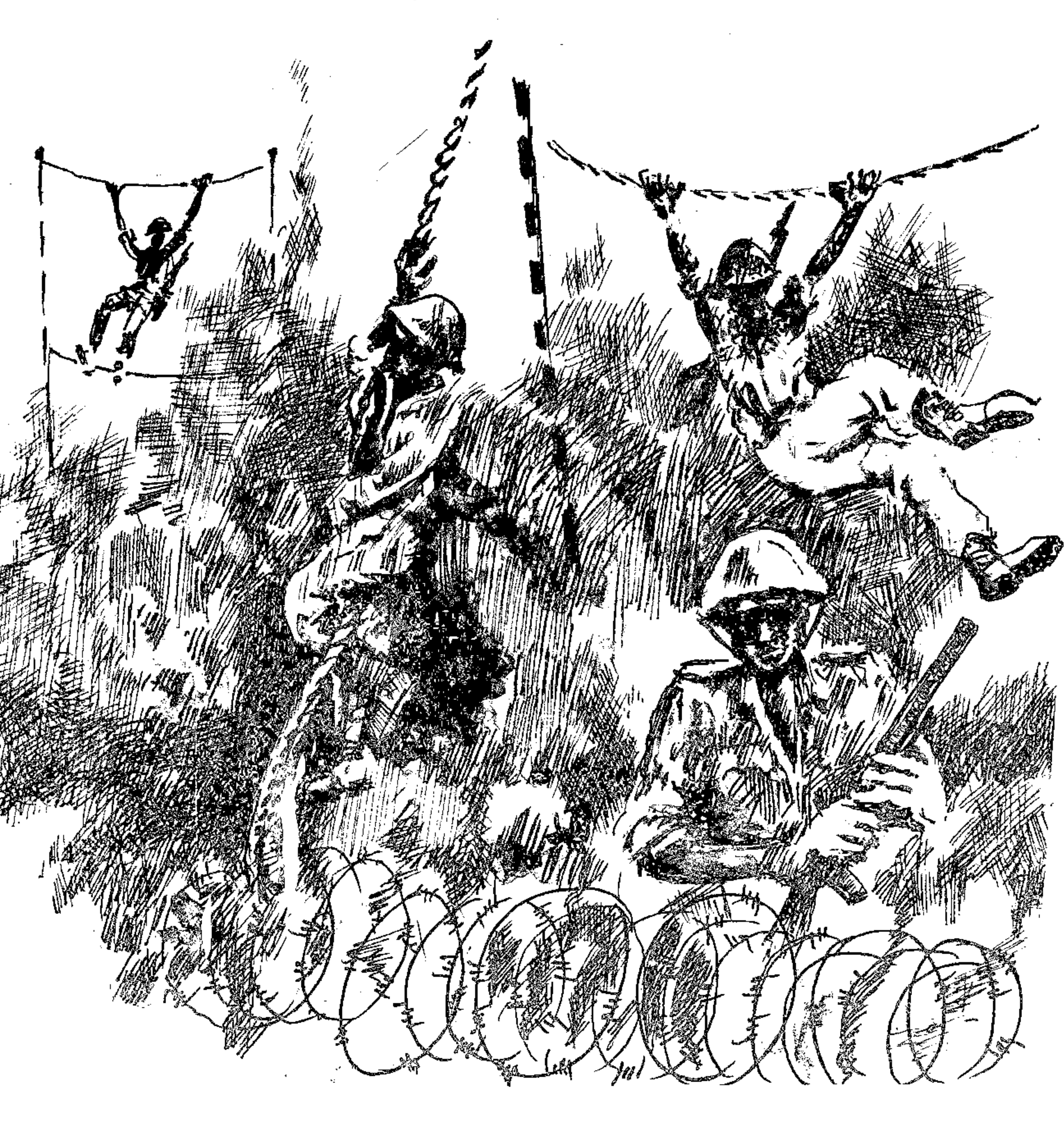
عرفــت أول الاخوين (جوفانى) شخصاً بسيطاً لايسترعى الانتباه، أما الآخر (لاقــو) فكان ذا ملامح تنبيء عن خطورة الشأن واتساع الطموح والذكاء البعيد . وقد سنحت لنا فرص للحديث فى عفوية وود ونقاء، اثناء تدرجنا فى أعتاب طريق القبول بالكلية الحربية، وكما هو شأن المتعلمين آنذاك حيث لكل انتماؤه لواحد من تيارات الســياسية والفكــر ، أفصح لى الاخ جــوزيف لاقو عن انتمائه لتنظيم حــزب ســانو وأنه من أنصار وليم دينق ، وهو ــ أى لاقو ــ يؤمن ايماناً راسخاً

بوحـــدة الشمال والجنوب على ما بينهما من فوارق عرقية وثقافية وتاريخية،وفى إطار هذه الوحدة يؤمن لاقو بحق ابناء الجنوب فى الحكم الفدرالى ، وذلك أحد أهـــداف حزب سانو التى يعمل لتحقيقها فى يوم من الأيام .

قلت لجوزيف لاقـــو ، أما وانت فى الجيش فلن تتاح لك فرصة الاشـــتغـــال بالســـياسة ، فكيف توفق بين بقائك فيه وانتمائك للحزب ؟ ومن عجب فقد كـــرر جوزيف لاقو على مسمعى ماسبق أن قاله لى أبو شيبة فى معرض حـــديثه عن حتمية التغيير والثورة !! .

ثم غدونا إخـــوة وأصدقاء ورفاق سلاح فيما بعد . وقد توطـــدت بيننا علائق حميمة إثر اجتيازنا لكشف معاينة القائد العام وكان وقتئذ الفريق ابراهيم عبود، الرئيس فيما بعد .

سلك الجندية
ومعترك الذكريات



الدفعة ١٢ الكلية الحربية السودانية

* ١٣ *

درجنا اولى عتبات الجندية فى صبيحة الخامس من مايو ١٩٥٨م، حيث تجمعنا بعد إجتياز مراحل القبول بميدان البيادة بامدرمان (ميدان رئاسة المستشفى العسكرى حاليا)، كنا ستين طالباً مختاراً نمثل الدفعة الثانية عشرة بالكلية الحربية، تختلف منابعنا وسحناتنا وازياؤنا المدنية، صورة مجسدة لتنوع الاعراق والمنابت واللهجات والعقائد.

كان يراودنا شعور بالفخار والزهو بسبب انتمائنا لهذا الصرح الشامخ العتيق، فقد كـانت الكلية الحربية حلماً بعيد المنال للسـواد الاعظـم من أبناء البلاد، فهـى تحتل موقع القلب من جسـد الأمة، أما خريجوها من الضباط فقد كانوا فى حدقات العيون نمـاذج سامقة للعطاء والفداء.

ويرجع تأسيس الكلية الحربية السـودانية ـ كما حدثنا العارفون باخبار المـاضى القريب ـ الى مطلع القرن العشرين، أما اولئك الضباط السودانيون الذين تسلموا مواقع القيادة والادارة من قبل، فقد تخرج معظمهم من صفوف الجيش، كما تخرجت فـئة قليلة منهم من الكلية الحربية المصرية.

وما ان تم توقيع اتفاقية الحكم الثنائى بين مصر وبريطانيا سنة ١٨٩٩ حتى شهد العام التالى تمـرد أربعة جى أورطة بسبب شائعة أطلقها نفر من الضباط المصريين، زعمت أن قوات الحكومة ستشترك فى حرب البوير فى جنوب شرق أفريقيا !! وكان لحادثة التمرد هذه اثر مباشر فى صدور قـرارات هامة اتفق عليها اللورد كرومر وجاكسون باشـا وقد نصت على : ـ

اولا : ضرورة التدقيق فى اختيار قادة الوحدات الوطنية.
ثانيا : ضرورة زيادة عدد الضباط السودانيين المترقين من الصفوف.
ثالثا : ضرورة اهتمام صغار الضباط بقواتهم ورجالهم.
رابعا : ضرورة نقل الطلبة الحربيين السودانيين الموجودين فى كلية القاهرة الى بلادهم وفتح كلية حربية فى السودان.

نشطت الادارة الانجليزية فى السودان لتنفيذ تلك القرارات ، وبالفعل تم فتح المدرسة الحربية بالخرطوم فى ١٦ مايو ١٩٠٥م ، وكان الهدف الاساسى من انشائها خلق كادر سودانى مدرب من الضباط الوطنيين .

فى بادىء الامر ، كانت الاولوية فى الالتحاق بالمدرسة الحربية لأبناء العسكريين، ويلى ابناء العسكريين فى حق الالتحاق بالمدرسة طلاب كلية غردون التى تم افتتاحها عام ١٩٠٢م ، وكانت فى مستوى المرحلة الابتدائية يومئذ ، ورغم ذلك لم يتوفر للمدرسة الحربية العدد اللازم من الطلاب ، فاضطرت الادارة لتطبيق نظام الدراسة المزدوجة ، حيث ينتسب الطلبة الحربيون الى كلية غردون حتى نهاية المرحلة الوسطى وهو إجراء يستهدف تأهيل طلبة المدرسة الحربية اكاديمياً ، أما شروط القبول اللازم توافرها فى الطالب فقد كانت :

- الثقافة .
- اللياقة البدنية .
- الخلو من الامراض .
- السلوك الحسن .
- التوصية .

وضعت إدارة المدرسة الحربية منهجا متدرجاً للتأهيل يبدأ بالدراسة فى الكلية ثم الالتحاق بالوحدات العسكرية لمزاولة عمل الجندى واكتساب الخبرة العملية ، ثم العودة الى المدرسة مرة أخرى لاكمال الدراسة والتدريب .

جدير بالذكر أن الكلية الحربية لدى افتتاحها بالخرطوم عام ١٩٠٥م كانت جزء من كلية غردون التذكارية واسمها يومئذ (المدرسة الحربية) وقامت أول الأمر فى مبانى البيطرة بجامعة الخرطوم حالياً ، ثم فصلت من كلية غردون سنة ١٩٠٧م ولكنها ظلت فى ذات الموقع حتى عام ١٩٢٤م ، حيث نقلت الى اشلاق عباس وتحول اسمها الى (مدرسة ضربنار) ، فى ذلك العام شهدت عاصمة البلاد ثورة جمعية

اللواء الابيض الشهيرة ، وهو الحدث الذى حدا بولاة الامــور فى البلاد لقفل المدرسة الحربيه حتى عام ١٩٣٥م، ثم اعيد فتحها من جـديد . وبعد ثلاثة أعـوام نقلت الى ام درمان ١٩٣٨م ، وتغير اسمها ليصبح (مركز تعليم).

كان العالم يومئذ يواجه نذر الحــرب العالمية الثانية وألقى مركز بريطانيا المتقدم بين دول الحلفاء على عاتقها عبئا ثقيلا ، فوجهت حكومة الســودان بتجنيد كـــافة امكاناتها البشــرية والمــادية لمصلحة المجهود الحربى للحلفاء فى أفريقيا، وفى هــذه الظروف أغلقت المدرسة الحربية مرة أخرى .

مــضت الحرب العالمــية الثانية الى غايتها بانتصار الحلفاء على دول المحور عــام ١٩٤٥م ، ثم عكف الحلفاء على تقسيم غنائم الحــرب فيما بينهم ردحاً من الزمن ، كما واجهت الادارة البريطانية فى الســودان التهاب المشاعر الوطنية بعد الحرب ، فأهملت أمر المدرســة الحربية حتى ١٦/مارس/١٩٤٨م وهو اليوم الذى شهد إعادة فتحها بمركز تعليم امدرمــان تحت اسم (مدرسة المشاة) وكانت تضم الكلية الحربية والاجنحــة المختصة بفرق التدريب للضباط وفرق الكادر لضباط الصف .

وبقيت الكلية الحربية رابضة فى عرينها بواجهة امدرمــان تشهد لقاء الـــنيلين الابيض والازرق ، وظلت كذلك حتى درجنا أعتابها من بعد فى ظل السيادة الوطنية .

ألفيتنى ورفاقى ندلف الى عالم ملىء بالرهــبة والإثارة ، تقوم علاقات الأفراد فيه على نمط متسق من الانضباط والوقار والصرامة ، فأدخــل ذلك فى روعــنا قدراً عظيماً من المهابة وفرط الانفعال ، ولا جرم — تحت تأثير هذا الشــعور — ان تمــلك البعض منا نزوع طاغ الى العــودة من حيث أتى ، وهو يدرك أن الأيام القادمــات حبلى بكل عصيب أليم ، ولكنه حذر العار والشــنار ظل يقاوم ذلك النزوع متأسياً بروح القطيع الذى يواجه نفس الظروف !! .

جــرى توزيعنا على الحجرات بمســكن الطلبة المستجدين القائم على جانب من رحــاب الكلية ، كما تم توزيع المهمات العسكرية علينا فحمل كل متاعه ومــضى الى وجهته،ثم اختلط بنا الطلاب القدامى (السنير) وصف ضباط الكلية المعلمين، فتضافر

جهدهم معاً على تدريبنا وتعليمنا طريقة ارتداء وحفظ واستخدام الزى والمهمات العسكرية ، ولم يكن ذلك بالامر الجديد على الجميع ، فقد تلقى بعضنا قدرا من التدريب العسكرى فى مرحلة الدراسة الثانوية فى صفوف ما يعرف باسم (الكديت) فأصاب شيئا من أبجديات العمل والسلوك العسكرى والتعامل مع الزى والسلاح.

كان الطلبة المستجدون يتوجسون خيفة من علاقة وسلوك الطلاب القدامى (السنير) معهم ! ! فقد نما الى علمنا — ونحن نجتاز مراحل الاختبارات لدخول الكلية الحربية شىء عن طبيعة هذه العلاقة وذلك السلوك ! ! ولكننا قضينا سحابة يومنا ذاك حتى المساء فلم نلمس فى علاقاتنا باولئك الطلبة السنير الا مظاهر الود والاريحية والحفاوة البالغة ، وطفقوا يشرحون لنا بالبيان العملى أو ما يسمونه (بيان بالعمل) ماكان يلزمنا من خبرات أولية بنظم الحياة العسكرية ، ثم اجتمع شملنا بهم حول مائدة العشاء فكانوا كالرهبان فى وقارهم وتواضعهم وسماحة أخلاقهم ، حتى خالجنا الشك فيما سمعنا وعلق بنفوسنا من ريبة وتوجس .

لدى تمام الساعة التاسعة من ذلك المساء شق سكون الصمت صفير قوى متصل للحظات ، وهو كما علمنا نداء للتمام فى موقع معين ، فتدافعنا سراعا وانتظم عقدنا قدامى ومستجدين حول شجرة التمام ، وهى شجرة هجليج عتيقة تتوسط مبانى الكلية على أرض منبسطة ، فاجتمع لفيف الطلبة القدامى فى طوابير منفردة ، بينما تراصت صفوفنا نحن المستجدين فى طوابير أخرى مجاورة لهم ، فتمت اجراءات التمام بواسطة صف ضباط الكلية المعلمين ، ثم صدر الأمر من الضابط النوبتجى بالانصراف فانصرف جمعنا فرحاً الى عنابر المستجدين ، وظننا وبعض الظن إثم أننا سننعم بليلة هادئة ونوم هنيء بعد عناء ذلك اليوم الحافل الطويل ، ولعل نفراً منا كان يلوذ بنعمة النوم من مرارة فراق الأهل والصحب ، فراح يخلد الى سبات عميق .

تبدى سراب ذلك الامل الحلم عند منتصف الليل ونحن غارقون فى بحار نوم لاتدرك قيعانها ، كان كل صف ضباط الكلية والضابط النوبتجى قد انصرفوا تماماً وساد المكان صمت موحش ثقيل ، فجاءت ثلة من قدامى الطلبة يمزقون شمل أحلامنا وينتزعون الكرى من أعيننا إنتزاعاً بحجة الجمع للتمام من جديد ! ! وقد حرصوا

ان يتم الامر سراً دون إعلان بالصفير المعهود ،كيلا يتنبه الضابط النوبتجي فيفسد عليهم متعة تعذيبنا غير المشروع ،وكان بعضهم وهم يوقظوننا فظاً غليظ القلب صفيق الأسنان يدفع بيده ويركل بقدمه ويطلق لفمه العنان .

على كره منا وسخط كظيم خرجنا في جوف الظلام نتلمس طريقنا الى مــوقع التمام المزعــوم ، وحول تلك الشــجرة العتيقة وقفنا في هزيع الليل كالاشـــباح صامتين تكاد صدورنا تتميز من الغضب ، فالتف حولنا الطلبة القدامى كالعقبان الكاسرة يتبادلون الحديث الينا فى الشئون العسكرية حديثاً سمجاً ممجوجاً يتعمدون إطــالــته وتفصيله وتكراره فى نشوة بالغة ، ونحن على جمر الملالة والألم وقوف بلا حــراك نتجرع كئوس العذاب مكرهين .

تحدث بعضهم واطنب في شرح وتوضيح ضوابط حياتنا العسكرية الجديدة ومــا سيكونُ عليه حالنا فى قابل الأيام والسنين ، وضرورة تأهيلنا لهذه الحياة الجديدة ، والخروج بنا من عالم الملكية (المدنيين) المتردى في سفوح الفوضى والغوغائية والضعف إلى عالم الحياة العسكرية بما فيه من نظام وقوة وانضباط !! وتحدث آخرون من قدامى الطلبة واستفاضوا عن ظواهر الحياة المدنية الرخوة ، ووصفوا أهلها بكل مثلبة ورذيلة منكرة، وكأنهم قد خلعوا ذلك الاهاب فى بطون امهاتهم أو جاءوا من عوالم غير التى جئنا منها وعركناها مثلهم أو يزيد !! وترددت كلمة (ملكى) فى احاديثهم المطولة عمداً مع سبق الاصرار والترصد وكأنها - اعنى صفة الملكية - سبة الدنيا وعار الزمن !! وقالوا إنهــم ســيعملون على تخليصنا منها عن طريق الطوابير والادارات الداخليــة وغيرها عن الوسائل المجربة ، والادارة الداخلية - كما عرفنا من بعد - هى ان يقف الجندى فى وضــع انتباه بلا حراك حسب ما يحــدد الآمر من زمن، وهى ترجمة للمصطلــح الانجليــزى (Internal Economy) وترجمــة هذا المصطلــح - كما هو واضح - تعنى الاقتصاد الداخلى ، ولعل المعنى المراد هنا هو الاقتصاد فى حركة الجسم .

والادارة الداخلية - كمــا يعرفها العســكريون - تمثــل اقسى أنواع العقــوبة واشدها ايلاماً، اذ ما أن ينفذها الفرد لدقائق معدودات حتى تتجمد اطراف جسمــه

ويبـــدأ رحلة عذاب أليم قد تسـتمر سـاعات يفقد خـلالها رباطة جأشــه وقوة احتمـــاله فينفذ صبره وتضعف مقاومته ويقع على الارض فاقداً للوعى والقدرة !!

ومن عجب فقد زعم الطلبة القدامى أن مرحلة اللاوعى هذه تمثل قمة الخلاص من شوائب دنيا الملكية تماما كحالة الجذب عند المتصوفة التى تعبر بهم جسر البشريــة الى مرافىء الذات والحلول!! وزعموا أن كل قطرة عرق يفرزها الجسم أثناء الطوابير والادارة الداخلية تحمل فى طياتها ذرات التكوين الملكى وتغسل جسد الطالب الحربى من ادران الحياة المدنية ولهذه الاغراض السامية النبيلة سيحمل الطلبة القدامى ما وسعتهم القدرة على العمل ليل نهار لتنضح أجسادنا عرقاً يطهرنا من الادران والشوائب ، ونتهيأ للحلول فى الذات العسكرية !!

قضينا زهاء الساعتين ونحن نقف فى وضع الادارة الداخلية السابق شرحه ، نستمع مرغمين الى تلك الترهات والأراجيف ، ثم جاء الفرج أخيراً بصدور الأمر من الطالب السنير الاقـــدم رقيب أول بالانصراف ، فتحامل بعضنا على بعض من الاعياء والكلال وخف آخرون سراعاً كأسراب الطيور وقد أثار ذعرها أمر مفاجىء مخيف ،وجرجرت طائفة منا أرجلها وهى تلعن القـــدر الذى أوردها موارد الذلة والخنوع ، ولكن قبل أن يغيب أسرعنا خطواً وأوفرنا نشاطا عن الانظار برزت من فجاج الظلام جمـــاعة أخرى من الطلبة القدامى واحاطوا بنا من كل جانب كما يحيط بالمعصم السوار !! فبدا لنا أنهم كانوا أثناء وقوفنا أو صلبنا — كما تحلو لهم تسمية ذلك الوضع الأليم — يتسترون برداء الليل الحالك ويتربصون بنا ساعة الخلاص !!

. فوجئنا بهؤلاء يصدرون لنا الامر بالعودة الى نفس المكان السابق وذات الوضـــع الذى كنا فيه مرة أخرى!! فاسودت الدنيا أمام أعيننا وضاقت نفوسنا بما تجد، وكاد بعضنا ينفجر من الغيظ والحنق ! ورغم ذلك لم يجرؤ أحدنا على العصيان أو مجـــرد التساؤل عن دواعى ذلك الأمر المريب ، فتبرع زعيم الجماعة التى أعادتنا الى جحيـــم الادارة الداخلية وعذاب الصلب كرة أخرى بتبيان الامر ودواعيه، فقال ان بعضنا قـــد تراخى فى خطواته إثر الامر بالانصراف !!! والحـــال يقتضى الاسراع وامتلاء الجسم بالنشاط والحيوية ، ولهذا عدنا ليتم تنفيذ الامر بالانصراف بالصـــــورة

المطلوبة ولسوف نعود مرات ومرات حتى يكون مايريد .

أجزم أن فريقاً من الطلاب المستجدين ساخط كان يغلوم في نفسه بواعث الثورة والتمرد بكل ما أوتي من قدرة ، وأن جماعة منهم هيأت نفسها لذلك العــذاب من قبل ، ولكنها لم تكن تدرى ان العــذاب ألوان ودرجــات بعضها فوق بعض ! ! وأن آخــرين من المغضوب عليهم تذرعوا بالصبر مادام الأمر مجرد التصحيح لوضع خاطىء .

لم يكن أحد منا يحسب أن الأمر إيغال وشطط مقصود في العذاب على تلك الصورة التي تبدت للناظرين، حيث عاد أولئك النفر من الطلبة القدامى يحدثوننا حديثا مسهباً عن فوائد وضرورة العقاب الجماعي (Collective Punishment) فزعموا انه يخلق روح الوحدة والجماعة، ويحفز الجميع لاصلاح اعوجاج الأفراد ، ذلك ان الخطأ الذى يقع لايقف أثره عند حــد مرتكبه ، بل يمتد الى الجماعة في شكل عقاب جماعي ! ! وهذا مــا يدعو الجماعة للتعاون وتلافي الأخطاء

نفد صبري فجأة على هذا الهراء ، فرفعت عقيرتي — من بين طلبة الدفعة كلهم — وتجرأت على التعليق وقلت :

— ان هذا العقاب الجماعي مخالف لعدالة السماء ، حيث قضى الله تعالى أنــــه (لاتزر وازرة وزر أخرى) بذلك جــاء القرآن الكريم ! !

عندئذ ترك الطلبة القدامى ما كانوا فيه ، وســاد الصمت للحظات كأنها الدهر ، ثم أقبلوا نحوى واحاطوا بي يتفرسون ، فلما فرغوا من ذلك علا صياحهم واخــذوا يرشقونني بالسنة ساخرة حــداد

— ده شــنو ؟

— ده جاى من وين!؟

— ده جايي يتخرج ضابط واللا إمام جامع؟ إلى غير ذلك من عبارات الهزؤ والسخرية الجارحة ، ثم دفعني بعضهم بعيــداً عن الطابور ســعيداً بذلك الصيد الثمين ، وهناك شرع يكشر عن أنيابه ليجعلني عبرة للآخرين، فلم يعجبني ذلك الحال وهددت جماعتهم بالتظلم لصول التعليم فكــان ذلك مدعاة لمزيد من الســخرية والتنــدر والتجريح ، وصمدت وحدى في وجه الطغاة المتجبرين حتى أدركهم العناء فامروني بالإنصراف.

بت بقايا ليلتى تلك حانقاً يعصف بى الغضب فما كان يخطر ببالى ان تسلط الطلبة القدامى وعنجهيتهم تبلغ ذلك المدى بحال ، وفى صباح اليوم التالى نفذت عزمى الذى اعتبره أولئك تهديداً وليد الظرف واللحظة ، فابلغت صول التعليم بما كان وأنا أمنى نفسى بالجزاء الأوفى والقصاص المشهود ، ولكن شكواى ذهبت ادراج الرياح ، وبقيت ظلامتى طى الاهمال والاستخفاف ، وليت الأمر اقتصر على ذلك ، فالأنكى والأدعى للعجب ان ذلك التصرف قد جر على نكالا كنت ارقبه للآخرين ممن تظلمت منهم ، فاذا بهم يزدادون عتواً وتجبراً وامعاناً فى تعذيبى بعد ان علموا بما بدر منى فى حقهم وسلطانهم الموروث ، وتقلبت على جمر العذاب لأكثر من اسبوع ولا من مغيث . ! !

ثم رق لى قلب صديقى وابن دفعتى الطالب عثمان حاج حسين (أبوشيبة) وكانت له صلات حميمة مع بعض الطلبة القدامى ، فاخذنى إلى حجرة الطالب السنير (هاشم العطا) فوجدناه برفقة زميله (محجوب ابراهيم) وشهرته (محجوب طلقة) وهو من أكثر الطلبة القدامى قسوة وشططاً فى معاملتى خلال تلك الأيام ، وكانا يرشفان اكواب الشاى المنعنع ويتبادلان الحديث فى أمر ما ، فتلقيا صديقى (ابو شيبة) بحرارة وحفاوة بالغة ، وتلقيانى بكثير من البرود وشيء من الجفاء أول الأمر ، ورغم ذلك لم يجدا مناصاً من اكرامى بكوب من ذلك الشاى ذى الرائحة النافذة .

وقبل ان نفرغ من شرب الاكواب التى بأيدينا بدأ الرفاق يتحدثون فى أمرى وجنايتى التى لاتغتفر ، وبعد مداولات طويلة بذل فيها ابوشيبة جهداً مقدراً ودفاعاً مجيداً قبلت شفاعته لى بما كان له من مكانة لدى الطلبة القدامى ، وقبل ان اتسلم صك الغفران وحكم البراءة والعفو تلقيت رتلا من التوجيهات والنصائح بالانصياع للاوامر العسكرية وبخاصة أوامر الطلبة السنير بغير جدال أو تردد ، وقطع ممثلاهم الوعد بمعاملتى اسوة بزملائى المستجدين إذا أنا التزمت بتلك النصائح ونفذت هذه التوجيهات ، فلم املك سوى الاذعان للامر الواقع ، وبدا لى ان هذا القهر ضريبة لامفر منها .

عند خروجنا مظفرين بذلك الوفاق الودى ، سألت أبوشيبة — عفو الخاطر — عن سر تأثيره وعلاقته الحميمة بقادة الطلبة القدامى وتبسطهم معه فى الحديث واكرام

وفادته على النحو الذى رأيت ، فأسر إلى بغير تحفظ بأنهم من كوادر الحزب الشيوعى السودانى ، عند ذلك عرفت السبب وبطل العجب وأسفر الصبح لذى عينين . فشرعت أفكر فى جدوى هذا الانتماء ونحن نغذ السير صوب عـنابر المستجدين ، ثم رفعت رأسى فجاة ورجوت أبوشيبة ان يوهم أولئك الرفاق أنى معهم وأني من تلك الكوادر المؤلفة قلوبهم حتى اكون موضع عنايتهم واحظى بالرضا والحب منهم !! فرمقنى أبوشيبة بنظرة كالسهم النافذ وقال بحزم شديد :

الشيوعية ياهذا سـلوك وعمل واقتناع وتجرد تنظيمى ، وهـذا كلـه يمنعنى من الكذب ، خاصة وأنت فلوتر لايرجى لك نفع ولاصلاح !!

قلت وأنا اتشبث بخيوط الرجاء والأمل :

• ولكنه كذب لايضر .

قال : المسألة مسألة مبدأ وحسب . قالها بحزم قاطع كمن يوصد الباب، ثم افترقنا .

كان أبو شيبة قد انخرط فى زمرة الطلاب الموالين للحزب الشيوعى السودانى فى مرحلة الدراسة الثانوية ، وقد عرفت ذلك منه عرضاً وهو يدعونى فى احدى عطلاتنا الاسبوعية إلى المشاركة فى رحلة ينظمها الحزب لكوادره من طلبة المدارس المصرية ، الثانوية المصرية والاقباط الثانوية والانجيلية الثانوية ولفيف من طلاب جامعة القاهـرة فرع الخرطوم . وبعض اساتذة تلك المدارس ، وقد ابان لى أبو شيبة صراحة انه يأمل ان تكون تلك الرحلة فاتحة شهية لى وخطوة أولى فى طريق الولاء للحزب الشيوعى الرائد العظيم على حد قوله !

استجبت لـدعـوته دون وعد بتحقيـق ذلك الأمـل الـذى يراوده ، مؤثراً حريتى فى الانتماء للوقت المناسب للحزب الذى اقتنع بانه الأفضل ، وإلا فسـوف اعيش عمرى بغير ولاء إلا للارض والحق والانسان .

كان يوماً رائعاً بحق ، ذبحت فيه الذبائح وصفت الموائد العامرة بالطيبات : وحفل بخير ما فى الوجود ، مياه جارية ، وخضرة سابغة ممتدة ووجـوه نضرة حـسان !! وتخللـت احاديـث القـادة فواصـل ترفيهيـة من غنـاء ورقص وفكـاهـة شارك فيها طلاب وطالبات الحزب بعفوية وابداع جميل ، ثم توج مهرجان الابداع

بنشيد فقيد الحزب الشيوعى السوفيتى العظيم (جوزيف ستالين) فارتفعت حناجر الشباب من الجنسين تردد فى اداء جماعى مهيب :

لا ولم ولـــن يمـــوت ســـتالين
وانما تحـــول عن قصر الكرملين
ليدخل فى قلوبنا، قلوب الكادحين
يا اشرف الرجال
يا قائد النضال
هزمت القيصرية وحطمت رأس المال
فى روســـيا السوفيتية، دولة العمال
والصين الشعبية موطن الأحـــرار
لا ولم ولـــن ..

وفى طريق عودتنا ، سألنى أبو شيبة عن شعورى بما كان يجرى بين يدى سحابة النهار ، فاجبته بانه يوم رائع سيبقى فى ذاكرتى ماحييت وخاصة ماحفل به من فكر وفنون وابداع ، وقد استهوانى كثيراً اسلوب النقد الذاتى الذى مارسه قادة الجماعات واعضاء الفصائل تجاه انفسهم والآخرين ،كذلك فقد ازددت علماً بحقيقة فكر الشيوعيين واســاليبهم فى الاســتقطاب والعمــل ، ولكــن جــماع ذلك لم يبــلغ بى شأواً يحفزنى للتنازل عن حريتى وطلب عضوية الحزب أو حتى مجرد التفكير فى ذلك !! فحدق أبو شيبة فى وجهى ملياً وقال بصوت لايخلو من مرارة :

— إعلم انك لم تخيب ظنى فيك . فكم حسبتك فلوتر لايرجى منك نفع ولا يؤمل لك فى صلاح لكن قلت اجرب فالأرضة جربت الحجر ، على العموم زادنا ورحلتنا حار ونار عليك ، وان شاء الله ماينفعوك !!

فضحكنا طويلا ثم مضى كل إلى غايته .

قضينا زهاء الأربعين يوماً داخل ثكنات الكلية قبل ان يسمح لنا بالخروج إلى عالم الملكية ودنياهم الصاخبة اللاهية ، ،وهذه الفترة تعرف باسم : (Confinement Period)

كنا نعد العدة ونتهيأ لذلك الخروج منذ مايربو على عشرة ايام ، ظللنا خلالها نجود تدريبات البيادة وخاصة المشى مع العصا القصيرة واداء التحية العسكرية عند اللزوم.

وفى اليوم الموعود الذى ترقبناه طـويلا ارتدينا البدلة الصيفية وانطلقنا زرافات ووحدانا فى شوارع وأحياء العاصمة المثلثة ، تملؤنا فرحة لاتدانيها فرحـة قـوم موسى وهـم يخرجون من ارض مصر بعـد ما لاقوا من عنت فراعنتها ونكالهم الشديد ! ! فمضى كل إلى غايته مزهواً مشوقاً إلى الأهل والأصدقاء ومراتع اللهو بعد طول حرمان وظمأ لدفء العاطفة والحرية .

تصرمت الساعات سراعاً وعدنا مساء الجمعة إلى ثكنات الكلية وكأننا سجناء يعودون إلى الحبس بعد افراج ، وقد زعم بعضنا انه عاد فـى شـوق إلى الكلية ! ! فوصمه اقرانه بالكذب،ووصفه آخرون بأنه من فصيلة الكلب ، الذى يحب خانقه ، وذهب نفر إلى اتهـامه بالملـق الرخيص للسـنير (Cheap Popularity) وهـو تعبـير يتردد كثيراً على ألسنة الطلبة السنير انفسهم، وهو عندهم رذيلة الرذائل وقد أمعنوا فى نبذه ونهـونا عن اتيانه وهم يحـدثوننا عن علاقاتنا المقبلة برؤسـائنا ومرؤوسـينا .

كان للطلبة السنير – برغم مثالبهم التى لاتحصى – شمائل وعطاء ودور عظيم ، فهم الذين غرسوا فى أفئدتنا حب الجندية وقداسـة نظمها وضوابطها الصارمة ، وكان هذا تقليداً يتوارثه الخريجون فى مصنع الرجال كابراً عن كابر، ولكن فئة منهم – كما هو الحال فى كل مجتمع – قصرت همها وغايات وجودها على قهر المستجدين وتعذيبهم وكأنها تثأر لنفسها أو تنفس عن غبن دفين ، وهذه الفئة عادة أدنى مرتبة وأقل حظاً من العلم والتفوق. ولما كان لترتيب المتخرج من الكلية أثره الباقى والدائم فى كل دفعة فقـد درج بعض الطلبة المجدين على اثارة حميـة رفاقهم غواة التعذيب والتسـلط بتحريضهم على اضاعة أوقات الاستذكار والتحصيل فى الانشغال بنا والتلهى بتعذيبنا آناء الليل واطراف النهار ! ! فحين يهم أحد هؤلاء باصدار أمره بانصرافنا بعد طـول وقوف وعناء، يصيح به أحد أولئك المجدين محرضاً : ياخترى ! ! يامخيف ! ! ياقوى ! ! ! فيمتلىء هذا حماساً وتنتفخ اوداجه بطراً ويعدل عن أمر الانصراف آمراً بالعودة إلى

الطابور من جديد لسبب يختلقه اختلاقاً ! ! فيصرف معنا كرة أخرى وقت استذكاره هباء تحت تأثير ذلك المدح الزائف لمواهبه وقدراته ، ومن هنا يكون تخلفه عن ركب زملائه ذوى الهمة والجد .

وقد لايقف اثر صغار العقول هؤلاء على ذواتهم فالجزاءات والإدارات الداخليـة وطوابير الليل غير المشروعة التى يرهقوننا بها عسفاً وتشفياً تنعكس علينا رهقاً وكلالا خلال فترات التدريب وساعات الدراسة ، حيث تخمد جذوة العقـول وتخور القوى ويغزو النوم اعيننا قسراً بسبب الاعياء ، فنتعرض من جديد لعقاب الضابط المعلم ، وهكذا تسحق لياقتنا البدنية هدراً بين شقى الرحى ،وتصيبنا عدوى التخلف فى ترتيب النجاح آخر الأمر ! ! بل غالباً مايتحول د لاء المعذبون أنفسهم الى ادوات تعـذيب وقهر للآخرين من الطلاب ، حين يجتازون مرحلة الطالب الجونير إلى مرتبة الطالـب السنير ، فيما بعد فيبقى ارث العذاب والتخلف جيلا بعد جيل .

كانت نظم التدريب والدراسة ومصطلحاتها واساليبها فى الكلية الحربية السودانية صورة طبق الأصل لما يجرى به العمل فى كلية (سانت هيرست) العسكرية فى بريطانيا ، وهذا ما أكده لنا معلمونا من الضباط ، وخاصة أولئك الذين تلقوا دراسات وتدريبات بالمدارس العسكرية البريطانية ، وقد شهدنا مصداق ذلك فى قابل الأيام عند ارسالنا فى بعثات دراسية بالمملكة المتحدة ، وجدير بالذكر ان الكلية الحربية السودانية فى أواخر عهد الاستعمار كان يقـوم بالتدريس فيها نفس معلمى كلية سانت هيرست من البريطانيين ، وكانت لغة الدراسة آنذاك هى الانجليزية ثم غدت مزيجاً من الانجليزية والعربية حين التحاقنا بها ، حيث تـدرس بعض المواد باللغة الانجليزية ، والأخرى بالعربية المطعمة بالتعبيرات والاصطلاحات الانجليزية .

هذا ولم يقف تأثير الإدارة الانجليزية الحاكمة على الكلية الحربية وحـدها، بـل امتد ذلك الاثر الى كل نظم وعـلوم وقوانـين القوات المسـلحة السـودانية، اذ كانت صورة طبق الاصل للانجليزية ، ويمكن القول أن الجيش السوداني وقتئذ كان فرعاً لدوحة الجيش البريطاني الشماء العريقة ، ومن ثم لا يجد الضابط السوداني رهقاً ولا عناء عند إرساله لتلقى المزيد من التدريب والعلم في المدارس العسكرية البريطانيـة

كذلك جاءت عقيدتنا في التدريب والقتال غربية خالصة ، وبقيت كذلك حتى اندلعت ثورة مايو ١٩٦٩م فتسربت عقيدة الشرق في هذا المضمار الى شرايين الحياة العسكرية السودانية اثر الانفتاح على بلدان أوربا الشرقية والاتحاد السوفيتي والمعسكر الاشتراكي بصفة عامة .

اذكر انى وصديقى عثمان الحاج حسين (ابو شيبة) قد تلقينا دعوة لعشاء مبكر من الطالب السنير (هاشم العطا) رحمه الله بمنزلهم بحى بيت المال بأمدرمان ، وهناك لقينا معه ثلاثة آخرين عرفت احدهم وهو الطالب السنير محجوب طلقة ، ولم اعرف الاثنين — وكان ابوشيبة يعرفهم جميعاً حيث تلقوه ببالغ الحفاوة والترحاب ..

فتطوع بتقديمى لهم ليكسر حواجز الغربة والانكماش والتحفظ التى تفصلنى عنهم ، ثم عقب بتقديمهم الى عن بعد وهم جلوس ، فاختار احدهم ليبدأ به قال :

- اليوزباشى بابكر النور — الملازم ابل كول آرثر .

علق اليوزباشى بابكر النور فقال انه لم يسبق له ان رآنى بمنزل هاشم او مع غيره من الاخوة الآخرين فبادره ابوشيبه بقوله :

- ده يا ريس فلوتر ما من كوادرنا !!

فضج المكان بالضحكات والعبارات الساخرة ، وتساءل بابكر :

- طيب وجايبى هنا يعمل شنو ؟؟

وأردف قائلا كمن يريد تغيير مجرى الحديث عامدا بسبب وجودى بينهم فقال :

- ايه رأيكم يا جماعة في البغلة الدخلت فى الابريق ؟؟

شعرت لذلك بحرج شديد فابديت رغبتى في الانصراف ولكن هاشم العطا أصر على بقائى محاولا أن يطيب خاطرى فقال :

- الحقيقة يا اخوانا ، محجوب ده رغم انه فلوتر لكنه اقرب لليسار منه لليمين .

فابتدره بابكر النور معلقاً .

- الفلوتر يا أخى شخص ميئوس منه عقائدياً ، لان الاستقلال السياسى المزعوم هو في الحقيقة نوع من (الاندراوة السياسية) وزى ما قالوا اهلنا (الجن بتداوى كعبة الاندراوة)

فزلزلت جنبات المكان قهقهات الحاضرين وشاركتهم في الضحك على ذلك التعليق الساخر .

ثم واصل الجميع ما كانوا فيه من حديث قبل قدومنا وكان — كما وضح من المواصلة — يدور حول مشروع الرئيس الامريكي (ايزنهاور) المعروف باسم «مشروع النقطة الرابعة » أو ملء الفراغ السياسي فى الشرق الأوسط ، والفراغ المقصود هنا هو الفراغ الذى خلفه جلاء بريطانيا وفرنسا عن دول الشرق الأوسط التى نالت استقلالها بعد الحرب العالمية الثانية ، وكيلا تقع هذه الدول وشعوبها فريسة فى براثن الدب الروسى المتحفز اقترح الرئيس الامريكى تقديم معونات امريكية عاجلة فى شكل منح مالية لدعم ميزانيات هذه الدول ، مع اقامة مشاريع تنمية هامة وعاجلة وحيوية كالطرق والكبارى والصناعات الخفيفة اضافة إلى تعزيز ودعم قدراتها العسكرية والدفاعية ، وانشاء بعض القواعد العسكرية الاستراتيجية فى بعض هذه الدول ان اقتضى حال الدفاع الاستراتيجى الامريكى وحلف الناتو ذلك ، وقد دخل مشروع ايزنهاور حيز التنفيذ الفعلى بعد ان وافق عليه الكونجرس الامريكى وقيادة حلف شمال الاطلسى (الناتو) واستجابت له بعض دول الشرق الأوسط .

واجه المشروع حملة شرسة تقودها الاحزاب الشيوعية وتنظيمات القوميين العرب فى عدد من البلاد العربية والأفريقية وفى مصر والسودان بصفة خاصة ، وكان الزعيم (جمال عبد الناصر) معروفاً بعدائه السافر المفرط للولايات المتحدة ودول غرب أوربا عامة بعد انفتاحه على دول المعسكر الشرقى .

عند ذلك اشاد الرفاق فى ذلك المجلس بمواقف الرئيس جمال عبد الناصر فى مصر ، كما اشادوا بالشيخ على عبد الرحمن رئيس حزب الشعب الديمقراطى السودانى وموقفه الصلب ضد امريكا ومعوناتها التى وصفوها بالقذارة ، ثم افاضوا فى الحديث عن الرجل وتاريخه النضالى وبطولاته المشهودة. ولولا معرفتى الشخصية به من خلال علاقتى بابنائه عاصم ومامون اللذين انعقدت بينى وبينهما أواصر الصداقة والود الحميم بحكم زمالة الدراسة فى المرحلة الثانوية لظننت من اطناب الرفاق فى الحديث عنه وعن فكره ومواقفه انه لامحالة من كوادر بل من قادة الحزب الشيوعى السودانى ! ! كان يقف فى صف المعارضة فى ذلك الحوار بلا معين الملازم ابل كول ارثر فقال فى لغة مزيج من الدارجة والانجليزية :

انه برغم سحنته الزنجية يؤمن بالسودان العربى ، ولكنه يرفض التبعية المطلقة للقادة السياسيين المصريين وعلى رأسهم الزعيم جمال عبد الناصر. ووصف مشروع ايزنهاور وما يتمخض عنه من معونات اقتصادية ومشاريع تنموية ومساعدات عسكرية بانه مشروع ايجابى لامراء فى منافعه وجدواه لدول الشرق الأوسط والبلاد الأفريقية والسودان خاصة ، بل ذهب ابل الى ابعد من ذلك فوصم مجموعة الدول الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتى بالفقر والتخلف ،وقال انها بحاجة ماسة الى من يقيل عثرتها الاقتصادية ! ! وسيكون لزاماً عليها — والحال كذلك — ان تقصر امكاناتها وقدراتها الاقتصادية المحدودة على ذواتها أولا ، ولهذا فنحن وغيرنا من الشعوب الفقيرة النامية لاننتظر منها عوناً اقتصادياً نحن احوج مانكون إليه اليوم قبل غد كمريض بحاجة إلى عملية نقل دم عاجلة وإلا واجه خطر الموت والفناء ! ! .

ضحك هاشم العطا وعلق قائلا :

* والدم ده دايره من الامريكان البيض واللا الزنوج السود ؟!

عندئذ نهض ابل كول من مجلسه وتوجه نحو هاشم العطا وامسك بيده ووضعها على شعر رأسه (اعنى هاشم) وقال مازحاً كدى المس شعر رأسك ! ! !

ضحك الحاضرون كثيراً لهذا التصرف ، فالمعروف ان شعر رأس هاشم العطا كان مجعداً وسحنته سوداء ، فرد هاشم بلهجة ادنى إلى الجد والانفعال :

* انا أقر وافخر بزنجيتى السودانية ،ولكنى سياسى حر اما انت فقد خنت الاحرار ! !

ارتسمت علائم الغضب على وجه ابل كول فجأة وانفجر كالبركان وهو يطلب من محدثه أو غيره من الحاضرين الا يحدثه أو يخاطبه بمثل تلك اللهجة وان كان الأمر محض مزاح ! ! ثم انفلت محاولا مغادرة الدار ولكن هاشم والآخرين من رفاقه عز عليهم ان ينتهى ذلك الحوار بتلك الصورة المؤسفة ، فاعترضوا طريقه وامسكوا بتلابيبه وبذلوا جهداً كبيراً فى استرضائه واعادته إلى المجلس مرة أخرى ، فلما استقر به المقام زفر زفرة حارة وقال معاتبا هاشم العطا :

* ماذا يظن من لم يكن يعرف الحقيقة مثل هؤلاء الطلبة المستجدين وغيرهم ! !

كانت العبارة مثقلة بالايحاء والابهام والاثارة ، ومن ثم تشوقنا لمعرفة تلك الحقيقة التي اغضبت الملازم ابل كول واثارت كوامنه على نحو ما شهدنا منذ لحظات ، فران على المجلس صمت مؤثر مشحون بالترقب ، وتسمرت عيون الحاضرين في وجه هاشم العطا تنتظر الاجابة ، ولكنه لاذ بالصمت . فتطوع ابل كول بالحديث فقال في ايجاز بالانجليزية وكأنه يحاضرنا : كان الصاغ صلاح سالم قد ازمع اعادة عجلة التاريخ إلى الوراء في السودان ، وذلك بانشاء تنظيم جديد على شاكلة تنظيم جمعية اللواء الابيض السودانية التي واجهت عسف الإدارة الانجليزية في السودان ومحاولاتها للاستئثار بحكمة سنة ١٩٢٤م، أما التنظيم الجديد فقد اريد له ان يحقق ماعجزت جمعية اللواء الابيض عن تحقيقه سياسياً وعسكرياً وهو وحدة مصر والسودان فيما يعرف باسم « دولة وادى النيل الكبرى » وقد عزا قادة ثورة ٢٣ يوليو المصرية فشل جمعية اللواء الأبيض في تحقيق ذلك الهدف إلى القيادة المصرية العميلة آنذاك المتمثلة في الملك فؤاد وحاشيته ومن خلفه الساسة والسياسة البريطانية ، أما وقد حررت مصر من قبضة الاستعمار البريطاني وانتزع ابناء مصر القيادة وسلطة الحكم من الاجانب الالبان حفدة محمد على باشا فان الظروف مواتية لتحقيق ذلك الهدف ، ومن ثم اقام هؤلاء تنظيماً في السودان هو الحزب الوطني الاتحادى برعاية مولانا السيد على الميرغنى وزعامة السيد اسماعيل الازهرى ، ومن أجل دعم ورسوخ هذا الحزب انشأت القيادة المصرية — عن طريق الصاغ صلاح سالم المسئول السياسى عن شئون السودان جناحاً عسكرياً اشبه بالجناح العسكرى في جمعية اللواء الأبيض وعلى شاكلة واسس تنظيم الضباط الاحرار في مصر ، وذلك بهدف ان يقوم هذا الجناح العسكرى بتنفيذ انقلاب عسكرى للاستيلاء على السلطة ثم اعلان وحدة وادى النيل إذا مافشل الجناح المدنى أو قعد عن تحقيق هذه الغاية !!

اخذ « ابل » نفساً عميقاً قبل ان يواصل الحديث وكان الجميع يتابعونه باهتمام وتركيز وكأنه يدلى بمعلومات جديدة عليهم، وكان اكثرهم حفاوة بما يقال اليوزباشى بابكر النور الذى ظل يؤمن على الحقائق بايماءات متوالية من رأسه وهمهمات خافتة بين كل عبارة وأخرى وهو يشير بيده مؤكداً للرواية الشائقة .

تابع ابل سرده للاحداث قائلا : لعلكم تعلمون ماجرى بعد ذلك من تطـورات للمسألة الوطنية فقد نال السودان استقلاله عن دولتى الحكم الثنائى بريطانيا ومصر فى مطلع يناير سنة ١٩٥٦م، وكانت هذه المسألة واضحة وحتمية لكل ذى بصيرة نافذة فتيار الاستقلال كان جارفاً بحيث لم يستطع فرد ولاجماعة ولا تنظيم ولاحزب الوقوف فى مواجهته وشلت وقائع الحال يومئذ حركة دعاة وحدة وادى النيل وفى مقدمتهم الصاغ صلاح سالم نفسه فتفرقوا ايدى سبأ وجرفهم التيار فيما جرف من الامانى والاحلام.

وفى عام ١٩٥٧م بدأت القيادة المصرية مواصلة سعيها الحثيث لخلخلة دعائم الدولة السودانية الوليدة، فاوحت إلى صغار الضباط والرتب العسكرية وفيهم صف الضباط والطلبة الحربيون ، أوحت إليهم وحرضتهم على القيام بانقـلاب عسكرى هـدفه الاستيلاء على السلطة فى البلاد .

وقبل ان يكمل عبارته تصدى له هاشم العطا مقاطعاً :

يا أبل ما تظلم القيادة المصرية ، انقلاب كبيده يا أبل أملته طموحات شخصية بحته ، ولا علاقة له بالشئون المصرية أبـداً .

أومأ أبل كول برأسه موافقاً وقال :

— هذا صحيح وما أوردته صحيح أيضاً بدليـل أن الذين خططـوا لـذلك الانقلاب كانوا اصلا اعضاء في تنظيم أحرار صلاح سالم المعروف .

وأمن الحاضرون على رواية ابل كول وطلبوا منه أن يواصل الحـديث فقال : خطط هـؤلاء ودبروا لانقـلابهم ليتم تنفيذه عن طريق قوات مدرسة المشاه وسلاح الاشارة ، وقد ظنوا انهم بمجرد اعتقالهم للزعماء والقادة السياسيين واذاعة بيانهم عـلى الملأ في السودان ستصبح الدولة ونظام حكمها ومقاليد امورها جميعاً في أيديهم ، وبذلك تتحقق مطامحهم وطموحاتهم الشخصية !! وكانوا قد حددوا ساعة الصفر يـوم ٣١ مايو ١٩٥٧ ، ولكن وصلتهم رسائل من المقدم يعقوب اسماعيل كبيدة — وهو يومئذ بحامية بحر الغزال — والصاغ محمود حسيب — وكان في اجازته السنوية بمنطقة جبال

النوبة يأمران فيها بتأجيل الموعد الى يوم ١١ يونيو ١٩٥٧م فانصاع أعضاء التنظيم في الخرطوم لذلك الأمر .
ثم سـبقت عناية الله ذلك الموعد المضروب بين فئة الانقـلابيين أولئك ، اذ أفضى الى الطالب الحربي « حسين خرطوم دارفور »

انه لن يكون في هذا العام طابور للتخرج ولا سيف لأول الدفعة حتى يتنافس عليه الجميع !! لأن تنظيم الضباط الأحرار يخطط لانقلاب عسكرى يتم تنفيذه في عضون أيام معدودات ولهذا فهو ينصحني بعدم ارهاق نفسي في مذاكرة لا طائل من ورائها اذ ان أقدمية التخرج والقيادة ستحدد بمدى مساهمة وتأييد الطلبة الحربيين وغيرهم لذلك الانقلاب !! هنا لم أضع وقتاً في تبليغ هذه المعلومة الهامة لصول الكلية الذى أوصلها بدوره رأساً الى اللواء أحمد عبد الوهاب .

كانت صورة الضباط الاحرار الراسخة في ذهني يومذاك انهم اتباع وادوات مأجورة للقيادة المصرية ، فاعتقدت ان الانقلاب تدخل اجنبي في شئون بلادى الداخلية والهدف منه سلب اسـتقلال السودان وسـيادة شعبه على ارضه ، ورأيت — والحال كذلك — ان واجبي يقضي بابلاغ الامر وفضح المؤامرة الخبيثة .

استحسن الحاضرون تعليقه وامنوا عليه واشادوا بصـدق عواطفه الوطنية ، ثم طلبوا منه مواصلة الحديث فقال وهو ينظر الى ساعته :
باختصار اسـتطاعت القيادة العسـكرية والسياسـية آنذاك — عن طريق فرع الاستخبارات العسكرية — الوصـول الى اعضاء التنظيم ، فقبضت عليهم وقدمـوا لمحاكمة عادلة ، كل حسب دوره ومدى ارتباطه بالمخطط والتحرك .

شملت المحاكمة ضباطاً برتب مختلفة وصف ضباط وطلبة حربيين وتمثلت الاحكام في العزل والطرد من الخدمة والسجن بمدد متفاوتة والاحالة للاستيداع وشملت النقيـب جعفر محمد نميرى الذى اعادته حكومة السيدين من الاستيداع . فعاود تحركه الأنقلابي ، علق بابكر النور :

بكـرة الباقين يتفكوا من السجن ومين عارف يمكن يرجعوهم الخدمة ويعملوا انقلاب تاني ، خصوصاً اليومين ديل في اشاعات بتقول انو القيادة المصرية عـاوزة

انه برغم سحنته الزنجية يؤمن بالسودان العربى ، ولكنه يرفض التبعية المطلقة للقادة السياسيين المصريين وعلى رأسهم الزعيم جمال عبد الناصر. ووصف مشروع ايزنهاور وما يتمخض عنه من معونات اقتصادية ومشاريع تنموية ومساعدات عسكرية بانه مشروع ايجابى لامراء فى منافعه وجدواه لدول الشرق الأوسط والبلاد الأفريقية والسودان خاصة ، بل ذهب ابل الى ابعد من ذلك فوصم مجموعة الدول الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتى بالفقر والتخلف ،وقال انها بحاجة ماسة الى من يقيل عثرتها الاقتصادية !! وسيكون لزاماً عليها — والحال كذلك — ان تقصر امكاناتها وقدراتها الاقتصادية المحدودة على ذواتها أولا ، ولهذا فنحن وغيرنا من الشعوب الفقيرة النامية لاننتظر منها عوناً اقتصادياً نحن احوج مانكون إليه اليوم قبل غد كمريض بحاجة إلى عملية نقل دم عاجلة وإلا واجه خطر الموت والفناء !! .

ضحك هاشم العطا وعلق قائلا :

* والدم ده دايره من الامريكان البيض واللا الزنوج الســود ؟!

عندئذ نهض ابل كول من مجلسه وتوجه نحو هاشم العطا وامسك بيده ووضعهـا على شعر رأسه (اعنى هاشم) وقال مازحاً كدى المس شعر رأسك !!!

ضحك الحاضرون كثـيراً لهذا التصرف ، فالمعروف ان شعـر رأس هاشم العطا كان مجعـداً وسحنته سوداء ، فرد هاشم بلهجة ادنى إلى الجد والانفعال :

* انا أقر وافخر بزنجيتى السودانية ،ولكنى سياسى حر اما انت فقد خنت الاحرار !!

ارتسمت علائم الغضب على وجه ابل كول فجأة وانفجر كالبركان وهو يطلب من محـدثه أو غيره من الحاضرين الا يحدثه أو يخاطبه بمثل تلك اللهجة وا كان الأمر محض مزاح !! ثم انفلت محاولا مغادرة الدار ولكن هاشم والآخرين من رفاقه عـز عليهم ان ينتهى ذلك الحوار بتلك الصورة المؤسفة ، فاعترضوا طريقه وامسكوا بتلابيبه وبذلوا جهداً كبيراً فى استرضائه واعادته إلى المجلس مرة أخرى ، فلما استقر بـه المقام زفر زفرة حارة وقال معاتبا هاشم العطا :

* ماذا يظن من لم يكن يعرف الحقيقة مثل هؤلاء الطلبة المستجدين وغيرهم !!

كانت العبارة مثقلة بالايحاء والابهام والاثارة ، ومن ثم تشوقنا لمعرفة تلك الحقيقة التي اغضبت الملازم ابل كول واثارت كوامنه على نحو ما شهدنا منذ لحظات ، فران على المجلس صمت مؤثر مشحون بالترقب ، وتسمرت عيون الحاضرين في وجه هاشم العطا تنتظر الاجابة ، ولكنه لاذ بالصمت . فتطوع ابل كول بالحديث فقال في ايجاز بالانجليزية وكأنه يحاضرنا : كان الصاغ صلاح سالم قد ازمع اعادة عجلة التاريخ إلى الوراء في السودان ، وذلك بانشاء تنظيم جديد على شاكلة تنظيم جمعية اللواء الابيض السودانية التي واجهت عسف الإدارة الانجليزية في السودان ومحاولاتها للاستئثار بحكمة سنة ١٩٢٤م، أما التنظيم الجديد فقد اريد له ان يحقق ما عجزت جمعية اللواء الابيض عن تحقيقه سياسياً وعسكرياً وهو وحدة مصر والسودان فيما يعرف باسم « دولة وادى النيل الكبرى » وقد عزا قادة ثورة ٢٣ يوليو المصرية فشل جمعية اللواء الأبيض في تحقيق ذلك الهدف إلى القيادة المصرية العميلة آنذاك المتمثلة في الملك فؤاد وحاشيته ومن خلفه الساسة والسياسة البريطانية ، أما وقد حررت مصر من قبضة الاستعمار البريطاني وانتزع ابناء مصر القيادة وسلطة الحكم من الاجانب الالبان حفدة محمد على باشا فان الظروف مواتية لتحقيق ذلك الهدف ، ومن ثم اقام هؤلاء تنظيماً في السودان هو الحزب الوطني الاتحادى برعاية مولانا السيد على الميرغني وزعامة السيد اسماعيل الازهرى ، ومن أجل دعم ورسوخ هذا الحزب انشأت القيادة المصرية — عن طريق الصاغ صلاح سالم المسئول السياسى عن شئون السودان جناحاً عسكرياً اشبه بالجناح العسكرى في جمعية اللواء الأبيض وعلى شاكلة واسس تنظيم الضباط الاحرار في مصر ، وذلك بهدف ان يقوم هذا الجناح العسكرى بتنفيذ انقلاب عسكرى للاستيلاء على السلطة ثم اعلان وحدة وادى النيل إذا مافشل الجناح المدنى أو قعد عن تحقيق هذه الغاية !!

اخذ « ابل » نفساً عميقاً قبل ان يواصل الحديث وكان الجميع يتابعونه باهتمام وتركيز وكأنه يدلى بمعلومات جديدة عليهم ، وكان اكثرهم حفاوة بما يقال اليوزباشى بابكر النور الذى ظل يؤمن على الحقائق بايماءات متوالية من رأسه وهمهمات خافتة بين كل عبارة وأخرى وهو يشير بيده مؤكداً للرواية الشائقة .

تابع ابل سرده للاحداث قائلا : لعلكم تعلمون ماجرى بعد ذلك من تطـورات للمسألة الوطنية فقد نال السودان استقلاله عن دولتى الحكم الثنائى بريطانيا ومصر فى مطلع يناير سنة ١٩٥٦م، وكانت هذه المسألة واضحة وحتمية لكل ذى بصيرة نافذة فتيار الاستقلال كان جارفاً بحيث لم يستطع فرد ولاجماعة ولا تنظيم ولاحزب الوقوف فى مواجهته وشلت وقائع الحال يومئذ حركة دعاة وحدة وادى النيل وفى مقدمتهم الصاغ صلاح سالم نفسه فتفرقوا ايدى سبأ وجرفهم التيار فيما جرف من الامانى والاحلام.

وفى عام ١٩٥٧م بدأت القيادة المصرية مواصلة سعيها الحثيث لخلخلة دعائم الدولة السودانية الوليدة، فاوحت إلى صغار الضباط والرتب العسكرية وفيهم صف الضباط والطلبة الحربيون ، أوحت إليهم وحرضتهم على القيام بانقـلاب عسكرى هـدفه الاستيلاء على السلطة فى البلاد .

وقبل ان يكمل عبارته تصدى له هاشم العطا مقاطعاً :

يا أبل ما تظلم القيادة المصرية ، انقلاب كبيده يا أبل أملته طموحات شخصية بحته ، ولا علاقة له بالشئون المصرية أبـداً .

أومأ أبل كول برأسه موافقاً وقال :

— هذا صحيح وما أوردته صحيح أيضاً بدليـل أن الذين خططـوا لـذلك الانقلاب كانوا اصلا اعضاء في تنظيم أحرار صلاح سالم المعروف .

وأمن الحاضرون على رواية ابل كول وطلبوا منه أن يواصل الحـديث فقال : خطط هـؤلاء ودبروا لانقـلابهم ليتم تنفيذه عن طريق قوات مدرسة المشاه وسلاح الاشارة ، وقد ظنوا انهم بمجرد اعتقالهم للزعماء والقادة السياسيين واذاعة بيانهم عـلى الملأ في السودان ستصبح الدولة ونظام حكمها ومقاليد امورها جميعاً في أيديهم ، وبذلك تتحقق مطامحهم وطموحاتهم الشخصية !! وكانوا قد حددوا ساعة الصفر يـوم ٣١ مايو ١٩٥٧، ولكن وصلتهم رسائل من المقدم يعقوب اسماعيل كبيدة — وهو يومئذ بحامية بحر الغزال — والصاغ محمود حسيب — وكان في اجازته السنوية بمنطقة جبال

النوبة يأمران فيها بتأجيل الموعد الى يوم ١١ يونيو ١٩٥٧م فانصاع أعضاء التنظيم في الخرطوم لذلك الأمر .
ثم سبقت عناية الله ذلك الموعد المضروب بين فئة الانقلابيين أولئك ، اذ أفضى الى الطالب الحربي « حسين خرطوم دارفور »

انه لن يكون في هذا العام طابور للتخرج ولا سيف لأول الدفعة حتى يتنافس عليه الجميع ! ! لأن تنظيم الضباط الأحرار يخطط لانقلاب عسكرى يتم تنفيذه في عضون أيام معدودات ولهذا فهو ينصحني بعدم ارهاق نفسى في مذاكرة لا طائل من ورائها اذ ان أقدمية التخرج والقيادة ستحدد بمدى مساهمة وتأييد الطلبة الحربيين وغيرهم لذلك الانقلاب ! ! هنا لم أضع وقتاً في تبليغ هذه المعلومة الهامة لصول الكلية الذى أوصلها بدوره رأساً الى اللواء أحمد عبد الوهاب .

كانت صورة الضباط الاحرار الراسخة في ذهني يومذاك انهم اتباع وادوات مأجورة للقيادة المصرية ، فاعتقدت ان الانقلاب تدخل اجنبي في شئون بلادى الداخلية والهدف منه سلب استقلال السودان وسيادة شعبه على ارضه ، ورأيت — والحال كذلك — ان واجبي يقضى بابلاغ الامر وفضح المؤامرة الخبيثة .

استحسن الحاضرون تعليقه وامنوا عليه واشادوا بصدق عواطفه الوطنية ، ثم طلبوا منه مواصلة الحديث فقال وهو ينظر الى ساعته :
باختصار استطاعت القيادة العسكرية والسياسية آنذاك — عن طريق فرع الاستخبارات العسكرية — الوصول الى اعضاء التنظيم ، فقبضت عليهم وقدموا لمحاكمة عادلة ، كل حسب دوره ومدى ارتباطه بالمخطط والتحرك .

شملت المحاكمة ضباطاً برتب مختلفة وصف ضباط وطلبة حربيين وتمثلت الاحكام في العزل والطرد من الخدمة والسجن بمدد متفاوتة والاحالة للاستيداع وشملت النقيب جعفر محمد نميرى الذى اعادته حكومة السيدين من الاستيداع . فعاود تحركه الأنقلابي ، علق بابكر النور :

بكرة الباقين يتفكوا من السجن ومين عارف يمكن يرجعوهم الخدمة ويعملوا انقلاب تاني ، خصوصاً اليومين ديل في اشاعات بتقول انو القيادة المصرية عاوزة

تعمل انقلاب شبه مدنى بقيادة ازهرى لأنها على خلاف مع الزعامات الطائفية . فتناثرت التعليقات وتداخلت وانفرط عقد النظـــام فجـــأة واقبل كل على جاره يطرح رأيه في الموضوع ثم أقبـــل أحد الصبية يدعو هاشم لحمل مائدة العشاء ، فذهب معه وغاب برهة ثم عاد يحمل صينية كبيرة ممتلئة باصناف الطعام الشهى ، وأخذ يصيح فى الحاضرين : إذا حضر العشاء واقيمت الصلاة فابدأوا بالعشاء ، قوموا ياللا اتسمموا خلونا نلحـــق طابور التمام .

فعلق بابكر النور وهو يتجه صوب المائدة :

منظرك يا أبو العطا وأنت شايل الصينية يخنن بكره ياسيدى تتخرج ويشيل ليك الصينيـــة الـ Pat man (المراســـلة العســـكرى) .

فـــرد هاشم على ذلك بقـــوله :

بس ياريت تخلونا نتخرج وما تلحقونا اخوانا ناس كبيده وجحا وحسين خرتوم .

فضج الحاضرون بالضحك وهم يتحلقون حول المائدة العامرة . فلما عدنا الى رحاب الكلية من بعد اتصل النقاش والحوار حول حدث الانقلاب بينى والاخوة هاشـــم ومحجوب ابراهيم وابوشيبة فازددت كيل معرفة الى ما سبق لى علمه من قبل. وقبل ان اخلد للنوم كالآخرين اتجهت الى دفتر مذكراتي لاسجل للتاريخ تلك التجربة المثيرة .

يقينى ان حقائق ذلك الانقلاب وملابساته واهدافه ودواعى فشله ما تزال قابعة في صدور قادته والمشاركين فيه والمحرضين عليه ، خاصة اولئك الذين صدرت بحقهم احكام قضائية ومعظمهم اليوم بين ظهرانينا على قيد الحياة ، ولكنهم يتدثرون بالصمت ويؤثرون الكتمان ناسين او متناسين واجبهم الوطنى في كشف حقائق التاريخ وايفاء كل ذى حق حقه وخاصة اولئك الصامتين قسرا تحت التراب وهم لا يملكون لا نفسهم دفعاً ولا دفاعاً.

ارهقتنى طوابير البيادة والمحاضرات وتدريبات الأسلحة وتمارين الجمباز وعبور الموانع الخ . فلم يقو جســـدى — والحال كذلك — على تحمـــل لسعات انثى باعوض الانوفلس اللعينة فاستسلمت مقهورا لمرض الملاريا اللئيم ، كانت تلك الحمى هـــى اعظم ما رزئت به حتى ذلك الحين ؛ فلزمت سرير المستشفى اعاني من وطأتها لخمســـة ايام بلياليها ، وضاعف من آلامهـــا احساسى بالوحدة والضياع رغم ازدحام عنبر المستشفى بالمرضى والزوار ، كان يتملكنى شعور ضاغط بالوحشة والاغتراب في

ذلك الظرف العصيب ، وفي اليوم الثالث زارني بالمستشفى الطالب السنير هاشم العطــا فقال لى مواسياً : اهل الكهف يبلغوك تحياتهم وتمنياتهم بعاجل الشفاء طبعاً ما حيقدروا يزوروك قبل يوم الخميس .

ولم اعلق بشيء حتى اذا خرجت من المستشفى وعدت الى حياة الكلية مرة أخرى. الححت كثــيراً على دفعــتى وصــديقى ابوشيبه ان يطلعــنى على معنى العبارة ومدلولها عندهم ، فراوغ وتردد واحجم عن الاجابة اياماً ، ثم الحفت عليه مــرة اخرى فلم يجد مفرا من الاذعان فصرح لى ان اهل الكهف هو الاسم الحركى لخلية الحزب الشيوعى في الكلية الحربية !! قلت صعقاً :

والكن اهل الكهف ــ كما نعرفهم ــ فتية آمنوا بربهم فزادهم هدى ، فما انتم وذلك ؟!

ــ فاجابنى معاتباً :

ــ لم يخطــر ببالى ابدا ان تكــون من الفئة المضللة التى تربــط بين الانتماء للحــزب الشيوعى والالحاد والكفر ! ! ان الشيوعية ياهذا نظام ومسلك سياسى في الحياة ، والالحاد سلوك وفكــر لا تحتكره النظم الشيوعية ، بل هو شائع بين غلاة المؤمنين بالمنهــج الرأسمالى ، وبعض فلاسفة ورجال الدين انفسهم .

قلت : دعك من هذا وخبرنى من هم افراد أهل الكهف بيننا فى الكلية ؟ فانــا اعرف ثلاثة منهم لا أكثر ، وأهل الكهف ــ كما ورد فى قصتهم ــ سبعة وثامنهــم كلبهم قطمير .

رمقنى أبو شيبة بنظرة ساخرة وقال :

ــ هذا من اسرار الحزب وليس من حقى افشاؤها لفلوتر مثلك ، ولعلنا الآن مضطرون لتغيير اسم الخلية الحركى فى الكلية تحسباً للظروف .

قلت له : هذا افضل ، لانكم ولاشك وقد تطاولتم لدرجة الفسق والزندقة وانتم تتخذون أهل الكهف اسماً لكم وهم منكم براء .

فانصرف ابو شيبة غاضباً لاعناً وتركنى نهباً للتفكير فى ذلك الإسم الكريم الذى

يتدثرون به عن الناس ، ان قصة أهل الكهف كما جاءت فى المصادر المسيحية تقــول انهــم فتية من بلاد اليونان القديمة عاشوا فى مدينة (افيوس) وتعرف اليــوم باســم (طرطوس) على عهد الملك الطاغية (دقلديانوس) كانوا ابناء مهن شتى . فمنهم القائد وراعى الغنم صاحب الكلب وغيرهما اما اسماؤهم فهى : مكسكمينا وتلميحنا ومرطيلوس وبينوس وسانونوس واونوس وكشطوس والكلب قطمير .

الفت بين قلوب أولئك الفتية عقيدة الايمان بالله الواحد الأحد ونبذ عبادة الطاغية واصنامه ، فتجلى عليهم تعالى بفيوضاته ونفحاته فازدادوا ايماناً وهدى ، وهربوا بدينهم من عسف الطاغوت وسطوته إلى كهــف بجبل ناجلوس ، وهناك اماتهم ربهم ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعاً من السنين وهى السنين القمرية ثم احياهم فى عهد انتشرت فيه عقيدة التوحيد وعبادة الله الواحد القهار ، وامتلأت قلوب الناس بنور الايمــــان فتوجهوا يعبدون الله وحده بغير شريك ، ثم اماتهم الله بعد ان ادوا رسالتهم فى اظهار معجزاته وقدراته للعــالمين ،وقــد وعدهم ربهم بالجنة والدرجات العلى فى الدار الآخرة واكرم كلبهم قطمير بالبعث والبقاء مع عباده المؤمنين فى الجنة .

والمعلوم من الكتب المقدسة ان جنة الخلد التى اعــدها الله لعباده المؤمنين خالية مــن جنس الحيوان ماعدا كلب أهــل الكهف قطمير وناقة سيدنا صالح وحوت سيدنا يونس ونملة وهدهد سيدنا سليمان وكبش سيدنا اسماعيل وحمار العزيز وبقرة سيدنا موسى ، أما بقية أنواع الحيوان والدواب والطيور وغيرها فانها بعد انقضاء يوم الحساب تصدع لأمر الله تعالى إذ يقــول لها : كونى تراباً !! فتغدو تراباً زعفرانياً من تراب الجنة ولهذا يتمنى كل مــن كتب عليه العذاب ان يكون تراباً مثلها ولات يوم تمنى .

« ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً ، انا انذرناكم عذاباً قريباً ، يوم ينظر المرء ماقدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا » صدق الله العظيم .

ان أهل الكهف لايجمع بينهم وبين رفاق ماركس شيء سوى التخفى ، فاولئك فتية آمنوا بربهم وتخفوا عن أعين الطاغية فى ذلك الكهف المهجور ، وهؤلاء فئة تخفــت عن الناس والسلطة وراء اسم يبعد عنها الشبهات .

أمـــا الفـــوارق بين هؤلاء وأولئك فهى كثيرة لاتقع تحت حصر ، فشتان مابين الفرقتين فكراً ومسلكاً وينابيع عطاء، ولعل أقرب تلك الفوارق بينهما وادناها للادراك

ان اهل الكهف كانوا قد فروا بدينهم واعتزلوا قومهم لما ولغوا فيه من وثنية وعبادة للانسان القاهر المستبد ، أما رفاق لينين هؤلاء فقد كانوا اشبه بالقلب من جسد الأمة تعرف من الاحتكاك بهم والتحدث اليهم نبض الشارع ومجريات الامور سلباً وايجابا ، إذ تميزوا من بين الآخرين بألمعية سياسية وفهم للشئون العامة وخفايا الحياة من حولهـــم لايدانيهم فيها أحد !!

ورغم انى فلوتر — كما بدا لهم ان يصفونى ويصنفونى وفق مقاييسهم — فقد جاء حين من الدهر نسيت فيه نفسى وانا اتقلب بينهم وتناسوا هم صفتى المرذولة عندهم وصاروا يعاملونى وكأنى واحد منهم يشاركهم الآلام والآمال ويؤمن بما يأفكون ، ولا أحسب ان احداً غيرى كانت له هذه المنزلة من قبل ومـــن بعد ، فبرغم ربـــاط الزمالة الحديدى حرص هؤلاء ألا يكشفوا سترهم أو ينكشفوا سياسياً حتى لاعـــز الاصدقاء بل ومـــن يشاركونهم المأوى والسكن فى حجرة واحدة بالكلية ، وكان هذا موضع حيرتى وتساؤلى احياناً ، فلم اطق عليه صبراً وافضيت به لصديقى أبو شيبة ، فرد على ضاحكاً وبعفوية مفرطة :

— هذا لانك مغفل نافع !!

فعدت أتساءل من جديد عن صفة الغفلة ومدى النفع الذى اتحلى به وانا لااعلم . فقال ابوشيبة بنفس العفوية :

— اعلم انك تتميز بفكر سياسى لابأس به، وحين تستمع أو تشارك فى نقاش جاد فان ماتبديه من افكار وتحليـــلات سياسية ومقـــترحات مستقبلية تكـــون موضـــع اهتمام الرفاق، ولهذا فنحن نفيد منك بذات الصور العفوية التى نتعامل بها معك، فاهم يامستر فلوتر ؟! قالها ضاحكاً ثم انصرف لشأنه دون انتظار منه لردة فعلى أو تعقيبى على ذلك ، ولكنه عاد فجأة وجلس قبالتى ليسألنى :

— كدى قول لى ، ايه رأيك فيما ورد بالمنشور الاخير ؟ قلت :

— من الآن فصاعداً سوف احتفظ بآرائى لنفسى ، لانى لا ارضى لها بموقع المغفل

النافع ابداً .

قال مستدرجاً :

— ولكن هذه الآراء لن تتبلور وتؤتي ثمارها بغير معلومات نقدمها لك نحن ، اضف إلى ذلك اننا لانمانع فى قبولك عضواً بين أهل الكهف ! !

قلت له ساخراً :

— وماذا سيكون اسمى الحركى عندكم ؟ لعله قطمير ! ضحك حتى استلقى على قفاه ، ثم اعتدل وقال :

— انت لايرجى منك نفع تنظيمى ، فقل لى رأيك فيما جاء بالمنشور الاخير وكفى.

قلت له :

بامانة ، لم استطع تكــوين رأى قاطع بعد، إذ ان الصورة مازالت غائمة فى ذهنى .

فاخرج ابوشيبة ذلك المنشور من جيبه فى حرص بالغ ، وكان يحتفظ به كأنه تميمة أو حجاب ، وقدمه لى قائلا :

— هاك اقرأه ثانية وقل رأيك فيه .

واعدت قراءة المنشور مرة أخرى بشىء من العناية والتمحيص ، المنشور كان صادراً من الشهيد عبد الخالق محجوب بعنوان (اليقظة) كان يتحدث عن الأوضاع السياسية والاقتصادية المتردية فى الســودان آنذاك ، وعزا — اعنى دهاقنة الحزب الشيوعى — ذلك التدهور إلى حكومة الســيدين ، ومن ســار فى ركابهما من القادة والتلكنوقراط ، ووصفوا هؤلاء جميعاً بانهم اذناب الاستعمار القديم وسدنة الاستعمار الامريكي الجديد ، وتحدثوا عن علاقات مشبوهة وتدابير سرية تخطط لقلب نظام الحكم فى البلاد بغية الخلاص من هيمنة الطائفية، وتساءلوا عن الذين يقفون وراء ذلك المخطط ، واشاروا بطــرف خفــى إلى الزعيم (اســماعيل الازهرى) ومــن ورائــه مصر واعوانها فى السودان من عسكريين ومدنيين ! ! واهابوا بالشعب — فى ختــام المنشور — وطالبوه باليقظة .

قلت لصديقى أبو شيبه وانا اعيد له المنشور :

— مازلت على حالى ، ولا اســتطيع ان ادلى برأى .. فانتزع الورقة منى فــى عنف وقال ساخطاً : انت امغفل ولم تعــد نافعاً .

وانصرف لا يلوى على شيء ، وظللت من بعده اتأمل محتويات ذلك المنشور مقارنة بواقع الحال فى البلاد ، فادركنى من ذلك بلبال وتوجس وخوف ، وحدث فى صباح اليوم التالى ماعمق هذه المشاعر فى نفسى ، فبينما كنا نؤدى تدريبات اجتياز الموانـع وهى تدريبات جد شاقة وصعبة ، يعانى الطلبة الحربيون الامرين فى ادائها ورغم ذلك فقد برعت فيها لدرجة بعيـدة ، فكنت اجتاز كـل الموانع فى يسر وزمن قياسى وانا بكامل لبسى وعتادى الحربى (لبس الميدان) احمل البرن سلاح الجماعة الاتوماتيكى ، حتى غدا هذا التفوق مثاراً لاعجاب القادة والمدربين بالكلية ، فكانوا يختاروننى رأساً لفصيلة البيان العملى فى اجتياز الموانع الذى ينتهى عادة باطلاق الذخيرة الحية فى الدروة الصغـيرة ، وذلك لدى زيارة ضيـوف البلاد من الرؤساء وكبار المسئولين للكلية .

فى صباح ذلك اليوم ، وبينما كنت اجتاز حاجز الحبال المعلقة وكان بين المشاهدين العميد الخواض قائد مدرسـة المشاه ومعه قائد الكلية الحـربية ومعلمـرها ، صاح فى العميد الخواض يأمرني ان احمل المدفع البرن فى وضع معين اثناء اجتياز المانع .

ودون تفكير رددت عليه عفو الخاطر من بعيد :

ـ العلى البر عـوام !!

فاثار قولى ذاك دهشة الحاضرين كلهم ، وفى نفس الوقت اغضب العميد الخواض ومحق فى نفسه ذلك الاعجاب ببراعتى فى اجتياز الموانع ، فاصـدر أمره بحبسى واحضارى لمكتبه فى نهاية اليوم الدراسـى ، أما زمرة زملائى من الطلبة ولفيف المعلمين بالكلية فقد ادركهم الجزع على مصيرى واعتقدوا جميعاً ان جزائى المنتظر سيكـون الفصل من الكلية لامحالة .

على مشارف الساعة الواحدة ظهراً كنت اقف أمام مكتب قائد مدرسـة المشـاه العميد الخواض ، وكان قد سبقنى فى الدخول عـليه قائد الكلية العقيد أحمد مختار

وقائد جناح البيادة عبد الله افندى شرف الدين ، وإذ بقيت فى انتظـار الاذن بالدخول الى المكتب، بالطابق الأول ارتفع فجأة صوت البروجى من تحتنا وهو يعزف السلام الرفيع ليعقبه مباشرة صوت اداء تحية سلام سلاح ، فخرج العميد الخـواض من مكتبه على أثر ذلك وبرفقته العقيـد أحمد مختار والملازم عبد الله شرف الدين ونزلوا إلى الطابق الأرضى مسرعين . ظللت مع الحرس فى حيرة وترقب لمقـدم زائر كبير جاء بغتة أو قبل موعده المعلوم من ذلك اليوم .

صدق حدسنا فيما ذهب إليه حين عاد العميد الخواض فى صحبة الفريق ابراهيم عبود القائد العام للقوات المسلحة السودانية واللواء أحمد عبد الوهاب نائب القائد العام والاميرلاى معاش عبد الله خليل رئيس الوزراء ووزير الدفاع ، وحين شهدنى أمام مكتب العميد الخواض وأنا اؤدى التحية العسكرية مع الآخرين اقبل نحوى يسألنى عن سبب تواجدى بذلك المكان ، فهمس فى اذنه العميد الخواض بما يفيد انه سيطلعه على جلية الأمر داخل المكتب .

بعد حوالى عشر دقائق من ذلك ، نودى على بالدخول منفرداً فدخلت محيياً ، وتلقانى الجميع ببشاشة ازالت ركام المخاوف التى بذرها تصرفى ، وخاطبنى الفـريق ابراهيم عبود بقوله :

— نحن نثنى على كفاءتك العسكرية ، وننصحك بالتزام الضبط والربط فى مخاطبة القادة فاهم ؟!

فاجبت على الفور : نعـم سعادتك .

فعقب العميد الخواض قائلا بحزم : نصيحة انصراف !! وضحك الجميع وانـا اؤدى التحية واستدير مغادراً المكتب، ورافقنى فى رحلة العودة المظفرة الملازم عبدالله افندى ولم يكن تبدو عليه سيماء الرضا بذلك الجزاء أو العفو ، فظـل شارد الفكـر يبحث عن شىء يقوله أو يفعله وفاء لقداسة وحرمة السلوك العسكرى الذى تطاولـت عليه غير عامد ، وماكادت اقدامنا تلامس الطابق الأرضى حتى لعلع صوته بالصياح امراً : قف !! فوقفت مأخوذاً بفجاءة الأمر وقوة الصوت الآمـر ، فقال والغضب يأخذ بتلابيبه :

طالب مش نافع ، عديم الضبط والربط ، ليه خطوتك كسلانة كدة ؟! اسبوع حجز قشلاق ! !

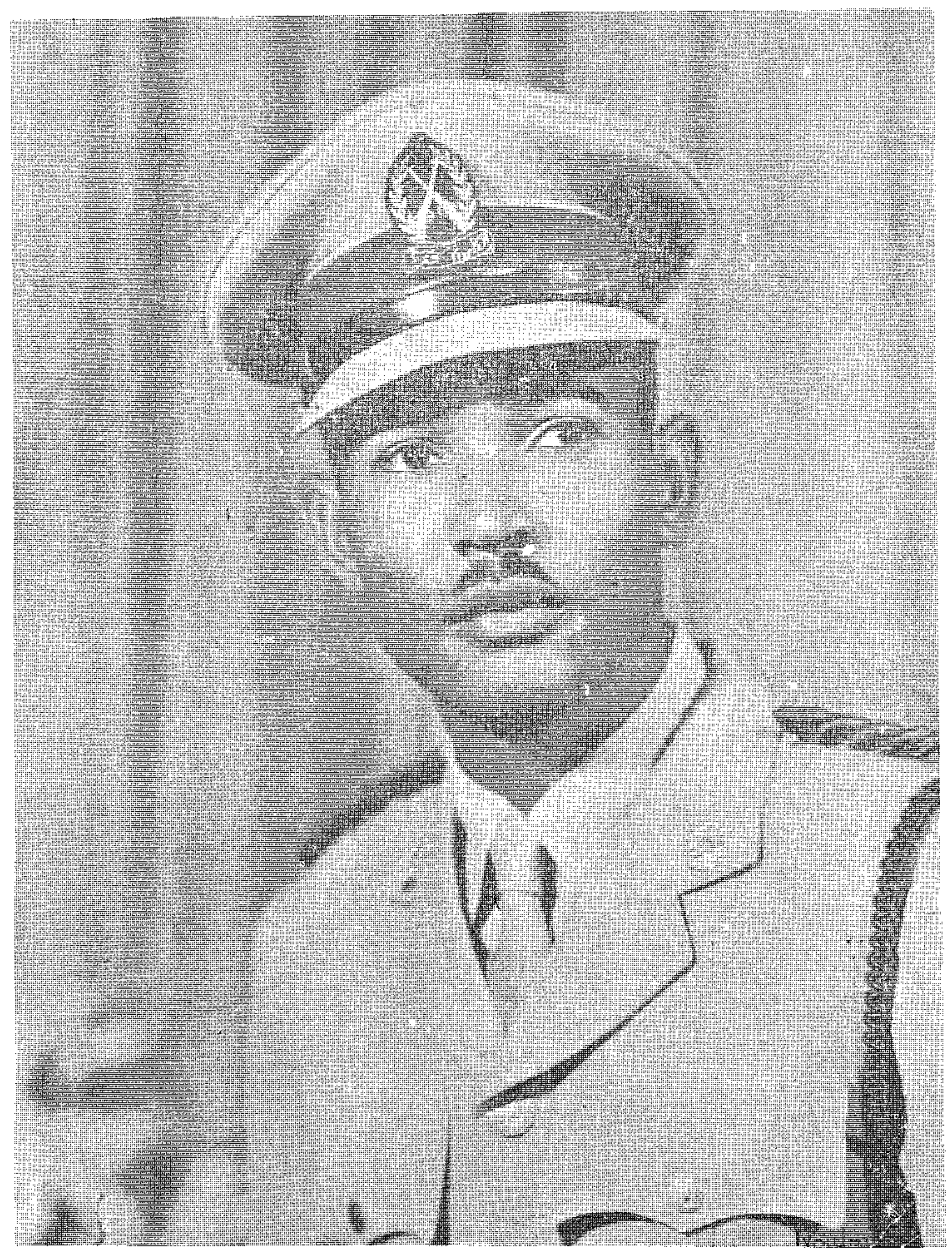
اصدر عقوبته التى لامبرر لها فى الواقع وهو يخاطب صول الكلية ثم اتبعها بقوله —شوفوا شغلكم معاه ! !

فاجابه الصول بنعم وهــو ينتهرنى بالانصراف والعودة فى تمام الساعة الثالثــة بعد الظهر لاداء طابور الزيادة بميدان البيادة الذى يقع خلف مكاتب قــائد وضباط مدرسة المشاه والكلية .

جئت فى الموعد المضروب فى طائفة من المغضوب عليهم لنصطلى عقاب طابــور الزيادة ، فالفينا رهط كبــار الزوار —القائد العام ومن معه — مايزال بمكــتب العميد الخواض ، وامضينا ساعتين فى العذاب الأليم ثم انصرفنا عند الخامسة وتركناهم مجتمعين يتبادلون الرأى فى أمر ذى بال كما توحى بذلك قرائن الاحوال كافة .

اثار الاجتماع تساؤلات الرفاق ومخاوفهم ، وتراءى لهم ضرباً من الاستعداد لما يتوقع حدوثه من مفاجآت سياسية على رأسها الانقلاب العسكرى الذى تنبأوا بحدوثه دون سواهم من الاحزاب والطوائف والتنظيمات الأخرى فى البلاد .

وتمر الأيام سراعاً كأنها مع الاحداث فى سباق مجنون ، وتعيش البلاد صراعــاً محموماً بين الاحزاب المختلفة ! وتتلبد السماء بالغيوم ! !



المؤلف طالب حربي

المؤلف طالب حربى بلبس الكليه الصيفى



المؤلف طالب حربى بلبس الكلية الشتوى


انقلاب عبود، شنان / محي الدين، علي حامد
ودفق الذكريات

كانت تجربتنا الديمقراطية الأولى بعد الاستقلال تلهث جاهدة تحاول البقاء والصمود وسط اعاصير الخلافات الحزبية وانواع الاطماع والضغائن الشخصية ولا معين .

وفي هدأة ليلة السادس عشر من نوفمبر من ذلك العام وزخات برد الشتاء المبكر تنفذ إلى عظامنا برغم ما تسربلنا به من ملابس شتوية ، شق سكون الليل صوت البروجي وهو يطلق نداء (جمعــون) ! ! وهـــو نـــداء غريب على اســـماعنا نحن الطلبــة المستجدين رغم تدريبنا على ســـماع نوبات البروجي كلها من أجل العلم والتمييز بينها ، فكانت تلك هي المرة الأولى التي يطلق فيها ذلك النداء للاستنفار والتجمع .

وما هي إلا دقائق معدودات حتى تجمعت كل قوة مدرسة المشاة بما فيها طلبــة الكلية الحربية قدامى ومستجدين بعد ان تلقوا الأوامر بذلك من قادتهم .

وفي ميز الكلية الحربية خاطب حشدنا العقيد أحمد مختار قائد الكلية آنذاك ، فاعتذر بادىء حديثه عن غياب العميد الخواض لتواجده برئاسة الجيش تلك الساعة ، ثم بـــدأ تنويره لنا بالحـــديث عن تـــردى الأوضـــاع الســـياســـية والإقتصـــادية في البلاد بعد ان فشلت الحكومة المدنية القائمة في اصلاحها فازدادت سوءً على ســـوء ، ثم اشار لجملة من مواطن الخلل ومظاهر الفساد في دولاب الحكم والإدارة ، وعدد صور الصراعات الحزبية على كراسي السلطة واهمال حاجات الوطن وجماهير الشعب ، ولهذا فسوف تتسلم قيادة الجيش سلطة الحكم في البلاد لفترة مؤقتة ريثما تستقر الأحوال ويتم الاصلاح اللازم ، ليعود الحكم الديمقراطي من جديد بصورة معافاة وناضجة وفعالة .

ثم عرج قائد الكلية الحربية ليتحدث عن دورنا في ذلك الحدث الجـــلل فقال : تحددت مسئوليتنا نحن داخل هذا الاطار في حفظ الأمن بمنطقة أمدرمان . وقال في ختام حديثه انه ليس لديه معلومات وتفاصيل أكثر ليدلي بها ، بيد انكم ستعلمون غداً كل التفاصيل لما يجرى في أرض الواقع من تطورات .

ثم اصدر أمره لنا بالانصراف فانصرفنا لاداء المهام المنوطة بنا ، مدرعين بفرط الحماس والشعور باننا نصنع تاريخ البلاد وامجاد شعبها الابى الصبور .

في صبيحـــة اليوم التالى ١٧ نوفمــبر ١٩٥٨م عانقت اســـماعنا صيحات الفـــرح وزغاريد النساء بينما كان الفريق ابراهيم عبـــود يخاطب جماهير الشعب السوداني من الإذاعة ، ويتلو عليهم بيانه الأول الذي جاء في مقدمته :

أيها المواطنون ...

أحييكم جميعاً أطيب تحية وبعد ، كلكم يعلم ويعرف تماماً ما وصلت إليه حالة البلاد من فوضى وسوء وعدم استقرار الفرد والمجموعة ، وقد امتدت هذه الفوضى والفساد إلى أجهزة الدولة والمرافق العامة بدون استثناء ، وكل هذا يرجع أولا واخيراً لما يعانيه الفرد في الحصول على القوت الضروري ، وظلت الحزبية جرياً وراء كراسي الحكم والنفوذ والسيطرة على موارد الدولة وامكانياتها تهمل حقوق المواطنين ، وقد طال وكثر ذلك ، وصبرنا على تلك الحكومات الحزبية حكومة تلو الأخرى آملين ان تتحسن الأحوال ويسود الاستقرار وتطمئن النفوس وتزول الكراهية الكامنة في القلوب ، ولكل محب لسلامة السودان من تدهور الحالة وما آلت إليه البلاد من فوضى وفساد حتى كادت ان تتردى في هاوية سحيقة لايعلم مداها الا الله ، ونتيجة لذلك وهو المسلك الطبيعي ان يقوم جيش البلاد ورجال الأمن بايقاف هذه الفوضى ووضع حد نهائي لها واعادة الأمن والاستقرار لجميع المواطنين والنزلاء .

لقد قام جيشكم المخلص في هذا اليوم السابع عشر من نوفمبر ١٩٥٨م بتنفيذ هذه الخطة السليمة المباركة والتي باذن الله ستكون نقطة تحول من الفوضى إلى الاستقرار ومن الفساد إلى النزاهة والامانة ، واني واثق بان كل مخلص لهذا البلد سيتقبلها بصدر رحب .

استقبلت جموع الشعب السوداني ذلك الحدث بكثير من الحفاوة والبشر والتفاؤل ، إذ جاء خاتمة لصراع مقيت بيد الطوائف والأحزاب وقادتها وزعمائها على سدة الحكم لا على مصالح الناس والوطن ، ومن جهة أخرى كان الشعب يرنو بعين الغبطة لما يجرى في مصر من تحولات وانجازات كبيرة لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م التي فجرها ضباط الجيش الاحرار ، فداعبت الآمال افئدة المواطنين السودانيين صباح ١٧ نوفمبر ١٩٥٨م ان يقطفوا ثمار هذا النوع من الحكم الذى صنع المعجزات في بلاد مجاورة .

قلة قليلة فجعت بما كان ....
واصابها ذلك الحدث بالذهول والدوار .
فلاذت بالصمت !!
ريثما تعيد ترتيب أوراقها وحساباتها من جديد ..
بعد ان تغيرت الظروف وعناصر الصراع ..

بقى الناس فى منازلهم يتابعون مجريات الاحداث وبيانات الحكم الجديد من المذياع ، وبقينا نحن تحت السلاح تحسباً لكل طارىء ، نشارك اهلنا الطيبين فى المدن والأرياف فرحتهم بالتغيير ، ونذود بارواحنا عن أمل يخالج وجدانهم ، بعد ان نزعوا غلائل الشحناء والتباغض ، واخلدوا إلى ظلال الوحدة والأخاء والحب ، ورفعوا اكف الضراعة إلى الله مخلصين ، ان يوفق ابناء البلاد وحكامها الجدد إلى مافيه الخير والفلاح .

فى الساعة الواحدة ظهر ذلك اليوم ، دعينا لاجتماع مرتب بالعميد الخواض فى احدى قاعات المحاضرات بالكلية الحربية ، وكان فى معيته العقيد أحمد مختار وطائفة من كبار الضباط والمعلمين ، وقد جاء ذلك اللقاء فى اعقاب اجتماع له بالطلبة القدامى ، فقال لنا فيما قال : ان مجلساً أعلى سيتم تشكيله من قادة الجيش السودانى حسب الاقدمية بديلا لمجلس السيادة الذى كان مقررا من قبل ، وأن تحديد فترة الحكم العسكرى وتسليم السلطة للمدنيين مرة أخرى يحددها إنجاز الجيش لمهامه السياسية والاقتصادية التى استدعت تسلمه سلطة الحكم في البلاد . ثم طالبنا العميد الخواض بالضبط والربط وايلاء الرئيس عبود ورفاقه الميامين وقادتنا العسكريين عموماً كامل ولائنا ومحبتنا في تجرد ووطنية واخلاص ، وختم حديثه قائلا :

(نحن رجال الجيش برغم تحملنا للمسئولية الوطنية وتجردنا لتولى مهام الحكم في البلاد ، الا أننا مع ذلك سنظل قادة وصغار ضباط بعيدين عن النشاط والعمل السياسى ! !)

وختم حديثه بنصائح تربوية تحظر الانغماس في غمار العمل السياسى حاضراً ومستقبلا ، فأثار ذلك في نفوسنا دواعى العجب والحيرة معاً ، اذ كيف يتولى الجيش مهام الحكم وشئون السياسة والاقتصاد والعلاقات السياسية مع دول العالم ، ويكون قادته وصغار ضباطه مع ذلك بعيدين عن النشاط السياسى خاصة وسيعين منهم الحكام العسكريون لتنفيذ سياسات الدولة في أقاليم البلاد وأرجائها المختلفة ؟

أفاق الرفاق من ذهولهم بعد ذلك ، وأخذوا يتساءلون عن حقيقة وهوية حكم الرئيس عبود ، خاصة عندما أعلن للملأ في السودان عن فتح صفحة جديدة في العلاقات السودانية المصرية ووصفه للوضع الذى كانت عليه تلك العلاقات في ظل حكومة

السيدين بالجفوة المفتعلة ! أو لعل مثار تساؤلهم بل تخوفهم يرجع الى قبول الحكم الجديد للمعونات الامريكية والاجنبية غير المشروطة من أجل التنمية والاصلاح الاقتصادى ، كذلك أعلن الفريق عبود عن عزم حكومته على دعم وترشيد سلطات الإدارة الأهلية ، وكان الرفاق يطالبون بالغائها وأعلن عن حاكمية أجهزة الاعلام والرأى العام وتوجيهها ، ومركزية الحكم في البلاد وقبضته الحديدية ، ونادى جماهير الشعب في ختام قراراته وتوجهات حكمه قائلا :ـ (احكموا علينا بأعمالنا) .

أمعن الرفاق في التساؤل والتحليل والتجنى على الحكومة الجديدة ، ولكنهم عجزوا عن وصف الرئيس عبـــود بالعمالة أو التبعية لمصر أو أمريكا أو غيرهما ، وشـــهدوا بوطنيته وتجرده لخدمة الشعب والبلاد ، وتلمسوا لمكرهم منفذاً فلم يجدوه الا فـــى ذلك الشعار الذى طرحه الرئيس عبود فوصفوه بالجهالة اللغوية وعكس المعنى المراد! فالحال يقتضى أن يكون الشعار (أحكموا لنا بأعمالنا) لا علينا كما ورد !! ويبـــدو أن قالتهم قد بلغت اولى الأمر اوتنبهوا لها من بعد ، فتعدلت صيغة الشعار لما ينبغى ان يكون ..

واياً ما تكن حقيقة الحدث الذى جرى يوم ١٧ نوفمبر ١٩٥٨م فقد التفـــــت قلوب الناس حـــوله ، وبذلوا له كـــل ولاء واخـــلاص ، فاتقدت قرائح الكتاب والشعراء ودبجوا المقالات والقصائد العصماء في مدح نظام الحكم والاشادة بمآثـــره وانجازاته ، وصدحت حناجر أساطين فن الغناء بأمجاد ذلك الحكم ونددت بجلادى الشعب وحكامه السابقين ،وكان فنان السودان الاول محمد وردى في طليعة هولاء المبدعين .

أما نحن في الكلية الحربية فقد عدنـــا سيرتنا الأولى وكان حالنا اشبه بنداء شعوب وفرسان القرون الوسطى : مات الملك ، عاش الملك !!

ومضت سفينة حكم الرئيس ابراهيم عبود صوب غاياتها ، والتف الناس حـــول ثلة كبار ضباط الجيش التى تبوأت عرش السلطة وانتضت سيف العمل والانجـــاز .

ثم هبت اعاصير الخلاف والاطماع فجأة !! وبدأت معارضة الحكم — أول ما بدأت — في صفوف الجيش !! فقـــد أبدى بعض قادة الأسلحة والقيادات تذمرهم ومعارضتهم للصيغة التى تم بهـــا تكوين (المجلس الاعلى للقوات المسلحة) وتوزيع

الوزارات والمناصب العليا فى الدولة !! وكان المعارضون يرون انهـــم أحق بكثير من تلك المواقع بما لهم من أقدمية عسكرية وكفـــاءة شخصية ومطامح وطنية ، ومـــن ثم فقد عملوا بكل ما أوتوا مـــن قـــوة وجهد وذكاء لتقويض اركان المجلس الأعلى وابعاد من ظنوا انهم كانوا وراء تخطيهم فى التعيين لتلك المناصب ، ويأتى فى مقـــدمة هؤلاء المزمع ابعادهم اللواء أحمد عبد الوهاب ثم العقيد عوض عبد الرحمن صغير والعقيد حسين على كرار !!

استغل المعارضون نشاط ضباط وحداتهم التنظيمى ، فسخروهم لذلك الغرض وحرضوهم على التمـــرد والانقضاض على المجلس الأعلى وفرض انفســـهم اعضاء فيه بعد ابعاد اعضائه القدامى دون مساس بموقع الرئيس عبود كقائد للمجلس ورأس للدولة .

يتضح من ذلك ان حركة المعارضة فى صفوف الجيش لم تكن تهـــدف لتقويض نظام حكم قائم لأسباب موضوعية ، بل عارضت وتذمرت من الطريقـــة التى تم بهـــا توزيع اسلاب السلطة ومغانم الحكم !! ومـــا كان ممكناً التصريح بذلك كدافـــع وهدف لحركة التمرد بين اتباعها ، فزعم قادتها لصغار الضباط انهم إنما يسعون لإطلاق سراح السجناء السياسيين عامة ، ورفاق السلاح الذين حوكموا فى انقلاب كبيدة عام ١٩٥٧م واعادتهم إلى الخـــدمة للافادة من خبراتهم العســـكرية والتنظيمية وغيرتهم الوطنية !! فصدق صـــغار الضباط مزاعم المعارضـــين ، ومـــن ثم اخلصوهم الود والولاء ، وغدوا أدوات طيعة فى أيديهم لايعصون لهم أمراً ولا يقطعون دونهم برأى.

كانت اخبـــار تلك النشاطات المشبوهة ترد الينا نحن الطلبة الحربيين عبر نفر من ضباط الكلية الحربية ومدرسة المشاه وسلاح المهندسين ، والاشارة المجاورين لمبنـــى الكلية ، وربما انتقلت إلينا عدوى حماسة أولئك الضباط ، فأخذنا نفعل ونتجاوب معهم بغير روية ولاتفكير ، ولم يحل بيننا وبين الانغماس فى أحداث ذلك الواقـــع إلا الدروس العسكرية والتدريبات الشاقة المتواصلة التى تستنزف قدرتنا على كل أمر مســـواها ، فنصرف فيها الوقت والجهـــد ، ونكتفى من سيمفونية الصراع بالسماع والطرب دون مشاركة فى الجوقة الموسيقية !!

ثم حدث ما اخرجنا من ذلك الحلم الثورى فجأة إلى الواقع الملموس ، ففى أوائل مارس عام ١٩٥٩م وبينما كنا نتأهب لطابور الصباح الباكر إذا بقائد الكلية الحربية ومعلميها يأمروننا بالاستعداد (Stand By) وذلك تنفيذاً للامر الصادر من رئاسة الجيش بوضع قوات العاصمة فى حالة استعداد وتأهب ! ! وبسؤالنا عن السبب قيل لنا فى تنوير غير مباشر — أى اننا تلقينا الاجابة بصورة غير رسمية من ضباط الكلية — ان قوات من القيادة الشمالية ضربت حصاراً حول قيادة الجيش واعتقلت بعض اعضاء المجلس الأعلى وهم : اللواء أحمد عبد الوهاب ، والعقيد عوض عبد الرحمن صغير والعقيد حسين على كرار ، وقامت باحتجازهم بميس سلاح الخدمة بالخرطوم بحرى ، وان قادة وحدات العاصمة يعقدون اجتماعاً طارئاً فى ذلك الوقت برئاسة الرئس عبود للتفاوض مع قادة حركة التمرد المتمثله فى العميد عبد الرحيم محمد خير شنان والعميد محى الدين أحمد عبد الله،للنظر فى أمر حل المجلس الأعلى وهو مطلب الانقلابيين الأول واعادة تشكيله من جديد اضافة إلى جملة من المطالب الأخرى.

دبت فى ارجاء الكلية الحربية حركة غير عادية ، وملك التوتر رقاب الجميع ، وراجت فيهم الشائعات والاراجيف ، وبقينا نحن الطلبة فى ذلك الخضم على حال من التوجس والترقب لتطورات الأحداث ، وظل يخامرنا على الدوام شعور بان ثمة تغيرات سياسية وعسكرية ستغير خارطة واقع البلاد وصورة الحكم والحياة فيها ، حتى إذا تصرمت بضع ساعات من نهار ذلك اليوم صدر أمر بالغاء حالة الاستعداد المعلنة مشفوعة بأخبار تنبىء عن انفراج الازمة واطلاق سراح المعتقلين الثلاثة وعودة العميدين شنان ومحى الدين إلى وحداتهم دون إجراء تغيير فى هيكل المجلس الأعلى ونظام الحكم ! !

قيل لنا ان فشل المحاولة الانقلابية أو التصحيحية على وجه الدقة يعود إلى موقف العميد محى الدين ودوره فى تنفيذ الخطة التى كانت تقضى بتحريك بلوكين من القيادة الشمالية بقيادة المقدم أبو بكر فريد وآخرين صوب الخرطوم ، وذلك تحت ستار السفر إلى الجنوب ضمن خطة تغيير الوحدات الشمالية فى اعالى النيل ، على ان تعزز هذه القوات بأخرى من القيادة الشرقية تتحرك من مدينة القضارف بقيادة الصاغ أبو الدهب وأخرى من سنار وسنجة تحت قيادة اليوزباشى أبو طيارة واليوزباشى عباس الامام

على أن يختلق كل من العميدين شنان ومحى الدين سبباً لتواجده بالعاصمة ساعة الصفر ! فاذا تعذر انتحال سبب معقول فلا مناص من المخاطرة وقيادة كليهما لقواته والاتجاه بها الى الخرطوم غير آبة لشيء ! ! وقد افلح العميد محى الدين فى إختلاق ذلك السبب بينما فشل شنان فاضطر لقيادة قواته والحضور بها الى الخرطوم التزاماً بالشق الآخر من الخطة ، ففوجيء بتخلف قوات القيادة الشرقية وعدم تحركها من مواقعها فما كان من شنان — الذى لم يجد سبباً يفسر به تحريك قواته صوب الخرطوم الا أن قام بتنفيذ المخطط بما لديه من قوة ، فاتجه بصحبة بعض ضباطه للقاء العميد محى الدين ليجده يغط في نوم عميق ! ! فاستصحبه الى منزل الفريق عبود ليفرض عليه حل المجلس الاعلى والاستجابة لبعض المطالب الأخرى ، ولكن الفريق عبود لم يذعن لتلك المطالب وواجه المتمردين بكل شجاعة وثبات ، وأصر على عقد اجتماع للقادة في الساعة الثامنة صباحاً برئاسة الجيش ليقرر ما يراه بصدد تلك المطالب ، فلم يجد كل من العميدين بداً من الرضا والقبول .

كانت الساعات السابقة لذلك الاجتماع المزمع كافية لتبذل الأستخبارات العسكرية جهدها في التعرف على حقيقة الموقف وحجم القوة المناهضة للنظام وعتادها الحربي ، فرصدت ذلك بدقة متناهية ورفعت تقريرها لجهات الاختصاص ، فكان طبيعياً أن يرفض القادة مطالب المتمردين في ذلك الأجتماع ، ولكنهم لجأوا الى الحيلة والتسويف وأبلغوا شنان ومحى الدين أنهم يخضعون أمر المطالب لمزيد من الحوار والتفاكر في اجتماع آخر يعقد في نفس ذلك اليوم . ! !

لدى انفضاض اجتماع القادة الأول ،نقل بعض أنصار العميدين شنان ومحى الدين إليهما أن قراراً قد صدر باعتقالهما قبل موعد الاجتماع المزعوم ، وأن إرجاء الاعتقال لبعض الوقت يرجع الى رغبة أعضاء المجلس الأعلى في اتخاذ التدابير اللازمة لاحتواء الموقف ومنع قواتهما من التحرك ! ! وبذل أنصار العميدين لهما النصح بالانسحاب سراً والانضمام الى قواتهما على عجل ،ففعلا عملا بتلك النصيحة المسداة .

أعترف أن أخبار تلك الأحداث — كما اوردتها آنفاً — لم تكن تصلنا نحن الطلبة الحربيين بذلك التسلسل ودقة التفاصيل ، بل كانت تبلغنا رذاذا متقطعاً مزيجاً من

الحقائق والشائعات والمبالغات ، وبقيت على قدر من الامتزاج والتداخل حتى تهيأت فيما بعد لكتابة هذه المذكرات ، فكان لزاماً على أن أمحصها وأتحرى الصدق فيها وأطرح منها شوائب الزيف والخيال . وهكذا خلصت بعد جهد جهيد الى ما سبق ايراده من تفاصيل أحسب أنها جوهر الحقيقة فيما جرى من أحداث ، وحبذا أن يفصح أبطال الحدث وهم أحياء بيننا اليوم عن جوانب تدثرت بالكتمان وتلفعت بالصمت زمناً طويلا .

انقضى يومان عادت خلالهما الكلية الى طبيعة الحياة فيها من دراسة وتدريب ، وفي اليوم الثالث فوجئنا بصدور اوامر بالاستعداد مرة أخرى !! وقيل لنا إن قوات القيادة الشمالية قد احتلت الخرطوم من جديد بقيادة العميد شنان ، وقد نجح هذه المرة في فرض مخططه السابق الرامي الى حل المجلس الأعلى وتشكيل مجلس جديد ينتخبه مؤتمر قادة الجيش ، ويتم الترشيح له باستفتاء ضمني وشامل للضباط ، وقيل لنا أيضاً إن العميد شنان قد أبدى شجاعة وبسالة فائقتين حيث أستخدم في تحركه وفرض ارادته ثمانين جندياً مستجداً فقط !! وإن بعض هؤلاء يجهل استخدام السلاح ، غير أنه تمكن من استغلال الضباط والصف والجنود الذين معه بفاعلية كبرى وتخطيط جرئ ، اذ فاجأ بهم أعضاء المجلس الأعلى في اجتماعهم الدورى بالقيادة العامة وهدد باطلاق الرصاص عليهم جميعاً اذا لم يستجيبوا لمطالبه في التو واللحظة !! فأذعنوا له كارهين وقدموا استقالات جماعية ما عدا الرئيس عبود الذى لم يطلب منه ذلك !!

حدثنا الرواة أيضاً ان شنان بعد أخذه للمبادأة والتأكد من نجاح خطته انضم له بعض ضباط الآلاى المدرع وحامية الخرطوم ، كما تعززت قواته المحدودة بقوة من القيادة الشرقية تحركت من منار بقيادة اليوزباشي أبو طيارة وأخرى تحركت من سنجة بقيادة اليوزباشي عباس الإمام .

وبالسؤال عن قوات العميد محى الدين فى كسلا والقضارف عرفنا انه قد تحرك بها فعلا نحو الخرطوم وفق الخطة المرسومة ولكنه عند اطراف المدينة واجه قوة استكشاف صغيرة من قوات سلاح المهندسين ، فحذره قائدها النقيب محمد على من دخول الخرطوم ونصحه بالعودة من حيث أتى حذر الوقوع فى قبضة قوات

المدينة المتربصة ، فعمل بنصحه وعاد ادراجه للقضارف تتبعه قواته . وهناك عبر الاتصالات التلفونية أدرك ما أصابه شنان من نجاح وتوفيق ، وقد أكد له اليوزباشي أبو طيارة من خلال محادثة تليفونية بينهما ان قواته إذا عادت إلى الخرطوم فلن تلقى سوى الترحاب ، وان غير ذات الشوكة ستكون له ولها ضربة لازب ! فامتشق العميد حسام الجهاد مرة أخرى واصدر تعليماته بالتحرك والعودة إلى الخرطوم ، ودخل بقواته المدينة خائفاً يترقب ، وفي حلقه غصة من نصيحة قائد قوة الاستكشاف التي لم يصب منها غير الكلال وعناء السفر .

إنبرى العميد محي الدين فور وصوله لقيادة الجانب السياسي من الحركة ، وشارك في ترتيب الأوضاع لانتخاب المجلس الأعلى الجديد .

وهكذا تقشعت سحب الصراع بين كبار قادة جيش البلاد ، واعلن للناس التشكيل الجديد للمجلس الأعلى للقوات المسلحة والتعديل الوزارى بدخول كل من العميد محي الدين أحمد عبد الله وزيراً للمواصلات والعميد عبد الرحيم شنان وزيراً للحكومات المحلية .

في أولى جلسات المجلس الجديد العاشر من مارس ١٩٥٩م صدر قرار باطلاق سراح جميع السجناء السياسيين مدنيين وعسكريين ، ولكن هؤلاء الأخيرين لم يعادوا إلى الخدمة في الجيش كما كان مؤملا ، فاصاب الاحباط نفوس زملائهم بل استشعروا في ذلك نوعاً من الردة وناقوساً ينذر بالخطر .

ومن جهة أخرى كان لإعفاء اللواء أحمد عبد الوهاب من مهامه السياسية والعسكرية اثر بالغ في توجهات الحكم وعلاقته بطائفة الانصار خاصة ، فقد كان الرجل عريق الانتماء ودرعاً واقياً لهذه الطائفة ذات التاريخ الطارف التليد ، فلما تنحى عن موقعه اضحى الانصار هدفاً لعداء النظام وحكامه العسكريين ، وقد اجج اوار نار العداوة بينهما مواقف السيد الصديق المهدى وآرائه المتطرفة الرافضة لبقاء سلطة الحكم بيد العسكريين . ولم يكن يخفي قناعته ولا عداوته لنظام الحكم القائم .

بينما ظلت بقية الطوائف والكيانات والتنظيمات الأخرى مواليه أو مهادنة أو تلزم

الصمت وتؤثر السلامة !! حتى إذا طفح الكيل وضاقت صدور الحكام بذلك العداء عولوا على الرد بالمثل بعد ان دفعوا بالتي هي أحسن ، وجاهروا بسافر العداوة من قبيل الدفاع عن النفس ، ولما كان الناس على دين ملوكهم فلقد ترسخ فى عقول العسكريين كافة ان الانصار وحزب الأمة عدو تقليدى وشر مستطير تجب مكافحته وعجم عوده ، وكانت احداث أول مارس ١٩٥٣م الدامية ماتزال ماثلة فى اذهان ذلك الجيل ، فبلغ من شطط القائمين على قيادة الوحدات العسكرية وغلوهم فى معاداة الانصار انهم وضعوا برامج للتدريب على كيفية مواجهتهم ودرء خطرهم عسكرياً فى عمليات الأمن الداخلى !! وان انس لاانسى يوم ان طلب أحد الضباط المعلمين من ترزى الجيش ان يقوم بحياكة (جبب الدراويش) ليرتديها من يمثلون دور العدو فى تدريبات الأمن الداخلى !! فاستفز هذا الطلب مشاعر العقيد احمد مختار واعترض على ذلك المسلك الغريب وقال فى معرض حديثه عن الواقعة : انه لوكان المسئول لجعل من جبة الدراويش كسوة شرف فى المناسبات القومية !!

نقل ذلك نفس الضابط المعلم فى سخرية لاذعة ، فقد آلمه وحز فى نفسه ان يكون بين العسكريين من يدافع عن الانصار ويمجد شاراتهم ذلك التمجيد ، ولكن لسخرية القدر جاء حين من الدهر اشهدنى ذلك الضابط الموتور عينه وهو يشيد بطائفة الانصار ويرفع ذكرهم فى العالمين !! فسبحان مغير الاحوال .

ثم انتقل الإمام عبد الرحمن المهدى إلى رحاب ربه راضياً مرضياً فى الرابع والعشرين من شهر مارس عام ١٩٥٩م ، فأمر الرئيس عبود ان يلف جثمانه الطاهر بعلم السودان ويحمل النعش ضباط الجيش فى موكب رسمى مهيب ، وأكد بعض كبار الضباط — كما بلغنا من صغارهم يومئذ — ان الرئيس عبود بكى بغير حرج لحظة تلقيه نبأ رحيل الإمام ، حتى ظن شهود ذلك الموقف ان دموع الرئيس قد غسلت دوافع العداء المتبادل بين نظام الحكم واتباع الراحل العظيم ، ولكن خاب ظنهم فما انقضت على ذلك الا أيام قلائل حتى استعرت نار العداوة اشد ضراماً بين الفريقين وعاد المتزلفون إلى دين ملوكهم من جديد .

* ١٥ *

انقضى عامنا الدراسى الأول بتخريج الطلبة القدامى فى حفل حاشد كبير ، وقد ارهقتنا الطوابير والاستعدادات التقليدية لتلك المناسبة الهامة .

ثم اعقب ذلك ارسالنا فى عطلة سنوية قوامها خمسون يوماً ليتجدد بها نشاطنا وحماسنا للمزيد من الدراسة والتدريب، فتفرقنا فى جهات البلاد كل إلى مسقط رأسه وأهله ومراتع صباه الأولى ، بعد ان ودعنا قدامى الطلاب الذين اصبحوا بين عشية وضحاها ضباطاً مرموقين ، وكان حفل الختام والوداع رائعاً بحق ، بدأ والليل طفل يحبو على وسائد النغم والغناء وانتهى والليل شيخ هرم يلفظ انفاسه الاخيرة .

يممت وجهى شطر مدينة كسلا لقضاء العطلة فى ربوعها الخضراء ، فكسلا هى الوطن الثانى لنا بعد سنجة، فيها ولدت وترعرعت جدتى لامى آمنه بنت أحمد الشكرى ، فهى — كما يبدو من اسم ابيها — من بطون قبيلة الشكرية الذائعة الصيت ، واضحت المدينة من بعد مستقراً وموئلا حبيباً لنا ، فقصدتها أنشد الراحة والخضرة وحرارة العاطفة الصادقة .

فور وصولى أرض كسلا الممرعة الخضراء ، توجهت إلى حاميتها العسكرية بزى الكلية الحربية الرسمى لأخطر قائدها بوجودى عملا بالأوامر والتعليمات العسكرية ، فتلقانى القائد المقدم محمد على السيد — وهو من أبناء كسلا — بمزيد من الحفاوة والترحاب ، وقدمنى إلى رفاقه من الضباط فاكرموا وفادتى واحتفوا بمقدمى وطلبوا منى التردد على الحامية وميس الضباط بلاحرج بغية توثيق الصلات بينى وبينهم والتعرف على مجريات حياتهم العملية ، كما أمر القائد بالسماح لى بركوب خيل الحامية وقتما اشاء واستخدام العربة النوبتجية العامة فى تنقلاتى الخاصة كما هو شأن صغار الضباط حديثى الخدمة ، أما الضباط من رتبة النقيب فما فوق فقد كانت تخصص لكل منهم عربة عسكرية يقودها الضابط بنفسه وقتما شاء .

عشت أجمل أيامى فى ذلك الجو المشحون بعواطف الانتماء للاسرة وزمالة السلاح ، كما اندمجت كثيراً فى مجتمع الضباط الجديد المثير ، حتى نسيت انى مازلت طالباً حربياً لم يتخرج بعد ، وتناسوا هم ذلك أيضاً وانطلقوا فى معاملتى على سجاياهم بغير تحفظ ، فتكسرت بيننا الحواجز والفروق تباعاً ، وكنت ادعوهم — ومعظمهم غرباء على المدينة وافدون — إلى رحاب منزلنا لتناول وجبات الطعام خاصة فى

العطلات الدورية والطارئة ، ومن ثم فقد كانوا ينثرون على مسمع منى دقائق حياتهم العامة والخاصة ، وأكثر ما تدور حول صبواتهم ومشاهداتهم وطرائف ما يعن لهـم ويجرى في وجودهم ، وكانت لهم آراؤهم السياسية المتطرفة فى مناوأة نظام الحكـم القائم ورموزه وكبار قادته ونهجه فى الداخل والخارج .

كانت كلمات الثورة والتصحيح والانقلاب رائجة في احاديثهم . وبدا ان عاصفة من التغييرات والاخطار تهدد نظام الحكم القائم آنذاك وكنت شغوفاً بتتبع هـذه الأحداث، فشاءت الاقدار ان اشهدها عن قرب وان يكون لى فيها دور .

تبدى لى من تعليقات ضباط الحامية ومناقشاتهم للمسألة الوطنية ان وشائج قوية ماتزال تربطهم بقائدهم السابق العميد محى الدين أحمد عبد الله ، وهـو نفس الحال فيما بين ضباط القيادة الشمالية والعميد شنان ، فما برحت الآمال تراود هؤلاء واولئك بـان الرجلين لامحالة سيدعوانهم يوماً لاحتلال الخرطوم وامتلاك ناصية الحكم والسـيطرة على شئون البلاد،وذلك من خلال مجلس جديد يرأسه العميد محى الدين وينوب عنه شنان ويتقاسم عضويته والمراكز القيادية في الدولة ضباط القيادتين معاً ! ! ومن عجـب فقد كان هذا الحلم قناعة راسخة فى النفوس ، فهم يتحدثون عنه بكل الثقة كأمـر واقع لايفصلهم عنه سوى عامل الزمـن والظرف الملائم لصدور تعليمـات الرجلين من عاصمة البلاد ! !

مافتىء أولئك الحواريون المخلصون يحلمون بيوم الخروج ، حتى كان ذات مساء ونحن برفقة النقيب (محمد سعيد عباس) نشاهد فيلماً من روائـع الانتاج العالمى فى لسوج بالسينما الشرقية ، ففى ذروة متابعتنا لاحـداث قصة ذلك الفيلم وكـزنى أحد موظفى السينما وهو يسأل عن النقيب محمد سعيد فاشرت عليه بموقعه بين زمرة الجالسين، فذهب ولم تمض الا لحظات حتى عاد يصحبه الرائد أبو الدهب ، فنهض النقيب معتذراً وغادر السينما فى معية الزائر تبدو على سيماهما علائم القلق والتوتر ، كنت على سابق معرفة بالرائد أبو الدهـب من خلال صلة القربى التى تربطـه بأسرة تجاورنا في المدينة فضـلا عن شهرته بين أهلها كـلاعب كسرة وضابط مرمـوق ، وقد أثار فضولى سؤال طرحه النقيب محمد سعيد حين علم بمجىء زائره الفجائى وبحثه عنه فى أروقـة

السينما فى ذلك الوقت ، إذا قال والدهشة تأخذ بمجامعه :

ــ أبو الدهب جاء من القضارف ؟ حصــل شنو ؟!

كان الأمر مثيراً للدهشة حقاً ، ولكن أحداث ذلك الفيلم كانت اعظم إثــارة وجذباً ، فواصلت متابعة العرض مقنعاً نفسى بان فى الوقت متسعاً لمعرفة الخبر .

فى طريقى إلى منزلنا ــ وهو لا يبعد عن ميس الضبــاط والقشلاق باكثر مــن خمسمائة متر تقريباً ــ عرجت على الميس بدافــع الفضول واللهفة التى اثارتها الزيارة المفاجئة ، فالفيت الضباط يتحاورون همساً فى شىء من الاهتمام والترقب ، ونمــا إلى علمى من بعضهم ان الرائد أبو الدهب قد قفل راجعاً إلى القضارف بعد ان طلب منهم تجهيز قــوة الحامية وارسالها إلى الخرطوم لتتلاحم مــع قوات القيادة الشــمالية هناك لإحداث الانقلاب المرتجى ! !

ادرك المقدم محمد على السيد انى على علم بما يجرى من تطورات وأحــداث ، فطلب منى ألا ابوح بشىء وان ابقى الأمــر طى الكتمان ، واضاف : ان التحــرك رهين بوصول تعليمات أخرى محددة ! ! وقال فى لهجة تنم عن الجد والحزم : لولا ثقتى فيك وخشيتى من انزعاج اسرتك لامرتك بالبقاء بالحامية منذ الآن ، حفاظاً على السرية اللازمة فى هذه الظروف ! ! ولكنى بالمقابل أطلب منك ان تكون فى مســتوى المسئولية وان تعــود الساعة السادسة صباحاً بكــامل ملابسك العسكرية ، فاجبته بحاضر سعادتك . وفى ختام الإجراءات التحوطية أصــدر المقدم أمراً صريحاً لكافة الضباط ليكتمــوا أمر ذلك التحرك عن المــلازم أول (نيانق ديو) ــ وكان وقتئذ يســهر فى مكان ما ــ وهــو من قبيلة الدينكا وقد دارت حــوله بعض الشبهات فيما يتصل باحداث التمرد بجنوب الســودان عــام ١٩٥٥م .

انصرفت عند الواحدة صباحاً إلى منزلنا ، وبقيت ساهراً أفكر فيما كان ، فلم أنم إلا قليلا ثم غادرت الفراش وارتديت ملابسى العسكرية وتوجهت إلى الحامية فوجدتها على حال من الاستعداد والتأهب والحركة الدؤوب ، فاتخذت مكانى بين الضباط ، ثم صدرت أوامر العمليات وكانت تقضى ببقاء النقيب محمد سعيد عباس بحامية كســلا مع بعض القــوات كاحتياطى ، كما طلب منه استخدام هذه القوات فى حراسة المنشآت الهامة والحفاظ على أمــن المدينة ، وطلب من الملازم الطيب يس ــ وكان منقولا إلى حامية

كوستى وقد تأخر تنفيذ النقل حتى ذلك الحين – طلب منه البقاء بالحامية كضابط نوبتجى ، ثم رتب ماتبقى من امور وفق الأهمية والإمكانات المتاحة .

تأكد لعامة الناس فى كسلا ان شيئاً ما قد حدث أو سيحدث فى عاصمة البلاد الخرطوم ، رغم اطلاقنا معلومة كاذبة بقصد التمويه مفادها ان قوات الحامية متوجهة صوب منطقة الدمازين لمجرد المناورة ، فلم تنطل الاكذوبة على احد ، حتى أمى تجاوزتها واصابت كبد الحقيقة وهى تقول فى جزع :

– دايرين تقلبوا الرئيس عبود ؟ عبود ماله يمه ؟ مازول نضيف وكراعه خضرا ؟ ! !

امضينا سحابة يومنا ذاك وشطراً من الليل فى توجس وترقب ، وبقينا إلى جوار أجهزة الراديو ننتظر سماع المارشات العسكرية التقليدية والبيانات الأولى منذ باكورة الصباح ، وعافت انفسنا الطعام والشراب نهار اليوم الثانى فلم نرغب فى شيء سوى معاقد الامل والرجاء ، ثم فوجئنا بالقوات تعود وعليها وعثاء السفر ترهقها قترة ووجوم واحباط ! ! وعقدت الدهشة ألسنة الناس ! ! فتطوع بعض العائدين ليقول لنا ان شنان ومحى الدين قد اختلفا على من يكرن منهما بعد نجاح الانقلاب رأساً للدولة ! ! ! إذ تمسك الأول بالموقع الاثير فلم يوافقه الثانى ورأى انه أحق به وأولى . ولهذا لم يأمر شنان قوات القيادة الشمالية بالتحرك من مواقعها ، بينما تكبدت قوات القيادة الشرقية مشاق السفر لتعود من مشارف الخرطوم (حلة كوكو) بأمر من العميد محى الدين ، بعد ان تدخل الوسطاء كالعميد أحمد عبد الله حامد والعميد المقبول الامين الحاج وغيرهما ، واعطوه ضمانات من لدن الرئيس عبود بعدم اتخاذ اية اجراءات تأديبية ضد قوات القيادة الشرقية المتحركة .

هكذا ساق العائدون ذريعة الفشل ، وبعد عدة أيام تواترت الاخبار بحقيقة الأمر ، فقيل ان شنان ومحى الدين قد اختلفا فعلا فيمن يتولى منصب الرئيس منهما ، وعند ذلك اقترح محى الدين العميد أحمد عبدالله حامد ليشغل المنصب حسماً للخلاف ، ومعلوم انه ذو انتماء لطائفة الانصار ، وكان يأخذ عليهما موقفهما من اللواء أحمد عبد الوهاب واعفاءه من موقعه ومسئولياته ، فعرضا عليه الأمر وجاراهما فيه شوطاً بعيداً ، ولكنه بعد تردد افضى به للعميد المقبول الأمين الحاج الذى طرحه بين يدى الرئيس عبود ، واعضاء المجلس الآخرين ! ! فأخذوا للامر أهبته ووضعت قوات

الخرطوم فى حالة استعداد قصوى ، وتم بالفعل تحريك بعض القوات لمواجهة قوات القيادة الشرقية على مشارف المدينة ، وجرى الاتصال بالعقيد أبو دقن فى شندى لاحباط تحرك قوات القيادة الشمالية إلى الخرطوم .

جاء ذلك مواكباً لوصول قوات القيادة الشرقية إلى أطراف الخرطوم ، فوضعت خطة للايقاع بالرجلين ومنع الصدام بالقوات الوافدة ، فطلب من شنان ومحى الدين مقابلة الرئيس عبود مع العميدين أحمد عبدالله حامد والمقبول الأمين الحاج ، وفى ذلك اللقاء طلب الرئيس عبود من شنان ومحى الدين ايقاف تحرك القوات الشرقية واعادتها إلى مواقعها فى مقابل الوعد بالعفو عنهما !! وكان الرئيس يبطن معالجة الأمر هذه المرة بالحزم والشدة اللازمين ، وما كان وعده بالعفو إلا من قبيل العمل بالحكمة المأثورة التى تقول ان الحرب خدعة ، فأذعن العميد محى الدين وامر قواته الموالية بالعودة وعاونه فى الاقناع من سبق ذكرهم ،وقد ادرك المقدم محمد على السيد ونفر من الضباط الذين جاءوا معه خطورة عواقب تلك العودة والتراجع واصروا على التقدم ،ولكن العميد محى الدين بادلهم اصراراً باصرار ، فلم يجدوا بداً من الاذعان لامره وعادوا ادراجهم إلى كسلا على الحال التى سبق وصفها .

تلك قطرات من الاخبار والتخرصات جاءت فى أعقاب عودة قوات القيادة الشرقية إلى مقر الحامية ، ويقينى ان لباب الحقيقة وتفاصيل الحدث كثيرة لم يكشف النقاب عنها بعد ، ومايزال أولئك الضباط احياء يلوذون بالصمت !!

ثم مرت أيام أخرى بعد ذلك ، فجاءت الاخبار تترى بان لجنة للتحقيق فى ذلك الحدث قد شكلت من العميد محمد احمد عروة والعقيد يوسف الجاك ، وانها بصدد القدوم إلى كل من كسلا والقضارف لمباشرة مهمة التحقيق ، فتوجس قادة الحامية وضباطها شراً وأخذوا ينددون بمواقف شنان ومحى الدين ويحملونهما تبعة ما ستتمخض عنه إجراءات التحقيق من عواقب وعقوبات قد تؤثر على مستقبلهم ومصيرهم ،

ثم هدأت ثائرة القوم قليلا وشرعوا يفكرون فى مخرج من المأزق الذى وجدوا انفسهم فيه ، فجمع المقدم محمد على السيد ضباط الحامية وتبادلوا الرأى فيما ينبغى عمله وقوله فى مضابط التحقيق ، فاتفقوا على خطة وافادات محددة .

سيطر شعور بالخوف والتوجس على النفوس ، فلم يخف ذلك عن فطنة المقدم محمد على السيد ، فوقف كالطود الشامخ ليقول للضباط :

ـ أنا هنا قائد الأورطة ، وهذا التحرك المحبط قد تم بأوامر منى ، فأنا المسئول عن كل تبعاته وحدى !! وعلى كل منكم ان يعترف بذلك دون حرج لجنة التحقيق ، ان تقولوا جميعاً انتم تحركتم تنفيذاً لأوامرى التى تقضى بتحرك الأورطة إلى الدمازين ثم عدلت أنا خط سيرها لتتجه إلى الخرطوم!! فلا علاقة لكم البتة بل لا علم لكم اطلاقاً بدوافع التحرك ولا بمراميه، ولسوف تجيء أقوالى فى التحقيق مؤكدة لهذه الحقيقة ، ولسوف اتحمل وحدى كل التبعات!!

همهم الضباط كثيراً ، كان البعض موافقاً على ما أمر به المقدم، ولزم آخرون جانب التضحية فحسم المقدم الأمر بقوله :

لامجال للاختيار ، هذه أوامر وعليكم تنفيذها عند حضور اللجنة.

جاءت لجنة التحقيق واجرت تحقيقاً شاملا دقيقاً مع كافة الضباط في كسلا والقضارف ، ثم صدر الأمر باستدعائهم للخرطوم لمزيد من التحقيقات ، وهناك جرى اعتقال من ثبت تورطه وقدم لمحكمة عسكرية ، وقضت المحكمة باعدام العميدين شنان ومحى الدين ثم استبدل الحكم بالسجن المؤبد فيما بعد، كما اصدرت احكاماً بالسجن لمدد متفاوتة على بقية الضباط .

وانطوت بذلك صفحة مناوأة القيادتين الشرقية والشمالية لحكم الرئيس عبود واعضاء مجلسه الأعلى وركائز دولته ، فاستأسد النظام بعد ذلك وكشر عن نابه محذراً كل من تسول له نفسه معارضه السلطة أو التحرك ضدها ، او الانقضاض عليها مدنياً كان أو عسكرياً !!

كانت اجازتي السنوية تلفظ انفاسها الاخيرة ، فحملت متاعى وعدت الى الكلية لافتح صفحة جديدة فى حياتى الدراسية كطالب حربى سنير !!

بدأ العام الدراسى الجديد ــ أول مابدأ ــ بانتقالنا من سكن الطلبة المستجدين إلى سكن الطلبة القدامى ، أو (السنيرز) كما يحلو لهؤلاء ان يلقبوا ، وهو بالضرورة والحقوق المكتسبة سكن ارقى مستوى ، حديث البناء لامع نظيف ، ولم يكن كذلك الا لحرص المسئولين البالغ على شئونه ومظهره وضوابط الحياة فيه، حيث فرضوا على نزلائه أقصى دواعى المحافظة على بريقه ورونقه اللذين تحلى بهما على مر الأيام ، فما كان ذلك بالأمر الهين والميسور علينا .

ثم اضاف المسئولون إلى اعبائى بالحياة الجديدة وقيودها ومنغصاتها عبئاً آخراً إثقل كاهلى ، والحق ان القدر وحده هو الذى اراد ذلك لحكمة لا أعلمها ، فقد شـاركنى الحجرة الطالب معتصم السراج ، وهو معروف بيننا بحرصـه الذى يبلغ حد التقديس للنظام والضبط والربط ، وكان فى ذلك نسيج وحده ، ومثـلا يحتذى ، وكنت على نقيض ذلك ميـالا إلى التعبير عـن ذاتـى وإرادتى بـلا قيـود ، فارتسـم ذلك على وجودى خـراباً وبهدلة وسوء تدبير لمظاهر الاشياء ، ولعلى كنت أجد فى ذلك متنفساً لنزعة الرفض تجاه الحذلقة والتزمت العسكرى ، ومـن ثم وجدتنى قليل الحفاوة بالسـكن الفاخر الجديد .

وسرعان ماغلب الطبع على التطبع ، فما مرت الا أيام قـلائل على حياتنـا فى تلك الديار الفخيمة المزوقة ، حتى إمتدت يدى لتشوه جلال باب الغرفة ببيتين مـن شعر العرب ، حيث كتبت بخط غير جميل لا أملك سواه :

دار سـكنت بهـا أقل صفاتهـا
ان تكـثر الحشـرات فى جنباتهـا
الخـير عنهـا نـازح ،، متباعـد
والشـر دان مـن جميع جهاتهـا

اضحى ذلك مثار تندر الرفاق وسخريتهم ، فلم آبه لهم بقـدر ما اسعدنى التنفيس عن تلك الرغبة فى التعبير عن واقـع الحال أو شعورى به يومئذ ، ولكن سعادتى لم تدم طويلا وأسفاه !! فقد داهمنا الملازم أول عبد الله عبد الجبار الملقب ب (نشنكاه) وهو أحد ضباط الكلية فى جولة تفتيشية مفاجئة ، فوقع نظره على تلك الابيات قبـل ان يلج ارض الغرفة ليرى العجب العجـاب ، فانكرت عيناه ذلك الصنيـع شكلا ومضموناً ، واحتدمت فى صدره براكين الغضب ، وبادرنى بالسؤال :

— هذا الشعر لك ؟

فلم أجد بداً من القـول : الحق انى زينت به باب غرفتنا ، ولكنه لشاعر عربى لا أذكره .

قال وهـو يغالب نفسه ان تنفجر بما تجد فى داخلها من مشاعـر الألم والسـخط والانكار :

قالها عربى أو أفرنجى المهـم أنهـا تعكس مابنفسك من ضيق وتبرم بالسـكن

وكل أوضاع الكلية ، وهذا خروج على الضبط والربط . وسكت برهـة ليامرنى بازالة جسم الجـريمة النكراء، ثم اصدر أمره للصـول الذى يرافقه بتقديمى لمكتب قائد الكلية قبيل نهاية اليوم الدراسي . ودهش هذا وادركه الغضب أيضاً ، وكأنى اتيت فى العالمين جرماً فوق كل خطيئة ، أو بدعـة دونهـا كل موبقة وشر !! فحـل العجب فى نفسى محل الخوف والتوجس ، وسخرت مـن اعماقها بهـذه القداسات الرضعيه الزائفة، وانعكست تلك المشاعر على مرآة وجهى وأنا أقف فى حالة انتباه قصوى أمام قائد الكلية الذى يرهبه الجميع ، واجزم ان شبح ابتسامة ساخرة فرض نفسه على قسراً فى ذلك الحين ، ولعله هو قبل الجريمـة كان السبب فى تلك العقوبة الصارمة والجزاء الأوفى الذى تلقيت ! ! فقد اصدر الرجل المهيب أمره بوضعى اسبوعاً فى حجز القشلاق ، وانذرنى بالفصل من الكلية متى تكرر منى ذلك الصنيع ، ثم هدأت ثائرته قليلا فمضى يزجى لى النصح بعدم التفريط فى القـول وكبح جماح اللسان الذى يورد المهالك ، وان يكون ذلك ديدنى مدى الحياة ، وخرجت من عنده لأحمل قطوف اوزارى بين الرفاق الساخرين . ! !

تحضـرنى فى هذا المقام قصة العقيد الركن تاج السر مصطفى ، الذى عبر يومـاً عن ضيقه وتبرمه بالحياة فى الجنوب فى ظل التمرد والقتال بين بنى الوطن الواحد ، فانطلق لسانه من عقاله وترك له الحبل على الغارب بلا رقيب أو حسـيب ، فابدع شعراً رصيناً ذا مضامين غاية فى التطرف والقتامة ،ولكنها ــ آخر الأمـر ــ ذوب نفسه المعناة الثائرة ، أو قل هى نزعـة الجنوح للتعبير عن الذات ، سيطرت على العقيد الشاعر ، فلم يملك لها دفعاً ، وقال :

من بالشمال ألا أبلغـك الخـــبر   مافى الجنـوب سوى البعوضة والضجر

ما فيه مـن ذهـب ولا مـن فضـة   والغـاب اشـجار تطـول بلا ثمر

النـاس كلهـم عـــراة ، مالهـم   هم ، سوى رعى العجاف من البقـر

الغدر فـى دمـهـم جـرى   وقلوبهم ملئت بشك فى العقول قدداختمر

ثم يمضي العقيد تاج السر في وصف الجنوب والناس والظروف الضاغطة من حوله فيتبنى - في عنفوان المأساة - حلا يرى الا مناص منه ولا بديل ، وهو العنف والزجر والقهر العسكري !! ولا خيار

القى الشاعر بقصيدته تلك في أفئدة الناس، ثم تثاءب ونام ملء جفونه عن شواردها فسهر الخلق جراها وإختصموا !! تلقفها أولئك الذين يصطلون جحيم الحرب في مستنقع الحقد والغدر في الجنوب ، واطلقوها صيحة داوية في البلاد ، وانكر الصيحة آخرون على رأسهم كبار الساسة والقادة العسكريون ، باعتبارها دعوة للتفريط في وحدة التراب والمصير . وتعرض العقيد الشاعر عند صحوه من نوم هنيىء لعنت وتجبر اولئك القادة، فلم يتراجع عن قناعته بما حوته القصيدة من صور ومضامين ، ورد على الساخطين شعراً في عصماء له مطولة ،حمل فيها على نقاده حملة شعواء، هاتفاً للحرية في قلعة التزمت والضبط والربط ، مستنكراً حرمان الناس فيها حق التعبير وابداء الرأى ، استهلها بالنداء :

جيش البلاد ليس لى بك منبر
فالقول فيك محرم والرأى فيك محجر

وإلى آخر القصيدة .

وكان صادقاً قوله الحق ، ولكنه يفتقر إلى قوة تسنده وتكفل له البقاء جنباً إلى جنب مع القداسات والطقوس العسكرية العتيقة المهيمنة ، فانزوى في مخابىء النفوس يومض حيناً ويخبو طويلا ، ولهذا لجأ عامة الجند والضباط خاصة للمنشورات السرية يعبرون بها عن آرائهم ومطامحهم واشواقهم لمجد الوطن والجيش والأمة، وهم منابر فكرية متعددة ، صهرها قيظ الشمس صيفاً ، وحرارة العاطفة الوطنية على مر الأيام ، فكان لها في الأرض عشق ، وللشعب ولاء، تلاقحت بينهم الافكار ، وتفرقت بهم السبل ، وانخرط نفر منهم في التنظيمات السرية المحظورة ، وهم جميعاً يرتدون الزى العسكرى .

لقد درج قادة الكلية والوحدات المختلفة على اصدار منشور دورى يحظر إتصال

الجند في كل الرتب بالصحافة وأجهزة الإعـلام الا عبر الاستخبارات العسكريـة التي يعلمون سلفاً رفضها لكل رأى يتصل بالشئون السياسية ، فهذا الجانب من الفكر والنشاط الانساني حكر للمدنيين لا ينازعهم فيه أحد !! أضف الى ذلك أن من يجرؤ على إبداء الرأى في أمر سياسى يعرض نفسه لخطر العقاب الناجز والتصنيف في القوائم السوداء .

ثم جاء حين من الدهر على قيادة الجيش فأدركت خطل ذلك النهج الذى يتنافي مع طبائع الأشياء ، وضرورة أن يجد العسكريون متنفساً لما يعتمل في صـدورهم من رغبات وآراء فأنشأت (جريدة القوات المسـلحة) منبراً للفكر والثقافة والتوجيه .

في رحاب الكلية الحربية ، عدنا سيرتنا الأولى بين قاعات المحاضرات والدراسة والتدريبات العملية تحت وهج الشمس المحرقة ،فاجتزنا مراحل وامتحانات الفترتين الأولى والثانية ، وعند بداية الفترة الثالثة والاخيرة تقرر توزيعنا للتدريب المتدرج بقيادات ووحدات الجيش في ارجاء البلاد ، حيث يبدأ الطالب الحربي بالتدريب على عمل ومهام الجندى العادى، ليتدرج في رتب صف الضباط حتى رتبة المساعـد .

ومنها ينتقل الى مرحلة تالية يؤدى فيها عمل ومهام الملازم ثاني لفترة من الزمن ، يعود بعدها الى الكلية ليطابق محصـوله من الدراسات النظرية مع ما اكتسبه من خبرة عملية ثم يجلس الطالب لاداء امتحان نهائى شامل ويتخرج بعده ضابطاً برتبة الملازم ثاني .

وتتوقف على نتيجة الطالب في ذلك الامتحان الأخير أقدميته في دفعته ، ولا يخفى ما لهذه الأقدمية من تأثير سالب أو موجب على مستقبل الضابط في قابل الأيام ، ولهذا يكد الطلاب ويجهدون في تحقيق السبق والتفوق ، وهاهنا لا ينفع الطالب حسـب ولا نسب ولاجاه ، فكل نفس بما كسبت رهين .

تقرر ايفادى مع ثلة من الاقران يربو عددهم على الخمسة عشر الى القيادة الوسطى أو الهجانة كما كانت تسمى يومئذ ، وكذلك جرى توزيع الآخرين من أبناء الدفعة على وحدات الجيش المختلفة ، وفي رئاسة القيادة الوسطى بمدينة الأبيض تم توزيعنا — مرة أخرى — على محطات وحدات القيادة، وساقني حظى الى حامية (الإضية) مـع

زميلين هما : (جوزيف لاقو) و (احمد محمد عثمان) لنتلقى التدريبات بين أفرادها .

وقد أمضينا عدة أيام برئاسة القيادة ، تعرفنا خلالها على عمل وتنظيم وحـدات الرئاسة ، كما تلقينا محاضرة نظرية عن تاريخ القيادة ألقاها علينا الملازم « حسن مكى » في حضور قائد القيادة (العقيد محمد فضل المولى) وبقية الضباط ، وكانت المحاضرة وما وقفت عليه من علم بتاريخ قوات الهجانة من بعد ، وسيلتى لسبر أغوار هذه القوة وكشف ما ينطوى عليه ماضيها من الحقائق المثيرة .

يذهب الرواة الى أن تاريخ قوات الهجانة يرجع الى ما قبل عام ١٨٨٣م حين كان الاتراك من سلالة محمد على يحكمـون وادى النيـل شماله والجنـوب ، ولا يبعد أن تكون ثورة أهل السودان بقيادة الامام المهدى عليه السلام أحد دواعى التفكـير في تأسيس هذه القوات ، وفي تلك الظروف ، جرى اختيار أفرادها من وحـدات عسكرية أخرى كالسوارى او الطوبجية ، وكان معظم هؤلاء الافراد من قبائـل العبابدة والشكرية والبشاريين ، ممن لهم دراية بركوب الجمال ، ويذهب بعـض الباحثين في التاريخ الى أن السبب الاساسى في انشاء قوة الهجانة هو المشاركة في حملة إنقاذ الجنرال غردون باشا ، حين أطبقت عليه كتائـب الأنصار وحصرته في قلب الخرطوم وضيقت عليه الخناق ١٨٨٤ — ١٨٨٥م

كانت القوة بعد تكوينها تحت إمرة رجل من قبيلة العبابدة ويدعى (سعيد رضوان) كان والده رضوان العبادى أحد قادة جيش الزبير باشا في السودان ، وقد انتدب من قوة السوارى لتأسيس القوة الجـديدة التى تشكلت كقوة نظامية بأسم (بارك الهجانة) أو (قوات الجمال) Camel Troups .

فلما تكاملت لتلك القوة أسباب الوجود والتدريب والكفاءة القتالية ، اسنـدت قيادتها الى ضابط آيرلندى هو الملازم (ماريوت) الذى تمت ترقيته عند ذلك الى رتبة البكباشى شرف ، حتى لا يخضع لقيادة الضبـاط المصريين الذين لا تتجاوز رتبـة أعلاهم رتبة الصاغ ، ولكن برغم ترقية (ماريوت) وتعيينه لقيادة قوات الهجانـة فقد ظلت القيادة الفعلية بيد (سعيد رضوان) الذى أهلته مواهبه العسكرية وشجاعته

وحبه للجندية والاخلاص لها للترقى الى رتبة الملازم فيما بعد ، حيث تجلت تلك الصفات في أروع صورها في معارك (تاماى) و(جنيس) وغيرهما فمنح نيشان الشجاعة والخدمات الممتازة .

أما اسم الهجانة الذى عرفت به تلك القوة فقد قيل إن البكباشي ماريوت هو الذى أطلقه عليها وانه أقتبسه من معنى عبرى هو الفداء ، بمعنى أن ذلك البلوك قد تشكل أصلا كقوة فدائية لانقاذ الجنرال غردون . ثم زيدت الهجانة قوات فيما بعد لتصبح أورطة (كتيبة) من أربعة بلوكات توزعت بين الأبيض وشندى بارا ومدني ،وشاركت في كل معارك الدولة مع غيرها من وحدات الجيش المصرى بقيادة الضباط الانجليز .

ومن قبيل الاستعداد لتشكيل حملة كتشنر لاسترداد السودان تحت السيطرة البريطانية المصرية ، تم تجنيد كتيبة جديدة من أربعة بلوكات سودانية بقيادة ضباط مصريين وبريطانيين لتصبح قوة الهجانة ثمانية بلوكات أى (كتيبتين) اشتركتا في معركة كررى ١٨٩٨م وقد منيتا بخسائر فادحة في تلك المعركة ، إذ تمكن الامير عثمان شيخ الدين وقواته من شن هجوم مضاد شرس ضد الهجانة وكاد يقضى عليها تماماً لولا تدخل مدفعية سفن الجيش الغازى في الوقت المناسب ، ثم شاركت قوات الهجانة المتبقية في معركة (ام دبيكرات) واستعادة كردفان بقيادة الكولونيل (ماهون) حيث تمركزت بها وقامت رئاستها في مدينة الابيض .

بعد عام ١٩٠١م أعيد جميع جنود وضباط صف وضباط الهجانة من المصريين الى بلادهم ليكونوا حرس الحدود المصرية ، واستدعى ذلك تجنيد قوات جديدة من السودانيين وخاصة أبناء قبائل كردفان ودارفور ليسدوا النقص في قوة الهجانة بعد رحيل المصريين . وتشكلت القوة من بلوكين تمركز أحدهما في مدينة الابيض والآخر في مدينة بارا ، ثم تطورت قوات الهجانة لتصبح كتيبة كاملة في قابل الأيام ، فاسندت اليها كل العمليات الحربية – تقريباً – في غرب البلاد ، وكان لها دور كبير في حرب السلطان على دينار سنة ١٩١٦م تحت قيادة (هدلستون باشا) ، ثم واصلت تقدمها غرباً لفرض سيطرة الحكومة على دار مساليت التى سلمت صلحاً ، كما شاركت قوات

الهجانة مع بقية وحدات الجيش المصرى البريطانى في السودان خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية ومقاومة الثورات المحلية ضد الحكم الثنائى الأجنبى ، كثورة (الفكى الحسينى) عام ١٩٢٠م في جنوب دارفور ، وفي نفس ذلك العام انسلخ بلوك من الهجانة ليكون نواة لفرقة العرب الغربية التى تطورت فيما بعد لتصبح القيادة الغربية ، ولكن هذه القوة الأخيرة اعتمدت على الخيل بدلا عن الجمال في تحركها ونشاطها العسكرى .

اشتركت القيادتان الهجانة والغربية معاً في معارك جبال النوبة وجنوب السودان ، وتطورتا الى فرق مشاه عادية بعد إلغاء استخدام الجمال والخيل فيهما ، الا أن القيادة الغربية احتفظت ببلوك واحد للخيالة هو (٦ جى) بمدينة نيالا . ثم تعدل اسم القيادتين لتصبحا القيادة الوسطى ورئاستها مدينة الابيض ، والقيادة الغربية بدارفور ومركز رئاستها الفاشر .

هكذا ألفينا القيادة الوسطى حين تم إلحاقنا بها ونحن طلبة حربيون على أبواب التخرج ، تدرجت في النماء حتى أضحت قوة مشاه متطورة تستخدم في تحركها المعدات الميكانيكية وليس للجمال فيها وجود .

في حامية الإضية ، استقبلنا قائدها وضباطها وجنودها بحفاوة بالغة وكرم أصيل ، فاتخذنا مواقعنا بينهم لنتدرب ونقف على طبيعة عملهم وحياتهم وما يكتنفها من ظروف ومشكلات عارضة ، وكانت بحق تجربة مثيرة ، حيث بدأنا من رتبة الجندى وتدرجنا داخل كيانهم حتى رتبة المساعد ، وكما نهلنا من معين خبراتهم افادوا هم أيضاً من تواجدنا بينهم وتلاحمنا معهم كثيراً ، فما أكثر ما كانت تسند الينا مهام تحضير وقيادة الطوابير والبيانات العملية .

كان مرشد التدريب الصادر من فرع التدريب بقيادة الجيش في ذلك العام قد خطط وأمر بالعناية بالتدريب المتدرج على حرب العصابات عموماً وحرب الغابات على وجه الخصوص ، ولم يخف القائمون على أمر التدريب يومئذ وعلى رأسهم معالى اللواء (حسن بشير نصر) أهدافهم من وراء ذلك التخطيط المكثف لحرب العصابات

والغابات ، فقد ذكروا صراحة أن الظروف تقضي بتحريك معظم وحدات القوات المسلحة للقضاء على فلول المتمردين بجنوب السودان ، فكان من بين فقرات المرشد (خلق الروح العدائية عند الجند تجاه الخارجين على القانون في الجنوب.) ومن ثم فقد وجدتني وزميلي الاخ أحمد محمد عثمان نواجه حرجاً بالغاً مع زميلنا الصديق جوزيف لاقو ! حيث كنا نتدرب ونتحدث عن بني جلدته بما يملأ صدور الجنود حقداً وكراهية لهم ، وهو — كما نعلم علم اليقين — عضو بحزب سانو ، ومن جانبه لم يحاول يوماً انكار هويته السياسية عنا ، كما لم يداهن باخفاء مشاعر الإمتعاض والتذمر من تلك التدريبات والاحاديث العدائية ، ولكنه لم يجد بداً من الخضوع للأمر الواقع والأوامر العسكرية .

كان يحلو للاخ جوزيف لاقو أن يؤكد عقيدته الراسخة وايمانه العميق بوحدة السودان شماله وجنوبه في إطار حكم ذاتي إقليمي على نهج الانظمة الفيدرالية في العالم. وظل على الدوام يؤكد أنه لا يضمر عداءاً ولا حقداً لاخوته من أبناء الشمال ، ولكيما يرسخ هذا الشعور في أنفسنا قال إنه يتمنى أن تتاح له الفرصة للزواج بواحدة من بنات الشمال والانجاب منها ! كان يردد ذلك كثيراً حتى راودنا الشعور بصدق مشاعره وتوجهاته الوحدوية ، ثم حدث ما زلزل قناعتنا وأرغمنا على التراجع عن مطلق إيماننا بما يقول .

فقد أقبل علينا ذات يوم رجل هرم رث الثياب من أهالي الإضية يطلب الإحسان والعون ، فنفحته مبلغاً من المال وحذا الاخ احمد محمد عثمان حذوي بغير تردد ، فلما توجه الرجل الى جوزيف لاقو نظر اليه في صرامة وعبوس ، ثم أمره بتنظيف عنبر سكننا ، وكان ذلك واجباً من واجبات جوزيف في نوبتجيته يومئذ فانصاع الرجل لأمره وقام بالمهمة الشاقة مكرهاً ، فأدخل جوزيف يده في جيبه ومنحه عشرين قرشاً ! ! أخذها الرجل وانصرف .

أثار تصرفه ذاك — حفيظتنا وانكرنا عليه ذلك الصنيع ، فانبرى يدافع عن تصرفه مع الرجل المسكين قائلا :

— كنت صبياً يافعاً باحدى المدارس التبشيرية بالجنوب ، فاحتجت يوماً لقرش ابتاع به طابع بريد ، فلم أجد من اساله حاجتي سوى مدير المدرسة البريطاني ،

اتدرون ماذا فعل ؟ امرني ان احضر لمنزله بعد نهاية اليوم الدراسى ، وهناك طلب منى ان اسقى له حديقته الواسعة المترامية ، وكانت تلك مهمة شاقة لصبى فى مثل عمرى يومئذ ، فانجزتها بكثير مـــن الجهد والارهاق ، حتى إذا فرغت جاء المدير وامســـك بقرش فى يده ورمقنى بنظرة فاحصة حادة وقال لى :

ـ اردت ان القنك درساً فى الحياة ارجو الا تنساه أبداً ، لا تمد يدك لتأخذ مـــن الآخرين دون مقابل ، وبالمثل لا تعط احداً مـــن الناس شيئاً بغير مقابل .

ثم وضع القرش فى يدى وربت على كتفى مبتسماً وامرنى بالانصراف !! فبقى ذلك فى نفسى واتخذته سلوكاً ومبدأ لا احيد عنه قيد انملة .

زم جوزيف لاقو شفتيه وسكت ، وطفق ينظر الينا كمـــن يريدنا ان نأخذ بذلك الدرس أو يكون له عذراً فيما صنع بذلك السائل المسكين .

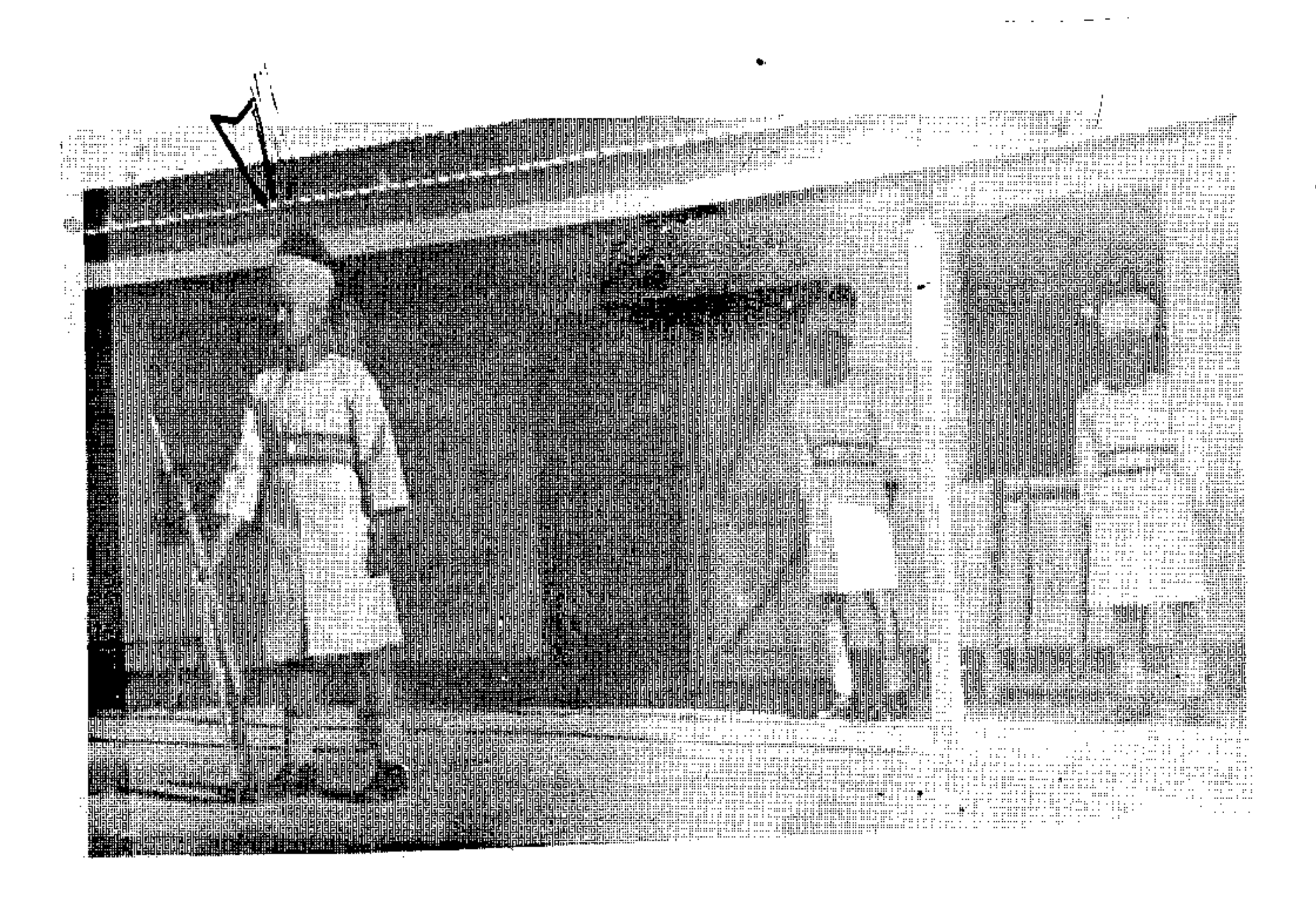
مـــن هذا ـ وغيره كثير ـ وقع فى روعنا ذلك الأثر البالغ الذى خلفه القساوسة ومعلمو المدارس التبشيرية في اعماق نفوس اخوتنا ابناء الجنوب .

لقد كانت مشكلة الجنوب ومازالت هى الهاجس الاكبر الذى يؤرق مضاجـــع الناس فى السودان ، والعسكريين منهم على وجه الخصوص ، ولهـــذا أصبح ملح احاديثهم واسمارهم فى كل حين ، فلا يجتمع اثنان من العسكريين الا كان الجنوب ثالثهم ، وتتركز احاديث الجنود وصف الضباط بوجه خاص على احداث تمـــرد الفرقة الجنوبية عام ١٩٥٥م ، إذ كان جل أولئك النفر قد شاركوا بصورة فعلية مباشرة فى تلك الأحداث وخاضوا لهيب الحرب فى عنفوانها ، فاصبحت صدورهم مراجل تغلى بالحقد والغضب ، تؤججها ذكريات باقية عن بشاعة الحرب وعنف المأساة والحميـــة الوطنية ، فاندفعوا طواعية واقتناعاً بتوجيهـــات مرشـــد تدريب وعمليات قيـــادة الجيش الداعى إلى العنف الثورى الذى لايبقى ولايذر !! ولم يكن هـــذا رأى كبار الضباط وحدهم وقتئذ ، بل كان رأياً فاشياً في عقـــول العسكريين كافة ، وهـــو أشد رسوخاً لدى أولئك الذين شهدوا اندلاع الحريق وخسة الغدر والخيانة ولحظـــات الخطر . ومـــن ثم راح هؤلاء يروون احداث التمرد والظروف التى تقلبوا فيها بصورة

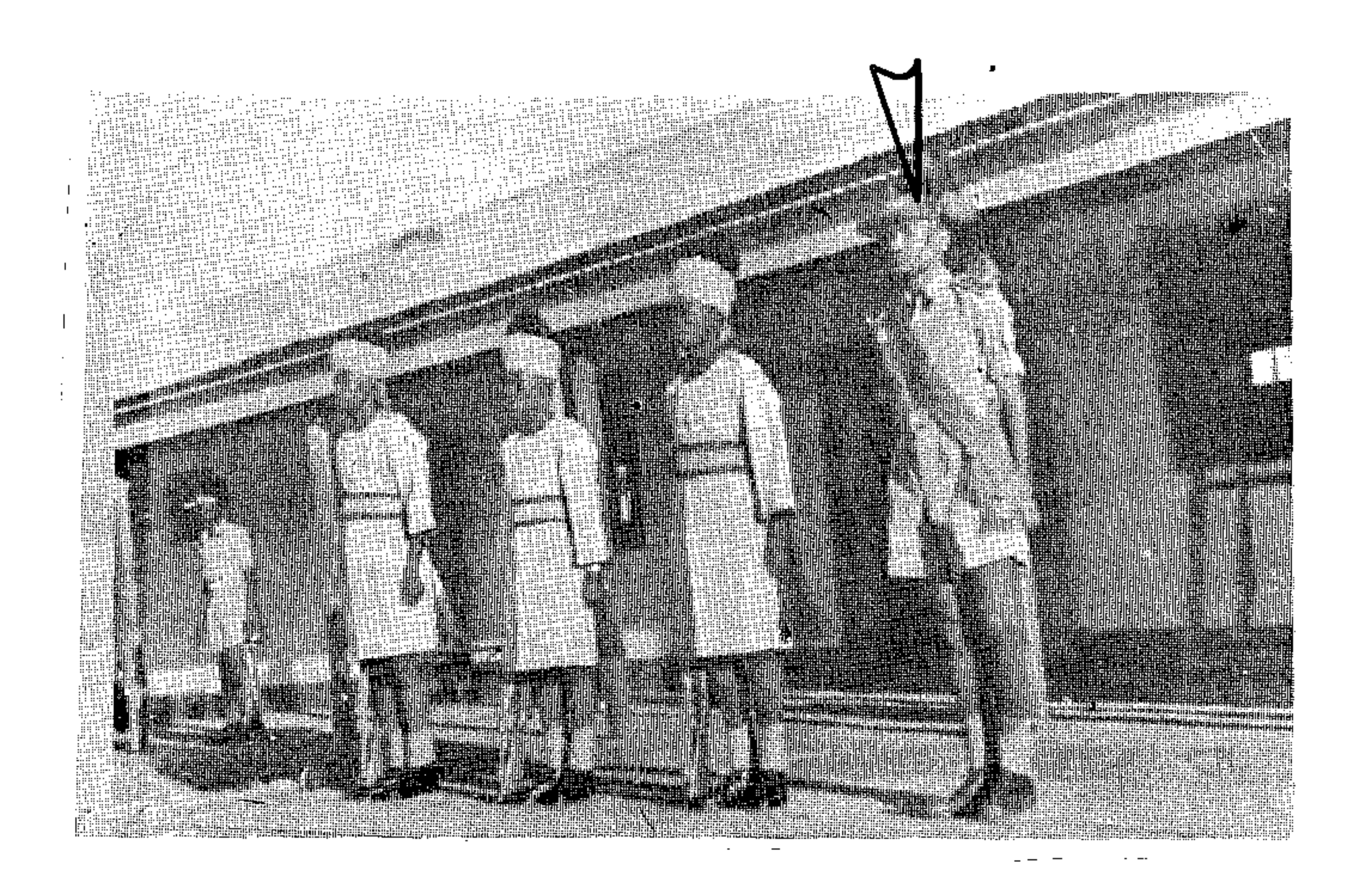
لاتخلو مـــن المبالغة والتهويل ، برغم ما يطبع احاديثهم مـــــن عفوية وصدق احياناً حول ما قاموا به من عمليات عسكرية تجسد اعنف وابشع مظاهر الوحشية واللاانسانية .

ويقيني ان بعض تلك الروايات التي ينثرها الجنود في اسمارهم ان هي إلا حلم كاذب وخيال جموح ، بل هي متنفس لركام الألم والضيم والغضب في دواخلهم الموتورة ، وذلك أمر عادي في علم النفس العسكري له مبرراته ودوافعه ، ولعل الذين شاهدوا الفيلم الامريكي (صائد الغزلان) الذي يحكي قصة الحرب الامريكيـــة الفيتناميـــة ، وكيف امتلأت نفوس الجند بالحقد والمرارة والعقد النفسية ابان الحرب لدرجـــة ان بعضهم لم يجد منفذاً سوى المغامرات الانتحارية لتفريغ تلك الشحنة الضاغطة . لعـــل الذين شاهدوا ذلك الفلم يدركون حقيقة البواعث لتلك الروايات حول أحداث التمرد في الجنوب وما يكتنفها من خيال واختلاق .

وقد تسنى لي في قابل الأيام كتابة بحث مطول عن جذور واحداث مشكلة الجنوب اودعته حافظـــة كتـــابي (قبس مـــن الفكر والتاريخ) ولعل في الرجوع اليه تكملة لهذا الموقف من مواقفي على درب الزمان .



المؤلف يؤدى واجب الحراسة بالقرقول.



المؤلف يقوم بمهام حكمدار القرقول

* ١٥ *

انجزنا مهمتنا التدريبية المتدرجة بحامية الاضية فى وقتها المحدد ، وصدر قـرار بعودتنا إلى الكلية الحربية ، فاقام قائد وضباط وضباط صـف وجنود الحامية لوداعنا مهرجاناً رياضياً وحفلا ساهراً شارك فيـه عامة سكان المدينة الوادعة بالفنون الشعبيـة من رقص وغناء ، بدأ ذلك الحفل عند نهاية صوت بروجى نوبة المساء وامـتد حتى اعلنت أصوات الديكه عن بزوغ فجر يوم جديد هـو الجمعة ، فتفرق الحشـد ليتخذوا مـن النهار لباساً بعد معاش ليل حافل فريد .

كانت الأوامر تقضى بتحركنا صوب مدينة الأبيض وذلك لنمضى بهـا اسبوعاً اخيراً فى تدريب مشترك قبل عودتنا إلى الخرطوم .

فى الأبيض تلقانا رفاق السـلاح بخبر مأساوى مثير ، مفاده ان المقدم (على حامد) قائد جناح المشاه بالمدرسة وثلة من الضباط قد تزعموا محاولة انقلابية فى الخـرطـوم تمكن النظام الحاكم من اجهاضها فى لحظات مخاضها الذى تعسر بسبب ضعف التكوين لجماعة الانقلاب ، وغدر بعضهم ببعض !! إذ تراجـع رقيب سرية البيان بالعمل المنوط به جانب عظيم الأهمية لتنفيذ الخطة وانقلب على قائد الانقلاب وألقى القبض عليه وأسلمه لقادة النظام عند بداية التحرك والعمليات ، فانهار مخطط الانقلابيين رأساً على عقب واستسلموا للسلطة الحاكمه مكرهين .

وقد اشترك فى تنفيذ المحاولة الانقلابية الفاشلة الملازم أول عبد الله افندى قائـد جناح البيادة بالكلية ، والملازم أول عبد الله عبد الجبار قائد جناح الأسلحة بالكلية ، والمقدم معاش يعقوب كبيدة والرائد عبد البديع كرار من سلاح المدرعات والرائـد طيار الصادق محمد الحسن من سـلاح الطيران والرائد عبد الحميد عبد الماجد من حامية الخرطوم ،، وآخرون .

ثم تواترت الاخبار بان لجاناً للتحقيق والمحاكمات الفورية قد تشكلت على عجـل لردع قادة الحركة المجهضة واجتثاث جذور الانقلاب من صفـوف الجيش وتثبيت دعائم النظام القائم وتأمين استقراره فى البلاد .

بدا واضحاً لنا من تحليلات ضباط القيادة الوسطى لتلك الحركة وتعليقاتهم عليها ان مصيراً مظلماً ينتظر الانقلابيين، وكنا – نحن الطلبة الحربيين – على معرفة وثيقة بثلاثة منهم وهم قائد الانقلاب المقدم على حامد الذى كان منزله بجوار سكن الكلية الحربية وهو قائد جناح المشاه بالمدرسة ، وسيم قسيم بادى الرجولة ذو خلق ودين . عرفنا كرمه وكثيراً من سجاياه عبر تلك الدعوات المتكررة لنا لتناول وجبات الطعام بمنزله العامر فى العطلات الاسبوعية ، خاصة لاولئك الطلبة الذين يضطرون لقضاء العطلة بسكن الكلية .

كان الرجل – حيثما التقينا به – يحفزنا على المسلك الدينى والعسكرى الحميد فى تعاملنا مع الآخرين وافراد وحداتنا المقبلة على وجه الخصوص ، ومن ثم ادركنا بالغ العجب والدهشة ان يتورط فى محاولة انقلابية فاشلة ويورد نفسه من جرائها موارد الهلاك .

أما الثاني فهو الملازم أول عبد الله افندى ، وكان في بادىء أمره من افراد بلوكات النوبة بالقيادة الوسطى ، اذ كان تكوين الجيش السوداني في بداية عهده يقوم على أساس قبلى ، فتشكلت القيادة الوسطى من بلوكات جنودها من قبائل جبال النوبة واخرى من ابناء عرب كردفان من مسيرية ورزيقات وحمر وبديرية وغيرهم ، وهكذا الحال في بقية قيادات الجيش في شمال وجنوب وشرق البلاد .

نقل عبد الله افندى من القيادة الوسطى للتدريس بالكلية كصف ضابط ثم تدرج بها حتى رتبة الملازم أول، كان يتميز بذكاء جم وملاحة في الخلق ،حتى أصبحت أفعاله وأحاديثه نوادر يتداولها جمهرة الطلاب في أسمارهم ومجالسهم الخاصة ، ولانه كان شديد الحرص داعياً الى الضبط والربط على الدوام فقد وقع فى روعنا انه لن يخرق مقدساته تلك في يوم من الأيام ، فهالنا أن يتجاوزها لما هو أخطر شأناً وأعظم نكراً باشتراكه في ذلك الانقلاب !!

أما الثالث فهو الملازم أول عبد الله عبد الجبار ، ولم ندهش لورود اسمه بين

جماعة الانقلابيين ،وقد عرفناه رجــلا طموحــاً مولعاً بالزعامة وركوب المخاطر ، وكان لا يخفى مشاعر السخط والعداء للنظام الحاكم وقادته ونهجه في إدارة شئــون البلاد،ولعله يومئذ كان يدعونا لثورة لم تستوعبها مداركنا بعد،ثم ها هو يجد متنفساً لركام ثورته على السلطة في ذلك الانقلاب الذى ولد ميتاً .

أما بقية الانقلابيين فلم يكن لنا بهم سابق معرفة سوى ما يدور حولهم من احاديث في تلك الظروف ، وظل الحديث عن الحركة متصلا لاينقطع من أفواه الزملاء وعامة الناس حتى بلغنا الخرطوم من بعد وانتظمنا من جديد في مسارنا الدراسى بالكلية .

تشكلت محكمة عسكرية لمحاكمة مدبرى حركة الانقلاب برئاسة العميد محمد أحمد التجاني وعضوية العقيد يوسف الحاك طه والعقيد على حسين شرفى . ومثل فيها الاتهام المقدم مزمل سلمان غندور . استحوذت المحاكمة على اهتمام الناس كافة والعسكريين خاصة والحق أن جماعة الانقلابيين كانت تفتقد الى كل سند أو تأييد ، فصدرت الاحكام على النحو التالى .

الاعدام لكل من المقدم على حامد — والمقدم معاش يعقوب كبيدة — والرائــــد طيار الصادق محمد الحسن ، والرائد عبد البديع كرار والرائد عبد الحميد عبد الماجد.

السجن لمدد متفاوتة لكل من تبقى من عناصر الحركة الانقلابية مدنيين وعسكريين ومن بينهم الملازم أول عبد الله أفندى وعبد الله عبد الجبار ، كما قضت المحكمة على الأخوين الرشيد الطاهر بكر المحامى بالسجن لخمس سنوات وشقيقه النقيب معــاش عبد الله الطاهر بكر بالسجن أربعة عشر عاماً .

وقد تكشفت فيما بعد أسباب أخرى لفشل المخطط الانقلابى ، فقيل ان بعض مــن جرى الاتصال بهم للمشاركة فى تنفيذ الانقلاب افشوا أمره وساعة صفره للسلطة الحاكمة مما سهل عليها اجهاضه فى الوقت المناسب بغير عناء .

يقينى ان حقائق ذلك الانقلاب وملابساته وأهدافه ودواعى فشــله ماتزال قابعة فى صدور قادته والمشاركين فيه ، خاصة اولئك الذين صدرت بحقهــم احكــام جنائية ومعظمهم بين ظهرانينا على قيد الحيــاة ، ولكنهم يتدثرون بالصمت ويؤثرون

الكتمان ،، ناسين أو متناسين واجبهم الوطني في كشف الحقائق للتاريخ وايفاء كل ذى حق حقه وانصاف أولئك الصامتين قسراً تحت الثرى.

هكذا اسدل الستار على آخر المحاولات الانقلابية ضد نظام حكم الرئيس عبود وظننا كما ظن قادة النظام - انه لن يجرؤ ضابط على الانخراط والمشاركة فى عمل منظم ضد الدولة بعد ذلك الردع وتلك الاعدامات ، ولكن لدهشتنا لم تمر سوى أيام قلائل حتى تواترت الأخبار سراً تؤكد عقد اجتماع تنظيمى سرى بحامية الشجرة قيل انه ضم بعض اعضاء تنظيم الضباط الاحرار ممن لم ينكشف أمرهم بعد، كما ضم نخبة من الضباط الوطنيين ، وتحدد ذلك الاجتماع ليكون نقطه انطلاق لتنظيم جديد بنفس اسم تنظيم الضباط الأحرار ، مع اجراء تعديلات جذرية فى ضوابط العضوية والتخطيط والأهداف واسلوب العمل .

بلغنى بصفة شخصية خبر ذلك الاجتماع من صديقى أبو شيبه الذى تلقاه من لجنة حزبهم التنظيمية ، ويبدو ان أمر الإجتماع والتنظيم الذى تمخض عنه لم يعد سراً أو هكذا اراد له المجتمعون ، إذ صدر منشور سرى ينتقد توجهات النظام الحاكم ويتهدد قادته والموالين له من كبار الضباط ، ويعلن عن قيام تنظيم جديد باسم الضباط الاحرار .

جهد قادة النظام واجهزة استخباراتهم العسكرية والمدنية فى كشف هوية ذلك التنظيم الجديد فلم يبلغوا مأربهم وتضاربت افادات وتقارير أجهزة الدولة فلم توفق حتى فى تحديد مكان الإجتماع ، وزعم بعضها انه تم بمنزل أحد الضباط ، وادعى بعضها عقد الإجتماع باحد المكاتب !! وذهب آخر إلى القول بعقده فى منزل أحد المدنيين ، إلى غير ذلك من التخرصات والرجم بالغيب ، ولكن أجمعت كل التقارير على ان الإجتماع عقد بمنطقة الشجرة لا أكثر .

نشط أبو شيبة فى تتبع اخبار التنظيم والتنظيمات الأخرى مجنداً نفسه لخدمة الحزب فاهمل واجباته الدراسية وانصرف عن المذاكرة والتحصيل ، ولذلك جاء ترتيبه عند التخرج - فى آخر عقد الدفعة ، أما أنا فقد تركزت اهتماماتى وقدراتى كلها

في المقررات العسكرية ، النظرى منها والعملى ، واضعاً نصب عيني حلم الفوز بسيف النصر أو سيف أول الدفعة وهـو حلم وامنية تراود بقية الطلاب في ذلك السباق المحموم ، حتى إذا حان أوان الحصاد ، ظفر بالأمنية الطالب فيصل منصور شاور الذى أحرز قصب السبق إلى ذلك السيف وجاء ترتيبه الأول على دفعتنا ، وكانت الآمال تراودنا ونحن نؤدى التدريب على طوابير التخرج ، حيث درج بعض معلمى طابور البيادة على إصطفاء بعضنا ليتدرب على طابور السيف فيقع في روعنا من ذلك الأختيار أن المنتقى لهذا التدريب هو أول الدفعة لا محالة ، ثم لا يلبث أن يستبدله معلم البيادة بطالب آخـر ، وهذا بثالث وهكذا دواليك ، فيظـل السيف الحلم يدغدغ مشاعرنا حتى اليوم قبل الاخير للتخرج ، حين يتم الاعلان بصفة رسمية عن أول الدفعـه وأضرابه الفائزين بكؤوس الرماية والثقافة والأخلاق والانضباط العسكرى ، وخرجت صفر اليدين من كل ذلك ، رغم أن ترتيبى جاء متقدماً في عقد الدفعة .

جرت مراسيم حفل التخرج بدار الرياضة بأمدرمان ، وقد اكتظت الدار حتى ضاقـت على سعتها بافواج المشاهدين من أهل الطلاب وأقاربهم وأصدقائهم وعشاق هذه المناسبات وغيرهم من عابرى السبيل ، وضج المكان بصيحات الفرح وزغاريد النساء وأنغام الموسيقى ، ثم ارتفعت عقيرة أول الدفعة بنداءات الطابور ، وخرجنـا في نهاية ذلك العرض بعد أن أدينا قسـم الولاء كضباط عاملين بالقـوات المسلحة ، أقسمنا أن نتجرد لخدمة القوات المسـلحة براً وبحراً وجـواً ، وطاعة أوامر قادتنا والضباط الاعلى رتبة ، وأن ننفذ أوامر المجلس الأعلى للقوات المسلحة ، وان نوليـه كامل ولائنا .

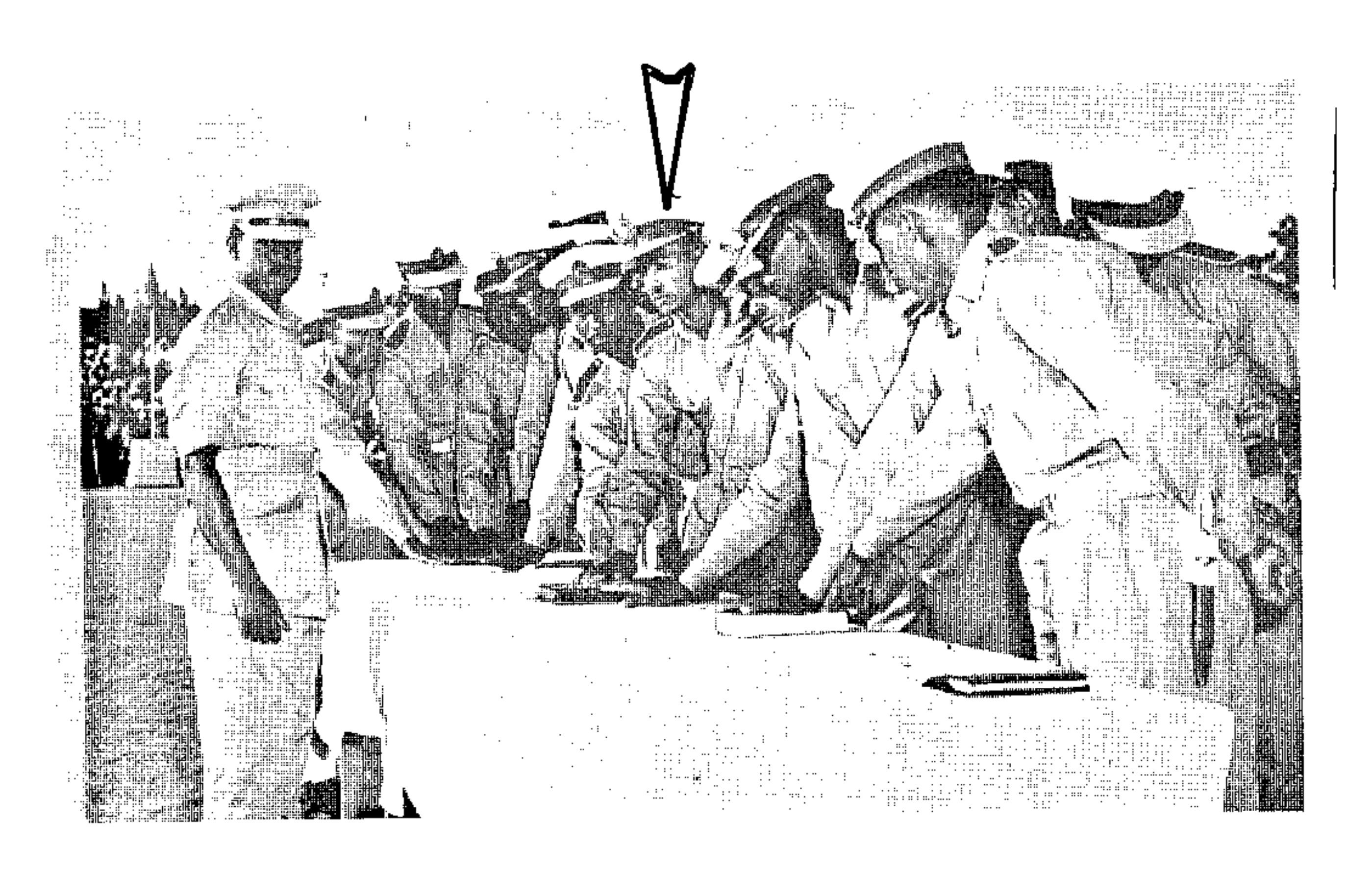
أجـزم أننا — برغم جدية الموقف — كنا نردد القسم كالببغـاوات ، ولا نفكر كثيراً في معنى الكلمات التي نرددها خلف الضابط الملقن وهو — يومئذ — الرائـد عبد الله محمد عثمان أحد المعلمين بالكلية .

خرجنا من دار الرياضة بأمدرمان في طابور سير تتقدمه الفرقة الموسيقية وهـى ترسل الحانها الحماسية الشجية ، بينما أحاطت بنا جموع غفيرة من المواطنين وتابعـت مسيرتنا حتى مباني الكلية الحـربية ، ثم تفرقت وتفرقنا مع نـداء : طابور قـف

إنصراف .

في المساء اقيم حفل التخرج الداهر أو ما تواضع العسكريون على تسميتـه باسـم (Band Night) وكـان بحـق عرسـاً لطـلاب الدفعة، لبسـنا له حلتـه (بدلة السهرة العسكرية) وتدثرنا بأكاليل غاره وسبحنا في بحار فرحته الغامرة حتى مطلع الفجر ، فجر حياتنا العملية . ثم انطلقنا نهار ذلك اليوم خفافاً كالاطياف نرتاد الأسواق والطرقات بزينا العسكرى الأثير وعلى كتفى كـل منا تلمع نجمة وضيئة كالانجم الزهراء .

جرى تقليد الكلية الحربية أن يمنح الطلبة المتخرجون عطلة تخرج مداها شهـر كامل ، حتى يتمكن ابناء الاقاليم منهم من زيارة ذويهم ونشر الفرحة بذلك الحـدث في ربوع البلاد ، كذلك ليجددوا طاقاتهم قبل الانتظام في سلك الجندية ضباطاً بقيادات ووحدات القوات المسلحة ، وقد تحددت مواقعنا من قبل في طابور التخرج وعرف كـل منـا ما تعارفنـا على تسـميته بالوحـدة الام (Mother unit) وهـى الوحدة التى يلتحق بها الضابط عند تخـرجه ، وكانت وحـدتي الام هى سـلاح المدفعية بمدينة عطبرة .



المؤلف يؤدى القسم عند تخرجه من الكلية الحربية السودانية .

* ١٧ *

توجهت إلى كسلا لأقضى اجازتى أو شطراً منها بين الأهل والحضرة والوجوه الطيبة ، وسرعان ما تقاطر أهلنا المنتشرون فى أقاليم السودان المختلفة على دارنا ليباركوا ذلك الظفر والنجاح ويحتفوا بمناسبة تخرجى ضابطاً يؤملون ان يصبح ذا شأن ومكانة فى قوات الشعب المسلحة ، فاقيم حفل كبير ذبحت فيه الذبائح ونصبت السرادقات المزدانة بالأضواء الملونة ، وتبادل الناس التهانى والامنيات بذلك الحدث الذى جمع شتاتهم بعد طول فراق ، وبدا الأمر اشبه بحفل عرس كبير دام لعدة أيام متوالية حفلت بالرقص والغناء والولائم ، ثم شقت الزغاريد عنان السماء على إثر ورود برقية من أبى فى مهجره يزف فيها التهنئة بالتخرج ويوصينى بالتزام المسلك الدينى والوطنى الحميد ، ويخطرنا باقتراب عودته للاهل والوطن . فأضفى ذلك على كرنفالات الفرح مزيداً من الرواء والبهجة والسعادة .

ثم غادرت كسلا عند نهاية العطلة متوجهاً إلى مدينة عطبرة أو عاصمة الحديد والنار كما يحلو لابنائها ان يسموها ، وذلك لأبدأ بها مرحلة من حياتى جديدة ، وظلت نفسى طوال رحلة القطار بوتقة تصطرع فيها مشاعر متباينة من الفرح والتوجس والاحجام والتحفز شأن كل مقدم على أمر ذى بال ، ومضى القطار يطوى بنا الأرض صوب غايتنا ونحن نطمع ان يزيد ! ! ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه ، فعلى حين غرة حدث أمر لم يكن فى الحسبان ، إذ توقف القطار فجأة قبل ثلاث محطات من عطبرة ، وراح فى سبات عميق ، فتملكنا الغضب والعجب من ذلك الصنيع ، ولكن بسؤالنا عن السبب بطل العجب وتضاعف الغضب ، حيث أفصح سائق القطار واعوانه عن ذات وجدهم وقالوا ان اضراباً شاملا لعمال السكة حديد كان مقرراً تنفيذه تلك الساعة ! ! وهم يأسون لما حدث ولكن لامفر من التوقف التزاماً بالقرار ، وان علينا ان نتذرع بالصبر ونقتات بفتات ماعندنا من زاد لثلاثة أيام حسوم هى الأمد المضروب لذلك الاضراب .

ذهل ركاب القطار وصعقوا للنبأ ، وساد فيهم هرج ومرج أشبه بالتظاهر ، فقد كان معظمهم من النساء والأطفال وهم لا يملكون زاد يومهم فى تلك المحطة الخاوية الخاوية الا من كثبان الرمل ولفح السموم ، وكان فى الساخطين ثلة من جنود وصف ضباط سلاح المدفعية ، فهرعوا إلى اذ رأونى بين الناس بالزى العسكرى اتلمظ من الغضب ، وتحلقوا من حولى وقد أخذ منهم السخط كل مأخذ ، وتقدم احدهم وهو برتبة الرقيب يسألنى الرأى فيما ينبغى عمله فى تلك الظروف ، فقلت

لهم فى حزم : انى لن اسمح بهذا العبث الذى يهدد حياة المئات مـــن الركاب وفيهم اطفـــال وشيوخ ومرضى ، ولن اتردد فى إصدار الأمر لطاقم القطار بمتابعة السير رغم الاضراب المعلن، وفى حالة الرفض من جانبهم فلا مناص من اســتخدام القوة معهم وهذا ماحــدث بالفعـــل ، إذ رفض هؤلاء تنفيذ أمرى لهم بمواصلة الرحلة فما كان منى الا ان أمرت أولئك الجنـــد بضربهم بالقاشات حتى يذعنـــوا للامر بالتحرك فارتفع صوت سائق القطار وقد تملكه الذعر والهلع :

ـ يازول أقيف أنا عندى مبادى سكرى ، دايرين تكتلونى واللا ايه ؟

أخذ الجنود يضيقون حلقة الحصار على السائق وأعوانه بعد ان خلعوا قاشاتهـــم وشرعوا يلوحون بها وعيونهم ملؤها الاصرار على تنفيذ الأمر ، فلم يملك سائق القطار إزاء ذلك الا أن صاح : يا ناس أقيفوا ، نحن بنوصل القطر لى عطبرة ، لكن بنحملكن مسئولية إرهابنا والتعدى على حقوقنا .

قلت في غير اكتراث :

ـ تحركوا وافعلوا بعد ذلك ما بدا لكم .

جرى ذلك على مشهد من الركاب ، وعند صعود طاقم القطار الى كابينة القيـــادة تعالت صيحات الفرح وزغاريد النســـاء وعبارات الاشـــادة بجند البلاد، ثم تدافـــع الناس وهم يعودون لاخذ مقاعدهم بالقطار من جديد ، واخذت انا مع ذلك الرقيـــب وقلة من الجنود موقعنا في عربة المنامة الملحقة بالقاطرة مباشرة تحسـباً لكل طارئ . ويبدو أن ناظر المحطة التي تحركنا منها قد ارسل الخبر بصور مهولة عبر جهاز التلغراف بحوزته الى كل نظار المحطات التالية والى رئاسة السكك الحديدية بعطبرة ، فقد ألفينا سيمافورات الدخول والخروج في تلك المحطات مفتوحة باستمرار ، فانساب القطار على القضبان بغير توقف حتى بلغ عطبرة .

وهناك على جانبي رصيف المحطة استقبلتنا جموع من العمال بمظاهرة صاخبـــة غاضبة ونحن نغادر القطار الى رئاسة القيادة ، حيث وجدنا لفيفاً من قادة العمل النقابي بالمدينة في انتظار مواجهتي بالحاكم العسكرى (العميد محمد المهدى حامد) الذى نقلوا إلية ما حدث مني بصورة مبالغ فيها ، وحين أطلعته على جلية الأمر والظروف الـــتى أملت علينا ذلك التصرف أخذ يضحك حتى اغرورقت عيناه بالدموع ، ثم خرج مـــن مكتبه حاسر الرأس والتقى بقادة العمال الثائرين وجهد في تهدئة خواطرهم واعـــــداً إياهم بالتحقيق في الأمر واتخاذ الاجراءات المناســـبة ، فانصرفوا ساخطين . ثم أقبـــل على يحذرني من تكرار ذلك الفعل ويسدى لى النصح بعدم التطرف والشطط في معالجة الأمور ، خاصة ما تعلق منها بالعمل العام والعمال .

أصبح ذلك الحدث مثار تندر بين رفاق السلاح في بداية حياتي العملية [illegible] وراحوا يتداولونه في سخرية لاذعة ، فقررت أن أصرفهم عنه باقبال [illegible]

وتجرأت أن أقود عربة عسكرية كانت تقف امام ميس الضباط دون إذن مسبق ، مخالفاً بذلك الأوامر المستديمة عن عمد واصرار !! فجرني ذلك الصنيع للمثول بين يدى قائد السلاح من جديد فلم أجد بداً من الصدق في مواجهة الموقف ، أفضيت له بحقيقة الدوافع التى حفزتنى لمخالفة الأوامر مكرهاً ، فما تمالك نفسه من الضحك وأمرني بالانصراف !!

وقع في روعى من ذلك أن الرجل قد أخذ عنى إنطباعاً لايزول بأني ضابط مشاغب يلذ له ركوب الاخطار واتيان المفارقات ، وعلى — والحال كذلك — أن أتحاشى الاصطدام به وبغيره من الناس ، فهاتان الحادثتان قد مرتا بسلام ولكن الثالثة واقعة كما يقولون .

اختير معى لسلاح المدفعية من ابناء دفعتنا تلك اربعة آخرون ، وهم عوض الباوله ومعتصم السراج وعبد الوهاب عبد الرؤوف واسحق محمد ابراهيم ، ولما كان سلاح المدفعية يتكون من شقين هما مدفعية الميدان والمدفعية المضادة لطائرات أو ما يعرف بالدفاع الجوى حالياً ، فقد توزعنا معتصم وعوض واسحق لمدفعية الميدان وعبد الوهاب وشخصى للمضادة وكانت المدفعية المضادة للطائرات نفسها مؤلفة من بطاريتين ، البطارية عشرين ومقرها مدينة عطبرة والبطارية تسع عشرة ومقرها بورتسودان ، وقد تم نقلى لهذه الاخيرة بينما بقى عبد الوهاب فى عطبرة .

أرجىء تنفيذ النقل ريثما يتم تدريبنا فى فرقة قادة فصائل مدفعية مضادة لمدة ثلاثة أشهر ، وظللت حتى ذلك الموعد ملحوقاً بالبطارية عشرين ، كان قد سبقنا إلى سلاح المدفعية من الطلبة القدامى الملازم عباس عبد العال والملازم فؤاد أحمد صالح والملازم فوزى أحمد الفاضل ، فعمل الأول بمدفعية الميدان والثانى والثالث بالمضادة وقد ارتقى الاخير فى قابل الايام سلم المجد العسكرى حتى تولى قيادة الجيش برتبة فريق أول قائداً عاماً .

عند الحاقى بالبطارية عشرين كان فوزى اركان حرب عمليات فى تلك البطارية وإلى جانبه الملازم أول حسن الارباب اركانحرب إدارة والنقيب أمين على حسنى قائد ثانى للبطارية ، فيماتولى قيادتها الرائد صلاح الدين محمد سعيد . وباستثناء الأخ فوزى

الذى توثقت به صلتى من خلال الزمالة بالكلية الحربية ، كان الآخرون جميعاً على اعتقاد راسخ لا تدحضه البراهين بانى ضابط مشاكس غريب الاطوار ، يجب عجم عوده وكسر شوكته بكل سبيل ، وقد حاول فوزى جهده ان يعكس لهم صورة مغايرة لما انطبع فى نفوسهم نحوى ، ولعلهم ضحكوا كثيراً حين وصفنى لهم بطيبة القلب والعفوية والبساطة ! ! فقبل ان يثمر جهده ويؤتى اكله جرت هذه الواقعة لتعصف بكل شيء ، ففى أحد الأيام ونحن جلوس بمكتب الملازم حسن ، تركت نفسى على سجيتها فى معرض حديث ذى شجون ، وافضيت لهم بملحة مفادها ان والد النقيب أمين على حسنى — وهو رجل ابيض البشرة كابنه أو يزيد — كان يعمل ناظراً لمدرسة رفاعة الأولية ، وقد درج عامة أهل السودان على تسمية أمثاله بالحلب منذ عهد التمايز القبلى بينهم ، كما يسمون سود البشرة يومئذ بالعبيد ، فكان كلا البيض والسود ساخطاً على تلك التسمية منكراً لها ، وحدث ان طرد والد النقيب أو ناظر المدرسة أحد تلاميذه بدعوى انه بليد غبى لا يرجى تعليمه ، فجاءه والد ذلك التلميذ الشيخ أبو سن مغضباً يتبعه ابنه ، وقال للناظر :

— ياود حسنى ، أهلك علموا القرود ، أنت ماقادر تعلم ولدى .؟!

وضحك جميع من بالمجلس للطرفة العارضة ، ولكن الملازم حسن كانت ضحكته مفتعلة اولم يلبث حتى نقل الرواية بحذافيرها وحواشيها للنقيب أمين الذى استشاط غضباً وثبتت عنده قناعته بانى مشاغب لا أرعوى .

أما قائد البطارية الرائد صلاح الدين فلم يسلم هو الآخر من عفويتى ، إذ كانت العربة التى تجرأت على قيادتها بغير اذن مسبق هى عربته المخصصة ! ! وجرت ثالثة الاثافى مع الملازم حسن الذى كان يشرف على احدى حصص التدريب ، ففى أول أيام الفترة التدريبية كنا نتدرب على استخدام المدفع المضاد للطائرات وهو مدفع قديم شارك فى معارك الحرب العالمية الثانية ، وهو ما تعارفنا على تسميته بالسلاح Obslete واجزم غير حانث انه مدفع تم تصميمه واختراعه فى عهد لم تعرف فيه الاجواء طائرات الجت النفاثة ، فاستفاض الصف ضابط المعلم فى شرح مزايا ذلك المدفع ووظائف اجزائه إلى غير ذلك من اغراض التدريب ، ثم سألنا عند نهاية المطاف :

واضح ؟! في واحد عنده سؤال ؟ أو أى استفسار ؟ وكنت انتظر السانحة يؤرقنى الفكر منذ الوهلة الأولى لرؤيتى لذلك المدفع العتيق ، فرفعت سبابتى أطلب السؤال بالحاح ، وفور الاذن بذلك قلت وانا اشير باستخفاف لذلك المدفع :

— هل تعتقد ان هذا المدفع قادر على اصابة طائرة ؟! . فوجم الصف ضابط المعلم ومن خلفه الملازم حسن الذى جحظت عيناه انكاراً للسؤال ،وسألنى ليزداد كيل عجب ودهشة :

— تقصد شنو ؟!

قلت عفو الخاطر :

— أقسم ان هذا المدفع صنع فى عهد (زيلين) فأنى له القدرة على التعامل مع الطائرات السوبر سونيك ؟!

فغر الملازم فاه كمن يشك فى حدوث الحدث ، ثم افعمنى باجابة عنجهية مشبعة بالسخرية :

— الطائرات الحديثة البتقولها دى لو صادفها صقر برميها ، كتير على الله ترميها طلقة من مدفعنا ده ؟!

قلت له :

— مافى شيء كتير على الله يا افندم وعلى قول الشاعر :—

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
تمته ، ومن تخطىء يعمر فيهرم

نظر الملازم إلى ملياً ، وقال فى نبرة لاتخلو من وعيد:

— الشعر الجميل ده، انا عاوزك تسمعه لى قائد البطارية !! إنتباه — معتدن مارش.

فما هى إلا دقائق معدودات حتى كنت أمام الرائد صلاح الدين بمكتبه ، وقد اختصر الاجراءات بتوقيع جزاء خدمة زيادة . وهكذا امسيت بمثابة (الولد الشقى) بين اقرانى من الضباط ولكن ذلك لم يدم طويلا ، حيث بذلت قصارى جهدى لامحو ذلك الانطباع فى نفوسهم ، فسادت الالفة وحدث التفاهم والانسجام ، واضحت مواقفى السابقة نوادر وقفشات تروى للتندر والاضحاك ليس غير . وتجسد هذا جلياً قبيل رحيلى عنهم إلى بورتسودان للعمل بالبطارية (١٩) والواقع ان أيامى معهم لم تكن

بلقعاً أو خواء ، خاصة أولئك الذين نعرفهم باسم الانداد ، فقد عشنا حياتنا طولا وعرضاً ، وكأننا فى سباق محموم مع الزمن ، وكان ثمة شباب وفراغ وجدة محدودة

عرفنا عاصمة الحديد والنار شبراً شبراً ، اختلطنا باهلها الشرفاء الطيبين وقبسنا من اصالتهم ، عرفنا الغرباء الوافدين وحتى عابرى السبيل ، ولم نكن ملائكة ولا شياطين ولهذا كان لسان حالى وانا اغادر المدينة يردد قول المتنبى :

يامن يعز علينا ان نفارقهم

وجداننا كل شيء بعدكم عدم

بيد ان هذا الوجدان سرعان ما أنفتح على مصراعيه لمؤثرات الحياة فى مقرى الجديد (بورتسودان) عروس البحر الأحمر أو لعوب البحر الأحمر كما يحلو للبعض ان يسميها ، حيث يتطابق المظهر وسمات الحياة وحركة النقل والنشاط الاقتصادى فيها مع امثالها من موانىء البحار مع اختلاف الحجم والهوية والسكان ، وهى على شاكلة مثيلاتها فى كل ماعدا ذلك ، حتى معاطن اللهو ومذابح الفضيلة التى يرتادها البحارة المحرومون !! يبحثون فيها عن هياكل بشرية تمنح اللذة وتقبض الثمن وهم يتمثلون بالقول (on the storm any port will do)

اخذت موقعى بين الضباط فى البطارية (١٩) لابدأ حياتى العملية ، فألفيت المقدم حسن محمد على قائداً للبطارية وفى ذات الوقت حاكماً عسكرياً لمنطقة البحر الأحمر ، وعملت معه كأركانحرب (مديراً لمكتب الحاكم العسكرى) فضلا عن قيادتى لاحدى فصائل البطارية ، بينما تولى قيادة الفصائل الأخرى ضباط من الصف ريثما يعود قادتها من فترة تدريبية بالسويد ، أما منصب قائد ثانى البطارية فقد كان من نصيب النقيب ابراهيم الأمين ، يعاونه كأركانحرب إدارة النقيب ميرغنى أبو الحسن ، وسرعان ما عاد الملازمان فؤاد أحمد صالح وصلاح فرج من السويد وانتظما فى سلك قادة الفصائل وضباط البطارية .

استقر بنا المقام وغرقنا فى لجة العمل اليومى المتصل وائتلف شمل الضباط فى ثكناتهم ومساكنهم بمنطقة الترانزيت على شاطىء البحر الأحمر ، كانت تجربة عملى كأركانحرب لمكتب الحاكم العسكرى للمنطقة مثيرة بحق ، حيث تمركزت فى يد الحاكم

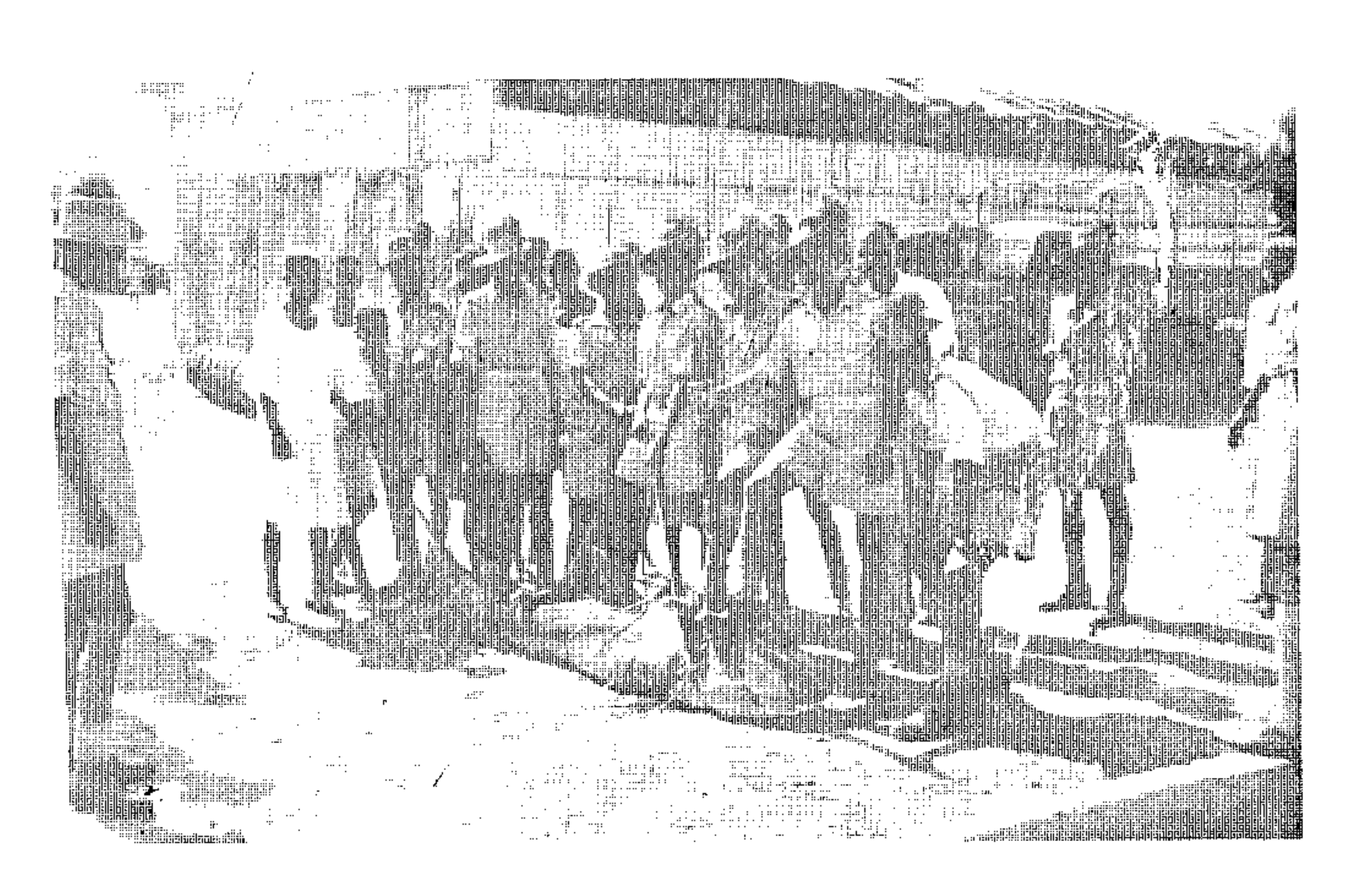
كل سلطات الحكم والإدارة والتنفيذ. وكان لكثرة اعبائه وجسامتها يكافنى بتصريف بعض المهام الهامة فكنت أجد فى ذلك متعة لاتعدلها متعة ، وأنا أتمثل بالحاكم فى مسلكه وتجرده الوطنى الخالص فى تصريف شئون الحكم والدولة .

لم يكن الفســاد والمفاسد قد تسربت إلى النفوس ودواوين الدولة بعد، او على الأقل كانت أمراً نادر الحدوث معيباً ،وكان أكثر الناس على طهارة الفطرة ونقاء الطوية وشيء من عفة وخلق ودين، كنا نقتات الفتات والكفاف ،وأقلامنا توقع على عقود وعطاءات بملايين الجنيهات ، والجنيه — يومئذ — قدرة شرائية هائلة ، وقــد صيغت قوانين العمل والمعاملات من وحى تلك الطهارة الغالبة، ثقة بأولى الأمر فى كل المواقع ، فكان الحاكم العسكرى — مثلا — غير مقيد بقبول أعلى أو ادنى عطاء ! ! وذلك لعمرى مدخل واســع للفساد حين يتراجع الخلق وتكثر الضغوط والمغريات ! !

مضينا على سجيتنا فما عرفنا غير التجرد لمصلحة الوطن والمواطنين ،وتناوب منصب الحاكم العسكرى كثيرون مثل مصطفى عثمان الشهير بمصطفى جيش، ثم حسن محمد على ثم صلاح الدين محمد سعيد ثم صديق الزيبق ، ثم تولاه قادة سلاح البحرية آخر الأمر. واجزم ان كوكبة الحكام كلها كانت فى تجردها ومسلكها مثالا للعفة والوطنية والتجرد لارجماً بالغيب أو اطلاقاً للحديث على عواهنه، ولكن قناعة باقيــة ترسخت بفعــل المعايشة الحميمة عبر الأيام . حتى ليحق لأبناء عصر الفســاد هذا ان يصفوهم بما شاءوا من الصفات على عفافهم وترفعهم عن الدنايا كالرشوة واستغلال النفوذ واهتبال الفرص المواتية ، وهم على حال من الفقر وعيش الكفاف ! ! يحق لمــن يأخذ بمعايير جيل اليوم ان يصفهم بالغباء والبلادة على ما فرط منهم فى حق انفسهم وأهليهم وكانوا على الثراء قادرين ! ! ولكن لا أحسب ان مجد الدنيا كلها ولذات الحــياة جميعــاً تحقق لهم ذلك القدر من السعادة التى تجرعوها بكؤوس التجرد والحرمان .

ثم نقلت — بعدئذ — من مكتب الحاكم العسكرى متفرغاً للعمل بالبطارية كأركانحرب عمليــات ، ولكــنى لم اشــهد من العمليات الا ما تلقيته من التدريب وحجــرات الدراسة ، والعملية المسلحة الوحيدة التى قمت بها هى القضاء على سمك قرش افــترس أحد البحــارة وروع الناس والســفن الصغــيرة بمنطقة الميناء ، فانتدبت بوصفــى

مسئولا عن العمليات لاصطياده وتخليص الناس مــن شره ، استغرق انجاز تلك المهمة يوماً كاملا وتمكنت عند ظهيرته من القضاء على ثلاثة من أسماك القرش . ولم تكن المهمة ســهلة فى مواجهة ذلك الحيــوان الشرس العنيد ولكنى أفلحت في مصاولته والايقاع به، فهدأ روع البحارة وعاد للميناء أمنها وسلامها وحركة العمل فيها .



المؤلف يضع رجله على سمكة القرش بعد اصطياده

إبان عملي كأركانحرب كنت أتولى مهمة إستلام الاشارات العادية والسرية عـلى اختلاف درجاتها ، وأقوم بفك رموزها ، كما انيطت بى مهمة تلقى تقارير الموقف السياسي والعسـكرى، وتنوير ضباط وصف وجنود البطارية بمحتوياتها ومراميها . كانت التقارير ترد تباعاً بغير انقطاع ، وقد حمل واحد منها - في تلك الحقبة - نبـأ يفيد انضمام جبهة الميثاق الاسلامى بقيادة الدكتور حسن الترابي للجبهة الوطنية بزعامة الامام الصديق المهدى ، كان هدف الجبهة إنهاء الوضع العسـكرى وسلطته في البلاد واستعادة نظام الحكم الديمقراطي الليبرالى مرة أخرى . ولتحقيق هذا الهدف عملت الجبهة الوطنية ودأبت على استنفار كل قطاعات الشعب ومنظماته الفئوية ضد نظـام الحكم العسـكرى القائم،وظلت ترسـل المذكـرة تلو الاخـرى بتوقيـع الامام الصديق مطالبة بعودة الديمقراطية أو مندرة بمسلك وزراء الدولة أو منتقدة لقـرار سياسى !!

وفي الجانب الآخر ، سعى نظام حكم الرئيس عبود لاستقطاب جماهير الشعـب وتنظيماته المختلفة في مواجهة حركة المعارضة التى تقودها الجبهة الوطنية ، فنجـح في استمالة بعض زعماء العشائر وافراد من كوادر الحزب الشيوعى من طبقة العمال ، كما استقطبت تماماً قيادة حزب الشعب الديمقراطى وجماهيره من الختمية وغيرهم ، وقد جـرى ذلك في ظل حظـر التنظيمات الحزبية المعلن منذ بداية حكم النظام في ١٧ نوفمبر ١٩٥٨م وعملا بموجبـات ذلك الحظر فقـد قامت زعامة حزب الشعب الديمقراطى وقادته وقاعدته بارسال مذكرة تأييد لنظام الحكم العسكرى بأسم (كرام المواطنين)

في مواجهة ذلك، اغتنم قادة الجبهة الوطنية محاكمة شاب شيوعى في مدينة الأبيض وإدانته واعتقال وكيـل دفاعه واشاعة تعذيبهما معاً، وعقدوا اجتماعاً لهم بمنـزل

الامام الصديق المهدى زعيم الجبهــة في شهر يوليو ١٩٦١م شارك فيه رؤساء الحكومات الوطنية السابقة ، الرئيس إسماعيل الازهرى والرئيس عبد الله خليل ، وضم اليهما عدد من كبار الساسة مثل الامير عبد الله عبد الرحمن نقد الله والسادة محمد أحمــد محجوب وعبد الله ميرغنى وامين التوم ومبارك زروق ومحمد أحمد المرضى وإبراهيم جبريل وعبد الخالق محجوب واحمد سليمان وميرغنى حمزه وآخرين .

استعرض المجتمعون الموقف السياسى فى البلاد ، واعدوا مذكرة شرسة إلى رئيس واعضاء المجلس الأعلى احتجــوا فيها على وحشية النظام الحاكم ، وطالبوا من جديد بعــودة العســكريين إلى ثكناتهم وعــودة الحياة الديمقراطية ، وارسلوا المذكرة إلى الحكومــة .

استنكر اعضاء المجلس الأعلى ذلك الصنيع ونددوا بمــن تولى كبره ، واصدروا قراراً بحرمان رؤساء الوزارة السابقين — ازهرى وعبد الله خليل — من المعاش الذى كانا يتقاضيانه حتى ذلك الحين وقدره مائة جنيه كل شهــر !! كما صدر عنهم بعد ذلك قرار باعتقال من ظنوا انهم المحركون الأساسيون لنشــاط الجبهة المضادة وهم السادة: اسماعيل الأزهرى وعبد الله خليل ومحمد أحمد محجوب والامير نقد الله وعبد الخالق محجوب وأحمد سليمان ومبارك زروق وعبد الرحــمن شاخور وعــبد الله ميرغنى وابراهيم جبريل ومحمد أحمد المرضى. وقد جرى اعتقالهم ليلا وتم ارسالهم على طائرة إلى جوبا حيث حجزوا بميس الضباط بمقــر الحامية ، أما الامام الصديق المهدى فقــد صرف النظر عن اعتقاله مراعاة لحالته الصحية ، إذ افادت استخبارات السلطة بأنه كان يشكو مــن مرض القلب وان الاعتقال يشكل خطراً على حياته ، وذلك إلى جــانب مكانته الدينية وزعامته لطائفة الانصار التى قد لاتسكت على أمر اعتقاله إذا تم !!

كذلك جاء فى تقرير الموقف السياسى ان الرئيس عبود قــد أوصى قائد القيادة الجنوبية — اللواء الطاهر المقبول ، ومحافظ الاستوائية السيد على بلدو باحسان معاملــة المعتقلين وتهيئة كل أسباب الراحة لهم !! ولكن لم يمض الا يومان فقط على العمل بتلك التوجيهات حتى تجرأ بعضهم أثناء تواجدهم بميدان التنس بإساءة شخصية الرئيس عبود باقذع الالفاظ كما اساءوا اعضاء المجلس الأعلى ، فنقل ذلك ضابط الاستخبارات المختص إلى الخرطوم ، فتقرر الرد على الاساءة بسحب خصوصية المعاملة لهم جميعاً !!

كان لاعتقال قادة الجبهة الوطنية هؤلاء اثره البالغ فى انحسار نشاط الجبهة حتى ظن اساطين النظام الحاكم انهم قادرون على استغلال هذا النجاح النسبى فى الضغط على زعامة الانصار وقاعدتهم وقهرهم ، وقد حدث بالفعل ان تحرش بعض رجال الشرطة بشباب الانصار داخل سرادقهم بساحة المولد النبوى الشريف ، فما كان من هؤلاء الشباب الا ان تصدوا للمتحرشين ودخلوا معهم فى اشتباك مسلح راح ضحيته العشرات من الجانبين بين قتيل وجريح !!

ثم جرى تشييع القتلى من رجال الشرطة فى موكب رسمى مهيب ، كما تم تشييع قتلى شباب الانصار فى موكب وطنى حاشد حزين قاده الامام الصديق المهدى ونفر من قادة الانصار ،وتحولت المناسبة سريعاً إلى عمل عدائى صريح للنظام الحاكم ورددت الجماهير الهتاف بسقوط النظام ونادت بالقصاص من قادته ثأراً للشهداء.

تطور الشعور بالعداء – إثر ذلك الحادث – تطوراً لم يكن فى حسبان السلطة الحاكمة ، حتى كاد يفضى إلى ثورة شعبية عارمة ، ولكن تدخلت ايادى القدر لتكتب للنظام مزيداً من البقاء على سدة الحكم ، إذ فجعت البلاد بوفاة الإمام الثائر الصديق المهدى وما يزال رفاق نضاله رهن الاعتقال بجوبا ، وتم تشييع الإمام فى موكب وطنى عظيم ، فانضم إلى جموع المشيعين العسكريون وحملوا الزعيم الراحل على الاعناق إلى مثواه الاخير حيث وورى الثرى إلى جانب ابيه الإمام عبد الرحمن وجده الإمام البطل محمد أحمد المهدى فى ضريحه بأمدرمان ، فبكته البلاد من أقصاها إلى ادناها وفقدت برحيله علماً من أعلام الفكر والدين والوطنية ولم يملك قادة نظام الحكم الا الاشادة بمآثره وشمائله ، وانطوت بوفاة الإمام الصديق المهدى صفحة مشرقة فى تاريخ البطولة الفذة ، وبقيت ذكراه تلهم الاجيال .

أخذت الاحوال الصحية لقادة الجبهة الوطنية بجوبا تتدهور باطراد ، حيث عانى السيد أحمد سليمان من انفجار قرحة فى معدته فاسعف بمستشفى المدينة ثم نقل إلى الخرطوم ، ثم نقل السيد ابراهيم جبريل اثر علة مباغتة وظل يتلقى العلاج داخل سجن كوبر ، وجاء إلى الخرطوم على اثرهما السيد أمين التوم لظروف صحية طارئة ، كما تعرض بقية المعتقلين لحمى الملاريا وبعض الامراض النفسية فاعلنوا الاضراب عن

الطعام ! ! ازاء ذلك قرر المجلس الأعلى اطلاق سراحهم واعادتهم إلى الخرطوم تحت حراسة مشددة وسرية تامة ، فانصرفوا إلى منازلهم واهليهـــم ، ثم عادوا يباشرون نضالهم وجهادهم الوطنى المثابر الدؤوب ، لايثنيهم وعد ولا وعيد .

تمخض عن رحيل الامام الصـــديق خـــلاف حاد بين آل المهدى كما ورد إلينا فى التقارير ، فقد قيل ان السيد الصادق الصديق المهدى واخـــرين قد أدلـــوا لجماهير الانصار بمعلومة مفادها ان والده الإمام الراحل قد أوصى به اماماً للانصار من بعده ، ولكن بعض شيوخ الانصــــار وكبرائهم وعلى رأسهم السيد ، عبد الله الفاضل ، رأوا إسناد منصب الامامة إلى عمه السيد الهادى المهـــدى لورعه وكبر سنه آنذاك ، وفـــى محاولة للتوفيق ورأب الصـــدع فى زعامة الانصار ، رأوا ان تسند مهام القيادة السياسية للسيد الصادق المهدى ، والزعامة الدينية ولقب الامامة لعمه الهادى المهدى ، وهـــذا ما كان ! !

من جهة أخرى ، تنبأ قادة النظام الحاكم ومنظروه بنشـــوب خلاف جسيم بين الرجلين فى قابل الايام ، إذ ان النظام الاسلامى لايفرق بين السلطتين الدينية والدنيوية كما حدث على عهد النبى صلى الله عليه وســـلم وخلفائه الراشدين ، وهذا ما قد يدعو الإمام الهادى يوماً لتجاوز دائرة الزعامة الدينية ومباشرة اعباء القيادة السياسية والحياتية وهنا يشجر الخلاف ! ! ويتفجر الصراع ضربة لازب ، ويؤدى ذلك بدوره إلى نتيجة حتمية لامفر منها ، وهى اضعاف بيت المهدى وانقسام اشياعه من الانصار ، كمـــا ينسحب الامر على حزب الأمة ومركزه السياسى ضعفاً وتمزقاً .

من معالم تلك الفترة من حياتى العملية زيارة الرئيس المصرى جمال عبد الناصر لنا فى مدينة بورتسودان وبرفقته معالى اللواء حسن بشير نصر وبعض القادة العسكريين والسياسيين ، فاسندت لى مهمة قيادة حرس الاستقبال لضيف البلاد الكبير ووداعـــه ، ورغم ان الزيارة لم تدم سوى ســـاعات قلائل ، فقـــد بقى اثرها فى النفوس ولم تمح ذكراها السنين .

كان الرئيس عبد الناصر فى نظر الرفاق شخصية اسطورية باهرة ، فقد استطاع ـــ على

مدى عشر سنوات منذ ان فجر ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م وحتى موعد زيارته تلك - ان يحرر مصر مـن النفوذ الاجنبي وحكم اسرة محمد على وسدنتها مـن الباشوات ورجال الاقطاع ، ليعيدها بعد مئات السنين إلى سابق مجدها في نقلة حضارية هائلة وانجازات عصرية باقية ، حيث اعاد الأرض إلى اصحابها الفلاحين ، وحرر الصناعة المصرية من هيمنة الراسمالية المتخمة لتكون تحت قبضة العمال الوطنين باعتبارهـم شركاء لا أجراء ، فلما استقرت أوضاع مصر الداخلية والتف من حوله ابناؤها تطلع لتحرير الأرض العربية من المحيط إلى الخليج ، وخاصة فلسطين ذلك الوطن الجريح السليب ، كما ناوأ الاحلاف المشبوهة والانظمة الرجعية العتيقة في بلاد العرب ، ومن ثم تألقت شخصيته وبزغ نجمه ساطعاً في الوطن العربي ،وعرف على امتداد ساحته على المستوى الداخلي والعالمي صراعات الساسة المتمثلة في الانتصـار والهزيمة ، والتأييد والمعارضة ، وظل على كل حال كالجبل الراسخ لاتهزه الرياح ولاتزعزعه المؤامرات والعواصف ، وهـو أحد بناة القـوة العالمية الثالثة ورافـع شعار عدم الانحياز في مؤتمـر باندونق عام ١٩٥٥م ، بل هو الذى دك هيبة الثالوث الاستعمارى (فرنسا وبريطانيا واسرائيل) في ملاحم السويس وبورسعيد الخالدة ، وشاد على انقاضهـا صروح المجد والكرامة المصرية ، وها هـو يعمل على بناء السد العالى ، ويعيد صياغة الحياة في بلاده ، ويرفع قدر انسانها بعد عصـور من الذل والعبودية وقهر الطغـاة وهو الذى .. والذى .. والذى لاتحصى مآثره ومنجزاته .

هكذا كان يعيش عبد الناصر في افئدة أهل السودان ووجدان رفاق السـلاح ، ولكنه عندى أنا الذى شهدت حريق ثورته وعشـت في ظلالها وعركت احداثهـا المأساوية سنوات عديدة ، وخبرت بعضها كطرف مشارك يوم تم اعتقالى في زمرة من المتطلعين إلى حكم الاسلام في مصر ، فذرا عبد الناصر ورفاقه تلك التطلعات واصحابها بدداً بكل عنف الثورة وعنفوانها ولعل ذلك ما جعلنى اتأمله خلال زيارته القصيرة لنا في بورتسودان بعين السخط مرة ، وعين الرضا أخرى ولكنى بقيت حفيظاً على الأمانة في كل حال .

اذكر انى ذات يوم دخلت في حوار موضوعى مع أحد غلاة المتطرفين لناصر والناصرية من ابناء اليمن ؛

وقلت لمحاورى عن نظام ناصر السياسى :

ـ انه نظام دكتاتورى قهرى، شاده على انقاض احزاب ديمقراطية كانت قدوة ومثالا يحتذى فى الوطن العربى، لولا ان قعدت بها القيود الملكية والهيمنة الاستعمارية، وان كان لعبد الناصر وثورته من فضل فهو لايعدو هدم صروح الملكية ولكنه بهدمه للاحزاب العريقة والنظام الديمقراطى اضحى كالمنبت، لا ارضاً قطع ولا ظهراً ابقى ! !

وعن دعوته للثورة العربية قلت :

ـ احسب ان ذلك من قبيل التدخل فى الشئون الداخلية للآخرين ناسياً أو متناسياً واقع حال شعوب اليوم . فقد انتهت عهود الوصاية وبلغت الشعوب رشدها .

وقلت عن حربه لما أسماه بالاستعمار الأوربى :

ـ ان ذلك قطع لموصول الصلات والمنافع الحضارية الأوربية .

وعن شخصه كزعيم ثائر تساءلت :

ـ اين يقف عبد الناصر من الشيخ محمد عبده ، وعرابى ومصطفى كامل، ومحمد فريد، وسعد زغلول، وغيرهم وغيرهم ؟

ثم تساءلت أخيراً :

ـ لو لم يكن عبد الناصر مصرياً افاد من حضارة مصر ومواريث أهلها فى العصور الخوالى ، ووجد اعلاماً قوياً ذائع الصيت عظيم التأثير ، هل كان يبلغ مابلغ من مكانة وشهرة فى الوطن العربى والعالم ؟!

ولم يجب محاورى على السؤال الايحائى أو غيره مما طرحته عليه آنفاً ، ولكنه بدافع من الولاء العقيم والتطرف الاعمى عمد إلى ساعديه واستبدل قراع الرأى بعراك الأيدى فى محاولة رعناء للدفاع عن شخص عبد الناصر العربى الحر ، ثم عول على اتهامى بالخيانة والرجعية والعمالة للاستعمار ، حتى تدخل البعض لفض ذلك الاشتباك غير الحضارى المشين ، وكان بين شهود المعركة الفكرية والعراك البربرى ، اخوة من ابناء اليمن الشقيق مقيمين ببورتسودان حيث يعملون بالتجارة ، فاتصلت بينهم وبين موطنهم أسباب الولاء وعلائق الانتماء، على اختلاف بينهم فى وجهات النظر واتجاهات السياسة والميول ، كان أحدهم من فئة الجمهوريين الذين يساندهم عبد الناصر والآخر من فئة الملكيين الذين يؤازرهم عاهل السعودية ،

فانبرى أحدهما لمساندتى فى الرأى مؤكداً ماذهبت إليه من تدخل عبد الناصر ودولته فى الشئون الداخلية لاخوته العرب تحت مظلة من شعارات التحرير والثورة والقومية العربية الخ، وتابع الثانى خصمى ذلك السياسى الشرس محاولا ان يبرر تعديه الآثم، ولم يقف الأمر بين الاخوين اليمنيين عند حد خلاف الرأى الذى لايفسد للود قضية كما يقولون، إذ سرعان ما انتقلت إليهما عدوى العراك وجرثومة البربرية، فامسك أحدهما بقميص الآخر وشقه نصفين وفعل الآخر مثله، ثم احتدمت المعركة بينهما وحاق طائر الشر فوق الرؤوس، ولولا تدخلنا لمزق أحدهما جسد الآخر إرباً، وهكذا ينتقل اثر العداء لعبد الناصر من الشعوب والدول والحكومات إلى الجماعات والأفراد.

نشأت بينى وبين ذلك الشقيق اليمنى صداقة حميمة، فكنا نجلس الساعات الطوال نتجاذب الحديث فى شئون السياسة والتجارة وغيرها، ودهشت كثيراً لما يرويه عن تاريخ بلاده المعاصر، فدفعنى ذلك إلى تحرى صدق روايته فى المصادر الموثوقة، فاذا هى لاتختلف الا فى اسلوب العرض العلمى ودقة التفاصيل.

ادركت ان سياسة العزلة التى فرضها الامام يحى بن محمد حميد الدين – الذى حكم اليمن منذ ١٩٠٤م حتى تم اغتياله عام ١٩٤٨م – كانت من أهم العوامل التى أدت إلى المشكلة اليمنية مؤخراً، فقد كان الإمام يحيى الحاكم المطلق والزعيم الروحى والقاضى الأعلى فى البلاد، ودفع طغيانه وتسلطه طائفة كبيرة من اليمنيين المتضررين من اسلوب حكمه واستبداده إلى الهجرة، فاتجه بعضهم إلى مصر وآخرون إلى عدن، وشكل هؤلاء المهاجرون نواة المعارضة لحكم الإمام، فلما اغتيل نصب ابنه أحمد اماماً خلفاً له وكان أحمد أشد طغياناً وتطرفاً من ابيه، فسار على سياسته فى ضرب العزلة على اليمن، ولكنه أضطر – فى مواجهة التيارات السياسية المناوئة – إلى التقرب من جيرانه، ثم وجد فى ميثاق الدفاع العربى المشترك الذى دعت إليه مصر درعاً واقياً من خطر حلف بغداد فانضم إلى دول الميثاق، ثم عرض رغبته فى الانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة التى تألفت بين مصر وسوريا، ووقع على ميثاقها فى مارس ١٩٥٨م، ولكن الامام أحمد احتفظ لنفسه بحق الاعتراض على القرارات التى تؤثر فى واقع بلده اليمن.

كان انضمام اليمن إلى الجمهورية العربية المتحدة مثار دهشة دعاة التحرير والثورة فى العالم العربى ، فكلمة جمهورية تختلف من حيث الشكل والاطار مع حقيقة النظام اليمنى كسلطة رجعية ، وتتعارض مع النظامين المصرى والسورى التحريريين الثوريين من حيث المضمون ، كما تمثل فى أفهام هؤلاء تناقضاً واضحاً فى أهداف الدولة العربية الموحدة ! ! ولكن تبين لهم آخر الأمر ان عبد الناصر كان يؤمن بنظرية تقول : ان التخلص من الانظمة الرجعية التى تدور فى فلكه أسهل كثيراً من تلك التى لا تربطه بها رابطة أو تناصبه العداء ! !

فى ظل الدولة الفدرالية التى تضم مصر وسوريا واليمن ، نشأ تقارب واضح بين ولى عهد اليمن محمد البدر والرئيس عبد الناصر ، أما الامام أحمد الذى تقدمت به السن فقد بدأت تساوره الشكوك والمخاوف من خطر الاتحاد ! !

ثم توفى الامام أحمد ، وخلفه ولى العهد عام ١٩٦٢م فوصف الإمام الجديد (محمد البدر) نفسه بقوله :

— بانه عصرى ، صديق ناصر ، وتجمعه علاقات ودية بروسيا وجمهورية الصين الشعبية والولايات المتحدة الامريكية عملا بمبدأ الحياد الايجابى ! !

لم يبق الامام محمد البدر فى السلطة الا ثمانية عشر يوماً فقط حتى اطاح به انقلاب عسكرى ختم صفحة حكم الأئمة المتجبرين فى اليمن — وكان قائد الحركة الانقلابية هو اللواء عبد الله السلال رئيس الأركان ، الذى امطرت دباباته وسياراته المدرعة قصر الإمام بالقذائف والقنابل فتهدم أكثره ، أما الإمام محمد فقد لاذ بالفرار فى عدد من مؤيديه ولجأ إلى المملكة العربية السعودية المجاورة ، ثم رجع بعد ذلك إلى احدى القرى اليمنية الآهلة بأتباعه واتخذها مركزاً لقيادة القوات الملكية ضد الرئيس السلال ، فشهدت أرض اليمن حرباً أهلية حامية بين الطرفين .

استعان نظام الحكم الجديد فى اليمن بالرئيس جمال عبد الناصر لدحر قوات الامام المخلوع ، فاستجاب له عجلا وارسل حملة عسكرية صغيرة ظنها كافية لتحقيق الغرض فى تأمين حكم السلال الموالى له ، ولكنه اضطر بعد ذلك ان يرسل بلا انقطاع افواجاً من الجنود والسلاح والطائرات المقاتلة والمؤن ، حتى قدرت جملة

ما كان ينفقه عبد الناصر على حرب اليمن في العام الواحد بثلاثين مليوناً من الجنيهات عدا الخسارة الفادحة في الرجال والعتاد الحربي والأسلحة .

ارتكب عبد الناصر افدح اخطائه حتى ذلك الحين بتوريط بلاده في حرب اليمن ، فلم يشفع له جهله بتاريخ اليمن وجغرافيتها وتكوينها الديني والقبلي ، وقد فات عليه — وهو يدخل مغامرة خاسرة — ان الدولة العثمانية بذلت غاية جهدها وطاقاتها لاربعين سنة لتحتل بلاد اليمن فلم يحالفها التوفيق ، ولو كان عبد الناصر يدرك طبيعة البلاد الجبلية ، ومهارة أهلها في حرب العصابات ، لما اقحم نفسه وجيشه في حرب خاسرة وصراع مرير طويل .

ولعل الذين صنفوا عبد الناصر في عداد الاباطرة من ذوى البأس والطموح البعيد ، قد اصابوا كبد الحقيقة ، فلو ان الرجل اكتفى بالزعامة على بلاده والنهوض بشعبه ، ولو تخلى عن نزعة السيادة على العالم العربي ، ونبذ مطامحه الوهمية في تكوين دولة عربية واحدة تمتد من المحيط إلى الخليج تدين له بالولاء ويتوج نفسه رئيساً عليها ، لو ان عبد الناصر فعل ذلك لبلغ من المجد ذروته وحقق لشعبه اروع الانجازات ، وكتب لنفسه الخلود ولكن. ؟؟؟

جدير بالذكر ان هذه الآراء تمثل رأياً عاماً مناهضاً لشخص وسياسة عبد الناصر وقد أوردها الراحل محمد احمد محجوب في كتابه (الديمقراطية في الميزان)

كان في مقدمة الاهداف المعلنة لنظام حكم الرئيس عبود منذ توليه السلطة في البلاد العمل على تطوير القوات المسلحة . ففي هذا المنحنى تقرر انشاء سلاح للبحرية للذود عن حدود البلاد على شاطيء البحر الاحمر ومكافحة التهريب ،وقد تصدى معالى اللواء حسن بشير نصر نائب القائد العام شخصياً لتحقيق ذلك الهدف ، يعاونه العميد ابراهيم أحمد عمر ،فجرى الاتصال بعدد من دول العالم في هذا الشأن،وبادر الرئيس (جوزيف بروز تيتو) بالتجاوب وتقديم خبرات بلاده العظيمة في مضمار بناء السفن والتدريب ، فأرسل الى السودان اثنين من خيرة خبراء البحرية اليوغسلافية هما الادميرال برانكو مامولا والمهندس جنيش، لمساعدة قادة النظام في تأسيس ذلك السلاح ، فالتف حولهما لفيف من الخبراء والمعلمين السودانيين من مختلف التخصصات ، وذلك لوضع الهيكل التنظيمي وانشاء القاعدة البحرية وما يتصل بهما من مرافق ، وتدريب

الضباط والكوادر الفنية اللازمة ، واختيار بعضهم للتدريب في الخارج ، خاصـــــة يوغسلافيا وبريطانيا والحبشة ، كما تم عقد اتفاق بين السودان ويوغسلافيا لصناعة عدد من السفن الحربية . .

كان من بين من اختيروا للتدريب خارج البلاد ثلاثة ضباط من ابناء دفعتنـــــا وأربعة من الطلبة القدامى ، ومعهم طائفة من الضباط وخريجى المعهد الفنى ، كمـــا أرسل عدد كبير من الجنود وصف الضباط الى يوغسلافيا للتدريب ، وعادوا جميعـــاً مع السفن الحربية الجديدة فكانوا النواة الأولى لسلاح البحرية السوداني ، وانيط بهـــم أمر تطويره وانطلاقه في آفاق المجد والتقدم .

كان من بين مهام مكتب الحاكم العسكرى لمنطقة البحر الأحمر الاشراف عـــلى إنشاء القاعدة البحرية ، وقد واكب ذلك فترة عملى كأركانحرب للحاكم العسكرى ، ومن ثم فقد كنت على صلة مباشرة وثيقة بهذا الصرح العسكرى العملاق ، فتطلعت ــ والحال كذلك ــ أن اكون من بين كوادره واتخذه لى طريقاً في شعاب الحياة العسكرية ، فأبديت رغبتى هذه لمعالى اللواء حسن بشير نصر في احدى زياراته العديدة لتفقد سير العمل بالقاعدة البحرية ، فلم يتردد في الاستجابة لها واصدر قراره بنقلى وتعيينى نائباً لمدير الورش البحرية ، ومن أجل تأهيلى لذلك امر بسفرى لتلقى التدريب اللازم بـــورش مصلحة الوابورات بالخرطوم بحرى والمعهد الفنى ، ثم ارسالى فيما بعد الى يوغسلافيا لاستكمال التأهيل .

غادرت بورتسودان الى الخرطوم ،حيث بدأت الدراسة والتدريب بالمعهد الفـــنى نظرياً وورش الوابورات عملياً ، واتخذت مـــن ميز سلاح الخدمة بالخرطوم بحرى مســـكناً ، فأقبلت على حياتي العســـكرية في ذلك الطريق الجـــديد بهمة عاليـــــة وروح وثاب ، تراودني أحلام الريادة وامنيات الشباب ومطامح لا تحدها حدود .

كان يجاورني في الســـكن بالميز الرائد طيار عبد القادر الكدرو ، وكان يقتـــنى وقتئذ عربة اوبل جديدة بأقســـاط غير مريحة ، فضلا عن التزاماته الاسرية الجسيمة المرهقة ، واعبائه الحياتية المتجددة ، ومن ثم كنت عوناً له على مواجهة نوائـــــب العربة وما أكثرها دون أن يطلبه مني ذلك ، وفي المقابل كان لي عوناً لي في المجـــال

والترحال ، غير أن جذور تلك العلاقة الحميمة بيننا امتدت الى ما سوى ذلك من علاقات إجتماعية ! !

ألفيت الرائد الكدرو على صلة وثيقة بالرئيس عبود وأفراد أسرته ، حتى لتحسبه فرعاً من تلك الشجرة ، وكنت على سابق معرفة بأسرة الرئيس من خلال أحد آقربائهم وهو زوج ابنة الرئيس في قابل الايام الاخ مزمل عبد الحميد ، الذى شاطرني الدراسة في المرحلة الثانوية ، ومن ثم فقد كنت أزور الرئيس عبود وأسرته بصحبة الكدرو بلا حواجز .

وقد حرص الرئيس خلال تلك الزيارات المتكررة أن يغمرنا بدفء عاطفته الابوية الجياشة ، كان يجلس الينا بغير تكلف ويأكل معنا ويتحدث في عفوية مفرطة . وقد لا يعلم بعض الناس أن الرئيس عبود ذو روح مرحه وبديهة حاضرة يحب الطرفة وينفعل بها ، والى جانب ذلك فهو مستمع بارع ومتحدث لبق حصيف ، لا يقطع لا حد حديثاً أو يبخس له رأياً .

أذكر في أحد تلك اللقاءات الأبوية ان وجه الكدرو للرئيس عبود أسئلة حسبتها يومئذ محرجة وغير لائقة ، وذلك ما دفعني لمعاتبته ومؤاخذته ونحن في طريق العودة من ذلك اللقاء المثير ، ولكنى الآن فقط ادرك قيمتها التاريخية البالغة الأهمية ، كان في مقدمة أسئلة الكدرو للرئيس عبود سؤال عن حق القوات المسلحة في التدخل لاستلام السلطة في البلاد ، وهل يحق لنا أن نسمى نظام الحكم الذى تنتزعه القوات المسلحة قسراً وعنوة من المدنيين بالثورة ؟!

بدأ الرئيس عبود رده بسؤال ذكى لماح فقال :

— انت يا كدرو عسكرى ، قول لى : لو عندك طابور تعثرت خطواته وتداخلت كيف تصلح مساره في خطوات منتظمة ؟

أجاب الكدرو على البديهة :

— آمره بالتوقف ، ثم مواصلة السير من جديد (طابور قف — معتداً مارش) .

فقال الرئيس عبود :

— هذا ما كانت تحتاجه الحركة السياسية عند تولينا الحكم ، فالجيش — كما تعلم —

بمثابة شركة تأمين للمواطنين والوطن ، والمواطن الذى يخشى علـى عربته طوارق الأحداث مثلا ، يلجأ عادة للتأمين عليها ، حتى ما اذا تعرضت لحادث قامت عنه شركة التأمين باجراء الاصلاح اللازم وأعادتها له سالمة من جديد . ولقاء ذلك يسدد للشركة رسوم التأمين عن رضا واقتناع . وهذا شأن دافع الضرائب تجاه ميزانية الجيش ، وقد كانت أوضاع السودان السياسية بحاجة لمن يدخلها الورشة الحربية لاصلاحها واعادتها الى ذويها سليمة من كل عطب وخلل وهذا ما سنفعله بأذن الله ! !

أما الشق الثاني من سؤالك ، فأحسب أن الثورة تغيير جذرى ايجابي في كيان الامة وأوضاعها وموروثاتها ، تغيير يهـدف للبناء والتعمير والحفاظ على كرامة الانسان وسيادة الوطن ووحدة شعبه وأراضيه ، وقد يتم تفجير الثورة أحياناً عن طريق العمل العسكرى كما حدث في مصر مثلا ، وفي هذه الحالة لابد للتحرك العسكرى من سند قوى وتأييد كبير من القوات المسلحة ، بحيث لا تتحرك قوة عسكرية قادرة على مناوأته وإحباط مسعاه ، وفي ذات الوقـت لا بد له من تأييـد شعبي لا يقـل بحال عن نسبة ٧٠ ٪ من مجموع سـكان البـلاد ، أما الـ ٣٠ ٪ المتبقية فتمثـل القوى المتضررة سياسـياً واقتصادياً أوحتى عقائدياً من حركة التغيير ، أو قل هى طبيعة البشر وخلاف الـرأى الذى لا يذهب للود بقضية ! ! وفق هذا المفهوم تستطيع انت يا كدرو أن تحدد ما اذا كانت حركتنا في ١٧ نوفمبر ١٩٥٨م ثورة ام مجرد انقلاب عسكرى .

ادركني بالغ الحرج حين شفع الكدرو ذلك بسؤاله للرئيس عبود عما اذا كانت السلطة يومئذ قد سلمت له يداً بيد ، ام أنه كان قد انتزعها قسراً واقتداراً وايماناً منه بضرورة التغيير ؟!

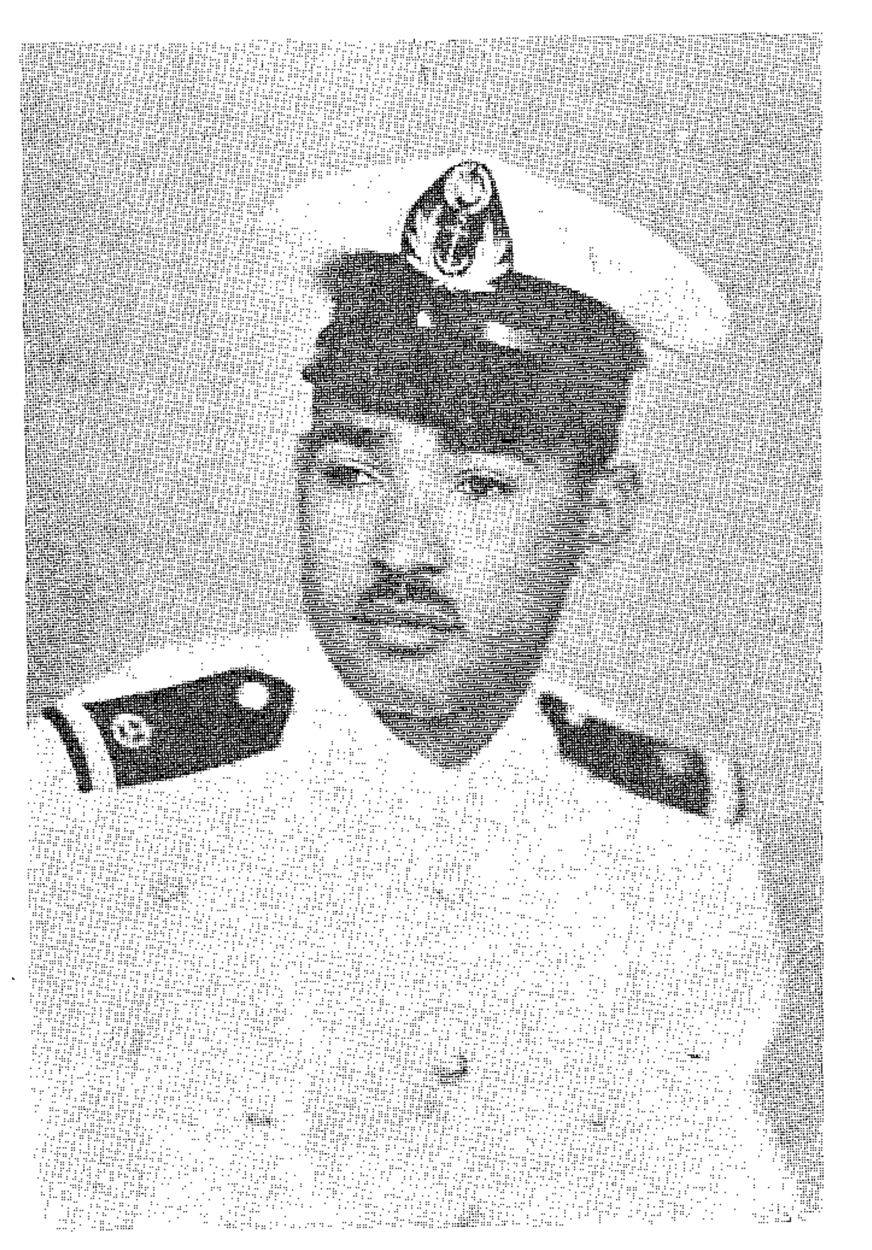
أطرق الرئيس لحظة ثم قال :

— كانت كل الكيانات والزعامات قد عجزت تماماً عن قيادة مسيرة السودان صـوب مطامحه الوطنية بعد الاستقلال ، ومن ثم كانت على قناعة تامة بضرورة استلام الجيش للسلطة .

لم يشأ الكدرو — وأنا أرمقه بنظرات الاشفاق — أن يلح في طلب المزيد مـن المعلومات في هذا الصدد عن كيف ومتى ولماذا ومن .. الخ ، وليته قد فعل ، اقولها الآن برغم ما كان يدثرني من الحرج من جراء أسئلته المباشرة الجريئة في ذلك الوقت.

سرية النقل الاستراتيجي
وعاطر الذكريات





المؤلف ملازم بسلاح البحريه السودانيه

* ١٨ *

شهد العقد السادس من القرن العشرين في افريقيا وبلدان العالم الثالث ذروة المد الماركسي فكراً وتطبيقاً، بينما كانت ظاهرة الاستعمار آخذة في الانحسار والتلاشي. أما في السودان فقد حافظ نظام حكم الرئيس عبود على نهجه التقليدي الذي اختطته الاحزاب من قبل ، وكان شديد التوجس من خلايا الحزب الشيوعي التي ناصبته العداء ، فتبنى النظام سياسات ترمى لحظر وحصر النشاط الشيوعي بين العمال على اعتبار انهم أداة طيعة في ايدى العقائديين وارض خصبة لتنامى قوة الحزب الشيوعي السوداني خاصة، إذ كانت الطبقة العاملة بؤرة تفشت فيها أفكار ذلك الحزب منذ عهد الاستعمار والجبهة المعادية له في الأربعينات ، فقد درج الحزب الشيوعي السوداني – كنظرائه في العالم – على استغلال القوى العاملة سياسياً لتقويض الأنظمة الحاكمة بصرف النظر عن صلاحها أو طلاحها ما تنكبت جادة النظرية والنظام الحلم .

وللتدليل على ذلك ردد انصار النظام يومئذ نكتة سياسية لاذعة تقول : ان أحد الشيوعيين نجا من الموت غرقاً بعد ان ابتلع اليم السفينة التي كان على ظهرها مع الآخرين، حيث تعلق بلوح من الخشب وقذفت به الامواج إلى شاطىء جزيرة نائية مجهولة وهو في حالة اغماء وغياب عن الوعى ، فلما افاق وجد حوله طائفة من أهل تلك الجزيرة وهم يحملقون فيه بدهشة واستغراب ، إذ كانت تلك هي المرة الأولى التي يرون فيها بشراً من خارج بلادهم المعزولة عن العالم ، فانتفض ذلك الشيوعي من سباته وبادرهم بالسؤال :

– الجزيرة دى فيها حكومة ؟

قالوا : نعم .

فرفع يده كمن يهتف وقال :

– أنا ضدها !! تسقط حكومة الجزيرة !!

هكذا كان قادة النظام الحاكم يتصورون سلوك الحزب الشيوعي وخلاياه واعضائه المتزمتين، فلم تخيب قيادة الحزب ظنهم، إذ عملت ما وسعتها

المقـــدرة والامكانات على تقويض دعائم الحكم القائم من خـــلال الهيمنـــة على العمل النـقابى وتحريض القـوى العاملة على الاضراب ومناوأة الحكومة،خاصة عمال السكك الحديدية والنقل النهرى وكلاهما ينضوى تحت إدارة واحدة هى إدارة السكك الحديدية فى مدينة عطبرة. ولم يكن للطرق البرية المعبدة المنتشرة اليوم وجود، وكانت القطارات والبواخر النيلية هى وسيلة النقل والسفر الأساسية فى البلاد. فاضراب العاملين فيهما يصيب قدرة الدولة على اداء واجبها فى ترحيل الناس والبضائع الصادرة والواردة بالشلل التام.

حرصت الحكومه على تجريد اعدائها من ذلك السلاح، وشرع دهاقنتها — وعلى رأسهم معالى اللواء حسن بشير نصر نائب القائد العام — يفكرون فى ايجاد وسيلة لتسيير حركة النقل والمواصلات فى حال الاضراب من قبل العمال، فهداهم الفكر — تحت وطأة الحاجة التى هى ام الاخـتراع — لانشاء سرية نقل استراتيجية داخل الجيش، تكون قادرة على العمل المنوط بها فى هـــذا المجـــال عند الضرورة.

ثم خرجت الفكرة إلى حيز التنفيذ، وتم اختيار العدد اللازم من جنود وصـ ف ضباط وحدات الجيش المختلفة بمعايير وكفاءات خاصة بغية تدريبهم وتأهيلهم فى ورش ومرافق النقل النهرى والسكك الحـــديدية تحت ستار تلاحم الجيش والشعب وقواه العاملة !!

جازت الحيلة أو الخدعة الماكرة على الناس أول الأمـــر، ولكن سرعان ما فطنت إلى مراميها قيادة الحزب الشيوعى وكوادره العمالية، فعملوا — جهد قدرتهم على التخريب — على إحباط المخطـــط بحـــرمان أفراد السرية من العلم بتلك المهارات الفنية، فاوعزوا للمختصين والعمال بالتعامل السلبى معهم !! إذ لم يكن بوســـع أحد هؤلاء رفض الوجود العسكرى صراحة، وإلا كان جزاؤه الفصل التعسفى بلا رجعـــة ولا مراجعة.

تلاحقت خطـــوات الحكومة لاستكمال بناء تلك السرية الاستراتيجية، وذات يوم استدعانى العميد ابراهيم أحمد عمر المشرف على ســـلاح البحريه ومدير فرع عمليات الجيش آنذاك فأفضى إلى بأنه قد اختـــارنى لقيـــادة السرية بصفـــة مؤقتة

خلال مرحلة التدريب ،وسوف يبت بصورة قاطعة فى شأن القيادة والجهة التى ستتبع لها فى قابل الأيام ، وحتى ذلك الحين سيبقى كل فرد فى السرية تابعاً لوحدته الأم ، على ان يتم صرف المرتبات والعلاوات مؤقتاً بكل من سلاحى الخدمة والمهندسين

فى نهاية ذلك اللقاء الذى رتبه العميد ليكون بداية لمرحلة التنفيذ ، ابديت قبولى لذلك التكليف ، فدفع لى الرجل بمجموعة من الكتب والاطروحات المظاهرة للفكر الماركسى حول تنظيم وقيادة العمل والعمال ، حوى بعضها دراسات وشروحاً ثم قال لى :

— بمثل هذه الافكار والمفاهيم يضل الشيوعيون طريق الصواب وبها يضللون القوى العاملة فى كل مكان .

اريدك ان تعكف على استيعابها جيداً،واعلم ان مهمتك منذ الآن قيادية وليست حرفية كما يتبادر إلى الذهن ، فتعلم كيف تعمل بفكرك قبل يدك ، وعليك ان تقفز بجنودك فوق هذه الترهات والاراجيف إلى قوميةالعمل الوطنى .

فشكرته على ثقته في شخصى ووعدته ببذل غاية الجهد والطاقة من أجل بلوغ الهدف المنشود ، وخرجت من عنده عاقداً العزم على انجاز المهمة الكبيرة .

وكان لى سابق علم بعموميات الفكر الماركسى وتوجهاته شأن كل المتعلمين من أبناء ذلك الجيل ، فانكببت على دراسة مافى بطون تلك الاطروحات والكتب بشئ من التركيز والشمول .

بدأت قوة السرية الاستراتيجية في بادئ الأمر من مائة وعشرين جندياً وصف ضابط ، جرى توزيعهم على ورش النقل النهرى والنقل الميكانيكى بالخرطوم وورش السكك الحديدية بعطبرة لتلقى التدريب ، وقمت بتعيين صف ضباط مسئولين في مرفق، ثم اتخذت موقعى بين أفراد القوة بورش النقل النهرى حيث كنت في السابق.

أمضينا ستة أشهر تنقلنا خلالها بين تخصصات العمل في مرافق النقل النهرى المختلفة ، وقد ظننت أن من انيطت بهم مهام تدريبنا وتعليمنا باشروا المهمة بكثير من التراخى والاهمال، اذ درجوا في تعاملهم معنا على اتباع السياسة

التي أملاها عليهم قادة الحزب الشيوعى من قبل، بيد أن ذلك لم يكن شأن جميع المسئولين ، حيث لزم بعضهم جادة الصدق والوفاء لتبعات موقعه إزاء مهمة تأهيلنا بالخبرات اللازمة ، وضرب مدير النقل النهرى السيد عبد الرحمن الماحى ونائبه السيد مسعود وكل مديرى الادارات المثل في التجرد من هيمنة الحزب الشيوعى والتعامل معنا بكل حماس واخلاص ، وهذا - كما بلغنى من التقارير والزيارات الميدانية - حال أفراد القوة في المواقع الأخرى كافة .

عند نهاية الفترة التدريبية صدرت عن المسئولين بكل الورش المعنية في النقل النهرى والنقل الميكانيكى وسكك حديد عطبرة تقارير وشهادات تؤكد إجتيازنا بنجاح عظيم للفترة التدريبية وأهليتنا لأداء مهام النقل والترحيل براً ونهراً !! حتى وقع في روعنا وهماً بايحاء تلك التقارير أننا قد أصبحنا فعلا أهلا للمسئولية الجسيمة ، فالتأم شملنا تحت مظلة سرية النقل الاستراتيجية .

كان يخامرنا شعور بالأهمية والتميز بين وحدات القوات المسلحة ، فاستنمنا لخدر ذلك الشعور برهة من الوقت ، ولكننا لم ننعم طويلا بلحظات الحلم الكاذب ، فما هى إلا أيام قلائل على تخرجنا الميمون ، حتى أعلن عمال السكك الحديدية والنقل النهرى إضراباً ارتعدت له فرائص النظام الحاكم فزقاً ، أما قيادة الجيش فلم تأبه له كثيراً ، فأصدرت أوامرها الواثقة بتولى سرية النقل الاستراتيجية لمهام العمال المضربين !! وذلك بتسيير قطار من الخرطوم الى بورتسودان ، وباخرة من كوستى الى جوبا .

لم نجد بداً من الانصياع لأوامر القيادة العليا ، وطفقت أبحث لنا عن مخرج من ذلك المأزق العصيب ، فأنصرفت أولا لامر القطار ، فكان من حسن الحظ والطالع أن ثلاثة من ذوى الخبرة بقيادة القطارات قد تجندوا ضمن أفراد السرية مع غيرهم من التخصصات التى وجه بها سعادته فتولوا مع جنودنا مهمة تسيير القطار بغير تردد وأقيم احتفال شبه رسمى بهذه المناسبة ، حضره اللواء حسن بشير نصر شخصياً مع الاميرالاى إبرهيم أحمد عمر وكبار الضباط والمسئولين في الدولة فامتزجت في فناء محطة الخرطوم أصداء الموسيقى ونوبات البروجى وصيحات الرورى من

حناجر الجنود مع صفير القطار وازيز عجلاته وهو يبدأ الرحلة الإمتحان ، وانسابت عرباته على الخط الحديدى فى بطء والجند بداخلها يلوحون بأيديهم فى فرح .

كان هذا يحدث بين ضحكات القادة ممن شاركوا فـــى حفل التسيير وقفشاتهم وخاصة وزير النقـــل والمواصــــلات ومدير السكك الحديدية وكبــــار المسئولين ، ثم التفت إلى سعادة العميد ابراهيم أحمد عمر بعد مرور عربة السبنسة ليأمرنى بالتحــــرك فوراً مع قواتى النهرية لتسيير الباخرة من كوستى إلى جـــوبا ، فاجبت وأنا فى وضع انتباه وكلى ثقة وعزيمـــة :

ـ حاضر ســـعادتك ! !

ثم غادرت فناء المحطة وأنا حائر اللب أفكـــر بصوت مســـموع : لقد تحــــرك القطـــار ، وهـــو لامحالة بالغ مرمـــاه ، ولكـــن ماذا ترانى فاعلا بأمـــر الباخرة الرابضة فـــى ميناء كوستى ؟ ان مهمة تسييرها تحتاج إلى خبرة طويلة ودراية كبيرة بمجرى النهر وشعاب النيل ، وبدأت اتساءل : كيف تجـــرأ أولئك المسئولون فى النقل النهرى بتدبيج التقارير والشهادات الكاذبة التى يزعمون فيها أهليتنا لقيـــادة البواخر والعمل النهرى ونحن من ذلك براء .؟!

اتجهت صوب عربة الجيب العسكرية وأمرت سائقها بالتوجه إلى رئاسة النقــــل النهرى ، وهناك تجاوزت حدود اللياقة اللازمة وأنا اخاطب نائب المدير ، بل بلغت بى الجرأة ان تحديته ان يجد حلا لتلك المعضلة ، فنظر إلى السيد مسعود ملياً وافتر ثغره عن ابتسامة ســـاخرة وقال :

ـ كل هذا لانكم امرتم بتسيير دفة باخرة نهرية ؟!

قلت : نعم ، كل ذلك وأكثر منه ، فقط قـــل لى كيف يتهيأ لنا ان نسيرها ، اترانا سنأمرها قائلين : سيرى وعين الله ترعاك ، فتمخر عباب الماء بغير جدال ؟!

ضحك الرجل طويلا ثم قال بلهجة ذات مغزى :

ـ انتم الآن تسيرون دفة الحكم فى البلاد ، كيف ؟!

أذهلنى تساؤله وفطنت لايحائه بغتة ، وعاد بى شريط الذكريات إلى حادث القطار

الذى ارغمنا طاقم قيادته على المسير فى ظروف مشابهة ، عندها تجاوزت بغـير وعى أو تفكير نصائح وتحذيرات قائد المدفعية التى ماتزال باقيـة فى واعيتى ، فلمعـت عيناى وأنا أقول للسيد مسعود :

ـ الآن فقط عرفت كيف تسير الباخرة !!

ثم انفلت خارجاً كالقذيفة لا اصيخ سمعاً لنداءاته المتوالية ، ورتبت أمرى على عجل فلم تغب شمس اليوم التالى حتى كنت وافراد قوتى بمدينة كوستى . وهنـاك التقيت بالحاكم العسكرى للمدينة وبمدير الاقسـام الجنوبية ، فذهبنا معاً إلى الباخرة المعنية يتبعنا أفراد قوتى فدخلناها وبدأنا نعمل عـلى تجهيزها للرحلـة الطويلة ، ثم اختليت بالحاكم العسكرى وافضيت له بخطتى لاداء المهمة الصعبة ، وكانت تقضى باعتقال مهندس الباخرة وبحارتهـا وعمالها واجبارهم على التواجـد بداخلها بحجـة ان الاضراب قد يعلن رفعه ونحـن فى عرض النيل صوب وجهتنا جوبا ، ومـن ثم يلزم ان يباشر هؤلاء عملهم ساعة رفـع الاضراب .

لم ترق الخطة للحاكم العسكرى فبدا متوجساً يخشى العواقب ويريد ان غير ذات الشوكة تكون له فى ذلك الظرف الحرج ،عندئذ قلت له بثقة مفرطة : سأتحمل سعادتك المسئولية كاملة ، وكل ما اريده هو عربة يتم الحاقها معنا اليوم وعلى متنها سائق ملم بشعاب المدينة بحجة شراء احتياجاتنا من السـوق وهذا فيما أحسب من حقنا . قال : أجل ذلك من حقكم ، وسوف الحق معكم العربة كمـا طلبت ، ولكن لا أرغب فى سماع ماستفعل حتى لايتحرج موقفى مع قيادات العمال والمدنيين وأنت تدرك حساسية موقفنا من هؤلاء . فهمهمت بما يعنى إدراكى لموقفه ، وتملكه شعور بالارتياح لهذه النتيجة ، فقدم لى دعوة لتناول العشاء على مائدته ، فشكرته ووعدته بتلبيتها .

كنت فى سباق مع الزمـن ، فاصدرت أوامرى بالاعتقال والتحفظ ، حتى إذا بلغت الساعة الثامنة مساء كان كل طاقم الباخرة بداخلها يزمجرون فى غضب وثورة فلا يأبه بهم أحد .

عند التاسعة تقريباً كنت مع الحاكم العسكرى فألفيت معه رجلا وامرأتين مـن الأوربيين ، الرجل فى حوالى الخمسين من عمره ذو جسـم رياضى ممشوق يدخـن

غليوناً فى لذة وتؤدة ، قدمه لى مضيفى قائلا :

— مستر وود وورد، إداري سابق فى طريقه إلى كمبالا عبر السودان، ثم أشار إلى كبرى المرأتين وقال — هذه زوجته مسز وود وورد ، كانت دون الأربعين سنة بقليل فيما بدا لى من مظهرها ، ماتزال على قدر كبير من الحيوية والجمال ، ثم قدم لى الأخرى وهى فتاة فى منتصف عقدها الثالث ، ذات حسن آسر وفتنة طاغية تهدج صوته وهو ينطق باسمها قائلا :

— الآنسة إديث ، تعمل مستر بمستشفى كمبالا ، عائدة لتوها من عطلتها السنوية عن طريق السودان . ثم قدمنى إلى اضيافه البيض وقال مازحاً :

— إنه يثق فى قيادتي العسكرية ولكنه قطعاً لايثق فى قيادتي للباخرة ، ولكن لا مناص لهم من ركوب المخاطر أو الانتظار فى ضيافته حتى يرفع الاضراب .

أجابوا باصوات متداخلة يشوبها اللهف :

— نفضل ان نغادر معه على كل حال .

— قال موجهاً حديثه لى : —

الناس ديل ضيوفنا، وأنا عاوزك تعكس ليهم صورة جيدة عن السودان والسوداني.

قال ذلك وهو يرمق االآنسة الممرضة فقلت له وانا أجيل طرفى بينهما فى تشكك لايخفى :

— أرى سعادتك انك قد سبقتنى إلى هذا العمل النبيل ، واعدك ان أواصل من حيث انتهيت !!

— ماذا تقصد ؟!

قالها متحدياً وقد فهم ما ارمى إليه ، فتشاغلت عنه بشرب كوب من الماء ، فلما ادرك أنى اتجاهل عن عمد سؤاله اردف قائلا :

— ماتنجرف أو تنحرف فى التعامل معهم ، مفهوم ؟ فاعتدلت فى مقعدى وانزلت يدى إلى جنبي كمن يقف فى وضع انتباه ، ثم قلت له وأنا اتصنع الجد ولا اخفى مزاحى : حاضر سعادتك .

فهز رأسه مبتسماً وقد ادرك الا فائدة من نصحى فليكن مايكون ، فانكسر حاجز الكلفة بيننا وقضينا الوقت فى سمر انعش روحى بعد يوم ملىء بالأحداث والتوتر.

رأيت ان نتدثر بستار الظلام ونحن نغادر المدينة على ظهر الباخـــرة ، وذلك تحسباً لما قـــد ينجم عـــن أمر اعتقالنا لطاقم الباخرة من ردود فعل من زملائهم وأهليهم إذا علموا بالأمـــر ، حتى الحاكم العسكرى آثر ان يودعنا لدى باب منزله والساعـــة تقارب الحادية عشر معتذراً ومتمنياً لضيوفه رحلة سعيدة .

وتوجهنا إلى الباخرة وهناك طلبت من الرقيب المســـئول ان يخصص لهم الغرف وفق توجيه معين ، إذ كانت الغرف فردية متلاصقة فى اتجاهين متضادين ، يصل بين كل اثنتين منها باب صغير ، فاتجهت لبرهة من الوقت إلى مهندس الباخرة وقبطانهـــا (الريس) محاولا اقناعهم بضرورة التضافر معنا فى أمـــر تسييرها تاركـــاً مهمة اقناع البحارة وصغار العاملين للجنود وصف الضباط فتمنع المهندس ساعة ثم استجاب وهو يقـــول :

ــ اعلم ياهـــذا ، ان هذه الباخـــرة هى منبع حياتنا ومـــن الغباء ان تظـــن اننا سنتركها لعبثكم الصبيانى وعنجهيتكم الفارغة ،وهذا ماجعانا ــ فى واقع الأمرــ ننساق لامر اعتقالكم لنا ، ولكنا مع ذلك ملتزمون بالإضراب المعلن ، ولهذا ارى ان تختبروا قدراتكم فى تسييرها ، فاذا جانبكم التوفيق ووقعتم فى خطأ قـــد يشكل خطراً على الباخرة أو ركابها ، فلا مناص لنا مـــن التدخل لاصلاح الخطأ وتأمين سلامـــة الباخرة وعلى كل حال فما انتم إلا ....

واطلق المهندس للسانه العنان ، فشكرته بحرارة متجاوزاً عـــن حدة نبراته ومـــا وصمنـــا به مـــن صفات فى معرض الثورة والغضب .

فبدانا باسم الله مجراهـــا ومرســـاها .

وماهى إلا ساعة حتى كنـــا فى عرض النهر صـــوب جنوبنا الحبيب ، ومضت الباخرة تشق عباب الماء فى تؤدة وأنا فى مقدمتهـــا أملأ رئتى بهـــواء الليل العليل ثم تحركت نحـــو غرفتى سعيداً بمجريات الأحداث وفق مـــا اشتهى واريد ، واثارتنى نشوة الظفر فدعوت جارتى (إديث) لمشاركتى نخب النجاح ، بعد ان ركـــن المسنر والمسز وود وورد إلى النوم مبكراً . ! !

لم انم تلك الليلة الا قليـــلا ، وصحوت لدى الشروق على ازيز ماكينات الباخرة الرخيم ، فالفيت جنودى والبحـــارة على اتم وفاق وألفة يتناولون اكواب الشـــاى معاً ، فاقبلت عليهم مداعباً لاشحذ فيهم روح التآلف والانســـجام ، وامرت الرقيب ان يجزل للبحارة العطاء من تعيينات طازجـــة ومعلبة وســـجاير كنا قد تزودنا بهـــا بأمـــر القيادة العامة وبتدبير مـــن العميد ابراهيم أحمد عمر لتذليـل المهمة الصعبة ، وكانت تفيض كثيراً عن حاجتنا خلال تلك الرحلة ، أما المهندس والريس فقد توليت أمر اكرامهما بنفسى تمييزاً لهما عن صغـــار العاملين ، فتكسرت ــ بفعل تلك المعاملة ــ حواجز الشقاق والغضب التى قامت بيننا ليلة البارحـــة إثر الاعتقال ، واقبل بعضنـــا على بعض يتلاومون .

كانت الرحلة بحق من أهـــم مراحلنا التدريبية ، وكنا بكل الامانة مجرد تلاميذ لاولئك البحارة ، افاضوا علينا من معين علمهم وخبراتهـــم اضعاف ماتلقيناه على مدى شهور طوال فى ورش النقل النهرى من قبل ، وما كان للباخـــرة ان تمضى لوجهتها رخاء لولا مابذلوا من جهد طائعين ، فاطلقنا عليهـــا مجازاً اسم (بوتمكن) وكنا لانفتأ نرسل اشارات بتقدمنا نحـــو الهدف عبر جهاز اللاسلكى للقيـــادة العامة بين حين وحين ، فيحلو للجنود ان يرفعوا عقائرهم بغناء جماعى منغم رتيب :

جـــوبا مالك عليـــــا ...أنـــا
جـــوبا شـــــلّى عينيا .. أنا

انسحبت روح التآلف والود الحميم عـــلى العلاقة بينى وبين آل وود وورد ، لدرجة اننا اصبحنا نتنادى بالقاب اطلقها بعضنا على بعض فى معرض الانس والنقاش فكنـــت انادى مستر وود وورد بلقب الاســـتعمارى الخبيث(Wicked Colonial) فينادينى بلقب التمســـاح . Alligator

كان وود وورد رجلا ألمعياً واســـع الآفاق ذا ثقافة عالية عصامية ، فقـــد حدثنى انه أكمل دراسته الجامعية ليعمل فى سلك الإدارة ومـــن ثم غـــدا عظيم الاهتمام بالدراسات الأفريقية وخاصة الأنتروبولوجى ، وكنت أجد متعة كبيرة فى محادثته ومقارعته الرأى أثناء تناول وجبات الطعام ، فيخرج الرجل آراءه العلمية بكثير مـــن التعليقات الذكية الساخرة بغير افتعال أو تكلف .

أذكر انه فى صباح اليوم الثانى للرحلـة ، صعدت زوجته بصحبة الآنسة إديث إلى الطابق العلوى بالباخرة وهما ترتديان المايوهات البكينى وتقفان عنـد السياج فى طلاقة وحرية ، بغية التعرض لحرارة الشمس لاكتساب اللون البنى والاستمتاع بالمناظر الخلابة على الشاطئين ، فاثار مرآهما على تلك الحال مشاعر الجنود المحرومين من دفء العاطفة فأخذوا يرقبونهما خلسة ويتغامزون ، فما كان من وود وورد وهـو يرى ذلك إلا ان صاح فى زوجته ورفيقتها من بعيد :

— أحسب ان اصطلاءكم بحرارة الشمس لم يذهـب سدى ، فقد تولدت عنـه طاقة الهبت غرائز الجند ، وهاهم ينعمون بمرآكما .

فضحكت لمقالته المرأتان فى غنج ودلال ، وواصلتا ماكانتا فيه غير آبهتين للامر .

ثم قدم لنا فى وجبة الغداء موز من الحجم الكبير ، فضحك الرجل وروى نكتة مفادها ان ثلاث فتيات صديقات تحلقن حول بائـع موز أفريقى وطلبن منه شراء كل مامعه من الموز ، فتساءل البائع دهشـاً :

— كل هذا المـوز ؟!

فاجابته صغراهن ضاحكة :

— ولم لا ؟! فربمـا نأكل بعضاً منه !!

فضحكنا حتى اغرورقت عيوننا بالدمـوع ، وكان الطاهى شـديد الاهتمـام والعناية بهم خلال تلك الوجبة ، فقدم لهم خلاصة ماعنده من خبز وغذاء شهى و دسم وكان رجلا أسـود البشرة ضخم الجثة أحمر العينين ، فسأله وود وورد فى سخرية .

(What is behind feeding us this way?!)

ومرة أخرى انفجر جمعنا ضاحكاً لايملك زمام نفسه لوقت طويل ، فقـد تشكك وود وورد فى عناية الطاهى بهم ، إذ ربما يكـون من اكلى لحـوم البشر !! وهكذا كان وود وورد لا يدع سانحـة تمـر الاغنمها لارسال نكاته المجلجلة وتعليقاتـه الساخرة اللاذعة طوال الرحلة .

وكان إلى ذلك مدافعاً جسوراً عن العـادات والتقاليد الافريقية ، مـن ذلك مثلا ان زوجته قد تعرضت بالنقد مرة لعادة تعدد الزوجات عند الافارقة حتى ليبلغ باحدهم

ان يتزوج باكثر مـــن خمسين زوجــة فى وقــت واحد ، فاستبشعت ذلك وانكرته بكل حدة وعنف ، فتصدى للرد عليها زوجها وقال بحماس :

—ان لمثل هذا الزواج وظيفة حيوية فى المجتمع الافريقى وهـــو مقصود لذاته، إذ ان المرأة — عادة — لاتنجب إلا مرة واحدة كـــل عامين فى المتوسط ،ويلازمهـــا اتصال جنسى محدود فى وقت معين ليتّم حملها بالجنين ، بينما يستطيع الرجل الواحد ان يجعل كثيراً من النساء يحملن وينجبن طوال ذينك العامين ! ! أضف إلى ذلك ان القبائل البدائية — كما هـــو الحال فى ادغال افريقيا — يتعرض افرادها عامة واطفالها خاصـــة للموت والأمراض المختلفة بحكم التخلف الصحى ومخاطر المناطــق الاستوائية ومن ثم يلزمهم الانجاب بكثرة من أجـــل البقاء وحفظ النوع ، وقـــد لايكـــون الإنسان الافريقى مدركاً لهذه الغايات ، ولكنه يجرى فى عاداته كلها على الفطـــرة وقانـــون الوجود . فجاءت حياته الجنسية منظمة وفق تلك المعايير ، واضحى الاتصال الجنســـى أداة لهذا الغرض . وقـــد لاتعلمون ان الديانة الوثنية الفاشية فى هذه المجتمعات تحرم مضاجعـــة الرجل للمرأة الحامل والمرضعة، غير انه يبيح للفتيان الشباب ممارسة الجنس مع زوجات آبائهم المسنين ! ! وذلك بهـــدف الاكثار من الاطفال ودعمـــاً لقـــوة القبيلة ، وختم وود وورد حديثه قائلا :

— لو كنت أفريقياً اعيش فى تلك البيئة محاطاً بهذه الظروف لما ترددت فى الأخذ بكل مايفعلون ! فكان هذا التعليق وحده كافياً لاثارة شجار مفتعل بينه وبين زوجته لحين مـــن الوقت .

كان وود وورد عاكفاً طوال الرحلة على قراءة كتاب (النيل الابيض) لمؤلفـــه الان مورهيد ، استكمالا لدراساته الذاتية عن اكتشاف منابع النيل ، وكان يحلو له ان يطرح مقتنياته من ثمـــار قراءاته فى هذا الصدد، ولا ينى يبدى أعجابه بشجاعـــة أولئك الرجال الرواد الذين ركبوا الاهوال والمخاطر من أجل تلك الاكتشافاف من امثال (ليفنجستون) و(ستانلى) وغيرهما .

أما المسز وود وورد والآنسة اديث فكانت أحب الأوقات لديهما هى فترة مابعد الغداء وقبل الغروب ، عندما تعتليان ظهـــر الباخرة لمشاهدة المناظر الطبيعية الآمرة

على ضفتى النيل من نبات وطيور وحيـوان، وقد بدا لى انهما نجدان متعة بالغـة وهما تقفان بلباس البحر بغير اكتراث للنظرات الجـائعة التى يرسلها الجنود خفية مـن مواقعهم فى الباخرة . فلم أشأ ان افسـد عليهما تلك المتعة بحظر الخروج بذلك اللباس المثير للغرائز ، حتى لا اتهم بالتخلف والرجعية، كما لم اشأ ان أحرم جنودى الاوفياء مـن متعة النظـر لجميل صنـع الله وعظمـة ابداعـه ، ولسـان حالى يـردد قـول الشاعر :

الهـى ليس للعشـاق ذنـب — فانـك أنـت تبـلى العاشـقين
فتخلق كـل ذى طـرف كحيـل — به تسـبى عقـول الناظرين
وتأمـرنا بكـف الطـرف عنـه — كأنك ما خلقـت لنـا عـيون
فانت جميـل تحـب الجمـال — فكيـف عبـادك لايعشـقون

أذكر انى استشهدت بهذه الأبيات من الشعر فى معـرض حديث شائق عـن الجمال واباحة النظر إليه والتمتع به ، طرحت ذلك على اضيافى مستر ومسز وود وورد والفاتنة إديث ، فاعجبوا أيما اعجاب بمعانى الأبيات ومافيها مـن فلسفة عقلانية لاترد ، ومضى وود وورد فى حديث مستفيض عـن فلسفة الجمال قائلا :

انه لايخامـره الشك ابداً فى ان المعانى العميقة لأبيات الشعر مدار النقاش بيننـا لا تقف عند حـد ترجمتى الحـرفية لها ، وان وراء العبارات والالفاظ ايحاءات ودلالات قيمة لايدركها إلا الضالعون فى العلم بأسرار البيان، ولذلك فقد تطلع هـو يوماً لدراسة اللغة العربية حتى يتأتى له الوقوف على حقيقة المعانى العميقة الموحيـة فى القرآن الكريم والشعر العربى عامة والجاهلى منه على وجه الخصوص ، فهـو يؤمـن بأن تلك المنابع تحفل بالكثير من الاشراق وأفانين الفكر والفلسفة والابداع .

وقال فى سياق حديثه عـن الجمال انه يؤمن ان للجمال معنيين اثنين ، بيولوجى وعقلانى ، وان الأول يرمز إلى حكمة الله فى خلقه وابداعه ، وساق وود وورد على ذلك مثلا بانف الرجل الأبيض ، حيث قضت حكمة الخالق ان تكـون شماء كثيفة الشعر وقاية له من زخات البرد القارس فى البيئة التى فيها يعيش ، فلو ان هذه الزخات نفذت إلى صدره ورئتيه مباشرة دون ان تصطدم بحاجز الانف والشعر الكثيف بداخله

وهما يعمـــلان على كسر حدة البرد وتدفئة الهواء البارد — لاصابت الصدر والرئـــة بالالتهاب الذى يودى بالحياة، .ولذلك جاء ابداع خلقها—أى الانف—على تلك الصفة.

أما فى أفريقيا ومناطق خط الاستواء خاصة حيث الحرارة المفرطة والهواء القليل فقـــد تمثل ابداع الخالق فى ان تكون أنف الزنجـــى فطساء عظيمة الفتحتين قليلـــة الشعر ، لتمكن صاحبها من استنشاق أكبر قدر من الهواء بغير عائق ، ولهذا فالجمال كل الجمال ان تخلق انـــف الانسان هنـــا وهناك على ما جـــاءت عليـــه من فطس وشمم ، ولابد للنظرة العقلية للجمال ان تواكب هذه الوظيفة البايولوجية المتفردة ، فلا يسوغ ان تتخذ انف الرجل الأبيض قالباً جامداً وانموذجاً متحجراً لمقاييس الجمال كذلك من الخطأ النظر إلى أنف الزنجـــى واونه وشعره وتقاطيع وجهه على انها مثال للدمامه والقبح ، وما ذلك الا لان العقول سلمت دون رويـــة أو امعان بمعايير الجمال التى صاغها البيض لأنفسهم عبر العصـــور ، وأكد محدثنا قناعته الراســـخة بانه يرى من صور ومعانى الجمال الزنجـــى ما لايراه غيره من عامة أهله البيض .

كانت الباخرة تتوقف لاسباب مختلفة بالمحطات الهامة خلال رحلتها الطويلة ، حيث يتجمـــع أهل البـــلاد رجـــالا ونســـاء ويقيمون أســـواقاً شعبية صغيرة لبيع الماكولات والصناعات اليدوية وغير ذلك ، وكان معظمهم على الفطرة وطهارة الطبيعة الاستوائية وضروراتها لا يتسترون على نعمة الله فى خلقهم وابداع تكوينهم ، يسيرون عراة الا مـــن ثقة مفرطة بالنفس وقداسة ما ورثوا مـــن تقاليد . فاهتبل المستر وود وورد ومـــن معه تلك السانحـــة ليتمعن بصورة مباشرة فيما اسماه الجمال الزنجـــى الخالص من شوائب الزيف والاصباغ ومعطيات الحضارة المادية الخادعة .

ظل وود ورد يكتب ويسجل مشاهداته على الطبيعة الحية الدافقة ، وأحيانـــاً يصور خلسة هذه النماذج التى فتن بهـــا على البعد عبر قراءاته أو عروض السينما التى تجنح للخيال ، ولم يكن يخفى اعجابه ودهشته لما يرى من بديـــع صنع الله فى الإنسان والحيوان والطير والطبيعة ، ويزداد فتوناً كلما توغلت الباخرة فى احشاء الجنـــوب وادغاله ومرائى السحر فية ، وكأنى بها تقـــول له فى تحد مفعم بالثقة : ان ماخفى أعظم ! ! فلبث كذلك على مدى الأيام السبعة التى استغرقتها الرحلة وهى فترة متناهية القصر قياساً برحلات اليوم التى تمتد لأكثر من شهر بسبب العوائق مـــثل أعشـــاب

النيل والكمائن التى ينصبها المتمردون على ضفتى النهر بعد ان تفاقمت مشكلة الجنوب واستعصت على الحل وهددت كل أطر ومناشط الحياة هناك بما فيها الملاحة النهرية .

قبيل بلوغنا مشارف ميناء جوبا النهـــرى عند السادسة صباحــاً ، اجتمع لدى مهندس الباخرة وعدد مـــن كبار أفراد طاقمها يتقدمهم الريس وطلبوا منى فى انفعال ظاهر ان أبقى أمر تعاونهم معنا فى تسيير الباخرة طى الكتمان ، حذر ان يسيء اقرانهم فهم الدوافع التى املت عليهم ذلك السلوك ويلصقوا بهم تهمة الخيانة أو يرموهم بالقعود عن الالتزام النقابى والخروج على اجماع العاملين فى السكك الحديدية والنقــل النهرى ساعة البأس والاضراب !! كما طلبوا منى ان انبه بصورة رسمية جادة أفراد قــوتى بهذا الأمــر ، بعد ان فعلــوا هم ذلك بصفة غير مباشرة ، فوعدتهم بما ارادوا وأنا أجزل لهم الشكر والعرفان بذلك الصنيع ، ثم افضيت بالأمــر لبقية أفــراد القــوة فانصاعوا له مقدرين ، وامعاناً فى الوفاء بالوعد افتعلوا عند مدخل الميناء مظاهــرة صاخبة من الفرح والصياح والتهليل ، فانطلق صوت البروجى بنوبات النصر والظفر ودوت حناجر الجنود بصيحات الرورى بل أطلق بعضهم طلقات نارية رغم مخالفة ذلك للاوامر المستديمة ! ! وفى ذروة مظاهرة الفرح المفتعلة هذه ، جاءنى الرقيب ليعطى تماماً بالقــوة ، ثم وقف إلى جوارى يرقب المشهد ساخراً ، وعلق قائلا :

تفتكر ياجنابك نحن ما سارقين لى انجاز طاقم الباخرة دى ؟ !

كان الســؤال مفاجئاً لى بحــق ، إذ لم أتوقعه من رجل بســيط محدود الآفاق كالرقيب الذى يقف الى جوارى ، فحدقت فيه وهــو يهم بالانصراف مومئاً بهزات من رأســى مؤمناً على ما قال ! ! وحتــف أنفى فى تلك اللحظة وجدتنى شارد اللب سارحاً بخواطرى بعيداً فى أغوار التاريخ ، ورددت السؤال عينه على نفسى :

— ترى كم مـــن ســارق لأمجاد غيره من الابطــال الذين خــلد ذكرهــم التاريــخ ؟ ! هل كــان نابليون بونابرت مثــلا هــو البطل الحقيقى وصانع تلك الفتوحات العسكرية الباذخة ؟ أم كان مجرد ماجن مخنث تستر وراء عبقرية كبــار جنرالاته فسرق أمجادهــم أو نسبت إليه لمجرد كونه الأعلى مكانة بينهم ورتبة ؟ !

هل كان نلسون هــو البطل الحقيقى لمعركة الطرف الأغــر ؟ أم هو مجرد سكير عربيد استغل قدرات وابداعات ضباطــه وقادة سفنه البحرية ومآثرهم وظــروف

الطقس والمناخ والبيئة والمؤثرات السياسية يومئذ ، ليكون له — آخر الأمر — ذلك المجد والتمثال الشامخ فى قلب العاصمة البريطانية ؟!

وهل كان هولاكو وجنكيزخان وصلاح الدين الايوبى وغيرهم من الاعلام الخالدين فى ذاكرة الشعوب والتاريخ أبطالا حقيقيين ، أم أنهم مجرد واجهات لأمجاد الآخرين ؟!

انتزعتنى من تأملاتى تلك أصوات من كانوا فى استقبالنا بالميناء من عسكريين ومدنيين فى طليعتهم قائد القيادة الجنوبية اللواء الطاهر إبراهيم المقبول الملقب بأسد الجنوب ، فخرجت من الباخرة واغوار التاريخ لأعطى تماماً بالقوة وانجاز المهمة لقائد القيادة الذى اخبرنا بان الاضراب قد تم رفعه ليلة البارحة وأكد الخبر مدير الميناء لمهندس وطاقم الباخرة ، ومن ثم أمرنى القائد باعادة الباخرة إلى ذويها والتوجه بجنودى إلى ثكنات القيادة على عربات كانت فى انتظارنا قريباً من المكان .

وفى مكتب القائد علمت منه ان اشارة قد وردت من القائد بالخرطوم تأمر بترحيلنا إليها على الفور على متن طائرة الداكوتا العسكرية . وبالسؤال عن السبب ، أفضى إلى القائد بان الرئيس السوفيتى (ليونيد برزنيف) سيزور السودان فى غضون اسبوع وفى برنامج الزيارة رحلة على باخرة نيلية تقرر ان اتولى أنا وأفراد قوتى أمر تسييرها . وبالسؤال عن مهندس وطاقم الباخرة المراد قيامها بتلك الرحلة افادنى بانهم سيكونون معنا ، ولكن المسئولية كلها ستقع على عاتقى وجنودى لدواعى الأمن والقيام بواجبات الضيف الكبير ، واردف : ان ذلك ترتيب سرى لاينبغى ان أكشف عنه الا فى حينه . ثم انتهى اللقاء وغادرنا جوبا فى ذات اليوم فى طريقنا إلى الخرطوم .

استغرقت رحلة الطائرة الداكوتا بين جوبا /الخرطوم زهاء اربع ساعات ، قضيتها فى سبات عميق وكأنى قد وضعت عن كاهلى حملا ثقيلا أو تخلصت من هم السنين بعد الفراغ من مسئولية تلك الباخرة ، وتاكدت لدى قناعة سابقة بان السعادة الحقة فى راحة البال Peace of mind وان كل ما سوى ذلك وسائل لهذه الغاية الاخيرة .

في مطار الخرطوم العسكرى تولى الضابط النوبتجى أمــر إيواء جنودى ، ووجه سائق العربة النوبتجية بترحيلى إلى ميز سلاح الخدمــة ، وهناك التقيت بالطيار الكــدرو فافضى إلى بان الرئيس عبــود قد أمــر بزيارتى له بمنزله اليــوم أو بمكتبه صبيحة الغد، وذلك لاتخاذ قرار بشأن بقاء سرية النقل الاستراتيجية وتدعيم قواتهــا أو الغائها وتصفية أفرادها فى الوحدات التى تناسبهم ، ويود الرئيس معرفة رايى فى هذا الصدد بحكم مــعايشتى للتجربة والمامى بايجابياتها وسلبياتها بصورة أدق ، كما سيصدر إلى تعليماته المتعلقــة بتجهيــز وقيادة باخرة الرحلة النيلية فى برنامج ضيفه الكبير برزنيف وكل هذه امور مستعجلة كما علم الكدرو من معالى الرئيس عبود شخصياً .

صحبت الكدرو الى منزل الرئيس وأنا أحمل طرداً كبيراً مليئاً بفاكهة الجنوب وخاصة الاننا س والباباى ، فتلقانا الرجل كعادته بروح يتدفق حبــاً وبشاشة ثم بادرني بالسؤال
— ها ، كيف كانت الرحلة ؟
أجبت وانا أدرك مرامى وأبعاد سؤاله :
— كانت ولادة متعسرة بحــق .
قال في نبرة لا تخلو من المجاملة :
— ربما لأنها تجربتكم الأولى ، ولكن أهنئكم جميعاً بالنجاح .
قلت في نفسى : هــذه التهنئة أحق بها طاقم الباخرة أولئك الجنود المجهولون حــقاً وصدقاً . فأردف الرئيس :
— الحقيقة أن مدير السكة حديد تقدم بمذكرة موصى عليها من وزير النقل والمواصلات يقترح فيها عدة نقاط لتعاون عمال السكك الحديدية والنقل النهرى مع الحكومــة،

فاقترح إلغاء سرية النقل الاستراتيجية لما قد تثيره من حساسيات وردود فعل نفسية لدى العمال، وعملك معالى اللواء حسن بشير رأى عدم التدخل في الأمــر وترك لى وحدى اتخاذ القرار المناسب ، فما رايك أنت من خلال تجربتك العملية ؟!
قلت بحماس :
— أنا — يا معاليك — مع مدير السكة حديد ، أفتكر حقه ما نتدخل في معدات العمال من بواخر وقطارات وكده ، نخليها ليهم أحســن ،لكن نحــن ممكن تكون عنــدنا

قطارات وبواخر عسكرية خاصة بنا ، نتدرب عليها ونحركها في كل الاوقـات ! !
وبالطريقة دى نكون أعطينا ما لله لله وما لقيصر لقيصر ! !

نظر الى الرئيس ملياً كمن لا يصدق ما سمع ثم إنفجر ضاحكاً وقال :ــ
ــ انت بتحلم يا ابنى ، بواخر ايه وقطارات عسكرية إيه ؟! انت فاكرنا دولة أوربية والا ايه ؟! على العموم ده رأيك شكراً .

ثم شرع يوجهنى فيما ينبغى عمله تجاه رحلة الرئيس برزنيف ، فقال :
ــ إن ثمة ضابط روسى سيتصل بى في الوقت المناسب للاشراف على الاجـراءات الامنية ، وان على الانصياع لكل أوامره وتوجيهاته دون نقاش أو حتى مجرد ابداء رأى مخالف .

ثم ودعنا الرئيس وهو يهم بأستقبال ضيوف من علية القوم ، وبينما كانت العربة تنطلق بنا الى الميز ، اخذ الكـدرو يقرعنى ساخراً ، فقال في معرض تبكيته اللاذع :
ــ أنت كان مفروض يسموك إسماعيل ، عشان إسماعيل باشا خديوى مصر كـان حالم زيك كده ، حاول يرتفع بمصر الى مصاف الدول الاوربية من غير امكانيات ولا قدرة ، قام ودا نفسه في ستين داهية ! ! وده الشيء العملته أنت دلوقتى ضيعت فرصتك وفرصة عساكرك ، تعرف إنو الرئيس كان في قمة الحماس والاعجاب بنجاح رحلتكم؟ ده العرفته أنا من قبل مقابلتك ليه ، صدقنى كنت متوقعه يديك نوط أو وسام ويأمر بترقية افراد قوتك لكين انت بتواضعك المفتعل سميت النجاح ولادة متعسرة ؟ فتعثرت مشاعر الرئيس نحوكم ، وكمان زدت الطين بله بي رأيك العجيب ده ، قال ايه ، بواخر وقطارات عسكرية ، ياخى قطر يخمك عسكرى بليد تمام ، والله أنـا زعلان للناس المعاك ، ذنبهم إيه تكون قائدهم أنت ؟!

ومن عجب فقد تحاشيت عامداً أن أفصح للكدرو عن الدوافع التى حملتنى على الافضاء بما قلت للرئيس عبود في ذلك اللقاء في قابل الأيام ، فقد خشيت أن أصدقـه القول وعزفت نفسى عن الكذب في ذات الوقت ، فآثرت الكتمان .

لم تكن مهمة تسيير باخرة الرئيس برزنيف تختلف في شيء عن مثيلتها من كوستى الى جوبا ، حيث تولى مهندس الباخرة وأفراد طاقمها من البحارة المهمة بمهارة فائقة

وتركوا لى مهمة الاشراف العام كواجهة أنيقة براقة وأنا ارتدى زى ضابط بحرى مرموق ، بينما تولى مسئول الامن السوفيتى مهمة توزيع جنودى وتحديد مواقعهم وواجباتهم على الباخرة حسب خطة عمليات دقيقة رسمها وحده بكثير من الاتقان ، وكان لى فقط أجر الترجمة من الانجليزية الى العربية ومخاطبة الجنود عبرها بتوجيهات ذلك المسئول ، ومن عجب فقد تأكد لى بعد مغادرة الرئيسين للباخرة عند نهاية الرحلة أن ذلك الضابط السوفيتى يجيد التحدث بالعربية بصورة مذهلة !!

أثناء الرحلة تلك ، كانت كاميرات رجال الاعلام المرافقين لتغطية الحدث مركزة على الرئيسين في كل حين وعلى من في معيتهما من كبار المسئولين ، فأوغر ذلك صدرى وأثار كوامن غيرتي ،فأخذت أتعرض لاضواء الكاميرات عن عمد وترصد، وافتعلت مرة قيادة دفة الباخرة رغم أن ذلك لا يدخل من قريب أو بعيد في صميم واجباتي المحددة ، ثم طلبت من حامل الكاميرا أخذ لقطات للمشهد المفتعل ، وفيما بعد برزت اللقطات ضمن الشريط السينمائى لرحلة الرئيسين النيلية في كل دور العرض بالعاصمة فيما يعرف بالجريدة الاخبارية المصورة،فخيل الى يومئذ أني قد أضحيت بين عشية أو ضحاها نجماً سينمائياً ذائع الصيت،والواقع ان الامر لا يعدو مجرد (التحشيش) أو حب الظهور ، وكان ذلك شيئاً محبباً آنذاك حتى إن الناس تغنوا به وشاع بينهم كثيراً ، من ذلك الاغنية التى تقول :

يا شاويش سيب التحشيش
وعلمنا حركات الجيش

ثم انفرط عقد سعادتي بالشهرة فجأة عندما استدعاني العميد إبراهيم احمد عمر بعد ذلك ليبلغنى أن فكرة سرية النقل الاستراتيجية قد صدر قرار بتجميدها،وأن على كل جندى وصف ضابط بها أن يعود الى وحدته وأنا كذلك !! هكذا تهاوى صرح آمالى فقد قضى القرار بعودتي الى بورتسودان للعمل بالقاعدة البحرية ريثما تتم اجراءات ايفادى مع الملازم كمال بيومى الى يوغسلافيا لاستكمال التدريب ، فغادرت الخرطوم غير آسف على شيء سوى فراق أصدقائى من الضباط بميز سلاح الخدمة وحرماني من جو حياتهم المحبب وصبواتهم الحريئة التى يحلو لهم اجترار أحداثها

وملابسـاتها في اوقات الفراغ والسمر بصـورة لا تخلو من المبالغة والخيال أحياناً !!

تجاوزت آثار الصدمة وخيبة الامل وأنا في الطـريق الى بورتسـودان ، وعللت نفسي بانه إن كان قد فاتني شيء ففى الإمكان أشياء وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، واتجهت مطامحي الى تولى منصب نائب مدير الورش البحرية اسـتعين به عن شمس مجدى الآفلة ، ولكنى — في مناط الرجاء — لم أجد ورشاً حربية أصلا !! وكل ماوجدته هو ورشة حوض الميناء ، ويقوم على إدارتها المهندس المقتدر صالح صابر ، وقد انيطت بالورشة ومديرها مهمة اصلاح السفن العسكرية باشراف المهندس عبد الوهاب عثمان الذى تم تعيينه مديراً أو مسئولا ، وبالاستفسار عن وضعى والملازم كمال بيومى في القاعدة علمت من قائد سلاح البحرية بالانابة الرائد عبد الرحمن فرح أننا سـنعمل بصفة مؤقتة كضباط مشاه حتى يحين موعد ارسالنا في البعثة التدريبية وحتى ذلك الحين ستقوم زوجة أحد الضباط اليوغسلاف بتدريسنا مبادىء اللغة اليوغسلافية .

إستسلمت للأمر الواقع ، وأخذنا أنا والملازم كمال بيومى في تعلم لغة الصرب ، فبدت لى للوهلة الأولى طلاسم والغازاً لا تفك رموزها ولا يتأتي نطق كلماتها ومخارج حروفها بحال ، من ذلك مثلا عبارة أنا ذاهب الى المنزل ، فهى باللغة اليوغسلافيـة (يا جو إجى كوجى) فانصرفنا والحال كذلك عن السربسكيزك الى الحديث عـن حال معلمتنا الحسـناء ، بعد أن تعرضت مكـرهة لعوامل التعـرية !! تحـت صهر حرارة طقس البحر الاحمر التى لم تحتملها خلايا جسدها الابيض ، وتحول الدرس الى حديث عن الطقس وعناء المواطنـين عامة وقاطنى مدن البحر الاحمر خاصة ، ثم سرعان ما نضب معين هـذه الاحاديث الانصرافية من بعد ، فاعتذرت معلمتنا عـن مواصلة الدراسة ، وقفلت راجعة الى وطنها الام متعللة بظروفها الصحية ، وعـدنا نحن للعمل بالقاعدة البحرية ، وأتخذت شعار « اللامبالاة » أسلوباً لعملى وتعاملى مع الحياة في تلك الظروف ! ويبدو أن الفراغ قد الهب مشاعر الصبا في نفسـى آنئذ ، فتعلق قلبى باحدى حسان المدينة من عائلة مصرية ، وطلبتهـا من والدها عجلا بغـير مقدمات أو اجراءات شكلية ، بل ضربت صفحاً عن إخطار أهلى برغبتى في الزواج ، وكان أبوها رجلا حكيماً بعيد النظر إذ نصحنى بقوله :

— يابني ، من تزوج على عجل ، ندم على مهل ! ! وأنا لا أجد فيك مايعيب ، ولكن اختلاف المشارب والتقاليد قد يؤثر سلباً على حياتكما الزوجية من بعد ، فابنتى شديدة التمسك بالسلوك والمظهر الحديث « مودرن » كرصيفاتها من بنات جلدتها ، وأنت — كما علمت مــن أقــرانك — متزمت آخــذ بالمسلك والخلق الســوداني ، وأخشى ان يحدث الاختلاف شرخاً فى العلاقة الزوجية بينكما بعد خمود بركان العاطفة إثر انقضاء الأيام الأولى للزواج ، ولا مداوى ! !

كان الرجل محقاً فى كل ما ذهب إليه ، وكنت ملحاً فى طلبي لا أســمع إلا خفقات قلب ظامىء محروم من دفء العاطفة الاسرية ، فاقترح حــلا لهذا الاشكال بان يعلن موافقته المبدئية على الزواج ، وان تتم مراســم الخطوبة علنــاً ، وان نبقى كذلك بضعة أشهر نكسر خلالها حواجز الاختلاف بيننا على مهل ، فرفضت فى عنت واصرار ذلك التاجيل والمماطلة ، مؤكداً له ان الحب الحقيقي يولد بعد الزواج والمعاشرة الحميمة ، إذ هــو حب منزه عن زيف الرغبة وخداع الطرفين ، وفوق كل ذلك أنا جندى عقيدتى الاقدام واقتحام المخاطر ولدى القدرة على تجاوزها والتغلب عليها لامحالة.

إزاء ذلك الاصرار البغيض ، سلم الرجل وهــو يدعو الله ان أكون على حق ، أو لعله خشى ان يكون سبباً فى ضياع فرصة ابنته فى الزواج من رجل ذى مركز مرموق ، ولربما شاورها فى الأمــر وأخذ برأيهــا فيه ، على كل حال ، فقد وافق الرجل بعد لأى على اتمام الزواج ، ولكنه شرط على مشاركة أهلى تأكيداً لعلاقة المصاهره بين الاسرتين ، وتلقى هؤلاء النبأ بكثير من التوجس والفتور ، ولكنهم تكبدوا مشــاق السفر من اقاليم الســودان المختلفة وجاءوا زرافات ووحداناً ، وشــهدت مدينــة بورتسودان ليالى عرس فخيم حافل بالمباهج مــن كل لون ، امتزجت فيه المراســم والطقوس السودانية والمصرية .

لعقنا فى شــهور الزواج الأولى جرعات عسل دافقة ، ولكننا لم نسلم من لدغات نحل الخلاف أحياناً ! ! ثم اصطدمت سفينة حياتنا الزوجية بجنادل الحيــاة التى كان يعيشها أبو الفتاة ذلك الحين ، فقد كانت له زوجتان فى نفس البلدة ، فاقتحمت نار الشقاق بينهما عش زوجيتنا عنوة واشعلت الحريق ، أما الرجل المسكين فقــد عركته

المأساة بين شقي رحاها وهدت قواه ، فما عاد قادراً على التحكم في دفة القيادة إبان عواصف الخلاف والشجار المتوالية .

كانت زوجتي — بطبيعة الحال — تناصر أمها ظالمة ومظلومة ، وتمقت ضرتها وتدينها بقدر ماتكن من الحب والوفاء للأم ، فدفعت بعشنا في خضم معركة ضارية لاناقة لنا فيها ولاجمل ! وحاولت جهدي ان اكتب لحياتنا الزوجية النجاة من تلك السفينة الغارقة ، ولكن هيهات ،فلم أملك زمام نفسي يوماً ورميت زوجتي بكلمة الطلاق !! وجاء الحدث مزيداً من الوقود في نار الصراع بين المرأتين وزوجهما المغلوب على أمره ، فانتضى الرجل سيف الحسم مكرهاً وأرسل مطلقتي وأمها إلى مصر ريثما تهدأ العاصفة أو يجد حلا دائماً للنزاع المقيت.

عدت سيرتي الأولى حراً طليقاً من قيود الحياة الزوجية ، ولكني أسير لشعور ضاغط بالخطأ ، بل إتقدت في اعماقي نار عاطفة متأججة كنت أحسبها رماداً لا حياة فيها ولا رجاء ، فعاودت صهري اروم اصلاح ذات البين مرات ومرات حتى اقتنع الرجل بعد عزوف وتردد ، ولكنه استمهلني لعدة شهور يرتب فيها أوضاعه الخاصة ، فبقيت انتظر ونار الحب تزداد في قلبي ضراماً على مر الأيام ، ثم فاجأني الرجل بان ابنته — مطلقتي — قد عقد قرانها في مصر لأحد المهندسين من أبناء جنسها ، ورجاني ان انساها وادعو لها بالتوفيق والسعادة في حياتها الجديدة !! وقد فعلت ذلك باخلاص شديد ، ولعل الله تعالى استجاب لدعائي يومئذ فهي الآن زوجة ترفل في حلل السعادة وأم رؤوم لعدد من البنين والبنات .

ما كان لجرح قلبي ان يندمل وما كان للسلوان من سبيل وأنا اعيش وحيداً في معقل الذكريات بتلك الشقة الفخيمة بعمارة باوارث التي شهدت أحلى أيام عمري حتى ذلك الحين ، فكل مافيها من أثاث وأدوات وغرف ومرافق ترتبط في مخيلتي بتلك الزوجة وذكريات حبها الدفين !! فكم جلسنا على شرفتها نتساقى كؤوس السعد مترعة والبحر على مرأى منا شهيد ، وكم شدونا باهازيج الحب وكل ركن فيها يردد ويعيد ، وكم .. وكم !!

حاولت ان اغرق في لجة العمل لأنسى ذلك الماضي القريب ، فما ازددت إلا

اغراقاً فى بحار الذكريات ، وكان صديقى الملازم (خليل سورج) يتابع الاحداث من قبل، وقد شارك بجهـد لاينكر فى إقناع صهرى برأب الصدع فى حياتنا الزوجية بعـد الطلاق ، ثم وقف إلى جانبي بكل الوفاء فى أيام الجـدب والحرمان وعذاب الوحدة القاتلة ، كان خليل مـن الطلبة القدامى بالكلية الحربية حين ولجنا ابوابهـا دارسـين ، درس البحرية مع ثلاثة من أبناء دفعته هـم مبارك أم بلى والنـور عبد النور وبشرى أحمد رحمة ، فى يوغسلافيا ، وعادوا مع الآخرين ليكـونوا نـواة لضباط البحرية السودانية ، يتميز خليل بوسامة مفرطة وفكـر ثاقب وقناعات سياسية مقنعة ، يؤمـن بان الاشتراكية هى الأمثل ما كان فيها للحرية مجال ، خاص إلى ذلك بعد تقلبه فى تجربة الحياة اليوغسلافية إبان مرحلة الدراسة هناك ، وهـو شديد الإيمان بالنظـام الشـمولى يعتقد جازماً ان الديمقـراطية الليـبرالية لم تخلق للدول النامية ، لميراثها الذى خلقه الاستعمار بعد رحيله عنها ، ذلك الثالوث المدمـر ، الفقر والجهل والمرض ، فلابد والحال كذلك ان نأخذ بنظـام الديمقراطية الموجهة فى إطار الحزب الواحـد ، أو البوتقة التى تنصهر فيها كل الاتجاهات والمشـارب والأفكار ، وقد راقنى – للحقيقة – ذلك الطرح ، ووجـدت فيه مايرضى نزوعى الوطنى ، وما أهوى لبلادى من حياة باذخة فى كل مضمار، فأنا – حتى ذلك الحين – أعيش غريباً بين التنظيمات السياسية كلهـا ، وابحث لنفسى عـن ملاذ أطمئن إليه ، وهاهو خليـل يثير فيها كوامـن الشجن والطموح ، بارقة أمل تومض فى الاغوار ، ان تنصهر كل الاتجاهات والمشارب والأفكار فى بوتقة الولاء للأرض والإنسـان وتتحقق الحيـاة الباذخة للناس جميعاً ، فى ظل دولة قـوية رائدة ، تختط للشـعوب النامية طريقاً للخلاص ...

ولكـن !!

مـن يتولى تحقيق ذلك الحلم ؟!

أين التنظيم الذى يتبنى هذا الفكر النبيل ؟!

أثار خليل فى نفسى اشجاناً وطنية باقية كما هدهد فيها مشاعر الاحباط والتمـزق مـن قبل ، ولم يكن يعيبه الا نزعة عنصرية أقرب إلى الهزل والافتعال ، فهـو شديد المغالاة فى تمجيـد أهله الشايقية ، ينسب إليهم كـل مجـد وحضارة وفخار !! ثم

يعترف عفو الخاطر ان ذلك مسلك لايملك له دفعاً على علاته ، وفيمـــا عدا هذا ، لم يكن أجمل مـــن مظهره الا مخبره ، فكر متسق ، وثقافة واســعة والتزام صارم بالاخلاق والقيم ، وقد بوأه جماع ذلك موقع القاضي والحكـــم فى كل مايشجر من خلاف بين رفاق السلاح ، ورغم ذلك فهو لايفتأ يكرر قوله :

ــ أنا بشر من طين ، لى صبواتى وخطاياى ، فقط أحاول كل شيء جهد طاقتى . مجرد محاولة !

وبهذا التواضع كان يسمح لبعض خاصته ــ وأنا منهم ــ بالتدخل فى صميم حياته الخاصة والاسرية يقبل النقــد ، ويخضع للصــواب ، ولا يكابر قط .

فاجأنا العميد إبراهيم أحمد عمر بزيارة لســلاح البحرية ، وهــو يحمل نبــأ صدور قرار بفصل ترقيات ضباط سلاح البحرية من الكشف العام لضباط الجيش !! فبهت الكثــيرون للنبأ الفاجــع الاليم ، إذ يعنى القــرار ان فرص الترقيــات لضباط البحرية ، ستنحسر لأسباب لاتخفى ، فبدأ الاحباط على الوجوه ، وجاهــر البعض بالانكار له علناً ، وكنت منهم ، فقال العميد ليسكن فينــا عاصفة الغضب :

ــ أنا وبعض القادة لمسنــا هذا الاحجاف الذى تتحدثــون عنه ، ولهذا وافــق معالى اللــواء حسن بشير نصر نائب القائــد العــام على منح ضباط البحرية فرصــة النقل لكشف المشــاه ، إذا عارضوا القرار ».

كنت والملازم خليل أول المعارضــين ، فتقــرر فى التو واللحظــة نقلى ، إذ لم يكن تأهيلى كضابط بحرى قــد اكتمل بعــد ، أما خليل فقد علــق العميد قــرار نقله مــن السلاح على مشــاورة وعد باجرائها على عجــل مع معالى اللــواء .

خرجت مع كوكبة مــن رفاقى الضبــاط بعد ذلك الاجتماع الصاخب مفعمــاً بالحدث وقرار النقل ، فطمأننى خليل ان له اصدقاء فى شــئون ضباط ، وسيعمــل بعونهم على نقلى لحاميــة الخرطــوم ، وقد وفى وعده ذاك ، و[illegible] الامــر بعد مغادرة العميد عمر ، وفى اليــوم الثانى اقترح على خليل ان اتصل تلفونياً بدفعتى الملازم ــ كمال أبشر يس ــ وكان يعمل يومئذ اركانحرب لقائد الحامية ــ ليدبر أمــر نقــلى داخل الحامية إلى ســلاح المدرعات ، وكان تابعاً لحامية الخرطوم وقتذاك ، فلم اضع وقتاً ، وعملت برايه الثاقب ، فحقق كمال رغبتى بغير توان وفاء لدواعى الزمالــة والصداقة ، وهكذا غدوت اضافة لمنظوم عقد ضباط المدرعات .


حركة الضباط الأحرار
الفكر والتنظيم

* ١٩ *

في سلاح المدرعات ، وجه قائده العقيد أ.ح أحمد حسـن العطا بالحاقي بمدرسة المدرعات لتلقي كورس قادة الفصائل المدرعة مع آخرين مـن صغار الضباط ، وكان يقـود المدرسة آنذاك النقيب ، فاروق عثمان حمد الله ، فتلقاني بمزيد الحفاوة والود ، حيث جاء ذلك اللقاء امتداداً لعلاقة وطيدة حميمة ، فوالده الخليفة ، عثمان حمد الله صديق حميم لوالدى مـن قبل ، جمع بينهما الولاء المتطرف لطائفة الختمية وألقاب خلافتها والانتماء المشـترك لقبيلة الجعليين ، واهتمامات بتاريخ وأنسـاب وتراث أهل السـودان ، من اجل هذا وغيره درجا على تبادل الزيارات ، وكانت تـدور بينهما محاورات ساخنة حول الانساب والاصول ، وكلاهما يزعم انه وحده الاكثر علماً وتحققاً مـن اصول وفـروع القبائل والعائلات السـودانية ، ومـن عجب ، فان ذلك الحوار الضارى بينهما لايزيد ودهما الا نماء وقـوة !! وكان طبيعياً ان تنشأ بيني وبين أفراد أسرته وإبنه فاروق خاصة علائق وثيقة العرى ، وكان فاروق حينئذ طالباً حربياً وأنا بمدرسة الخرطوم الثانوية المصرية ، فلم يكن ثمـة حاجز مـن العمر يفصـل بيننا ، فقامت جسـور الاخاء والود تربط بين روحينـا الشابين ، ثم توثقت تلك الصـلات أكثر ، ابان فترة تدريبي بورش الوابورات في الخرطوم ، وسـكني بميز سـلاح الخدمة ، فكثيراً ما كنـا نلتقي في مجتمـع الضباط ، أو بمنزله برفقـة الطيار الكدرو ونحـن نلبي دعواته التي لاتنقطع .

كنت أحسب — والحال كذلك — ان نماء تلك العلاقة بيننا وليد هاتيك الظروف ، وان حفاوته المفرطة بلقائي في كل حين مظهر المذلك الجوهر الثمين الذى تنطوى عليه القلوب ، ولكن فاروق فاجأني يوماً وانا ألبي دعوة له للعشاء بمنزله بخطاب تلقاه من صديقي خليل سـورج ، يثني فيه على ثناء عظيمـاً ، ثم ينتهي إلى تزكية ترشـيحي لعضوية (تنظيم الضباط الاحرار) !! وكشف ر فاروق ان صديقي خليل هو المنظم للتنظيـم (Co - ordinator) في منطقـة البحـر ، فادركـت يومهـا ان ذلك الخل نسيج وحده ! فقد توهمت باني كنت اعرف كل صغيرة وكبيرة عنه فتكشف ر انه لم يكن يفرط في شيء مـن اسراره التنظيميه .

فاجأني فاروق كذلك بانه هو شخصياً « أى فاروق » يتبوأ موقـــع سكرتير ذلك التنظيم !! وادركني العجب فى ليلة المفاجآت فاعتدلت فى جلســتى لأسأل عن حقيقة التنظيم وهويته ، اردت ان استوثق لنفسى من أمر سيبدو خطره وعظيم شأنه فى حياتى من بعد .

حدثني فاروق :

ـــ ان التنظيم قد بدأ بصــورة جديدة معافاة منذ عام ١٩٥٩م ، وهــو يهــدف إلى تطوير القــوات المسلحة ، والارتقاء بمســار السودان السياسى والإقتصــادى والإجتماعى ، وحماية وحدة التراب ، من خلال الدعــوة للبحث عن حــل جذرى لمشكلة الجنوب فى اطــار الحكم الذاتى الاقليمى ، وتوحيد القــوى السياسية المتباينة فى نظام سياسى شمولى واحد ، ثم الخروج بالســودان فى المحافل الاقليمية والدولية كقوة مؤثرة فاعلة رائدة تنبذ عنه لقب (رجل افريقيا المريض) ، أما فى داخل البلاد فيعمل التنظيم على تحقيق مبدأ استقلال القضاء وسيادة حكم القانون وحرية البحث العلمى فى اطار توجيه التعليم الجامعى والعالى ، كل ذلك فى ظــل نظام حكم ومجتمع اشتراكى تقدمى ، يحكمه دستور دائم يؤمــن هذه الأهداف ، وتحرســه قــوات مسلحة عالية الكفاءة ، ويرتضيه الشعب طريقاً لآماله فى الحياة !!

فجأة !!

فى ليلة المفاجأة تلك :

عاد الحلم يسيطر على مشاعرى كلها !! « ان تنصهر كل الاتجاهات والمشارب والأفكار فى بوتقة الولاء للارض والإنسان ، وتحقق الحياة الباذخة للناس جميعاً ، فى ظل دولة قوية رائدة ، تختط للشعوب النامية طريقاً للخلاص » !!

وكزنى فاروق ليعيدنى مــن حلمى الشرود ، فانتبهت قائلا :

ـــ تلك أهداف نبيلة رائعة ، ولكن ماذا عن نظام حكم الرئيس عبود ؟!

قال : نحن مازلنا فى مرحلة التخطيط واستكمال بناء التنظيم وبلورة أهدافــه ، ففى هذه المرحلة سينصب جهدنا فى خلق معارضة بناءة توجه نظام الحكم القائم وتنتقد اخطاءه ومثالب قادته ، مــن خلال منشورات الضباط الاحرار السرية ، وسنكــون

بمثابة سلطة الظل،حتى إذا عجز النظـام عن النهوض والارتقاء بالبلاد، أو تردى فى مهاوى الانحلال والفساد ، خرجنا لتلبية إرادة الشـعب فى التغيير ، فننتزع سـلطة الحكم قسراً مـن المجلس الأعلى ، لنحولها لمصلحة الشعب .

قلت له : انقلاب ؟!

قال : لا ، ثورة ، وليس إنقلاباً بمفهومه الضيق !!

سألته : ماذا تسمى نظام حكم الرئيس عبود ؟ أهو ثورة أم مجرد إنقلاب عسكرى؟!

فتفكر فاروق لحظة وقال :

— فى رأيى الشخصى ، ان النظام بدأ فى إطار الثـورة ، ولكنه الآن ينحدر إلى شكل الحكم العسكرى التقليدى المعروف .

قلت له : ثم ماذا ؟

فقال : سيجىء تدخلنا فى الوقت المناسب ووفق خطة مرسـومة باحكام !!

سألته لغير المعنى المباشر للسـؤال :

— هل أنت صاحب كل الافكار والأهداف التى ذكـرتها ؟ فأجاب — ولعله لم يفطن لما اريد :

— كلا ، لست وحدى ، فعلى سبيل المثال .. ثم نهض وغاب عنى لحظة وعـاد يحمل مظروفاً فض محتوياته بعناية بالغة ، ثم رفع لى باوراق منه وقال :

— هذه مثلا فكرة النظام الشمولى ، وهى مـن إبداع صديقك خليل سورج .

فمضيت أقرأ نفس الافكار التى حدثنى بهـا خليل أثناء تواجدى معه بسـلاح البحرية ، ولكنها على الورق كانت أكثر ترتيباً وتدعيماً بالشواهد والمنطق ، ثم وضع فاروق بين يدى مجموعة أوراق أخرى وقال :

— وهذه فكرة الحكم الذاتى الاقليمى ، قدمها لنا فى شكل دراسة علمية النقيب الرشيد نور الدين ، يدعو فيها لتقسيم السودان إلى خمسة أقاليم المديريات الجنوبيـة الثلاث فى اقليم ، دارفور وكردفان فى اقليم ثان ، والجزيرة وكسلا فى اقليم ثالث ومنطقة البحر الأحمر والمديرية الشمالية فى اقليم رابع ، ومديرية الخرطوم إقليـم خامس أخير ، وقد سـمى صاحب الدراسة هذه الاقاليم الخمسة باسـماء الجبال الشهيرة فيها : وهى على التوالى : أماتونج ، سونى ، التاكا ، البركـل ، وكررى

ويجمل النظام الإدارى لحكم تلك الاقاليم فى اطار الدولة الموحـــدة أشبه بالولايات المتحدة الامريكية، وهـــو يفتح الباب لمزيد مـــن الدراسة العلمية لبلورة أسس ونظم الحكم والإدارة فى هذه الاقاليم، على ان يعقب ذلك مؤتمر قومى موسع يعدل فيها أو يقرها ويؤطرها .

ثم أردف فاروق :
أما بقية الأفكار والأهداف فقد شارك بها الاخوة الأحرار ولى فيها نصيب ، ولكـــن الامر برمته — في رايبى الخاص — لم يتبلور بعد ويأخذ صورته النهائية، فما زلنا نخضعه لمزيد من الحـــوار والنقاش الموضوعى ، وما زلنا نبحث عن النظام المثال الذى يرضى مطامحنا نحو الأرض والانسان في بلادنا ! !

حركت كلماته في نفسى تلك الأشواق الوطنية التى تقض مضجعى آناء الليـــل وأطراف النهار ، وتبحث لها عن وعاء تنظيمى تصب فيه بلا جـــدوى، ولكن ثمـــة بارقة أمل أخذت تومض وتكبر وتقترب حتى غدت كالشمس آخر الأمر ! !

انتزعنى فاروق من تأملاتي واستغراقى في تلك الأشواق قائلا :
— ما كان لى أن أصارحك بحقيقة التنظيم لولا معرفتى بصادق وطنيتك وتزكية خليل لك ، فما رأيك ؟! قلت على الفور بغير تردد :
أرجو أن اكون عند حسن ظنكما معاً ، لقد كنت أبحـــث طوال السنين الماضية عـــن ملاذ من هجير غربتى بين الأحزاب والتنظيمات كافة ، وقد وجدت هذا المـــلاذ ، ولك أن تعتبرني عضواً منذ الآن ! ! فشد على يدى بحـــرارة ، ثم تعانقنا طويلا ، ولم أملك السيطرة على مشاعرى ، فانثالت دموع الفـــرح حارة من عينى ! ! وأحسست شعوراً بالراحة والاطمئنان يملأ صدرى، وأشرقت في وجدانى الشمس بعد ليل طويل.
سألت فاروق مستفسراً عن النظام الاساسى للتنظيم وهيكله ، فقال :
— هذا أيضاً لم يتحدد بعد بصورة نهائية ، وليس لنا — حتى الآن — مكتب سياسى ولا لجان متخصصة ولا مالية أو أشتراكات ! ! فما زال العمل يتم من خلال الخلايـــا، وهى أشبه بخلايا الحزب الشيوعى، تتكون الخلية من أربعة أفراد وقائد Ring - leader ولكـــل ثلاث خـــلايا منظـــم (Co - ordinator) ، وبكـــل التواضـــع أتولى أنا سكرتارية التنظيم ، وقد يهمك أن تعلم أنه ليس لنا رئيس بعد ! !

سألته : كيف يتم انجاز المهام التنظيمية ؟

قال : المهام تكلف بها الخلايا والافراد،ويتعاون معنا ـ بصورة جادة مثمرة ـ الحزب الشيوعى السوداني وقيادته وخاصة الأخ عبد الخالق محجوب ، فهم يقومون عنا بطبع المنشورات وتوزيعها خارج المعسكرات ، ويمدوننا بالمعلومات وأسرار الحياة السياسية في البلاد. عدت أسأله

ـ هل أنت شيوعى ؟!

ضحك فاروق ثم قال :

ـ أنا تقدمى لى صلات قوية بكل الاشتراكيين والقوميين العرب ، والشيوعيين ، وأنا معهم جميعاً !!

قلت له متسائلا :

وماذا عن تنظيمات الاخوان المسلمين والطرق الصوفية وطائفتى الختمية والانصار ؟

أجاب ساخراً وهو يرفع سبابته والوسطى فى شكل حرف (٧) :ـ فيتو !! ثم استطرد: إنهم أهل السودان وتراثه حقاً، ولكنهم بحاجة إلى غربال ناعم جداً .

وقبل ان يواصل طرق آذاننا صوت يقترب من المكان ، فقال لى فاروق على عجل :

ـ ستؤدى قسم التنظيم مع عضو آخر جديد الإسبوع القادم ، والعضو هو الأخ ابل كول ارثر .

وسيتم اداء القسم أمام الأخ محمد الحسن عثمان «جنكيز» قائد خليتكم ، وهو أحدث رتبة من ابل كول ارثر ، ولكن اقدمية التنظيم لاترتبط باقدمية الرتبة العسكرية وقد تفهم الأخ ابل ذلك .

ودخل القادم بغير استئذان فاذا هو صديق طفولة فاروق عثمان عوض فانوس فملأ المكان ضجيجاً وهزلا ، ثم انضم إلى مجلسنا وتحول مجرى الحديث .

ثم غادرتهما بعد تناول وجبة عشاء فخيمة قلت لفاروق على اثرها مداعباً :

ـ لو كان للتنظيم مالية ـ أيها السكرتير ـ لما ترددت فى إتهامك بالاسراف والتبديد .

فقال ضاحكاً :

ـ أنا مؤمن بالحكمة التي تقــول : ان لك من مالك ما أكلت فأفنيت ، وما لبست فابليت ، وما تصدقت فابقيت !! وها أنا اصطاد عصفورين بوجبة واحدة ، آكل فافني طعامي ، وادعوك معي للاكل فاتصدق عليك !!

فودعته ضاحكاً حامداً لله أنعمه .

بــدأت فــرقة قادة الفصــائل المدرعــة ، (Troop Commanders) بداية جادة مكثفة النشاط منــذ الوهلة الأولى ، حيث شارك بالتدريس فيها — إلى جانــب ضباط مدرســة المدرعات — كل من الرائد (الصــاغ وقتها) أحمد عبد الحليم قائد ثاني السلاح ، والنقيب (اليوزباشي حينئذ) خالد حســن عباس قائد السرية الثانيــة ، فبدأ الرائد أحمد حصص الصباح الباكرة بتدريس خواص ومهام دبابات الاستيوارت، ومدرعات الاستاكهاوند ، وقــد حدث عنها قائلا : انهــا جاءتنا هدية من جمهورية مصر العربية عام ١٩٥٦م ، دعماً لقدرة الســودان الحر المستقل، ورمزاً للاخاء بين قوات البلدين المسلحة ، وبهــا بدأ تكوين السلاح في غرة يوليو ١٩٥٧م وقد تــولى قيادته بعد ميلاده العقيد حسين على كرار ، وكان اسمه (سلاح الفرسان) ، ثم تحول اسمه إلى (الالاى المدرع) .

واستطرد الرائد يحدثنا عن تاريخ المدرعات، عموماً،وعــن تاريخ ســلاحنا فيها بوجه خاص ، ثم انتقلنا لحصة عملية للتعرف على المعدات وخواص اجزائها وكفاءتها إلى غير ذلك ، فما كادت اعيننا تقع عليها رابضة كعجائز الاسود ، حتى بادر احدنا الرائد المعلم بالســؤال :

ـ ألا تعتقد ياســيدى ان هذه المدرعات قد شاخت وادركها البلى ، ولم تعد صالحة لخوض معركة حربية ؟! .

استوقف الســؤال الرائد بعنف ، فالتفت إلى السائــل ورمقه بنظرة انكــار وســخرية، وقال : هى صحيح Obslete ومهكعة وتعبــانة شــوية بس .....

فقاطعه طالب آخر متسائلا :

ـ وليه المصريين يدونــا معدات خردة زى دى ؟! دى حقارة عديل والله !!

ـ حقارة ؟!

قالها الرائد لسائله وهو يكاد يتميز من عاصف العجب و الذهـــول ، وأخذ يكرر الكلمة ويضرب كفاً بكف ، ثم انفجر غيظه بغتة وقال :

ـ انت عارف يابني عامل زي ايه؟! زي واحد شحات فتح بلاغ في القسم ضد واحد شحته ريال براني !!

ارسل حديثه بصورة مغيظة جادة ، حتى اننا لم نفطن إلى انها دعابة أو نكتة لمـــا يشوب نبراته من الغيظ ، فبدا لنا اننا عفو الخاطـــر قـــد اغضبناه فسادنا الوجوم ، وطأطأنا رؤوسنا نادمين .

فصرخ الرائد المغيظ فينا :

ـ انتو يابجـــم ! .. إيه يابخـــه دي ؟

فتزلزلت جنبـــات المكان بضحك عاصف مدو ، وضحكنا طويلا كما لم نضحك من قبل ، واستعاد الرائد ذاهب نفسه وشاركنا الضحك ، فانكسر بذلك حاجز الرهبة والكلفة بيننا وبينه .

جمع الرائد احمد إلى شخصية المعلم النابه العليم روحاً مرحاً وعقلا ذكياً لماحاً ونفساً تواقة للجمال والاشراق والدعابة ، وقد كسب اللهجة المصرية بحكم تشأنه في مصر رغم انه سوداني من قبيلة الشايقية ، كان لسانه مصرياً وفؤاده من نبت أرض الشايقيـــة ، فاطلقنا عليه اســـم (المصـــري) خاصة وهو لايخفـــي مشاعـــره الدفيقة نحـــــو الشقيقة مصر والاعجاب بها ، وربما كان ذاك ما جعله وثيق الصلات بابناء مصر العاملين في سفارتها وبعثتها التعليمية في الســـودان ، فقد كان له بينهم اصدقاء من أقـــرب خاصته ، ولايفتأ يردد اغنية كوكب الشرق في طرب وفتـــون :

مصر التي في خاطـــري وفي فمـــي
أحبهـــا مـــن كل روحـــي ودمـــي
بني الحمـــــي والوطـــــن ......
مـــــن منكموا يحبهـــا مثلي أنـــا؟!

هكذا كان الرائد أحمد عبد الحليم . رجلا عالماً عاملا يحب بلاده والحياة .. وظل كذلك حتى غادر السودان إثر دسيسة مأساوية رموه بهـا كالسهـم النافذ لتعصف بتوجهه وتطلعه السياسى ، ونفذ الكيد الخبيث فى مطار بيروت ، ثم كان الحريق الذى أتى على كل شىء فلم يذر .

ولسـوف يتصل الحـديث مرة ومرات بالرائد — اللواء فيما بعد — أحمد عبد الحليم ، لارتباط شخصه بالأحداث السياسية .

أما المعلم الثانى النقيب — اليوزباشى يومئـذ — خالد حسـن عباس ، فقد كـان يحاضرنا عن خواص ومهام المدرعات صلاح الدين والفرت ، وحدثنا انها وصلت من المملكة المتحدة عام١٩٦١م لكى نساير التطور الذى حـدث فى العالم،فتكشـفت فيه من خلال دروسه النظرية والعملية صورة المعلم الواثق من علمه ومعداته ، وكـان يبدو جاداً صارم القسمات لايحركه شىء ، فاعتقدنا — والحال كذلك — انه قمطـرير كالح الوجه قاتم الاعماق حتى ألفيناه بعد نهاية اليوم الدراسى يحادث الصاغ حليم ثم ينفجر ضاحكاً لامر بينهما ، فعقدت الدهشـة السنتنا ولم نصدق ان الرجـل يعرف الضحك !! وكان مرور الايام كفيلا بان يثبت لنا ان دواخله غير ظواهره ، وانه إنسان كالآخرين ، يأكل ويقرأ ويضحك ويمشى فى الاسواق !! وسرعان ماتصلت بيننا وبينه جسـور الود والزمالة ، والالفة ، فاضحينا جميعاً رفاق درب وسـلاح .

مرت أيام الاسبوع سراعاً ، وعند نفادها دعانى فاروق للعشاء ، ولكن فى غير منزله هذه المرة، فوقع اختياره على منزل شقيقته (نفيسة) وزوجها على حمد،وفى الوقت المضروب كنا هناك ، وقـد بدا واضحاً ان الأخت تعلـم نشاط شقيقها وما يدور ويدبر فى الخفاء،أما زوجها فكان له رأى وموقف من ذلك النشاط ،إذ درج على القول ان ذلك الذى يجرى ماهـو إلا تطلعات وأحلام دون تحقيقها خرط القتاد ! ثم جاء يوم فوصفها بانهـا تصرفات شباب جامح جانح !! وانتهى به المطاف محذراً فى سخرية موصية :— يا أولاد ، ماتلعبوا بالنار .. بتحرقكم !!

كان الرجل يهـوى — فى نظرنا — من عل ، فبلغ قمة السذاجة وهو يطلق ذلك التحذير ، فضحكنا طويلا على بساطة أهلنا الطيبين ، وفاتنا ان ندرك ان الرجل قد أوتى

الحكمة ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً

جمعت دعوة العشاء أيضاً الأخ النقيب محمد الحسن عثمان (جنكيز) قائد الخلية ، وأبل كول ارثر ، الذى جاء يسعى فى طلب العضوية مثلى ، وكان فاروق قد اعد اللامر عدته ، أو لعلها موجودة على الدوام ، بعضها طقوس ومراسم وادوات عمل .

بدأ فاروق يسرد تاريخ ونشاط التنظيم — تنظيم الضباط الاحرار — ثم عرج على المسألة الوطنية ، فتجاوبنا معه بتعليقات مقتضبة وعفوية ، ثم غاب عنا لحظات وعاد يحمل حقيبة انيقة صغيرة فتحها بحرص شديد وأخرج منها مصحفاً وانجيلا ومسدساً ! ! وضع ذلك على المائدة وطلب منى ان أضع يمناى على المصحف ويسراى على المسدس وفعل مثل ذلك أبل كول يمناه على الانجيل ويسراه تلتحم بيدى على المسدس ، عند ذلك بسط فاروق رقعة من ورق مصقول ، كتب عليها قسم الولاء للتنظيم باللغة الانجليزية بخط واضح ، لمعرفة كلينا بها ، وقصور معرفة أبل كول بالعربية إذ هو من ابناء الجنوب ، تلقى تعليمه فى المدارس التبشيرية هنالك ، وشرعنا نردد القسم خلف فاروق بصوت أقرب إلى الهمس على مسمع من قائد الخلية .

آمين ، قلناها معاً رمز التزام وولاء عميق لاحنث بعده أبداً ، فأعاد فاروق الكتب المقدسة والسلاح إلى موضعها بالحقيبة ، وحملها إلى الداخل بنفس التقديس والعناية . كان موقفاً مهيباً لا ينسى ، ففى مثل هذه المواقف يحس الإنسان قدراً من

الجلال والرهبة لايملك له دفعاً .

ثم انطلقنا فى سمر وأحاديث هازلة مرحة نغسل بها مشاعر المهابة والتوتر ، ونعيد نفوسنا إلى طبيعتها وعفويتها ، وانصرفنا بعد العاشرة مساء اثر وجبة عشاء ابدعت الزعيمة نفيسة — كما يسميها فاروق — فى إعداد اصنافها وصفت مائدتها بصورة بالغة الاتقان. وخرجنا بعدها إلى الحياة اعضاء ملتزمين فى تنظيم الضباط الاحرار.

* ٢٠ *

تقرر ان اغادر إلى مدرسة المشاه بجبيت وذلك لحضور فرقة قادة فصائل المشــاه الحتمية على الدفعة (١٣) ثلاثة عشر وهى الدفعة التالية لى فى التخرج من الكلية الحربية إذ إنى كنت قد تخلفت عن حضور هــذه الفرقة مع رفاق دفعتى (١٢) الثانية عشرة بسبب عدم استقرارى وتنقلى بين سلاح المدفعية والبحرية وأخيراً المدرعات ، كذلك حضر معى نفس الفرقة من زملاء دفعتى الملازم السر محمد أحمد (الان الفريق السر محمد أحمد نائب رئيس هيئة الأركان) ولا أذكر سبب تخلفه عن حضــور الفرقــة مع الآخرين من ابناء دفعتنا .

مهما يكن الأمر ، فقد تسنمنا بين رفاق الدفعة (١٣) مايشبه مركز القيــادة، فهم قد خبروا من قبل وخضعوا لسلطتنا وتسلطنا عليهم بحكم الأقدمية كطلبة سينير فى رحاب الكلية الحربية وعرصاتهــا ، فنعمنا بهذا الامتياز حيناً من الدهــر ، ولكــن ذلك سرعان ماتلاشى فى خضم مشاعر الالفة والود والتلاحم فــى قاعات الدراسة و حات التدريب وأوقات الفراغ ، فغدونا وكأننا أبناء دفعة واحدة .

كان مــن بين رفاق الدفعة (١٣) الذين تهيــأ لهم ان يشغلوا مناصب دستوريــة فيما بعد ، الأخ مامون عوض أبوزيد والأخ زين العابدين محمد أحمد والأخ أبو القاسم محمــد إبراهيم والأخ عثمان عبد الله والأخ فضــل الله برمة والأخ عوض مالك ، كما كان بينهم الثوريون الذين اقتحموا معترك السياسة وابلوا أحسن البلاء وخاضوا تجارب الانقلابات العسكرية مرة أو أكثر ، ولكنهم لم يوفقوا لشغل المناصب الدستوريــة كالآخرين ، فتدرج بعضهم فى سلك القيادة العسكرية حتى بلغ رتبة اللواء ، كما آثر بعض منهم طلاق الجندية وانخرط فى زحام الحياة المدنية والسوق الواســع العريض ، فلم يمض وقت حتى أصاب مالا ونال حظه فى متاع الدنيا القليل .

طوت صحائف الغيب عنا تلك المصائر والحظوظ ! فاذا نحن يومئذ ضباط ملازمون وطلاب مجتهدون لاهم لهم ولاشاغل إلا إحراز الدرجات العلا فى نتائج الفرقة، لتتاح لهم فرصة الترقى إلى رتبة الملازم أول ، كان ذلك شأن رفاقنا عامة ، أما نحن فقد كنا

ننتظر ان تتم ترقيتنا إلى تلك الرتبة استثنائياً مع دفعتنا ونثبت فيها بعد إحراز النجاح ، فظل يراودنا الأمل عند نهاية كل يوم دراسى ان تهتز أسلاك البرق باشارة الترقى ، ولكن ترقيتنا لم تتم إلا بعد اجتيازنا للفرقة الحتمية .

يعلق بذاكرتى من معالم ذلك الظرف وأحداثه وصور المكان الذى يحتوينا — (جبيت) — كانت من قبل منطقة عسكرية للقوات البريطانية اختارتها كمقر لوحدات المشاه المختلفة ، بينما اتخذ الانجليز منطقة (كرساقوا) المجاورة لجبيت قاعدة لقواتهم الجوية واختاروا منطقة (أركويت) مصيفاً لحكام البلاد الاستعماريين مدنيين وعسكريين ، لما تتمتع به هذه المناطق الثلاث من طقس معتدل صيفاً ، وبارد شتاءاً ، فهو عظيم الشبه بجو القارة الأوربية ، وأكثر ملاءمة لحياة أبناء الامبراطورية من بقية ارجاء البلاد ، فلما نال السودان استقلاله وتم جلاء القوات البريطانية عنه ، لم ينس من كانوا يحتلون هذه المناطق ويؤثرونها ان يضعوا بصمات وجردهم وذكريات حياتهم فيها أشكالا هندسية رائعة أودعوها سفوح الجبال وذرى الهضاب ، وامتد ذلك الأثر الباقى إلى نفوس الناس فى تلك الجهات ، فما فتئوا يمصمصون الشفاه ألماً وحسرة على ذهاب أيام الخير والنعم الجزيلة التى عاشوها فى كنف الجنود الانجليز وأريحيتهم وعطاياهم ، ولا يحسون حرجاً فى التباكى على زوال ذلك العهد ، بعد ان عادت بلادهم إلى طبيعتها الجبلية القاسية صخوراً صماء جدباء لاتثمر ولاتغنى من جوع ، وقد خفف من وطأة شعورهم بالخواء والخسران قرار قيادة الجيش بنقل مدرسة المشاه من أمدرمان إلى جبيت ، رغم أنه لاوجه للمقارنة أبداً بين الفتات الذى قد تمنحه أيدى الجنود الوطنيين أو تمنعه ، وبين فيوض النعم والعطايا السخية التى ألفوها من جند الانجليز !!

من أحداث الفرقة الحتمية التى انطبعت وتعمقت فى قرارة نفسى ، حدث هزنى وزلزل مشاعرى بعد وقوعه ، فبينما كنا نؤدى درساً عملياً فى الأسلحة الصغيرة ونحن نستظل بشجرة ضخمة ممتدة الاغصان والفروع والظلال ، حيث يقف قبالتى الملازم — محمد البلة حمزه ، إذا ببصرى يقع فجأة على ثعبان قابع تحت رجليه أو بينهما رأسه على حذاء البوت الفخم الذى يرتديه ، صحت وأنا أشير إلى رجله (الثعبان) فنظر سريعاً أسفل منه وماكاد يرى الثعبان وقد بدأ يصعد إلى ساقه حتى نفضها

بعنف فى مواجهتى غير عامد، فطار الثعبان ووقـع على وجهى وعنقى ! ! وبسرعـة البرق وبتاثير الاحساس بالخطر أطبق الثعبان بفمه على مقدمة (البوش هات) فـوق رأسى ، فعاجلتنى بديهتى واسـعفتنى بالتصرف لدرء الخطـر المحدق ، وأمسـكت بالبوش هات وقذفت بها بعيداً وكان الثعبان قد التف حولها أو كاد، فاسرع نحـوه الحاضرون وانقضوا عليه ضرباً بهيا كل السلاح حتى تمزق اشلاء متناثرة .

كان ثعباناً متوسط الحجم أسـود اللون لامـع البشرة، وقد تلقى ضربات الرفاق فى محاولة يائسـة للمقاومة والنجاة ولا منجـى من الموت إلا الله ، وانتهى الحـدث بضحكاتنا وتعليقاتنا الساخـرة اللاذعة ، ثم تراجعت ذكراه لتفسـح المجال لغيرها من طوارق الأحداث .

ثم بلغت الفرقة الحتمية لقادة فصائل المشاه بجبيت منتهاها ، بعد أداء الامتحـان النهائى فيها ، فقفل كل منا راجعاً إلى سابق وحدته العسكرية . فلما عدت للخرطوم حاولت اقناع قائد سلاح المدرعات ان يمنحنى جزءاً من أيام عطلتى السنوية ، ولكنه رفض طلبى فى كياسة وود متعللا بأن أفراد السلاح مقبلون على المشاركة فى مناورة حامية الخرطوم الدورية التى تجرى كل عام ونحن جـزء منها ، فتراجعت عن بغيتى ممتلىء النفس بالرضا والاقتناع ، واتجهـت من فورى لكى أشارك رفاق السـلاح الاستعداد للمناورة المقبلة .

أخذ نشاطنا التنظيمى يسير جنباً إلى جنب مع واجباتنا العسكرية وحياتنا العامـة ، فضمتنى ورفاق التنظيم اجتماعات ومهام تنظيمية عديدة ، وشاركت فى إعداد بعض المنشورات ، غير انى اتخذت حيالها موقفاً حازماً صلباً ، حيث وضعت قيادة التنظيم موضع الاختيار بين الأخذ به أو إعفائى من عضويته ، وقد تمثل هذا الموقف فى عدم المساس والإساءة للرئيس عبود بصورة مباشرة أو غير مباشرة فى منشورات التنظيم ، والا تتعرض المنشورات لقادة جيش البلاد بالاساءة الشخصية المغرضة ، فأمـن فاروق على هذه المرتكزات والزم بها الآخرين ، ولهذا لم يصدر قط عن التنظيم منشور يمس شخص الرئيس عبود أو يتعرض للقادة وكبار الضباط فى مسائل السلوك الشخصى ، فاقتصرت معارضـة المنشورات وانتقاداتها للنظام على الاداء التعبوى والفساد الوظيفى والقصور المهنى واستغلال المواقـع التنفيذية .

وكان يشرف على إعداد المنشورات الأخ فاروق وبعض أعضاء التنظيم ، وكان يستغل علاقاته الشخصية والسياسية مع سكرتير وقادة الحزب الشيوعي السوداني في طبع وإعداد وتوزيع منشورات تنظيم الضباط الاحرار ، وفى مقابل ذلك تجاوز عن بعض منشورات الحزب ، التى تصدر باسم التنظيم ! ! وهى تحرض القوات المسلحة وتطالبها بالتلاحم مع القوى الوطنية لاسقاط نظام حكم الرئيس عبود ، واقامة حكم ديمقراطى وطنى تقدمى ! !

على وجه الاجمال ، كان التعاون بين الحزب الشيوعى واليسار عموماً وبين تنظيم الضباط الاحرار يجرى بصورة ايجابية معافاة ، حتى كان يوم ، صدر فيه منشور باسم الضباط الاحرار ، فيه مساس بسمعة القوات المسلحة عامة ، وبعض أعضاء المجلس الأعلى وكبار الضباط ، بصفة مباشرة ومسيئة ، فادرك فاروق ان المنشور صادر عن الحزب الشيوعى السودانى ، حيث طبع على نفس ماكنة الرونيو الخاصة بالحزب ، ثم كانت المواجهة ، وانكر قادة الحزب علمهم بذلك المنشور ، وأصروا على انه صادر عن تنظيم الضباط الاحرار ! !

عندها دعا فاروق لاجتماع تنظيمى موسع من خلال الخلايا والمنظمين ، فصدر عنه قرار بالاجماع يمنع الحزب الشيوعى من اصدار منشورات باسم التنظيم ، والتزم الشهيد عبد الخالق بالقرار ، وقال فى حيثيات ذلك الالتزام :

— انه يحترم مشاعر وتوجهات الضباط الأحرار ، غير أنه — بصورة غير مباشرة — قطع عديداً من حبال الود والتعاون بين الطرفين فى مجال المنشورات خاصة ، وسعى التنظيم لايجاد البدائل والاعتماد على النفس ، ولكنه لم يحقق الا نجاحاً محدوداً لا يقارن بما كان عليه الحال من قبل .

جاوز تنظيم الضباط الأحرار مرحلة الصبا إلى الشباب ، يوم تبلورت خططه وأهدافه من خلال إجتماعات مطولة مكثفة للخلايا والمنظمين وكان الاتفاق على صورة النظام البديل .

حقاً لم يكن ذلك النظام الحلم ، الذى يؤرق خاطرى على الدوام ، ولكنه شىء . وهو قطعاً خير من لاشىء ، أو قل هو خطوة فى الطريق إلى الدولة الموحدة القوية

والحياة الباذخة للناس جميعاً ! ! تم الاتفاق على مايلى :—

١ — يشكل — عند استيلاء التنظيم على سلطة الحكم فى البلاد — مجلس مؤقت لفترة انتقالية، يسمى خلالها (مجلس الشعب القيادى) يتألف من خمسة عشر عضواً، تسعة منهم عسكريون يمثلون قومية الجيش ووحداته المختلفة ، يختارهم مؤتمـــر موســع للقادة ، على ان يكون رئيس هذا المجلس هو الضابط الأعلى رتبة فيهم ، وهو من المخططين المشاركين فى تنفيذ خطة الاستيلاء على السلطة ، فيتولى هذا الضابط — بعــد توفر شروط الاهلية لرئاسة المجلس — قيادة الجيش لتأمين وحدة القوات المسلحة، بينما يتولى سكرتير التنظيم اعباء وزارة الداخلية لتأمين السلطة المدنية، اضافه إلى قيامه بمهام أمانة مجلس الشعب القيادى الذى يضم عضوين من الاخوة أبناء الجنوب المنخرطين فى صفوف التنظيم ، وستة مدنيين فيهم جنوبى واحد من ذوى الحس الوطنى الصادق ، ويمثــل الخمسة الآخــرون الاتجاهات المعتدلة فى الاحــزاب والنعرات القبلية ، أما الاحزاب فهى :

أ — الحزب الشيوعى الســودانى .

ب — القوميين العــرب .

ج — حزب الأمــة .

د — الاتحــادى الديمقراطى .

ه — جبهة الميثاق الاســلامى .

و — حــزب ســـانو

٢— * يعلن بوسائل الاعلان والاعلام ان العمل العسكرى أملته مصلحة الســودان العليا ، وينتهى دور العسكريين بعد تسليمهم مقاليد الحكم لحكومة دستورية تقود البلاد إلى مجتمع الكفاية والعدل والرفاهية، على ان يتم ذلك فى مده لاتتجاوز الاثنى عشر شهراً.

٣— * يقوم مجلس الشعب القيادى بترشيح أسماء واختيار مائة منهم لتقدم لهم دعوة الزامية ، شريطة ان يكونوا من قادة العمل الطائفى والحزبى والإدارة الاهلية والمثقفين من ذوى الاهتمامات السياسية والوطنية ويشترط فيهم صدق الحس الوطنى ، ويطلق عليهم اسم (المؤتمــر المئوى) .

٤ـ * يقوم مجلس الشعب القيادى أيضاً بترشيح واختيار عشرة خبراء فى المجالات التخصصية (سياسة واجتماع واقتصاد .. الخ) ولايشترط ان يكونوا سودانيين .

٥ـ * تعرض على مؤتمر يضم مجلس الشعب القيادى والمؤتمر المئوى والخبراء الأهداف السياسية ليتناولها بالبحث ولتناقش فى حرية تامة ، وللمؤتمر صلاحيات التعديل والإضافة والالغاء وهى :

أ ـ الحكم الاقليمى « دراسة مقدمة »

ب ـ حل الاحزاب وتجربة الحزب الواحد بعد تقديم دراسات حولها .

جـ * وضع مسودة دستور دائم فى اطار الحكم الاقليمى والحزب الواحد .

د- * تطوير القوات المسلحة لحماية أمن البلاد ودستورها الدائم .

هـ * طرح شعار التنمية والانفتاح على الريف .

و- * اتباع سياسة خارجية ايجابية فى المجالات العربية والافريقية ، والالتزام بعدم الانحياز .

ز- تكوين منظمات شعبية روافد للحزب الواحد .

٦ـ ـ يقوم مجلس الشعب القيادى باعلام مكثف لنشر مداولات المؤتمر ومناقشاته حول الأهداف السياسية .

٧ـ * يفرغ الاساتذة والطلبة لتوعية المواطنين واجراء تعداد سكانى يساعد على عدالة تقسيم الدوائر الانتخابية وتسجيل الناخبين فى برنامج واحد .

٨ـ * اجراء الانتخابات العامة لاختيار مجلس للشعب (برلمان)

٩ـ * عند اجراء مرحلة الانتخابات يجرى معها استفتاء على الدستور الدائم .

١٠ـ * يعين مجلس الشعب القيادى ثلث عضوية مجلس الشعب الأول من ذوى الكفاءات التى ترشد وتثرى عضوية مجلس الشعب فى العطاء والبذل .

١١ـ * فى أول اجتماع لمجلس الشعب مكتملا ينتخب رئيس الوزراء للاضطلاع بالسلطات التنفيذية ويظل مجلس الشعب القيادى يملك صلاحيات رئاسة الجمهورية لحين انتخاب الرئيس وفق الأسس التى يحددها الدستور ، على ان يتم ذلك فى مدة اقصاها شهران بعد أول اجتماع لمجلس الشعب مكتملا .

كان هذا هو التصور الذى أصر البعض على تسميته بالامثل ، فلم يرض مطامح الآخرين فأصروا على اخضاعه لمزيد من الدراسة والتأطير ، وان يبقى على الدوام قابلا للتعديل وفق مقتضيات الظروف والمستجدات ، وان تأخذه العقول بالنقد فى كل حين ، بحثاً عن الاكمل والافضل .

فانطلقت العقول بعد حجر واسر تبدع فى اثراء فكر التنظيم ومراميه وهيكله ، فاقترح البعض ان يكون رئيس المجلس مدنياً ممن عرفوا بحسهم الوطنى وعدائهم لنظام الحكم القائم ، والا تكون له روابط عقائدية أو حزبية معلومة ، وذلك لضمان قومية ونقاء نظام الحكم الثورى المنشود .

وخرجت الافئدة الحرى تبحث عن تلك الضالة ، كل يبحث عن الرجل الذى يحمل تلك السمات ، فتفرقت بهم السبل ، ثم رجعوا بخفى حنين ، إذ ان كل مرشحيهم لقيادة الوطن والدولة ، كانوا اقطاباً للاحزاب !! فبقى المنصب شاغراً بعض الوقت ، ولم يهتد الرفاق إلى ذلك الرجل المناسب .

بقى الحال كذلك حتى كان ذات يوم التقيت فيه بالبركة — والبركة هو الاسم الحركى لفاروق عثمان حمد الله —

التقيت بفاروق أو البركة فى منزله يوماً ، فتحدثنا طويلا عن نشاط التنظيم ، وقيادة الثورة المرتقبة ، وذكرت له عرضاً اننى كنت بالأمس مع ملاحظ ورش الشاطىء بمصلحة الوابورات / العم أحمد رمضان وقد توثقت علاقتى به خلال فترة تدريبى بمصلحة الوابورات ، وهو صهر مولانا بابكر عوض الله ووالد زوجته وكان مولانا يومئذ قاضياً بالمحكمة العليا ، وقد تم اللقاء بين ثلاثتنا بمنزل الأسرة ، فثار نقع الحديث عن الاوضاع العامة والحياة السياسية خاصة ، فلم يخف مولانا سخطه على قيادة النظام الحاكم ، لما جبلوا عليه من الاستهتار بالمدنيين دون اعتبار أو مراعاة لمكانتهم الإجتماعية والقومية والوظيفية ، واورد مثالا على هذا الاستهتار البعيد بتجربة مر بها هو شخصياً وتأذى منها وغضب ، إذ عمد وزير الداخلية لاخلائه من منزله الحكومى بحجة أنه نال سلفية مبانى

قاطعني فاروق صائحاً :

ـ وجدتها .. وجدتها !!

ثم استدار نحوى وقال :

اسمع ياهذا ، مولانا بابكر هذا هو ضالتنا المنشودة ، نريده رأســاً للدولة ، ونريد صديقه الحميم أحمد متولى العتبانى أيضاً عضواً بالمجلس ممثلا للقوميين العرب ، واعلم أن طريقك إليه يمــر بشخص الأول ، فلابد ان توثق عــلاقتك به توثيقاً محكمــاً وإليك مهمتك مع كليهما بشيء من التفصيل :

• أن تعرف مدى استجابتهما للتعاون مع العسكريين إذا نفذ التنظيم انقلاباً للاطاحة بالنظام القائم ومدى قبول القيادة المصرية لشخصيهما ، ومــن ثم اعترافهما بالنظــام الذى يمثلانه وتعاونهما معه ، فنحن نخشى ان تساند مصر نظــام الرئيس عبود بحكم ما بينهما من علاقات وطيدة نامية ، ولا تنس ان من أول أهداف سلطة ١٧ نوفمبر المعلنة ازالة الجفوة المفتعلة مع الشقيقة مصر ، ثم كانت اتفاقية الســد العالى وغيرها من مظاهر الود بين النظامين المصــرى والســودانى ، رغم الغبن والاجحاف الذى حاق بالدولة والمواطنين من جراء اتفاق ترحيــل واعادة توطــين أهالى حلفا إلى مهجرهم بسهوب الشرق ، بعد إنشاء السد العالى .

هذه وغيرها أسباب جوهرية قد تدعــو مصر لاحباط أى عمل عســكرى يوجه ضد نظام الرئيس عبود ، ولايخفى علينا ان للمصريين عيوناً ترصد مجريات الأحداث فى السودان ، ولهم مخالب بين ظهرانينا تأتمــر باشارة منهم ساعة البأس والخطر على النفــوذ .

ثم تابع فاروق حديثه :

فى ظل هذه الحقائق الموضوعية ، ينبغى ان تكون حذراً غاية الحذر فى اتصالاتك بالرجلين مولانا بابكر عوض الله وأحمد متولى العتبانى ، ولا تطلعهما على شيء يتعلق بتنظيم الضباط الاحرار وأفراده ونشاطه .

أومأت بالايجاب وطلبت تفسيراً أو توضيحاً لقوله (عيون مصــر ومخالبها فى

السودان) ، فسكت فاروق برهة وقال :

ــ نحن نظن ــ وارجو ان نكون مخطئين ــ ان الصاغ أحمد عبد الحليم وشقيقه البكباشى محمد ، يعملان بالمخابرات المصرية ! !

عقدت الدهشة لسانى وجحظت عيناى لهـول ما اسمع ثم قلت :

ــ واعجباً ! ! فقد كنت اعتقد جازماً ان الاخوين حليم عضوان بالتنظيم وان لم يجمعنى بأحدهما لقاء تنظيمى حتى اليوم ، ولربما جاء ذلك الاعتقاد وليد عـلاقة الصاغ أحمد بخالـد حسـن عباس وهـو قيادى بالتنظيم .

قال فاروق :

ــ تلك علاقة شخصية تماماً مثل علاقتى به ، رفقة وزمالة سلاح لا أكثر ، نمت بينهما يوم كان أحمد قائداً للسرية وخالد قائد ثانى تحت إدارته ، المهم ، الزم جانب الحذر فى أداء المهمة .

شرعت إبهامى فى الهـواء وأنا ابتسم شـأن من يستجيب للامر بحماس وثقة ، ثم انصرفت وعقلى مصطرع للافكار والمطامح الوطنية ، فدارت بى عجلة الذكريات إلى أيامى الأولى بالسـلاح ، يوم خرجنا مع السرية الثانية يقـودها خالد فى مهمـة تدريب خلوى بمعسكر العيلفون ، بعد ان تأهلنا لفرقة قادة الفصائل المدرعة بالمدرسة ، فتكشفت لنا أواصر علاقة وثيقة بين خالد والصاغ أحمد عبد الحليم ، الذى تعددت زياراته للمعسـكر ، وكان يسـهر معنا حتى الساعات الأولى من الفجر ، فى ليالى العطلات خاصة ، وكان يصحب معه نفراً مـن اصدقائه ، وعلى رأسهم الممثل (ميزو) وهـو فنان كوميدى فكه ، له ابداعات مشـهودة على مسرح البعثة التعليمية المصرية ، وخاصـة فن المنلوج ، فتعطرت ليالينا بمنلوجاته ونكاته اللاذعة ، فى تلك الظروف كان يتراءى لى ثالوث الاصدقاء خالد والأخوين حليم مثالا للضابط الحر المثالى ، ومن هنا نشأت قناعتى بان الاخوين مـن الضباط الأحرار لامحـالة . حتى فاجأنى فاروق بشكوكه آنفة الذكر ، فلم تهـدأ خواطرى حيال ذلك حتى صبيحة اليوم التالى ، فتهيأ لى اللقاء بخالـد فى مكتبه عـلى انفراد ، وفاجأته بالسؤال عن هوية الاخوين أحمد ومحمد عبد الحليم ! ! ومدى ارتباطهما بأجهزة المخابرات المصرية ! !

ادرك خالد ان وراء الأكمة ما وراءهـا ، وان سؤالى لم يأت مـن فـراغ ، فهـز كتفية وقال :

هذه اشاعة مغرضة منشـؤها غيرة رفاق السـلاح المهنية من الرجلين ، وربما لأنهما لايخفيان عن أحد حبهما واعجابهما بمصر ونظام الحكم فيها ، وربما للعـلاقة الشخصية التى تربط البكباشى محمد عبد الحليم بالرئيس جمال عبد الناصر ، ولكـن لاشيء أكثر من ذلك البتة . فودعته شاكراً ، وامنت على ما قال بأن حسى وحدسى تجاه الرجلين لايقولان بغير ذلك ، وان سؤالى لم يكن الامن قبيل (ولكن ليطمئن قلبى) وأغفلت عن عمد دوافع ذلك السـؤال امتثالا لأوامـر التنظيم وقواعده فى العمل ومن أجل المهمة .

انتقلت من ميز سلاح الخدمة بالخرطوم بحرى للسكن بميز حامية الخرطوم داخل الثكنات ، وقد تم ذلك بترتيب وتدبير من فاروق لكى اكون قريباً منه ، وليسـهل اتصالى — فى الوقت نفسه — بمولانا بابكر عوض الله ، الذى يسكن بمنزل حكومى مجاور بحى المطار .

وسرعان ما بدأت جذور العلاقة بينى وبينه تنمـو فى اطراد ، فكنت اتعمد لقاءه والحديث معه عفو الخاطر فى الطريق ، حتى استقبلنى ذات يوم بمنزله وعلائم الشك تبدو فى الخفاء ، ولكنى افلحت فى استئصالها تباعاً بتصرفاتى العفوية ، وشاءت الظروف ان يكون ابنه سامى وابنته نعمة فى بداية المرحلة الثانوية يومئذ ،فالفيته يبحث عن مدرس للغة الانجليزية والرياضيات ليأخذ بايديهما فى طريق النجاح ، وكانت فرصة حرصت على اغتنامها لتكريس وجودى قريباً من الرجل ، فتطـوعـت بتدريسهما ،ريثما يأتى الخباز الذى يعهد إليه بالطحين ! ! ولم أدع له فرصة لمراجعتى فى الأمر ، وشرعت فوراً فى التدريس ، وواظبت عليه فى الأيام التالية ، وهكـذا اصبحت لى حجة ظاهرة فى التردد على منزله ، والوقـوف على تفاصيل حـياته وفكرة وتوجهاته .

حرصاً على نجاح المهمة الكبيرة ، توددت للرجل ، وسعيت إلى جنانه وقـلبه بعـزم واصرار ، حتى غدونا صديقين ، ثم انسحبت صداقتى على أفـراد الاسرة

كلهم ، كنا نتحدث في عفوية وتبسط وانطلاق فيما يعن لنا من المواضيع والاحداث اليومية .

طوال ذلك ، كانت معرفتي بالسيد أحمد متولي العتباني تزداد يوماً بعد آخر ، وهي ثمرة لعلاقة الصداقة الحميمة بينه وبين مولانا بابكر ، أما جذورها فترجع إلى صلتي بأبناء شقيقه عبد الرزاق العتباني ، ومن خلال هاتين القناتين عرفت الكثير ، واستطعت أن انفذ إلى اغوار الرجلين فيما يتصل بمهمتي معهما ، ثم حانت ساعة الصفر للمواجهة . ! !

وصارحتهما ان أعضاء التنظيم يردون معرفة رأيهما القاطع حول قبولهما لمسئولية الحكم عند تنفيذ الانقلاب ! فدار بيننا نقاش أحمى وطيسه ما شجر بينهما من خلاف على التفاصيل ، أما من حيث المبدأ فهما متفقان تماماً على رفض التكليف ! ! وغلبت عليهما طبيعة المهنة ، فاتخذا لهذا الرفض اسباباً وحيثيات .

وافق كلاهما الآخر بانهما من رجال القضاء الكبار ، وحماة القانون ، وان اخلاقيات المهنة تحتم عليهما مبدئياً احترام الدستور وسيادة القانون ، فنظام الحكم الذي يكون الانقلاب وسيلته الأولى للوجود والبقاء ، هو في عرف الدستور والقانون عمل غير مشروع ، حتى لو اكتسب شرعية نسبية بنجاحه العسكري ، وتأليف قلوب الناس حوله ، وقد تنمو هذه الشرعية النسبية طرداً مع معدلات النجاح والانجاز ، ولكن البناء كله آخر الأمر يقوم على غير أساس ، وهو لذلك عمل غير مشروع يوجب المساءلة الجنائية وتوقيع العقاب المناسب .

قلت لهما :

— ولكننا واياكم نتفق — من حيث المبدأ — على الدوافع والغايات ! !

فقال مولانا احمد في معرض رده :

— ثق يا بني ، انك لو تصدقت على فقير معدم يعاني المرض والفقر فان ذلك عمل لا شك نبيل ومحمود ، شريطة ان تكون الصدقة حلالا من حر مالك ، فلا يكتسب عملك شيئاً من النبل اذا كانت صدقتك حراماً أو سرقة لحقوق الآخرين ، فهذا عمل جنائي يستوجب الردع ، وجرم لا يغتفر ولا يسقط بالنتائج الحميدة التي

تتمخض عنه

فدار - حول هذا المعنى - جدل فقهي بين الرجلين ، ورأى مولانا بابكر أن الانقلاب العسكرى - من حيث المحاسبة والعقاب - أشبه بجريمة الانتحار ، يفلت مرتكبها من العقوبة في حالة النجاح ، وتوقع عليه اذا حالفه الفشل ! ! ومن رأيه : أن الظروف الموضوعية لدول العالم الثالث والأوضاع السياسية خاصة قد تحتم على جيوشها واجب التدخل لوضع الامور في نصابها ، أو لتفجير الثورة الشعبية ، كما حدث في الثورة الفرنسية والثورة الاشتراكية وثورة ٢٣ يوليو المصرية ، ولكن هذا

التدخل تحكمه الرغبة والإرادة الشعبية ،والمسألة الجوهرية هاهنا هى إلتفاف قوى الشعب أو معظمها مع طلائع التغيير الثوريه ومؤازرتها لها والاخذ بتوجهاتها واهدافها المعلنة ، فاذا استطاعت الطلائع أن تترجم ذلك عملا وواقعاً ملموساً وحقيقة معاشة ،اكتسب الانقلاب مع التقادم شرعية ثورية تتدرج به مرحلياً نحو الشرعية الدستورية حين تكتمل فى ظله المؤسسات وتؤدى دورها بفاعلية ، مثل تكوين الجمعية التأسيسية وانتخاب رأس الدولة واجازة الدستور عن طريق الاستفتاء أو التمثيل الشعبى من خلال الجمعية .

قلت لمولانا بابكر :

- إذن لاخلاف بيننا على الاطلاق ، فلماذا ترفض التعاون معنا ؟! اتراك تخشى فشل الانتحار ؟! ضحك الرجل الوقور وقال :

- ان موقعى فى الهيئة القضائية ، وتاريخى السياسى . ومسئولياتى الخاصة ، جميعها لاتسمح لى بمثل هذا التطرف الذى يستهدف القانون ، وأنا من احباره ، انى اتفق مع عملك أحمد من حيث المبدأ على رفض التكليف وعدم التعاون ، فابحثوا عن سوانا ، وفقكم الله .

وضح لى ان رأى الرجلين قاطع لارجعة فيه ، وأنه لاسبيل لاختراق دفاعاتهما المنيعة ، فنقلت ذلك إلى فاروق كمحصلة أخيرة للمهمة ، فاستشاط غضباً وقال فى يأس :

- الملكى ملكى وان طالت عمامته ! ! لافائدة ، فما حك جلدك مثل ظفرك .

ولم يكن ذلك خاتمة المطاف فى علاقتى بمولانا بابكر عوض الله وأسرتة الكريمة ، وما كان فشلى فى اقناعه مدعاة لقطع حبال الود بيننا إذ اقتعد منى مقعد الأخ الاكبر ، وهـو الذى نصحنى بالالتحاق بجامعة القاهرة فرع الخرطـوم لاكتساب المزيد من العلم والمعرفة ، فعملت بنصحه، ثم نصحنى مرة باقتناء عربة فلكسواجن كعربة ووعدنى باستغلال علاقاته مع إدارة شركة سفريان لاحصل على العربة بأقساط جد مريحة ، وفعل ذلك مشكوراً جزاه الله ، وكانت أول عربة امتلكها فخرجت اجوب بها شوارع العاصمة أسيراً لنشوة التملك، وشعور خفى بالاختلاف والتفوق على الآخرين ، وادركت بوحى التجربة ومعطياتها ان عربة الانسان جزء مكمل لشخصيته الإجتماعية ، وفى غمرة النشوة بذلك الانجاز طفق قلبي يبحث عن فاتنة تشاركه بهجة الحياة، فلم يكبل خطوه على ذلك الطريق الا صوت صهرى السابق ينبعث من الذاكرة داوياً بحكمته المأثورة :

— من تزوج على عجل نـدم على مهـل .

فتمهلت هذه المـرة .

فى زحام الحياة والأحداث ..

سار نشاطى التنظيمى جنباً إلى جنب مع تطورات حياتى الإجتماعية والعسكرية وفى تلك المرحلة طغى نشاطى العسكرى على ماعداه ، حيث أوكل إلى قائد حامية الخرطوم مهام ضابط شئون الرياضة بالحامية ،ووضع على كاهلى أعباء مهمتين عظيمتين ، الأولى هى الاشراف على خيـول الحامية ، واعداد ميدان البولو بامدرمان بالتعاون مع بعض ضباط الكلية الحربية، تنفيذاً لأوامر نائب القائد العام اللواء حسن بشير نصر ، الرامية لمعاودة فريق البولو العسكرى لنشاطه بعد انقطاع طويل .

لم تكن تلك مهمة سهلة ، إذ اقتضى الآمـر إعادة تنظيم وبناء الفريق من عضوية ومعدات وخيول وملاعب.. الخ ، فكان شيئاً كالاختبار والتحدى ،واقبلنا على تحقيق المستحيل بعزائم ماضية خلاقة ، وحققنا من النجاح قدراً وصفه معالى اللواء بانه مجهود جبار وعلى سبيل التكريم والمكافأة منحنا حق العضوية ونصيحة خبير مجرب بالإكثار من التمارين الفردية والمشتركة ، حتى نكون أهلا لمنافسة قدامى فرسان اللعبة المتميزين، امثال العميد محمد المرتضى فضل المولى ، والعميد محمد إدريس عبد الله ، والعميـد

عمر محمد إبراهيم ، والرواد حســن الأمين صالح ، وتوفيق أبو كدوك ، وانس عمــر ، وميرغني ســليمان خليل ، ومحجوب عبد الفــراج ، وكوكبة من الضباط البريطانيين العاملين بســلاح الطيران وكلية القادة والأركان ، عدا مجموعة من صغار الضباط الذين آبدوا حذقاً ومهارة في لعبة البولو من قبل ، ثم انضــم للفريق بعد ذلك نفر مــن علية المجتمع وقادته في مقدمتهم السيد الصادق المهدى.

كان نادى البولو حينذاك قطباً يجتذب هواة اللعبه من الجنسين في العاصمه وخاصة الاجانب ، وقد شهد مرحلة من التطــور وكثافة النشاط والبرامج التنافسيه يمكــن وصفها بالعصــر الذهبي ، حين أشرف كبار المنظمين واللاعبين على شئون النــادى ومناشطه حتى أضحى منتدى لقادة الرأى في السودان ، ينطلقون فيه على سجيتهم في اللعب والحديث ، وتتهدم فيه حواجز الانتماء والولاء ، وتأتلف القلوب المتنافره ، ويتجلى الخلق السوداني الاصيل — غير أنهم مع ذلك — كانوا يتحاشون الخــوض في الامور السياسيه ، الالماما . وكانت المهمه الثانيه التي جرى تكليفي بها هي التحضير للاحتفال بيوم الحاميه ، وهــو عادة حافل بمسابقات ألعاب القوى بمختلف ضروبها ، وكرة القدم والكرة الطائره والباسكت بول وغيرها ، وهذا النوع من الاحتفالات تقليد روتيني تأخذ به كل الحاميات والاسلحه دوريا ، وينتهي اليوم عادة بليلة ساهرة كبرى تتوج بها الاحتفالات . فرأيت والحال كذلك — أن أتوج جهدى بتقديم ابداع للكاتي الفنيه والادبيه ولم اكن اطلب حقاً ليس لى !

اقترحت لقائد الحاميه ان نقدم فصلا من رواية ـ دفعت بها الى المخرج المعروف احمد مصطفى سعيد الشهير باسم (أحمد عاطف) عام ١٩٦١م وكنت طلبت منه تقديم الروايه من خلال الإذاعة باسم (النفس الأمارة) فاقترح على — بعد قراءتها — أن يقوم باعدادها كمسلسل اذاعي ، وان يعدل اسم الروايه ليكون (بيني وبين نفسى) فوافقت بعد جدال. ورأيت أن يرى النــور جزء منها في ليلة الحاميه ، أثراء للبرنامج الساهر بلون من الفنون حبيب ! ! وشاركني المخرج احمد عاطف الحماس للفكره ، وقطع على نفسه الوعد بتنفيذها لايثنيه عن ذلك شيء ، وفي زحام العمل ليوم الحامية وليلته ، كان الوقت يمر حثيثا ونحن نسابقه ، كنا نبحث في كل الدروب عن روائع الابداع غناء ورياضة ومرحاً وفناً رفيعاً ، ولم نكن نرضى بذلك بدلا .

ثم جاء اليوم الموعود فى زفة عرس ...

واحتشد لدينا من الابداعات شيء كثير ،حتى برنامج الليله الساهره غص بالعديد من ألوان الطقوس العسكريه والفنـــون ، وبدا الاناء اصغر مما يراد وضعه فيه ،فتولى قائد الحاميه انتقاء الاروع من كل شيء ، واعتذر لى عن تقديم فصل المسرحيه ضمن ما تم اسقاطه من القائمه من فقرات اخـــرى ، واشار إلى حضـــور اللواء حسن بشير وكبار الضباط للحفـــل ، ولهـــذا يرى ان يقتصـــر حفل المساء الســـاهر على الغناء الشعبـــى من ميرغنـــى المامـــون واحمد حســـن جمعه وعرض الجـــاك ، والغنـــاء الحـــديث من عميد الفن احمـــد المصطفـــى والفنانين عثمان حســـين وابراهيم عوض ، وحاولت جهدى ان اقنعه بجـــدوى تنويع مواد البرنامج واشتماله على ذلك الفصل الواحـــد من مسرحيتى تلك ، خاصة وقـــد ســـبق ان عرضت عليه الأمـــر ووافق عليه تم اعـــداده للمناســـبة ، فقال مقاطعـــاً . الموضوع ده خلاص انتهى .

خرجت من مكتب قائد الحامية يائساً كاسف البال ، فهرعت بالنبأ الفاجـــع إلى المخرج أحمد عاطف ليوقف تحركه الميمون لاعداد الفصل المـــراد تقديمه .

وبعد أكثر من عام ، عانقت روايتى باســـمها الجديد (بينى وبين نفسى) آذان الناس وحركت مشاعرهم من خـــلال المذياع ، ثم قدم منها المخرج أحمد عاطف اسكتشات ضاحكة عبر الإذاعة والتلفزيون دون ان يذكر اسمى كمؤلف ، فآلمنى ذلك التصرف وانكرته عليه ،حتى إذا طفح الكيل أوقفته عن تشريح الرواية اجزاء مبتسرة ، حتى تم تقديم الرواية كاملة على خشبة مسرح قاعة الصداقة والمسرح القومـــى ومسارح الاقاليم باسم (هو وهى) وقد حظيت فى كل مكان باعجاب النظارة واستحسانهـــم كما جرى تسجيلها للتلفزيون ،وحملت المسرحية فى كل هذه المواقع اسمى واحتفظت فيها بكامل حقوقى المادية والأدبية ،

زخر يوم الحامية وليلتها بكل شائق مبتكـــر ، ثم أعقب ذلك موسم الاجازات السنوية ، وكنت وصديقى الكدرو قد رتبنا أمرنا لقضاء العطلة معاً ، وتولى عنى وضع برنامجهـــا الحافل ، فرأى ان نتوجه بالطائرة إلى اديس أبابا عاصمة أثيوبيا لنقضى بها اسبوعاً، ثم نغادرها براً إلى (سودرى الاثيوبية) حيث المياه المعدنية فنبقى بها ثلاثـــة

أيام ، نعود منها إلى اديس مرة أخـــرى لنتجه براً إلى بحيرة تانا أو (بحر دار) كـــا يسميها أهلها، فنمضى بها قرابة الاسبوع ونغادرها براً إلى (اسمرا) عاصمة ارتريا، فنعيش فى رحابها نحـــو ذلك ثم نغادرها براً إلى بلدتى كسلا مروراً بمدن (كرن) (بارنتو) (اغردات) و (تسنـــى) الارترية . ونبقى فى كسلا اسبوعاً أخيراً نتوجه بعده للخرطوم .

قال الكدرو عن هذه الرحلة : انها ستكون رحلة الوداع !! وعنى بالوداع هجر حياة العزوبية والدخول فى قفص الزوجية السعيد ، ولم أكن طرفاً فى هذا الاختيار والقصد ، أما هـــو فقد قطع شـــوطاً إلى تلك الغاية من قبل ، إذ كانت مراســـم خطوبته على احدى قريباته أحد انجـــازات ذلك العام، وبدأ الاستعداد لاستكمـــال اجراءات وطقوس الزواج ، ومـــن ثم رأى أن يتزود من دنيا الطلاقة والحرية لليالى الاسر والالتزام فى محبس الزوجية ومنفى الزاهدين .

فمضيت اعد عدة الترحال ، وأنا امنى نفسى بلحظات ماتعة خصيبة فى رفقة ذلك الصديق الصدوق ، فلما حان يوم الرحيل فاجأنى الكدرو بانه رأى ان يستبقى أيـــام عطلته الســـنوية إلى ما بعد الزواج ، لتشاركه عروسه بهجة التنقـــل بين مراتع اللهـــو والسياحة والترفيه ، فيما يسمى بشهر العسل .

آلمنى ذلك القرار المفاجىء وأسعدنى فى نفس الوقت ، فقال الكـــدرو ضاحكاً :
— ان مغريات العزوبية كالتدخين سواء بسواء ، وان على من يريد الاقلاع عن عادة التدخين مثلا ان يوطن نفسه على ذلك ، ثم يلقى بسجارته قبل ان تصبح عقباً ويسحقها بالأرض جيداً ، ثم يقلع عن اقتناع واختيار ، وهكذا الشأن مع كل الامور الدنيوية ولهذا اتخذ قراره ذاك ، وتمنى لى الكدرو ان احذو حذوه واتزوج .
قلت له هازئاً :

— من تزوج على عجل ندم على مهل !! تزوج أنت وفقك الله ، أما أنا فمازلت حريصاً على حريتى لا أرضى بها بدلا .

وعدت عند نهاية العطلة مفعماً بالرضا والارتواء ، وصادف ذلك يوماً مايزال ناقوس ذكراه يدق فى مخيلتى بعنف،فى ذلك اليوم التقيت بصديقى الكدرو وبرفقته

زميله الطيار بشارة الرضى في غرفة الطيار احمـــد الطيب المحينة ، فعلمت منهم ان الرئيس اليوغندى (ملتون أيوتى) سيبدأ زيارة للسودان عصر ذلك اليوم ، وقد كلف الكدرو بقيادة تشكيل حراسة جوية للضيف الشقيق .

ومعه على طائرته الطيار بشارة وهـو من دفعتنا ، وكان قد أرسل لدراسة الطيران مع خمسة آخرين فى بريطانيا ، كما أرسل عدد مماثل من الطلبة القدامى إلى كل مـن يوغسلافيا والحبشة ، فتأهلوا جميعاً وعادوا ليعتز ويتعزز بهم سلاحنا الجوى الوليد .

ولما كان الكدرو هو القائد المسئول عن سرب الحراسة الجوية ، فقد جاء ليأخذ قسطاً من الراحة والاستجمام يجدد نشاطه للمهمة الرسمية فى غرفة الصديق المحينة ، حيث تم اللقاء بيننا عفو الخاطر فى ذلك اليوم الحدث ، فأقبل على يسألنى عن مباهـج الرحلة التى تراجع عنها فى اللحظات الأخيرة ، فأخذت أقص عليه تفاصيـل احداثها مدعمة بالصور الفوتوغرافية ، وهو يستزيدنى فى شقف ولهفة ، فلم ابخل عليه بالمزيد المثير للكوامن والأشجان ، فقال بعفوية :

— لوسافرت معك ، لما كنت الآن قائداً لهذا التشكيل ، وهى مهمة رسمية أجد متعة فى اداثها وانجازها دائماً ، أضف إلى ذلك أنك بحاجة إلى حج مبرور يغسل عنك ادران الرحلة ! ! أما أنا ..

— فقاطعته مازحاً :

— أما أنت فبرىء من الاثام والذنوب ، تماماً كما ولدتك أمك ! ! ؟

ضحك الكدرو ساخراً ، ونظر فى ساعته ثم نهض يرتب أمره لاداء الواجب ثم أقبل علينا يودعنا ضاحكاً يتفجر ماء الشباب فى اعماقه وينعكس على عينيه بريقاً مـن فتوة ونضارة وشموخ .

ودلفت — بعد خروجه — إلى غرفتى لاستريح . فلم يمض على ذلك إلا ساعة أو أقل حتى استيقظت على هرج ومرج وصياح شديد :

— الكدرو ... الكدرو وبشاره ..

هببت مذعوراً واجف القلب طائش الجنان ، فالفيت رفاق السلاح يهبون مسرعين فى هلع صوب الجانب الشرقى من النيل وهم يتصايحـون بنبأ سقوط طائرة الكدرو

وبشارة فجريت معهم وأنا لا اعـــرف ما حدث وهنالك وجدنا حطام الطائرة واشلاءها التي تناثرت بعـــد ان اصـــدمت بمن فيها . وذهـــب الكـــدرو وبشارة شـــهيدين وهما يؤديان واجب الوطن كأروع مايكـــون الأداء ، فتحولت حفلات زواجهما إلى مآتم فاجعة حلت فيها صيحات البكاء والألم محل زغاريد الفـــرح والسعادة، بعد رحيلهما عن دنيانا الموقوته،ولكن الكدرو وبشارة خلدا بروحيهما بما تركاه من مآثر خالده على الأيام ، وانلم يعمر كلاهما في الحياة طويلا.

فالنار الاكثر ضراماً وتوهجاً هي دائما ادنى للزوال، وعظماء الرجال وأرباب النبوغ كالشموع التي تحترق لتضيء للناس دروب الخير ومجد الحياة،ثم لاتلبث ان تذوى وتندثر ، ويبقى أثرهم ينفع الناس ويكتب لهم الخلود .

هكذا حال الناس أينما وجدوا في عباب الحياه،لاينمو الانسان فيها بهيكله وسنين عمره وان تطاولت ومد له في الأجل،إن حياة كل منا - آخر الأمر - هي جزء من سيمفونية الوجود الازلية الابدية، فان كانت خيرة موجبه اضافت مزيداً من التناغم والجمال لروعة ذلك اللحن الخالد،أما اذا جاءت خواء من الخير طافحة بالشرور خالية من التوافق والانسجام،فأنها تبدو نشازاً شائهاً في سياق لحن الوجود، وأياً ما يكن حظها من الســـلبية والايجاب فان تاثيرها رهن بما يكون لها من ضعف او قوة، فالحياه الخالية من كل عطاء وفعل قوى التاثير يذروها هدير الوجود فتتلاشى بدداً في طياته الصاخبه المجلجله،وعلى نقيض ذلك كانت حياة الشهيدين الكدرو وبشاره ، فهى على قصرها عريضه مترعه بالخير والعطاء، فاعله بعيدة الأثر في الحياه والنفوس ، فعاش كلاهما فينا اضافة موجبه مشرقه على الدوام ،فلم يموتا - كما شبه لنا يومئذ - ولكنهما ككل الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون .

الا رحم الله شهيدى الواجب والوطن الكدرو وبشاره بقدر ما كان لهما في الحيـــاة من أثر ماجد عظيم .

تناقل الناس خبر الكارثه في كل مكان، وساد شعور بالجفاء والخوف تجاه هذا السلاح الغادر المميت! فامر القائد العام بأن يقوم كل طيارى سلاح الطيران بعرض جوى دفعاً لذلك الشعور الكريه ، وكان عرضاً آية في الفخامة والروعة،غسل ركام الخوف

والتوجس تجاه السلاح .

أعقب ذلك تشكيل مجلس للتحقيق فى الحادث وتوضيح حقائق وملابسات الكارثه فأنجز المجلس المهمة بصورة او اخرى ! !

لم يكن حادث الكدرو وبشارة هو الاول ولم يكن الاخير ! ! فقد سبقته فاجعة مأساوية اخرى اثر اصطدام طائرتين من السلاح ببعضهما فوق سماء توريت اثناء عرض جوى أقيم بمناسبة الاحتفال بعيد الاستقلال المجيد، أودى بحياة ثلة من خيرة شبابنا الطيارين يأتى فى مقدمتهم الطيار زلفوا والطيار الجميل والطيار مراد وهم من الرعيل الاول لرواد السلاح .

تلقى ثلاثتهم تدريبه الاول فى مصر ، ثم درجوا فى مراقى العلم والخبره والترقى عبر الايام. ثم تلا ذلك أحداث تزايدت واتصلت واصابت نفوس رفاق السلاح وأهاليهم وعامة المواطنين بالاسى والحسره والجزع ،وهم يودعونهم طائفة اثر أخرى فى ظروف وامكنة وأزمنة مختلفة .

فامتلأت قائمـــة الشهداء بنجوم مضيئة وكواكب لألاءة فى ســـماء المجد والريادة والطموح الذى يحلق فى الافاق،منهم نسورنا الكواسر: كمال، الزين، هدية، عثمان، عثمان، وعثمان ثالث، والزبير وغيرهم من حبات عقد الشهداء النظيم.

يثير الدهشه والعجب معاً، أن كل مجالس التحقيق التى شكلت للنظر فى حقائق الكوارث الجويه وأسبابها وملابسات وقوعها والنتائج التى تمخضت عنها، لم تقل بغير القضاء والقدر كسبب للاحداث ! !

* ٢١ *

نخضع لحكمة الأيام مرغمين ، فيتناقص الألم والشجن فى زحام الحياة وطوارئها ويطغى الحس بحرارة الحاضر وآمال المستقبل ، فنتخلص من سيطرة ذكريات الماضى القريب المفجعه ، وننغمس فى بؤرة العمل والهموم والأشواق ، ونعود نتابع سير حياتنا العسكرية بكل ما فيها من تفاعل وإثارة ، وتاتى توجيهات نائب القائد العام — أثر كل فداء — داعية لمزيد من التدريب المكثف الجرىء بغية التحكم فى المشاعر وتغيير النظرة القاتمه نحو قواتنا المسلحه ، حتى لو كان الثمن مزيداً من التضحيات ! !

فقد اتسم عهد قيادة معالى اللواء حسن بشير نصر — او السنجك كما يحلو لبعضنا ان يسموه — بعمل مخلص دؤوب لتطوير القوات المسلحه ، بل يمكن القول بانه ازهى عهود قواتنا المسلحه واوفرها حظاً من الناحيه التدريبيه ، رغم محدودية الافراد والاسلحـة والمعدات العسكرية وضعف الامكانات والموارد الاقتصادية آنذاك ، ولكن كل ذلك وغيره لم يقعد باللواء وقادة الجيش وضباطه وجنوده عن التدريب المتصل فى كل ضروبه ونواحيه ، تدريب انفرادى ومهنى وتخصصى وخلوى الخ ، ينتهى بتدريب جماعى مشترك لكل سلاح وقيادة فيما يعرف باسم المناورة السنوية ، ويبلغ التدريب ذروته بتجمع كل وحدات الجيش وأسلحته المختلفة فى مناورة قطرية كبرى يطلق عليها كل عام اسم معلوم ، وظلت مواهب اللواء السنجك العسكريه تتفتق كل يوم عن أمر يثرى كفاءة القوات المسلحة ، فقد كان دائب النظر والبحث فيما يبلغ بها مراقى التطور فلا تقف طموحاته عند حد ، يرســل بين حين وآخر توجيهاته واضافاته لتدعيم او تعديل امر في مرشد التدريب الذى تصدره القيادة العامة ، وفيها يلزم قادة القيادات ، والاسلحه بتنفيذ برنامج ضرب النار الخلوى ومناورة القيادة والتدريب المشترك فى الموعد الذى يحدده مرشد التدريب ، فلا يملك هؤلاء الا تنفيذ التوجيه بمنتهى الدقه والحرص ، لانهم يعلمون ان اللواء سيكون بينهم ومعهم فى أية مرحلة من مراحل التدريب ، والاخيره منها خاصة . ينادى كل فرد منهم باسمه ضابطاً كان أو صف ضابط أو جنــدياً ! ! فيتحدث اليهم حديث الراعى الحادب العطوف يعالج مشاكلهم العامة والخاصه ، ويضع عنهم اعباءها ويخفف وطأتها بما يتخذه من قرارات حكيمة نافذه ، فكانت شخصيته ومكانته وملكاته العسكريه وقدرته الخارقه على استيعاب الاسماء والاشياء والتفاصيل الصغيرة قد اذهلت

الكثـــيرين حتى لقبوه بالساحر ! اذ كيف يتأتى له من موقع نائب القائد العام أن يحيط بالاســماء والمشكلات الفردية ودقائق الحياة العسكرية ؟! وكنت مبهوراً مثلهم احسبه ساحراً حقاً حتى كان يوم تكشف لى فيه سر الرجل اللغز.

فبينما كنا فى ميدان البولو طلب الساحر من العميد عمر محمد ابراهيم قائد الحامية أن يوافيه بسجلات وارانيك بعض ضباط وصف ضباط الحامية، الذين يواجهون مشكلات عامة او خاصة ! ! مع كتابة مذكرة مختصره بالمشكله، وأن يبقى الأمر بينهما سراً كالعادة .

كنت ساعتئذ على مقربة من الرجلين اتسقط نثار الحديث . فأمرنى قائد الحامية ان احضر لمكتبه عند نهاية العمل فى ظهيرة الغد ، لكى احمل الارانيك الى معالى اللواء · إذ أن تلك مهمة لا يكلف بها الا ضابط ، وجئت فى الموعد المضروب وتساءلت عن سر وسبب ذلك التكليف ! فضحك العميد عمر وقال لى هامساً :

معالى اللواء تعود ان يحفظ اسماء الضباط والصف والجنود من مطالعة صورهم وارانيكهم وهو حريص على معرفة مشكلاتهم وإيجاد الحلول لها جهد طاقته، وقد درج على ذلك قبل زيارتهم والمشاركة فى مناوراتهم ومناسباتهم المختلفه . فيناديهم باسمائهم ويحادثهم فيما يكون لهم من مشكلات طى السجلات والاضابير ! ! ومن ثم يترسخ الاعتقاد فى نفوسهم بأنه ساحر لا تخفى عليه خافيه ! !

قلت له :

سعادتك مهما تكن الادوات والوسائل . فهذا سحر القيادة ودرس أتعلمه لقابل أيامى فى سلك الجندية .

فقال الرجل :

ولكن لن يتسنى لك الانتفاع بهذا الدرس ما لم تتوفر لك مواهب اللواء الساحر . فان له ذاكرة من حديد، وله قدرة خارقه على حفظ الاسماء والمشكلات، وهذا شىء نادر الحدوث وهو ما جعلنى اكف عن مجاراته في ذلك وأرضى بقليل حظى من السحر . ورغم ما يربطنا من صلات الدم ووشائج القربى فكثيرا ما احسست بالغيره المهنية وأنا الى جانبه اسمعه ينادى افراد حاميتى باسمائهم ويحادثهم فى شئونهم الخاصه والعملية . ثم يتلاشى ذلك الشعـــور فجأة فاعود الى نفسى فادرك ان احساسى نحوه لا يعدو ان يكون نوعاً من الغبطة لا الحسد .

قلت له بغير نفاق ولا مجاملة:
انت ايضا ــ سعادتك ــ لك مواهبك التى لا يملكها هو ولا غيره من الناس .

قال دهشـــاً :
ــ ماذا تقــول ؟
قلت بذات الصدق :

ــ ليس هذا مقالى وحدى ، فكل أفراد الحامية يؤمنون بأن لك حدساً لايخطىء وظنوناً لا تأثم وأحكاماً لاتخيب ، وفوق كل ذلك هم يحملون لك من الولاء ماتنوء بحمله الجبال ، فانت لهم أب لامجرد قائد للحامية ، حيث عرفوا فيك صفات الابوة قبل القيادة ، ودثروك بحبهم وما زالوا يفعلون .

فبكى العميد عمر ،وتقاطرت دموعه ، فانتهرنى بصوت يغلب عليه التأثر وبالغ الانفعال :
ــ ياظابط انتباه !! انصراف !!

فاستدرت محيياً ، وغادرت مكتبه وأنا لا أرى إلا ضباباً ، فقـــد اصابنى تأثره بعدوى البكاء دون ان أشعر ، وانثالت الدموع من مآقى جزافاً وأنا عاجز عن السيطرة عليها ومغالبتها حتى غيبنى الزحام .

تقرر أن تجرى مناورة وحدات الحامية والمدرعات السنوية عـــلى منطقة الحدود جنوب شرق مديرية الخرطوم، على ان تكون رئاسة قيادة المناورة جوار قرية الحقنة ، وهناك تولى العميد عمر محمد ابراهيم موقع رئيس هيئة الاشراف العام،وانتخب لقيادة المناورة العقيد أ . ح أحمد حســـن العطا قائد المدرعات ، يعاونه فى هيئة القيادة المقدم أحمد عبد الحليم الذى ترقى حديثاً لرتبته تلك كقائد ثانى للمناورة، وتم تعيينى أنـــا اركانحرب للقائد ، (Adjutant)

بدأت المناورة بنجاح كبير حسب خطة القائد وكان العقيد أ.ح العطا يتنقل فى ساحة المناورة بعربة جيب محملة بأجهزة الاتصال اللاسلكى ومع تطور مراحل المناورة، كان

مراســلات الميــدان D. Rs في حــركــة دائبــة ، يــتر ددان على مركز رئاسة المناورة غدواً ورواحاً على ظهر دراجيتهما البخاريتين في فتوة بادية تضج في عروقهما دماء الشباب الحــارة وآيــات عنفوانه ، رأيتهما يقفزان فوق الصخور والكثبان والخيران بكل الجرأة والاقدام ، فاثار ذلك عجبنا وإعجابنا نحن الضباط والجنود ، وكم تمنيت يومئذ ان لو كنت مكان أحدهما أو حتى رفيقاً لهمــا في تلك المهمة ، كان مشهدهما مثيراً لدواعي الغبطة في نفسي ،فقد خبرت ركوب الدراجات البخاريه من قبل ولكن ليس بتلك الصورة من الفتوة والعنفوان! كما كانت خبرتي قاصرة على دراجات الفسبا ولم اتطلع إلى ماسواها، حتى إذا كان يوم المناورة الثالث والاخير طلبت من المراسلة المتجول ان يترجل عن دراجته البخارية ، فحسب الفتى ان طلبي أمــر من رتبة أعلى واجب التنفيذ ، فتنحى عن الدراجة ثم حدثني بإيجاز عن أهم اجراءات قيادتها والتحكم فيها ،فامتطيت ظهرها في اندفاع وانا اتمثل شخص النميري وصورته ، ثم ادرت محركها واندفعت بها كالصاروخ عبر الكثبان والمنحدرات ، واعماقي مشحونة بمشاعر القوة والخيلاء والظفر ، وكان النجاح في السـيطرة على الدراجــة واجتياز الموانــع الطبيعية يحفزني لمزيــد مــن المخاطرة والتهور ، ولم اكن أحمل هماً من جراء ذلك الصنيع وأنا أعلم أن قائد المناورة غــير موجود ، فمضيت أركب المخاطر صاعداً فيها تملؤني ثقة بالنفس مفرطة، وظننت في غمار ذلك الزهو انني ملكت نواصي الدراجة وعجمت عودها وفرضت عليها سلطاني فاستدرت في عنف وسرعة لأقفل راجعاً ، فحدث مالم يخطر على بالي أبداً ، إذ انقلبت الدراجة اللعينة فجأة، وقذفت بي بعيداً بين صخور متناثرة ، فلم أعد أعي ما كان .

ظللت غائباً عن الوعي حتى تناهت إلى أذني أصوات فزعة متداخلة ، ففتحت عيني في وهن لاجدني محمولا إلى خيمة الاسـعاف ، وقد أصبت بجروح ورضــوض كثيرة تنوشني آلامها المبرحة بين حين وحين ، كنت أحسب الأمر أشد خطورة وأثراً حتى أقبل الطبيب رأجرى كشفاً عاماً على اعضاء جسمي واحداً بعد الآخر ، ثم ابتسم حامداً الله على السلامة ، قرر ألا شيء يؤبه له سوى تلك الخدوش والجروح السطحية وآخذ يعمل على مداواتها ، رغم ذلك ألفيتني لا أقوى على النهوض من سرير المستشفى الميداني ، فطمأنني الطبيب بان تلك آلالام وقتية سرعان ماتزول .

وإذ أنا فى تلك الحال التى لايحمد عليها الا اللطيف الخبير ، حضر القائد العقيد العطا وقد علم بالحادث ، جاء بوجه صارم غاضب ، فلم يأبه لحالى أو يواسنى فى مصابى ، بل وقف قبالتى وانتهرنى منادياً ثم وكزنى بعصاه فى موضع الالم وقال :

— انت ياخرابة ، وكت مابتعرف تركب الموتر سمح البودياك تتشالق شنو ؟! قوم يا اللا ....

فأخذت أنهض على مضض ومهل من شدة الألم ، فلم يعجبه ذلك التراخى فى تنفيذ الأمر ، وصاح :

— انتباه ياظابط !

قالها فى حزم وفرط صرامة جعلتنى اتحامل على نفسى وانتصب فجأة وأنا أغالب الآلام والاعياء ، فاردف : معتداً مارش .

وكانت يده تشير إلى خارج الخيمة فتصنعت القدرة وخطوت مجهداً إلى حيث تشير سبابته وكان يسير خلفى مباشرة ، وما ان غادرت الباب حتى وجدت نفس الدراجة النارية اللعينة تعترض طريقى ،وجاءنى صوت العقيد العطا من خلفى — قف ،اركب الموتر ده.

بدا لى الأمر محض دعابه أو مزاح ، ولكن لم يبدر من الرجل ما ينم عن ذلك أو يؤكده وظهر لى جلياً ان الأمر امر لارجعة فيه ، فتثاقلت خطواتى نحو الدراجة حتى علوت ظهرها فى بطء شديد ، واحكمت قبضتى على مقودها وقد عاودنى شعور بالتحدى والغضب حيالها ، ونسيت فى لحظة ركام الآلام التى تعتصر روحى وتشل قدرتى على الحركة ، فادرت محرك الدراجة فى عنف واندفعت بها نحو نفس الممرات الوعرة التى عركتها من قبل فصرعتنى ، ولكنى هذه المرة جئتها مزوداً بعاصفة من مشاعر الحذر والسخط والاصرار ، وكان صوت الدراجة وهى تغالب المسير فى بحار الرمل والمرتفعات والأودية ، أشبه بصوت الباكى المغلوب على أمره ، يلهب فى نفسى أحاسيس الرضا والثأر والانتصار ، فاغرانى ذلك للاستدارة بها فى نفس مكان الحادث الأول وبصورة أكثر جرأة وعنفاً وأنا ارتفع بصدرها فوق الصخور فتصطدم حيناً وتنفذ حيناً وتعجز عن مواصلة السير أحياناً ، فاذلل لها الصعاب وانطلق بها من جديد ، وهى لاتملك الا الاذعان لما أريد ، ولعلها حمدت الله كثيراً عندما وقفت بها آخر الأمر أمام القائد وأنا أكاد لا أصدق ماجرى .

وهكذا اجتزت ذلك الاختبار ، وعرفت بعده كيف تمتلك نواصى الدراجات البخارية ويسلس قيادها ، كما عرفت الكثير عن القائد العقيد / أحمد حسن العطا الذى لم تقتصر خبراته ومواهبه على ضروب العلم والقيادة العسكرية فحسب ، بل تجاوزتها إلى مآثر وخلال شخصية عظيمة ، فهو معروف بالكرم والحمية والشجاعة الأدبية خاصة ، ولكنه كان يشتط أحياناً فى ذلك فتأتى ردود فعل الآخرين فى غير صالحه ، من ذلك أنه درج على مواجهة الناس بأخطائهم ، وخاصة إذا كان الخطأ وشاية أو خبثاً أو نميمة ، وبتكرار ذلك منه لم يعد أحد ممن يعرفونه يجرؤ على التحدث عن الآخرين بما يسىء إليهم على مشهد ومسمع منه ، وهكذا أصبح كل غائب فى مأمن من كيد الآخرين فى مجلس العطا .

أذكر أن دعانا العقيد العطا — كموصول عادته — إلى وليمة بمنزله فى مناسبة انتهاء المناورة بنجاح مشهود ، وشملت الدعوة كل ضباط المناورة وطائفة من كبار الضباط والقادة العسكريين وعلى رأسهم معالى اللواء حسن بشير نصر ، فما كان بوسعنا ان نتخلف عن تلبية الدعوة رغم تضارب توقيتها مع دعوة أخرى لعشاء تنظيمى دعا له فاروق عثمان حمد الله بمنزله بمناسبة حضور بعض أعضاء التنظيم من وحدات الاقاليم فى مهام وماموريات عسكرية مختلفة ، فرأى فاروق اهتبال السانحة لعقد اجتماع موسع ، تناقش فيه جملة من قضايا التنظيم الملحة ، لاتخاذ القرارات المناسبة بصددها ، فتأجل — إزاء ذلك التضارب — موعد الاجتماع إلى الحادية عشر من مساء نفس اليوم .

قبيل ذلك الوقت خرجنا من منزل القائد العطا شاكرين له كرمه ، حامدين الله على مزيد خيره ونعمه ، وتوجهنا مباشرة إلى منزل فاروق واندمجنا فى الحضور ، بدأ الاجتماع التنظيمى متأخراً ساعة عن موعده ، إذ انصرف الاعضاء عند اللقاء إلى بث الاشواق والمجاملة واسترجاع الذكريات ، ثم تناولوا وجبة عشاء خفيفة وهم فى سمر وضحك وانفعال ظاهر بلقاء الأصدقا قبل رفاق التنظيم والكفاح ، ومن هذا وغيره ادركت ان أساس عضوية التنظيم يقوم على الروابط الشخصية والعلاقات الودية قبل العقائدية والتنظيمية ، وهذا يفسر ضمور حجم العضوية فيه وانغلاق دائرته وعدم التقيد باللوائح والقواعد التنظيمية المرسومة فى التعامل ، كذلك فان معظم الإجتماعات

ـ إن لم يكن كلها ـ يتم عقدها فى صـورة شللية عفوية ، كما تجرى الاتصالات بين أفراد التنظيم على هذا الأساس العاطفى كالصلات والصداقات الفردية ، أما الاسرار فلا مجال لحفظها غير الصدور ، حذر الاضرار بالأصدقاء قبل الأعضاء ، خاصة حين يتعرض البعض للاعتقال والتحقيق والمحاكمات !

وبدأ الإجتماع السكرتير فاروق بعرض نشاط التنظيم ومنجزاته فى الفترة السابقة ثم شرع فى بسط أجندة الاجتماع المتمثلة فيما يلى :ـ

* هيكل التنظيم .
* أداء التنظيم الثـورى .
* علاقة التنظيم بالحزب الشيوعى السـودانى .
* النقـد الذاتى .

تطرق لهيكل التنظيم النقيب الرشيد نور الدين ، فاقترح وضع هيكل تنظيمى كامل البناء ، وانتخاب رئيس للتنظيم بمواصفـات معينة ، ورشح المقدم جعفر محمد نميرى للمنصب ، كما ارتأى تكوين مكتب سياسى للتنظيم من قادته ومنظميه وأى أعضاء يتم انتخابهم ، وواصل سيل مقترحاته بتشكيل لجان متخصصة للمالية والإعلام السرى والإتصال والعمليات والشئون الادارية .

بدأت بعد ذلك مناقشة جوانب الاقتراح فاعترض جميع الحاضرين على مسألـة الرئاسة ، وتضاعف إعتراضهم على شخصية المرشح جعفر نميرى !! باعتباره نقطة شهيرة وهدفا للنظام الحاكم فى كل حين ! ولهذا رأى المجتمعون الابقاء على صورة القيادة الحالية المتمثلة فى سكرتير التنظيم ، أسوة بما يجرى به العمل داخل الحزب الشيوعى السودانى وقد أثبتت جدواها وملاءمتها للتنظيمات الثورية .

وفيما يتعلق بالمكتب السـياسى واللجان المتخصصة ، عارض الحاضرون جميعهم هذه الفكرة ، على اعتبار أن عضوية التنظيم ماتزال محدودة ضيقة النطاق ، فمعظم الخلايا كانت هيكلية يومئذ ، وقد تم اختيار قادتها وتعيينهم وكلفوا بتكوينها من أربعة أعضاء الى جانب قائد الخلية المكلف ، غير أن أكثر قادة الخلايا ـ حتى ذلك الحين ـ لم يتمكنوا بعد من استكمال عضويتها ، وقد بدا واضحاً أن بعض الاخوة المنظمين والذين يفترض أن يكون الواحد منهم مسئولا عن ثلاث خلايا تضم خمسة عشر عضواً يجد

نفسه في واقع الأمر مسئولا عن ثلاثة أعضاء فقط هم قادة الخلايا ! ! فاذا أضيف إليهم المنظم نفسه أصبحوا أربعة ، وهو عدد أقل من حجم خلية واحدة .

من ذلك وضح للعيان هيكلية التنظيم وضمور عضويته، فلا داعي – والحال كذلك – الى مزيد من الايغال في ذلك المنحى ، وسقط الاقتراح الرامي لتشكيل مكتب سياسي ولجان متخصصة .

ثم عرج المجتمعون على مسألة الاداء الثوري للتنظيم، فاقترح الرشيد نور الدين أن يتبنى التنظيم رفض مبدأ الاغتيالات السياسيه كأسلوب للعمل الثوري ،وكان ذلك مقرراً من قبل ، وألا يتعرض شخص للقتل أو الاغتيال الا بعد محاكمة تتوفر فيها كل أسباب العدالة . كما اقترح رفض مبدأ قيام التنظيم بانقلاب عسكري يسبق تحرك الشعب للخلاص من سيطرة النظام الحاكم ، وأن يكون التنظيم جزء من الإرادة الشعبية .

نوقش الاقتراح الأخير فتحمس له البعض وعارضه آخرون ووقف بعض الأعضاء موقف الحياد بين الفريقين ، فلما طرح للتصويت عليه سقط بحجة أن الأداء الثوري تفرضه ظروف وعوامل موضوعية لامعدى عنها، والاقتراح إذ يأتي سابقا لتلك الظروف والعوامل أشبه بوضع العربة أمام الحصان الذى يجرها، وهو حجر على حرية التنظيم في اختيار الادوات اللازمة لبلوغ أهدافه الوطنية .

احتد الرشيد في نقاش معارضيه ، وطالب الاعضاء المحايدين الممتنعين عن التصويت فيما سبق طرحه من اقتراحات أن يتخذوا لانفسهم موقعاً ايجابيا وأن يصوتوا إحقاقاً للحق في أي جانب ، ولكن هؤلاء أصروا على موقفهم بعدم التصويت، فما كان من الرشيد الا أن فاجأ الجميع بقوله :

– مع مزيد احترامي لآرائكم وقراراتكم التي جانبها التوفيق ، فاني أجد نفسي عضواً غير فاعل أو مؤثر في هذا التنظيم ، ولهذا فانا أعلن استقالتي منه وليوفقكم الله .

ثم انفلت مغادراً المكان ، فلاحقه بعض الأعضاء محاولين تهدئته وارجاعه عن موقفه وقراره بغير جدوى! فاعتذر المقدم جعفر نميري عن مواصلة الاجتماع بدعوى انه سيصحب الرشيد الى منزله في محاولة منه لاقناعه بسحب استقالته من التنظيم.

وتابع الآخـرون مناقشة أجندة الاجتماع المتبقية، فتحدث فـاروق عـن علاقة التنظيم بالحـزب الشيوعى السودانى ، فأورد فى سياق ذلك أن نشاط التنظيم فى مجال المعلومـات والمنشورات خاصة قد إنحسر بشكل واضح منظور ، وعـزا السبب فى ذلك الى الخلاف بين الحزب والتنظيم حـول منشـورات الحزب التى تصدر باسم التنظيم ، فأقترح أن يعاود الطرفان ما كان بينهما من تعـاون وتنسيق شريطة أن تعرض عليه أولا كل منشورات الحزب الموقعة باسم التنظيم للمـوافقة عليها أو تعديلها أو حتى رفضها باعتباره سكرتيراً للتنظيم ، وأن تقوم فى ظـل هذا الاتفـاق علاقة ايجابية للطرفين .

ودار النقاش حـول ذلك ، فبدأه العضو ولسون لوباى متحدثاً بلغة انجليزية رصينة عرف بيننا بامتلاك نواصيها ، كما عرف بتطرفه فى مناوأة الفكر المـاركسى عموماً ، وعلاقة التنظيم بالحزب الشيوعى السودانى على وجه الخصوص ، وذلك مادعا الاعضاء الشيوعيين فى التنظيم لأن يطلقوا عليه لقب ولسون الكـلاسيكى ! كما أطلقوا على عضو التنظيم والحزب الشيوعى أبل كول آرثر لقب الرفيق البرجوازى لتحرر أفكاره وعدم التزامه بموجبات الفكـر المـاركسى من قناعات وسلوك ، وانحيازه أحياناً لمقولات الرأسمالية الغربية، فضلا عن تمسـكه بتعاليم الدين المسيحى . وكان إطلاق مثل هذه الألقاب سمة للاخوة الشيوعيين فى ذلك الوقت ، يطلقونهـا على كل فرد يرتابون فى صدق التزامه وولائه المطلق للفكر والحزب حتى لـو كـان شيوعياً مثلهم ، فهم يطلقون على الحزب الشيوعى الايطالى لقب (حزب البابا الشيوعى) وعلى الحزب الشيوعى البريطانى لقب (حزب الملكة الشيوعى) وعلى الحزب الشيوعى الامريكى لقب (حزب العم سام الشيوعى) وهكذا دواليك .

وقف ولسون كعادته يعارض اقتراح عـودة العلاقة الودية بين الحـزب والتنظيم ، وقال فى معرض طرحه :

— نحن لانريد وصاية عقائدية من أحـد ، فهذا التنظيم قام على أساس القومـية السودانية ، وعلى أعضائه الالتزام الصـارم بهذا المبدأ .

فتصدى له العضـو أبل كـول آرثر ، فقـال بالانجليزية أيضا :

— ان ما ذهب اليه المتحدث حق ، ولكن هل يستطيع الأخ ولسون أن يحدد لـنا

معالم القومية السودانية ومرتكزاتها وجذورها ؟ هل هى النزعة الدينية المتصوفة ام هى التبعية الطائفية المطلقة ، ام الحزبية التقليدية المهترئة، ام سيطرة الادارة الأهلية المتخلفة ، ام القيادة العسكرية الحاكمة المتسلطة ؟! فاذا كانت القومية هذا كله أوبعضه فى رأى العضو المحترم فنحن هنا فى التنظيم نخالفه الرأى بل نحن وهو على طرفى نقيض ، نحن نسعى لنظام حكم تقدمى متطور ، يرقى بالوطن والمواطنين ، وهذه الفعاليات الدينية والقبلية والحزبية لاتوافق على مثل هذا النظام ولاتقبله ، وسيجرفها تيار الثورة التقدمية لامحالة ، ولما كنا بحاجة الى قاعدة شعبية منظمة — كما ذكر الاخ فاروق من قبل — فلا سبيل الى هذه القاعدة الا عن طريق جماهير الحزب الشيوعى وكوادره الواعية المتحررة . فهى وحدها القادرة على التلاحم والإندفاع مع تيار ثورتنا التقدمية المرتجاه،وهى وحدها — على طول الساحة السياسية وعرضها — المناهضة لكل تلك الفعاليات المتخلفة المتقاصرة ، وهى وحدها القابلة للتطور والنماء وهى وحدها . .

فقاطعه ولسون قائلا :

— لعل هذا الكلام الانفعالى المنمق يخالف أحد أهداف التنظيم الاساسية وهو ذلك الذى يقضى بتكوين (مجلس شعب قيادى) عند تفجير الثورة ونجاحها من خمسة عشر عضوا ، ستة منهم يمثلون الأحزاب والفعاليات السياسية ، وتسعة يمثلون قومية الجيش وهم قطعاً لايخرجون فى أصولهم ومشاربهم عن تلك الفعاليات ، فهل أردنا بهذا الهدف الخداع والتضليل ؟ ام الحقيقة الموضوعية المجردة ؟

استأذن فاروق فى الرد على واسون ، وقال :—

— الحقيقة أن هذا الهدف له اكثر من بعد ومغزى ، فمن الناحية الدستورية فان اشتراك فعاليات الساحة السياسية مجتمعة — بصرف النظر عن توجهاتها — فى مجلس الشعب القيادى يجعلها جزء لا يتجزء من حدث تفجير الثورة ، ومن ثم فلن يكون من حقها الادعاء بوقوع خرق دستورى ، أو المناداة بعدم شرعية الثورة،وهذا أحد الأبعاد المقصودة . كذلك فان إشراك هذه الفعاليات فى المجلس سيتبعه ضربة لازب تأييد شعبى مطلق للثورة من جماهير هذه القوى المنساقة خلف قياداتها بغير وعى ولا إدراك، فتحرز الثورة رصيدا من الولاء غير المباشر وتتمكن من بداية انطلاق قوية وموفقة ، وهذا بعد آخر مرصود، وقاطعه ولسون فى حدة :

ـ أنتم اذن تريدون استخدام هذه القـوى مرحليا لا أكثر ، وهذا لعمرى فكـر وتخطيط شيوعى يعرفه الجميع ، فهل نحن منظمة شيوعية ام نحن مؤسسة قوميه ؟
أجـاب على تساؤلة سكرتير التنظيم فاروق قائلا :
نحن تنظيم قومى تقدمى .
فعلق ولسون وهو يرسل زفرة حارة :
ـ الآن فقط أدركت حقيقة الكيان الذى أنتمى إليه ، وما كنت أحسبنى قبل اليوم مغفلا نافعا !! ولاأريد أن أكون ، ولهذا فانى اتقدم باستقالتى من التنظيم بلا رجعة فى هذا الامر ،ويحسن بكم ألا تحاولوا معى ذلك،وأنا من موقع الإلتزام الخلقى أعدكم بألا اكشف سـر التنظيم لاحد أو جهة،ولكنى من الاعماق أدعو لكم بعدم التوفيق .

وخرج ولسون لايلوى على شىء ، فتبعه أبل كول يحاول إزالة ما علق بنفسه من أوشاب الحوار ، واضطر من أجل ذلك أن يمسك بيده فى إصرار ورجاء ، فسحب ولسون يده فى عنف وغضب ومضى لوجهته، فرجع أبل كول الى موقعه وهو يقول:
ـ هذا الرجل الاستوائى لاجدوى منه على الاطلاق. والمعروف أن ولسون من قبيلة (الكاكوا) فى الاقليم الاستوائى ، وأبل من قبيلة (الدينكا) باقليم بحـر الغزال، وكلاهما لايتفق ولايثق بالآخر .

علق على الحدث الرائد بابكر النور ، وهو عادة آخر من يتحدث ، وله عند رفاق حزبه عدة القاب متداولة منها (المعلم ، والريس والمايسترو) فقال :
ـ أرجو ان تعلموا أيها الاخوة أن هنالك نظرية تقول : اذا صببت الماء قطرة قطرة على صخرة صلدة على مر السنين ، فسيأتى يوم تخترق فيه قطرات الماء صلابة الصخرة وتنفذ الى أعماقها !! وهذا ما فعله الاستعمار بعقولنا ، فهو قد اسـتطاع عبر السنين أن يخترق صلابتها وينفذ الى أغوارها وتلافيفها الدقيقة ، ويبدو هذا واضحا فى فكر وتصرف البعض منا ، فما علينا الا ان ندعو لهم بعاجـل الشفاء .

فـرد الرفـاق باصوات متداخلة : شفاهم الله . وأردف المعلم يقول :
ـ أعتقد أنه لاجدوى من عضوية الأخ ولسون فلن يكون إلا معوقاً لنشاط التنظيم واهدار طاقاته ، فى جدال لايثمر ، وأرى أن يقبل الاخ فاروق استقالته فورا ،مع التأكيد عليه بعدم كشف اسرار التنظيم من موقع الالتزام الاخلاقى كماعبر هو نفسه.

ثم جرى التصويت على اقتراح المعلم وفاز باجماع الحاضرين ، وبعـــدها قبلت استقالة الرائد ولسون لوباى من تنظيم الضباط الاحرار .

كان الوقت قد تسرب من بين أيدينا فى تلك المعارك الجدلية المتوالية ، حتى ناء الليل بكلكله ، فاقترحت على المجتمعين فض الاجتماع وتأجيل النظر فى موضوع النقد الذاتى لفرصة أخرى . فوصف أحد الحاضرين اقتراحى بالسلبية والكسل ، فلما طرح للتصويت عليه فاز بالاجماع ، حتى ذلك الذى عارضه ووصفه بتلك الصفات صوت لصالحه حين لم يجد من يؤازره فى مواصلة الاجتماع .

إنفض سامرنا مع زخات نسمات الفجر الندية ، ولكنى قبل أن آوى الى فراشى الوثير ، قصدت دفاترى الخاصة أسجل ماحدث ، فلعل ما أحسبه أمـــــراً عارضاً لاخير فيه ، يصبح عند قدمه وتجميره بنار العقل والاحـــداث ، شيئا ينفـــع الناس ويمكث فى دفاتر التاريخ .

تمخض عن استقالة العضوين الرشيد نور الدين وولسون لوباى خلاف وجدل وتوتر حاد بين أعضاء التنظيم. ولاحتواء هذا الحريق ومن أجل محاصرته دعا سكرتير التنظيم فاروق حمدالله لاجتماع آخر وصفه بالأهمية والعجلة ،وذلك لمواصلة ما انقطع من حوار، وتحدد للاجتماع الساعة الخامسة مساء زماناً ، ومزرعة أحد أصدقاء فاروق بالجريف مكاناً، وفى الموعد المضروب إنتظم عقد الاعضاء المدعوين فيما عدا العضو ولسون لوباى.

فوقف فى بداية الاجتماع المقدم جعفر محمد نميرى وحدث عن محاولاته لاقناع ولسون بسحب استقالته أو حتى حضور الاجتماع ،ولكنه لم يحالفه التوفيق وأصر على الاستقالة مؤكداً انها وليدة قناعة راسخة وليس للخلافات والانفعالات الشخصية دخل فيها ، وكل مايرجوه من قادة وأعضاء التنظيم ان يسلموا بالأمر ويتركوه لحال سبيله يبحث له عن وعاء يرضى مطامحـــه الوطنية ، وقد اختار بالفعل حزب سانو الــذى ينتمى إليه ، نقل نميرى ذلك عـــن العضو المستقيل ثم اردف :

ــ ارى ــ والحال كما ترون ــ ان تقبل اســتقالته ، ولندع له بالتوفيق والســـداد فى طريقه الذى اختاره .

فهمهم المجتمعون بما يدل على الموافقة ، ثم اشار نميرى إلى العضو الرشيد نور الدين وقال :

ـ أما الأخ الرشيد نور الدين فقد جاء معى لحضور هذا الإجتماع محتفظاً لنفسه بحق اتخاذ القرار الاخير بشأن الاستقالة التى قدمها من قبل عند نهاية النقاش ، واری ان يحدثنا الرشيد عما يفتعل فى دواخله من رؤى وأحاسيس .

وقف الرشيد بادى الانفعال وتهدج صوته وهو يقول :

ـ بصراحة ، أنا بعتبر الاجتماع ده منعطف اساسى فى علاقتى بالتنظيم عشان كدة ارجو من الاخوة المجتمعين ان يكونوا ايجابيين فى آرائهم وقراراتهم ، ومازلت آخذ على البعض امتناعه عن التصويت ، الواحد أما ان يكون مع الرأى المطروح أو الرأى الآخر ، ولا معنى للحياد والتملص وامساك العصا من وسطها فى تنظيم نفترض فيه الثورية واعضاء ننتظر منهم الفداء ، بالنسبة للمقترحات التى طرحتها فى الاجتماع السابق اسمحوا لى هذه المرة ان افصلها فى نقاط أو بنود متفرقة فمثلا بالنسبة للاداء الثورى للتنظيم ، فلنبدأ بمسألة الاغتيالات السياسية ، صراحة انا من حيث المبدأ والمسلك ضد الحكاية دى وعندى اسبابى ، أنا بعتقد ان الاغتيالات السياسية مابتجاب غير الفتن القومية والحروب الأهلية والدمار ، يعنى كان ما أخرت المسار الوطنى مابتقدمه ، ولينا فى التاريخ عظات وعبر ، مثلا اغتيال الخلفاء الراشدين عمر وعثمان وعلى، كان نكبة فادحة بالنسبة للدولة والأمة الإسلامية لم يسلم منها حتى آل بيت الرسول (صلعم) وأكيد انتو بتعرفوا ماساة كربلاء ومقتل حفيد الرسول الإمام الحسين واتباعه وآهل بيته والتمثيل بجثثهم من قبيل الحقد والتشفى ، ثم سالت دماء بنى أمية أنهاراً على يد السفاح أول الخلفاء العباسيين ، وهكذا الحال فى كل زمان ومكان وشعب ، فالحرب العالمية الأولى ـ زى ماانتو عارفين ـ كان سببها اغتيال أمير صربيا ، وفتنة القومية المصرية نتجت عن مقتل بطرس غالى فى بداية القرن العشرين ثم تجددت فى أواسطه بمقتل النقراشى باشا والإمام حسن البنا ، فتفرقت الأمة المصرية طوائف يكيد بعضها لبعض ، وساد الاستعمار !! والتاريخ حافل بكثير من الشواهد والبراهين ، وده البخلينى عن وعى وإدراك اقيف ضد اسلوب الاغتيالات السياسية ارجو ان نناقش المسألة دى فى الأول ونصوت عليها وبعدين نشوف غيرها .

فاقبل الحاضرون على بعض يتناقشون فى الأمر بغير نظام ، دون ان يطلب أحد منهم الفرصة للحديث والتعقيب فارتفع صوت فاروق منادياً :

— ياإخوانا ، لا أمكت الله لكم حساً ، ها مين يفتح الباب ؟

فخمدت الاصوات وساد الصمت ولم يفتح الله على أحد الحاضرين بما يدفعه لقرع الباب ناهيك عن فتحه ، ولم يجد فاروق بدأ من التصويت على الاقتراح ، وجاءت النتيجة اجماعاً على رفض مبدأ الاغتيالات السياسية اسلوباً ووسيلة للاداء الثورى ، بل اثنى بعضهم على طرح العضو الرشيد وتبيانه لهذا التوجه الخاطىء المقرر من قبل .

وقف الرشيد بعدها منفعلا وهو يحاول استغلال نجاحه ذاك ، وقال :

— بالنسبة للنقطة الثانية فى موضوع الأداء الثورى فانا مازلت أصر على ان يكون التنظيم جزء لايتجزأ من الارادة الشعبية بمعنى ان يكون قوة مسلحة واداة لتنفيذ الإرادة ، لاتتقدمها ولاتتاخر عنها .

فارتفع صوت جعفر نميرى من بين الحاضرين مقاطعاً :

— دى غلوطية يا رشيد ، تقصد ايه بالضبط ؟

قال الرشيد :-

— اقصد أقول إنتو في الإجتماع الفات قلتو انا بحاول اضع العربة أمام الحصان ، وأنا بقول انتو بتحاولوا تضعوا الحصان خلف العربة .

فعاد نميرى يقاطعه مستفسراً :

— يارشيد كدى عرف لينا العربة والحصان !

قال الرشيد :-

— فى راى انا الحصان هو الشعب ، باصالته ونباه ومضاء عزيمته ، وده فى تقديرى هو الوضع الصحيح ، ولكن بعض الاخوة فى التنظيم بحاولون يعكسوا المعنى بيسموا التنظيم حصان والشعب العربة ، عاوزين يجرجروه وراهم من غير ارادة ولاهدف .

اغرى التعريف نميرى بالمعارضة فقال :

— يارشيد أنت غلطان ، الشعب عادة بتقوده تنظيماته وقواه الشعبية الثورية ، حتى البرلمانات البتمثل السلطة التشريعية والإرادة الشعبية فى الوضع الديمقراطى الليبرالى ماخرجت عن كونها نوع من التنظيم الشعبي القائد ، فانا ماعارف انت بتقصد شنو ؟

استوعب الرشيد مرامى ذلك الطرح وقال :

ـ أنا بالتحديد بقصد اننا ما ممكن نقـوم بانقلاب عسكرى سابق أو بمعزل عن الثورة الشعبية، علينا ان ننتظر انتفاضة الشعب وثورته أولا، ليأتى تحركنا العسكرى دعماً لقـوة الثورة وتأمين مسارها، ولاننا نحمل السـلاح والشعب اعزل فسنكون درعاً للثورة الشعبية من قهر الطغاة وهجومهم الشرس المسلح .

فتساءل نميرى :

ـ عن آى ثـورة تتحدث أنت يارشيد ؟

قال الرشيد :

أنا اتحدث عن ثورة يفجرها شعبنا فى الوقت المناسب والظروف الملائمة بكـل فئاته وقطاعاته، وقـد ترون ذلك بعيداً واراه قريباً !! ولسوف تكتسح ثورة الشعب آمامها كل الحواجز والعقبات لانه :

إذا الشعب يومـاً اراد الحياة
فلابد ان يسـتجيب القـدر
ولابـد لليـل ان ينجـلى
ولابـد للقيـد ان ينكسـر

عقب نميرى فى سـخرية —

ـ ده كلام غريب يا الرشيد، يعنى انت عاوزنا نستنى الشعب يثور فى الأول، وبعدين نحتوى ثورته بى تنظيمنا ؟!

ضحك الرشيد للسؤال وقال :

ـ أنا لم أقل بذلك مطلقاً !!

فواصل نمـيرى —

ـ طيب كيف يعنى؟ نحن تنظيم ليه اهدافه وبرامجه وتطلعاته التقدمية ووسائل عمله، ودى كلها يمكن يعارضوها الناس لجهلهم بابعادها ومراميها خاصة وهى تناقض مـا عندهم من مواريث دينية وطائفية وحزبية، لا اشك اليوم انهـم يحنون ويتطلعون إليها فى ظل الحكم العسكرى القائم، فهل نتخلى نحن عن أهدافنا ومطامحنا الوطنية لننقاد وراء الإرادة الشعبية كيفما كانت وحيثما توجهت ؟ أم نعمل على فرض اهدافنا

وغرس جذورها وتثبيــت دعائمها فى الأرض والنفوس ؟ ولاجدال ان ذلك لــن يتحقق مالم نأخذ بزمام المبادرة فى أيدينا أولا فنبدأ بتفجير الثورة كطلائع رائدة ثم تأتى الإرادة الشعبية مدعمة لحركة التغيير ومؤازرة لها .

واصل نميرى —

نحن مازلنا فى عداد شعوب العالم الثالث ، وهى بحاجة إلى وصاية ثورية ونظام ديمقراطى موجه ، ولن تتحقق هذه الحاجات إلا بفعل الطــلائع الثورية التى تتقدم الصفوف حاملة رؤوســها على اكفها لتفجــر ثورة الشعب وتقــودها نحو آفاق التقدم والنماء فيلتف الشعب حولها ويذود عنها لأنها تحمل تطلعاته وامانيه القومية .

راق ذلك الطرح لكثيرين فارسلوا عبارات الرضا والاستحسان ، فوقف الرشيد ليقول بهــدوء :

ـ يا أخوانا ، انتو مهما لفيتو ودورتوا ، برضكم بتتكلموا عن انقلاب عسكرى سابق للتحرك الشعبى ، وده مامكن ينجح فى يوم من الأيام ، اخدوا مثلا انقلاب كبيدة وانقــلاب شنان ومحى الدين وانقــلاب على حامد ، كلها فشلت وكان مصير قادتها والمشــاركين فيها الاعدام والسجــن والتشريد ، لانها جاءت بمعزل وسابقة لثورة الشعب ، أنا مازلت عند رأى ، وهــو ان يأتى تحركنا مواكباً للثورة الشعبية أو بعدها وليس سابقاً لها بحال .

هنا تدخل سكرتير التنظيم فقال :

ـ يا اخوانا نحن حنقلبها حنقلبها ، والماوز أو متردد ودعناه الله والرسول .

فتعالت الاصوات وتداخلت بين مؤيد ومعارض ،وساد هرج ومرج للحظات فاقترح الرشيد التصويت على الأمــر ، فكانت المحصلة لصالح رأى فاروق . وقــد تسمى هؤلاء فيما بعد بالأحرار الثوريين ، أما المعارضون لفكرة الانقلاب فقد عرفوا باسم الاحرار الدستوريين وكانت تلك بداية الخلاف والشقاق والانشقاق فى صفوف الضباط الاحرار ،حيث شايع كل فريق طائفة من اعضاء التنظيم ممن لم يحضروا ذلك الاجتماع .

ودعا فاروق بعدها إلى حملة فردية من النقد الذاتي بين أعضاء التنظيم الثوريين ، وطالب الجميع بالحفاظ على أسراره وعدم افشائها في مجالس اللهو والسمر ، ثم طالبهم بتجميد نشاطهم ريثما تهدأ العاصفة وتنجلي الغيوم ، ووجه النصح للاعضاء الوافدين من الاقاليم في مأموريات ومهام عسكرية بسرعة الفراغ منها والعودة إلى وحداتهم ما أمكن ذلك ، ورأى ان تناقش هذه المقترحات أو التعليمات التنظيمية في اجتماع تنظيمي دعا له في أحد أوكار العمل السرى وصفه بأنه بعيد كل البعد عن عيون النظام وأجهزة مخابراته ، فصحبته — ذلك المساء — إلى منزل تقطنه فتاتان ، احداهما صومالية وتدعى ستين والأخرى ارترية وتدعى زهرة ، وكانتا الفتاتين تعملان سراً مع طلائع الثورة الأرترية الوليدة ، وبوصولنا إلى المنزل وجدنا ثلة من أعضاء التنظيم في انتظارنا ثم تقاطر آخرون منهم على المكان بعد ذلك ، فاكتمل بهم عقد الضباط الثوريين ممن شاركوا في الاجتماع السابق .

افتتح الحوار الرائد بابكر النور فقال :

— ان ثمة خلافاً قد نشب بين الحزب الشيوعى وجناحه العسكرى ، ومنبع الخلاف ان قيادة الحزب لاتوافق على الانقلاب العسكرى الذى يسبق الثورة الشعبية ، وهى تؤكد باستقراء واقع البلاد ان الثورة الشعبيه آتية لامحالة فى صورة انتفاضة أو عصيان مدنى تلتف حوله وتنفذه كل التنظيمات الفئوية والحزبية والشعبية ، حتى الطائفية نفسها ومن يمسكون بالعصا من وسطها فى مواجهة نظام الحكم القائم ، وفى خضم تلك الأطر والظروف يأتى دور القوات المسلحة عموماً وتنظيم الضباط الاحرار على وجه الخصوص دعماً للثورة الشعبية وحسماً للموقف .

صاح فاروق بانفعال وغضب :

— حتى انتم ياهؤلاء ؟؟!

فأجابه بابكر النور .

— الحزب يافاروق عريق فى نضاله فريد فى تضحياته ثاقب النظر للامور . ومن رأى قيادته الحالية أن يبقى بمعزل عن كل مغامرة عسكرية مجهولة العواقب ، معزولة عن حركة الجماهير ، خاصة وان البعض يعتقد أننا — ان قمنا بانقلاب عسكرى

للاستيلاء على السلطة — انما نستبدل نظاماً عسكرياً بآخر ، هذا هو رأى الحزب ، وليس كل الأعضاء يأخذون برأيه هذا وأنا منهم ، وذلك منشأ الخلاف بيننا وبين قيادة الحزب .

وما كاد يسكت حتى انبرى العضو عبد المنعم محمد أحمد يقـول :

— انت يا فاروق دعوت لتجميد نشاط التنظيم فى الوقت الراهـن ، وأرى ان نلتزم جميعاً وأنت معنا بالقرار ،على ان نعاود العمل بعد فترة لتكن ستة أشهر .واقترح ان نصوت الآن على ذلك ، وتم التصويت على عجل ، فارتفعت كل الايدى موافقة على التجميد ، فألفى فاروق نفسه محاصراً بعمل ديمقراطى لم يكن فى حسبانه ، فاذعن له مكرهاً ، ولكن فاروق عن له ان يرمى بسهم أخير من كنانته ، فاقترح ان يكتب جمعنا ذلك منشوراً باسم التنظيم يهاجم النظام الحاكم ويدين توجهاته ويكشف مثالبه ، ثم اتجه نحوى وأمرنى بالبدء فى كتابة المنشور بعد ان حدد مع الآخرين نقاط الهجوم.

قمت بكتابة المنشور فى تلك الجلسة من موقع الالتزام التنظيمى رغم عدم قناعتى بما حواه من معلومات ، ووافق عليه كل المجتمعين ، وكلف فاروق العضو محجوب إبراهيم ان يتولى طبع المنشور بمعونة الحزب الشيوعى أو بغيرها ،فأكد العضو المكلف ان قيادة الحزب ان احجمت عن طباعة المنشور فلديه بدائل أخرى مضمونة ، وان المنشور لن يبقى حبيس الظلام الا لثلاثة أيام على الأكثر ، فشكره فاروق على مجهوداته المقدرة ، ثم انفض سامرنا اثر ذلك .

انتظرت ميلاد المنشور بفارغ الصبر ، فارتعشت يدى وهى تمسك بنسخة منه فى اليوم المحدد ، وقد فوجئت بما طرأ عليه من تغيير جذرى فى لغته وتراكيبه ومضمونه فادركنى غضب عاصف ، وطويت المنشور واودعته جيبى بعناية وحرص ، واتجهت من فورى إلى فاروق ، وكأنه قرأ آيات السخط على وجهى ساعة اللقاء فابتدرنى قائلا :

— عارفك جاى محتج على المسخ والتغيير الحصل فى المنشور ، المنشور ده يا بركة طبعوه ناس الحزب ، وماكان لهم ان يفعلوا ذلك بلاثمن وأى ثمن .. د .. ود .. ماركس بتاعهم ومن تبعه بضلال إلى يوم الدين .

ضحكت من اعماقى لانفعاله وغضبته المضرية بعد ان هدأت ثائرتى بما قدم من شرح وتعليق .

* ٢٢ *

اشتعلت الساحة السياسية بنشاط مكثف للقوى السياسية والتنظيمات الشعبية والفئوية، وبدت تشكل خطراً ماحقاً على النظام الحاكم، ورغم ذلك لم يأبه بها قادته أو يتفاعلوا فى مواجهتها بالقدر اللازم ، وانصرفت همتهم وجل اهتمامهم لخطر آخر جديد قديم! !تبلور نشاطه وتصاعد فى تلك الفترة فاصاب النفوس كلها بالهلع والجزع! وصفه الرئيس عبود فى إحدى خطبه فسماه الطاعون الذى يتهدد خطره شعب السودان بأسره !! ووصفه اللواء حسن بشير نصر بأنه الغول مصاص الدماء الذى ان لم نقض عليه باتحادنا وتضافر قرانا مجتمعة تفاقم خطره وأهلك الحرث والنسل، ودعا لحربه بما يفوقه عنفاً وشراسة ، أما اللواء الطاهر عبد الرحمن المقبول قائد القيادة الجنوبية الملقب بأسد الجنوب فقد سماه الحريق الذى لايذر مالم نوفق فى محاصرته وإخماده .

كان الخطر الداهم الذى روع المواطنين وقادة النظام هو ما عرف يومئذ باسم (تنظيم الزنوج الأحرار) الداعى للقضاء على العنصر العربى واجتثاث جذوره من كل أرض السودان، لتقوم على اشلائه الدولة السوداء ويسود البلاد العنصر الزنجى الخالص .

تبنى تنظيم الزنوج هذه الدعوة الهدامة والنزعة العنصرية الحاقدة ، فشايعتهم شخصيات سياسية لامعة مثل الأب فيليب عباس غبوش واحزاب سياسية مثل حزب سانو بجنوب السودان وحزب سونى فى غربه واتحاد جبال النوبة فى اقليم كردفان ، واستقطب أولئك العنصريون افراداً فى صفوف القوات المسلحة من الزنوج والنوبة وذوى النعرات العنصرية الأخرى .

شكلت حركة هؤلاء خطراً عظيماً على أمن البلاد وسلطة الحكم القائمة ، بحسبان ان العنصر الزنجى فى القوات المسلحة يربو على ثلثى أفرادها كافة !! ومن ثم فقد فطنت القيادة السياسية لهذا الأمر ، فاصدر نائب القائد العام بتوجيه من رأس الدولة قراراً سرياً لقادة الأسلحة والقيادات المختلفة يقضى بمراعاة الموازنة القومية والإقليمية عند التجنيد ، وكانت تلك دعوة نادى بها من قبل اللواء / أحمد عبد الله حامد ، لتغليب نسبة العنصر العربى على الزنجى فى تكوين جيش البلاد .

كما أصدر نائب القائد العام توجيهاً آخر بانهاء خدمة كل جندى أو صف ضابط تدور حوله شبهة العنصرية، ولم تقف جهود نائب القائد العام عند حـد ، إذ طالب بمضاعفة ميزانية الجيش لشراء أسلحة ومعدات حربية حديثة رفعاً لكفاءة القوات المسلحة القتالية لتمكينها من القضاء المبرم على الحركات العنصرية وعلى رأسها حركة التمرد فى جنوب السودان ، فكان له ما اراد ، عندئذ قام فى نفر من كبار القادة بجولة فى عدد من الاقطار الأوربية وعقد معها صفقات للتسليح ، عاد بعدها لينشىء أول كتيبة نموذجية أسند قيادتها للمقدم أ .ح مزمل سلمان غندور وانيطت بها مهمة العمليات النشطة بالجنوب ، وأصدر القائد العام أوامره — فى نفس الوقت — لكل القيادات والأسلحة بتكثيف قواتها وعملياتها كل حسب المنطقة والاقليم المحدد له . أما فى الشمال فقد صدر أمره باجراء مناورة كبرى شاملة ، تستخدم فيها لأول مرة الأسلحة الحديثة المستجلبة ، واطلق عليها اسم مناورة حدود ، وجعل مقر قيادتها بجبل جارى إلى الشمال من مديرية الخرطوم ، وانتخب لقيادتها العميد إبراهيم النور سوار الدهب ،فتمت المناورة وفق خطة القائد بنجاح كبير ،مع ما حفلت به من مفارقات وطرائف . من ذلك مثلا ان أحد المحكمين أخطر قائد المناورة بموت قائد وطاقم فصيلة مدرعة كاملة ، وهو موت صورى قضى به المحكمون لفشل الفصيلة وقائدها فى استخدام التكتيك اللازم فى موقف بعينه خلال المناورة ، ولكن العميد اعتقد خطأ ان الموت حقيقى ، فأقام شبه مأتم فى خيمة الرئاسة وشرع يتقبل التعزية فى الشهداء ! ! بعد ان رفع يديه بالفاتحة على أرواحهم الطاهرة ، فادرك المحكم الخبيث ما وقع فيه العميد القائد من خلط وخطأ ، ولكنه آثر الصمت على الواقعة المضحكة ، ليتيح لاكبر عدد من القادة شهودها بغرض المزاح والمداعبة ، ثم علم العميد بالأمر فاستشاط غضباً لهذا التصرف .

وقف نائب القائد العام لدى الاحتفال بنجاح مناورة حدود فوعد كل أفراد القوات المسلحة بمزيد من التحديث والكفاءة القتالية ، وقطع لهم وعداً جازماً بالقضاء على حركة التمرد والفتنة العنصرية فى موعد اقصاه السابع عشر من نوفمبر عام ١٩٦٥ م وكان على الوفاء بوعده قديراً مقتدراً .

لم يقف تنظيم الضباط الأحرار بمعزل عن مجريات الاحداث ، فاصدر سكرتيره نداء بنبذ الفرقة والتعنصر وطالب اعضاء التنظيم بكشف أفراد تنظيم الزنوج الأحرار وضرب مواقعهم ، ودعا فى نفس الوقت إلى استخدام وسيلة ناجعة لم تفطن إليها قيادة النظام الحاكم التى لم تجد لعصا الزجر بديلا ، هذه الوسيلة هى الحوار واظهار الود والاقناع القائم على أسس ومنطق العقل وحقائق الواقع والتاريخ .

التزم الأعضاء بتوجيهات سكرتير التنظيم ، فقادوا بغير اعلان منهم حملة حوار نشطة مكثفة مع الاخوة الزنوج وابناء الجنوب خاصة .

اذكر انى واحد الاخوة من أبناء الجنوب جمعتنا مامورية ذات يوم ، وكان على شاكلة أولئك العنصريين أسيراً للنعرات والاحقاد ، يتحدث بالانجليزية رغم إلمامه بلغة الضاد ، فجلست إليه أحاوره عملا بتوجيه سكرتير التنظيم .

فتنقلنا فى شعاب الحديث والفكر فى ودوتناغم ووئام ، حتى اصطدمنا بجدار الوهم الباقى على الأيام ، فاحتدم بيننا نقاش حار عمن هم أهل السودان الحقيقيون ؟!

ورغم سذاجة الموضوع واقتناعى الراسخ بأن ذلك أمر عفت عليه الأيام وطوته الحقب وصحائف التاريخ فيما طوت من دعوات ومذاهب فى الفكر والسلوك ، فقد آثرت أن التزم الحوار والحديث ، علنى أجد فيما يورده من رأى جديد منفذاً لما يعزز فى نفس ذلك الأخ الشقيق من أبناء الجنوب مصداقية الانتماء القومى والوجدان المشترك .

قال ابن الغاب فى ثقة العالم الخبير :

إن كلمة (توت) نويرية الاصل ، وهى عند قبيلة النوير تعنى الرجل القوى. وبنى على ذلك أن جزيرة (توتى) كانت ذات يوم ملكاً خالصاً لرجل قوى من النوير ! حتى اذا مرت الايام وتعاورتها عوامل التعرية والهدام من كل جانب ، تآكلت أطرافها وتقلص حجمها فاصبحت صغيرة ، عندئذ عمد الناس لتصغير كلمة (توت) لتصبح (توتى).

وجدتني مرغماً على التفكير فيما قال ، فأطرقت أمعن النظر واعيد ترتيب الحقائق فدفعه زهو الانتصار الى مزيد من المباغته ، وأردف بذات الثقة :

وكلمة (بر) بضم الياء وسكون الراء شلكاوية صميمة ، ومعناها عند أهلنا في قبيلة الشلك « مكان تجمع الناس لصيد السمك » وعليه فانه هذا الجزء من ضواحي الخرطوم الذى تطلقون عليه اسم (برى) وهو اصلا ارض لاولئك الشلك هاجروا منها الى أقصى غرب أفريقيا وجنوب السودان هرباً من شظف الحياة ومرارة العيش في مواجهة التصحر وابناء الصحراء !! أو لغير ذلك من الاسباب الطاردة .

هززت رأسي مؤمناً على مايقول في صمت التلميذ المؤدب المطيع ، فانتشى محدثي بخمر الظفر وهو يرى حصون مقاومتي تنهار تباعاً وخطاه تمضي في ثبات نحو عاصمة وجداني ومركز إيماني الذى لا يتزعزع بقومية لاتنال منها نعرة عصبية أو فكر خبيث فأطلق قذيفة آخرى وقال :

لعلك تجهل ان كلمة (كر) في لغة الدينكا تعني « مجرى النهر » وكلمة (توم) معناها « التقاء النهرين » فلا جدال أن « الخرطوم « كانت في يوم من ا يام موطناً للدينكا هجروها مرغمين !!

قلت ضاحكا : أخي انا اعلم ان اخوالى من افراد قبيلة الدينكا لايحد طموحهم شيء ولكني ما تصورت قط أن يمتد ذلك الطموح حتى يصل الى الخرطوم درة مدن السودان وقلب افريقيا النابض بالثورة أبداً !! فاستغرقنا الضحك لحظات قلت على أثرها : عساك محق فيما ذهبت اليه من رأى وتخريج ، فقد ذكر الرئيس « ليو يولد سنغور » في كتاباته عن حركة الهجرة الافريقية وحديثاً ، أنها شملت كل اقطار القارة الأم بلا استثناء ، فلكل قبيلة إفريقية جذور ما تزال قائمة في مواطن بعيدة من القارة ، ثم أورد جملة من البراهين على ذلك فأكد ان فرعا من قبيلة الدينكا قد هاجر قديما الى بلاده « السنغال » واتخذها وطناً لايعرف سواه ، وعاش بين المجموعات القبلية الأخرى كجزء من كيان الامة ، ومايزال حفداؤه يحملون سماته وملامحه ويتداولون بعض كلماتهم ويمارسون نفس العادات والتقاليد ، ويحترفون — كأصلهم في السودان رعى الابقار وحرفة الصيد . !!

بدأ أخي ابن الدينكا مرتبكاً يبحث عن شيء يرد به فلم أمهله وقلت مواصلا تقدمي في مواقعه الحصينه : لاتنس ياأخي أن أمي من تراب هذه الأرض الطيبة! وأنت تعلم مدى ارتباط الأبناء بأمهاتهم فطرة، ولن تجد لفطرة الناس تبديلا . فهز محدثي رأسه موافقاً وواصلت الزحف قائلا : لعل جدك لابيك هو نفسه جدى لامي ، فلو أننا خرقنا حجب الماضي وتهيأ لنا الرجوع بالإنسان إلى المنابت والأصول لتبين لك أنني أخوك حقاً وصدقاً .

هنا اعتدل صديقي وقال في نبرة جادة : أراك لاتفتأ تعزف على أوتار القومية ووحدة الجذور . قلت : ذلك تذكير بما هو كائن ، ولاينكر ضوء الشمس في رابعة النهار الا أعمى أو مكابر ، ولايحاول المساس بها الا باء بالخسران وسوء المصير .

قاطعني قائلا : ولكن روابط الدم وحدها لاتكفى كأساس للبناء القومى المتين . قلت : أن القومية الامريكية مثلا نتاج لأصول عرقية شتى ، كذلك معظم شعوب العالم أخلاط من عروق متباينة . فالمصريون عرب وأقباط ، والتونسيون والجزائريون والمغاربة عرب وبربر ، وشعوب شرق أفريقيا مزيج متنوع من الزنوج والهنود والعرب وغيرهم

أما ركائز القومية الأخرى من لغة ودين وماض مشترك ووحدة جغرافية .. الخ فهى متوفرة في أكثر من ثلثي امتنا السودانية الماجدة ، رغم أن كثيراً من القوميات في العالم لاترتكز على شيء من ذلك، مثلا المجتمع الأمريكي لايأخذ أفراده بدين واحد ولايربطهم ماض مشترك ولايرجعون إلى أصل واحد معلوم ، فاكثرهم مهاجرون من أوربا وأفريقيا وغيرها .

طفح وجه أخي من أبناء الجنوب الحبيب بشراً وقال : أولئك أبائي ، نسور محلقة في الفضاء العريض تطلب المجد وبئس للقانعين بدلا !! فماذا عنكم أنتم ؟! قلت ومن نحن ؟ قال فيما يشبه التحدى : أنتم نسل القادمين إلى أفريقيا ليطردوا أهلها ويجتثوا جذورهم كما فعل الأوربيون بالهنود الحمر في أمريكا . أنتم حفدة الذين عبرو البحر الأحمر زاهدين في وطن الآباء في جزيرة الرب !!.

في تلك اللحظة قفزت إلى خاطرى صورة محارب هندى أحمر يحمل كنانته وراء

ظهره وقوسه بين يديه وهو على صهوة جواد ابلق ووجهه ملطخ بالألوان والأصباغ ، يتطاير من عينيه شرر الغضب والحقد، يشير بيده إلى اليانكى الأبيض طالباً منه أن يعبر المحيط الاطلنطى ليعود من حيث جاء ! !

تخلصت سريعاً من أسر ذلك الخاطر المفاجيء وقلت فما يشبه الرجاء : أخى ، بحق السماء لاتطلب منى أن اعبر بحر القلزم سباحة لأعود إلى اقنابت والأصول في جزيرة العرب ، فالبحر كما تعلم ملىء باسماك القرش ، هذا فضلا عن حظر الدخول لتلك البلاد بغير تأشيرة وعقد عمل موثق صحيح ، فانا موصول الدماء بمن هم خلف البحر حقاً ولساني عربي مبين ولكنى سوداني تجرى في عروقى دماء الزنوج ، وتحتشد بوجداني بوجداني الطلاسم والتعاويز والأساطير ، يطربنى هدير الطبول فلا أجد للسيمفونيات والموشحات طعماً ولامذاقاً ، أفاخر الدنيا من سلالة رماة الحدق وبزاة الحروب ، أنا سوداني يأأخى وسوداني أنا ! !

انفجر صديقى من أبناء الجنوب ضاحكاً وكاد يشرق بما فاضت عيناه من دموع ، وقال وهـو مايزال يضحك : لاتخف فالأمـر كله دعابة ليس غير ، أنا أؤمن بأن المصالح المشتركة أصبحت بديلا فرضته المتغيرات الكبرى في شئون الاقتصاد والأمن والحفاظ على السيادة القومية ، وكما تقولون في المثل السائر (جن تعرفه خير من جن لا تعرفه) ! !

آلمنى التشبيه بعض الشيء ولكنى مابنفسى موطناً العزم على أخذ صديقى بالتى هى أحسـن ، عسى أن يتحـول الله إلى ولى حميم ، فتضاحكت وعلقت مازحاً : أن مـا بيننا من رباط الـدم أقـوى وأبقى على الدهر من كل مصلحة عارضة. قال في سخرية وهزؤ : قد يقتل الأخ أخاه في سبيل المصلحة والحق أحياناً : ! ! قلت : نعم ، ولكن طريقنا إلى الحقوق والمصالح جد قويم ، نحن نمضى على نهج ديمقراطى يحفظ لكـل فرد أو جماعة حق الحياة الفاضلة والكريمـة .

عند ذلك مد الأخ الصديق يده بغتة كمن ينكر أو يعترض ، فأمسكت عن الحديث لأرى مايريد . فقال وهو يضغط الكلمات والحروف بين أسـنانه : إن الحياة الكريمة ياهذا لاتنبنى على هيمنة الأكثرية وفرض معتقـداتها قسراً ! ! ! والحياة الفاضلـة أمر

نسبى ، فما تراه فضيلة قد أراه خطيئة خالصة ، وما تؤمن به من قيم ومعتقدات روحية ربما اجده اوعية خاوية لا غناء فيها ولا خير ، وكذلك ما آخذ به أنا من فكر ودين ، قد يبدو لك مثالا للتخلف ، وضرباً من ضروب السحر والوثنية ، فلكم دينكم ولى دين ! !
أجل : لكم دينكم ولى دينى ! !

ايقنت عندئذ ، ان كل أمر يمكن ان يتم الاتفاق عليه بينى وبين صديقى ابن الجنوب الحبيب ، ولكن الدين — كما بدا من حديثه — اصبح هاجسا وحاجزاً تتكسر لديه كل محاولات الوفاق ، وذكرت عندها حكمة الوجود التى جرت على لسان امير الشعراء شوقى حين قال :

فالدين للديان جل جلاله * لو شاء ربك وحد الأقواما

ورغم ذلك وجدتنى أقول : لا إكراه فى الدين .. فقاطعنى مدفوعاً بكثير من الغبن والموجدة : نعم لا إكراه فى الدين ، وكذلك لا اكـراه فى الحياه كما يريدها بعض الناس ! ! ولا وصاية لا حد على آخر ! ! الدين لله ، والوطن للجميع .

وقبل ان التقط زمام الحديث لأواصل غزو معاقله ببراهين المنطق وحقائق العلم وشواهد الواقع ، دخل علينا فجأة صبى من ابناء الشمال ، واتجه من فوره نحـو صديقى يخصه بالحـديث ، فحار عقلى فيما يربط بينهما للحظات ، ثم بلغت دهشتى ذروتها عندما شرع الصبى يحادث ذلك الصديق بلغة الدينكا ! ! فلما فرغ الفتى من شأنه وانفلت خارجاً لم اطق صبراً على كتمان دهشتى ، فسألت عن الصبى وكيف تسنى له ان يجيد الخطاب بلغة الدينكا وهو اى أبناء الشمال أقرب ؟ !

ضحك صديقى وقال بعفويه دون اكتراث :

إنه ابن اختى الكبرى ، جاء والده من اقصى الشمال فتزوج بها حين كان يعمل بالجنوب ، وانجبت له كوكبة من البنين والبنات ، ومـا زالت تواصل العطاء ! !

وسكت ، فلم اعقب على ما قال ، واكتفيت بالنظر اليه ملياً ! ! عملا بمقولة « ان فى الصمت كلاماً » وفهم صديقى ابن الدينكا الكلام ! ! أما انا فقد تذكرت وقتها حكمة العم (عمر كروم) الباقيه على افواه المعاصرين ، حيث اثر عنه أنـه قال : (اذا استوقف اى سودانى آخر فى قارعة الطريق وانتحيا جانبا وتذاكرا الأصول

والأعراق ، لاكتشف كلاهما ما يربطه بالآخر من صلات الدم ووشائج القربى) . ففي ذلك ما يؤكد ان هذه الأرض بوتقة تصهر الدماء والعروق والأصول عبر العصور، فجاء جيل اليوم نتاجاً خالصاً لذلك التنوع الفريد ، فاذا كان التمازج العرقي من أهم عناصر القوميه ومرتكزاتها على الاطلاق فان قومية هذا الشعب تنطوي على قدر هائل من عوامل البقاء والنماء .

هذه عقيدة ترسخت في أعماق وجداني وحسي الوطني عبر الأيام، يعززها إيماني بان قومية السودان ضاربة الجذور في أحشاء هذه الأرض الطيبة ، وما عليها من بشر وحيوان ونبات ، وقد بلغ ذلك الايمان مبلغاً من العمق والقوة في نفسي ، لم أعد أسيغ معه الاعتراف بأن السودان كان في يوم من الايام بلدا غير ماهو كائن ثم جاء حين من الدهر فكان ! !

لم يكن ذلك حواري الاول ولا الأخير مع الاخوة الزنوج الاحرار ، وانما هو مثال لنشاط مكثف عبر الايام صدعت فيه بأمر سكرتير التنظيم وداعي الوطن . فقد كان الحوار الموضوعي ، والجدل المنطقي المدعم بالحجة والشواهد وتجارب الامم في الشرق والغرب حول قضايا الوطن وتطلعات الشعب ، هو أحد أساليب العمل التي يرتكز عليها نشاط تنظيم الضباط لاحرار وخاصة مع الآخرين من غير الأعضاء، إذ كان حوار هؤلاء التنظيميين مع بعضهم البعض ، يتم في حلقات النقد الذاتي داخل اجتماعات التنظيم في مستوياته المتدرجة ، أما مع غيرهم، فقد كان للتنظيم مفاهيمه وقناعاته إزاء شئون الفكر وواقع الحياة السياسية في السودان والوطن العربي والقارة الافريقية والعالم أجمع ، وكان على الاعضاء المكلفين بالحوار مع الآخرين الالتزام الصارم بتلك القناعات حتى لو لم توافق أفكارهم ومعتقداتهم الشخصية ، بل انهم ملزمون — كغيرهم من عامة الأعضاء — بالتمثل والترويج والدفاع عن مبادىء التنظيم وفكره ومبررات وجوده في كل زمان ومكان .

وقد درج سكرتير التنظيم على انتخاب من يناط بهم مناظرة الافراد والكيانات الحزبية والفئوية. أذكر أن الاخ فاروق كلفني يوماً باجراء حوار آخر علمي موضوعي مع ثلة من الاخوة الضباط الجنوبيين وطائفة من إخوانهم طلبة الجامعة وبعض محترفي

السياسة منهم ، كان اللقاء بهؤلاء ومحاورتهم تكملة لحوار سابق بينهم وبين فاروق ، فدعاهم لعشاء سياسى بنادى الضباط بالخرطوم . أما موضوع الحوار فهو (عروبة السودان وقوميته) وصلة ذلك بالدين وتلازمه معه ، بمعنى أن عروبة أهل البلاد تنسحب مع غير المسلمين كأهل الكتاب ومن لادين لهم أصلا

بدأ الحوار هادئاً متزناً ، ثم تدرج ان مراق أو ملاحم جدلية شائكة ماكان يدور بخلدى أن أبلغها لأغرس فى أفئدة الاخوة ابناء الجنوب وغيرهم من الحاضرين ، بذور فكر التنظيم وقناعاته وأطروحاته حول ذلك الموضوع ، حيث وفقت أيما توفيق في إدراك هذه الغاية ، بما لدى من أسلحة العلم وقوة الحجة والايمان بما أطرح من فكر ، فانتهى اللقاء وقد زالت مواجد الاخوة الجنوبيين ورواسب التربية والدعاية التبشيرية فى نفوسهم ، وأفصحوا عن ذلك بغير حرج .

كان أكثر الحاضرين انتشاء بذلك النصر هو الاخ فاروق ، فما كاد يجد الفرصة للتعبير عن مشاعره الجياشة بالفرح حتى أخجل تواضعى وهو يكنينى (بأرسطو التنظيم) إظهاراً لاعجابه واعترافاً منه بطول باعى فى قراع الرأى ومصاولة المناظرين.

والحق ان ذلك الحوار وغيره من ألوان العمل الفكرى شفاهة وكتابة نتاج لملكة حبانيها الله جل شأنه،وما كان ى الا فضل تنميتها واذكاء أوارها بالبحث الدؤوب والقراءات المتصلة والممارسة اليومية، حتى اشتهرت بين الرفاق وعرفت بينهم بالقدرة على الاقناع ، فكانوا يتحدثون عن نجاحات أحرزتها تباعاً فى معارك الجدل وقراع الرأى بما يخجل تواضعى ويذكى فى نفسى نوازع الاستزادة من الالق والنجاح ، ولكن

ذلك لم يشفع ى عن مثالب فكرية وسلوكية يرونها ، فهم يأخذون على — مثلا — علاقتى ببعض قادة النظام الحاكم وعلى رأسهم الرئيس عبود واللواء حسن بشير والعميد عمر محمد ابراهيم ، ويعيبون على دفاعى عما أسميه ايجابيات ذلك النظام وحرصى المفرط على حريتى الفكرية ، ونقدى اللاذع لدهاقنة الماركسية فى بعض ما جنحوا اليه من آراء متطرفة قاصرة .

دافعت عن نفسى مكرهاً بأن صلاتى بقادة النظام الحاكم كانت نتاجاً

لظروف اجتماعية ومهنية لم أملك لها دفعاً ، وهـو أمر يعلمه الأخ فاروق وآخرون ممن تربطني بهم وشائج الاخاء والصداقة من أعضاء التنظيم . وفى مواجهة مايرونه مثالب فى الفكر والسلوك دفعت بأنى حر التفكير والارادة لاتكبلنى قيود الالتزام العقائدى والحزبى ، مفتوح العقل طليق التفكير أرى الابيض أبيض والاسود أسود فلا أخلط بين الألوان دفاعاً عن قناعات كلية لا تخلو من هنات وشطط ، كما أننى أومن بان أى عمل سياسى أو تنفيذى — أياً كان مصدره — ترتد آثاره سلباً وايجاباً على الوطن والمواطنين نفعاً أو ضراً ، وليس من الحكمة فى شىء أن نبخس الناس أشياءهم فنقوض عملا ايجابياً لمجرد كونه انجازاً لمن نخالفهم الرأى حكاماً كانوا أو محكومين ، أو نشيد بعمل كالزبد يذهب جفاء لاينفع الناس ولا يمكث فى الأرض لمجرد صدوره عمن نحب أو نبذل له الولاء !!.

بالطبع لم يعجب هذا الرأى الحر كثيراً من الرفاق ، فقالوا عنى وتقولوا وشككوا فى مصداقية توجهاتى الثورية ،ورجمونى بالغيب بكل ما واتتهم به عقولهم الراسفة فى أغلال الالتزام ،كانوا يريدون أن أحمل معهم معاول هدم إيجابيات وانجازات النظـام ، واكابر — مثلهم — وانكر ضياء الشمس فى رابعة النهار .

رأيتهم يشككون الناس فى جدوى مشروعات التنمية التى أنجزتها السلطة الحاكمة ، وروجوا بينهم أنها جعلت من سياسة السودان الخارجية مسخاً مشوهاً وصم السودان بأنه رجل أفريقيا المريض!! وتصيدوا كل شاردة وواردة للنيل من نظام الحكم وقادته ، لأنهم — بوعى أو بلا وعى منهم — شاركوا فى أبشع جرائم القرن العشرين السياسية ، حينما أرسلوا كتيبة سودانية للاشتراك مع قوات الامم المتحدة التى تخضع لتوجيهات المستر داج همرشولد (سكرتير امم الغرب الإستعمارى) كما كانوا يلقبونه، بحجة الدفاع عن أمن الكونغو وحماية رئيس وزرائه المناضل الجسور (باتريس لوممبا) الذى رفع شعار أفريقيا للافريقيين والكفاح والتضحية حتى النصر ، ولكن سكرتير الامم المتحدة وقواتها بدلا من الدفاع عنه وحمايته من المؤامرات التى كانت تحاك ضده خذله عمداً ليغتاله العميل الاستعمارى الأشر (مويس تشومبى) ومن ورائه دول أوربا الغربية والولايات المتحدة الامريكية .

بترويج واسع من الرفاق ، شاع هذا الاتهـــام بين أفراد القوات المسلحـــة السودانية وقطاعات المهتمين بمجريات السياسة الاقليمية والعالمية ، ونما الى علمـــى حتى قبل أن أصبح عضواً فى تنظيم الضباط الاحرار ، حتى أضحى عندى وعـــند الآخرين أمراً واقعاً وحقيقة دافعة للنظام بالتورط فى مخططات الاستعمار ، ورغم أننى وأمثالى من المغرر بهم على جهل بحقيقة الصراع الاستعمارى فى أرض الكونغو وخاصة اقليم كاتانجا (شابا) فيما بعد . كان مبلغ علمنا أن الكونغو منجم هـــائل للمعادن النفيسة والثروات الطائلة التى يغترف منها الاقتصاد الغربى كيفما شاء بغير حدود ، وخاصة معدن اليورانيوم الذى صنعت منه الولايات المتحدة أول قنبلة ذرية فى العالم ، ودمرت بها جزر هيروشيما ونجازاكى اليابانية سعياً لكسب الحـــرب العالمية الثانية ووضع حد للمقاومة .

هكذا صنع المستعمرون الطغاة من المعدن الافريقي أداة مدمرة لحضارة البشر ووأد حرية الشعوب ونضالها من أجل البقاء والنماء ، فكان طبيعياً — فى ظل هـــذه الأوضاع — أن تختمر الثورة فى نفوس الافريقيين وغيرهم من الشـــعوب المقهورة فنادوا بالكفاح المســلح وحرب التحرير دحراً للنفوذ والهيمنة الاستعمارية ، وخرجت الشـــعوب من قماقمها تدك قلاع البغى والطغيان ، فاخـــذت صروح الاســـتعمار تتساقط تباعـــاً ، وظهرت للوجود امم لم تكن معروفة ، وغـــدا لهـــا صوت فى المحافل الدولية .

فى ظل القهر الاستعمارى البغيض ، عاشت الشعوب الأفريقية مطايا ذلولة بفعل الفقر والجهل والمرض وقوة السلاح ، ونظراً لانعـــدام حرية التعبير وتكوين الاحزاب فقـــد لجأت الأمم المغلوبة على أمرها لتأسيس الجمعيات الثقافية أول الأمـــر لتكـــون منتديات فكرية فى ظاهر أمرها سياسية فى حقيقتها وجوهرها تماماً ، كما فعل شعب الســـودان إذ أقام مؤتمر الخريجين قبيل الحرب العالمية الثانية ، فكان نظيره فى الكنغو (جمعية باكونجـــو) التى نمـــت وتطـــورت لتصبح فيما بعد حزب أباكو برئاسة كازافوبو ، وهو حفيد عامل من أهل الصين عاش فى تلك البلاد وتزوج بأمرأة باكونجية ، ثم جاء حين مـــن الدهر بلغت فيه الحركة الوطنية رشدها واستعادت بعض حقـــوق

المواطنين السلبية ، فأنشأت لها صحفاً لقيادة الرأى العام والتنديد بالوجود الاستعمارى فى أرض الكونغو ، منها صحيفة الوعى الافريقى التى اشترك فى تحريرها لفيف من المثقفين الشباب بينهم المناضل باتريس لوممبا ، ونادت الصحيفة بتكوين احزاب سياسية ذات صبغة قومية تعلو على اعتبارات الولاء القبلى المحدود ، فتكون (حزب الحركة الوطنية) برئاسة لوممبا ، وانضوى تحت لوائه جمع غفير من طلائع الكفاح وعشاق الحرية .

كان ذلك كل مانعرفه عن شعب الكونغو وبلاده وثورته ، فلما أصبحت عضواً فى التنظيم من بعد ، كانت أول مهمة أكلف بها لدى حضورى لأول اجتماع تنظيمى ، هى كتابة بحث أو تقرير عن ثورة الكونغو وبطلها الشهيد باتريس لوممبا ، قال لى سكرتير التنظيم يومئذ :

— اننا باعتبارنا تنظيماً ثورياً تقدمياً ، لابد ان نقف فى صف انصار الشهيد الثائر لوممبا ، ولكيلا نناطق من موقع الصديق الجاهل ، فلا مندوحة لنا من الالمام والمعرفة بكل اطراف القضية وأبعادها ، وهذا مأتى تكليفك الذى نرجو ان تنجزه على أفضل وجه فى غضون شهر واحد ، وسوف نقوم بطباعته فى شكل منشور باسم (لوممبا الاسطورة الافريقية الخالدة) ولتضع فى اعتبارك ان هذا البحث سيكون نافذة نطل منها فى قيادة التنظيم على مواهبك وقدراتك ككاتب ومحلل سياسى ، نحن احوج ما نكون إليه ، حتى يتسنى لنا تحديد المهام التى يمكن اسنادها إليك مستقبلا فى هذا الجانب الحيوى من نشاط التنظيم .

قلت له مازحاً :

— هذا يعنى اننى أمام اختبار مفتوح .

فاستدرك قائلا :

— كلا ، ليس اختباراً بمفهومه الحرفى ، وانى واثق انك لن تألو جهداً فى انجاز المهمة على أفضل صورة ممكنة بما أعرف فيك من قدرات أدبية وعلمية لايستهان بها .

شكرته على الاطراء معلناً قبولى لذلك التكليف . وأقبلت على المهمة بجد وحماس خرجت أسعى بين وزارة الخارجية والسفارة البلجيكية ومكتب الأمم المتحدة والسفارة

المصرية والمكتبات ، كنت اتصل بهذه الجهات مرتدياً الزى الرسمى وكأنى فى مهمة رسمية ، وكان وجود قواتنا بالكونغو آنذاك عاملا مساعداً فى الاقناع بضرورة بذل كل عون من جانبها ، كما تنطست أخبار موضوع البحث ومضاعفاته من خلال الكتب والمجلات والإذاعات العالمية والصحف ، فتجمعت لدى حقائق ومعلومات ضافية ، شرعت فى تمحيصها وترتيبها واعادة صياغتها فى تقرير جامع مانع واف بالغرض .

قدمته لسكرتير التنظيم فاروق قبل الموعد المحدد ، والتقينا بعد أيام فأبدى مزيد إعجابه به وبعض ملاحظاته عليه . رأى ان التقرير جاء مطولا مسهباً بحيث لايمكن عرضه من خلال منشور سرى ، ووصف اسلوب كتابته بالعلمية والدقة ، ثم وصفنى بأنى كاتب مقتدر ومحلل سياسى بارع وباحث صبور روحه طويلة ، وتنبأ لى بالنجاح والشهرة بين ارباب القلم . ثم طلب منى اختزال حقائق التقرير ليناسب المقام ، وان أعيد صياغته باسلوب ثورى مؤثر ، فقلت له مداعباً :

— كأنك تختبر ما وصفتنى به من الصبر وطول الروح !

قال ضاحكاً :

— كلا ، فما طلبت غير ما اراه ضرورة .

استجبت لطلبه ذاك ، واعدت كتابة التقرير مستهلا اياه بنداء فيه اقتباس من منابع الرفاق مرضاة لهم وتحسباً لتدخل اقلامهم من بعد ، فقلت :

ياشرفاء العالم انتبهوا !!
ان باطل الحياة يطغى على الخير فيها ..
وحقوق الانسان والشعوب تغتصب فى وضح النهار ..
عادت الدنيا كما بدأت ..
غابة يأكل فيها القوى الضعيف .
واندثرت وتراجعت كل القيم الفاضلة النبيلة .
ياشرفاء العالم انتفضوا !!
واعيدوا للحياة مجدها ، وللانسان حقه فى البقاء ..
هذا .. أو الطوفان ..

ولاخيار !!

فجاء التقرير مفعماً بهذه الروح الثائرة ، وقمت باختزاله إلى الحجم الملائم ، واستبقيت للتاريخ ذلك الأصل المطول فاودعته حافظة كتابى (قبس من الفكر والتاريخ) ارجو الرجوع إليه لشمول الفائدة .

تجاوزت شهرتى بالكتابة نطاق التنظيم لتصل إلى مسامع كبار الضباط وقادة الجيش وفيهم نائب القائد العام الذى استدعانى مراراً لكتابة بعض خطبه وخطاباته شديدة الايجاز برقية التعبير ، فقد عرف عنه – رحمه الله – مقته للاسهاب والافاضة فى القول ، فهو ممن يمكن وصفهم بـ : (Precise to the Point) وفى نفس الوقت لايصدر عنه قول لايتبعه عمل ، واشتهر بعبارة (Do it now)

أذكر انه استدعانى ذات يوم فى منتصف عام ١٩٦٤م إلى مكتبه ، فالفيت عنده كلا من العم المقدم أحمد مرجان قائد سلاح الموسيقى ، والكاتب الممثل المخرج الكبير حسن عبد المجيد ، ولم تكن صلتى به إلا من خلال اعماله الدرامية ، وعلمت انه كان زميلا ورفيق درب لمعالى اللواء إذ كانا معاً ضابطين بقوة دفاع السودان ابان الحرب العالمية الثانية ، فتوثقت صلاتهما من خلال رابطة الجندية وان سارا فيما بعد كل فى طريق ، فى ذلك اللقاء حدثنا معالى اللواء انه بصدد انشاء فرع جديد بقيادة الجيش باسم (فرع التوجيه المعنوى) اسوة فى ذلك بجيوش العالم الحديثة ، وستتبع لهذا الفرع اربع إدارات ، هى على التوالى : إدارة المهرجانات والرياضة العسكرية ، وإدارة الاعلام والنشر والمطبعة العسكرية ، وإدارة الاحصاء والبحوث العسكرية ، واخيراً إدارة الموسيقى والمسرح العسكرى وهو مانحن بصدده فى هذا اللقاء ، ثم اردف انه قد كلف نفراً ممن ذوى الخبرة والاختصاص لتقديم تصورات ودراسات حول تلك الإدارات الأولى الثلاث ، وهذا مايريده منا حول إدارة الموسيقى والمسرح العسكرى ، واضاف انه قد تتبع نشاط اللواء محمد طلعت فريد ، وانجازاته الكبيرة عندما كان وزيراً للاستعلامات والعمل ، وفى مقدمتها انشاؤه لجهاز التلفزيون بعون من دولة المانيا الاتحادية ، وتطويره للاذاعة وتأسيسه للمسرح القومى وفرقة الفنون الشعبية وغير ذلك من الانجازات العظيمة التى ساانده فيها بعض ضباط القوات المسلحة

ومنهم الرائد التاج حمد والنقيب جعفر فضل المولى الذى سينضم لجمعنا فيما بعد .

قال معالى اللواء حسن بشير : انه باجتماع كفاءاتكم ومواهبكم لا يخالجنى الشك ان انشاء المسرح العسكرى وتطوير سلاح الموسيقى لن يكون أمراً ممكن الانجاز فحسب بل سيأتى ابداعاً للابداع ومنارة سامقة للفنون ، وانه يريده مشروعاً طموحاً عملاقاً باعثاً لموت الأرواح المعنوية ، فليس بالخبز وحده يحيا الانسان ، ومن رأيه ان الابداع الفنى هو زاد الجندى لاقتحام المخاطر ، وأكثر الأوعية صدقاً لحفظ تاريخ الشعوب والنظم الحاكمة ، وأظهر برهان على تقدمها فى مدارج الرقى والحضارة ، ولايجدر بى ان احدث أهل مكة بشعابها ، فانتم ادرى بقيمة الفن وتأثيره وجدواه .

ثم قال : يمكنكم — لتحقيق ذلك الطموح البعيد — ان تستعينوا بخبير المسرح والفنون الشعبية البروفسير رامازين وزوجته لارا . فهما يعملان حالياً بادارة الفنون الشعبية وقد وعدنى الرزير بتسهيل مهمة تعاونهما معكم .

هنا قاطعه الفنان حسن عبد المجيد قائلا :

— لا يامعالى اللواء ، فالمدعو رامازين ماهو إلا راقص باليه لا أكثر وقد كشفت حقيقته الصحافة الفنية المصرية ، واتهمته بالجهل وهدم البناء الموضوعى للفنون الشعبية المصرية ، ولانريد ان يكرر التجربة معنا ، وليكن الله فى عون فنوننا الشعبية التى يعمل بها الآن .

ابتسم اللواء وقال : هذا شأنكم ، ثم التفت إلى المقدم أحمد مرجان وقال :
— بالنسبة لك يمكنك ان تكون لجنة داخلية من النقيب عرض محمود وبعض ذوى الاختصاص من الاخوة المدنيين مثل الفنان العاقب محمد حسن والتاج مصطفى وبرعى محمد دفع الله وغيرهم ، المهم اريد مدرسة متطورة لتعليم الموسيقى لأفراد القوات المسلحة والمدنيين على السواء ، مع العناية اللازمة بالآلات والتراث الموسيقى الشعبى ، أما بالنسبة للآلات الحديثة فسوف نمدكم بما يفيض عن احتياجاتكم منها بحيث يمكنكم انشاء فروع لإدارة الموسيقى فى كل اسلحة وقيادات الجيش فى العاصمة والاقاليم .

اجاب المقدم قائلا : حاضر معاليك .

ثم استدار يحدث الفنان حسن عبد المجيد فقال :

ـ أثق ياحســن انك لن تخيب ظنى فيك، فانا اعــرف ايمانك وحماسك للمسرح ووظيفته فى الحياة وها هى الفرصة تواتيك، فلطالما تمنيت ان تجد الامكانات والظروف المناسبة لاقامة صرح مسرحى عملاق ، فاذا بكل ذلك يسعى إليك ، اريد لحلمك ان يتحقق، مسرحاً شامخاً باسم (المسرح العسكرى) حتى يمكننا انشاؤه وتمويل نشاطه من ميزانية الجيش .

هنا استأذنه الفنان حســن يقــول :

يمكننا ايضاً ان نسميه مسرح السودان العسكرى !!

ضحك معالى اللواء قائلا :

كثرة الالقاب لاتدل على عظمة صاحبها ، فالقط مثلا ولم يكمل العبارة إذ ادرك من ضحكنا اننا نعلم مراده ، فصمت لحظة ثم خاطبنى بقوله :

ـ وانت يامحجوب ، اتريدنا ان نفرغك للمهمة تماماً، أم تريدها « Part time job » ؟

قلت :

ـ معاليك انا مرشح لفرقة قادة الفصــائل المدرعة بالمملكة المتحدة، ولا اريد ان افقد فرصتى ، فحبذا ان تكون المهمة « Part time »

ضحك لصراحتى وقال :

ـ لك ماشئت .

ثم تمنى لنا التوفيق ونحن ننصرف من عنده مذكراً ايانا بان آخر موعد لتسليم الدراسة والتصور لتأسيس ادارة الموسيقى والمسرح العسكرى يجب أن لا تتعدى أول اكتوبر من ذلك العام ١٩٦٤ حتى يمكنه عرضها على المستشار القانونى ، وتكوين لجنة مختصة لانشاء الفرع ، ليعلن عنه فى اعياد الذكرى السادسة لثورة ١٧ نوفمبر .

كانت فرحتى بالمهمة طاغية غامرة خاصة وهى لا تتعارض مع واجبات عملى بالسلاح ، وتطلعى للبعثة الدراسية المرتقبة ، وهى ـ فضلا عن ذلك ـ سبيل وسبب وجيه لمغادرة المعسكر أثناء ساعات النهار والعمل اليومى، والتمتع بحرية التصرف فى الوقت .

في تلك الظروف تكرر اللقاء بيني وبين دهقان فن الدراما السودانية المبدع حسن عبد المجيد وسرعان مانشأت بيننا اواصر الصداقة وزمالة الفن ، وجدته يوما يناقش طالبا جامعيا متحذلقا ويحاوره بشيء من الحدة والانفعال ،وعلمت من مجمل الحوار بينهما ان ذلك الطالب كتب قصة في قالب درامي ودفع بها لاحد المخرجين ليقوم باخراجها وتقديمها من خلال الاذاعة ، وبعد أكثر من شهر اعادها له بحجة انها لاتصلح ،ولكن لعجبه لم يمض على ذلك الا شهر واحد حتى أستمع الطالب لنفس القصة بكل تفاصيلها الموضوعية تبث وتذاع باسم آخر — غير اسمها الذى اختاره لها — مع تعديل طفيف في محتوياتها الثانوية واسماء شخوصها وأماكن الاحداث !! وذلك مأتى ثورته وانفعاله ،وقد اتهم ذلك المخرج بالسرقة صراحة وعلى رؤوس الاشهاد وهو بطبيعة الحال لم يكن حسن عبد المجيد الذى يحاوره ،وكانت حجة المخرج المعنى ان النص الدرامي الذى سمعه الطالب لاصله له بما كتب ، فقط هناك توارد خواطر وتشابه في الموضوع والأحداث والتراكيب بين القصتين ! فلم يقنع حديثه الطالب واصر على سرقة ابداعه وحرمانه من حقوقه المادية والادبية ، ولكنه انصرف آخر الأمر مغضبا حزينا مهيض الجناح ،وتمنيت حينذاك الا يترتب على ماحدث وأد أو اجهاض للملكة المبدعة في عالم الدراما .

— حول ذلك الحدث دار حوار بيني وبين الفنان حسن عبد المجيد عقب انصراف الطالب مباشرة وسألت رفيق مهمتي في حيرة وألم .

ايهما كان محقا في دعواه ؟ الطالب ام المخرج ؟

قال حسن .

احسب ان المخرج على حق فنحن نقول عن تشابه الناس (يخلق من الشبه اربعين) وهذا عينه ينطبق على المخلوقات الفنية التى تبدعها المواهب والعقول، بما يزيد كثيرا عن نسبة الاربعين ،فكل فعل أو حدث درامي له في واقع الحياة أشباه لاتحصى ، وله مثلها واكثر منها في دنيا الخيال، تلك حقيقة لامراء فيها ولاجدال .

فلم يبدر مني ماينبيء عن الاطمئنان والتصديق ، فابتسم حسن وقال فيما يشبه التحدى :

فليصدر عنك الآن أى قول او فعل وسأكتب لك عنه فى مجلسنا هذا عمــلا دراميا من واقع الحياة أو الخيال ايهما شئت !

رمقته بنظرة ساخرة وضحكت فى اعماقى من فرط ثقته ومبالغته ، فرقعت عيناى بمحض الصدفة على مفتاح عربتى مع زمرة مفاتيح أخرى تنام فى راحة يدى فى سكون ، فقذفت بها جميعا على ارض المكتب فارسلت صوتا ورنينا مجلجلا للحظات وقلت :

ـ اكتب عــن هذا الحــدث عملا دراميا ولو قصيراً !!

سأل وهو ينظــر نحوى فى تحــد عظيم ـ من الواقع ام الخيال؟

قلت له :

من الواقع ان قدرت .

فامسك بقلمه ووضع امامه بضعة اوراق بيضاء واخذ يكتب باستغراق وهو يدخن من حين لآخر وانا انظر إليه فى اعجاب وتعجب ، حتى اذا انقضت على ذلك ساعة فقط من زمان وضع بين يدى تلك الأوراق مسودة بغير مراجعة او تردد ، فشرعت اقرأ ماكتب .

كانت قصة مثيرة محكمة البناء والصياغة ، تناقلها الناس وفشا خبرها بينهم فى تلك الايام ، ولكنى اقرؤها أنئذ قطعة من الفن الدرامى الرفيع بريشة فنان متمكن مبدع بطلها احد الصيارفة باحدى المصالح الحكومية واسمه (ابو البدوى) ولربمــا كانت تلك كنيته سيان ، وكما حدث فى الواقع المعلوم صور الفنان حسن بطل قصته ابو البدوى رجلا يتطلع ان ترف العيش ونعيم الحياة تطلع الظامىء المحروم ، فلم يكن راتبه يكفى مسئولياته وضرورات عيشه ومزاجه ونثرياته ، ابغض أيام الله اليه مطالع الشهور ، حين يجلس الساعات الطوال ليحل لغز موازنة راتبه والتزاماته الجسام نحو دائنيه ، ولكنه آخر الأمر يتسر من كل ذى حق طرفا فيتجمع لديه من المال مايكفى لاصلاح مزاجه الحرب ليلة أو ليلتين ، فقد كان ابو البدوى من عشاق الليل ومتاعه القليل ، فكسب بين اضرابه من العشاق صيتا ذائعا واقتعد منهم مقعد الزعيم !! وما كانت مؤهلات زعامته وركائزها مالا ولا جاها ولا قوة فهو خالى الوفاض من كل ذلك ، لكنه معروف مشهود له بخفة الظل وروح الدعابة وحب الحياة ، ولم يكن له بينهم فى ذلك نظير ، من هنا جاءت شهرته وزعامته العريقة .

كان المال يجرى بين يدى ابو البدوى زرافات ووحدانا يدفع به فى ايد يجزم انها لاتستحقه ، ولا يجد بدا من صرفه وتوزيعه بينها حتى آخر قرش فى خزينته ،ثم يعود يملؤها ويفرغها من جديد على مدار الايام والشهور والسنين وهو محروم ذو فاقه وحاجة تقول هل من مزيد ؟!

فوسوس له الشيطان يوما وغوى..

ـ الحياة امرأة تعشـــق المغامرين !!

ـ ان لنفســك عليك حقاً .

ـ كل الناس يسرقون .. وانت تعلم !

ـ اتخشى السجن وانت فى سجن الحرمان عمرك ؟

ـ التائب من الذنب كمن لاذنب له !!

ـ المــال يناديك .. فاجب داعى الملذات .

ـ إفعل ياهذا لاتتردد .

فجحظت عينا ابو البدوى فى الغرفة الخالية وارسلت اسنانه صريراً مسموعا وتصبب منه العرق ، فمد نحو الخزينة يدا مرتعشة افرغ بها جوفها الا من العمـلات المعدنية ،ثم أغلق حقيبته فى عنف بعد ان أودعها الوف الجنيهات ،وقبل ان يغادر الحجرة القى بحزمة المفاتيح على الارض فى سخط شديد تماما كما فعلت !!.

انصرف ابو البدوى بصيده الثمين ، واذهل اتباعه الندامى بتبديد المال على الملذات بغير حساب ، حتى تمنى بعضهم حاله ومنادمته لينال من رفدة ونواله ،وكان قد اعتزلهم وانصرف عنهم لمنادمة الغوانى ، فلما اعيتهم الحيلة غنوا له عله يسمع فيجيب النداء ويسعدهم بعطاء روحه الممراح وجيبه النفاح ! قالوا فى غناء جماعى حار .

البيرة مـــرة والجن أمر   يا أبو البدوى زورنا مره

وزارهم ابو البدوى ومـــلأ مجالسهم بالفرح الاخضر والوان الملذات ، وغرق معهم فى لجج الغياب واللهو اياما حافلات بالمجد والبذخ والزعامة. ثم حدث ما كان امرا محتوما اذ نفد ماله بددا وعاد سيرته الاولى فقيرا محروما يطارده رجال الشـ[illegible]

ليل نهار ، فوقع في قبضتهم وشددوا عليه الخناق ليعيد المال الذى سرق ، ولم يصدقوه في زعمه ان المال قد نفد كله ولم يبق منه شيء ، فاضطر ان يقودهم الى حيث انفقه وسحقا لاصحاب السعير .. فادرك الهلع اتباعه الميامين وعرفوا ماحاق به من مصير وعادوا يغنون له متنكرين لموجبات الزعامة قائلين .

الوسكى غـالى وشرابه حالى   يا ابو البدوى مـر طوالى

ضحكت من اعماقى لطرافة القصة وجودة حبكتها ، فاعدت الاوراق إلى كاتبها المبدع حسن عبد المجيد قائلا :

– أنت حقاً مجيد مثلما انت عبد المجيد . ولم يعبأ بما قلت من اطراء وقال :

– هذا مثال من الواقع كما اردت ، ولا حصر لما يبدعه الخيال على منواله .

قلت مسلماً وانا انظر إليه باعجاب :

– حقا لاجديد تحت الشمس !!

ثم عرفت حسن بعد ذلك عن كثب ، وانجلت لى فى شخصه صورة الفنان المبدع الخلاق ، كان فى سباق مع الزمـن يجوب آفاق الحياة طولا وعرضاً ليعطى من ينابيع ذاته بلا حدود ، ويحسن كما أحسن الله إليه وجعله حسناً اسما ومعنى !!

افضيت بمهمتى – وقد قطعت فيها شوطاً طويلا – لسكرتير تنظيم الضباط الأحرار فاروق وتعللت لعدم تبليغـى حتى ذلك الحين بكثرة مشغولياتى بين المهنة والسلاح. فاستشاط غضباً واتهمنى بالتذبذب وعدم الالتزام ومصانعة النظام الحاكم !! ووصفنى بأنى قد صرت – بهذا الصنيع – مسخاً ، وتحولت من ضابط وطنى حر إلى ضابط ايقاع لنظام نوفمبر الديكتاتورى العميل. ثم هدأت ثائرته قليلا فعرض على المفاضلة بين خيارين لاثالث لهما : الالتزام الصارم بقواعد التنظيم وخلقه وأهدافه بما يحتم اعتذارى عن مواصلة المهمة ، أو تقديم اسـتقالتى من عضـوية التنظيم التى لن يتردد فى قبولها فـوراً !!

وكان كلا الخيارين صعباً وخيم العواقب ، ومن ثم وعدته بالتخلى عن المهمة ولكن بطريقة : Go slow & work to the rule

فوافق مكرهاً بعد جدال طويل ، وبالفعل اوفيت بالوعد وتخليت عن قيادة المهمة وتركتها لعناية ومقدرات الفنان حسن عبد المجيد وغدوت معه ضيف شرف أو تلميذاً متفتح المدارك، وقد افدت من ذلك بقدر لا انكر تأثيره على فى مقبل أيامى ككاتب

درامى ، فلما انجز المهمة وقعت معه فى الوقت المحدد على أوراق التصور لإدارة الموسيقى والمسرح العسكرى ، وكانت بحق ابداع مبدع طموح متجرد يعشق الفـن ويعيش به ومن أجله ، ومن شواهد ذلك رفضه لمبلغ خمسمائة جنيه دفع بها إليه معالى اللواء حسن بشير لقاء جهوده فى انجاز المهمة ، وكان الجنيه حينذاك قوة شرائية هائلة ، والمبلغ ثروة يسيل لها اللعاب ، ولكن حسن رفض بإباء قائلا :

كل ما ارجـوه ان يرى المشروع النـور ، ويبقى أثره فى المجتمع ينفع الناس . وبرغم العلاقة الحميمة بين الفنان حسن ومعالى اللواء لم يجد هذا الأخير بداً من الاستسلام ، فاعاد المبلغ إلى مكانه ووعده بسرعة انجاز المشروع كما وعده ان يمنحه وساماً رفيعاً فى اعياد ١٧ نوفمبر المقبلة عند الاعلان عن قيام فرع التوجيه المعنوى ، مع الاستعانة بخبراته ومواهبه واتاحة الفرصة له لمزيد من الابداع الفنى من خلال مناشط الإدارة الجديدة .

لم تقف مطامح اللواء عند ذلك الحد ، فما مر الا يومان على انجاز المهمة الاولى حتى اسـتدعانا مرة أخرى ليفضى الينا برغبته فى اقـامة مهرجان للفن والابـداع والإنجاز التنموى وعيد العلم ليواكب عيد الثورة المقبل وأعيادها القادمات ، وقـال ان ذلك المهرجان ستشـارك فيه عدة وزارات فى طليعتها وزارات الدفاع والتربيـة والتعليم والاستعلامات والعمل وجامعة الخرطوم ، وان المهرجان سيكون بمثابة كشـف حساب معنوى لانجاز وابداعات الثورة ، وطلب منا ان نقدم له تصوراً فنيا خلال أسبوع واحد ففعلنا . واقترح الفنان حسن عبد المجيد اسما للمهرجان هو (مهرجان الإنجـاز والابداع الاول) ويشتمل على مسابقات للعروض المسرحية والفنون الشعبية والغـناء القديم والحديث والمعارض الفنية لانجازات الثورة والابداع الشعبى ، على أن تشارك فى كل ذلك العاصمة والاقاليم المختلفة تحقيقا للشمولية اللازمة ، وتقتصر مهمة جـامعة الخرطوم على التحكيم وتقرير الجوائز وخاصة فى مجال الانجاز العلمى والأدبى .

جاء التصور ماجدا مجيدا كاسم صاحبه ، وقد حظى من معالى اللواء بكل الاعجاب والتقدير ، وانفعل به فاخرج من درج مكتبه مظروفا به مبلغ من المال دفع به للفنان حسن وهو يقول : المره دى على الطلاق ماتقول شىء . ولم يقل حسن إلا كلمات الشكر مقتضبة وتطلعنا نحن لشىء من نوال اللواء ، فأدرك ما يعتمل فى دواخلنا بغير عناء فقال مبتسما .

بعدين بعد المهرجان حنقرر اذا كنتو بتستحقوا شىء من جوائز الانجاز . فانصرفنا من عنده يملؤنا الامل والرجاء ، ولم ندر وقتها ان الأيام كانت حبالى إذ لم يعد عيد ثورة ١٧ نوفمبر بما مضى بل بأمر فية تجديد .


ثورة أكتوبر
الحدث والتاريخ
وسجل الذكريات

* ٢٣ *

علم سكرتير التنظيم أن السرية الثالثة التى يقودها النقيب فتحى كبال وأتونى فيها أنا مهام أركانحرب العمليات والتدريب، بصدد الخروج في مأمورية خلوية بمنطقة قتاشة على حدود امدرمان الغربية بكامل عدتها وعتادها حسب مرشد تدريب رئاسة الجيش أولا ورئاسة الالاى المدرع ثانيا .

علم فاروق ذلك فلمعت عيناه ببريق ينم عن الرضا والفرح ، وبدا كأنه يسعى لكسب ودنا والتقرب الينا وصار حديثه معنا نوعا من التوجيه المعنوى والسياسى الثورى دون إشارة لمــا وراء ذلك من أهداف .
وفي الأيام التالية الفيته يكثر من زياراته لنا بمكاتب السرية ! وتطوع بالتعاون معنا كثيرا فى تسهيل إجراءات المأمورية ومهامها الادارية وخاصة الأسلحة والذخائر ومعدات المعسكر ،فاعتقدت أنا كما اعتقد قائد السرية أن مايدفعه لمؤازرة جهدنا وتذليل صعاب الخروج للمأمورية لايتعدى رفقة السلاح وزمالة الدفعة لقائد السرية .

وفي يوم الخروج جاء فاروق لوداعنا وصحبنا على عربته الجيب العســكرية حتى أطراف مدينة أمدرمان، وبقى في ركبنا حتى بلغنا مقر معســكرنا الخلــوى فلما أزف موعد أوبته ودعه قائد السرية ضاحكا وهو يقول له .

– الناس يافاروق بيقولوا المقدم ما موصل، لكين انت قدمتنا ووصلتنا كمان، فنحن شاكرين ومقدرين وإن شاء الله نقدمك للحج قول آمين .
– جمعاً يا بركة .

قالها فاروق وهو يتجه صوب العربة فى طريق عودته إلى الخرطوم ، وقبل ان ينطلق بها نادانى كمن نسى أمراً وقال لى بصوت هامس –
تصنع المرض يوم ١٥ أكتوبر وأحضر لمقابلتى فى الخرطوم ، هذا أمر تنظيمى ..
أثارنى حديثه فسألته عن الســبب فقال :
– ستعرف عند حضــورك .

ثم اندفعت به العربة فى طريق جبلى متعرج وأنا اتابعه مأخوذاً بما قاله حتى غاب عن ناظرى ، وحين خلوت بنفسى قلبت الأمر على كل وجوهه فخلصت إلى انه لايعدو ان

يكون اجتماعاً تنظيمياً هاماً ، وانصرفت لواجباتي في الإدارة والتدريب ، ولما كان اليوم الموعود لم أجد ضرورة لتصنع المرض ، طلبت من قائد المعسكر إذناً عادياً فأذن لي و كلفني باحضار بعض المعدات و الغذاءات مـــن الخرطوم عند عودتي .

التقيت بفاروق وتوجهت معه لتناول الغـــداء بمنزله ، وسرعان ماتقاطر الاعضاء تباعاً ، وعلى أثر الفراغ من وجبة سريعة ، اتخذ الجميع مجلسهم وقبل الدخول في أية مقدمات اجال فاروق نظره في المجتمعين بتركيز على المقدم جعفر نميري ثم رشقني بنظرة ذات مغزى وقال :

— من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ومابدلوا تبديلا . « صدق الله العظيم » ها قد جاء الوعد الحق يامحجوب فما أنت فاعل؟

قلت لاأفهم ماترمي إليه .

قال : لقد اعددنا كل شيء بصورة مثالية (Leakage Less) وقد حان موعد التنفيذ.

قلت مندهشاً : هكـــذا فجأة ؟

قال بهـــدوء : بعد عشرة أيام ، يوم ٢٥ اكتوبر .

قلت : اريـــد شرحاً وتوضيحاً .

فانبرى المقدم جعفر محمد نميري وقال :

— نريد ان نقـــوم بثورة تصحيحية أو اصلاحية ، سنبقى على الرئيس عبود رأساً للدولة بصفة مؤقتة ، ونحل المجلس الأعلى بعد تأمين الموقف العسكري ، وسوف تقوم سريتكم بدور أساسي في هذا التحرك إلى جانب كتيبة الحامية والطيران .

قلت : هل يعلم النقيب فتحي كمبال بالتحـــرك ؟

قالوا بأصوات متداخلة : لا ويجب ألا يعلم .

وواصل فاروق :

— في اليوم الموعود ، سنرسل إشارة وهمية لاستدعائه لرئاسة الالاي ثم يتم اعتقاله في الطريق إن لم يوافق على المشاركة ، وتتولى أنت ونحن معك قيادة السرية والتحرك بها صوب الخرطوم .

قلت : وماذا بشأن الضبـــاط الآخرين بالسرية ؟

قال فاروق بثقة : سيتعاونون معنا ، ولن يجرؤ أحدهم على فعل مضاد .

عدت أسال : وماذا عن قادة وضباط الأسلحة الأخرى بالعاصمة والأقاليم .؟؟

قال نميرى : سيتولى أمرهم الضباط أعضاء التنظيم ، وهم على علم بكل تفاصيل خطة التحرك .

تساءلت : وكيف سيتم تشكيل المجلس الأعلى والوزارة ؟

اجاب نميرى : حسب خطة وأهـــداف التنظيم المتفق عليها ، ولابأس من التفصيل فى هذا المقام ،

يسمى المجلس الأعلى – وفق خطة التنظيم – بعد نجاح الحركة « مجلس الشعب القيادى الانتقالى » ويشكل من العسكريين والمدنيين ، يمثل الأول الرئيس عبود رئيساً للمجلس ورأساً للدولة ، المقدم جعفر محمد نميرى نائباً له وقائداً عاماً ، النقيب فاروق سكرتيراً للمجلس ووزيراً للداخلية ، الرائـــد أبل كول ارثر عضواً ورئيساً لهيئة الأركان ، أما الأعضاء العسكريون الخمسة الآخرون فسيتم اختيارهم من خلال مؤتمر موسع للقـــادة وسنعمل ليجىء اختيارهم من أعضاء التنظيم ، أما الاعضاء المدنيون فســـوف نرشـــح ثلاثة أسماء لكل حزب وجماعة سياسية وهى الحزب الشيوعى ، القوميون العرب ، حزب الأمة ، الاتحادى الديمقراطى ، جبهة الميثاق ، وحزب سانو ، على ان يختار كل حزب أحد الثلاثة المرشحين لتمثيله فى عضوية المجلس ، ومـــن يرفض التعاون نصنفه فى عداد القـــوى المضادة ونتعامل معه على هذا الأساس .

قلت : هل جرى اتصال بالرئيس عبود وكبار الضباط ؟

فأجاب نميرى بحماس :

لا سنضعهم أمام الأمر الواقع ومـــن يختلف معنا أو يخالف يحال إلى التقاعد أو يعتقل حسبما يقتضى الحال عندئذ . واردف :

هذا وضع تصحيحى وليس انقلاباً عسكرياً ، وبعد الفترة الانتقالية يتم تسليم السلطة لقوى الشعب فى ظل مبادىء وأهداف التنظيم .

قلت : مهما اختلفت أسماؤه هو فى النهاية تحرك عسكرى يسبق ثورة الشعب على النظام ،

وقد تطرف بعض اعضاء التنظيم فى المناداة بأن يجىء التحرك العسكرى تابعاً لا قائداً لتحرك الشعب ! !

إستلب فاروق دفة الحديث ليقول :

— هذا أمر تجاوزناه يامحجوب وكل أعضاء التنظيم اليوم يؤيدون هذا المخطط ولا أخالك ستكون من المخالفين أو المتخلفين .

وأرف نميرى : محجوب عليك أداء يمين التنفيذ فافعل ولا تتردد .
فأخرج فاروق من حقيبة بجانبه مصحفاً ومسدساً وضعهما على المائدة وأديت اليمين .

ابتسم نميرى وهو يقول :

— يعجبنى فى أعضاء تنظيمنا تجردهم لخدمة الوطن ، فكل الذين أدوا اليمين قبلك لم يسألوا لانفسهم مغنماً شخصياً وها أنت تفعل مثلهم .

لم أعلق بشىء ، خشية ان يعتبر الحديث فى هذا الشأن نوعاً من المراءاة والنفاق ، وافترقنا على ان نلتقى فى إجتماع تنظيمى أخير موسع يوم ٢٣ اكتوبر لوضع الترتيبات الأخيرة لخطة التنفيذ ، ولم يدر أحدنا وقتها ان للاقدار حكماً آخر نافذاً ، وان الأيام مثقلات يلدن كل جديد .

مرت الأيام فى معسكر تدريبنا الحلوى حافلة بالعمل متجددة ماتعة ، اكسبها ذلك مشاركة بعض ضباط الحامية مثل النقيب عبد العظيم صديق « الفريق ورئيس اركانحرب الجيش فيما بعد » فاصبحت ساعات فراغنا وليالينا منتديات عامرة بالسمر والفكاهة والإبداع ، وكان عبد العظيم أطول باعاً فى ذلك بما يروى من القصص والنوادر والطرف الكردفانية ، وفى خضم هذا الجو الحافل بالعمل والسمر ، كانت اعماقى مصطرعاً لمشاعر متضاربة ، لما ينتظرنى من مهمة تنظيمية خطيرة ، أرقب دنو أجلها بكثير من القلق والبشر والتوجس والاقدام ، غير أنى حرصت ألا تنعكس تلك المشاعر والانفعالات على مرآة وجهى وتصرفاتى بين الآخرين .

ظللت على تلك الحال التى كانت تزداد تأثيراً وعنفاً كلما أشرقت شمس يوم جديد ، ثم جرياً على مقتضى الضرورات أرسلنا ذات يوم نفراً من ضباط الصف والجنود لقضاء بعض الحوائج والمهام الإدارية فى الخرطوم ورئاسة الالاى ، فعادوا مع الغسق يتصايحون .

ـ البلد ياجنابو مقلوبة والحاله جيم !! العاصمة بتغـــلى ، مظاهرات وحـــرائق! وحدات الجيش والبوليس والســـجون والحريقة كلها ســـتاند باى!! وبرضوا ماقادرين يحاصروا الموقف ، ناس الاحزاب والنقابات والهيئات على رأسهم ناس الهيئة القضائية ذاتهم سيروا موكب تحدى ضد الحكومة وطالبوها بتسليم السلطة للشعب والرجوع للثكنات، هتافاتهم : إلى الثكنات ياحشرات!! إلى ....

ساد المعسكر هرج ومرج ، وتحلق الجميع حول أجهزة الراديو يبحثون عن الخبر اليقين ، وما هى إلا لحظات حتى نوه المذيع ببيان هام من وزير الداخلية، وطالب مـــن المواطنين ان يترقبوه !! فاصخنا اسماعنا ونفوسنا مراجل تغلى بالوان الانفعالات ، ثم جاءنا صوت وزير الداخلية بالإنابة اللواء أحمد رضا فريد، وهو يروى تفاصيل الأحداث فى ايجاز قال :

ـ ان بعض العناصر المعادية لثورة الشعب ، قد استغلت قيام ندوة بجامعة الخرطوم لمناقشة مشكلة الجنوب ومضاعفاتها فاحدثت فوضى وشغباً هددا الامن والنظام ، مما حدا بقوات الشرطة للتدخل ، واطلاق بعض الاعيرة النارية فى الهواء بهـــدف التهديد وإنهاء الفوضى وتفريق المتظاهرين ولكن طلقاً طائشاً أصاب أحد الطلاب ، فاتخذت العناصر الموتورة المعادية للثورة من هذا الحادث الفردى غير المقصود ذريعة لمزيد مـــن الفوضى والعبث بمقدرات الشعب والتخريب ، وانى مـــن موقع المسئولية أنذر الجميع باننـــا سنعالج الفتنة بالحزم والشدة اللازمين ، وسنضرب بيد مـــن حديد على كل عابث ومارق على النظام والقانـــون ، بما فى ذلك اطلاق الرصاص .

مع نهاية البيان بدأت الاذاعة تبث الأناشيد والمارشات العسكرية الحماسية ، فإنصرف الضباط وجنود المعسكر ينفعلون بالأحداث ويتبادلون الرأى فيها بغير تحفظ كبير !وإذ هم فى جدال ولجاج وصخب إرتفـــع صوت المذيع بخبر مفاده اعفاء السيدين بابكر عوض الله وعبد المجيد إمام من منصبيهما فى المحكمة العليا والتحفظ عليهما . ثم تواترت الاناشيد والبيانات .

كنت اتساءل بينى وبين نفسى : كيف اغفلت قيادة التنظيم وقادة الجيش إخطارنا

بتقرير عن الموقف في الوقت المناسب ونحن قوة مدرعة ضاربة على أطراف مدينة أمدرمان؟ هل تفاقم الأمر حتى أصبح السهل ممتنعاً؟ وكم من الزمن مر على الأحداث حتى بلغت تلك الدرجة ؟ وما تأثير هذه التطورات الفجائية على المخطط المزمع تنفيذه يوم الخامس والعشرين من أكتوبر ؟ إلى غير ذلك من الاسئلة التى تطرح نفسها بالحاح مزعج مقيت .

في غمرة هذه الدوامة جاء عامل اللاسلكى بالمعسكر يحمل إشارة مستعجلة من القائد الخرطوم تأمرنا بالعودة فوراً وتفريغ المعسكر إلا من قوة محدودة للحراسة ، كما جاء في البرقية تحديد لخط سيرنا ونقطة لقائنا بقائد الحامية وضابط من الاستخبارات وعدد من رجال البوليس الحربى لتمكيننا من التحرك داخل العاصمة والدخول إلى مقر القيادة العامة ليلا .

بعد ساعه من زمان كان أمر القائد قيد التنفيذ، ثم تحرك ركبنا شرقاً في جوف الظلام وهو يرسل هديراً يمزق السكون، حتى إذا خلفنا جبال فتاشه من ورائنا تراءت لاعيننا مدينة أمدرمان غارقة فى بحيرة من الضياء ، كنت في داخل العربة التى تنطلق بنا في مقدمة قواتنا أجلس شارد الذهن أفكر وأقدر ،فانبثق فى عقلى سؤال كبير : هل بلغت الأحداث مابلغت بتدبير من التنظيم ؟ فاذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يخطرنى أحد بما يجرى فى تلك الظروف ؟ كان أزيز المدرعات التى تصحبنا وازدحام الخواطر والاسئلة فى رأسى وتطورات الأحداث التى اندلعت فجأة قد اصابتنى بالدوار والعجز عن الاهتداء إلى الحقيقة ، فانصرفت مقتنعاً بان ركام الحجب التى تحول بينى وبين معرفة مجريات الأحداث ، عما قليل ستنقشع شمس حقيقتها، ورغم ذلك الفيت نفسى تواقة لاختزال الزمن وطى المسافات ، فمرت ساعات تحركنا البطىء في مرافقة المدرعات وكأنها ليل امرىء القيس الذى اردف اعجازاً وناء بكلكل ! ! .

ثم بلغنا مقرنا داخل ثكنات السرية الثالثة أخيراً ، وتلقى المقدم محمد خضر عبادى قائد الالاى بالإنابة التحيه بتمام القوة من النقيب فتحى كمبال قائد السرية الذى أصدر أمره بعد ذلك بالانصراف ، فمضيت ابحث عن فاروق والذى فاجأنى بقوله —

— لاناقة للتنظيم ولا جمل فيما يجرى من احداث ،انها ثورة شعبية عارمة ،اشعلت فتيلها جامعة الخرطوم وأمتد لهيبها إلى كل مكان، ثم احتوتها القوى الوطنية من بعد . وليس

لنا من خيار ســوى التلاحم معهم لاسقاط النظام الحاكم المحتضر ، وليكن بعد ذلك مايكون . إنفرجت شفتاى عــن إبتسامة ساخرة وسألت :

وخطة الانقلاب ؟

قال بغير حماس :

ـ لقد اجهضتها الثــورة الشعبية .

قلت : هل وضع التنظيم خطة تلاحمنا مع القوى الوطنية؟ اعنى هل تصرون على فرض مخطط التنظيم وأهدافه على سلطة الحكم الجديد ؟ .

قال بعد تفكير :

ـ ذلك رهين بقدرتنا على احتواء الموقف السياسى والسيطرة على الوضع العسكرى ، وإلا فلا مناص من السير في ركب القوى الوطنيــة نشد من ازرها حتى تبلغ غايتها دون ان نكشف عن هويتنا ومرامينا ! ونعلم مســبقاً ان الملكية أو الحكام الجدد لحم رأس ! ! ولن يتفقوا أبداً وسوف يتكرر صراعهم العقيم على السلطة ، وعندئذ نكون نحن بمثابة القشــة التى قصمت ظهر البعير ! ! وإن غداً لناظره قريب .

كان التوتر والترقب يسيطران على النفوس ، ونذر العاصفة تلوح في الآفاق . وضج سماء الخــرطوم بهدير المظاهرات والهتافات المعادية للسلطة ، وترترات التقارير على الرئاسة حول الموقف المتفجر فأوردت ان لهيب الثورة الشعبية قــد أمتد إلى عواصم الأقاليم والمــدن المختلفة ، فأضرم وجدان الجماهير واشعل فيها جذوة الكفاح ، ثم انتقلت عدوى عداوة النظام الحاكم إلى صفوف الجيش وكل القــوات النظاميــة ، شرطة / سجون / حرس صيد / وحربية ، كلها تفاعلت وتجاوبت مــع ثورة الجماهير ، فانبرى ضباطها يدعــون للتلاحم مع قيادات القوى الوطنية ، وانجاح عصيان المدنى المعلن الذى بدأ بموكب القضائية ثم استقطب كل النقابات والتنظيمات .

ما كان لقادة النظام الحاكم ان يقفوا مكتوفي الأيدى بعد ان تزلزلت عروشــهم ، ومادت الأرض تحت أقدامهم بفعل هدير المواكب وانفجار بركان الغضب ، فاصدروا أمرهم بالتصدى للمتظاهرين بالقوة المسلحة ! فتلقى فاروق أمراً بقيادة فصيلة لقمع مظاهرة هادرة ، فلم يتردد في عصيــان الأمــر وقال : نحن أبناء هــذا الشعــب له ولاؤنا وارواحنــا ، ولن نكــون أبداً اداة لقمع ارادته واسكات صوته .

فتميز العميد عمر محمد إبراهيم من الغيظ والغضب لذلك ، وأمر على الفور بوضعه فى الايقاف البسيط ،ورغم ان الإيقاف البسيط لايعنى بالضرورة وضع الضابط في الاعتقال التحفظى إلا انه رغم ذلك ينطوى على قدر كبير من تقييد حركته وحرية تصرفه . هال الأمر فاروق،فان أمر الايقاف آخر ما كان ينتظره من جزاء !! وصدر نفس الأمر للنقيب فتحى كمبال ، فتظاهر بالاذعان وخرج على رأس الفصيلة ، ثم عاد دون مساس بالمتظاهرين ، عند ذلك أمر قائد الحامية باجراء استيضاح له على ذلك التصرف، وتسليم السرية الثالثة إلى النقيب « سبت قاو » وبعبارة أوضح تم وضعه في رف المسؤولية .

ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى جاءتنا الانباء بان المقدم جعفر محمد نميرى قد وضع هو الآخر فى الايقاف البسيط بأمر من اللواء عوض عبد الرحمن صغير بسبب مابدر منه من مخالفة بجمع الضباط حوله من خلال اجتماعات متتالية في منزله بمعسكر الشجرة بغرض احتواء الموقف المضطرب وتنفيذ انقلاب عسكرى !! فاسقط فى ايدى عضوى التنظيم فاروق ونميرى فى وقت واحد؟! هنا اصدر فاروق أوامر تنظيمية عاجلة بتلاحم اعضاء التنظيم مع ثورة الشعب وطلائعه وعدم التعرض لاى مواطن بعنف او اذى. وفى ذلك الظرف بدا أن النقيب خالد حسن عباس يسيطر على موقف ضباط المدرعات ويعمل على تلاحمهم فى تجرد تام مع القوى الوطنية الثائرة ، فلم يأبه بتهديد قائد الحامية بوضعه فى الايقاف وتقديمه لمحاكمة عسكرية ميدانية !!.

وهكذا انفرط عقد الضبط والربط داخل المؤسسة العسكرية،وبدت ظواهر التمرد اسوة بموقف التنظيمات والنقابات المدنية التي واصلت حرب النظام الحاكم بسلاح العصيان ، فلم تعد ايدى كبار الضباط فى واقع الامر قابضة على زمام السلطة العسكرية ، حتى لقد تجرأ عدد كبير من صف الضباط والرتب الوسيطة على الدعوة لاجتماعات جانبية جاهروا بعدها بوقوفهم ومساندتهم لثورة الشعب والقوى الوطنية! وامروا رفاقهم فى السلاح بعدم تنفيذ أى امر يصدر لمصادمة الجماهير وردع مواكبها المعادية للنظام،ففعلوا ذلك والتزموا به رغم ما نالهم من تجريح وسباب من المتظاهرين الذين كانوا يهتفون فى وجوههم :

ـ اى الثكنات يا حشرات ، اى الثكنات يا . . . ! !

وكانت تلك هى تجربة السودان الاولى مع انظمة الحكم العسكرى، بينما كان له رصيد ضخم من التجارب الثورية وملاحم النضال ضد الحكم الاستعمارى. ولكن الجيل الذى فجر ثورة أكتوبر ١٩٦٤ م لم يكن له نصيب من ذلك المجد الباقى، فأراد أن يسطر فى صحائف التاريخ شيئا تذكره به الاجيال من بعد، فاندفع بقضه وقضيضه إلى الشوارع والساحات، بعد ندوة الجامعة ومصرع شهيد الثورة الاول وماتلا ذلك من تطورات عنيفه.

كان الزى العسكرى — فى نظر السواد الاعظم من الناس آنذاك — رمزا لنظام الحكم القائم ، فلم يقف عداء الجماهير لافراد القوات المسلحة عند حد الهتافات المعادية والسباب فقط بل أمعنت فى كراهتها لذلك الرمز فرجمته بالطوب والحجارة! وتعرضت عربات الجيش والقوات النظامية عموما وعربات الضباط على وجه الخصوص لوابل من حجارة الجماهير الغاضبة، وقدر للعقيد محمد الباقر احمد أن ينال حظه من حاصب الثائرين ، فتهشم لذلك زجاج عربته واصيب اصابة غير جسيمة فادركه الغضب وطارد الجانى حتى قبض عليه وقدمه لمحاكمة عسكرية سريعة قضت بسجنه لثلاثة أعوام ! ! فلم يخفف ذلك من غلواء الغضب فى نفسه من جراء ما كان فيمم وجهه شطر رئاسة الالاى يصحبه المقدم محمد خضر عبادى فتحدث الينا وملء اهابه عواصف من السخط والغضب ، وحثنا على ردع الغوغاء والدهماء حيثما ثقفناهم صونا لكرامة الجندى وحرمة القانون ! ! وما كاد ينتهى من حديثه حتى علق العميد عمر محمد ابراهيم بقوله :

سامعين الكلام ده ياضباط الحيرة العقيد الباقر من فرع العمليات برئاسة الجيش و كلامه ده بيعتبر أوامر عمليات حربية وعدم تنفيذها يعتبر مخالفة لامر ميدانى ! !

كان الموقف السياسى يزداد اشتعالا وتفاقما بصورة مطردة ، فصدرت أوامر القيادة العامة بخروج اطواف مسلحة تجوب شوارع العاصمة اظهارا للقوة ومنعا للتخريب وقمعا لعداء الجماهير للحكومه: فانصاع الضباط والجنود مكرهين، ولكنهم آلوا على انفسهم الا يدخلوا مع مسيرات الغضب وموا كب الثائرين العزل فى صدام، وا كتفوا بتنفيذ الامر شكليا .

في صباح يوم الاحد الموافق ٢٥ / اكتوبر صدر امر لقائد السرية الثالثة بخــروج فصيلة مدرعة لنفس تلك الاغراض،فوقع على الاختيار لقيادتها هذه المرة، فاما علم فاروق وفتحي كمبال بذلك بادروا بمقابلتي قبل التحرك،وطلبا مني عدم اطلاق النار مهما كانت الاسباب. فا كدت لهما انه لم يكن ثمة داع لهذا الطلب إذ انني سلفا ملتزم به،فانصرفا راضيين. وعند بداية تحركي على رأس تلك الفصيلة استوقفني العميد عمر محمد ابراهيم وفاجأني بتعديل في مهمة خروجي ذلك فقال :

عليك أن تتجه إلى منزل معالي اللواء حسن بشير نصر لحراسة إجتماع هام يضم قيادات النظام الحاكم،فنحن نخشــى ان يتعرض المجتمعون لتحرك مسلح مضاد، فقم بتوزيع مدرعاتك حول المنزل بحيث تستطيع التعامل بالنيران اذ اقتضى الامر .

اجبت بحاضر سعادتك . ثم واصلت سيري دون ان يتسع الوقت لاخطار فاروق بذلك التعديل في المهمة، ولم امض بالقوة الا قليلا حتى التقيت بالنقيب فتحي كمبال الذي تصادف وجــوده في طريق خروجي وكنت اعلم انه ليس عضوا في التنظيم ، فاخطرته على أمل ان يبلغ الامر لفاروق ولم اطلب منه ذلك صراحة ولكنه فعل .

ظللت على رأس فصيلتي المدرعــة في حراسةمنــزل معالي اللواء حتى انفض الاجتماع عند الخامسة مساء. وكان معاليه قد تفقد قوتنا فور وصولها ظهرا، وأشرف بنفسه على توزيعها وامر بوضع مدرعة(فرت) داخل جراج المنزل مع ترك جهــاز اللاسلكي— B 47 — مفتوحا على موجة متصلة ببقية المدرعات !وقبل ان ينضم للمجتمعين بداخل منزله أمر بتوزيع وجبة غداء خفيفة فيشكل ساندوتشات على أفراد الفصيلة مع التأكيد عليهم باليقظة والحذر . فمر الإجتمــاع بســلام حــتى إذا ودع من كان معه لدى باب المنزل الخارجي وانصرفوا جميعا طلب مني ان اصحبه الى الداخل ففعلت. وهناك في صالون المنزل اجلسني على مقربة منه وقال لي :—

اسمع يا محجوب كنت دائما اعتقد انك ضابط واع ومدرك، ولم يخالجني في يوم من الايام ادنى شك في صدق وطنيتك،وهذا مايجعلني اطلعك على أمر هام يهمني ان تعرفه وتبلغه من بعد لرفاقك، وهو اننا لم نستلب سلطة الحكم من المدنيين في١٧ نوفمبر ١٩٥٨ م بل سلمت الينا تسليما ونحن زاهــدون بعد ان قعدت الخلافــات والصراعات الحزبية بحكام البلاد عن قيادة مسيرة الوطن وتحقيق طموحات شــعبه

بعد الاستقلال ، فتحملنا نحن المسؤوليةوعملنا جهد طاقتنا وقدراتنا على خدمته ونهضته ووحدة ترابه فى تجرد ونكران ذات ونقاء ثورى بعيد،وكان الشعب وراءنا يبارك خطـانا ويشد من أزرنا حتى فوجئنا بالموقف الحالى،وقد تدارسنا فى المجلس الاعلى تطورات الاحداث الاخيرة فقال لنا الرئيس عبود :

« الشعب وحده هو صاحب السلطة ومصدرها ، فاذا رأى ان نسلم قيادة الحكم فى البلاد لغيرنا من قادة القوى الوطنية فعلنا حتى لو لم نكن عـلى قناعة باشخاص أولئك القادة (سيد الزبدة كان قال ليك اشويها أشويها) ضحك معالى اللواء من ذلك التعبير الحكيم وواصل :

المهم نحن قررنا حل المجلس الاعلى باتفاق جميع الاعضاء مع الابقاء على منصب القائد العام لفـترة مؤقتة حفاظا على امن البـلاد ووحدة الجيش، كذلك منصب رأس الدولة بصفة مؤقتة حماية لوحدة الوطن وسيادته ، هـذا مايجب ان يعلمه اخوانك الضباط فلا داعى لما يصدر عنهم من تصرفات غير مسؤولة فى مواجهتنا ، فنحن وهم رفاق سلاح وحماة لهذا الشعب ووطنه واولاد خندق وحفرة ! !

لم اشأ أن اعقب على حديثه بشىء،ولكنى سألته عما اذا كان هو شخصيا سيستمر فى موقعه نائبا للقائد العام خلال الفترة المؤقتة فقال :

هذا أمر متروك لتقدير الرئيس ، وكما تعلم فانا وعمك اللواء طلعت فريد مانزال فى صفوف القوات المسلحة ولم‌تتم احالتنا الى المعاش مثلما حدث لاعضاء المجلس الاعلى الآخرين وطلعت فريد أقدم منى رتبة وعلى كل حال المسألة برمتها متروكة لقرار الرئيس.

شكرته على ثقته بى وصراحته وما خصنى به من تكاليف ، مؤكدا له اقتناعى بكل ماقال واعدا اياه باطلاع زملائى الضباط على تلك القرارات الوطنية الحكيمة. فاثلج ذلك صدره وقال لى وهو يودعنى :

اريدك ومن معك من قوة أن تكون على اهبة الاستعداد قبيل منتصف هذه الليلة، فعودوا وخذوا ما يلزمكم من الراحة. ولتكن مطمئنا فقد ابلغت العميد عمر محمد ابراهيم بهذا الامر الذى أرجو ان تبقيه سرا لايعلمه احد .

أجبت قائلا : حاضر معاليك .

ثم حييته وخرجت لانصرف مع افراد قوتى ومدرعاتى ، وهناك فى الثكنات ابدى العميد عمر محمد ابراهيم اهتماما غير عادى بالقوة التى كلفت بقيادتها لامر الاقامة

حيث امر بدعمها بثلاث مدرعات (صلاح الدين) لتصبح القـوة ست مدرعات صلاح الدين ومدرعتين (فرت) وهي — في ذلك الوقت — قوة ضاربة لايستهان بها، ثم أطلق العميد عليها اسم قوة الاحتياط تفاديا لاشكال الرتبة التي ينبغي أن تتـولى قيادتها، اذ كنت برتبة الملازم ولايحق لى — من حيث الاقدمية — قيادة احدى سرايا الالاى في وجـود من هم أعلى منى رتبة، اما القوة الاحتياطية فيمكن أن يحدث فيها مثل هذا التجاوز .

ومن مظاهر الاهتمام بتلك القوة ايضا في تلك الظروف ان العميد نفح سائق عربته العسـكرية مبلغا من المال وطلـب منه ان يشـترى وجبة عشاء فاخـرة لافراد القوة !! ثم أوصانى كثيرا بحملهم على نيل قسط من الاستجمام والراحة بعد العشاء مع التواجد في مكان واحد، ومافتيء يكرر القول (ابق الامر سراً) فلما كانت الساعة تقترب من العاشرة مساء استدعانى لمكتبه وسلمنى امرا مكتوبا بعدم تحريك القـوة الا بامر من معالى اللواء حسن بشـير او منه شخصيا وان لاانصاع لاى امر آخـر بتحريك القوة أياً ما كان مصدره!! ثم كرر وصيته تلك (بان يبقى الامر سرا) .

انصرفت من مكتبه وانا نهب لحيرة شديدة ، وعادت التساؤلات تزحم رأسى وتصطرع فيه من جديد .

ماذا يراد بهذه القوة ؟

— وهل ستستخدم كرأس رمح لعمل انقلابى ؟

— ولماذا؟ وكيف؟ ومتى؟ .

لم اطق صـبرا على هذا الغموض فرأيت — رغم امر العميد بابقاء الامر سراً — ان اشرك معى النقيب فتحى كمبال في تحليل الموقف، فقد كان قائد سريتى وموضع اسرارى. فطمأننى فتحى بان الامر عادى في ظروف الغليان التي تمر بالبلاد، وان صدور امر التحرك من أولئك القادة وحدهم ما هو الا نوع من التحوط والحذر، فهم بالتسلسل القيادى ومواقعهم في القيادة أصحاب الامر والنهى، فمعالى اللواء حسن بشير هو نائب القائد العام والعميد عمر قائد الحامية فلا غرابة اذن في محاولة أحكام قبضتهم على أى تحرك عسكرى مسلح وخاصة المدرع منه . وكان هذا التحليل الموضوعى كافيا لازالة ماراودنى من شكوك ووساوس، فاخلدت بدورى للراحة والنوم بعد ان امرت بايقاظى عند اللزوم .

فى الواحدة بعد منتصف الليل ايقظتنى الدورية لأجـــد العميد / عمر محمد إبراهيم فى انتظارى ! فاسرعت لاستقباله ففاجأنى بالســؤال :

ــ هل اخبرك معاں اللـــواء بمهمتك ؟!

قلت : كلا ..

فتفكر لحظة ثم أمر الضابط النوبتجى بالإنصراف ، فلما غدونا وحدنا قال :ــ

ــ تحرك بهذه القـــوة لحراسة القصر الجمهورى ! واجعـــل توزيع مدرعاتك وفق مايلى ..

وأخرج مـــن جيبه ورقة صغيرة ، عليها خطة التوزيع كاملة مفصلة ، ثم قـــام بشرحها بصورة مركزة حتى إذا فرغ من ذلك سألته :

* هل هذه حراســـة « عادية » سعادتك ؟!

فأجاب العميد :

ــ نعم عليكم فقط بحماية القصر والرئيس بداخله .

ــ قلت حاضر سعادتك ، ثم تجرأت بالســؤال .. سعادتك أنا ضابط أقود قوة مسلحة كبيرة ، انيط بها حماية رأس الدولة ، فأرجو ان « تنورنى » بجلية الأمـــر !!

رمقنى العميد بنظرة فاحصة . وكأنه يريد ان يستوثق لنفسه أولا ، ثم انبسطت اسارير وجهه وقـــال :

ــ سيتم حل المجلس الأعلى ، مع الابقاء على نائب القائد العام ومعاں الرئيس لفترة مؤقتة ، ذلك ماجرى الاتفاق عليه بعد تطورات الأحداث الأخيرة القائمة ، ومـــن ثم فان تحرك قوتكم يهـــدف لحماية فخامة الرئيس من أى إتصال أو تأثير أو فعل مضاد ولاشىء غير ذلك .

قلت : شكراً سعادتك على هذا التنوير ، وسأتحرك فوراً لاداء المهمة .

قال : فليوفقك الله ....

ونفذت الأمر الصادر بتحريك مدرعاتى ، وعندما وصلت القصر قمت بتوزيعها على شكل دفاع حوى وجعلت مقر قيادتى عند البوابة المواجهة للساحة حسب الخطه ، ولم أكد أفرغ من ذلك حتى خرج علينا السيد أحمد حسن الضو منزله المجاور للقصر ، وكأنه

ارتاب فى وجودنا فى تلك الساعة المتأخرة من الليل بذلك العدد الكبير من المدرعات ، فأخطرته بمهمتى فاطمأن و زايله مايجد من ريبة ، ثم سـألته عن معانى الرئيس ، فقال :

ــ سأخطره بحقيقة أمركم .

فى جـوف الظلام والسكون ، انطلقت مشاعرى كمردة الشياطين تنوشنى مـن كل جانب .

ظللت كذلك حتى شق الفجر غلالات الغيوم ، وعند الساعة الرابعة صباحاً اخطرنى قائد احدى المدرعات التى تقف بازاء مبنى البوسته بواسطة جهاز المدرعة اللاسلكى ، اخطرنى انه شاهد ثلاث عربات كومر عسكرية كبيرة محملة بالجنود وفى ركبهـا عربتان من حاملات الجنود الروسية المدرعة ، وقد توقفت جميعها خلف مبنى البوستة ووزارة المالية ، وكانت عند قدومها تسير مطفأة الانوار فى حركة حذرة خافتة .

عندئذ أمرت جميع المدرعات باتخاذ الاستعداد الكامل تحسباً لهجـوم وشـيك الوقوع ، وما ان وضعت سماعة جهاز اللاسلكى وخرجت من برج المدرعة « صلاح الدين » حتى ألفيت نفس المدرعة وقائدها الذى نقل إلى خبر تلك القـوات ، تقف قريباً من بوابة القصر من مواجهتى وعلى متنها النقيب «الرشيد نور الدين» كان يرتسم على وجهه الغضب ويكسو نبرات صوته الانفعال ، ودون مقدمات جبهنى بالسؤال :

ــ لماذا تحركت قبل إخطار فاروق بمهمتك ؟؟

وقبل ان أجيبه نظرت إلى قائد المدرعة نظرة أدرك معناها ، فقال متلجلجاً :ــ

ــ جنابك اليوزباشي الرشيد كان قائدنا ، وكمان كان عارف سر الليل وجايى براه عشان كده جبناه ليك حسـب أوامره لينا .

فقلت للرشـيد :

* هذا تحرك حراسة وتأمين عادى للقصر ، لذا لم أهتم بابلاغه لأحد ، وعلى كل فليس فى الأمر سر ، فاليوزباشى فتحى كمبال على علم به ، ثم سألته بدورى عـن مغزى تحركه فى تلك الساعة وذلك المكان ، فقال :

ــ أنا جئت بهذه القـوة لتأمين ودعم مدرعاتك وتحسباً للظروف ، فنحن لانعلم ما يدبر هؤلاء وعلى رأسهم الرئيس عبـود وأعضاء مجلسه الأعلى ! !

فقلت معقباً على ذلك :—

* إن المجلس الاعلى سيحل ، هذا توجه معالي الرئيس عبود وعزمه ..

تساءل الرشـــيد ساخراً :—

ـ هل بلــغ بكما الود مبلغاً يجعله يفضي إليك بمثل هذه الاسرار ؟!

تجاوزت سخريته عامداً وقلت :—

* أم تريد شيئاً غير ذلك ؟!

قال في حدة :ـ ماذا تقصـــد ؟!

قلت : اليست هذه مرامي وتوجيهات تنظيمنا حالياً ؟!

قال : الرئيس راجل طيب وعلى نياته ، ولكن من حوله ..

قاطعته متبرماً :—

هذه اسطوانه مللنا سماعها لست سنوات متواصلة « الرئيس راجل طيب والكن من حوله هم أسباب الفســاد والتدهور » في رأى انهم كلهم طيبون ونحن كذلك .

رمقنى الرشيد بنظرة إنكار وقال :—

ـ وهذا إتهام آخر عليك توضيحه فيما بعد ، فانت الآن تدافع عن قادة الحكم العسكرى ، والمسألة لاتخرج عن أحد أمرين ، أما ان تكون متعاطفاً أو موالياً لهــم !! وأحلى الأمرين مر .

قلت : فليكن .

قال بهدوء مفتعل :

ـ على العموم سنحسم هذه المســألة تنظيميا من خلال نقدك الذاتى فيما بعد ، فلنقم الآن بتوزيع مشاتى على مدرعاتك . وهذا أمر عسكرى وتنظيمى معا .

قلت : لامانع .

ثم إنصرفنا لتوزيع قواته فحرص الرشيد أن يكون مع كل مدرعة صف ضابط من قواته أقدم رتبة من قائد المدرعة، كما كان هو نفسه أعلى وأقدم منى رتبة،ومن ثم تولى عنى القيادة حتى بزوغ شمس النهار ودبيب الحركة فى شوارع المدينة .

إندلعت المظاهرات من جديد، تبدأ بعيدا ثم تتجه هادرة نحو القصر الجمهورى

بهتافاتها المدوية المعادية للنظام ، حتى إمتلات ساحة القصر بحشود المواطنين الغاضبة ونحن وقواتنا فى مواجهتهم نلتزم بالامر بعدم التعرض لهم . وظللنا على تلك الحال حتى السابعة صباحا عندما حضر فاروق حمدالله ووقف برهة مع الرشيد ثم اخطرنى انه علم بأمر تحركى نحو القصر من فتحى كبال،ورجانى الاأحمل فى خاطرى من الرشيد وحديثه آنف الذكر لجهله بأبعاد موقفى ومراميه،ثم تحدث الى الرشيد عن سلامة الموقف الامنى وطلب منه التحرك بقواته الى الشجرة ففعل وتركنى حيث كنت فى موقعى بالقصر . وبعد ذلك بقليل حضر السيد بابكر عوض الله يرافقه شخص آخر على عربة فلوكسواجن تتحرك فى بطء أمامنا فاتجهت لتحيته، وما كاد يبصرنى حتى اصابته الدهشة وإرتسمت على وجهه علائم الغضب وقال لى معاتبا : لقد أطلقـــوا سراحنا أخيرا ولكن ما منعك من زيارتى وأنا رهن الاعتقال بمنزلى طوال هذه المدة ؟ أدركنى بالغ الحرج للسؤال فقلت :—

• لقد كنت فى مأمورية خارج الخرطوم .

قال بمـــرارة :—

— على العموم لم أجد فى وقت الشدة الى جانبى سوى إبنى سامى والفـــــنان عبد الكريم الكابلى الذى كان يحمل رسائلى الى من أريد .

فأخذت فى الاعتذار والتوضيح ولكنه قاطعنى :—

— أوصيك بعدم التعرض لقوى الشعب، فلا تنفعلوا بما يصدر عنها من هتافات معادية .

طمأنته قائلا :—

• لن يحدث ذلك أبدا مهما ينالنا من تجريح. قال وهو يتحرك بعربته مبتعدا :

— ليوفقكم الله .

فى التاسعة صباحا أمر الرئيس بعودة مدرعاتنا الى قواعدها تاركين مهمة الحراسة لقوات الحرس المحدودة، وما كان ذلك منه إلا حفاظا على مشاعر الجماهير . فتوجهت بمدرعاتى نحو رئاسة الالاى ، وفى طريق عودتنا الى هناك كانت جموع المواطنين المحتشدة بكل مكان تحاصرنا بالهتافات المعادية،ولم يخفف من غلوائها إلا صعودى على ظهر إحدى المدرعات وتلويحى للجماهير الغاضبة بيدين مقبوضتين فوق رأسى كناية

عن تضامننا معها وإنحيازنا لها ، فتحولت فجأة مشاعرها العدائية الى صيحات فرح وزغاريد! ثم اتجه الناس نحونا وتسلق نفر منهم المدرعات الى جوارنا وسارت جموعهم في ركابنا وهى تهتف من أعماقها :

— يحيا الجيش يحيا الجيش، الجيش جيش الشعب. ولم ينحسر مد الجماهير من حولنا إلا لدى بوابة القيادة العامة . حيث دلفنا نحن إلى الداخل وعادت الجماهير أدراجها تملأ سماء المدينة بهتافات الثورة والفداء .

ومن عجب فما ان وصلت إلى رئاسة الالاى حتى علمت من رفاقى الضباط انه قد صدر أمر باعتقال النقيب الرشيد نورالدين ووضعه فى الايقاف الشديد لتحريكه لتلك القوة وفرضه حراسة أو حصاراً على القصر دون علم قيادة الحامية والجيش ! وأنه قد جرى تعيين النقيب بابكر مالك حرساً له ثم صدر أمر بتشكيل مجلس تحقيق فورى للتحقيق معه برئاسة الرائد عبدالله محمد عثمان وأمر آخر بمنع إتصال الضباط به ، فبقى فى الايقاف ثلاثة ايام !! اطلق سراحه بعدها إذ تبين لكبار الضباط ان عقد الضبط والربط والنظام قد إنفرط تماما وأن إيقاف بعض الضباط لن يخيف الآخرين..

ومن سمات ذلك أننى عند عودتى للالاى الفيت ثلة من الضباط اذكر منهم خالد حسن عباس وسعد بحر يوسف وفتحى كبال واحمد محمد على « الشهير باللورد » وزيادة صالح الشيخ وآخرين وهم يحملون كشفا بتوقيعات ضباط الحامية والالاى يطالبون فيه بحل المجلس الاعلى فورا، ويهددون بالتدخل العسكرى لصالح الجماهير الثائرة إذ لم يستجب الرئيس والاعضاء بذلك المجلس لقرار الحل الفورى !!

فادركت عندئذ أن عقد الضبط والربط والنظام قد إنفرط ، ثم جاءنى خالد بذلك الكشف وطلب منى أن أوقع عليه أسوة بالضباط الآخرين واردف يقول :

— لقد عقدنا العزم على تسليم الكشف بعد إكتمال التوقيعات للعقيد حسن فحل ليرفعه بدوره الى الجهات المعنية إعلانا لموقف القوات المسلحة فى هذه الظروف وإعلاء لرغبة أفرادها كافة . وأضاف خالد بثقة وحماس مفرطين :

— كذلك سترد كشوفات من مختلف الوحدات والقيادات وتسلم للعقيد فحل لنفس الغرض !!.

فى تلك اللحظة إنضم إلينا الرائد «محمد محجوب عوض الله» ولانه من ضباط سلاح الاشارة فقد اطلق عليه الرفاق إسما حركيا هو « هدهد » قال

ساخرا وهو يقف بيننا :

— لقـــد جئتكم مـــن سبأ بنبأ عظيم ! !

فاستدارت نحوه الوجوه فى لهفة لســماع ذلك النبأ فقال :

هل تعلمون أن اللواء حسن بشير واللواء محمد إدريس عبدالله يشجعان ويبار كان توقيعات الضباط؟ وقد اصدرا الامر للمقدم حسن فحل بجمع أكبر قدر منها! ومعنى ذلك انهما يؤيدان بقوة حل المجلس ويحاولان إقناع الرئيس ورفاقه بالقرار .

فتساءل خالد حسن عباس :—

— اتراهما يستغلان إندفاعنا الثورى لمصلحة مخططهما وأهدافهما الذاتية؟! أم هى إستجابة تلقائية للظروف ؟

تصدى للرد عليه الرائد محمد محجوب فقال :

— فى إعتقادى أن غايتهما البعيـــدة هى رد بضاعة الحكم والسياسة المزجاة الى طلابها ليخلصا بالجيش نجيا أو كما قال ! !

عند منتصف نهـــار اليوم السادس والعشرين إستدعانى العميد عمر محمد ابراهيم لمكتبه ، فأبلغنى أن معالى اللواء حسن بشير يزمع توجيه خطاب لقوات المسلحة والشعب ويكلفنى باعداده . ثم أردف العميد قائلا :

أن ذلك الخطاب سيكون شريحة من تاريخ البلاد ، فيجب أن يتم إعداده وصياغة مضامينه بصورة مثلى بحيث يأتى شاملا شارحا للموقف السياسى والعسكرى فى الظروف الراهنة ، وليس على النمط التلغرافى كما جرى العمل به فى الخطابات السابقة لمعاليه .

قلت ضاحكا : ولكن معاليه يؤمـــن بأسلوب ماقل ودل . فقال بحزم وتأكيد :

— ما قل لن يدل هذه المرة وقد أقنعت معاليه بذلك .

قلت له بدافع الفضول والبحث عن الحقيقة للتاريخ :

— لابأس ولكن أرجو أن تنورنى سعادتك بكل أبعاد الموقف السياسى الراهن ، لكى تتاح لى فرصة البيان والتعبير عن واقع أجهل خفاياه ! !

فتراجع بكرسيه الى الوراء قليلا وقال :

الموقف السياسى باختصار شديد أن جمهرة من المتعلمين الموتورين فى طليعتهم

أعضاء وطلبة جبهة الميثاق الاسلامي قد فجروا بركان العداء ضد نظام الحكم القائم، وهم الذين جنحوا بندوة الجامعة الخاصة بمناقشة مشكلة الجنوب نحو الفرضى والمواجهة والتحرش، وقد شايعهم فى ذلك فئات المهندسين والقضاة والمحامين والاطباء وأساتذة الجامعة، إستغلوا إشتباك البرليس المسلح مع الطلاب وإصابة بعضهم فنادوا بالتمرد على الحكومة وإعلان العصيان المدنى، ثم ركبت احزاب الامة والوطنى الاتحادى والشعب الديمقراطى والحزب الشيوعى موجة السخط المفتعل كيلا تفوتها فرصة المشـاركة فى الاحداث والتمهيد لاقتسام الغنائم، ولايخفى عليك ماكان من تطورات بعيدة بعد ذلك أسفرت عن رغبة الرئيس وأعضاء المجلس الاعلى فى التخلى عن سلطة الحكم، وتسليمها لهؤلاء الموتورين الفرقاء الذين حسبوا أن الثورة «ميتة» أو شجرة يانعة حان قطافها فتدافعوا نحوها وزعم كل منهم انه صاحبها وباذر غرسها الميمون !! فهـم يجتمعون لهذا الغرض فى نادى أساتذة جامعة الخرطوم وقبة الامام المهدى بغية الاتفاق على تقسيم الغنائم وتوزيع الاسلاب .

أما جماهير الشعب وهى الوقود الحقيقى للاحداث فانها مدفوعة بأحلام التغيير ولاتعلم حقيقة أولئك القادة ودوافعهم وأهدافهم !! وسيعلم الناس حين يصبح هؤلاء حكاما عليهم أى منقلب ينقلبون !! إن ثورة ١٧ نوفمبر كالصحة سواء بسواء لن يعرف الناس قدرها وعظمتها الا عند زوالها .

وقبل ان يواصل حديثه رن جرس التلفون فجأة فرفع السماعة وشرع يسمـع ويحاور محدثه باقتضاب وإهتمام، وكشف من خلال عباراته عن شخصية الطرف الآخر فاذا هو معالى اللواء حسن بشير نصر حيث كان يردد :

نعم معاليك .. حاضر .. وهو كذلك .

ثم تذوب الحواجز فجأة من بعد تحفظ وإنفعال :

— لا ياحسن ، ده تطرف ماليه لزوم !! ياخوى أسمع كلامى وارميه البحـر . خليه يجى ، مهدى حامد حريص عليك وعلى الثورة .. صدقنى يا حسـن .. لالا .. ماتحاول تمشى نادى الاساتذة معليش القبة .. ان شاء الله .. يحصل كل خير . مع السلامة معاليك ..

ثم وضع السماعة واستدار نحوى يسألنى :

ــ نحن كنا بنقول فى شنو ؟

فاجبته بالســؤال :

المتحدث ده كان معالى اللواء حســن بشير ؟

قال نعم واضاف :ــ

ــ معاليه قال العميد محمد مهدى حامد قائد سلاح المدفعية سأل عن الموقف وطلب ان يتحرك إلى الخرطوم بقــوة كبيرة من سلاحه لتأمين الثورة ، لكن معاليه رفض وطمنه .

ثم ضحك العميد فى سخرية وهزء واردف :

قال ليه نحن مســيطرين على الموقف تمام والشعب معانا ، تعرف يامجرب ، معاليه مخدوع !! وأكيد مهدى لو جاء الخرطوم الموقف حيتغير ، مهدى راجل ضكر ، وحيتصدى للخمج الحاصل ده ويوقفه عند حده .

قطع حديثه دخول اركانحربه الذى حادثه فى بعض الامور على عجل وخــرج ، فعاد العميد يسألنى :ــ

نحن كنا رقفنا وين ؟!

قلت : عند مجيء سعادة العميد مهدى حامد للخرطــوم .

فقال : أيوه فعلا ، باختصار هذا هــو واقع الحال ، فالقوى التى تواجه الثــورة اليوم هى نفس القوى التى اعلنت عجزها وفشلها قبل يــوم ١٧ نوفمبر ١٩٥٨م وسلمت السلطة السياسية طائعة مختارة للعسكريين !! وهى تحاول الآن ان تسجل لهــا مواقف تاريخية بعد ان تأكدت من استسلام النظام وأمنت بطشــه ، فهاهو الزعيــم إسماعيل الأزهرى قد تقدم بمذكرة للرئيس عبود يطالب فيها بحل المجلس الأعــلى وتسليم السلطة للمدنيين ، ولولا الحرج لأفصح عن رغبته فى استلام السلطة بغير شريك! وحذت حــذوه زعامة حزب الأمة بقيــادة السيد الصادق المهــدى فتقدمت مثله بمذكرة لنفس الغرض المعلن والمرامى الخفية !! ثم سلكت بقيــة الأحزاب والمنظمات الفئرية نفس الطريق . وعلى كل حال فهذه المذكرات ستثبتها وقائع التاريخ لامحالة ، ولهذا قال معالى اللواء حســن بشير :

— نحن سطرنا فى صحائف التاريخ أمجاداً لاتنكر ، وفى هذا المنعطف لا نرضى بالمذكرات مجداً وفخاراً كما يفعلون ، بل نسلمهم السلطة طواعية وإختياراً ! ! فنكون بمثابة اليد العليا ، ولن ينسى لنا التاريخ هذا الصنيع .

سكت العميد لحظة ثم قال :

— هذا يعنى اننا فقط نسابق الزعامات والقوى الوطنية على ساحات التاريخ ومواقع الخلود ، ولا أحسب ان هذا عمل ينفع الناس، بل ربما يأتى بنتائج لاتحمد عقباها ، ولكنها أوامر معاليه وماعلينا سوى الطاعة والتنفيذ ، وليتهم بعد استلام السلطة يتركوننا لاداء مهامنا العسكرية ، ولكنى على يقين انهم لن يفعلوا ذلك ، بل سيعملون على ابعادنا من صفوف القوات المسلحة ليضعوا مكاننا من يواليهم ويخدم أهدافهم وسيكون لذلك أثره السلبي على كفاءة القوات المسلحة وتقاليدها ودواعى الضبط والربط والنظام ، هذا أمر اراه الآن ببصرى وبصيرتى بغير حجاب ، ولكن معاليه ومن يندفعون معه صم عمى لايفقهون .

ثم سحب ورقة كانت على مبعدة منه ونظر فيها ملياً وقال :

— لقد حدد معاليه ثلاث نقاط لتكون محاور لخطابه ، الأولى حديث موجز عن تحمل القوات المسلحة لمسئولية الحكم فى البلاد ثم تسليمها لاولئك الذين سلموها لها من قبل ، وتعهد القائد العام ومن خلفه ضباطه بالحفاظ على إستقلال السودان وأمنه ووحدة اراضيه فى تجرد تام ونكران للذات ، مع تأكيد قومية المؤسسة العسكرية وبعدها فى المستقبل عن كل تحرك ونشاط سياسى .

المحور الثانى للخطاب : حول كيفية إنتقال السلطة ، وقد تقرر ان تسلم من خلال مجلس أعلى جديد يتم انتخابه من صفوف الجيش لفترة إنتقالية لملء الفراغ الدستورى ، وليقوم بتسليم سلطة الحكم للمدنيين عند نهاية الفترة الانتقالية ومدتها ثلاثة أشهر على الأكثر .

أما المحور الثالث والأخير فيطرح تأكيداً قاطعاً بان الشعب هو مصدر السلطات ، وايماناً منا بذلك نستجيب لرغبته وإرادته .

ثم اردف فى نبرة ملؤها الجدية والتحذير :

ـ ان هذا الخطاب ومحتوياته غاية فى السرية ، ويجب الا يعلم به أحد من الناس قبل إذاعته .

فطمأنته باقتضاب وتمنى لى التوفيق وطلب منى ان اعرضه عليه فور الفراغ من صياغته ، ثم سألنى مستدركاً وأنا أهم بالانصراف :ـ

ـ كم مـــن الزمن تحتاج لانجاز الخطاب فى صورته النهائية ؟!

قلت بعد تفكير قصير :ـ

ـ ارجو ان افرغ من ذلك قبل الساعة الثانية ظهـــراً .

قال : لابأس ، وفقك الله ..

طويت السر بين جوانحى وغادرت مكتبه ، فعلمت إثر خروجى ان التوقيعات قد إكتملت ، وذهب بها كل من خالـــد والاورد وفتحى كمبال لتسليمها للعقيـــد حسن فحل ، كما علمت من رفاق الســـلاح أيضاً ان الأمر لم يقف عند حد التوقيعات للمطالبة بحل المجلس الأعلى ، فقد قام كـــل مـــن اللواء عوض عبد الرحمن صغير واللواء الطاهر إبراهيم المقبول بطواف على وحـــدات العاصمة أثناء ساعات العمل لاستبيان مواقف الضباط وتلمس آرائهم حول الموقف السياسى الراهـــن ، فكان ثمة إجماع وانحياز لرغبة الجماهير الثائرة فى مطالبتها بحل المجلس الأعلى وعـــودة الحياة الديمقراطية والابتعاد بالجيش عن أتون العمل السياسى ، فنقلا هذه الآراء والرغبات إلى الرئيس عبود مباشرة فكانت أحد العوامل التى عجلت بنهاية نظام حكمه .

توجهت صوب غرفتى بالميس حتى أخلو لنفسى واتفرغ لاعداد الخطـــاب ، فحالفنى التوفيق فى إنجازه بصورة مثلى وفى الزمـــن المحدد ، وعدت به للعميد الذى أمرت بتسليمه لمعالى اللواء حسن بشير فى منزله بشارع على عبد اللطيف .

فى منزل معالى اللواء حسن بشير الذى أضحى فى تلك الاونة الأخيرة بمثابة الموقع العسكرى البديل طلبت من أحد الحراس إخطاره بحضورى ، فغاب هذا لحظات وعاد ليفسح لى طريق الدخول إليه ، وهو على مائدة الغداء وإلى جانبه كل من سعادة اللواء محمد إدريس عبدالله والعميد أحمد الشريف الحبيب وســـعادة اللواء الطاهر إبراهيم المقبول وجميعهم يعرفوننى ، فقام رب الدار عن المائدة ليسأل عما جاء بى ، فسلمته الخطاب

الذى إطلع عليه لماماً بغير تركيز، ثم قال وهو يمزقه إرباً :

ـ لافائدة ، سنكتفى بخطاب معالى الرئيس ، ثم ادركه قدر مـــن الحرج لذلك التصرف ، فقال كمـــن يعتذر :ـ

ـ على العموم لك شكرى يامحجـــوب ، الخطاب جميل بحق ، لكن كما ترى فان كل شىء يتمزق الآن ، واردف مجاملا :

ـ انا مضطر للذهاب لإجتماع المجلس الأعلى الآن ، ويمكنك تناول الغداء مع اعمامك قبل العـــودة إلى وحدتك .

فاعتذرت له بضيق الوقت وشكرته على دعوته،وبينما كنت اتاهب لمغادرة المكان، نهض اللواء محمـــد إدريس عبدالله ودار حديث هامس قصير بينه وبين اللواء حسن بشير ، سلمنى على أثره اللواء محمد إدريس خطاباً مقفـــولا طلب منى تسليمه للعقيد الطيب المرضى أو العقيد حسن فحل أو العقيد الباقر محمد احمد،ايهم وجدت برئاسة الجيش،فسلمت الخطاب الاول وعدت ادراجى إلى مكاتب السرية الثالثة،حيث ألفيت المقدم جعفر نميرى يتحدث فى عفـــوية ومودة مع نفـــر من ضباط السرية، وما ان رآنى مقبلا حتى هب من مجلسه بينهم لملاقاتى وكأنه كان فى إنتظارى من قبـــل ، وبعد التحية دعانى للانفراد به فى مكتب النقيب فتحى كمبال .

هنالك ابتدرنى بالســـؤال عما حدث ،فأفضيت له بما فى كنانتى واستغرق فى تفكير عميق قال بعده :

ـ إذا وضعنا فى الاعتبار عضوية اللواء حسن بشير فى المجلس الأعلى ، ورفض الجيش والشعب لهذا المجلس برمته ، فان اللواء محمد إدريس – وليس أحد سواه – يصبح سيد الموقف العسكرى بلا منازع ! فكل الخطط من تدبيره ، وكل التحركات تتم باوامره ! ثم أخذ نفساً عميقاً وقال : لو كنت محله If - iwere him ??

قلت ساخراً :

* ماذا كنت ستفعل ؟!

فضحك محبطاً وأجاب : لاشىء !

قلت : فى إعتقادى ان اللواء محمد إدريس عسكرى محترف وليس له تطلعات سياسية ، بل عرف عنه كراهيته لاشتغال الجيش بالسياسة ، أو هذا مايبدو للعيان ،

ولقد واتته الظروف الحالية ليحقق ذلك الهدف وهو إنهاء الحكم العسكرى، وتوجيه الجيش لمهامه التقليدية .

فأمن نميرى على هذا الطرح قائلا :

— تمام ، تمام ، واعتقد انه قد أقنع اللواء حسن بشير بقناعاته هذه ، فاندفع معه فى هذا الاتجاه، يؤكد ذلك ان معاليه — رغم عضويته بالمجلس الأعلى — ظل طوال سنى الحكم العسكرى فى قيادة الجيش ، ولم يمارس العمل السياسى بصورة مباشرة ، ولعله الآن يود الانكفاء على مهامه العسكرية بعيداً عن مزالق السياسة وشوائبها ، وهكذا يتواءم فكره وطموحه مع توجه اللواء محمد إدريس عبدالله.

قلت : ماعلينا ، هذه مسأله لاناقة لنا فيها ولاجمل وسوف ننفذ الأوامر العسكرية بالصورة والطريقة التى تصدر بها .

قال نميرى مستنكراً :—

— إذا كنت بهذا الاستسلام والخضوع ، فلماذا إنضممت لتنظيم الضباط الأحرار؟ أتراك كنت تعبث أم تتسلى ؟!

قلت ضاحكاً : لا هذى ولا تلك !! ولكن مخططات التنظيم قد عصفت بها رياح الانتفاضة الشعبية، وها نحن مع التيار نسير . اليس هذا ما كان البعض يطالب به ذات يوم ؟!

رمقنى بنظرة نافذة ملؤها الضجر والقنوط ، ولذت أنا بالصمت برهة وعدت أسأله :

— لقد ذكر العميد عمر ان هناك طائفة من الضباط المخلصين ، يتعاملون معهم سراً لتأمين النظام وإجتياز العاصفة ، فمن ياترى يكون هؤلاء ؟!

فأجاب على البديهة :—

— قطعاً ان الذين عناهم سعادته ووصفهم بالولاء والاخلاص هم قلة من الضباط « الرانكر » وصف الضباط المخدوعين ونحن نعرف بعضاً منهم ؛ فمثلا إكتشفنا بالأمس ان فريقاً من ضباط الصف يتتبعون خطوات الضباط ويرصدون تحركاتهم ويرفعون لسعادته تقارير شفهية بذلك ! وعلى سبيل المثال لا الحصر، كشفنا أمر أحد هؤلاء وهو

جاويش بسريتكم كان يتتبع تحركات الأخ فتحى كمبال ، فنبهناه له ليأخذ حذره منه ، ولكن أيا مايكن أمر هؤلاء ، فهم قلة لايؤبه لها ، ولا خطر منها فى هذه الظروف ، أما السواد الاعظم من صف الضباط فهم مع الاجماع العسكرى الحر .

ثم خرج مسرعا وكأنه قد تنبه فجأة لموعد مع أمر جالل ، فلم يهتم حتى بوداعى ، أما أنا فقد كانت اعماقى بؤرة تستوعب الاحداث والحقائق وماوراء المواقف والاقنعة ولامكان فيها للغضب والتوتر ، فاتجهت الى مكتبى لافرغ ماتجيش به نفسى على صفحات الورق للذكرى والتاريخ .

كان لقائد وضباط السرية الثانية المدرعة تحرك ملحوظ تجاه التلاحم مع ثورة الشعب ، فاثار تحركهم توجس قيادة الجيش ، فصدر فى الصباح الباكر من ذلك اليوم الامـــر بتحرك السرية فورا الى معسكر تم اعداده لوحدات المدرعات بام درمان جــــوار سلاح المهندسين ، وإمتثل قائد السرية النقيب خالد حسن عباس للامر .

وفى موقعهم الجديد اصدر لهم النقيب خالد حسن عباس أوامره العسكريـــــة والتنظيمية بالتاهب والاستعداد لدحر أى تحرك عسكرى مضاد للثورة الشعبية ففعلوا بكثير من الحماس ، ولم يقف نشاط الملازم حماده عبد العظيم عند ذلك الحد فى مناصرة الثورة ، بل عمل على جمع المزيد من التوقيعات التى تطالب بحل المجلس الاعلى فورا وتسليم السلطة للمدنيين ، فلما تكاملت لديه سلمها للعقيد حسن فحل .

ولم يكن التلاحم بين أفراد الجيش والشعب قاصرا على الالاى المدرع واعضاء التنظيم وحدهم ، بل شمل كل ضباط السلاح بلا إســتثناء ، كما شمل صف الضباط والجند ، وكان لصف الضباط من اعضاء التنظيم خاصة مواقف جليلة وأثر فعال اذكر منهم الرقيب أول وقتها محمد زين ابراهيم وهو حاليا يعمل بالمؤسسة العسكرية والرقيب حسن البدرى والرقيب عبد العزيز محمود وهم أعضاء التنظيم بالسلاح من صف الضباط ، ولانضمامهم للتنظيم قصة صراع تروى بين الرفاق وهى أن الاخوة الشـــيوعيين فى التنظيم نادوا بفتح باب عضويته لصف الضباط والجند مع تعديل إسم التنظيم ليصبح «تنظيم الضباط والصف والجنود الاحرار» ! ! ولكن ذلك الاقـــتراح قوبل بالرفض

والاعتراض الشديد. ثم طرح النقيب وقتها صلاح عبد العال مبروك إقتراحا آخـــر توفيقيا بفتح التنظيم للصفوة المميزة من صف الضباط، على أن يكونوا من ذوى الحس الوطنى والادراك المناسب ويعملوا تنظيميا تحت امرة قادة الخلايا، ولكن الاقتراح لم يعجب الاخوة الشيوعيين فخرج صلاح من الاجتماع غاضبا !!

وبعد خروجه اقر المجتمعون رأيه. وفى اليوم التالى طلب منى فاروق حمدالله إصطحابه الى سلاح الاشارة لتبليغ صلاح بتنفيذ إقتراحه والتفاف جميع الاعضاء حوله حتى الشيوعيين ففعلت. وبعدها ضم التنظيم فعلا تلك النخبة الوطنية المدركة من صف الضباط .

غاية الامر إننا قضينـــا ذلك اليوم فى توجس وترقب لما قد تأتى به الاحداث، حتى إذا قاربت الساعة العاشرة مساء تعالت أصوات الضباط وصيحـــاتهم وهم فى

حلقات يتحاورن فى إنفعال عظيم بينما كان صف الضباط والجنود يتصايحون ويطلق بعضهم «الرورى» ليشق عنان السماء، والطريق العام يكتظ بأفواج البشر كانه بحر متلاطم الامواج أو سيل هادر يهتفون في فرح طاغ وهديرهم يصم الآذان! كانوا يزحفون على إمتداد البصر فى كل إتجاه، ومن أقصى أطراف المدينة يأتى الهدير مجلجلا كانه يوم البعث لولا أن آيات الفرح لاتخطئها عين ولااذن .

كان الحدث الذى تنتظره الملايين فى الحضر والبوادى قد تم بصورة أو اخرى، فقد اذاع الرئيس عبود بيانا أعلن فيه حل المجلس الاعلى ومجلس الوزراء نزولا على رغبة الشعب وإرادة الامة :

وعدت أنا اسجل بالقلم صورة للمشاهد الوطنية الرائعة، وبدا لى أن كل أطراف الصراع فى تلك الملحمة نماذج عليا للنبل والمجد وحب الوطن، ولولا ذلك لامتلأت الطرقات بجثث الشهداء وسالت الدماء عليها انهارا وعم الخراب والدمار حـــتى تبقى السلطة أو تزول !!

كانت النفوس مراجل تغلى بالانفعال ، فظللنا الى ما بعد منتصف الليل نتجاذب اطراف الحديث حول تطورات الاوضاع السياسية ، ورغم ان الحدث قد أسفر عن ذات نفسه بجلاء إلا أن الأقاويل والتكهنات قد تضاربت بشأن دواعيه وتفاصيله ، فادعت أكثر من فئة سياسية انها هى وحدها وليس احد سواها كانت تقف وراءه بصورة مباشرة أو غير مباشرة ! حتى قيادة تنظيم الضباط الاحرار — الذى انتمى إليه — ركبت موجة المزايدات فزعمت انها حققت للشعب ذلك النصر المبين من وراء الستار ! وهكذا راجت الشائعات والاراجيف على كل لسان وتبنى الكل نجاح الثورة .

غير انى بما كان لى من خلفيات ذلك الحدث وبما اكدته الحقائق الموضوعية من بعد استطعت ان انفذ بغير عناء للوقائع التى نجم عنها القرار .

فقد عمل اللواء محمد إدريس عبدالله وخطط ببراعة وحذق وإحكام لحصار القصر الجمهورى أثناء إجتماع المجلس الاعلى بداخله ، وتضامن معه فى ذلك الانجاز العقيد يوسف الجاك طه قائد سلاح المهندسين آنذاك مستخدما قواته وسرية القيادة الشمالية الملحقة مع سلاحه وكان اللواء حسن بشير نصر يعلم ذلك التدبير ويوافق عليه ، وفى الوقت المناسب أصدر اللواء محمد إدريس أوامره الى فرع العمليات فقام العقيد الطيب المرضى يعاونه العقيد حسن فحل بوضع تفاصيل الخطة ، ثم ارسلا فى طلب العقيد محمد الباقر احمد حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر حيث كان بمنزله يأخذ قسطا من الراحة بعد عناء يوم حافل بالعمل ، فاوكلت اليه مهمة تنفيذ الخطة حسب الأوامر الصادره .

إستخدم العقيد الباقر من قوة الامن الاحتياطية سرية مشاه الشمالية وضرب بها الحصار على القصر أثناء إجتماع المجلس الاعلى ، فاسترعى وجود القوة نظر الرئيس عبود وتساءل عن دواعيه ، فاجابه العقيد الباقر وفق ماهو مقرر من تدبير بان ظروفا أمنية تستدعى تعزيز الحراسة على القصر وان القوات المسلحة برمتها تنتظر أن يتمخض ذلك الاجتماع التاريخى عن قرار حكيم بحل المجلس الاعلى ومجلس الوزراء على السواء ، وسلمه فى نفس الوقت بيانا مكتوبا بذلك المطلب كان قد اعده مسبقا اللواء محمد إدريس

وقام بصياغته العقداء الطيب المرضى وحسن فحل ومحمد الباقر احمد، ولم ينتظر الباقر بعد تسليم البيان فادى التحية وإنصرف لمهمته تاركا أمر الاجابة على تساؤلات الرئيس للواء حسن بشير واللواء محمد إدريس عبدالله اللذين إستطاعا إقناع الرئيس بالاستجابة لارادة الشعب والجيش معا بحل المجلسين ففعل !!

بادر اللواء محمد ادريس باستدعاء فريق من الاذاعة لتسجيل البيان وبثه على جماهير الشعب وقواته المسلحة فى نفس الليلة، وهكذا حوصر اعضاء المجلسين بالقرار ووجدوا أنفسهم أمام واقع لاخيار فيه !!.

كذلك رأى اللواء حسن بشير نصر أن يضمن للقرار قوة مادية رادعة لكل من يحاول النكوص عنه، فطلب من الرئيس عبود أن يوليه أمر الجيش بصفة رسمية فاستجاب الرئيس لطلبه وعارض ذلك اللواء محمد طلعت فريد وفريق من اعضاء المجلس الاعلى المنحل وتمسكوا باحقية اللواء طلعت بالامر بما له من أقدمية الرتبة !! وبقائه حتى ذلك الحين بكشوفات القوات المسلحة، فاستجاب لهم الرئيس مؤمنا على ماقالوه حتى ظن البعض ساخرا أن الرئيس قد تشابه عليه البقر واذهلته الاحداث فاصبح يقبل الامر ونقيضه فى وقت واحد! وتجرأ أحدهم وجبه الرئيس بمايرى من تناقض فيما وافق عليه من طلب فأنباه بتاويل ما لم يستطع عليه صبرا، إذ ولى اللواء طلعت فريد لاقدميته قيادة الجيش فى موقع القائد العام وابقى اللواء حسن بشير فى موقعه السابق نائبا للقائد العام !!

ودهش الجميع لذلك التفسير، وعاد كل فريق يراجع موقفه وفق قرار الرئيس. ومن عجب فان كليهما ادركه السخط والتبرم وشعور بالانتقاص حيث جاء القرار دون مطامحه القيادية، ولكنه ايقظ فى الرجلين كوامن الشعور بالتنافس والغيرة المهنية!! وعصفت رياح الندية والاعتداد بالنفس بذلك الدثار الشفيف الذى نسجته دواعى الزمالة والمجاملة والمنصب !!

وكان اللواء طلعت فريد اسرع الى كشف مواجده فطالب بعزل غريمه فورا وإعلان ذلك العزل فى بيان رسمى !! فاستنكر اللواء حسن بشير منه ذلك وإعتصم

باقصى دواعى الحلم والحكمة ليكظم غيظه ، غير انه اضمرها فى نفسه اضافة ثرة لرصيده من الاحن والمصادمات .

وجد الرئيس عبود نفسه بين شقي الرحى ، وعجب لصراع بين الكبار على أمر قد تذروه عواصـــف الثورة الشعبية فيما تذره من ركائز النظام وتوجهاته وشخوصه ، وركن في ذلك الى حكمة وحكم رئيس القضاء مولانا ابورنات وهو أحد شهود النزاع ، ففكر وتدبر ثم نصح الرئيس بان يتريث فى اتخاذ قراره على ان يبقى اللواء طلعت فريد بمنزله حتى يحسم الامر ، ولم يفصح فى شأن منافسه بشيء ولعله اراد أن يتيح للواء حسن بشير فرصة مزاولة مهام منصبه القيادية ودعم مركزه بين مرؤوسيه ليفرض على الجميع الاعتراف بالامر الواقع ، فلم تفت مرامى نصحه على فطنة الرئيس عبود ولكنه استجهل عامدا مسدلا بذلك الستار على أحداث يوم من أيام الثورة هو السادس والعشرين من أكتوبر ١٩٦٤ م .



المؤلف نقيب بسلاح المدرعـات

* ٢٤ *

أشرق صباح السابع والعشرين من أكتوبر ١٩٦٤م على البلاد وهى تضطرم وتغلى وتموج بالأحداث والاخبار والتكهنات ، وخلت المصالح الحكومية والاسواق من دبيب الحياة وضجيج العمل ، ولزم الناس بيوتهم يتابعون التطورات بحذر شديد، فقد كان الحس الوطنى فى ذروة اشتعاله وتوقده، وعادت الاحزاب تنظم صفوفها وتستنفر قواعدها .

وتواترت الأخبار عن مواقع صنع القرار ومجريات الأوضاع فى أماكن الصراع ، فقيل ان معالى اللواء حسن بشير جاء إلى مكتبه فى الصباح الباكر ليمارس مهامه الروتينية كالعادة فاجتمع لديه نفر من كبار الضباط واخذوا يتجاذبون أطراف حديث الساعة حول الثورة والحكومة وقيادة الجيش ، فصارحهم اللواء حسن بانه لايريد ان يفرض شخصه على موقع القيادة ولن يسعى لذلك أبداً ، وان بقاءه فى موقعه رهين برغبة كل أفراد القوات المسلحة ومشيئتهم الحرة ، فأكد له آحدهم ان الجيش لايرضى عنه بديلا ، وحضه على مزاولة أعباء القيادة والتمسك بها ومواجهة التحديات !! واراد معالى اللواء حسن ان يستوثق لنفسه فسأل مدير فرع استخباراته العسكرية العقيد الطيب المرضى النصح من موقع مسئوليته المهنية وإلمامه بدقائق الموقف ، فجاءت إفادته قاطعة حاسمة فحواها ان رغبة القوات المسلحة تجرى فى اتساق وتلاحم مع الإرادة الشعبية الرامية لتصفية مؤسسات النظام الحاكم وعزل قياداتها بغير استثناء ، ففهم اللواء ماوراء الكلمات من معنى ، وجمع أشياءه الخاصة رابط الجأش قوى الشخصية ، بادى الرضا ، ثم ودع رفاق السلاح واوصاهم خيراً بأنفسهم وزملائهم وتقاليد الجندية وأمن البلاد ، تاركاً مهمة قيادة الجيش للواء الطاهر المقبول الذى يليه رتبة .

كانت الاحداث يأخذ بعضها برقاب بعض ، ففى نهار ذلك اليوم نفسه جاءنا خبر آخر جديد بان اللواء الطاهر بالتشاور مع كبار القادة العسكريين أصدر أمراً بالتحفظ على جميع أعضاء المجلس الأعلى المنحل فى منازلهم وضرب حراسة مسلحة عليها ، هدفها المعلن حمايتهم من غضبة الجماهير وثورتها ، وحقيقتها شل قدرتهم على الحركة المضادة والحيلولة بينهم وبين اعوانهم من الضباط والسياسيين !!

وشمل الأمــر أيضاً عزل العميد عمر محمد إبراهيم عن قيادة الحامية ، وتعيين العقيد محجــوب طه خلفاً له فى موقعه .

وبادر قائد الحامية الجديد بدعوتنا لاجتماع تحدث فيه عــن مهمته القيادية فى تلك الظروف وماتفرضه مــن عمل حازم للحفاظ على دواعى الضبط والربط اللذين إنفرط عقدهما تحت وابل الأحداث والتغيرات ، وقال إن الاشاعات والتحرشـات قــد وجدت لها مرتعاً خصيباً فى أواسط الضباط والجنود فى زحام التطورات المتلاحقة ، وانهم فى قيادة الجيش قد قــر رأيهم على قطع دابر الاشاعات ومظاهر الفــوضى وإجتثاث جذورها ، ومن اجل ذلك لن يترددوا فى فصــل مروجيها واتخاذ التدابير اللازمة حيالهم صوناً لهيبة الجيش وتوجيهــاً لقدراته فى مصب الإرادة الجماهيرية ، واردف : إنى انصحكم ان تتمثلوا بالنعام والزراف فالكلمة حين تنطلق من صدوركم تســلك طريقاً طويلا قبل ان تبلغ أفواهكم وتخرج إلى الوجود ، وعليكم خلال ذلك ان تخضعوها لمرآة العقل ونار الفكر والتمحيص ، ولتذكروا دائماً الحكمة التى تقول بأنه إذا كان الكلام مــن فضة فالسكوت من ذهب .

ثم أردف فى ختام حديثه نصحاً خاصاً لكل من المقدم جعفر نميرى — الــذى تصادف وجوده فى ذلك الإجتماع وهــو ساعتئذ قائد حامية الشجرة ولكنــه فى فترة دراسية بكلية القادة والاركان بأمدرمان — والنقيب فاروق عثمان قائد سريــة رئاســة الالاى المدرع بان يخلد كلاهما للهدوء والنظام حتى يبت فى أمر ايقافهما المقــرر مــن قبــل ، وقــد وعــد ببــذل الحمــاية لهما إذا لم يصــدر عنهما مايدعو للمؤاخذة والعقاب ، وكان النصح من قائد الحامية حينئذ بمثابة أمــر واجب التنفيذ ، فامتثل كلاهما له بغير جدال حتى انجلى غبار ثورة أكتوبر ١٩٦٤م وقامت فى البلاد سلطة الحكم الديمقراطى الجديد ، فلم يعد لها دور فى تحريك الأحداث مــن بعد ، ولم يعد لتنظيم الضباط الأحرار أثر فى توجيهها البتة ، وانصهر اعضاؤه فى حركة المد الثورى التى تنتظم البلاد ، فجاء تحركهم ونشاطهم الايجابى كغيرهم مــن الضباط على المســتوى الفردى لا الجماعى المنظم .

في مساء ذلك اليوم ٢٧ أكتوبر تم الاعلان رسمياً عن تشكيل لجنة المفاوضين من القوات المسلحة والقوى الوطنية لتسلم السلطة من قيادة الحكم العسكري ، مع الابقاء على شخص الرئيس عبود كرأس للدولة مؤقتاً لملء الفراغ الدستوري حتى تثبيت دعائم الدولة في ظل النظام الليبرالي والسلطة المدنية ، وتألف الجناح العسكري في اللجنة من :

اللواء عوض عبد الرحمن صغير ، اللواء الطاهر إبراهيم المقبول ، اللواء محمد إدريس عبد الله ، العقيد يوسف الجاك طه ، العقيد مزمل سلمان غندور ، والعقيد محمد الباقر احمد وتكون جناح المفاوضين من أعضاء الجبهة القومية الموحدة السادة :ـ

بابكر عوض الله .. الدكتور طه بعشر .. احمد سليمان .. عابدين إسماعيل .. الامين محمد الامين .. مبارك زروق .. الصادق المهدى .. أحمد السيد حمد .. حسن عبدالله الترابى .. واحمد متولى العتبانى .. مستشارا قانونيا .

بدأت اللجنة عملها بصفة رسمية في نفس ذلك اليوم وكانت اخبار مداولاتها تنقل للضباط أول بأول عن طريق العقيد حسن فحل ومما يدعو للعجب والدهشة معا أن الشعور العام لدى ضباط الجيش كان متحيزا للجانب المدنى فى اللجنة !!

وفى غمرة التحولات ونشوة الظفر طالب الضباط والرتب الوسيطة منهم خاصة تدعمهم بعض القوى الوطنية بتطهير الجيش من كبار الضباط !! وتطرف بعضهم فنادى بعزل كل الضباط من رتبة العميد فما فوقها وإطلاق سراح المساجين السياسيين من رفاق السلاح وإعادة الذين تم فصلهم تعسفيا الى الخدمة فى صفوف الجيش واعتبار كل الذين أعدموا فى محاكمات سياسية عسكرية شهداء للوطن منحهم نياشين الشجاعة وأنواط الواجب ،ورتبا عسكرية أسوة بزملاء الدفعة وصرف فروق الرتبة بأثر رجعى وسريان معاشها لافراد أسرهم ولتأكيد هذه المطالبة صدر منشور سرى باسم الضباط الاحرار أكدوا فى ديباجته إلتزام أفراد قوات الشعب المسلحة بمساندة السلطة المدنية المرتقبة وتجردهم لحماية مكاسب الثورة الشعبية واستقرار السودان وأمن الشعب وكذلك صدرت عدة منشورات أخرى باسم الضباط الاحرار وهم منها براء !!.

جاء صباح يوم الاربعاء ٢٨ أكتوبر موافقا لنهاية الاسبوع الاول للثورة الشعبية التى بدأت أحداثها بندوة الجامعة واستشهاد القرشى يوم الاربعاء ٢١ أكتوبر؟ وامتد لهيبها متصاعدا حتى كان ذلك الصباح حيث بلغت ذروتها وتفاقمت باندلاع المظاهرات الصاخبة وأعمال التخريب والعنف غير المقنن، وتعالت هتافات الجماهير فى كل مكان من العاصمة (الى القصر حتى النصر) ولايعلم المتظاهرون انفسهم أى نصر كانوا يبتغون؟فالمجلس الاعلى ومجلس الوزراء كان قد صدر القرار بحلهما منذ يومين ، وتجرى عملية تسليم السلطة للقوى الوطنية المدنية بمؤازرة إخوانهم فى القوات المسلحة على قدم وساق،ولم يبق من رموز العهد العسكرى إلا شخص الرئيس عبود لفترة مؤقتة وضرورة دستورية، وأصبحت مطامح الامة وآمال الشعب دانية القطوف، فلم يخطر ببال احد من العسكريين أن هناك نصراً آخر لم تتجه نحوه العزائم وتدركه القرائح بعد!!

كان التلاحم والوفاق بين الجماهير والقوات المسلحة أمرا مشهودا لاتناله الشكوك ولاترقى اليه الريب،ورغم ذلك اتجهت المظاهرات الهادرة الى القصر تحاصره وتدعو لنصر موهوم!! وتحرش بعضها بفصيلة مظلية انيطت بها حراسة القصر فظن أفرادها تحت وابل القذف والقصف أن النصر المراد هو حماية القصر من كيد المتظاهرين !! ولم يجدوا مناصا للدفاع عن أنفسهم واداء واجبهم إلا باطلاق الرصاص فى الهواء لتفريق الجموع الغاضبة،فأشعل ذلك ثائرة المتظاهرين فجأة وحصبوا أفراد القوة بالحجارة والطوب واصابوا منهم،فتذرع هؤلاء بالصبر حتى نفد فأطلقوا رصاص بنادقهم خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم!وسقط اثر ذلك سبعة عشر شهيدا لقوا مصرعهم على ساحة القصر التى تخضبت بالدماء وجرح مئات آخرون،واندفع الباقون مذعورين فى شوارع الخرطوم يطلبون النجاة،وامتلأت أقسام الحوادث بالمستشفيات بالقتلى والجرحى ورفاقهم وذويهم،وأعلنت بها حالة الطوارىء القصوى،واكتست شمس ذلك اليوم رداء أحمر بما شهدت من مرائى الدماء وجلل السواد ضياءها،ونامت العاصمة ليلتئذ على وسائد الحزن والدموع !!.

وعلى أثر ذلك الحدث التاريخى المأساوى طفحت صدور أفراد القوات المسلحة والضباط منهم خاصة بالغضب والحقد الاسود،فنادوا بالقصاص الفورى من سدنة

الحكم العسكرى !وتطرفت طائفة وطالبت بتكوين فريق يتولى اغتيال أعضاء المجلس الاعلى وكل من شايعوهم وأحرقوا لهم البخور! !وعلى نقيض هؤلاء وأولئك نادى آخرون بحماية الجيش وأفراده من كل الرتب والفئات قادة ومنقادين،على اعتبار انهم قد أضحوا يومئذ فى موقف الضعيف المستهدف من المدنيين عامة والعقائديين وأهل الطوائف والاحزاب خاصة .

تبنى الرأى القائل بحماية الجيش وأفراده العقيد عمر الحاج موسى قائد سلاح الاشارة واخذ يجتمع بالضباط على اختلاف مواقعهم واتجاهاتهم السياسية والعقائدية، كما إجتمع بالرئيس عبود أكثر من مرة لذات الغرض،فاستطاع من خلال جهده المضنى وقوة تأثيره أن يكسب الضباط الى جانبه وخاصة ضباط التنظيم ، فقد كانوا يولونه كامل ثقتهم واعجابهم رغم انه لم يكن يوما عضوا بينهم ولاجاهلا ببعض جوانب نشاطهم السرى !ولعل ذلك ما حببه الى قلوبهم وفتحها لتقبل دعوته بتأمين سلامة رفاق السلاح .

من شواهد علم العقيد عمر الحاج موسى بنشاط أعضاء التنظيم مثلا،أن النقيب صلاح عبد العال مبروك قام ذات يوم بصياغة أحد منشورات الضباط الاحرار وطباعته على ماكينة رونيو بمدرسة سوميت بحى الموردة بامدرمان،ثم عمل على توزيعه بمعونة أعضاء الحزب الشيوعى السودانى وآخرين،فلما وقع المنشور بين يدى العقيد عمر الحاج موسى عرف فيه أسلوب صلاح عبد العال إذ كان من ضباط سلاح الاشارة الذى يقوده،فواجهه بذلك ولم ينكر هذا فعلته ومع ذلك حفظ عمر سره وإكتفى بنصحه بعدم التطرف. ومنذ هذه الواقعة أصبح العقيد عمر موضعا أمينا لاسرار كثير من الضباط حتى اذا نهض بدعوته الاخيرة مناديا بحماية العسكريين حكاما وأفرادا التفوا حولها وحملوا لواءها بين الآخرين .

ثم اتت الرياح بما يشتهى العقيد عمر حيث وردت إشارات من الوحدات الخارجية وتوقيعات من بعض ضباط العاصمة تدعم موقفه . كانت هذه الاشارات والتحركات تبلغ للرئيس عبود أولا بأول، ومن ثم فقد وافق على اقتراح العقيد عمر الحاج موسى القاضى بتعديل الدستور المؤقت لسنة ١٩٥٦ والمعدل لسنة ١٩٦٤ بهذا النص :—

«أى حكم أوامر أو فعل صدر من أى شخص أو هيئة فى الفترة من ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ أى يوم تسلم الجيش للحكم اى صدور هذا الدستور المعدل لعام ١٩٦٤ لايجوز الطعن فيه او اتخاذ أى اجراءات قانونية بصدده أو على أساسه أمام أى محكمة جنائية أومدنية أو إدارية ،مادام قد صدر ذلك الحكم أو الامر أو الفعل من ذلك الشخص أو تلك الهيئة أثنـــاء تأدية الواجـــب بغرض حماية القانون أو حفـــظ الامـــن وفقا لاى تكليف من القوات المسلحة السودانية على صورة عسكرية أو مدنية »

ثم انبلج فجر يوم ٢٩ أكتوبر وتصرمت ساعاته الاولى ولم تترصل لجنة المفاوضيين لاتفاق حول الرجل الذي يكلف بتولى أعباء رئيس الوزراء وقيادة الثورة الشعبية صوب آمالها المرتجاه وأهدافها المعلنة ،بعد أن اجمعوا على استبعاد القيادات الحزبية عملا بمبدأ الحيدة بين القوى الوطنية التقليدية ،فاعتذر عن المهمة الدكتور شداد وحذا حـــسو مولانا بابكر عوض الله وتنصل آخرون بطريقة ضمنية غير مباشرة ،حتى بدا لاعضاء لجنة المفاوضـــين أنهم وصلوا بعد جهـــد جهيـــد اى (Dead lock) فأصابهـــم عجز وإحباط ،ولم يتجاوزوا تلك العقبة الكأداء إلا بمعاونة العقيد حسن فحل الذى إلتزم بإقناع آخر من تم ترشيحه لرئاسة الوزارة وهو صديقه السيد سر الختم الخليفة فحالفه التوفيق ، ولم يخيب الرجل رجاء القوم فيه وحمل على كاهله مســئولية تنوء بحملها الجبال وقاد سفينة البلاد وسط الانواء والمطامع والخلافات ، حتى أعلن يوم الجمعة ٣٠ أكتوبر ١٩٦٤ تشكيل حكومة الثورة الشعبية الظافرة من خلال بيان ضاف هـــذا نصه :—

موطنى الكرام :

إليكم أطيب تحية .

لقد خط الشعب السودانى فى الاسبوع المنصرم صفحة ناصعة البياض فى تاريخه وخطوات نحو النضوج والكمال يشهد بها الجميع فى داخل البلاد وخارجها . وليس أدل على هذا النضوج السياسى والعاطفى والاجتماعى الذى بلغه الشعب السودانى الابى من أن يلتقى أبناؤه فى الجبهة القومية الموحدة تحدوهم مصلحة الوطن وإرادة أبنائه فى نقطة واحدة هى العمل المخلص وتلبية تلك الارادة الشعبية التى تفوق كل شيء .

لذلك يسرنى أن أعلن — والغبطة تملأ جوانحى— أنه قد تم بحمد الله وتوفيقه الاتفاق الشامل الكامل بين مندوبى القوات الوطنية المسلحة وممثلى الجبهة القومية الموحدة من أبناء هذا الشعب الابرار بعد سلسلة من الاجتماعات دامت طــول النهار والليل منذ يوم الاربعاء الموافق ٢٨ أكتوبر ١٩٦٤ حتى فجر هذا اليوم الجمعة ٣٠ أكتوبر .

ويسرنى ويسعدنى أكثر من هذا أنه قد ساد المفاوضات التى جرت فى تلك الأيام التاريخية الفريدة جــو من المحبة والاحترام المتبادل والثقة الحسنة لم يسبق لها مثيل فى بلد لم تنقض على الحكم الاجنبى فيه سوى بضع سنوات ، لقد تم كل هذا أيها السادة بفضل وعى الشعب وكفاحه وبفضل إخواننا الابرار فى القوات المسلحة وقوات الأمن الذين تجاوبوا مع رغبات الشعب وأمانيه لذلك فإننا نســجل لهم هذا الجميل فيما أبدوه من تجاوب مع بنى وطنهم ومن إدراك لقداسة إرادة الشعب وحقه فى الحياة الكريمة التى تقوم على أساس الديمقراطية العملية النزيهة .

أيها المواطنون الاعزاء .

كل هذا وضع إنتقالى مؤقت فقط ينتهى بإجراء إنتخابات حرة عامة تشرف عليها لجنة مستقلة فى تاريخ لايتعدى شهر مارس ١٩٦٥ لقيام جمعية تأسيسية يقع على عاتقها وضع الدستور الدائم وإقراره وقيام حكومة يختارها الشعب ، وحتى يتم وضع الدستور الدائم ستقوم الجمعية التأسيسية بمهمة التشريع وفقا لاحكام الدستور المؤقت .

أيها المواطنون .

لقد اجمعت الجبهة القومية الموحدة ووافق السيد الرئيس ابراهيم عبود على تشكيل الحكومة الانتقالية على الوجه الاتى :—

سر الختم الخليفة.. مبارك زروق.. محمد أحمد محجوب.. أحمد السيد حمد.. محمد صالح عمر .. أحمد سليمان .. عابدين إسماعيل .. الامين محمد الامين .. عبد الرحمن أحمد العاقب.. خلف الله بابكر عبد الكريم ميرغنى رحمة الله عبد الله.. وكليمنت أمبورو.

وممثل للعمال يعين وفقا للدستور المؤقت لسنة ١٩٥٦م كما تم الاتفاق التام بــين مواطنيكم ممثلى الجبهة القومية والقوات المسلحة على المبادىء الاتية :—

أولا : تصفية الحكم العسكرى الحالى .

ثانيا : إطلاق الحريات العامة كحرية الصحافة والتعبير والتنظيم والتجمع .

ثالثا : رفع حالة الطوارىء والغاء جميع القوانين المقيدة للحريات فى المناطق التى لايخشى فيها من اضطراب الامن .

رابعا : تأمين استقلال القضاء .

خامسا : تأمين إستقلال الجامعة .

سادسا : إطلاق سراح المعتقلين السياسيين والمسجونين المدنيين فى قضايا سياسية.

سابعا : أن ترتبط الحكومة الانتقالية بانتهاج سياسة خارجية ضد الإستعمار والاحلاف.

ثامنا : تكوين محكمة استئناف من القضاة لايقل عددهم عن خمسة تؤول إليهــا سلطات رئيس القضاء القضائية منها والادارية .

تاسعا : أن تكون لجنة لوضع قوانين جديدة تتمشى مع تقاليدنا .

عاشرا : الفريق عبــود يبقــى رأسا للدولة فى فترة الانتقال ويمارس سلطات مجلس السيادة وفق دستور ١٩٥٦ الانتقالى .

حادى عشر : بطلب من الرئيس عبــود أضيفت مادة جديدة الى دســتور ٥٦ المعدل لسنة ١٩٦٤ هذا نصها :—

« أى حكم أو أمر أو فعل صدر من أى شخص أو هيئة فى الفترة من ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ أى يوم تسلم الجيش للحكم ان صدور هذا الدستور المعدل ١٩٦٤ لايجــوز الطعن فيه أو اتخاذ أى اجراءات قانونية بصدده أو على أساسه أمام أى محكمة جنائية أو مدنية أو إدارية مادام قد صدر ذلك الحكم أو الامر أو الفعل من ذلك الشخص أو تلك الهيئة أثناء تأدية الواجب أو بغرض حماية القانون أو حفظ الامن وفقا لاى تكليف من القوات المسلحة السودانية على صورة عسكرية أو مدنية ».

إستقبل شعب السودان — عدا قلة موتورة فى الشمال وثلة متمردة فى الجنوب — نبأ تشكيل حكومة الثورة الشعبية والانتفاضة الرائدة بمشاعر ومظاهر الفرح فى كــل مكان، ولم يتخلف أبناء السلاح فى قوات الشعب المسلحة والقوات النظامية الاخرى عن إظهار أعظم آيات الابتهاج بالمناسبة التاريخية، وقطعوا على أنفسهم الوعد بأن يكونوا

درعا لنصر الامة من كيد الحاقدين والمتربصين ، يدا تحمل السلاح وأخرى تشارك فى صياغة الواقع الحلم الذى فجر فى النفوس براكين الغضب وألهب مطامحها الثورية ، وبلغ الحماس بنفر منهم مبلغه فتبنوا مطالب الجماهير بمحاكمة قادة العهد العسكرى وسدنته بتهم الفساد وإزهاق أرواح شهداء الوطن قبل الثورة وإبانها وخاصة شهداء الجيش مثل المقدم على حامد والرائد يعقوب كبيده والرائد طيار الصادق محمد الحسن والرائد عبد البديع كرار والنقيب عبدالحميد عبدالماجد وغيرهم ! ولما كان اللواء حسن بشير نصر هو المسئول المباشر وفى قيادة القوات المسلحة لحظة انهيار النظام بإعتباره نائب القائد العام فقد استهدفته غضبة جماهير العاصمة فخرجت مظاهراتها الحاشدة وهى تردد الهتاف الويل الويل لحسن بشير ! ! ثم نفذ الهتاف الى ثكنات الجيش واستقر فى أفئدة الضباط فرفعوه مطلبا وشعارا . .

وجاءت الاقدار لتضرم أوار ذلك الغضب وتجعل الشعار أكثر دويا والحاحاً بوفاة شهيد الجامعة بابكر عبد الحفيظ متأثرا بجراحه التى غالبها منذ يوم الثورة الاول والندوة الشهيرة حيث أصيب هو ورفيقه شهيد الثورة القرشى فى وقت واحد .

ولهذا حرك نبأ استشهاده ركاما من الحزن وعاصفة من الثورة فى نفوس أهله ورفاقه الطلاب وأبناء العاصمة الوطنية كافة ، فاندلعت المظاهرات الغاضبة فى شوارع المدينة وامتدت الى الثكنات ، فتجاوبت معها مطالبة بقصاص لايبقى ولايذر ولايقف عند حد الرئيس عبود ورفاقه وحدهم بل يشمل كل كبار الضباط أيضا ! ! .

إستشعر هؤلاء جميعا وطأة الخطر المحدق بهم فتناسوا خلافاتهم وصراعاتهم الباقية واستظلوا بجناح الرئيس عبود ، وقد أجمعوا على انه وحده القادر على الابحار بهم وبلوغ مرافىء الامان فى خضم الاعاصير والعواصف المتأججة ، ومن قبيل البحث عن أطواق النجاة نادوا باختيار ربان ماهر لقيادة سفينة الجيش ونائب له ممن تطالب الجماهير الثائرة بالقصاص والثأر منهم فتمسكوا بتعيين اللواءين محمد طلعت فريد وحسن بشير نصر ! ! واستجاب الرئيس عبود لرغبة قادة جيشه المستهدفين وعلى رأسهم اللواء الطاهر المقبول ، فأمر بفك الحصار عن اللواء طلعت فريد وعرض عليه المهمة الصعبة ! ولم يكن معالى اللواء طلعت قد ملك زمام نفسه بعد ، فهى تجيش بمشاعر الغبن والسخط والشماتة من جراء ماتعرض له من خذلان واعتقال ، فها هم نفس الذين كانوا وراء

محاولات إذلاله وإقصائه ودحر مطـــامحه يلوذون بقيادته من خطر القصاص وعواصف الغضب! فاستخف بالعرض واعتذار عن قبول المنصب الكبير ، ولكنه لم ينس نصيبه من الدنيا ومتاع جهاده الطويل فطلب فيذات اللقاء إحالته على المعاش بصفة إستثنائية لها سوابق فيما جرى للواء أحمد عبد الوهاب وغيره من قبل،وضرب صفحا عن رجاء من تعلقوا به في تلك الظروف. فلم يعده الرئيس عبود بشيء مما طلب وشكره على تلبية الدعوة بالحضور وعلى فرط صراحته وزهده في عرض تتطاول إليه الاعناق .

فانصرف اللواء طلعت وهو لايؤمل في صرف ماطالب به من معاش إستثنائي.
ثم استدعى الرئيس من بعده اللواء حسن بشير لنفس الغرض فجاءت إجابته قاطعة بلقاء ترتدى مسوح الصدق والمنطق والحكمة حيث قال للرئيس :

فيما أرى وأعلم فإن كيان الجيش لايتمثل فقط في كبار ضباطه على عظـيم مكانتهم فيه، بل يشمل من دونهم من عامة الجند وضباط الصف ورتب الضباط الصغرى والوسيطة،ولا اخال أن هؤلاء جميعا يرتضون أن يتولى أحد أعضاء مجلسنا الاعلى المنحل قيادة الجيش في الظــروف الحالية ، ولهذا فالاكرم لنا ولهم أن يولى عليهم بحسب أقدمية الرتبة العسكرية من يقود مسيرتهم بعيدا عن مزالق السياسة ودروبها الوعرة الشائكة ولكم الرأى .

سأله الرئيس كالمستجير بحصافة عقله ومعرفته بالرجال.
ومن ترى يكون هذا ؟
فأجابه اللواء على البديهة بغير تردد:
إنه اللواء محمد أحمد الخواض .
فاستدرك الرئيس :
ولكنه مايزال في لندن .
قال معالى اللواء:

من الممكن إستدعاؤه لهذا الغرض واثق انه لن يتأخر في الحضور وقبول المهمة..
فبدا على وجـــه الرئيس ماينم عن الرضـــا بذلك الترشيح وانفرجت اساريره لانـــه وجد منفذا في الطريق المسدود وقال :

لسوف أطرح الامر على رئيس وأعضاء مجلس الوزراء بصفة غير مباشرة وأملي، كبير في موافقتهم .

ولم يخيب هؤلاء ظن الرئيس فيهم فجاءت استجابتهم فورية ملؤها الرضا والحماس وتم استدعاء اللواء الخواض على عجل ليتولى أعباء مسئولية قيادة الجيش، أما اللواء حسن بشير واضرابه من كبار الضباط المبعدين فقد قر رأى الرئيس عبود ووزراء الحكومة الانتقالية على إبعادهم عن معترك الاحداث ومتناول غضبة الجماهير الثائرة، وصدر القرار بإرسالهم الى معتقل زالنجي .

أصاب ذلك القرار عين الحكمة إذ إمتص مشاعر الحقد والغضب في نفوس المطالبين بالقصاص وهدأت ثائرتهم .

إنكشفت قلاع كبار الضباط من جديد واضحت هدفا سهلا لنبال صغار الضباط والرتب الوسيطة فأمطروهم صيبا من الضربات الموجعة، وكان آخرها المناداة بضرورة عزلهم وإقصائهم، وتجاوب الشارع العريض معهم ودوت جنباته بالهتاف :ـ التطهير مطلب شعبى !!

واجه كبار الضباط ذلك التحدى من صغار الضباط وعامة الناس وغوغائهم بكثير من الدهاء والحكمة، وكما يحدث عادة فقد تقشعت سحائب الغضب وفتر الحماس وخمد بركان الثورة فى النفوس، وانغمست قيادات الحركة الوطنية فى بؤرة الخلاف والإختلاف على مغانم الثورة، وانصرف الزعماء لاعادة تنظيم اعوانهم ومؤيديهم استعداد لمعركة الانتخابات فتفرقت الجماهير بينهم ايدى سبأ ..

وكانت الديمقراطية الثانية صورة مكررة لما كانت عليه بعد الاستقلال !!

فاطمأن كبار الضباط الى مواقعهم وامتلأت نفوسهم بالامان والجرأة فانتضوا سيف البأس وقاموا باجراء تنقلات واسعة بين مرؤوسيهم كبارا وصغارا، ظاهرها التجاوب مع حركة التغيير والتصحيح الرامية لتصفية آثار الحكم العسكرى وباطنها العمل على تأمين مراكزهم بعد زوال العاصفة! وبدأوا بالقادة ممن يعتقدون ان لهم

بطانات ومراكز قوة بين صغار الضباط والرتب الوسيطة ، فتم فى اطار ذلك نقـــل العميد احمد الشريف الحبيب لقيادة حامية الخرطوم خلفاً للعقيد محجوب طه ، وكان العميد أحمد الشريف معروفا بين الضباط بمواقفه المشهودة فى تبنى تطلعاتهم فى العدل والمساواة بين أفراد القوات المسلحة والمطالبة بتطوير الجيش ، فقوبل اختياره لقيادة الحامية من افرادها بالبشر والترحاب .

فى لقاء لقائد الحامية الجديد بضباطها وضباط الالاى المدرع بميز الضباط تحـــدث الرجل عن مهمته فى ظل التغيرات التى تنتظم البلاد حديثا مواكبا لروح الثورة الشعبية ومشاعر المجتمعين ، تم اتاح فرصة التعقيب وابداء الرأى فى شئون الحامية فـــانبرى الضباط ينثرون بين يديه منغصاتهم ورؤاهم ومطامحهم ووعدهم باقناع المسئولين بها والدفاع عنها بكل ما اوتى من قدرة لالشىء الا لانها مطالب عادلة ومطامـــح مشروعة ممكنة التحقيق ولكن (in doses) أى على جرعات ولو حظ انه استخدم هذا التعبير مرات عدة فى حديثه ذلك .

شملت مطالب الضباط التى وصفوها بالالحاح وسرعة التنفيذ إجراء انتخابات عامة لاختيار لجنة تسيير لنادى الضباط اسوة بما كان عليه الحال فى مصر آنذاك !! وقـــد رشحوا لمنصب رئيس اللجنة العميد احمد الشريف الحبيب ولمنصب السكرتير العقيد مبارك عثمان رحمـــة. فلما نقل العميد ذلك الى زملائه فى قيادة الجيش أثار مخاوفهم واعتبروه مطلبا دخيلا له مغزى ودلالة !!

فلم يجد قائد الحامية من يقف الى جانبه فى زمرة الكبار ، وتلاشى صوته فى زوبعة المخاوف والتخرصات والاصرار على تقاليد الجيش العتيقة .. وما توانى اللواء الطاهر فاصدر قراره بتعيين لجنة النادى ، وجاء صدور القرار تحديا سافراً لحركة الضباط فازدادوا اصراراً على المواجهة والنضال .. وكان لهم بين صفوف القادة عيون ترصد وتنقل مايدور بينهم بالحرف احياناً .

كانت ظروف البلاد السياسية وتأرجحها بين التطرف والتقليدية يغرى طرفى النزاع فى الجيش بمواصلة الحرب غير المعلنة !! فاستغل صغار الضباط والرتب الوسيطة نزعة التغيير وشعار تصفية الحكم العسكرى ورموزه ومؤسساته وتخطوا مرحلة التذمر

والمطالبة الى خطوة أكثر عنفاً وإيجابية، واخذوا يجمعون توقيعات كل ضباط الجيش فى العاصمة والاقاليم فيما أسموه بوثيقة الشرف التى قام بصياغتها كل من ألمقدم مبارك عثمان رحمة والرواد محمد يحى منور وعبدالله محمد عثمان، ثم دعوا رئيس الوزراء —عن طريق صديقه العقيد حسن فحل—للاجتماع بهم فى نادى الضباط لتسليمه الوثيقة وهى تحوى اعلاناً بمساندة كل الضباط الموقعين لحكومة الثورة الشعبية والدفاع عنها، واصراراً من جانبهم على تطهير الجيش عموما وكبار الضباط خاصة، وإطلاق سراح رفاق السلاح الذين سجنوا لأسباب سياسية وإعادتهم الى الخدمة وتكريم شهداء القوات المسلحة ومنح أسرهم معاشات استثنائية مجزية، واخيراً الاسراع بتطوير الجيش وإبعاده عن ساحة الصراع السياسى .

إستجاب رئيس الوزراء للدعوة وتحدد لهـا يوم بعينه، فحاول بعض كبار الضباط المستهدفين الحيلولة دون حدوث ذلك اللقاء بشتى الوسائل ولكن محاولاتهم ذهـبت سدى! وتم اللقاء بنادى ضباط الجيش وقدمت للسيد رئيس الوزراء سر الختم الخليفة وثيقة الشرف، وأكد فى كلمة قصيرة منه انه لن يألو جهداً فى تحقيق ماتضمنته من مطالب فى غضون أيام قليلة، واردف القول بالعمل فلم تمض إلا أيام قلائل بعد وصول اللواء الخواض من لندن وتوليه قيادة الجيش حتى صدر قرار باحالة عدد من كـبار الضباط الى التقاعد، وتلاه قرار آخر بإعادة طائفة من صغار الضباط والرتب الوسيطة ممن فصلوا من الخدمة العسكرية لاسباب سياسية الى الخدمة، ثم تشكلت لجنة عسكرية برئاسة العقيد عبد الحميد خير السيد لتنفيذ القرار، فاوصت بأن يعود هؤلاء الضباط الى الخدمة العامة بنفس الرتب التى احيلوا بها للتقاعد على أن يتدرجوا من خلال الفرق التأهيلية والتدريب وممارسة العمل ليترقوا الى رتب زملائهم الذين ظلوا بالخدمة فـى فترة زمنيـة لاتتجاوز ثـلاث سنوات، فوافق الرئيس على توصيات اللجنة وصدر بهـا القرار .

ورغم ان الميثاق قد نص على بقاء الرئيس عبود على رأس السلطة السياسية لقيادة دفة الحكم فى البلاد خلال الفترة الانتقالية ، الا أن الرئيس كان زاهداً فى تقلد هذا التكليف، وعبر عن رغبته فى التخلى عن المنصب ليصرف أعباءه مجلس سيادة يـتم

تشكيله بصورة أو أخرى قبل ١٧/ نوفمبر ١٩٦٤ فلما حل اليوم الخامس عشر من ذلك الشهر نفذ الرئيس عبود مشيئته ووجه بياناً للأمة السودانية عبر أجهزة الاعلام أعلن فيه تخليه عن السلطة وتسـليمها كاملة لقيادة الانتفاضة الشعبية وفق ماتراءى له انه رغبة الشعب واختياره .

كان لذلك البيان ردود فعل واصداء واسعة داخل البلاد وخارجها، ومضى الرئيس عبود فى تنفيذ عزمه على الخروج من دائرة الاضواء، فعقد اجتماعاً موسعاً مع مجلس الوزراء جرى فيه طرح الامر على بساط البحث، وتحديد الكيفية التى يتم بها تسليم السلطة واخلاء طرفه منها، وفى ذلك اللقاء التاريخى أكد الرئيس عبود لوزراء الانتفاضة انه يسلمهم شئون البلاد ودولاب الحكم فيه وأوضاعها السياسية كافة وهى أفضل مما كانت عليه يوم تسلمها هو ورفاقه قبل ست سنوات .

ثم عدد لهم إنجازات نظامه فى كل جوانب الحياة، وطلب منهم أن يواجهوه بالدليل عن أى عجز أو فساد أو قصور فى المسئولية الوطنية طوال فترة حكمه، فنفوا ذلك عنه جملة وتفصيلا وامطروه بعبارات الثناء وصدق الوطنية والتجرد ونكران الذات ! ووصفوا إستجابته لارادة الجماهير وتسليمه السلطة فى يسر ودون إراقة دماء بأنهـا منتهى النقاء الثورى وذروة الولاء للوطن ، ثم عرض الرئيس عبود فى لقائه بالوزراء لامر شخصى ترك لهم حرية التصرف حياله بغير حرج ولاتأثير، فذكر لهم أن إبنه يدرس الطب فى بريطانيا ويقيم مع سفير السودان بصفة شخصية لاباعتباره إبن رأس الدولة، فإن كان فى ذلك مايمس مركز السفير أو مايمكن أن يساء فهمه فى ظل المتغيرات السياسية فهو لايمانع فى إعادة إبنه فوراً الى السودان وقطع دراسته هناك !! فانعقد إجتماع الحاضرين على ضرورة استمرار إبنه فى الدراسـة حتى نهايتها والحصول على مبتغاه منها بإعتباره كسبا للبلاد فى مجال حـيوى هام ولا غضاضة فى ذلك البتة . ثم عرض السيد مبارك زروق بوصفه وزير المالية على الرئيس عبود أن يصدر قراراً - أى وزير المالية- بتخصيص مبلغ من المال يكفى لبناء منزل يليق بمكانته كرأس للدولة بقى فى الحكم وتنازل عنه وهو لايملك منزلا كغيره من عامة المواطنين ! ولكن الرئيس عبود رفض العرض فى إباء وشمم وقال :-

حقا أنا رجل فقير ولا أملك سوى راتبى الشهرى المحدود ، غير انى لا أرضى لنفسى– كما كنت لأرضى لغيرى– أن يستبيح موارد الدولة لاغراض شخصية ، وكل ما أرجوه هو أن اتقاضى راتبى التقاعدى المنصوص عليه قانونا ، لأنى لا أملك قوت شهرى بدونه .

فاستجاب الوزراء لرجائه وقد بلغ بهم التأثر والانفعال مداه، ثم سألوه إن كان يود الاقامة بمنزله داخل القصر الجمهورى حتى يهيىء لاسرته سكنا مناسبا فإعتذر عن قبول ذلك العرض أيضا ! ولم تفلح محاولات الوزراء فى إثنائه أبدا. وأخبرهم أنه سيقيم بمنزل أحد أقربائه وهو السيد الفاتح عبود المحامى حتى يتسنى له فى قابل الأيام تشييد دار خاصة به اذا مد الله فى عمره أو يتولى ذلك أبناؤه إذا سبق الاجل.

لم يملك الوزراء إلا النزول على رغبته وإصراره وودعوه بمشاعر الاجلال والاكبار ، بعد آن تأكد لهم بصورة قاطعة تجرده واصالته ونقاء سريرته وعفته .

هكذا غادر الرئيس عبود أريكة الحكم فى البلاد فانفرد المدنيون بالسلطة ، وظلت سفينة حكمهم تصارع الانواء والأعاصير والزوابع بغير انقطاع يقودها السيد سر الختم الخليفة . وكان رجلا مثقفا عمل فى حقل التربية والتعليم طوال حياته ولم تعرف عنه إتجاهات سياسية .

أعقب تنحى الرئيس عبود قرار من القائد العام بنقل كل ضابط عرف بنشاطه التنظيمى وموالاته لاتجاه سياسى معين الى وحدات الاقاليم ، فذهب الناس والرفاق مذاهب شتى فى تفسير دواعى ذلك القرار ،فمن قائل بأنه محاولة لاستعادة هيبة المؤسسة العسكرية بعد فقدان الضبط والربط فيها وظهور الانتماءات والنشاطات السياسية بصورة لاتخطئها البصيرة ،ومن ساخط يرى فى القرار نزوعا سياسيا للتحوط من الانقلابات العسكرية وتفتيتا لقدرة أحزاب بعينها داخل الجيش ! بينما تقبله آخرون بالرضا والتفهم والاقتناع . وكان قرار النقل قد شمل النقيب فاروق عثمان حمدناالله فأثار ذلك عاصفة من السخط والغضب فى نفوس التنظيميين وشبهه بعضهم بجزاء سنمار ! ! ووصفه آخرون بأنه بداية النهاية ! ومضى فاروق ونحن نبحث له عن مخرج من كشف التنقلات المقيت .

لهذا الغرض نفسه صحبت فاروق الى مولانا بابكر عوض الله وطلبنا وساطته لدى اللواء الخواض لالغاء قـرار النقل ، ولكنه لم يستجب للشفاعة . فعاودنا الكرة وإتصلنا بالنقيب الرشيد نور الدين ليحاول توسيط الامير عبدالله عبد الرحمن نقدالله في الامر – وكان الرشيد وثيق الصلة به – فصحبنا الامير الى مكتب القائد العام على أثر إتصال تليفونى بينهما . وهناك وافق اللواء الخواض على تأجيل قرار النقل إستجابة لوساطة الامير نقد الله ولكنه وبخنا فى حضرته وقال :–

الهيصة والزحمة الكنتم عاملنها خلاص إنتهت ده جيش نظامى وأنا لا أسمح لاى ضابط آن يتصل بالسياسيين لأى سبب ، ويؤسفنى أن أقول لكم هذا الكلام فى حضرة الامير ولولا تدخله وقوله أنكم فى حماه لكان لى معكم شأن أخر ، عموما هذه آخر فرصة لكم ، فأى مخالفة تصدر من ثلاثتكم صغيرة كانت أم كبيرة وفى أى مرقع ستضع نهاية لعلاقة مرتكبها بالجيش .

خرجنا من مكتب القائد العام بعد أن تركنا فى معيته الامير نقد الله وكلمات الرجل فى توبيخنا سياط تلهب ظهورنا وتمتزج مرارتها فى حلوقنا وذلك مادعا فاروق ليقول متحسرا :–

رب يوم بكيت منه فلما انقضى بكيت عليه ! هذه كما أعتقد بداية نهاية (كريرنا) العسكرى هكذا اصبحنا يارفاق .

كان توبيخ اللواء الخواض وما حمل فى طياته من نذير ووعيد بالنقل والفصل من الخدمة مفرطا فى قسوته ، وهو آخر الامر إنذار يؤبه له وتخشى عواقبه ، غير أن كشف التنقلات ذلك بقى معلقا لعدة شهور ثم صدر أمر القائد العام بالتنفيذ واردفه بكشف آخر شمل معظم أعضاء التنظيم ! فعقد سكرتيره إجتماعا تنظيميا موسعا دعا فيه لتجميد النشاط فى تلك الظروف حتى لايتعرض الاعضاء للفصل والتشريد ، وحرصاً منه على بقاء قواعد التظيم ونمائها داخل الجيش . فإستجاب الجميع للامر تحت وطأة ظروف قاهرة لاتخفى على أحد ، فإنقطع نشاطهم التنظيمى بعد أن تفرقوا فى البلاد ايدى سبأ ، وإنزوت فى حنايا نفوسهم تلك التطلعات السياسية فى الريادة وإحداث التغيير الثورى وفق مبادىء وأهداف تنظيم الضباط الاحرار .

أخي القارىء الكريم :—

أجدني مكرهاً على الوقوف بك عند هذا المنعطف من مواقفي على درب الزمان، وذلك لنفاد المساحة المخصصة لهذا الجزء مـــن الكتاب ونزولا على حكم ضرورات فنية وأخرى عملية ، على ان نواصل مسيرتنا معاً في سراديب الحياة السياسية ومراكز القوى والصراع فيها خلال الجزء الثاني من هذا الكتاب وهو قيد الطبع الآن ، وسيكون ميسوراً للراغبين باذن الله في وقت قريب جداً .

فالحمد لله على توفيقه ، وآيات الشكر والعرفان موصولة لكل من ساهم في ايناع هذا الغرس حتى تدلت قطوفه،

والشكر كل الشكر لك عزيزى القارىء الكريم، فما كان لهذا الجهد أن يثمر ويدرك غايته بغير تفضلك بالاقبال عليه، وإلى اللقاء مع الجزء الثاني من هذا الكتاب (مواقف على على درب الزمان) وبالله التوفيق .

المؤلف :—



موضوعات الكتاب



المؤلف :

* من مواليد ١٥ أكتوبر ١٩٣٤م - مدينة سنجة - مديرية النيل الازرق.
* تخرج فى الكلية الحربية السودانية عام ١٩٦٠م وانتسب من بعد الى ، جامعة القاهرة فرع الخرطوم وأحرز ليسانس الأداب شعبة الفلسفة بتفوق
* حصل بامتياز على دبلوم الاعلام العالى من جامعة الخرطوم شعبة الدراسات الاضافية .
* تلقى كل الفرق التأهيلية والحتمية بالمدارس العسكرية السودانية وأوفد بعدها الى كل من بريطانيا والاردن وتكرر إيفاده الى مصر .
* نال - إبان خدمته العسكرية - وسام الشجاعة الطبقة الاولى وسام الجدارة الطبقة الاولى نوط الواجب الطبقة الاولى ووسام ثورة مايو .
* صدر للمؤلف تراجم ومؤلفات من بينها :
* كتاب (الاستخدام التكتيكى للمدرعات) دراسة عسكرية.
كتاب (نيجريا بين الأمس واليوم) تاريخ سياسى .
* كتاب (قبس من الفكر والتاريخ) من جزءين بحوث فى الفكر
* (هو وهى) مسرحية من فصلين .
التاريخ والتراث
* (حكم أب تكو) مسرحية من فصلين .
* (البوش) مسرحية من فصلين .
* (اللواء الأبيض) دراما إذاعية تؤرخ لأحداث ثورة ١٩٢٤م فى السودان فى ستين حلقة .
* إضافة الى إسهامه الموصول فى المجلات السياسية والأدبية والصحف السيارة باللغتين ـ العربية والانجليزية